البراهين الأحمدية

(الأجزاء الأربعة)

حضرة مرزا غلام أحمد القادياني

المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

البراهين الأحمدية

(الأجزاء الأربعة)

حضرة مرزا غلام أحمد القادياني
المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

ترجمة: عبد المجيد عامر

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: البراهين الأحمدية (الجزء الأول إلى الرابع)

الطبعة الأولى: ١٤٣٤ هـ /٢٠١٣م

Al-Barāhīnul-Aḥmadiyya
(Parts 1 to 4)

By: ***Ḥaḍrat Mirzā Ghulām Aḥmad*** (Peace be on him)*, the Promised Messiah and Mahdi, Founder of the Aḥmadiyya Muslim Jamā'at.*

(Arabic Translation)

Arabic translation of Barāhīn-e-Aḥmadiyya---Al-Barāhīnul Aḥmadiyya 'alā Ḥaqqiyyat-e-Kitābillāhil-Qur'ān-e-Wan-Nubuwwatil-Muḥammadiyyah.

Translated from Urdu by: Abdul Majeed Amir

Published in the UK in 2013

Published by:
Al-Shirkatul Islamiyyah Limited
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Tilford

ISBN : 978-1-84880-431-9


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم
وعلى عبده المسيح الموعود

مقدمة الناشر

يسرّنا أن نقدّم إلى إخواننا الناطقين بالضادّ ترجمة كتابٍ مهمٍّ لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي ، وهو البراهين الأحمدية بأجزائه الأربعة الأولى.

هذا الكتاب العظيم درة فريدة من نوعها؛ فهو أعظم نهضةٍ بالإسلام في أشدّ أوقاته حُلكةً. لقد حوّل المؤلف في هذا الكتاب موقفَ الإسلام من الدفاع المتخاذل إلى الهجوم الواثق. إن الكتاب يُظهر بوضوحٍ حماسَ مؤلّفه منقطع النظير في النهوض بالإسلام وإعادتِه قويًّا ناصعًا كما بدأ.

في هذه الطبعة نشير إلى ما يلي:

(١) هناك هوامش وضَعها المسيح الموعود نفسه، وكَتَبَ - عمومًا - عند نهايتها: "مِنه"، أي: من المؤلف.

(٢) وهناك هوامش توضيحية من المترجم أيضا ومُيِّزت عن الهوامش الأصلية *بالخط المائل*، وكُتب في نهايتها (المترجم).

(٣) كل ما هو بخط مائل فليس من أصل النص، بل هو إضافة من المترجم للضرورة، وذلك مثل عبارة "ترجمة الأبيات" ليعرف القارئ أن الموضوع أصله شعر لا نثر، وكذلك ترجمة بعض الإلهامات الأردية إلى العربية ليعرف القارئ أنها مترجمة وليست نصًّا.

(٤) بإذن من سيدنا أمير المؤمنين نصره الله، أخّرنا الحاشية رقم ١١ – التي تبدأ من صفحة ١٩٥- إلى أخر الكتاب، كما تخلّلها أربع حواشٍ طويلة، فجعلناها في آخر الكتاب بعدها بالترتيب.

نسأل الله تعالى أن ينتفع الناس عامة، والعرب خاصة، بهذا الكتاب الجليل الذي حظي بشرف ترجمته الداعيةُ عبد المجيد عامر الذي وضع اللمسات الأخيرة على هذا العمل الفريد بجوار بيت الله العظيم وروضة النبيّ المبارك في نيسان/أبريل من عام ٢٠١١م، فكان بذلك للترجمة العربية لكتاب خاتم الخلفاء مناسبة بتلك الأماكن المقدسة، فجزاه الله تعالى خير الجزاء، آمين.

كما ندعو الله تعالى أن يجزي خيرًا كل مَن ساهم في مراجعته وإخراجه، ونخصّ منهم السادة الأفاضل: سيد عبد الحي المرحوم، سيد عاشق حسين، سيد مبشر أحمد أياز، د. وسام البراقي، د. علي البراقي، خالد عزام، فتحي عبد السلام، غسان النقيب، حسام النقيب، معتز القزق، بشير عابدين، تميم أبو دقة، هاني طاهر، محمد طاهر نديم، محمد أحمد نعيم، عبد المؤمن طاهر.

وقد وضع الفهارسَ السادةُ: مير أنجم برويز، مسعود أحمد سليم، طارق خليل، حسن العابدين، محمد العاني والأخت سها كلبونة. فجزاهم الله خيرا في الدارين، آمين.

الناشر

أبريل/نيسان ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي علي رسوله الكريم

التعريف بالبراهين الأحمدية

(بقلم: جلال الدين شمس رضي الله عنه)

لقد نُشر الجزء الأول والثاني من البراهين الأحمدية في ١٨٨٠م والجزء الثالث في ١٨٨٢م والجزء الرابع في ١٨٨٤م للمرة الأولى. في هذه الفترة كان الحكم الإنجليزي في أوجه، وكان الدعاة المسيحيون عاكفين على تبليغ المسيحية بكل قوة وشدة. وقد أُنشئت "منظمات الكتاب المقدس" في كل مكان وبأعداد هائلة، ونُشرت ضد الإسلام ومؤسسه مئات الكتب ووُزّعت النشرات مجانا بالملايين. يمكن تقدير سرعة انتشار المسيحية من أن عددهم في الهند في عام ١٨٥١م كان ٩١ ألف مسيحي، أما في عام ١٨٨١م فقد بلغ هذا العدد إلى ٤٧٠ ألفا.

ومن ناحية أخرى كانت الحركات الهندوسية مثل "آريا سماج" و"برهمو سماج" في أَوجها في تلك الأيام، وكانت تجعل الإسلام عرضة لاعتراضاتها. وكان الإسلام محاطا بالأعداء من كل حدب وصوب. وكان الهدف الوحيد لكل هذه الحركات هو القضاء على الإسلام وتشويه صدق القرآن الكريم ومؤسس الإسلام ﷺ أمام العالم كله. ما كان الآريا الهندوس يؤمنون بأيّ كتاب موحى به بعد الفيدا، أما فرقة برهمو سماج الهندوسية فكانت تنكر

الوحي الإلهي نهائيا، وكانت تعتقد بأن في العقل وحده كفاية للنجاة. وأما المثقفون من المسلمين فكانوا متأثرين بفلسفة أوروبا الضالة، وبدأوا ينكرون الوحي الإلهي نظرا إلى التقدّم المادي للبلاد المسيحية. ومن ناحية ثانية كانت حرب التكفير بين حزب المشايخ حامية الوطيس. لقد صوّر الشاعر الأردي المعروف في القارة الهندية حالة الإسلام الجديرة بالرثاء في عام ١٨٧٩م في شعره بعنوان: "المسدّس"، فقال ما معناه: "لم يبق من الدين ومن الإسلام إلا اسمهما".

ثم شبّه الملة الإسلامية بحديقة وقال:

"ترى هذه الحديقة خربة تماما، حيث يعلو فيها الغبار في كل حدب وصوب.

لم يعد للنضرة أيّ أثر، وقد يبست الأغصان الخضراء وسقطت.

لم تعُدْ أشجارها قادرة على حمل الأزهار والأثمار بل صارت جديرة بالحرق.

ويصدر صوت مستمر بأن هذه هي حديقة الإسلام الخربة."

ففي ظلِّ هذه الظروف التي بدأ فيها صدق القرآن الكريم والنبي ﷺ يشتبهان على الذين كانوا يسمون أنفسهم مسلمين، وبالتالي سقط كثير منهم في أحضان المسيحية، ألّف المسيح الموعود عليه السلام "البراهين الأحمدية"، وأثبت فيه أن القرآن الكريم كلام الله تعالى وكتاب كامل وعديم النظير، كما أثبت بأدلة قاطعة ودامغة أن النبي ﷺ نبي صادق، وأعلن جائزة عشرة آلاف روبية لأعداء الإسلام إذا استطاعوا تقديم ثلث أو ربع أو خُمس الأدلة التي قدّمها، ودعا كل معارض للإسلام للمواجهة.

تأثير البراهين الأحمدية

لقد تشجّعَ المسلمون كثيرًا بعد نشر هذا الكتاب. فقد لخّص المولوي محمد حسين البطالوي الذي كان يُعتبَر زعيمًا لفئة أهل الحديث هذا الكتاب، ثم عبّر عن رأيه فيه قائلا:

"والآن أُبدي رأيي بإيجاز شديد ودون أدنى شائبة من المبالغة، وهو أننا حين نضع هذا العصر وأحواله في الاعتبار أرى أنه لم يُنشر مثل هذا الكتاب منذ بدء الإسلام إلى هذا اليوم، ولا ندري ماذا يمكن أن يحدث في مستقبل الأيام، لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرا.

لقد أثبت المؤلف أنه رجل مثابر في خدمة الإسلام، بالقلم واللسان، والحال والمال، وغير ذلك، حتى إنه من النادر أن تجد له مثيلا بين المسلمين. ومن اعتبر قولنا هذا مبالغة تمشّيًا مع أسلوب أهل آسيا، فعليه أن يدلّنا على كتاب واحد على الأقلّ تصدَّى لأعداء الإسلام، وخاصة للآريا سماج والبرهمو سماج بكل قوة وبرهان، وعليه أن يقدّم لنا أسماء ثلاثة أو أربعة ممن قدموا للإسلام خدمات مثل ما قدم هذا الرجل، وعليه أن يعدّد لنا بضعة أشخاص بمثل هذه الصفات الذين اضطلعوا بأعباء خدمة الإسلام بالمال والنفس والقلم واللسان والحال أيضا، والذين تحدّوا أعداء الإسلام ومعارضي الوحي وقالوا بأن الذي يرتاب في نزول الوحي فليتقدم إلينا ليشاهد ما يرتاب فيه، بل إنهم أذاقوا الملل الأخرى طعم التجربة والمشاهدة أيضا." (مجلة إشاعة السنة المجلد ٧ رقم ٦ الصفحة ١٦٩-١٧٠)

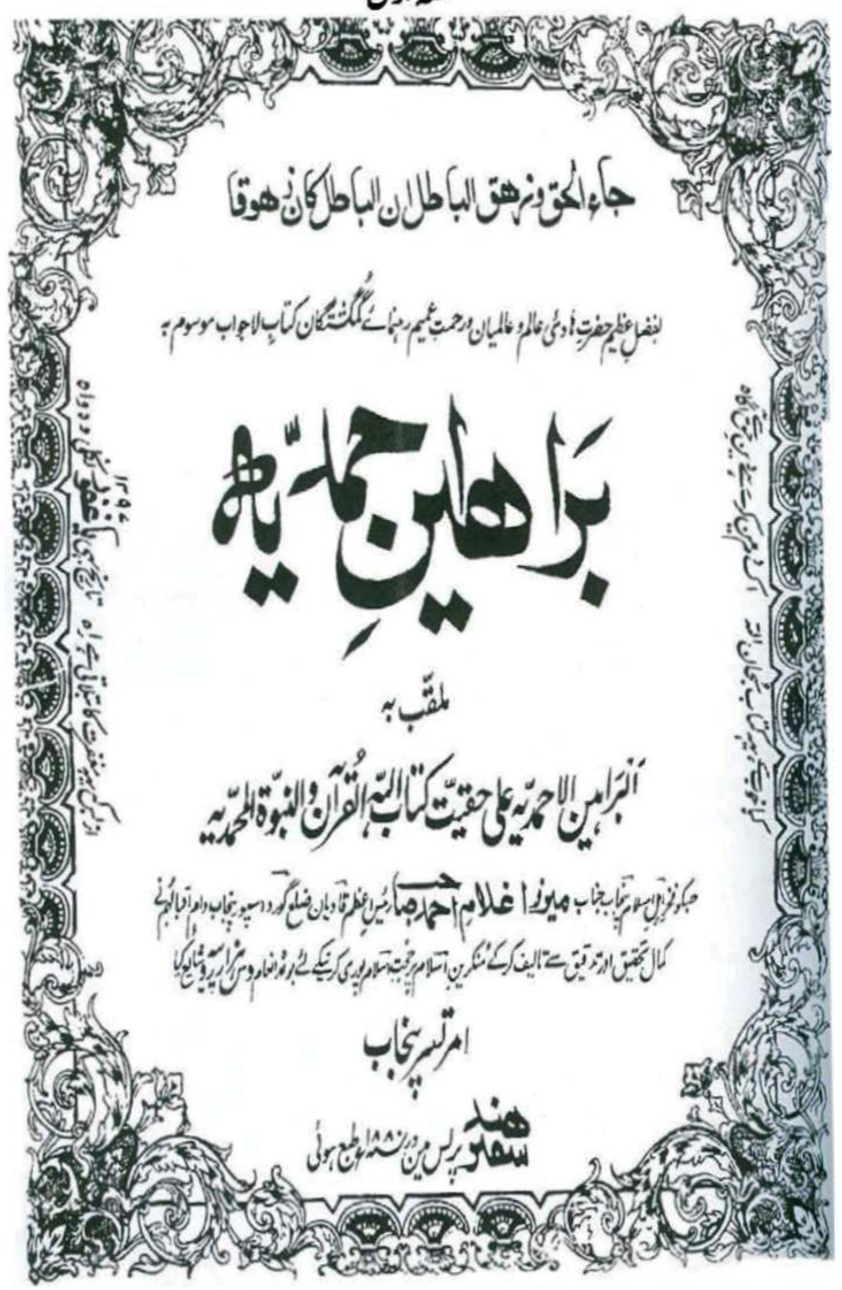
إنه الكتاب الجليل الذي أثبت كونه عديم النظير نظرًا إلى حاجة عصره، وقد عجز منكرو الإسلام جميعا عن مبارزته، فحقّق الإسلام انتصارا عظيما. لقد تمّتْ مناشدة المسلمين عواما وخواصا وأغنياء لدعم طباعة هذا الكتاب الجليل، ولكن لم يدفع النقود إلا بضعة من المسلمين إما مساعدةً أو ثمنًا للكتاب سلفا. لقد سجل المؤلف أسماء هؤلاء في الصفحة ١٠-١٢ من الكتاب بمن فيهم نوّاب الولايات ووزراؤها مع ذكر المبلغ الذي دفعوه وهو أقل من خمس مئة روبية. فشكر حضرته المساعدين وذكر السبب وراء تسجيل أسمائهم فقال:

"لكي يدعو بالخير لمساعديَّ كلُّ مستفيض يسعد بقراءة هذا الكتاب ما بقي نقشه في صحيفة العالم من حيث الإفادة والإفاضة."

(البراهين الأحمدية الأجزاء الأربعة، الخزائن الروحانية ج١ ص ٥)

العبد المتواضع

جلال الدين شمس



ٹائیٹل بار اوّل

حصہ اوّل

جاء الحق وزہق الباطل ان الباطل کان زہوقا

بفضل عظیم حضرت ادنی عالم و عالمیان ورحمت عمیم رہنمائے گمگشتگان کتاب لاجواب موسوم بہ

براہین احمدیہ

ملقب بہ

البراہین الاحمدیہ علی حقیقت کتاب اللہ القرآن والنبوۃ المحمدیہ

جسکو فخر اہل اسلام پنجاب جناب میرزا غلام احمد صاحب رئیس اعظم قادیان ضلع گورداسپور پنجاب دام اقبالہٗ نے کمال تحقیق اور تدقیق سے تالیف کر کے منکرین اسلام پر حجت اسلام پوری کرنیکے لئے بعوض انعام دس ہزار روپیہ کے شائع کیا

امرتسر پنجاب

سفیر ہند پریس میں ۱۸۸۰ء طبع ہوئی

صفحة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

(الجزء الأول المنشور في عام ۱۸۸۰)

ترجمة غلاف الجزء الأول للطبعة الأولى

(تعريب بيتين بالأردو)

ما أجمل هذا الكتاب، سبحان الله! فهو يهدي إلى الدين الحق في لمح البصر ويرشد إلى طريق المغفرة سريعا، وعام نشر هذا الكتاب هو ١٢٩٧هـ وهو يساوي مجموعة أحرف "يا غفور" في حساب الجمّل، فيا لها من مصادفة رائعة.

﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

بفضل الله العظيم هادي العالمين ومرشد الضالين وبرحمته العميمة

أَلّفَ هذا الكتابَ العديم النظير بعنوان:

البراهين الأحمدية

الموسوم بـ

البراهين الأحمدية على حقيّة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية

بكمال التحقيق والتدقيق فخرُ مسلمي البنجاب السيد ميرزا غلام أحمد، زعيم قاديان، محافظة غورداسبور البنجاب - دام إقباله - لإتمام حجة الإسلام على منكريه مع وعدِ جائزةٍ قدرها عشرة آلاف روبية وطبعه في مطبعة سفير هند أمرتسر البنجاب في عام ١٨٨٠م.

إعلان

ثمن كتاب "البراهين الأحمدية" والتماس مهم آخر

أعلِن لجميع مشتري كتاب "البراهين الأحمدية" الكرام أن الكتاب ضخم جدا وقد يتجاوز حجمه مئة جزئية، وقد يزداد أكثر بسبب الحواشي التي ستتخلله بين حين وآخر إلى أن ينتهي الكتاب. وحيث إنه سيُطبع على ورق عالي الجودة وبخط جميل آخذا بالحسبان أمورا أخرى مثل مقتضيات الجودة والجمال والروعة، فإننا توصلنا بعد حساب النفقات إلى أن سعر الكُلفة للنسخة الواحدة يبلغ ٢٥ روبية، ولكنه حُدّد بخمس روبيات بدايةً؛ بناء على اقتراح بأن ينتشر الكتاب بين المسلمين بوجه عام بأي شكل من الأشكال، وألا يشق شراؤه على أحد من المسلمين. كنت آمل أن يدعم المسلمون الأثرياء ذوو الهمم العالية وأولو العزم هذا الكتاب المهم بإخلاص القلب، وبذلك سيُعوَّض هذا النقص. ولكن هذا الأمل لم يتحقق إلى الآن، بل إن معظم الناس لم يشتروا أكثر من نسخة أو نسختين منه، إلا السيد "خليفة سيد محمد حسن خان بهادر" المحترم، رئيس الوزراء في ولاية بتياله في البنجاب؛ الذي اشترى خمسين نسخة للتوزيع على الطلاب الفقراء، وأرسل الثمن كله بحسبما نُشر في الإعلان، وكذلك أعان كثيرا في تسويقه بين المشترين ووعد بمزيد من المساعدة أيضا بطرق عديدة؛ فجزاه الله على هذا العمل الخيِّر ورزقه أجرا عظيما. ولكن معظم المشترين لم يشتروا أكثر من نسخة أو نسختين. وواقع الأمر أنني حددت ثمن النسخة بعشر روبيات بدلا من خمس، وذلك كما ذُكر في الإعلان المنشور في ٣-١٢-١٨٧٩م، ومع ذلك يبقى هذا الثمن دون

الكلفة بمرة ونصف. ولكن الذين دفعوا الثمن قبل نشر الإعلان مستثنون من القيمة المحددة أخيرا. ونقول بواسطة هذا الإعلان للمشترين الكرام الذين نسجل أسماءهم في الهامش[1] بكل اعتزاز، ولغيرهم من الأثرياء ذوي الهمم العالية والعاكفين على نصرة دين الإسلام؛ ألا يقصّروا في المساعدة في عمل الثواب الذي مآله إعلاء كلمة الإسلام، ولن تقتصر فائدته عليهم هم أنفسهم فقط، بل ستظل الفائدة تصل إلى آلافٍ من عباد الله على الدوام، إذ ما مِن عمل صالح أعظم بحسب قول النبي ﷺ من أن يبذل المرء قدراته في أمور ينال بها عبادُ الله سعادة أخروية. فلو توجّه هؤلاء الممدوحون بعنايتهم إلى ذلك، فسوف تتم بكل سهولة هذه المهمة التي يحتاج إنجازها إلى مبالغ كبيرة، مع أن التفكير فيها في الظروف الحالية يشكّل أعباء ثقيلة وعديدة. وآمل أن لا يدَع الله تعالى مهمتنا الضرورية هذه تفشل، وكما أن أمور هذا الدين ظلت تتم بصورة

---

[1] ١- السيدة نواب شاه جهان بيجوم المحترمة بألقابها، حاكمة ولاية بهوبال.

٢- السيد نواب علاء الدين أحمد خان بهادر، والي ولاية لوهارو.

٣- السيد المولوي محمد جراغ علي خان المحترم، نائب معتمد مدار المهام، دولة آصفية حيدر آباد دكن.

٤- السيد غلام قادر خان، الوزير في ولاية برناله غرهـ، البنجاب.

٥- النواب مكرم الدولة بهادر، حيدر آباد.

٦- النواب نظير الدولة بهادر، بهوبال.

٧- النواب سلطان الدولة بهادر، بهوبال.

٨- النواب محمد علي خان بهادر، لدهيانه، البنجاب.

٩- النواب غلام محبوب سبحاني خان صاحب بهادر، الزعيم الأعظم في لاهور.

١٠- السيد سردار غلام محمد خان، زعيم مدينة "واه".

١١- السيد ميرزا سعيد الدين أحمد خان صاحب بهادر، نائب المفوَّض في فيروز بور.

معجزة، فسيَهبُّ رجلٌ من الغيب لأدائها. توكّلنا على الله، هو نعم المولى ونعم النصير.

المعلن

مؤلف هذا الكتاب: ميرزا غلام أحمد، زعيم قاديان، محافظة غورداسبور، البنجاب

اعتذار

كان من المفروض أن يُطبع نصف هذا الكتاب إلى الآن، ولكنه تأخر إلى سبعة أشهر أو ثمانية بسبب اعتلال صحة مدير مطبعة "سفير هند" في أمرتسار بالبنجاب، إذ كان الكتاب قيد الطبع في مطبعته، وكذلك بناء على بعض الأمور الطارئة الأخرى. ونأمل ألا يحدث مثل هذا التأخير في المستقبل بإذن الله.

غلام أحمد

التماس مهم من المؤلف

كيف أؤدي شكر الله رب العالمين الذي وفّقني أولا أنا العبد الضعيف بمحض فضله ورحمته ولطفه من الغيب لإعداد هذا الكتاب وتأليفه، ثم حبّب إلى الزعماء المسلمين وصلحائهم وكبارهم وأثريائهم وغيرهم من الإخوة والمؤمنين والمسلمين، ورغّبهم ووجّههم إلى طبع هذا المؤلَّف وإشاعته ونشره. فمن الواجب أن أشكر هنا جميع الإخوة المعاونين الذين بسبب توجّهاتهم الكريمة سلمتْ **أهدافي الدينية** وجهودي من الضياع. إنني ممتنّ لإعانة هؤلاء السادة لدرجة لا أجد كلمات لأداء شكرهم، وخاصة حين أرى أن بعض السادة قد تسابقوا في دعم هذا العمل الخيِّر، وبعضهم وعد بمساعدات إضافية، يزداد امتناني وشكري أكثر من ذي قبل.

لقد زيّنتُ ذيل هذه الفقرة بأسماء مباركة لجميع هؤلاء الأبطال أولي العزم والهمم العالية الذين قدّموا شيئا لشراء الكتاب وتبرّعوا لطبعه، مع ذكر المبالغ التي تبرعوا بها. وسيبقى الحال على هذا المنوال إلى نهاية طبع الكتاب، لكي يدعو بالخير لي ولمساعديَّ كلٌّ مستفيض يسعد بهذا الكتاب ما بقي نقشه في صحيفة العالم من حيث الإفادة والإفاضة.

لا بد من الذكر هنا بوجه خاص أن **السيد خليفة سيد محمد حسن خان بهادر، رئيس الوزراء** في ولاية "بتياله" قدّم، إلى يومنا هذا، مساعدة مالية أكثر من غيره في هذا العمل الخيِّر. فقد قدّم مشكورا بناء على علوّ همته وكمال حبه للدين مبلغا قدره ٢٥٠ روبية من جيبه الخاص و٧٥ روبية أخرى قد جمعها من أصدقائه، وبذلك دفع ٣٢٥ روبية لشراء نسخٍ من الكتاب. وإضافة إلى ذلك فقد وعد السيد الوزير الممدوح المذكور آنفا في رسالته الموقرة أنه سيسعى جاهدا لدفع التبرع وإيجاد المشترين إلى نهاية مشروع الكتاب. وكذلك فإن السيد فخر الدولة؛ النواب مرزا محمد علاء الدين أحمد

خان بهادر، والي ولاية "لوهارو" قد أرسل أربعين روبية -منها عشرون روبية لدعم الكتاب فقط- ووعد بالمساعدة بذلك في المستقبل أيضا. كما أن السيدة النواب شاه جهان بيجوم، تاج الهند، رئيسة ولاية بهوبال -دام مجدُها مع حفظ الألقاب- جديرة بالشكر والامتنان الخاص؛ إذ قد وعدت بشراء نسخٍ من الكتاب نتيجة أخلاقها الفاضلة وبمقتضى مواساة خلق الله. وعندي أمل كبير أنْ تتنبّه جيدا هذه السيدة المفتخر بها إلى هذا العمل العظيم الذي هو مدعاة لتبيان صدق سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ وعظمته وتتجلى به أدلةُ صدق الإسلام كنهار ساطع، وينفعُ عباد الله تعالى إلى أقصى الدرجات.

أما الآن فأرى ضروريا أن أقول للأمراء والأكابر الآخرين الذين لم يعرفوا عن هذا الكتاب شيئا إلى الآن، بأنهم لو ساعدوا في نشره، لأُنجزت بكل سهولة -لمجرّد اهتمامهم بهذا الموضوع- مهمة طبعه ونشره؛ الذي هو مراد مهجتي وأمنية قلبي.

فيا أيها الكرام، ويا مصابيح الإسلام، أنتم تعرفون جيدا أن هناك حاجة ماسة في هذه الأيام إلى نشر أدلة صدق الإسلام، وإن تعليم الأولاد والأقارب هذا الدين المتين وتزويدهم ببراهين صدقه صار واجبا وفريضة واضحة الوجوب بحيث لم تعد هناك حاجة حتى للإيماء إليه. لا يخفى على أحد ذلك الاضطرابُ المطرد الذي حدث في معتقدات الناس في هذه الأيام، وما تطرق إلى أفكار معظم الطبائع من الفساد والتشويش. ولا تخفى أيضا الأفكار التي تظهر للعيان والرياحُ التي تهب في كل حدب وصوب، والثوائر التي تثور في القلوب. إن الذين لديهم أدنى إلمام بالرياح العاتية التي تقتلع الدوحات من جذورها يدركون أن هذا الكتاب لم يؤَلَّف بغير ضرورة ملحة. إن معتقدات باطلة وأفكارا فاسدة تظهر في كل عصر بصِبَغٍ مختلفة وأساليب متنوعة، وقد وضع الله تعالى علاجا لإبطالها وإزالتها بأن يهيئ في كل عصر من تلك العصور تأليفات تستنير بنور كلامه المقدس، وتهبُّ بكل قوة وصرامة للدفاع ضد تلك الأفكار، وتُسكت

المعاندين ببراهينها المفحمة وتدينهم. فهكذا تبقى شجرة الإسلام مخضرّة وغضَّة ومزدهرة دائما.

فيا أيها المسلمون الكرام، إنني موقن يقينا كاملا بأنه سبق أن اطّلعتم جيدا -بناء على تجربتكم الشخصية واطلاعكم العام- على مفاسد العصر الراهن التي تثير قصصها الألم. فلا تخفى عليكم المفاسد التي تتطرق إلى الطبائع، وكيف يفسد الناسُ نتيجة إغواء الموسوسين وإضلالهم. فهذا كله نتيجة جهل الناس بأدلة صدق الإسلام. وإذا كان هناك بعض المثقفين، فإن أفضل مرحلة من مراحل تحصيلهم وفهمهم وتفكّرهم وتدبرهم تضيع في دراسة العلوم والفنون الأخرى في الكتاتيب والمدارس التي لا تُدرَّس فيها العلوم الدينية قط، فيبقون جاهلين تماما بأمور الدين. فلو لم يُطلَعوا على أدلة صدق الإسلام في مرحلة مبكرة، لأصبحوا ديدان الدنيا في نهاية المطاف ولا يهمهم الدين بشيء، أو يلبسون لباس الإلحاد والارتداد. إن قولي هذا ليس مبنيا على التخمين فقط، بل رأيتُ أبناء كبار الأشراف أيضا بأم عيني قد جلسوا في الكنائس بعد أن تعمَّدوا بسبب جهلهم تعاليم الدين. لولا فضل الله العظيم ناصرُ الإسلام وحاميه، ولولا حفظ دينه الحق بخطابات العلماء والفضلاء وكتاباتهم القوية، لما مضت مدة قصيرة إلّا وكان الناس العاكفون على الدنيا يجهلون في أيّ بلد وُلد نبينا الأكرم ﷺ، وخاصة في العصر الراهن الذي يسوده الظلام الحالك وتكثر فيه الأفكار الفاسدة من كل حدب وصوب. ولو توقف الباحثون المسلمون -الذين يناظرون ويناقشون كل مُنكِر وملحد بكل قوة وثبات وبطولة- عن هذه الخدمة، لانمحى بعد مدة قصيرة شعار الإسلام وسُمِع من كل حدب وصوب Good Morning و Good bye بدلا من التحية المسنونة. إذًا، فإن الانصراف من الأعماق إلى نشر أدلة صدق الإسلام في هذا الوقت إنما هو رحمة بأولادنا نحن في الحقيقة؛ فحين تهب الرياح المسمومة في أيام الوباء يواجه الجميع خطر تأثيرها.

قد تخالج قلوب بعض الناس وسوسة عن هذا الكتاب فيقولوا: أليس في الكتب التي أُلِّفت إلى الآن في مجال المناظرات الدينية كفاية لإفحام الخصوم وإدانتهم حتى عنَّت الحاجة لهذا الكتاب؟ لهؤلاء أقول: أريد أن أرسّخ في الأذهان جيدا أن هناك فرقا هائلا بين فوائد هذا الكتاب وتلك المؤلفات؛ فقد أُلِّفت تلك الكتب لمواجهة فِرق معينة، وإن بيان كل منها وأدلته يقتصر على ما فيه الكفاية لإفحام فرقة معينة.

ومهما كانت تلك الكتب جيدة ومفيدة إلا أنه لا يستفيد منها إلا قوم معيّن أُلِّفت ضدهم. أما هذا الكتاب فيُثبت حقيّة الإسلام وصدق معتقداته مقابل جميع الفِرق، ويحقق بالبحوث والتحقيقات العامة صدقَ الفرقان المجيد على وجه الكمال. والمعلوم أن الحقائق والدقائق التي تنكشف عند البحوث العامة يستحيل انكشافها في المناظرات الخاصة. إن مَن يناظر قوما معينا لا يحتاج إلى أن يثبت ببحوثه العميقة والمستحكمة أمورا تسلِّم بها تلك الأقوام سلفا، بل يُستفاد في المناظرات الخاصة من الأجوبة الملزِمة في معظم الأحيان ولا يُتوجَّه إلى الأدلة العقلية إلا قليلا. والحق أن من طبيعة المناظرات الخاصة أن الإنسان لا يكون فيها بحاجة إلى البحوث الفلسفية، ولا يندرج فيها أكثر من خمسة بالمائة من الأدلة العقلية، دع عنك الأدلة الكاملة. فمثلا حين نناقش شخصا يؤمن بوجود خالق العالم ويقرّ بالإلهام ويؤمن بصفة الله "الخالق"، فلا حاجة لنا أن نثبت له وجود الخالق ببراهين عقلية أو نؤكد له على ضرورة الإلهام أو نسوق أدلة على صفة الله "الخالق". بل يكون من السخف تماما أن نتخاصم في أمر ليس متنازَعا فيه أصلا. ولكن مَن يضطر لمواجهة عقائد مختلفة وأفكار متجددة واعتراضات متنوعة وشبهات مختلفة فلا يبقى في بحوثه سقم أو نقص يدعو للملامة.

وبالإضافة إلى ذلك؛ إنّ ما يُكتب مقابل قوم معين، يتضمن في معظم الأحيان أدلة لا تكون حُجة على قوم آخرين. فمثلا لو استخرجنا بعض النبوءات من الكتاب المقدس وأثبتنا من خلالها صدق سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ

لأقمنا بها الحجة على اليهود والنصارى، ولكن لو قدّمنا الأدلة نفسها أمام هندوسي أو مجوسي أو فلسفي أو تابع لمذهب برهمو سماج، لقال حتما بأني لا أؤمن بتلك الكتب، فكيف لي أن أقبل ما اقتُبس منها من إثبات؟ كذلك لو استخرجنا شيئا مفيدا من الفيدا وقدمناه للمسيحيين لردّوا علينا بالكلام نفسه.

إذاً، كانت هناك حاجة ملحة لكتاب يثبت صدق الإسلام وحَقّيته مقابل كل دين بأدلة عقلية لا يسع أحدا إلا قبولها. فنحمد الله على أنه قد أُلّف هذا الكتاب لتحقيق هذه الأهداف كلها.

والميزة الأخرى لهذا الكتاب هي أنه قد رُوعي فيه جيدا دحضُ شبهات المعاندين الباطلة وإتمام حجتنا عليهم. فقد نشرنا فيه إعلانا عن جائزة عشرة آلاف روبية كيلا يكون لدى المنكرين عذر أو حيلة.

وإن هذا الإعلان سيشكّل على الخصوم عبئا ثقيلا لدرجة أنه لا يمكنهم التخلص منه إلى يوم القيامة، ويجعل حياتهم المنكرة مُرّة لا يدرك مرارتها سواهم.

فلُباب القول: إن هذا الكتاب ضروري جدا ومبارك جدا لطلاب الحق، ويتبين ويتألق به صدق الإسلام مثل شمس ساطعة، وتستبين عظمة ذلك الكتاب المجيد الذي به يرتبط شرف الإسلام وعظمته وصدقه.

قائمة أسماء الذين ساعدوا في طبع "البراهين الأحمدية" واشتروه مشكورين مواساةً للدين

فيما يلي أسماء المساعدين الذين أعانونا بشراء الكتاب أو بدفع مبلغ كمساعدة بحتة، مع ذكر المبلغ وتفصيله:

(١)السيد خليفة سيد محمد حسن خان بهادر رئيس الوزراء والدستور المعظم، ولاية بتياله، دفع ٣٢٥ روبية، منها ٢٥٠ روبية من جيبه الخاص لشراء الكتاب، وجمع ٧٥ روبية من أصدقائه التالية أسماؤهم:

السادة الأفاضل الذين دفعوا عن طريقه

(أ) المولوي فضل حكيم المحترم، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ب) خدا بخش خان المحترم، المدرس، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ج) سيد محمد علي المحترم المشرف على تعمير الثكنة، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(د) المولوي أحمد حسن المحترم خَلَف المولوي علي أحمد، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ه) السيد غلام نبي المحترم محرر في مديرية كرم غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(و) كالي خان المشرف في كرم غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ز) الشيخ الدكتور كريم الله المحترم، مشرف مديرية الصحة، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ح) شيخ فخر الدين المحترم، القاضي المدني، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ط) سيد عنايت علي المحترم، اللواء، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ي) بلو خان، عامل في قسم السجون، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ك) مير صدر الدين المحترم، موظف في مديرية كرم غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ل) مير هدايت حسين المقيم في "بَسِّي"، مديرية سرهند، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(م) سيد نياز علي المحترم، المشرف على قسم الأنهار، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(ن) سيد نثار علي المحترم، المحامي في محافظة أنباله، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(٢) السيد فخر الدولة نواب مرزا محمد علاء الدين أحمد خان بهادر، والي ولاية "لوهارو"، ٢٠ روبية لشراء الكتاب، و٢٠ روبية مساعدةً.

(٣) المولوي محمد چراغ علي خان صاحب بهادر، نائب المعتمد والمدير الأعلى، حيدر آباد دكن، ١٠ روبيات مساعدةً فقط لطباعة الكتاب

(٤) السيد نواب غلام محبوب سبحاني صاحب بهادر، الزعيم الأعلى بلاهور، ٥ روبيات مساعدةً لطباعة الكتاب.

(٥) محمد عبد الله المحترم، البهاري زعيم كالكوتا، ٥ روبيات مساعدةً لطباعة الكتاب.

(٦) السيد نواب مكرّم الدولة، المدير الأعلى في قسم المال، دولة حيدر آباد، ١٠ روبيات مساعدةً لطباعة الكتاب.

(٧) السيد نواب علي محمد خان صاحب بهادر، زعيم "جهجهر" الأسبق، ٥ روبيات مساعدةً لطباعة الكتاب.

(٨) وزير غلام قادر خان صاحب بهادر، ولاية ناله گره، ٥ روبيات مساعدةً لطباعة الكتاب.

(٩) ملك يار خان المحترم، مدير مخفر الشرطة في بطاله، روبيتين مساعدةً لطباعة الكتاب.

(١٠) عظيم الله خان، الموظف في الجيش، معسكر في مدينة مومن آباد، حيدر آباد، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(١١) المولوي عبد الحميد المحترم، قاضي جلال آباد، محافظة فيروز بور، روبيتين ونصف لشراء الكتاب.

(١٢) ميان جان محمد المحترم، من قاديان، روبية واحدة مساعدةً لطباعة الكتاب.

(١٣) ميان غلام قادر المحترم، من قاديان، ١٠ روبيات لشراء الكتاب و٥ روبيات مساعدةً لطباعة الكتاب.

(١٤) نواب أحمد علي خان صاحب بهادر، ولاية بهوبال، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(١٥) المولوي غلام علي المحترم، نائب المشرف في مديرية مظفر غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(١٦) ميان كريم بخش نائب المشرف في مديرية مظفر غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(١٧) قاضي محفوظ حسين، المشرف في مديرية مظفر غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(١٨) ميان جلال الدين المحترم، محرر التاريخ مظفر غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(١٩) شيخ عبد الكريم المحترم، محرر المحكمة مظفر غرهـ، ٥ روبيات لشراء الكتاب.

(٢٠) ميان أكبر، المقيم في بلهوال محافظة غورداسبور، ثُمن الروبية مساعدةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

"سبحانك ما أقوى برهانك! العظمة كلها لك، والقدرة كلها لك، العالم كله ضعيف والقوة كلها لك. أنت الأحد الصمد الذي توحّد في وجوب وُجوده، وتفرّد في فضله وَجُوده. جلّت حكمتك وتجلّت حجتك، وتمت نعمتك، وعمّت رحمتك، وتنــزه ذاتك عن كل منقصة ونقصان. وتعالى شأنك من جميع ما يُشان. أنت المتوحد المتفرد بجلال ذاته وكمال صفاته. المنــزّه عن شوائب النقص وسماته. نحمدك على ما تفضّلت علينا بتنــزيل كتاب لا ريب فيه ولا خطأ ولا نسيان. وكشفت به على نفوسنا الخاطئة المخطئة سبيل الحق والعرفان. فأنت هديتنا بالفضل والجُود والإحسان. وما كنا لنهتدي لولا هُداك يا رحمن.

ونسألك أن تصلي على رسولك النبي الأمي الذي نجيتنا به من سبل الضلالة والطغيان، وأخرجتنا به من ظلمات العمى والحرمان، الذي ظهر دينه الحق على كل دين من الأديان، وتقدّستْ ملته عن كل شرك وبدعة وعدوان، وسبقَت شريعته في كل معرفة وحكمة وبرهان. هو العبد المخلص الذي اصطنعته لمحبتك وتوحيدك. وجعلتَ أحبَّ إليه مِن نفسه ذكرَ تقديسك وتمجيدك. أرسلته رحمة للعالمين، وحجة على المنكرين وسراجا منيرا للسالكين وداعيا إلى الله للطالبين وبشيرا ومبشرا للمؤمنين، وإنسانا كاملا للناظرين. جاء بكتاب يحيط على القوانين الحكمية ويهدي إلى جميع السعادات الدينية. أكمل كثيرا من الناس في القوى النظرية والعملية، فجعلهم المتحلين بالأخلاق المرضية الإلهية والمتخلين عن الأدناس البشرية السفلية فأصبحوا بتعليمه المترقين في العلوم الحقيقية اليقينية والمتلذذين بالمحبة الربانية الأحدية والمستعدين لحظيرة القدس والتجليات القدوسية. اللهم

فصلّ عليه وعلى جميع إخوانه من الرسل والنبيين وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الصالحين الصديقين."

"[٢]إن العالَم كله يشهد في كل حين وآن أن له خالقا وصانعا حتما.
لا شريك له ولا مثيل، ولا شريك في أعماله وأسراره.
هو خالق هذا العالَم العظيم ولكنه أعظم وأعلى منه.
هو واحد لا شريك له، حيٌّ وقدير، موجود منذ الأزل ويبقى للأبد، فردٌ وبصير.
هو مدبر الكون، وقدّوس وأزلي، وخالق ورزاق وكريم ورحيم.
هو هادٍ ومعلِّم الدين، هادٍ وملهِمُ علومِ اليقين.
متَّصف بجميع الصفات الكاملة، وأسمى من الحاجة إلى الأهل والعيال.
يبقى بحال واحد في كل زمان، لا يدانيه الفناء ولا الزوال.
لا يخرج شيء عن حُكمه، لم يولَد مِن شيء، وليس كمثله شيء.
لا يمكن القول إنه يلامس الأشياء، ولا يمكن القول إنه بعيد عنا.
مع أنه فوق كل شيء، ولكن لا يمكن القول بأن تحته شيئا.
إنه أسمى وأعلى من كل ما يمكن أن يُفهم ويُعقل، ويُتصور.
لا مثيل له ولا نظير، وحيدٌ لا تحده حدود ولا تقيّده قيود.
لا كفوَ له على الإطلاق، ولا يساويه أحد في صفاته.
كل شيء خُلق بقدرته، وإن كثرة مخلوقاته تشهد على وحدته.
لو كان له من المخلوق شريكٌ، لانقلبت الدنيا رأسا على عقب.
إن وجوده الذي لا نظير له، منــزَّه عن صفات التراب وما خُلق من تراب.
لقد وضع سبحانه وتعالى حدودا لكل وجود، أما ذاته فأسمى من كل قيدٍ وحدٍّ.
إن الإنسان عبدٌ، ونفسه مقيدة في شراك مئات الأهواء والأطماع .
كذلك الشمس والقمر يسجدان لأمره ومسخّران في مدارهما ومستقرهما.

---

[٢] *ترجمة قصيدة فارسية. (المترجم)*

لا يقدر القمر على أن يطلع أثناء النهار حُرًّا طليقا.
كما لا يسع الشمس أن تضع قدمًا على عرش الليل.
إن الماء أيضا مسخَّر بأمره أن يكون له تأثير بارد دائما، فليس له خيار.
إن النار الملتهبة أيضا تابعة له ﷻ وهو الذي أودعها الحرارة المعهودة.
فلن تخفّ حرارتها مهما رجوتَ منها أيها الرجل.
إن جذوع الأشجار متأصلة في الأرض، وإن أقدامها مصفَّدة بالسلاسل القوية.
كل هذه الأشياء والأمور مرتبطة بوجوده ﷻ، وهي أدلة وآيات على وجوده.
يا ربّ الخلْق والعالمين، إن الخلق والدنيا منبهرون من قدرتك.
ما أعظم شأنك وشوكتك! وما أغرب أعمالك وصنعتك!!
لك الحمد منذ الأزل، فلا شريك لك فيه ولا كفو.
أنت وحيد وفريد وأزلي، ومنـــزَّهٌ عن الشريك والقرين.
لا نظير لك في العالَـــمين، فأنت وحدك إله العالَـــمين.
إن قدرتك غالبة على كل شيء، ولا أهمية لأيّ شيء مقارنة بجلالك.
إن خشيتك تحمي من كل خوف وخطر، والأكثر معرفة بك كان أكثر خشية.
إن الخلق يبحث عن ملاذ أحد وظلِّه وإنك أنت الملاذ لكل شيء.
إن ذكرك مفتاح كل معضلة، وكل فكرة ما عدا ذكرك تحزن القلب.
من يبكي في حضرتك بتضرع يستعيد حظه المفقود.
إن ألطافك لا تترك الطالبين، والسالك على سبلك لا يواجه خسارة.
إن محبك يُعرض عن غيرك حتمًا، لأنه إذا فوَّض أمره إليك فأنّى له أن يتوجه إلى غيرك.
يكفينا أنك حبيبنا، فالقلب واحد، والروح واحدة، فلا بد أن يكون الحبيب أيضا واحدا.
مَن كان على صلة بك في الخفاء نزلت رحمتك عليه جهارا نهارا.
مَن يتمسك بعتباتك بالصدق والإخلاص تُمطر النور على بابه وجدرانه.

مَن اعتصم بوجودك حبًّا وشوقا صلُحت أموره كلها، وتحققت مئات أمنياته.
مَن جاهد في سبيلك وَجدَك، ومن لم يتمرد عليك استنار وجهه.
ومَن فرّ مِن ظلِّ قُربك الظليلِ، واجه الذلة والهوان من كل باب طَرَقَه.
يا ربي فاغفر لي ذنوبي، واهدني إلى عتباتك.
اجعل في قلبي نورا وفي نفسي نورا، وطهِّرني من ذنوبي الخفية.
راعِ قلبي وأظهِر التحببَ والتودُّد، وفرِّجْ عني كروبي برحمتك.
أنت حبيبي في كِلا العالَــمينِ، وما أبتغيه منك هو ذاتك أنت".

مئات آلاف الحمد والثناء للقادر القدير الذي أظهر تجلّي قدرته العظيمة بخلق الأرواح والأجسام كلها بحُكمه وأمره دون مادة وهيولى، وأظهر آية فيوضه القديمة بتعليم جميع النفوس القدسية، أي الأنبياء، وتأديبِهم من لدنه دون معلّم ومدرّس. سبحان الله ما أرحمه، وكم هو منّانٌ ذلك الذات الذي بنفسه سوّى كل شيء لنا نحن الضعفاء دون استحقاقنا، وسخّر لوجودنا المادي الشمسَ والقمرَ والسحابَ والرياح! أما لروحانيتنا فقد أنزل -وفي وقت مناسب تماما- التوراةَ والإنجيل والفرقان والكتب السماوية كافة. آلاف الشكر لك يا ربَّنا، على أنك بنفسك هديتنا إلى سبيل معرفتك وأنقذتنا من أخطاء وهفوات فكرية وعقلية بإنزال كتبك المقدسة. والصلاة والسلام على سيد الرسل محمد المصطفى ﷺ وعلى آله وأصحابه، الذي أرشد إلى الصراط المستقيم عالَما ضالا، ذلك المربي النافع الذي هدى الخلق الضال إلى الصراط السوي من جديد، ذلك المحسن ذو المنة الذي خلّص الناس من بلاء الشرك والأوثان، ذلك النور وناشر النور، الذي نشر نور التوحيد في الدنيا، ذلك الطبيب ومعالج الدهر الذي ثبّت أقدام القلوب الفاسدة على عتبات الصلاح، ذلك الكريم، رمز الكرامة الذي سقى الأموات ماء الحياة، ذلك الرحيم المتعاطف الذي حزن للأمة وتأذى، ذلك الشجاع والبطل الذي انتشَلنا من فوّهة الموت، ذلك الإنسان الحليم المتفاني الذي أخضع رأسه في تربة العبودية وسوّى ذاته بالتراب،

ذلك الموحد الكامل وبحر العرفان الذي ما راقه إلا جلال الله، وأسقط غيره من نظره، إنه معجزة من قدرة الرحمن؛ الذي غلب في جميع العلوم الصادقة مع كونه أميّا، وأدان كل قوم على أخطائهم وتقصيراتهم.

"[٣]في قلبي يفور الثناء على ذلك السيد ﷺ الذي لا نظير له في الحسن والجمال.
الذي نفسه تعشق اللهَ الحبيب الأزلي، ووصلت روحه إلى ذلك الحبيب.
الذي جُذب إلى الله تعالى بألطافه، وتربّى في حضن الله مثل الطفل.
هو بحر عظيم للبِرِّ والكرم، وجوهرة عديمة المثال في الكمال.
هو كسحابة ماطرة في الربيع في الجود والسخاء، وهو شمس العطايا والجَدى.
هو رحيم وآية رحمة الحق ﷻ، هو كريم ومظهر جُود الله تعالى.
إن وجهه المبارك يجعل قبيح المنظر حسنَ الهيئة بنظرة واحدة.
ذلك القلب المنوَّر الذي نوّر كالنجوم قلوبا سوداء لا تُعدّ ولا تحصى.
قد جاء رحمةً من الله ربّ العالمين في ساعة مباركة.
هو أحمد الزمن الأخير الذي بنوره صارت قلوب الناس أكثر لمعانا من الشمس.
هو أكثر جمالا من بني آدم جميعا، وأكثر لمعانا من اللآلي.
إن ينبوع الحكمة متدفق على شفتيه، وفي قلبه كوثر المعارف.
قد طهّر نفسه من أجل الله مما سواه، فلا مثيل له في البَرِّ والبحر.
لقد أعطاه الحق ﷻ سراجا لا خطر عليه من ريح صرصر إلى الأبد.
هو بطل حضرة الله الجليل، وقد تمنطق الخنجر بكل شوكة وعظمة.
إن سهامه أثبتت حدّها في كل ميدان، وسيفه أبدى مضاءه في كل مكان.
قد أظهر على العالم عَجزَ الأوثان، وقد أظهر قوة القادر بحكمة بالغة.
لكيلا يجهل قدرةَ الله أحدٌ من مادحي الأوثان وعبّادها وصُنّاعها.
إنه يحب الحق والصدق والسداد، ويعادي الكذب والظلم والشر.

[٣] *ترجمة قصيدة فارسية. (المترجم)*

هو سيّدٌ ولكنه يعامل الضعفاء بتواضع، هو سيد ولكنه يضحي من أجل المساكين.
إن الألطاف التي وجدها الخلق عنده ﷺ لم يجدها أحدٌ حتى عند أمه.
إنه نشوان بخمر عشق الحبيب وواضع رأسه على التراب.
لقد نال كل قومٍ منه نورا، وقد لمع نوره في كل بلد.
إنه آية الله الرحمن لكل بصير، ودليل على الحق لكل صاحب بصيرة.
يأخذ بيد الضعفاء برحمة، ويواسي اليائسين بشفقة.
وجهه أكثر جمالا من الشمس والقمر، وتراب زقاقه أفضل من المسك والعنبر.
أنّى للشمس والقمر أن يماثلاه، فبنور الله تسطع في قلبه مئة شمس.
لو وقع النظر على ذلك الحُسن المتجسد لكان أفضل من الحياة الأبدية.
إنني مطلع على حسنه وجماله، فأضحّي من أجله بروحي إذا كان غيري يضحي بقلبه فقط.
تُلهيني عن نفسي ذكرى وجهه، وتجعلني نشوانا دائما كما تفعل كأس الخمر.
لو كانت بي قوة الطيران لطِرتُ إلى مدينة الحبيب دائما.
ما لي وللأزهار والريحان فإنني أعشق ذلك الوجه وذلك الذات.
يؤثر في الأعماق جمالُه، وتجذبني ذاتٌ قوية إلى نفسه بشوق وحب.
لقد رأيتُه نور الأبصار، وإن تأثير حبه كمثل شمس ساطعة.
لقد استنار وجهٌ لم يُعرض عنه، وقد أفلح من تمسك بعتبته.
مَن وضع قدمه في بحر الدين بدون صحبته، فقدْ فقدَ المعبر منذ أول خطوة.
هو أمّيٌّ ومع ذلك لا نظير له في العلم والحكمة، أيّ دليل أقوى من ذلك!
لقد سقاه الله شراب المعرفة فبُهت كل نجم أمام نوره.
بسببه ظهر للعيان جوهر الإنسان الذي كان مخفيا من قبل.
لقد خُتم كل كمال بنفسه الطاهرة، لذا فقد خُتم به الأنبياء.
إن نوره لكل بلد وزمان، وهو هادٍ لكل أسود وأحمر.
هو جامع صفات العلم والمعرفة، وقد اجتمعت فيه صفات السحاب والشمس.

لقد بحثتْ عيني كثيرا ولكن لم تجد في أيّ مكان عينا صافية مثل دينه.
لا إمام سواه للسالكين، ولا هادي سواه للباحثين عن الحق.
إنه يحتل مقاما يحترق فيه جناح جبريل وريشه من نور هذا المقام.
لقد أعطاه الله تعالى شريعة ودينا لن يتغير أبدا.
لقد كسر أوثان بلاد العرب بالتجلّي الأول ليعالج سكانها علاجا روحانيا.
ثم أحاط نور ذلك الدين والشريعة المقدسة بالعالم كما يحيطه ضوء الشمس.
وقد أعطى الخَلْق هدف الحياة من قِبل الله، وحرّرهم من فم الثعبان.
فمن ناحية سقط سلاطين زمنه في الحيرة، ومن ناحية أخرى ذهل كل عاقل.
لم يبلغ أحد مبلغ علمه أو قدرته، وقد كسر كِبر كل متكبِّر.
لا حاجة له لمدح أحد أو ثنائه، بل الحق أن مدحه مفخرة لكل مادح.
إنه متربع في روضة القدسية والجلال، وهو أسمى من أفكار المادحين.
بلِّغ يا ربنا سلامنا إليه وإلى إخوانه الرسل جميعا.
كل رسول كان نور الصدق، وكل رسول كان شمسا ساطعة.
كل رسول كان ظلا وملاذا للدين، وكان حديقة مثمرة.
لو لم تأتِ هذه الجماعة المقدسة إلى الدنيا لفسد أمر الدين تماما.
من لا يشكر الله على بعثتهم فإنه ينكر نِعم الله تعالى.
كلهم كاللآلي من صدف واحد، وبعضهم مثل بعض من حيث الذات والجوهر.
لم تكن في الدنيا أمة لم يأتها نذير.
أولهم آدم وآخرهم أحمد، فمبارك مَن استطاع أن يرى الأخير.
إن الأنبياء كلهم يملكون فطرة منيرة، ولكن أحمد ﷺ أكثرهم نورا.
كانوا كنوز المعرفة كلهم، وكل واحد منهم كان هاديا إلى سبيل الله.
كل من اطلع على توحيد الحق سبحانه وتعالى هو مدينٌ لأحد الأنبياء في ذلك.
وقد وصل هذا العلم كلّ شخص بتعليمهم فقط، وإن أنكر ذلك الآن استكبارا.
قوم ضال ونجس ينكرون هؤلاء الأطهار.

لم تسبر عينُهم غور الحق قط وإنما سوّدوا أوراق الكتب هراءً فقط.
انظر إلى تعاسة حظهم، إذ يفخرون بامتلاكهم العيون ويفرون من الشمس.
لو كانت العين غنية عن الشمس لما كان بَصَرُ أحدٍ أكثر حدة من الخفاش.
مَن كان أعمى وفي طريقه مئة حفرة، فمن المؤسف أن لا يكون له هادٍ أو دليل.
لقد ترسخ تصورٌ واهٍ في ذهن قوم آخرين لجهلهم.
هو: أن الخالق لم يخلق في الدنيا بلدا أجمل من بلدهم.
وأنه لا يحب وجها أكثر من وجههم الجميل.
لذا كان مستقره في هذا البلد منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد.
فلا يهتم ببلد آخر أبدا وإن مات أهلها في الضلال.
لقد أعطى قوما قليلين كتابا وترك مئات آلاف الشعوب دون اهتمام.
حين قسم الخير والشر بين الخلق منذ الأزل.
كان الصدق في نصيب هؤلاء القوم، ولم يكن في نصيب الآخرين إلا الكذب.
يقولون: قد جاء إلى غيرهم مئات الكذابين والمكارين.
ولم يأتهم أحد من الله لنشر الدين.
ليُريهم سبيل الله ويكشف كذب كل كاذب.
لكي تتم حجة الله العادل على كل مسلم ومسيحي.
فباختصار، إن الله تعالى أظلمُ عندهم من كل ظالم.
لأنه يترك عالَـــما في الضلال أسيرا في قبضة كل مكّار.
ويحب كالعاشق قوما واحدا فقط ويبقى على علاقة معهم دائما.
إنه لاعتقادٌ غبيٌّ جدا، والغباوة الأخرى لهذا القوم أنهم بذلك يفخرون.
وأخيرًا جعلهم هذا الاعتقاد السيئ والفكرة السيئة عميانا وبُكْمًا إلى حد كبير.
لقد أغمضوا عيونهم عن مئة ينبوع وسقطوا على إناء بسيط.
عادَوا الأنبياء بشدة، فالعياذ بالله من عداوة كل متكبر مثلهم.
العداوة التي ظهرت منهم تجاه الأطهار لا يتوقعها أحد حتى من الشياطين.

لا نظير للحمار في الحمق، ولكن في كل شعرة منهم يكمن مئة حمار.
لا علاقة لهم بالتحقيق والأدلة، ولا يركبون السفينة بصدق القلب.
لا يعرفون الدواء من تأثيره، ولا يعرفون الشجرة من ثمارها.
لا يسألون أحدا بتواضع ولا يستعملون فكرهم أيضا.
لا تبالي قلوبهم بالبحث والتحقيق ليعرفوا أيّ الأديان أفضل.
يتمسكون باعتقاد واحد ويخالفون مئات آلاف المعتقدات، ولا يبالون بالفرق بين القلة والكثرة.
لا تكنّ قلوبهم خشية الخالق ولا يفكرون بيوم الحشر.
قد أغلق أصحاب القلوب السوداء عيونَهم، وهم يحترقون بُغضا وضغينة كالثعبان.
يعرضون عن الحق قصدا معلّقين قلوبهم بالدنيا الفانية.
قد أقاموا في بيوتهم بأنفسهم منابر للوعظ المبني على الجهل باسم الحق.
انظروا، إن إلههم لغريب حقا ذلك الذي ظل يتغافل عن جميع البلاد قصدا منه.
إذ قد أحب لإلهامه لغة واحدة وبلدا صغيرا واحدا فقط للأبد.
كيف يمكن أن يكون هذا الاعتقاد صحيحا؟ وكيف يمكن أن يقود إليه العقل؟
كيف يمكن أن يسيء الظن بالصالحين، ذلك الذي هو صالح ويجالس الصلحاء؟
ما من سبّة أشنع من أن يقال عن القمر بأنه ليس شيئا يُذكر.
إذا قال الأعمى أين الشمسُ لافتضح أكثر في عماه.
فلا تشكّنّ في الشمس الساطعة حتى لا تُلام.
إذا كنتَ طالبا سبل الله فلماذا تختار الاعوجاج؟ ولماذا لا تخاف غضب الله القهّار؟
لماذا لا تخاف يوم القيامة؟ ولماذا لا تخشى الله العدل المنصف؟
كيف حسبتَ كذبهم صدقا؟ هل كشف لك إلـــهُك شيئا بوضوح؟
إن نور الأنبياء جذب عالَـــمًا، ولكنك ما زلت متورطا في الفتنة والفساد يا أيها الأعمى.
فلو سمَّيت اللعل، العقيق اللامع، شيئا كدرا؛ فهل يحط ذلك من قيمته؟

إن طعنك في الأطهار لا يقع عليهم، بل تثبت بنفسك أنك أنت الفاجر.
إن بغضَ رجال الله ليس من البطولة في شيء، إن الإنسان هو من ليس بشرّير.
والذي يحترق في نار العداوة والكراهية يكون فريسةً سهلة للنفس الدنيئة.
إن عين الجاهل والأعمى والأعور أفضل بكثير من عين أهل الضغائن.
تبًّا للبغض والتعنت، وعلى رؤوس أهل البُغضِ والعنادِ الرمادُ.
لا سبيل للوصول إلى الله العظيم سوى التمسك بالحق والصدق.
نحن فداء الأنبياء جميعا، وجالسون على عتباهم بتواضع.
نحن فداء كل رسول لأن ذلك الصادق قد أرانا سبيل الله.
فيا ربي، ببركة حزب هؤلاء الأنبياء الذين أرسلتهم بأفضال عظيمة.
هب لي معرفة أيضا كما وهبتَني قلبا، وأعطني خمرا أيضا كما أعطيتني كأسا.
يا ربي بوجه المصطفى ﷺ الذي كنت نصيره في كل موطن.
خذْ بيدي بلطفك ورحمتك، وكن حبيـــبي وناصري في جميع أموري.
إنني أتوكل على قدرتك وقوتك وإن كنتُ بحد ذاتي كالتراب بل أحقر منه".

أما بعد، فليتضح لطلاب الحق جميعا أن الهدف من وراء تأليف هذا الكتاب المسمّى بـــ "البراهين الأحمدية على حقيّة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية"، هو أن تُكشف على الناس جميعا بوضوح تام الأدلةُ على صدق الإسلام، والبراهينُ على حقيّة القرآن الكريم والأوجه الدالة على صدق سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ، ولكي يُدان ويُفحَم بطريق معقول وكامل كل مَن ينكر الدين المتين والكتاب المقدس القرآن الكريم والنبي المصطفى ﷺ حتى لا يبقى لهم مجال لمواجهة الإسلام في المستقبل.

وإن هذا الكتاب يشمل إعلانا ومقدمة وأربعة فصول وخاتمة. جعله الله مباركا لطلاب الحق وهدى بقراءته كثيرا إلى الدين الحق، آمين.

إعـــلانٌ

جائزةِ عشرة آلاف روبية للذين يُثبتون مشاركةَ كتابهم للفرقان المجيد في الأدلة والبراهين الصادقة التي سقناها منه، أما إذا كان كتابهم الموحَى به عاجزا تماما عن تقديم تلك الأدلة، فمن واجبهم أن يعترفوا بعجزه في مؤلّفاتهم، ويدحضوا على الأقل أدلتي واحدا بعد الآخر.

"أنا مؤلف هذا الكتاب "البراهين الأحمدية"، أنشر هذا الإعلان مع وعدٍ بعشرة آلاف روبية إتماما للحجة على أصحاب جميع الأديان والملل الذين ينكرون حقانية الفرقان المجيد ونبوة سيدنا محمد المصطفى ﷺ. وأقرّ إقرارا قانونيا صحيحا، وأتعهد عهدا جائزا شرعيا أنه إذا استطاع أحد المنكرين أن يُثبت من كتابه الموحى به مشاركةَ كتابه للفرقان المجيد في جميع البراهين والأدلة التي سُقناها، من هذا الكتاب المقدس نفسه، على حقيّة الفرقان المجيد وصدق رسالة سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ، أو إن لم يستطع تقديم العدد نفسه من الأدلة، فليستخرج نصفها أو ثلثها أو رُبعها أو خُمسها. أما إذا كان عاجزا عن ذلك فليدحض على الأقل أدلتي واحدًا بعد الآخر. ففي جميع تلك الحالات سأجعل -أنا المعلنُ- عقاري البالغ قيمته عشرة آلاف روبية تحت تصرف هذا المجيب دون عذر وتردد، بشرط أن يشهد ثلاثة حكام عادلين - متفقٌ عليهم من قِبل الفريقين- على أن الشرط قد تحقق كما كان مفروضا. ولكن يجب أن يكون واضحا أنهم لو عجزوا عن تقديم أدلة معقولة من كتابهم، أو لم يقدروا على تقديم حتى الـــخُمس كما اشتُرط في الإعلان، لوجب عليهم أن يكتبوا بصراحة تامة أنهم عجزوا وقصُر باعهم في الإيفاء بهذا الشق لكون كتابهم غير كامل أو غير معقول. وإذا قدموا الأدلة

المطلوبة، فليتذكروا أني لا أقصد من سماحي وترخيصي لهم بتقديم خُمس الأدلة أن يقدموا النصف أو الثلث أو الربع أو الخُمس من مجموع أدلتنا دون تمييز، بل هذا الشرط يتعلق بكل صنف من الأدلة. فعليهم أن يقدموا النصف أو الثُلث أو الرُبع أو الخُمس من كل صنف مما قدمتُه من البراهين.

وقد يتعذر على أحد أن يفهم مرادنا من "صنف الأدلة" في العبارة المذكورة، فأقول شرحا لتلك الفقرة: إن أدلة القرآن وبراهينه التي تُثبت حقيّة هذا الكلام المقدس وصدق رسالة النبي ﷺ قسمان: أولا: الأدلة التي تمثّل الشهادة الداخلية أو الذاتية على صدق هذا الكتاب المقدس وصدق النبي ﷺ، أي الأدلة التي تُستَمَدّ من هذا الكتاب المقدس نفسه على كمالاته الذاتية، وتُستمَدّ من الخصال القدسية للنبي ﷺ وأخلاقه المرضية وصفاته الكاملة نفسها. والقسم الثاني يحتوي على الأدلة الخارجية التي تشكل شواهد قاطعة على صدق القرآن الكريم والنبي ﷺ، أي الأدلة المأخوذة من الأحداث الخارجية والأمور المتواترة المثبتة.

ثم كل قسم من هذه الأدلة هو على نوعين: الدليل البسيط، والدليل المركب. والمراد من الدليل البسيط هو الذي لا يحتاج لأن يلحق به أو ينضم إليه أمر لإثبات حقيّة القرآن الكريم وصدق رسالة النبي ﷺ. والمراد من الدليل المركب هو ذلك الذي يحتاج إلى مجموعة كُليَّة لتحقق دلالته، بحيث لو أُلقيت نظرة جامعة على جميع أجزائها لوُجدت المجموعة كلها في حالة عالية يستلزم تحقّقُها تحقُّقَ حقيّة الفرقان المجيد وصدق رسالة النبي ﷺ. وإذا شوهدت أجزاؤها منفصلة فلن تكون على مرتبة من البرهنة كما يجب. والسبب في هذا التفاوت هو أن كل مجموعة تختلف عن كل جزئية منفصلة من حيث الأحكام دائما. فمثلا يمكن لعشرة أشخاص أن يحملوا حِملا معينا مجتمعين، ولكن لو أراد كلٌّ واحد منهم أن يحمل الحِمل نفسه بمفرده لاستحال عليه ذلك. فإذا وُضع كل نوع من نوعَي الأدلة -أي البسيطة والمركّبة- في الاعتبار من حيث

صورها وهيئتها وأشكالها المختلفة فسمَّيتُها في هذا الكتاب "أصناف الدلائل".. فهذه هي الأصناف نفسها التي جُعل الالتزام بها في بداية هذا الإعلان شرطا بأن يقدم المتصدّي لمقابلة الفرقان المجيد نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها في حالة عجزه عن الإتيان بكل الأدلة من صنف واحد. ويجدر التوضيح أكثر في هذا المقام فنقول: أنه لو أراد أحد الإتيان من كتابه بنموذج للدليل المركب كما بيّنّاه آنفا لوجب عليه -إذا كان ذلك الدليل المركَّب يتكون من مجموعة أجزاء يشكّل كل جزء منها في حد ذاته دليلا على أمر ما- أن يقدمّ نموذجا واحدا على الأقل من كل الأدلة الجزئية أيضا.

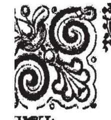
ولّما كان فهم هذا الشرط يحتاج إلى مثال، أسجّل هنا من الفرقان المجيد مثالا على دليل من الدلائل المركّبة والـمُثبتة على حقية الفرقان المجيد، وهو: إن التعليم المبدئي للفرقان المجيد يحتوي على الدلائل الحكمية.. أي أن الفرقان المجيد يُثبت بالبحث والتحقيق كل مبدأ عقديٍّ هو مدار النجاة، ويحقق صدقه بأدلة فلسفية قوية ومتينة؛ مثل إثبات وجود خالق العالم، وإثبات التوحيد، وإيراد أدلة قاطعة على ضرورة الإلهام وعدم عجزه عن إحقاق الحق وإبطال الباطل. وهو دليل عظيم على كون الفرقان المجيد من الله تعالى، وبه يثبت صدقه وأفضليته بوجه أكمل، لأنه لا يمكن لأحد أن يقوم دون تأييد إلهي وإلهام ربّاني بتنقية عقائد الدنيا الفاسدة بأدلة واضحة من كل نوع من الأخطاء، وبمحو كافة أنواع الشكوك والشبهات التي تسربت إلى قلوب الناس مقدما البراهين القاطعة، وبالإتيان بمجموعة المبادئ المدعومة بالأدلة الـمُحقّقة والـمُثبتة من كتابه بحيث لا يمكن العثور عليها في كتاب موحى به قبله، ولا يوجد حكيم أو فيلسوف قد اكتشف في أي زمن الصدقَ الحقيقي لمجموعة الأدلة هذه بقوة نظره وفكره وعقله واجتهاده وفهمه وإدراكه، أو مَن قدّم أدنى دليل على أن النبي ﷺ درس في كتّاب أو مدرسة ولو ليوم واحد، أو تعلَّم على يد أحد شيئا من العلوم المعقولة أو

المنقولة، أو أنه ﷺ قد صاحَب فلسفيًّا أو خالط مثقّفا في علم المنطق فتأثر به وأقام أدلة فلسفية على جميع المبادئ الحقة وكشف صدق كافة المعتقدات التي هي مدار النجاة بجلاء لا نظير له على صحيفة الدنيا. فهذا عمل لا يتمكن من إنجازه أحد قط دون تأييد الله وإلهامه. لذا فإن العقل يحكم مضطرًا حُكما قاطعا بأن القرآن الكريم كتاب الله الواحد الذي لا شريك له ولا يساوي علمُ إنسان علمَه. فقد قدمنا هذا الدليل على سبيل المثال من الأدلة المركبة التي يشكِّل كل جزء من أجزائها دليلا في حد ذاته. إذًا فإن أجزاء هذا الدليل كلها أدلةٌ أقيمت على العقائد الحقة. ولما كان هذا الدليل أيضا صنفا من أصناف الأدلة، لذا؛ ما دام من واجب المخاصم الإتيان بكافة أصناف الأدلة، فيجب عليه تقديم هذا الدليل أيضا. ولكن لتقديم هذا الدليل يجب عليه بيان كافة الأدلة التي يتألف ويتكون منها هذا الدليل أو يشملها من حيث وجودها الكلّي؛ مثل الدليل على إثبات وجود الخالق وإثبات التوحيد وإثبات قدرته التامة على الخلق وغيره، لأن تلك الأدلة هي أجزاء هذا الدليل. والمعلوم أن وجود الكل بدون وجود الأجزاء مستحيل، ولا يمكن وجود شيء دون أجزائه. فمن الواجب على المخاصم أن يقدم هذه الأدلة الجزئية كلها أيضا. ولكن من حق الخصم أنه حيثما قدّمنا خمسة أدلة مثلا لإثبات مبدأ ما، أن يقدم لإثباته أو إبطاله -بحسب رأيه واعتقاده- دليلا واحدا على الأقل من كتابه الموحى به، ملتزما بالشروط والحدود التي ذكرناها في هذا الإعلان.

المـعـلـن

العبد المتواضع، ميرزا غلام أحمد، من قاديان، محافظة غورداسبور، البنجاب





THE

BARÁHÍN-I-AHMADÍYAH,

ENTITLED

AL-BARÁHÍN-UL-AHMADÍYAH ALA-HAQQÍYÁT KITÁB-ULLAH-UL-QURÁN WAL NABUWAT-UL-MAHAMADIAH.

(DISCOURSES ON THE DIVINE ORIGIN OF THE HOLY QURAN, AND APOSTLESHIP OF MAHAMAD, THE PROPHET OF ISLAM,)

BY

MIRZÁ GULÁM AHMAD SÁHÍB, CHIEF OF QÁDÍÁN,

GURDASPORE DISTRICT, PUNJAB.

Amritsur:

PRINTED AT THE SAFÍR-I-HIND PRESS,

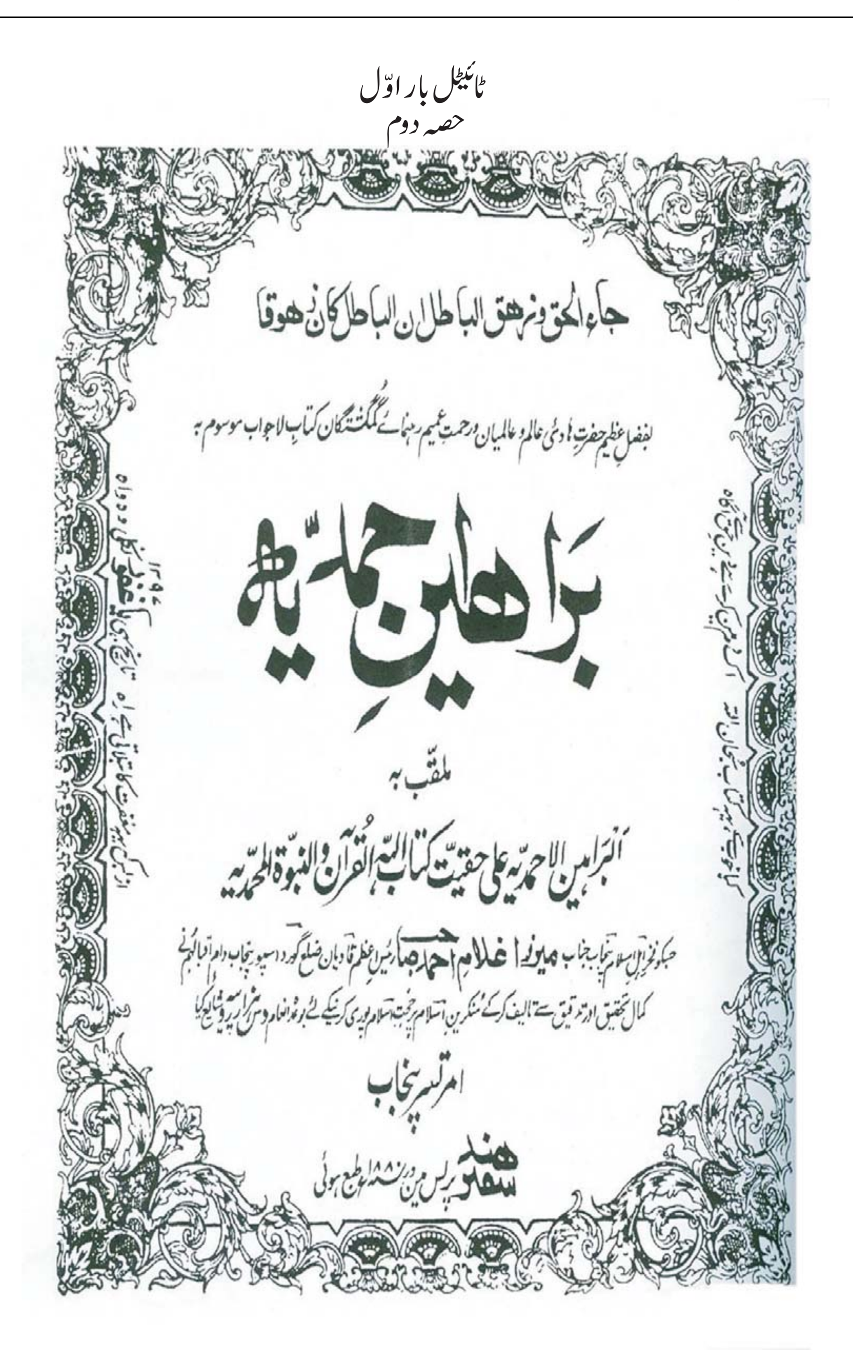
AMÍR ALI DÚLÁH PRINTER.

1880.

V. P. L.

This Book which is compiled after a most careful and elaborate investigation for the benefit and conviction of those dissenters, who deny the veracity of Islamism, is published with an offer of Rs. 10,000/- for its refutation, subject to the conditions contained in the preface. *Author.*

صفحة الغلاف الأخيرة للطبعة الأولى لهذا الكتاب (الجزء الأول)


ٹائیٹل بار اوّل
حصہ دوم

جاء الحق وزھق الباطل ان الباطل کان زھوقا

بفضلِ عظیم حضرتِ ہادیٔ عالم و عالمیان ورحمتِ عمیم رہنمائے گمگشتگان کتابِ لاجواب موسوم بہ

براہینِ احمدیہ

ملقّب بہ

البراہین الاحمدیہ علی حقیت کتاب اللہ القرآن والنبوۃ المحمدیہ

جسکو فخرِ اہلِ اسلام پنجاب جناب میرزا غلام احمد صاحب رئیسِ اعظم قادیان ضلع گورداسپور پنجاب دام اقبالہم نے
کمال تحقیق اور تدقیق سے تالیف کرکے منکرین اسلام پر حجت اسلام پوری کرنیکے لئے بشرط انعام دس ہزار روپیہ شائع کیا

امرتسر پنجاب

سفیر ہند پریس میں ۱۸۸۰ء طبع ہوئی

صفحة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

(الجزء الثاني المنشور في عام ١٨٨٠)

﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾
(الأنبياء: ٣٨)

تسرُّعُ معارضي "البراهين الأحمدية"[٤]

لقد نشر العديد من القساوسة والهندوس في جريدة "سفير هند" و"نور أفشان" ومجلة "وِدّيا بركاشك" -مدفوعين بحماس شديد- إعلانات مختلفة موجَّهة إلينا، وادّعوا فيها أهم سيكتبون ردّا على هذا الكتاب حتما. وقد استخدم بعضهم -مثل المنحطّين- كلمات فيها هجوٌ صريح تتضح منها طهارة طبعهم بجلاء، وكأهم يريدون أن يهددونا ويخوّفونا بخطاباهم المنحطة! ولكنهم لا يعرفون أننا مطلعون على كُنههم، ولا تخفى علينا أفكارهم الكاذبة والرذيلة والمنحطة، فأنّى لنا أن نخافهم وأنّى لهم أن يُخيفونا؟!

"حين يقدَّر الموت لليراعة، تسقط على السراج المضيء عُجبا وتجاسرا"[٥]

على أية حال، نرجو منهم أن يصبروا قليلا، ثم يُخرجوا كل ما في جُعبتهم بعد أن يُنشر جزء من فصول الكتاب. هناك تعبير -أردي- معروف يقول: لا خوف على الحق مطلقا. إننا على حق، ولا يمكن أن تقوم لقسيس أو بانديت قائمة أمامنا. وهل يمكن أن يضرنا هراء أحد؟ الحق أن هذه الأمور تفضح أمانة القساوسة والبانديتات أنفسهم، لأهم لم يقرأوا الكتاب بعد ولم يطلعوا على

---

[٤] *هذا الإعلان مطبوع في الطبعة الأولى والثالثة الأردية ولكنه ليس مطبوعا في الطبعة الثانية. (الناشر)*

[٥] *بيت فارسي مترجم. (المترجم)*

محتواه وبراهينه و لم يعرفوا مستوى بحوثه، ومع ذلك فتحوا أفواههم وادّعوا القدرة على كتابة الرد عليه. أهذا هو مستوى صدقهم وأمانتهم؟

يا مساكين، ما دمتم لم تطلعوا على أدلتي فكيف عرفتم أنكم ستقدرون على الرد عليها؟ إنه ما لم يُعثَر على حجة احتج بها أحد أو برهان أقامه أو دليل سطره، وما لم يُفحَص الكتاب ويعرف منه: أيُفيد اليقين أم بُنِيَ على الظنون، أَيحتوي على مقدمات صحيحة أو ضمَّ في طياته مغالطات فقط؛ فإن إبداء الرأي المضاد له والتباهي بالرد عليه، ليس إلا تعصبا محضا. فما دمتم قد عزمتم على كتابة الرد قبل اكتشاف الحقيقة الواقعة، فأنّى لنفوسكم الأمارة أن تتوقف عن الزيف والتدليس والخيانة والدجل في كل صغيرة وكبيرة لتنالوا بطريقة أو أخرى شرف كتابة الرد.

لو كان في نياتكم شيء من الإخلاص وفي قلوبكم مسحة من الإنصاف، لأعلنتم بأنه إذا كانت الأدلة الواردة في الكتاب صحيحة وصادقة في الحقيقة لقبلناها على الرأس والعين، وإلا لكتبنا الرد عليها لإحقاق الحق. لو فعلتم ذلك لعُدِدتم منصفين عند المنصفين دون شك، ولسُمِّيتم ذوي بواطن نزيهة. ولكن لا نأمل أن يكون أي عدل في قلوب الذين لا يعدلون حتى مع الله سبحانه وتعالى.

وبعضهم قد أنكروا أنه سبحانه وتعالى خالق أصلا، وبعضهم اتخذوا من إله واحد ثلاثة آلهة، وبعضهم جعلوا له "الناصرة" مقاما، وبعضهم جرّوه إلى "أجودهيا"[٦].

فملخص الكلام: إني أناشدكم بالله جميعا ألا تدّخروا في مواجهتي أيّ جهد. فكونوا "أفلاطون"، أو تنكّروا في عباءة "بيكن" أو ائْتُوا بنظر "أرسطو" وفكره، أو استنجِدوا بآلهتكم الزائفة للمساعدة بإلحاح كالمضطرين، ثم انظُروا: هل يغلب إلـــهنا أو آلهتكم الباطلة؟ وما لم تردّوا على هذا الكتاب؛ فعليكم أن تعدّوا تكذيبَ الإسلام في الأسواق أمام العوام كالأنعام فعلا منافيا للحياء،

[٦] *الناصرة مدينة في فلسطين، ينسب لها المسيح عليه السلام، وأجودهيا مدينة في الهند. (المترجم)*

وكذلك عدُّ "الفيدا" من الله، أو وجود عِلم صادق جالسين في معابد الهندوس، أو عدّكم جميع الأنبياء الآخرين مفترين ليس من الحياء في شيء.

"يا أيها الناس؛ هلّا تخليتم عن العُجب والأنانية، وهلّا أصلحتم أنفسكم وأعمالكم؟

هلّا صرفتم قلوبكم عن الميل إلى الباطل؟ وهلّا رجعتم إلى الحق؟
حتّامَ تظلون غارقين في التعصب والتعنت؟ وهلا تقدمتم بقدَم صدق؟
كيف تردّون قولا محقّقا؟ هلّا قدمتم عذركم عائدين إلى الصواب؟
قولوا صدقا وحقا كيف تواجهون العالم، إن لم يكن لديكم جوابٌ؟".[٧]



[٧] *أبيات أردية مترجمة. (المترجم)*

إعلان مهم

إن تحديد ثمن كتاب "البراهين الأحمدية" بعشر روبيات، إنما هو في الحقيقية تخفيف وتخفيض للمسلمين فقط الذين لو كانت عندهم السعة في المال لما تأخروا عن نصرة الدين المتين؛ أما أتباع الديانات أو المِلل الأخرى الذين يريدون أن يشتروه، فسيُطلَب منهم الثمن بكامله كما نُشر في الإعلان في الجزء الأول؛ إذ لا يُتوقَّع منهم أية مساعدة.

المعلن

مؤلف البراهين الأحمدية

التماس مهم في حالة الاضطرار

إن نقاط الضعف التي تلازم طبيعة الإنسان دائما تجعله محتاجا إلى التمدن والتعاون المتبادل على الدوام. وإن الحاجة إلى التمدن والتعاون أمر بديهي لا يرفضه عاقل. إن تركيبة كياننا هي الدليل الأول على ضرورة التعاون. لقد كُوِّنت أيدينا وأقدامنا وآذاننا وأنوفنا وعيوننا وغيرها من الأعضاء وقوانا الداخلية والخارجية كلها بأسلوب يحتم أنه لو لم يساعد بعضها بعضا لما أمكن أن تتم أعمالنا بسلامة قط، بل ستبقى الآلة البشرية معطلةً. فالعمل الذي يحتاج إنجازه إلى اجتماع يدين اثنتين لا يمكن إنجازُه بيد واحدة. والطريق الذي تطويه القدمان الاثنتان معا لا يُطوَى بقدم واحدة. كذلك إن نجاحنا في الدنيا والآخرة كله موقوف على التعاون المتبادل. هل لأحد أن ينجز عملا دينيا أو دنيويا وحده؟ كلا، بل لا يستقيم عملٌ سواء أكان دينيا أو دنيويا دون التعاون المتبادل. فكل حزب يُعنَى بهدف واحد وغاية متوخاة واحدة، بعضهم لبعضٍ كالأعضاء. ولا يمكن أن يتم عمل بهدف مشترك بينهم على خير ما يرام دون تعاون متبادل، ولا سيما تلك الأعمال الجليلة التي غايتها المتوخاة هي فائدة عظيمة للجمهور، فلا يمكن أن تتحقق إلا بالتعاون المتبادل بين الجمهور، ولا يطيق شخص واحد أن يتحمّلها وحده مطلقا، و لم يطقْ ذلك أحد من قبل.

إن الأنبياء عليهم السلام -مع أنهم أكثر الناس توكّلا وتفويضا لأمورهم إلى الله وأكثرهم تحمّلا وجُهدا في فعل الخيرات- اضطروا أيضا للقول: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ﴾[5] مراعاة للأسباب الظاهرية كما أمَر الله تعالى أيضا في قانونه التشريعي: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[6] مصدقا لقانونه الطبيعي. ولكن من المؤسف حقا أن كثيرا من المسلمين قد نسوا هذا الأصل المبارك، ونبذوا وراء ظهورهم كليًّا ذلك الأصل العظيم الذي هو مدار التقدم وازدهار الدين كله. أما الأمم الأخرى التي ليس في كتبهم الموحى بها أدنى تركيز على ذلك، فهم

يعملون من أعماقهم بمضمون "تعاونوا" رغبةً في نشر دينهم. وإن أفكارهم الدينية في انتشار مستمر يوما إثر يوم بسبب تعاونهم المتبادل على المستوى القومي. خذوا الأمة المسيحية مثلا؛ فترون اليوم كم هم متحمسون من الأعماق لنشر دينهم، وكم يبذلون من جهودٍ مضنية وكبيرة في سبيل ذلك. إذ تجد مئات الآلاف بل الملايين من الروبيات في حوزهم دائما فقط لطباعة مؤلَّفات جديدة ونشرها. إن شخصا واحدا على مستوى متوسط من الثراء من أوروبا أو أميركا، ينفق من النقود من جيبه الخاص لنشر تعليم الإنجيل ما لا يمكن لكبار الأغنياء من المسلمين أن يعادلوه في النفقة مجتمعين أيضا. لا شك في أنه يوجد في الهند جالية كبيرة من المسلمين، وبعضهم يملكون الثروة والسعة المالية أيضا، ولكن معظمهم -ما عدا جماعة صغيرة من الأمراء والوزراء وأصحاب المناصب- ذوو همم ضعيفة ومنقبضو الخواطر وبخلاء إلى درجة كبيرة، وإن أفكارهم لمحصورةٌ في الأهواء النفسانية فقط، وأذهانهم تعفنت من مواد الإهمال الرديئة. إنهم لا يعيرون الدين وحاجاته أدنى اهتمام، غير أنهم يكونون جاهزين لبذل كل ما ادّخروه في سبيل الجاه والأنانية. المسلمون ذوو الهمم العالية المخلصون للدين، الذين ينفقون في سبيل الله -مثل مخدومنا السيد "خليفة سيد محمد حسن خان بهادر" رئيس الوزراء في ولاية بتياله- قليلون جدا ولا حاجة لعدهم على الأصابع أيضا.

إضافة إلى ذلك؛ إذا أنفق بعض الناس شيئا قليلا في سبيل الدين، فإنما ذلك تقليدا محضا وليس بنية سدِّ حاجة حقيقية. فمثلا لو رأى أحد غيره يبني مسجدا، لقام منافسا بالعمل نفسه تقليدا له، وينفق آلاف الروبيات سواء أكانت هناك ضرورة حقة لوجود مسجد أم لا. ولا يفكر أحد أن نشر علم الدين هو الأهم في العصر الراهن والجدير بالأولوية على كل شيء. ولا يدركون أنه إذا لم يعد الناس ملتزمين بالدين فمن الذي سيصلي في تلك المساجد. إنهم يستهدفون تقويةَ الدين وعلوَّه بمآذن متينة وعالية من الحجر

فحسب، ويريدون تزيين الدين بقطع الرخام الجميلة فقط، ولا يرفعون نظرهم إلى المتانة والعلوّ والجمال الروحاني الذي يقدمه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[٨]، ولا يعيرون أدنى اهتمام لإراءة ظلّ ظليل لهذه الشجرة الطيبة، بل يتشبثون بالظاهر فقط مثل اليهود. لا يؤدون فرائض الدين في محلها ولا يعرفون كيفية أدائها ولا يتوجّهون إلى معرفتها قط.

ومن المسلَّم به أن كثيرا من الأموال تخرج كل عام من أيدي قومنا باسم الصدقات المزعومة، ولكن مع الأسف الشديد لا يعرف معظمهم ما هي الحسنة الحقيقية، ولا يهتمون بأصلح الطرق وأنسبها لبذل الأموال، بل ينفقونها في غير محلها مغمضين عيونهم، فيستنفدون غالب رغبة عواطفهم القلبية في هذا الإنفاق في غير محله. ثم يقصر باعهم تماما عن أداء الفريضة الحقيقية في حينها. ويريدون أن يتداركوا إسرافهم وإفراطهم السابق بالتفريط وتركِ ما وجب. هذه هي سيرة هؤلاء الذين لا تتدفق فيهم قوة الفيض والإفادة انبعاثا عن روح صادقة، بل تثور من طمع خاص بهم.

فمثلا عندما يصبح أحدهم شيخا فانيا يفكر في حيلة للراحة الأخروية، ويطمع في حيازة بيت جاهز في الجنة ببناء مسجد. أما عن موقفهم المواسي والمتوقع تجاه ما هو عمل صالح ضروري وحقيقي فالحق أنه لو غرقت سفينة الدين أمام أعينهم، ولو دُمِّر الدين دفعة واحدة، لما ارتجفت قلوبهم قط، فهم لا يهتمون مطلقًا ببقاء الدين أو فنائه. لا همّ ولا حزن لهم إلا للدنيا فقط، ولا حب في قلوبهم إلا حب الدنيا، ولا صفقة مرغوب فيها لديهم إلا صفقة الدنيا. ومع ذلك لم ينالوا الدنيا أيضا كما نالتها الأمم الأخرى. كل من يسعى لإصلاح القوم نراه يشكو ويبكي على عدم اهتمامهم. ومِن كل حدب وصوب تتصاعد أصوات: يا حسرة على القوم! ولهذا فإني أكشف ما يدور في خلدي بغض النظر عما يقوله الآخرون.

---

[٨] *إبراهيم: ٢٥*

لقد ألّفتُ "البراهين الأحمدية" نظرا إلى انتشار مئات أنواع الفوضى والفساد. وأُثبت فيه صدق الإسلام وتفوّقه في الحقيقة بوضوح أكثر من وضوح الشمس بثلاث مئة دليل قوي ومحكَم. ولما كان ذلك فتحا عظيما على المعاندين وأمنية قلبية للمؤمنين، فقد عقدتُ أملا كبيرا على علوّ همم الأغنياء من المسلمين أن يقدِّروا هذا الكتاب المنقطع النظير أيما تقدير، ويتوجهوا قلبا وقالبا إلى رفع المشاكل الحائلة دون طبعه، ولكن ماذا أقول وماذا أكتب؟ الله المستعان والله خير وأبقى.

إن بعض الناس تسببوا في قلقي الشديد لإهمالهم أمر المساعدة. كنتُ قد أرسلت نحو مئة وخمسين نسخة من الجزء الأول المطبوع من قبلُ إلى كبار الحكام والأثرياء والزعماء، آملاً أن يوافق الحكام أولو الهمم العالية على شراء الكتاب وأن يرسلوا ثمنه سلفا، وهو مبلغ زهيد جدا، وتوقعتُ أن تُنجزَ بسهولةٍ تامةٍ -بمساعدتهم بهذه الطريقة- هذه المهمة الدينية، فيستفيد منها آلاف من عباد الله. فبناء على هذا الأمل بعثنا لهم نحو مئة وخمسين رسالةً وطلبًا وأطلعناهم على واقع الحال بكل تواضع، ولكن لزم الجميعُ الصمتَ -ما عدا اثنين أو ثلاثة من ذوي الهمة العالية- ولم يصلني أيّ رد على الرسائل، ولم تُعَد أو تردَّ الكتب أيضا، وضاعت رسوم البريد كلها على أية حال. وإن لم تُردَّ إلي الكتب -لا سمح الله- لواجهت مشكلة وخسارة مالية كبيرة. والأسف كل الأسف على أنه قد أصابنا من إخواننا الكرام إيذاءٌ شديد بدلا من المساعدة. فإذا كانت حماية الإسلام هكذا، فهيهات لأمر الدين.

أقول بكل تواضع؛ إذا كنتم لا ترون مناسبا دفع ثمن الكتب سلفا، فأعيدوا لنا الكتب بالبريد، ولسوف نحسبها هدية عظمى ومنّة كبيرة. وإلا سنواجه خسارة عظمى ونضطر لإعادة طباعة الأجزاء المفقودة؛ فما هي بجريدة حتى لا يكون في ضياع عدد من أعدادها غضاضة. بل الحق أن كل جزء من الكتاب ضروري بحيث يصبح الكتاب ناقصا نتيجة ضياعه. فأناشد وأرجو من إخواننا

الكرام ألا يواجهوا هذا الموضوع بالفتور والإهمال، وألا يهملوا الدين بسبب انشغالهم في الدنيا، ويفكروا في مشكلتنا أنه إذا لم تكن عندنا أجزاء الكتاب كاملة فماذا سنعطي للمشترين، وكيف يمكن أن نستلم منهم سلفا ثمن الكتاب الذي تتوقف عليه طباعته. إن ذلك سيؤدي إلى توقف العمل كله وسنواجه المشاكل بغير حق في أمر الدين الذي يشكل قاسما مشتركا بين الجميع.

"إن المرء يتوقع الخير من الآخرين بوجه عام، غير أنني لا أتوقع منك خيرا ولكن لا تؤذِني على الأقل"[٩]

وهناك محنة أخرى نواجهها من لسان بعض قليلي الفهم؛ وهي أن بعض الناس -الذين ليس رأيهم صائبا في أمور الدين، وذلك بسبب قلة اهتمامهم بها- يعرقلون مهمتنا بأقوالهم المبنية على النفاق بدلا من إبداء الحماس لله وفي الله -وذلك بعد أن اطلعوا على حقيقة أن إعداد كتاب "البراهين الأحمدية" يكلّف تسعة آلاف روبية- والتوجه إلى المساعدة بمواساة قلبية لجبر الخسارة المالية التي نواجهها نتيجة خفض ثمن الكتاب وكثرة نفقات طبعه. ويقولون للناس ألا تكفي الكتب الموجودة سابقا؟ وما حاجتنا لهذا الكتاب من جديد؟

ومع أننا لا نهتم باعتراضاتهم ولا نبالي بها، ونعرف أن الناس الماديين يهدفون دائما إلى أمر معين من وراء كل ما يقولون، ويتهرّبون بهذه الطريقة من أداء الفرائض الدينية كعادتهم حتى لا يضطروا لإنفاق ولو مليم واحد لسد ثغرة الحاجة الدينية. ولكنهم ما داموا يريدون أن يستخفّوا بجهدنا البالغ ويحرموا الناس من فوائده العظيمة -مع أننا قد شرحنا في الجزء الأول أسباب ضرورة الكتاب- ولكنهم مع ذلك لا يتوقفون عن اللسع بحُمّاتهم بمقتضى طبعهم، لذا أوضّح الأمر مرة أخرى، خشية أن ينخدع أحد بأقوالهم الفارغة، وأقول بأن "البراهين الأحمدية" لم يؤلَّف دون حاجة ماسة. بل لو أن الغرض والهدف الذي من أجله ألّفتُ هذا الكتاب قد تحقق بكتاب من الكتب السابقة لاكتفيتُ به

[٩] *بيت فارسي مترجم، (المترجم)*

ولتوجّهتُ إلى نشره قلبا وقالبا. ولما كانت بي حاجة للقيام بجهد شاق إلى عدة أعوام وبذل جزءٍ لا بأس به من وقتي الثمين للقيام بعمل ما هو إلا تحصيل حاصل. ولكني -بقدر ما أجلتُ النظر فإنني- ما وجدتُ كتابا يجمع في طياته جميع الأدلة والبراهين التي جمعتُها في هذا الكتاب وأحسب نشرها ضروريا جدا في العصر الراهن لإثبات صدق الإسلام. ولـــمّا وجدت هذا الأمر واجبا عليَّ اضطررت لتأليف هذا الكتاب. ولو شك أحد في بياني هذا فليستخرج لي كتابا مثله لأطَّلع عليه أنا أيضا، وإلا فإن التفوه بالهراء والكلام الفارغ ومنعَ الناس من ينبوع الفيض عيب كبير.

ولكن يجب أن يكون معلوما أنني لا أهدف من هذا الكلام مدحَ نفسي، بل الحق أن البحوث التي قمتُ بها و لم يقم بها أحد من العلماء الكبار الأسلاف، أو الأدلة التي سجّلتُها و لم يسجّلوها، لهو أمرٌ يتعلق بظروف العصر، ولا يضيف إلى مرتبتي المتواضعة شيئا ولا يحط من سموِّ مراتبهم، إذ قد وجدوا زمنا لم تنتشر فيه الأفكار الفاسدة إلا قليلا، وكانت ظاهرة تقليد الآباء والأجداد الناتجة عن الغفلة شائعةً، فاختار هؤلاء الصلحاء في مؤلَّفاتهم أسلوبا كانت فيه الكفاية لإصلاح ذلك الزمن. أما نحن فوجدنا زمنا لم تعد الأفكار الفاسدة لشدتها على ما كانت عليه من قبل، بل ظهرت للعيان حاجة لبحوث مكثفة لتُصلح كما يجب المفاسدَ الشديدة المعاصرة.

ويجدر الانتباه أيضا إلى تساؤل وهو أنه : لماذا تطرأ الحاجة إلى مؤلَّفات جديدة في أزمنة مختلفة؟ إن السبب في ذلك هو نفسه الذي ذكرناه من قبل، أيْ أن المفاسد تقلّ في زمن وتكثر في زمن آخر، وتأخذ في زمن ما صبغة مختلفة، وتنتشر في غيره بأسلوب آخر. فيجب على من يريد تأليف كتاب يقضي على تلك الأفكار أن ينظر مثل الطبيب الحاذق إلى طبيعة الفساد وكيفيته وكمّيته، ويعمل بخطة الإصلاح على قدر ما ينبغي وعلى نحو ما ينبغي، وأن يصلح الفساد بقدر انتشاره وبحسب نوعيته. ويختار أسلوبا يؤدي إلى إزالة المرض

بوجه أحسن وأسهل؛ لأنه لو لم يتم في مؤلَّف تدارك حالة المخاطَبين بما يناسب الوضع، لكان المؤلَّف واهيا وعبثيا وعديم الجدوى تماما، ولما كانت في بياناته قوة تغوص إلى أغوار طبيعة الـــمُنكِر وتستأصل كليا ما يخالج قلبه. فلو تأمل المعترضون علينا جيدا لانكشف عليهم بيقين كامل أن أنواع المفاسد وأقسامها المنتشرة في العصر الراهن تختلف جذريا عن المفاسد السابقة. فالزمن الذي انقضى لتوه كان زمن تقليد مبني على الجهل، أما الزمن الذي نشهده الآن فقد أُسيء فيه استخدام العقل. والحق أن التقليد غير المعقول قد أفسد معظم الناس من قبل، أما الآن فقد أفسد الكثيرَ الخطأُ في الأفكار والنظريات. لذا فإن الأدلة العميقة والبراهين القاطعة التي احتجنا إلى تدوينها، ما احتاج إليها أولئك الصلحاء والعلماء الكرام الذين ألّفوا كتبا، وذلك نظرا إلى غلبة التقاليد المبنية على الجهل فقط. إن التنوير الحديث في زمننا -وتبًّا لهذا التنوير- يؤدي إلى ذبول القوى الروحانية لدى المثقفين الجدد. لقد ترسّخ في أذهانهم تعظيم أنفسهم بدلا من تعظيم الله ﷻ، وبدلا من الاهتداء بهدي الله نصّبوا أنفسهم هداةً. مع أن جميع المثقَّفين بثقافة حديثة تقريبا ميّالون بطبعهم إلى أدلة عقلية، ولكن من المؤسف حقا أن الميلَ نفسه -بسبب عقلهم الناقص وقصور علمهم- أضلَّهم بدل أن يكون هاديا لهم. إن الاعوجاج في الفكر والنظر أدخل في اجتهادات الناس أخطاءً كثيرة. وبسبب كثرة الرواة وانتشار الأفكار المتنوعة فقد واجه قليلو الفهم مصاعب هائلة. إن الخطابات السفسطائية أنشأت في طبائع المثقفين الجدد معضلات متنوعة. وقد حُجِبت عن أعينهم الأمور التي كانت معقولة للغاية، أما الأمور غير المعقولة البتة فيحسبونها حقائق من الدرجة العليا. يحسبون الأمور التي تغاير نشأة الإنسانية حضارةً، أما الحضارة الحقيقية فينظرون إليها باستخفاف واحتقار. فلعلاج هؤلاء الناس الذين يدّعون -جالسين في بيوتهم- أنهم محققون ويثنون على أنفسهم بأنفسهم، قد ألَّفت كتاب "البراهين الأحمدية"؛ وهو يحتوي على ثلاث مئة دليل عقلي قاطع لإثبات

صدق القرآن الكريم الذي يُعرض عنه هؤلاء الناس بكمال الزهو والاستكبار، لأنه من أجلى البديهيات أن الذي يضل الطريق بسبب العقل لا يقتنع إلا بالعقل، ومن ضل الطريق نتيجة العقل لا يعود إلى الصراط السويّ إلا بالعقل.

والآن يجدر بكل مؤمن أن يفكر إلى أيّ مدى يمكن أن يفيد عباد الله كتابٌ نُشر فيه ثلاث مئة دليل عقلي على صدق القرآن الكريم ودُحضت وأُزيلتْ به شبهات الخصوم كلها، وإلى أيّ مدى سيزدهر الإسلام وكم ستسطع شوكته وجلاله بنشره. ولا يهمل دعم مثل هذا المشروع المهم إلا الذين لا ينظرون إلى حالة العصر الراهنة، ولا ينظرون إلى المفاسد المنتشرة، ولا يفكرون في عواقب الأمور، أو الذين ليست لهم أدنى علاقة بالدين ولا يحبون الله ورسوله قط.

فيا أيها الأحبة؛ لا يمكن تمكين الدين في هذا الزمن المليء بالمفاسد إلا إذا أظهرنا قوة أدلة صدق الدين أيضا مقابل قوة طوفان الضلال، وذدنا عنه بقوة صدقه العظيمة من الهجمات الخارجية التي توجَّه إليه من كل حدب وصوب. إن الظلمة الحالكة التي قد علَت وجه الزمان لا يمكن إزالتها إلا إذا سطعت براهين صدق الدين في الدنيا بكثرة، وتراءت موجات صدقه متدفقة من كل جانب. ففي هذا الزمن الأغبر لا يمكن لكتابِ مناظرةٍ أن يجمع الشمل الروحاني إلا الذي يكشف عن كنه دقائق الماهية الحقيقية بالتحقيق العميق، ويوصل إلى المستقر الأصلي للحقيقة التي تتوقف على معرفتها طمأنينة القلوب.

أيها الكرام؛ لقد حان أوانٌ من المحال فيه أن يحميَ أحد دينه بغير الأدلة العقلية من الدرجة العالية، وإلا فهي أمنية لن تتحقق. انظروا بأنفسكم كيف يتطرق التمرد إلى الطبائع وكيف يتسرب الفساد إلى الأفكار؟ هذا هو التأثير السلبي الذي تركه تقدم العلوم العقلية في هذا الزمن. إنّ تحرُّرا غريبا في طبائع المثقفين المعاصرين لهو في ازدياد مستمر. والسعادة التي تكمن في البساطة والمسكنة وصفاء الباطن قد تلاشت من قلوبهم المستكبرة نهائيا. إن معظم الأفكار التي يتعلّمونها تترك تأثيرا يؤدي إلى خلق وساوس الإلحاد في قلوبهم.

وترى أن صبغة الفلسفة تعلو طبائع معظم الناس بسبب غلبة الجهل المركّب قبل أن يصلوا إلى مرتبة التحقيق الكامل.

تعالوا، ارحموا أولادكم وقومكم ومواطنيكم، واجذِبوهم إلى الصدق والحق قبل أن يُجذبوا إلى الباطل، حتى تُرحموا وتُرحم ذريتكم، وذلك لكي يعلم الجميع أنه لا حقيقة للأديان الأخرى كلها مقابل الإسلام. إن قانون الله في الطبيعة والجاري في الدنيا هو أن الجهد والسعي يوصل إلى المطلوب في معظم الحالات، أما الذي يجلس عاطلا وغافلا فيحرَم ويبقى خاوي الوفاض عادة. فإذا سعيتم لنشر صدق الإسلام -الذي هو الصدق والحق في الواقع- فلن يُضيع الله سعيكم. لقد أعطاني الله تعالى مئات البراهين القاطعة على صدق الإسلام، وليس في جعبة خصومنا ولا واحد منها. وقد رزقنا الله تعالى حقا محضا، وإن معارضينا على الباطل. والحماس الصادق الذي يوجد في قلوب الصادقين لإظهار جلال الله ما شمَّ خصومنا رائحته، ومع ذلك فإن للسعي الدؤوب ليل نهار تأثيرا يستفيد منه المبطلون أيضا، فهم أيضا يسترقونه من هنا وهناك بين الفينة والفينة. خذوا مثلا دين المسيحيين الذي مبدؤه هو كما يقول المثل: "أول الدَّنِّ دُرْدِيٌّ".. ولكن انظروا كيف أنه في تقدّم مستمر نتيجة مساعي القُسس الدؤوبة. وكيف تُنشر من قِبلهم عبارات فخر وتباهٍ كل عام يقال فيها: لقد تنصّر في عام كذا أربعة آلاف شخص، وفي عام كذا نزل فضل الإله المسيح على ثمانية آلاف شخص. ولقد أدلى القسيس "هيكر" من كالكوته ببيان عن عدد المتنصرين مؤخرا يتبين منه خبر مؤسف جدا. فقد قال القسيس إن عدد المتنصرين في الهند كلها قبل خمسين عاما كان سبعة وعشرين ألفا فقط، أما في الخمسين عاما الماضية فقد ازداد هذا العدد من سبعة وعشرين ألفا إلى خمس مئة ألف متنصر، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها الكرام؛ أيّ وقت أكثر انتشارا للضلال تنتظرون حلوله. كان هناك زمن كان الإسلام فيه مصداقا لقوله تعالى عن الناس: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾، أما الآن فهذا هو الزمن الذي ذكرته!

ألا يحترق قلبكم بسماعكم عن هذه البليّة؟ ألا تثور مواساتكم بالنظر إلى هذا الوباء العظيم؟ يا أصحاب العقل والفراسة، لا يتعذر على الفهم أن الفساد الذي انتشر بسبب الجهل بالدين يتوقف إصلاحه على نشر علم الدين وحده. فلتحقيق هذا المطلب بالكامل ألّفتُ كتاب "البراهين الأحمدية"، وقد أثبتُّ فيه صدق الإسلام جهارا نهارا، ومن شأنه أن يقضي على المجادلات للأبد بفتح عظيم. كلّ ما كتبته عن تقديم المساعدة في طبع هذا الكتاب قد كتبتُه لمواساة المسلمين المحضة، لأن نفقات طبع كتاب مثله تصل إلى ألوف الروبيات التي لا تتيسر دون مساعدة من المسلمين ذوي الهمم العالية، وقد خُفض ثمنه إلى أقل من النصف لفائدة عامة المسلمين؛ إذ خفضناه من ٢٥ روبية إلى ١٠ روبيات.

الحق أن أفكار بعض الناس تبعث على الرثاء، إذ يجيبون عند طلب المساعدة بأننا سنشتري الكتاب بعد طباعته وليس قبله. عليهم أن يفهموا أن القضية ليست تجارةً، وليس للمؤلف أيّ طمع في مال أحد إلا لتأييد الدين. هذا هو الوقت المناسب للمساعدة حين تحول المشاكل دون طبعه. أما المساعدة بعد الطبع فمثله كمثل مداواة أحد بعد استعادته صحتَه. فأيّ ثواب يُتوقع من هذه الإعانة التي لا جدوى منها؟ لقد محا الله تعالى حب الدِّين من قلوب الناس الذين ينفقون آلاف الروبيات مغمضي العينين في سبيل مكانتهم وأنانيتهم، أما عند الإنفاق في أمور الدين -وهي الغاية المتوخاة من هذه الحياة الفانية- فيترددون طويلا. يقولون بلسانهم إننا نؤمن بالله واليوم الآخر، ولكنهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. فلو تأمّلوا لحظةً في كيفية بذل أموالهم ورأوا كم ينفقون مما أنعم الله عليهم في عام واحد في سبيل تسمين نفسهم الأمارة، ثم فكّروا فيما فعلوا لخير خلق الله خالصًا لوجهه تعالى في حياتهم كلها،

لبكوا على اعتيادهم على الخيانة. ولكن هل مِن أحد يفكّر في هذه الأمور؟ وكيف تزول الأكنّةُ التي على القلوب؟ ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[١٠]. وبالنظر إلى قلة عزيمة هؤلاء الناس وحبهم للدنيا، فقد اعترض علينا بعض أصدقائنا الأكارم بمقتضى بشريتهم -وهم في الواقع كالعشاق المشغوفين في حب الدين- وقالوا: إن تأليف هذا الكتاب الضخم -الذي يقتضي نشره ألوفًا من الروبيات- لم يكن في محله نظرًا لموقف الناس تجاهه. فأقول لهم بكل لطف: لو لم نكتب مئات المعارف والحقائق التي أدت إلى ضخامة الكتاب، لكان تأليفه عديم الجدوى أصلا. أما قلقهم من كيفية تيسر النقود لهذا الغرض؛ فأرجو ألا يخوِّفوني من ذلك، وليعلموا أن ثقتي بربي القادر القدير ومولاي الكريم أشد مِن ثقةِ بَخيلٍ ممسك بصناديقه التي فيها ثروته ومفاتيحها دائما في جيبه. فإن ذلك القادر القدير سيأتي لحماية دينه ووحدانيته ونصرة عبده. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١١].

"إن ذلك القدير هو ملجئي وملاذي في كل حين وآن، فلا تُخِفْني من بخل أناس ضعفاء"[١٢]

۞۞۞۞۞

[١٠] *الرعد: ٣٤*

[١١] *البقرة: ١٠٧*

[١٢] *بيت فارسي مترجَم. (المترجم)*

مقدمة

وفيها مطالب كثيرة من الواجب بيانها، فأكتبها فيما يلي:

أولا: أقول بكل احترام وتواضع لكل مَن يخالفنا الرأي في الدين والمعتقد بأني لا أقصد من تأليف هذا الكتاب قط أن أُحزنَ قلب أحد أو أُثير خصاما لا أصل له. بل إن إظهار الحق والصدق هو مراد مهجتي وأمنية قلبي. لم أشأ قط أن أذكر في كتابي هذا أفكار أيٍّ من معاندينا، بل كنت أودّ أن أظل متوجها إلى عملي الخاص وأهتم بشؤوني، ولكن ماذا أفعل؟ فالتحقيقات الكاملة وبيان المبادئ الحقة والأدلة الكاملة باستيفاء، تستلزم أن يُكشف على جميع أهل الأديان الذين يكنّون أفكارا وآراءً تعارض المبادئ الحقة بأنهم على خطأ. فمن هذا المنطلق صار ذكرهم وإزالة شبهاتهم ودحضها ضروريًّا بل واجبا. والمعلوم أنه ما لم يتم الرد على اعتراضات الفريق الآخر فلن يبلغ الإثبات مبلغ الصدق. فمثلا حين نكتب بحثا في إثبات وجود خالق العالم فيتوقف اكتمال البحث على أن تُزال الظنون الفاسدة للدهريين الذين ينكرون وجود خالق الكون. وحين نقيم أدلة على كون الله تعالى خالق الأرواح والأجسام فيجب علينا عدلا وإنصافا أن نزيل أوهام ووساوس "الآريا سماج"[١٣] الذين ينكرون كون الله

[١٣] **الحاشية** رقم (١): هذه فرقة جديدة نشأت في الهندوس ويطلقون على فرقتهم الدينية اسم "آريا سماج". إن مؤسسها وزعيمها الحالي هو الپانديت "ديانند". لقد سميتها فرقةً جديدة لأن جميع المبادئ التي تتمسك بها هذه الفرقة، وكذلك كافة الأفكار والتأويلات التي خلقتها عن الفيدا، لا توجد مجتمعةً في أيّ مذهب هندوسي قديم. ولا يوجد لها أثر في أيّ تفسير للفيدا ولا في أيّ كتاب ديني للهندوس. بل بعض من جملة تلك الأفكار المتفرقة إنما هي من بنات أفكار الپانديت "ديانند" نفسه، وبعضها تصرفات فكرية غير لائقة؛ بحيث أُخذ جزء منها من هنا وجزء آخر من هناك. فباختصار، لقد تكوَّن قالب هذه الفرقة بهذه الطريقة الغريبة. ومبدأهم الأول هو أن الله ليس خالق الأرواح

خالقا. وحين نحرر أدلة على ضرورة الوحي فـــيجب أن نزيل أيضا الشبهات المترسخة في أذهان أتباع "برهمو سماج".

وإضافة إلى ذلك فقد ثبت بالتجربة القاطعة أن خصوم الإسلام في العصر الراهن اعتادوا ألا يبالوا قط بالحق وصدق الإسلام ما لم يجدوا المبادئ المسلَّم بها عندهم باطلة ومخالفة للحقيقة، ومهما رأوا شمس صدْق دين الله ساطعة فإنهم يُعرضون عنها. وما دام الحال على هذا المنوال، فإن ذكر الأديان الأخرى ليس جائزا فقط، بل من مقتضى الأمانة والإخلاص والمواساة الحقيقية أن يُذكر حتما ولا يكون هناك أيّ تقصير أو إخفاء قط في إظهار بطلان معتقداتهم، بحيث نرى هؤلاء القوم بعيدين عن الصراط المستقيم ومحرومين منه بحسب فهْمنا ورأينا، ونعدّهم بصدق القلب مخطئين، ونرى أن مبادئهم تتعارض مع الحق، ونوقن أن رحيلهم من هذه الدنيا الفانية على تلك المعتقدات مدعاة العذاب العظيم. فما معنى ديننا وإيماننا في هذه الحالة لو غضضنا الطرف قصدا عن إصلاحهم وقبلنا عمدا ضلالهم وإضلالهم أناسا آخرين؟ وماذا عسى أن يكون جوابنا عند الله؟

ومعلوم أيضا أن بعض الناس الماديين الذين لا يهتمون بالله ولا بدينه الحق أدنى اهتمام سيشق عليهم، وسيحزن قلبهم كثيرا عند اطلاعهم على مثالب أديانهم أو ميزات الإسلام، وستكفهرّ وجوههم وسيقولون كلاما غير لائق، ولكننا نأمل أنه سيكون هناك طلاب صادقون أيضا، يسجدون لله شكرا

والأجسام، بل كل هذه الأشياء قديمة وأزلية مثل الإله تماما، وكلها آلهة نفسها بنفسها. ويزعمون أن الإله شخصٌ وصل إلى سدة الحكم نتيجة شجاعته أو صدفةً، ويحكم على أشياء مثله، وأن ألوهيته تجري بالاستناد إلى تلك الأشياء، ولولا وجود تلك الأشياء لفسد أمره كله. وأن تلك الأشياء -الأرواح والأجزاء الصغيرة للأجسام- ليست بحاجة إلى الإله لبقائها قط، وحتى لو افتُرِض موت الإله جدلا، فلا حرج عليها في ذلك. نعوذ بالله من هذه الهفوات! منه.

لاهتدائهم إلى الصراط المستقيم بعد قراءتهم هذا الكتاب، وسيُطلعهم الله تعالى أيضا على ما أطلعَني عليه، وسيكشف الله عليهم أيضا ما كشفه عليّ. والحق أن هذا الكتاب قد أُلّف لصالح هؤلاء الناس، وقد حملنا هذا الحِمل كله من أجلهم. وهؤلاء هم المخاطَبون الحقيقيون بكتابي هذا، وقد أُشرِب قلبي مواساتهم لدرجة يعجز اللسان عن بيانه ويقصر القلم عن تحريره.

"إن الألم الذي أكنُّه في قلبي لطلاب الحق لا يمكن بيانه في خطاباتي الوجيزة.

إن قلبي وروحي غارقان في القلق من أجلهم، حتى غفلتُ عن قلبي ونفسي.

ولكنني سعيد لأني مواسٍ لخلق الله، وأجد متعتي في آهات مؤلمةٍ تصعد من قلبي.

إن مقصدي ومطلبي وأمنيتي هي خدمة الخلق، هذا هو عملي وديني، وهذا هو طريقي وسبيلي.

إنني لا أدخل مجال الوعظ والنصيحة من تلقاء نفسي، بل إن مواساة الخلق تدفعني إليه رغما عني.

ما الفائدة من إظهار مواساة الخلق باللسان فقط، ولو فديتُ فيها مئة روح لما وسعني مع ذلك إلا الاعتذار.

عندما رأيت العالم كليل اغبرَّ وأظلم، تضرعت إلى الله أن يتقبّل أدعيتي له في تهجدي"[١٤].

فأرجو من أهل الصدق والصفاء كلهم أن يحسبوني أنا العبدَ المتواضع ناصحا أمينا ومواسيا مخلصا لهم، ويقرأوا كتابي هذا بكامل الإمعان. إن المرء يتأمل في كلام صديقه كثيرا ولا ينظر إلى نصائحه المشفقة بسوء ظن، بل يقبلها متخليا عن التعنت والتعصب إذا كان فيها خير ومنفعة له في الحقيقة، بل يشكر صديقه الذي كان -بالحب وإخلاص القلب- ناصحا أمينا له، على أنه أطلعه على أمور كان فيها خير له؛ كذلك وأرجو من أشراف القوم وأصحاب العلم والفضل أن يطّلعوا على البراهين والأدلة التي سجّلتها عن صدق الإسلام أو

---

[١٤] *ترجمة أبيات فارسية. (المترجم)*

الأوجه التي أثبتُّ بها أن القرآن الكريم كلام الله وأنه أفضل وأعلى، وذلك من خلال الكتب الأخرى الموحى بها.. فإنني أتوقع منهم إن وجدوها كاملة ومفحمة؛ أن يقبلوها من منطلق العدل وخشية الله، وألا يصعِّروا خدّهم بسبب الإهمال وسوء الظن.[١٥]

---

[١٥] **الحاشية** رقم (٢): لو احتج أحد من معارضي الإسلام بأن حسبان القرآن الكريم أفضل وأعلى من جميع الكتب الموحى بها يستلزم كون الكتب الأخرى الموحى بها أدنى منه مع أنها كلها كلام الله، فكيف يجوز عدُّ بعضها أدنى وبعضها الآخر أعلى؟

فجوابه أنه لا شك أن جميع الكتب سواسية من حيث كونها وحيًا، غير أن بعضها أفضل من بعضها الآخر بسبب زيادة بيانها في الأمور التي تكمّل الدين. فمن هذه الناحية: إن القرآن الكريم أفضل من الكتب كلها، لأن الأمور المكمِّلة للدين التي بينها القرآن الكريم مثل مسائل التوحيد وتحريم الشرك بكل أنواعه وأقسامه، ومعالجة الأمراض الروحية، وتفصيل الأدلة على إبطال الأديان الباطلة، والبراهين على إثبات المعتقدات الحقة وغيرها بكل قوة وشدة لم ترِدْ في الكتب الأخرى كما سنثبت هذا الادّعاء مفصلا في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وإذا نشأت شبهةٌ: لماذا لم يسجِّل الله تعالى الحقائق والمعارف الدينية في كافة كتبه على السواء، ولماذا جعل القرآن الكريم أكثرها جمعًا للكمالات؟ قلتُ في الجواب: لن تخالج هذه الشبهة أيضا إلا قلب شخص لا يدرك حقيقة الوحي، وليس مطلعا على أسباب نزول الوحي وكيفية نزوله. فليكن واضحا له أن حقيقة الوحي هي أنه لا ينـــزل قط دون أن يكون هناك سبب يستدعي نزوله. بل ينـــزل بعد ظهور ضرورته للعيان، فكلما ظهرت الحاجة له نزل الوحي بحسبها، لأن سنة الله المستمرة في نزوله هي أنه ما لم يكن هناك سبب ومدعاة لنـــزول الوحي فلا ينـــزل. والمعلوم أيضا أنه لا جدوى من نزول الوحي أصلا دون سبب يقتضي نزوله، كما هو أمر لا يمكن عزوه إلى الله الحكيم الذي يراعي الحكمة والمصلحة ومقتضى الحال في كل عمل يقوم به. فليكن معلوما أن سبب عدم ذكر التعليم الصادق كاملا ومفصلا في الكتب الأخرى كما ورد في القرآن الكريم هو أن الكتب السابقة لم تواجه جميع أسباب نزول الوحي التي واجهها القرآن الكريم. وإن ظهور

"أنا عبد متواضع، وأقول تواضعا: والله يشهد على أني لا أعادي أحدا قط.
لا أقوم بكل ذلك عبثا وباطلا، بل إن تجلي الحسن والجمال يجذبني إلى حبيبي"[١٦].

أيها السادة، إن الفطنة والذكاء كله يكمن في أن يتحرّى المرء جيدا في هذه الحياة الأسسَ والمعتقدات التي من شأنها أن تكون مدعاة للسعادة أو الشقاوة الأبديتين بعد الموت، ثم يعتصم بالحق ويجتنب الباطل، وأن يؤسس معتقداته المهمة التي يحسبها مدار النجاة والراحة الأخروية على برهان كامل ومحكَم، وألا يظل فخورا ومغترا بالأمور التي علّمَتْها له مرضعتُه عَرَضًا في صغره، لأن الاعتماد على تلك الأوهام والأفكار وحدها -التي لا دليل على صدقها- إنما هو خداع للنفس. يُدرك كل عاقل أن كتبا كهذه -أو أصولها- التي حسبتها الأمم المختلفة وسيلة لنيل رضا الله تعالى وسبيلا لنجاتهم، ويدفع قومٌ قوما آخرين إلى جهنم بسبب عدم الإيمان بها؛ يجب إثباتها بالأدلة العقلية أيضا إضافة إلى شهادة الإلهام. فمع أن شهادة الإلهام موثوق بها جدا وعليها يتوقف استكمال مراتب اليقين، ولكن لو أن كتابا -يدّعي أنه موحى به- علّم أمرًا تعاكسه أدلةٌ عقلية بيِّنة، لاستحال أن يكون ذلك الأمر صحيحا، بل سيُعدُّ ذلك الكتاب -الذي ورد فيه أمر يخالف العقل- باطلا أو محرَّفًا ومبدَّلا من حيث المعنى.

فلما كان الحكم بجواز كل أمر أو استحالته موقوفا على العقل، وكان العقل هو المعيار لاختبار الممكن والمحال، استلزم ذلك أن يُثبَتَ صدق أسس النجاة أيضا بالعقل. لأنه لو لم تثبت مبادئ الأديان المختلفة بالأدلة العقلية، بل ثبت بطلانها واستحالتها، فأنّى لنا أن نعرف أن مبادئ زَيْدٍ صادقة ومبادئ بَكرٍ خاطئة، أو أن كتب الهندوس خاطئة وكتب بني إسرائيل صحيحة؟ وكذلك إذا

تلك الأسباب التي اقتضت نزول الوحي في عهود ماضية قبل عهد القرآن الكريم كان محالا. وسأثبت ذلك أيضا بأدلة كاملة في الفصل الأول. منه

[١٦] *ترجمة بيتين فارسيين. (المترجم)*

لم يُعلَم الفرق بين الحق والباطل من حيث العقل، فأنّى لطالب حقٍّ في هذه الحالة أن يميِّز الكذب من الصدق؛ فيترك الكذب ويعتصم بالصدق؟ وكيف يمكن أن يدان أحد عند الله بسبب عدم إيمانه بتلك المبادئ؟[١٧]

فلو كنا في الحقيقة بحاجة، من أجل نجاتنا، إلى المعتقدات التي ثبت صدقها بالأدلة العقلية لنشأ تلقائيا سؤال: كيف يمكن أن نطّلع على تلك المعتقدات الصادقة؟ وكيف يتيسر لنا أن نكتشف جميع تلك المعتقدات مع أدلتها باليقين والكمال والسهولة ونصل إلى مرتبة حق اليقين؟

فأقول في الجواب: إن الوسيلة اليقينية والكاملة والميسرة التي بواسطتها تُعلَم المبادئ الصادقة مع أدلتها العقلية باليقين الكامل دون صعوبة ومشقة وشكوك وشبهات وخطأ وسهو هي القرآن الكريم. وليس في الدنيا كتاب سواه ولا وسيلة أخرى يمكن أن ننال بها هذا الهدف العظيم[١٨].

[١٧] **الحاشية** رقم (٣): المبادئ غير المعقولة التي يقدِّم العقل أدلة بيِّنة على استحالتها لا يمكن أن تكون صحيحة بحال من الأحوال، لأنها لو كانت صحيحة لزالت الثقة بالأدلة القطعية العقلية في كل أمر. فإذا لم تكن المبادئ التي عدَّت مدارا للنجاة صحيحة لحُرم من النجاة حتما أولئك الذين اعتمدوا عليها، ولاستحقوا عذابا أبديا وعقابا دائما؛ إذ قد ثبت من ناحية كذبُ المبادئ الخاصة بهم، ومن ناحية ثانية رفضوا سلفا المبادئ التي ثبت صدقها على محك العقل. والمعلوم في هذه الدنيا أن الذي يعتقد بما هو غير صحيح ومحال وكذب وباطل ولا يقبل أمورا ثابتة يدعمها العقل؛ يواجه أنواع الخجل والندم، ويضطر لسماع أصناف النقد والطعن من أصحاب البحوث والتحقيق. بل الحق أن ضميره هو الذي يؤنِّبه دائما. وفي بعض الأحيان يخاطب نفسه بنفسه قلقا ومضطربا ويقول: ما هذا المعتقد السخيف الذي أعتنقه! فهذا أيضا عذاب روحاني يحل به في هذه الدنيا. منه

[١٨] **الحاشية** رقم (٤): إن قولي هذا بأنه لا توجد وسيلة يقينية وكاملة وسهلة لمعرفة المعتقدات الحقة سوى القرآن الكريم قد أُثبت في محله بالأدلة الكاملة. كما أُثبت بتحقيق كامل خطأ وبطلان مبادئ الذين يتبعون الكتب الأخرى. ولكن قد تنتاب الهواجس أتباعَ مذهب "برهمو سماج" الذين لا يتبعون كتابا موحى به، ويرون في عقلهم وحده كفاية

لمعرفة المبادئ الحقة، فيقولون: أليس عقل الإنسان وحده هو الوسيلة اليقينية والكاملة والسهلة لمعرفة المبادئ الحقة؟ ومع أني سأدحض شبهتهم هذه بإذن الله كما يجب في هذا الكتاب لاحقا وبشكل مفصل في فصل الوحي، ولكن لا بد من استئصالها هنا أيضا.

فليكن واضحا أنه من الصحيح تماما أن الله تعالى قد أعطى الإنسان العقل أيضا كسراج يجذب نوره إلى الحق والصدق، وينقذه من العديد من الشكوك والشبهات، ويزيل أنواع الأفكار والوساوس التي لا أصل لها ولا حقيقة، وهو مفيد جدا وضروري جدا وهو نعمة كبيرة، ولكن مع كل هذه الميزات والصفات ينقصه شيء، وهو أن العقل وحده لا يوصل إلى مرتبة اليقين الكامل في معرفة الأشياء؛ لأن المراد من مرتبة اليقين الكامل هو أن يستيقن الإنسان بوجود حقائق الأشياء كلها كما هي موجودة فعلا. ولكن العقل وحده لا يستطيع أن يهب الإنسان هذه الدرجة العليا من اليقين، لأن غاية ما يحكم به العقل هو أنه يُثبت ضرورة وجود شيء ما، أو يحكم أنه يجب أن يكون ذلك الشيء موجودا، ولكنه لا يستطيع أن يحكم قط أن ذلك الشيء موجود فعلا. وإنما تُنال مرتبة اليقين الكامل هذه -بأن يتقدم الإنسان من درجة: "يجب أن يكون" ويصل إلى درجة: "إنه موجود فعلا"- حين يصحب العقلَ رفيقٌ آخر يصدِّق أوجهه الظنية ويُلبسها لباس الأحداث المشهودة. أيْ ما يقول العقل عنه إنه "يجب أن يكون" يخبر عنه ذلك الرفيق بأنه "موجود في الواقع". لأنه كما ذكرنا آنفا أن العقل يُثبت ضرورة وجود الشيء فقط ولا يُثبت وجوده بحد ذاته. والمعلوم أن إثبات ضرورة وجود الشيء أمرٌ وإثبات وجود ذلك الشيء فعلا هو أمر آخر.

على أية حال، إن للعقل حاجة إلى رفيق ليجبر النقص الناتج عن قوله الظني والناقص، الذي يُعبَّر عنه بعبارة: "يجب أن يكون" ويعوضه بالقول المشهود والكامل الذي يُعبَّر عنه بعبارة: "إنه موجود في الواقع"، ليُطلع الإنسانَ على الأمور الواقعة كما هي موجودة في الواقع. إذًا، فإن الله تعالى الذي هو رحيم وكريم ويريد أن يوصل الإنسان إلى مراتب اليقين القصوى؛ قد سدّ هذه الحاجة وقيّض للعقل عدة رفقاء وهداهُ سبيل اليقين الكامل، لكيلا تُحرَم نفسُ الإنسان من سعادتها المطلوبة؛ فجُلّ سعادتها ونجاتها يكمن في اليقين الكامل، وأنْ يعبر الإنسانُ سريعا جسر "إنه يجب أن يكون" الهش والخطير الذي بنَاه العقل على نهر الشكوك والشبهات، ويدخلَ القصر المنيف لـــ "إنه موجود في الواقع" الذي هو دار الأمن والطمأنينة. إن رفقاء العقل الذين ينصرونه هم أنصار مختلفون في كل مقام ومناسبة، ولكنهم ليسوا أكثر من ثلاثة كما يحصرها العقل. وتفصيله أنه إذا كان

حكم العقل يتعلق بمحسوسات الدنيا ومشهوداتها التي تُرى كل يوم أو يُسمع عنها أو تُشَمُّ رائحتها أو تُلمَس باليد، عندها يكون رفيق العقل الذي يبلِّغ حُكمه مبلغ اليقين هو المشاهدة الصحيحة التي تُسمَّى التجربة. وإذا كان حكم العقل يتعلق بالأحداث والوقائع التي ظلت تحدث في مختلف الأزمنة والأمكنة أو لا تزال تحدث، عندها يكون للعقل رفيق آخر اسمه: كُتب التاريخ والأخبار والمكاتيب والمراسلات؛ فهي تُجلي نور العقل الضبابي مثل التجربة، بحيث يكون الارتياب فيه حمقٌ وجنونٌ وغباوةٌ. أما إذا كان حكم العقل يتعلق بأحداث ما وراء المحسوسات التي لا نستطيع أن نراها بالعين ولا نسمعها بالأذن، ولا نستطيع أن نلمسها باليد ولا نقدر على اكتشافها من كُتب التاريخ فعندها يكون للعقل رفيقٌ ثالث اسمه الإلهام والوحي. وهذا ما يقتضيه قانون الطبيعة أيضا؛ فكما تيسر للعقل الناقص رفيقَانِ في المقامَين الأوليينِ كذلك يجب أن يتيسر رفيق في المقام الثالث أيضا، لأنه لا يمكن أن يكون هناك اختلاف بين قوانين الفطرة، وخاصة أنّ الله لم يُرد أن يترك الإنسان ناقصا في علوم الدنيا وفنونها، مع أنه لا ضير أصلا لو وُجد فيها نقص أو سهوٌ أو خطأ. ففي هذه الحالة؛ إنه لمن سوء الظن الكبير بالله الزعمُ أنه ﷻ أراد أن يترك الإنسان ناقصا في المعرفة التامة في الأمور التي يُشترط اليقين الكامل بها للنجاة في الآخرة، ويؤدي الريبُ فيها إلى جهنم الأبدية ويجعل علمه الأخروي مقتصرا على أفكار ناقصة مبنية على التخمين فقط، و لم يجعل له وسيلة تُكسب قلبه الطمأنينة والقناعة بتقديم شهادة قاطعة بأن أسس النجاة التي يقترحها العقل على سبيل الظن والتخمين موجودةٌ فعلا. وأن الضرورة التي يقترحها العقل ليست افتراضية بل هي ضرورة حقيقية وثابتة.

فلما ثبت أن اليقين الكامل بالإلهيات (*أي المعتقدات المتعلقة بالله تعالى- من المترجم*) لا يتأتّى إلا بالوحي وحده -والإنسانُ بحاجة إلى هذا اليقين الكامل من أجل نجاته، وسلامة الإيمان مستحيلة دون هذا اليقين- فالنتيجة واضحة أن الإنسان بحاجة إلى الوحي. فليكن معلوما أيضا في هذا المقام أنه مع أن كل وحي إلهي جاء دائما ليهب اليقين، ولكن القرآن الكريم تفرد بأن وضع أساسا لتحقيق أعلى مراتب اليقين حتى أوصلها إلى الغاية. وتفصيل هذا الإجمال أن الوحي الذي نزل من الله تعالى من قبل كان يشهد على واقع الأمر فقط، وكان مبنيا كله على أسلوب المنقولات لذلك فقد أصابه التحريف في نهاية المطاف، وفهمه المغرضون والأنانيون على غير حقيقته. ولكن تعليم القرآن الكريم حمل بنفسه مسؤولية العقل أيضا، وخلّص الإنسان من كافة أنواع المشكلات، وأخبر عن

أيها السادة! لقد عرفتُ باليقين الكامل وكلٌّ من تأمل في هذه الأمور التي تأمّلتُ فيها، فهو الآخر سيعرف بيقين تام؛ أن جميع تلك المبادئ التي يجب على كل سعيد أن يؤمن بها، وتتوقف عليها نجاتنا جميعا، وأنيطت بها حياة الإنسان الأخروية كلها قد حُفظت في القرآن الكريم وحده. أما مبادئ الكتب الأخرى كلها فقد فسدت، وهي زائفة ومصطنعة وبعيدة عن الطريق المستقيم والحكيم والمجرى الطبيعي لدرجةِ أني أستحي من ذكرها. ولا أقول ذلك دون تحقيق، بل أقول صدقا وحقا إنني قد قمتُ بتحقيقات وبحوث مضنية قبل تأليف هذا الكتاب، وقد تصفّحت كتب كل دين بأمانة وإخلاص وإمعان وتدبر، وقارنتُها بالفرقان المجيد، إضافة إلى المناظرات الشفوية مع كبار علماءِ معظم الأمم.

فباختصار، سعيتُ كل سعي وبذلت كل ما في وسع البشر من الجُهد لكشف الحقيقة. وفي نهاية المطاف؛ ثبت من كل هذه التحقيقات بجلاء تام، أنه لا يوجد على وجه الأرض اليوم -من الكتب الموحى بها- كتاب يثبت أنه

الإلهيات بصفته مخبرا صادقا، ثم أوصل هذا الخبر إلى درجة الثبوت من حيث دليل العقل. فمن تأمل في الموضوع وجد أن القرآن الكريم قد التزم من بدايته إلى نهايته بأمرين اثنين، أحدهما: الأدلة العقلية، والثاني: شهادة الوحي. فهذان الأمران جاريان في القرآن الكريم كقناتين عظيمتين متوازيتين تؤثر إحداهما على الأخرى. إن قناة الأدلة العقلية ظلَّت تبيّن أن هذا "يجب أن يكون"، أما قناة شهادة الوحي -التي تقابلها- فظلت تُطمئن القلوبَ دائما كمُخبر صادق وعظيم أن هذا "موجود في الواقع". والسهولة التي بها يحظى طالب الحق بمعرفة الحق من خلال أسلوب القرآن الكريم هي سهولة بديهيةٌ وواضحة، لأن قارئ الفرقان المجيد يطّلع فيه -بالإضافة إلى ذلك- على الأدلة العقلية التي لا يوجد في أي كتاب فلسفي ما يفوقها إحكاما، وسوف نُثبت ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب.

وثانيا يصل الإنسان إلى أعلى درجة من درجات اليقين بعد اطلاعه على شهادة ثابتة بإلهام من الله تعالى. وينال مجانا ما لا يناله غيره ولو بجهد جهيد وسعي دؤوب يقوم به طول الحياة. فثبت أن الوسيلة اليقينية والكاملة والسهلة لمعرفة كل المبادئ الحقة وجُلّ المعتقدات التي تعتمد نجاتنا على معرفتها اليقينية، هو القرآن الكريم وحده، وهذا ما أردت إثباته. منه

كلام الله تعالى بالأدلة القاطعة إلا القرآن الكريم، والذي مبادئ النجاة فيه مبنية على الصدق والحق وواقع الحال تماما، ومعتقداته كاملة ومُحكَمة بحيث تشهد البراهين القوية على صدقها، وأوامره قائمة على الحق المحض، وتعاليمه منـــزّهة تماما من شوائب الشرك والبدعة وعبادة الخلق بكل أنواعها، وفيه الحماس البالغ منتهاه لإظهار توحيد الله وعظمته وكماله ﷻ. وميزته الفريدة أنه زاخر بأسرار وحدانية الله تعالى تماما، ولا يصم اللهَ تعالى بوصمة نقص أو عيب أو أية صفة سلبية، ولا يريد أن يَفرض على أحد أي معتقدٍ قهرا بل يبين أدلة صدق تعاليمه أولا، ويثبت كل مطلب وهدف بالحجج والبراهين، ويبين بأدلة واضحة صدق كل مبدأ بوضوح تام، ويوصل إلى مرتبة اليقين الكامل والمعرفة التامة، ويزيل بالبراهين الساطعة كل المساوئ والخبائث وأنواع الخلل والمفاسد التي تسرَّبت إلى معتقدات الناس وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، ويعلّم جميع الآداب التي لا بد للمرء من تعلُّمها ليكون إنسانا على وجه الحقيقة، ويدفع كل فساد بالقوة نفسها التي انتشر بها في الأيام الراهنة. إن تعليمه مستقيم وقوي وسليم تماما وكأنه مرآة لأحكام الطبيعة وصورة انعكاسية لقانون الفطرة، وهو لبصارة القلب وبصيرته كشمس تبهر العيون، ويفصّل ما أجمله العقل ويجبُر ما فيه من نقص. وحين تأملت في الوضع الراهن للكتب الأخرى التي تُحسب موحىً بها؛ تبيّن لي بوضوح أنها خالية تماما من تلك الصفات الكاملة، بل فيها أنواع من الظنون الفاسدة بالله تعالى وصفاته، ويتمسك أتباع هذه الكتب بمعتقداتٍ غريبة؛ فهناك فِرقة ينكر أتباعُها أن الله تعالى خالق وقادر، ويحسبون أنفسهم قرناء وشركاء له من حيث كونه الأزلي والموجود في حد ذاته. وفرقة أخرى تحسب الأوثان والآلهة الأخرى متدخّلةً في صنعته ﷻ، ومدبِّرة ومديرةً لملكوته. ومنهم مَن يخرقون له بنين وبنات وحفدة وحفيدات، وهناك من يعُدّه هو ولادة ثانية للسلحفاة والحوت[19].

---

[19] *السلحفاة والحوت هما اسمان رمزيان لرجلَينِ من رجال الدين يُعَدّون بمنـــزلة*

فباختصار، إن كل فرقة تنافس الأخرى في الزعم كأن ذلك الذاتَ الكامل شقيٌّ الحظ إلى أقصى الحدود، ولم يتسنَّ له ذلك الكمال التام الذي يقتضي العقل وجوده فيه.

فيا أيها الإخوة، إن ملخص الكلام هو أنني حين وجدتُ الناس متورطين في معتقدات باطلة، ووجدهم في ضلال إلى الحدِّ الذي ذابت به روحي واقشعر قلبي منه وبدني، رأيت حقا واجبا عليّ ودَينا مستحقا على نفسي لا يُسَدَّد دون أن أؤلِّف كتابا لإرشادهم. فصارت مسوَّدته جاهزة بفضل الله تعالى في أيام قلائل، بل في مدة وجيزة جدا خارقة للعادة. والحق أن هذا الكتاب بشرى لطلاب الحق وحجة لله على منكري الإسلام، فلن يطيقوا الرد عليه إلى يوم القيامة. ولهذا السبب قد ألحقتُه بإعلانِ جائزةٍ قدرها عشرة آلاف روبية لكي تتم الحجة على كل منكر معاند ينكر صدق الإسلام، ولكيلا يبقى بعد ذلك أحد منهم فخورا ومغترا بأفكاره الباطلة ومعتقداته الزائفة.

"يا طالب الصدق والصواب تعالَ واقرأ هذا الكتاب بتدبر وتأمل.
فلو وقع نظرك على كتابي مرة لعلمتَ أنه صراط يهدي إلى الجنة.
ولكن بشرط العدل والإنصاف، لأن الإنصاف مفتاح العقل والرشد.
هناك شيئان يحميان الدين والدنيا، هما: القلب المنير وبُعد النظر.
إن الذي يملك العقل والعدل فلا يبتغي إلا طريق الصدق والسداد.
ولا يتولى بركنه عن سبيل هو طاهر ومستقيم، ولا يُعرض عما هو حق وصواب.
ولا يتعصب ولا يتعنت بعد أن يتحرّى الأمر بعين الصدق.
فيا من ترجو المغفرة من الله ائتِ قصر المغفرة من بابه.
تعالَ إلى الحق ورسِّخ الحق في القلب، ولا تعلِّق القلب بالكذب كخبيثي الباطن.
لا تحب وجها قبيحا أبدا حتى لو انقرض الحسن والجمال من العالم.
إن إبقاء الأرض دون حرثها أفضل من بذر بذور الأشواك والأعشاب.

الأنبياء ويسمَّون "اوتار" في ميثولوجيا الهندوسية. (المترجم)

لو فتحت عين فطنتكَ لبحثت عن سبيل الله بتواضع وانكسار.
ولطلبتَه بصدق القلب دون أن تغفل عنه ولو في المنام.
يجب ألا يستقر لك قرار ولو للحظة ما لم تصل إلى الله.
الموت يحدق بك دائما، وإن حياتك مثل الفقاعة ومع ذلك تنام نوم الغفلة.
انظر إلى آبائك وأجدادك الذين سبقوك كيف رحلوا من هذه الدنيا.
لم تعد تذكر عاقبتهم، ونسيتَ بهذه السرعة.
ما حيلتك ومكرك في مواجهة الموت؟ هل أقمت سدًّا منيعا؟
ما دام شبح الموت يجذب المرء إليه فجأة فلمَ هذا الاستكبار؟
لا تعلِّق قلبك بهذه الدنيا الدنيّة يا رجل، فإن مسرحيتها تنتهي بسرعة.
لا يبقى أحد في الدنيا إلى الأبد، ولا يبقى الدهر على حال واحد.
لقد وارينا التراب أناسا كثيرين بأيدينا وبقلب حزين.
ما دمنا قد وارينا التراب خلقا كثيرا، فكيف لا نتذكر يوم موتنا نحن؟!
كيف ننساهم؟! إن أجسامنا ليست مصنوعة من فولاذ أو نحاس.
يا معاند خف غضب الله، فإن قهر الله شديد جدا.
لقد أُبيدت البلاد والمدن الكثيرة لِعدم خوف الله.
و لم يعد لهؤلاء المتجاسرين أيّ أثر، وفوق ذلك فلم يبق منهم حتى عظم واحد.
من التعقل أن يظل الإنسان مشفقا حذرا، وإلا سيواجه مصيبة بعد مصيبة.
إن الموت أفضل من حياة الخبث والقذارة.
تعالَ وامشِ في سبيل العدل والإنصاف، هل تمنع العداوة من التوبة؟!
كن على يقين أن كلامي مبني على العدل والإنصاف، وليس على الزهو والتباهي الفارغ.
لقد تدبّرتُ الأديان كلها بعمق وأصغيتُ إلى حجة كل شخص.
وقد درستُ كتب كل دين ورأيت مفكري كل قوم.
لقد توجّهت إلى هذا السبيل منذ الصغر، ورميتُ نفسي في بحر هذا العمل.

لقد بذلتُ شبابي كله في هذا السبيل، وقد رغّبتُ قلبي فتباعدَ عن الأمور الأخرى كلها.
لقد أمضيتُ مدة طويلة في هذا الأسى، وأرِقت لياليَ طويلة بسبب هذا الحزن.
لقد تدبّرت بـــصدق وسداد، وتأملتُ بعدل واضعا خشية الله في الحسبان.
و لم أجد دينا قويا ومتينا مثل الإسلام، فواها لمنبعه.
إن هذا الدين يملك الصفاء والجلاء؛ فيرى فيه الحاسد وجهه وحقيقته.
إنه يرشد إلى طريق الطهارة بحيث يشهد العقل على صدقه.
إنه يعلّم الحكمة والفطنة والعدل كله، ويحرر من كل أنواع الجهل والفساد.
لا نظير لهذا الدين في العالم، فليُدمَّر كل طريق يخالفه.
إن مبادئه التي هي مدار النجاة، تلمع مثل الشمس صدقا وثباتا.
وإن مبادئ الأديان الأخرى أيضا مكشوفة لا يسع أحدا أن يخفيها.
لو اطّلع عليها غير مسلم، لفدى الإسلامَ ولو ببذل نفسه.
إن محمدا ﷺ آية عظيمة لنور الله، فلن يُخلَق في الأرض مثله قط.
كان كل بلد خاليا من الصدق والحق مثل الليل الحالك الظلام.
وقد أرسله الله تعالى ونشر الحق، ونفخ في الأرض حياة بواسطة ذلك السيد.
هو شجرة حديقة القدس والكمال، و إنّ آلَهُ كلهم مثل الورود".[٢٠]

ثانيا: وجدير بالذكر أيضا أنه إذا أراد أحد أن يكتب الرد على هذا الكتاب بحسب الشروط المذكورة في الإعلان، لوجب عليه كما تقرر في الإعلان أن يكتبه من وجهين؛ أيْ أن يقدم الأدلة من كتابه للمقارنة مع أدلة الفرقان المجيد وأن ينقض أدلتي أيضا. وإن لم يقدم الأدلة من كتابه وتوجه إلى النقد والقدح في أدلتي فقط، لفُهم من ذلك أنه عاجز تماما عن تقديم الأدلة على صدق كتابه.

وليتضح أيضا أنه لو لم يوافقني أحد على أن القرآن الكريم كتاب الله حقًّا وأنه أعلى وأفضل من كتب الله كافة وأنه كتاب فريد لا نظير له في إثبات

[٢٠] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

صدقه، لوجب عليه أن يكتب شيئا في تأييد رأيه هذا. وأقول صدقا وحقا بأنني سأشكره كثيرا لو تفضّل بتكليف نفسه هذا العناء، فإني أفكر دائما كيف نكشف لعامة الناس أنه لا توجد في الكتب الأخرى قط مثلُ فضائل القرآن الكريم وميزاته، ولا مثل أدلته والبراهين القاطعة التي بها يثبت أنه من عند الله تعالى. فبعد تفكير طويل ورصين لم أتوصل إلى فكرةٍ أفضل من أن ينشُر أحد كتيِّبا عن كتابه المقدس ويستخرج منه بحقٍّ كمثل تلك الأدلة والإثباتات التي كتبناها في صدق القرآن الكريم وأفضليته. ولو حدث ذلك، وندعو الله تعالى أن يحدث، لظهرتْ لكل ذي بصر ضعيف أيضا شمسُ صدق القرآن الكريم وعظمته، ولن يغترّ البسطاء بإغواء الخصوم في المستقبل. وإذا كان كاتب الرد على كتابي شخصا ليس ملتزما بكتاب موحى به -مثل أتباع مذهب "برهمو سماج"- فلن يجب عليه إلا أن ينقض أدلتي واحدا بعد الآخر، ويُثبت بالأدلة العقلية أفكارَه المعارضة مقابل معتقداتنا. ولو هبّ شخص مثله، لاستفاد الناس كثيرا من كتاباته الجديرة بالاعتبار. وسيُختبر أيضا عقل أتباع مذهب "برهمو سماج" الذين يردِّدون دائما وفي كل آن: العقلَ العقلَ.

فباختصار، إنني أعلم يقينا أنه سيظهر في ذلك اليوم تأثير كتابي بكل معنى الكلمة، وسيُعلَم قدره تماما حين يقدِّم أحدٌ أدلةً من كتابه مقابل أدلة الصدق التي يتضمنها كتابي، أو يبين أدلة على معتقداته المختلقة مثل خليعي الرسن في العصر الراهن؛ لأنه بضدها تتبين الأشياء. ولا يتبين جمال الورد ولطافته إلا إذا كان محاطا بالأشواك.

"لولا وجود وجه مكروه مسودّ، لما استطاع أحد أن يعرف جمال الحبيب الشبيه بالورد.

لولا الحرب وقتال العدو، لما ظهرت ميزات السيف البتّار.

يُعرف قدر النور بالظلام، وتعلو مرتبة العقل التام وعظمته بمقارنته بالجهل

إن حجة الصادق تتبين أكثر عند النقد والقدح، وإن عذرا غير معقول ليدل على الإكراه".[٢١]

هنا أرجو أيضا ممن يتوجه إلى كتابة الرد -إذا كان يريد إظهار الحق ويهدف إلى إقامة العدل ويود إيفاء شروط الإعلان بصدق- أن يتذكر بأن عليه أن ينقل أدلتي كلها بالتمام والكمال في كتابه، ثم يردّ عليها واحدا بعد الآخر. بمعنى أن عليه أن ينقل أولاً -حرفيًا- كل دليل من أدلتي، ثم يرد عليه بصراحة تامة دون أن يكون فيه إجمال أو إهمالٌ حتى يتبين لكل منصف -بمجرد إلقائه النظر عليه- إذا كان قد أدّى حق الردّ أم لا؛ لأنه لا يمكن الاطلاع على كيفية الاستدلال بكامله من خلال التلخيصات، ويفوت كثير من المفاهيم عند الإيجاز نتيجة خيانة المعاندين أو لجهلهم أو سذاجتهم. بل الحق أن الحذف والإسقاط يؤدي في كثير من الأحيان إلى تغيير جذري فيما يهدف إليه صاحب الاستدلال، وفي هذه الحالة يستحيل على القراء الذين ليس في أيديهم كتاب الطرف الثاني أن يفهموا أي أمر على حقيقته، أو تتسنى لهم فرصة مواتية لإبداء رأيهم.

فما دام هذا الكتاب يحتل مكانة مرموقة، وقد وُعد فيه -بقصد إتمام الحجة- بجائزة كبيرة لمن يرد عليه ردا وافيا، فإن استخدام الخداع والتدليس مقابله ليس إلا حذلقة في غير محلها. لذا أقول مؤكدا تأكيدا شديدا بأنه من مقتضى الصدق والصفاء أن كاتب الرد لا يستطيع الاستفادة من الشروط الواردة في الإعلان إلا إذا أورد كل ما قلتُه بالكامل وبالأسلوب الذي ورد في كتابي ترتيبًا وألفاظًا.

ثالثا: ليكن واضحا أيضا لكل شخص أن الأدلة والبراهين التي أوردتُها في هذا الكتاب على صدق القرآن الكريم وصدق رسالة سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ، أو ما بينته من فضائل القرآن الكريم ومحاسنه، أو الآيات البينات التي سجّلتُها على أنها من الله تعالى، أو ما ادّعيتُه عن القرآن؛ فكل تلك الأدلة مأخوذة ومستنبَطة من هذا الكتاب المقدس نفسه، أي أنني قد سجّلتُ الادّعاء الذي

---

[٢١] *أبيات فارسية مترجمة. (المترجم)*

ادّعاه القرآن المجيد نفسه، وأوردت أيضا الدليل نفسه الذي أشار إليه هذا الكتاب المقدس؛ فلم أُورد دليلا باجتهادي الشخصي، ولم أدّع شيئا من تلقاء نفسي، بل سجّلتُ في كل مكان الآياتِ كلَّها التي أخذتُ منها أدلتي وادّعاءاتي. فمن أراد أن يكتب شيئا عن كتابه بحذاء أدلتي، أو أراد أن يدّعي ادّعاء جديدا؛ كان لزاما عليه أن يلتزم بأسلوبي المعهود والمذكور آنفا. أيْ يجب أن يقدم الادّعاء والدليل لإثبات صدق كتابه ومبادئه مما ورد في كتابه.

هنا يجب الانتباه أيضا إلى أن قصدي من الدليل؛ هو الدليل العقلي الذي يقدمه العقلاء عادة لإثبات مبتغاهم، ولا أقصد منه حكاية أو قصة.

باختصار، يجب أن يوردوا في كل باب دليلا عقليا ورد في كتابهم الموحى به، وألا يتوجهوا إلى بيان أمر من بنات أفكارهم أو تخمينا من عند أنفسهم لا أصل له في كتابهم، لأن كل عاقل يعلم أن من مسؤولية الكتاب الرباني أن يقدم بنفسه كل ما يجب عليه إثباتُه بأنه كتاب موحى به، ثم يجب أن يقدِّم هو ذاتُه أدلةً على ذلك أيضا. وكذلك على الكتاب الموحى به أن يُثبت صدق مبادئه بالأدلة الواضحة، لا أن يسكت عن الادّعاء وإثباته كليًّا، ويسكت كذلك عن تقديم البراهين على صدق مبادئه، ثم يهبَّ أحد آخر ويتكلم نيابة عنه[٢٢].

---

[٢٢] **الحاشية** رقم (٥): إن بيان الكتاب الموحى به أدلةً على صدق مبادئه ضروري لسبب آخر أيضا، وهو أن واجب الكتاب الموحى به لا يقتصر على أن يتعلم منه أحد كالببغاء بعض الأمور غير المعقولة أو مجهولة الكيفية فيظن في قرارة قلبه أنه قد نال النجاة! بل الواجب الأعلى للكتاب الموحى به هو أن يقدم الأدلة العقلية ويوصل المرء إلى مرتبة اليقين الكامل الأبدي الذي لا يزول بوسوسة مُوَسْوِسٍ، لكي تستقيم كافة أعمال المؤمن به وأقواله ومعتقداته ببركة ذلك اليقين الكامل. ولكي يعرف الصدقَ والزيغ على حقيقتهما وليتحلى بصفة التقوى الحقيقية لأن الإنسان يكون في حالة خطيرة ما بقي في جحيم الجهل وما لم يكن لديه سوى الإيمان التقليدي الذي لم يعُد موقنا به يقينا كاملا بسبب الغفلة والإهمال وغلبة حب الدنيا وعدم الفوز ببصيرة العقل من أي نوع؛ وفي هذه

الحالة ينطبق عليه ما جاء في القرآن الكريم: ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٣).

فالكتاب الذي لا يقدر على إثبات صدقه وصدق مبادئه لا يمكن أن يفتح على الإنسان باب سعادة حقيقية ولا أن يهبه الترقي في العلم والفطنة، بل إنه يحول دون تقدمه ويريد أن يلقيه كجثة هامدة في هوة التقليد المحض التي لا يرى الإنسان فيها ولا يسمع ولا يفهم. والذي يتّبع كتبًا كهذه فهو كائن لا علاقة له مع العقل والاجتهاد والنظر والفكر، بل يعتمد على القصص والحكايات المحضة ولا يصل إلى حقائق الأمور وكنهها، ويعطِّل قوة التدبر والتفكير تماما، ويُتلف قصدا منه جميع القوى المخزونة المودَعة في نفسه وينحطّ رويدا رويدا إلى ما دون مستوى البهائم غير العاقلة. وفي نهاية المطاف يصبح جاهلا تماما مزايا العقل والاجتهاد والفكر والإدراك التي تتوقف عليها إنسانيةُ الإنسان ويصير مسلوب الحواس، فلا يعود مستحقا أن يُدعى إنسانا. ولا يبقى قادرا على أن يميز بالعقل بين الحق والباطل فينطبق عليه بكل معنى الكلمة مثلٌ جاء في القرآن الكريم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: ١٨٠).. أيْ الذين يقلدون الآباء فقط لهم قلوب لا يبصرون بها... فهم كالأنعام بل أسوأ منها أيضا.

قصارى القول؛ إن أمثل وظيفة لكلام الله ﷻ هي أن يؤكد على استخدام ما أُودعت فطرة الإنسان من قوى وقدرات على الوجه الأصلح والأنسب حتى لا تضيع أي قوة أو قدرة أُعطيها الإنسان بمقتضى الحكمة والمصلحة بعينها، أو حتى لا تُستخدَم بإفراط أو تفريط. ومن جملة تلك القوى العقل أيضا الذي يكمن في اكتماله شرفُ الإنسان، وباستعماله في محله تماما يصبح الإنسان إنسانا على وجه الحقيقة ويبلغ كماله المطلوب. فهذه هي الأداة الوحيدة التي أُعطِيها الإنسان بوجه عام للفوز بترقيات لا تنتهي.

فمن المعلوم أنه لو لم يساعد الكتاب الموحى به هذه الأداة ولم يدعمها ولم يحافظ عليها بل أعطى تعليما يهدف إلى تعطيلها تماما، فإن ذلك الكتاب سيعرقل سيرَ القوى الفطرية على الطريق المستقيم بدلا من أن يسيِّرها على الوضع المستقيم، وسيكون قاطعَ طريقها ومُضِلَّها بدلا من أن يعينها ويُسعفها. وكل ما سيُتعلَّم أو يُعلَّم بواسطة هذا الكتاب لن يكون مما يمكن تسميته علما وحكمةً بل سيكون أمنية زائفة ومجموعة معتقدات غير معقولة وأهواءً باطلة وقصصا وحكايات بحتة. وإن مقلِّد كتاب مثله سيطمع كالمجانين في

فالجدير بالانتباه جيدا أن الذين يدّعون ما لم يدَّع به كتابهم الموحى به إثباتا منهم لصدقه ومبادئه، فإن فعْلهم هذا شهادة قاطعة على عجز كتابهم -الموثوق به عندهم والذي يحسبونه موحى به- عن تحقيق مضمون هذا الشرط.

رابعا: أقول لجميع الناس إنني قد أَلَّفتُ هذا الكتاب مراعيا مقتضيات التحضر والآداب إلى أقصى الحدود، ولم يرِد فيه لفظ يستلزم الإساءة إلى زعيم أو مرشد أية فِرقة. وإنني شخصيا أرى أنه من الخبث العظيم استخدام الكلمات من هذا القبيل، صراحةً أو كنايةً، وأحسب مستخدمها شرير النفس إلى أقصى درجة. كذلك أوجِّه كل المخاطَبين الأشراف لتكون مساعيهم منصبَّةً على الأمر نفسه بحقنا أيضا، وذلك بأن تكون كتاباتهم -إن كتبوا شيئا أصلا- مبنية على كلام متحضّر وبريئةً تماما من سخف الكلام والهجو والإساءة إلى المقدسين والأنبياء والرسل، كما يليق بالمتحضر. إن تأليف الكتب الدينية مهمةٌ حساسةٌ جدا، ولا يكون عنان الحكم فيها في يد شخص واحد، بل يلاحقه كل من يقدر على التمييز بين الحسن والقُبح وبين المنصف والمتعصب وبين المفسد وصادق القول. ففي كل قوم يوجد نبلاء -قلةً كانوا أم كُثُرا- لا يحبون بطبيعتهم الخطابات المفسدة وغير المتحضِّرة، ويعدُّون ذكر كبار مختلف الفِرق ومرشديها بسوء وبكلمات نابية من أشدّ درجات الخبث والوقاحة. والحق أن المقدسين الذين جعلهم الله تعالى مرشدين للأمم وأئمتهم بحكمته ومشيئته الخاصة، قد جعلهم ﷻ جواهر نيّرة تلمع في الدنيا، ووهب بواسطتهم العالَم نورَ عبادة الله والتوحيد، وبسبب تعاليمهم القوية انمحت من معظم بقاع الأرض عبادة الخلق التي هي أمّ الخبائث، واخضرّت من جديد شجرة ذكر وحدانية الله التي كانت قد يبست من قبل، ورسخ على صخرة صلبة مجددا بناء عبادة الله الذي كاد ينهدم. وإنه لمن أقصى درجات الخبث والوقاحة والتعنت

أن يحصد دون أن يزرع. فمن الواضح تماما أن الكتاب الذي يتوقف ازدهاره على استئصال العقل لا يمكن أن ينفع البشر شيئا قط. منه

إطالة اللسان على هؤلاء المقبولين عند الله الذين أخذهم الله تعالى في ظل عطفه الخاص وأيّدهم بوجه عجيب؛ فما خافوا بلايين الأعداء وما استكانوا وما قلّ عددهم ولا نشاطاتهم، ولم تصبهم أي مصيبة ما لم يقيموا كل صدق في الأرض في مأمن من كل مؤذٍ.

"كل من يبصق على شمس ساطعة فعلى وجهه يسقط بصاق الخزي والهوان،
عليه اللعنة إلى يوم القيامة، والصالحون بعيدون عن رائحته كل البُعد".[٢٣]

النصيحة التي أُسديها في هذا المقام عن الأدب وحفظ اللسان ليست بلا سبب أو مغزى، بل يخطر ببالي كثير من الناس الذين يحقّرون الأنبياء والرسل ويظنون أنهم يقومون بعمل يُثابون عليه كثيرا، ويكتبون عبارات متحضرة تكشف عن حقيقة طويتهم بكل جلاء! لقد بحثت في الموضوع جيدا وتوصلت إلى أن لهذا التصرف المشين سببينِ اثنينِ: فمثلا، عندما لا يجد بعض الناس في أنفسهم قدرة على صوغ الكلام الحكيم والمعقول أو يتضايقون من إفحام أحد من أهل الحق، وإدانته إياهم وينسدّ الطريق في وجههم، فإنهم يرون المحافظة على ماء وجههم في أن يحوِّلوا البحوث العلمية إلى نوع من السخرية والاستهزاء، وأن يكسبوا الصيت بين أشياعهم بهذه الطريقة إن لم يتسنّ لهم كسبه بطريقة أخرى.

فهؤلاء الذين يدّعون ويزعمون بأنهم معلمون ومرشدون في أقوامهم، يضطرون لإظهار الأنانية والتعصب في كل صغيرة وكبيرة بُغية المحافظة على علو مقامهم، فيُبدون التعنت أكثر من عامة الناس. والحق أنه لا حاجة للتأسف على هؤلاء القوم أصلا، لأن الجهل والتعصب يكونان قد أحاطا بهم من كل جانب، فلا يخافون الله تعالى ولا يبالون بالإيمان والحق والصدق، ويكادون يموتون من أجل حبهم جيفة الدنيا. فما داموا لا يبالون بالله سبحانه وتعالى قط ولا علاقة لهم بالحياء ولا يتوجَّهون إلى قبول الحق بحال من الأحوال، فماذا عسى أن يفعلوا إن لم

[٢٣] *بيتان فارسيان مترجمان. (المترجم)*

يأتوا بكلام سخيف وهراء؟ وإن لم يطيلوا اللسان فماذا يوجد في جعبتهم سواه ليظهروه؟ وماذا يمكن أن يقولوا إذا أرادوا الكلام؟ وماذا عسى أن يكتبوا إن أرادوا أن يكتبوا شيئا.

وباستثناء الذين ليست لهم أدنى علاقة مع التحضر والتحقيق، يلاحظ في المسيحيين في العصر الراهن ظهور مستمر لآلاف من النبلاء والمنصفين[٢٤] الذين

---

[٢٤] **الحاشية** رقم (٦): إن عامة المسيحيين أيضا ليسوا برآء من الاعتراض عليهم أنهم لا يحترمون ولا يعظّمون الأنبياء أيضا كما يجب إلا المسيح ﷺ، دع عنك البغض الذي يملأ قلوبهم تجاه سيدنا خاتَم النبيين ﷺ بوجه خاص. بل كلما شرع أحدهم بعدِّ عيسى ﷺ ابن الله الخاص -بعد التعمُّد- بدأ فورا بإطالة اللسان على الأنبياء الآخرين. فهناك عبارات أفسدتهم إلى حد كبير مثل القول بأن الأنبياء الذين جاؤوا قبل المسيح كانوا لصوصا وسارقين كلهم. ولكن هذه الكلمات التي تنم عن الاستكبار لا يمكن عزوها إلى أيّ إنسان طيب، ولا سيما إلى المسيح ﷺ الذي كان إنسانا متواضعا وحليما وبعيدا عن الأنانية كل البُعد حتى لم يقبل لنفسه أن يسميه أحد بارًّا أيضا. فكيف يمكن أن تُعزى إليه كلمات الاستكبار التي تحتوي على الاعتزاز بنفسه والإساءة إلى الآخرين؟ مما لا شك فيه أنه لو سمّينا أنبياء الله الأطهار لصوصا وسارقين لكنا نحن أنفسنا أسوأ من اللصوص والسارقين بآلاف المرات. إن لم تكن القلوب التي نزل عليها كلام الله المقدّس طاهرةً، فهل من رابطة تربط بين الطاهر والنجس؟ إن من التجاسر الشنيع أن يستخدم المرء كلمات غير لائقة بحق عباد الله الصالحين العظام. كم هو مؤسف أن يتفوه بحق عبادِ الله الأطهار بكلمات التحقير أناسٌ لا يخرجون من قوقعة أنانيتهم ولا للحظة واحدة، ويتعلّقون بالدنيا الحقيرة إلى درجة لم يعد في قلوبهم شيء سواها!

فيا أيها الإخوة؛ عُدّوا الأنبياء أطهارا وكُمَّلا وصادقين حتى تُعَدّ الكتب التي نزلت عليهم أيضا مقدسة. وإلا فإن لم تكن القلوب التي تدفقت منها تلك الكتب طاهرةً، فأنّى لتلك الكتب أن تكون طاهرة؟ هل يمكن أن تحمل شجرة الداتورة عنبا؟ أو تحمل شجرة سامة تينا؟ فإذا كان ماء الينبوع نقيا فاحسبوا الينبوع أيضا نقيا. وإن لم يكن هؤلاء المصطفون الأخيار عباد الله الكاملين والأوفياء لوقع الاعتراض على الله تعالى بأنه لم يعرف أناسا ذوي خصال حميدة. ونضطر للقبول أن لله تعالى أيضا ارتباطا وصِلة باللصوص

والسارقين مثل الأشرار، والعياذ بالله. تفكروا بأنفسكم؛ أيجب أن يكون الوسطاء بين الله وخلقه وناشرو أنوار السماء ناقصين أم كاملين؟ هل يجب أن يكونوا صادقين أم كاذبين؟ إذا كانت الغاية المتوخاة من النبوة والرسالة هي إقامة الناس على المعتقدات الحقة والأعمال الصالحة ثم لم يتمسك بها الأنبياء أنفسهم، فمن الذي سيُصغي لهم؟ وكيف سيكون لكلامهم تأثير؟ بل سيقول لهم الناس حتمًا حتى الأمّيون منهم: يا أيها الأطباء: عالِجوا أنفسكم أولا.

وإضافة إلى ذلك؛ هل من العدل أو التحضر أو خشية الله في شيء أن يذكر المرء أنبياء الله الأطهار بكلمات الإساءة والاستخفاف مثل البواب الذليل، ثم حين يذكر شخصا دنيويا عاديا فيستمر في ذكر ألقاب طويلة لا تكاد تنتهي؟ هل يجوز أن يقف الناس تعظيما لبقّال غنيّ، وألا يعظموا حتى بلسانهم مَن شرّفهم الله تعالى بمكالمته ويتحلون بميزات أحبها ﷻ، فيكونوا محتَقَرين في نظرهم؟ إذا كانوا محتقَرين في نظركم فعلا فلماذا تؤمنون بهم أنبياءَ أصلا؟ ولماذا لا تقولون صراحةً بأننا ننكر نبوتهم؟ إن السبب وراء كل هذه الظنون السيئة هو أنكم لا تدرون حقيقة الوحي الإلهي، وتظنون أن مَثل الوحي أيضا كمَثل منصب دنيوي؛ يُنال كما ينال المرء منصب القضاء أو ما شابه ذلك في حكومة سيئة الإدارة، بتقديم رشوة دون بحثٍ في سلوكه ومؤهلاته، أو كما في حالةٍ لا يهم المسؤولين إلا أن تسير أمورهم كيفما كان؛ فلا يهتمون بحسن تصرف الموظف ومؤهلاته إلا قليلا جدا، وإنما هذا لأن ذلك المنصب يكون سخيفا ومحتقَرا في حد ذاته بحيث لا يقتضي من شاغله الأمانة الكاملة والسيرة الطيبة والمعاملة الحسنة.

ولكن يا أيها الإخوة، إنكم مخطئون في ذلك خطأ كبيرا. إن وحي الله تعالى إنما هو كلام الله المقدس الذي يُشترَط فيه الطهارة التامة والتأهُّلُ الكامل للذي ينزل عليه الوحي، لأن من يكون محجوبا بغشاوات المادية وأهواء النفس، وبعيدا كل البعد عن المبدأ المقدس؛ لا يستحق بركة الوحي الإلهي قط. فما لم تتنزه النفس كليا من كل أنواع المساوئ، فلا تنشأ فيها المؤهلات لتلقي فيض الوحي. ولولا شرط النزاهة التامة، لصار الناس جميعا أنبياء، إذا استوى المؤهل مع غيره. فما دامت النزاهة هي الشرط في هذا السبيل، فيجب عدُّ الأنبياء طاهرين من الدرجة العليا بحيث لا تُتصور طهارة أكثر منها في البشر. لو لم يكن داود عليه السلام طاهرا ومقدسا مثل المسيح تماما، لما استحق النبوة. إن عدَّ المسيح أكثر طهارة وأفضل من داود عليهما السلام فكرة خاطئة تمكّنت من قلوب

اعترفوا بعظمة الإسلام من الأعماق بسبب تحلّيهم بصفة العدل، وذكروا في مؤلَّفاتهم بكل قوة ووضوح خطأَ مسألة التثليث وتسرُّب البدع العديدة إلى الديانة المسيحية. ولكن من المؤسف حقا أن خُلُقَ العدل هذا يتلاشى الآن من مواطنينا "الآريا" شيئا فشيئا. وقد أحاط التعصب هذا القوم من كل جانب حتى أنهم يرون ذكر الأنبياء باحترام كأنه خطيئة، ويحطّون من شأنهم جميعا ويعُدّونهم مفترين ومحتالين، وكذا يدّعون بلا دليل زاعمين أن "الفيدا" هو كلام الله الوحيدُ الذي نزل على صلحائهم، أما بقية الكتب الموحى بها التي أفادت الدنيا آلاف الفوائد من حيث التوحيد ومعرفة الله فيرون أنه قد اختلقها الناس من عند أنفسهم! ومع أني قد دحضتُ هذا الادعاء في هذا الكتاب بما قَضى على الفيدا الحالي قضاءً نهائيا، لكنني أودّ أن أكشف هنا مدى بُعد أفكارهم عن

المسيحيين نتيجة جهلهم التام بحقيقة الوحي والنبوة. وسأفصِّل ذلك في حينه مع ذكر جميع الأدلة بإذن الله.

فليكن معلوما هنا أيضا أن المسيحيين الذين ورد ذكرهم في هذه الحاشية يسخرون من رسل الله الأطهار من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤلهون المسيح، وإلى جانب الألوهية يحسبونه أفضل وأعلى من الأنبياء جميعا من حيث النبوّة أيضا. فليتضح أن ذلك خطأ آخر منهم. والحق أن أفضل الأنبياء وأعلاهم هو ذلك النبي الذي هو المربّي الأعظم للدنيا كلها؛ أيْ الإنسان الذي صلُح على يده الفساد الأعظم في الدنيا، والذي أقام التوحيد المفقود على الأرض من جديد، وجعل الأديان الباطلة كلها مغلوبة بالحجة والبرهان، وأزال شبهات كل ضالٍّ ووساوس كل ملحد، وهيأ للنجاة وسائل حقة بتعليم المبادئ الحقة من جديد، وأقام أسبابا حقيقية لا تحتاج إلى صلب أحد ولا إلى إزالة الله تعالى من مقامه القديم والأزلي وإدخاله في بطن امرأة. إذن، فإن درجته ومرتبته ﷺ تتحقق أعلى وأفضل من الجميع، بدليل أن بركاته وإفاضته أكثر من الجميع. ويشهد التاريخ والكتاب السماوي أيضا -وكل من له عينان يشهد أيضًا- أن النبي الذي ينال الأفضلية بين الأنبياء جميعا بحسب هذا القانون؛ هو سيدنا محمد المصطفى ﷺ، كما سيتبين ذلك مثل الشمس الساطعة في هذا الكتاب لاحقا. منه.

حسن الظن ومبادئ التحضر وصفاء القلب، وكيف فقدوا دفعة واحدة بسبب تعصبهم القديم المتغلغل في كل ذرة من كيانهم قوى حسن الظن التي هي المعيار لنُبل الإنسان ونجابته وسعادته، والتي هي زينة الإنسانية وجمالها[٢٥]. لقد ترسخت في أذهانهم فكرة أن جميع الأنبياء الذين جاؤوا إلى بلاد غير بلاد الهند، والذين أخرجوا الناس هناك من ظلمة الشرك وعبادة المخلوق ونوّروا معظم البلاد بنور الإيمان والتوحيد كانوا كاذبين ومفترين، والعياذ بالله، وأن الرسالة والنبوة الصادقة إنما هي إرث البراهمة فقط ومِلك لأسلافهم فحسب، وقد اختارهم الله

---

[٢٥] **الحاشية** رقم (٧): إن حسن الظن قوة طبيعية أُودعت فطرة الإنسان، وإن استخدامها ميزة طبعية في الإنسان ما لم يكن هناك سبب جوهري لسوء الظن. ولو عطّل أحد هذه القوة دونما سبب واتخذ من سوء الظن عادة له لسُمِّي مجنونا أو أسير الأوهام أو مسلوب الحواس. ومَثَله كمثل الذي لا يأكل الحلوى أو الخبز وغيرهما من السوق متوهّما أن الخبازين أو صُنّاعها قد دسّوا السمّ فيها، أو كالذي يشك في حالة السفر بكلٍّ مَن يدلّه على الطريق زاعما أنه قد يخدعه في ذلك، أو يخاف الحلاقَ خشية أن يقتله بموساه. فكل هذه الأفكار إنما هي مقدمات الجنون والهلوسة. عندما يكون أحد على وشك الإصابة بالجنون تنشأ أولا في قلبه أفكار فاسدة مثلها، ثم يجنّ جنونه رويدا رويدا. فثبت من ذلك أن إساءة الظن دون سبب معقول شعبة من شعب الجنون، وعلى كل عاقل فطين أن يجتنبه في كل الأحوال. والحكمة في إيداع الله تعالى قوة حسن الظن في فطرة الإنسان هي أن الصدق والسداد أيضا هي فعلا قوة فطرية في بني آدم، فلا يريد الإنسان أن يكذب ولا يجيز لنفسه ارتكاب أيّةِ سيئةٍ أخرى ما لم يُكرِهه قاسرٌ. ولو لم يُعطَ الإنسان قوة حسن الظن لضاعت جميع المنافع التي ينالها الناس بعضهم من بعض بقوة الصدق والصلاح التي هي عماد مهمات التمدّن والتعايش، وتعتمد عليها إدارة البيوت والبلاد، ولحرِم الناس جميعا من الفوائد التي تترتب على استخدام القوة المذكورة. فمثلا؛ من بركات حسن الظن أن الأولاد الصغار يتعلمون الكلام والحديث بسهولة ويعرفون آباءهم. ولو أساؤوا الظن لما تعلّموا شيئا، ولقالوا في نفوسهم: لعل معلّمينا يقصدون من وراء ذلك شيئا آخر. فلو كانوا كذلك لظلوا بُكمًا ظانين ظن السوء، ولشكّوا في أمر آبائهم أيضا، أهُم آباؤهم فعلا أم لا. منه

ﷻ وحدهم دون غيرهم لهذا الغرض، وقد أقحم بحر هديه الواسعَ وتعاليمه كافة في بلدهم الصغير، وقد أُعجِب ﷻ إلى الأبد ببلادهم وحدهم وبلغتهم وأُعجب بالأنبياء الثلاثة أو الأربعة منهم فقط[٢٦]، الذين هم لا يقدرون على إظهار أن مسألة الإلهام والرسالة هي من قوانين القدرة العامة وسنة الله القديمة، بل يظل أمر النبوة والوحي ضعيفا وغير جدير بالثقة ومشكوكا فيه ومشتبها لقلة عدد الملهَمين. وكذلك حُرم من النجاة ومن فضل الله ورحمته وهديه

[٢٦] **الحاشية** رقم (٨): إنّ الفيدات التي في أيدي الهندوس حاليا ويسمونها "رِغ" و"يَجُرْ" و"شام" و"اتهرون"، كما يُطلقون عليها: "رِج" و"يَجش" و"سامن" و"اتهرونا" أيضا؛ لا يُعرف بالضبط على مَن نزلت؟ يقول البعض بأنها أُلهمت إلى "أغني" و"وايو" و"سورج"، مع أن هذه الفكرة غير معقولة قطعًا، وهناك من يقول بأن هذه الفيدات الأربعة خرجت من أفواه "البرهما" الأربعة، ويرى آخرون أنها أقوال رجال الدين المختلفين. إن هذه البيانات تضم في طياتها شكوكا بحيث لا يُدرى هل كان لهؤلاء الأشخاص وجود أيضا في الحقيقة أم أنها كلها أسماء افتراضية. غير أنه يبدو عند النظر إلى الفيدا أن الرأي الثالث هو الصحيح، لأن أسماء رجال الدين المختلفين مكتوبة مع عبارات الفيدا المختلفة. وقد اتفق معظم البانديتات الباحثين أن الفيدا "اتهرون" زائف أو أنه كتاب ديني للهندوس أُلحق بالفيدات فيما بعد. ويبدو أن هذا هو الرأي السديد، لأن "رِگ فيدا" -الذي هو الأساس والمصدر للفيدات كافة ويُعتبَر الأكثر ثقة من غيره- يتناول ذكر فيدات "رِگ" و"يَجُرْ" و"شام" فقط ولم يرد فيه ذكر "اتهرون فيدا" قط. لو كان الأخير أيضا ضمن الفيدات الأصلية لورد ذكره أيضا حتما. ثم ورد في فيدا "يَجُرْ" -الباب ٢٦- بكل وضوح أن عدد الفيدات ثلاثة فقط. كذلك قد ورد في فيدا "شام" أيضا أن الفيدات ثلاثة. وقد اعترف "منو جي" -في الفصل ٧، الباب ٤٢ من تفسيره- بوجود ثلاثة فيدات. ولقد ورد في كتاب: "جوگ بششت" -وهو كتاب مقدس جدا عند الهندوس وهو مجموعة التعاليم التي أُعطي راجه رام تشندر من أستاذه بوجه خاص- ماهية الفيدات الأربعة بوضوح تام، وكأن المؤلف أصدر فيه قرارا نهائيا بصددها، ويتلخص قراره في أن النقاش لا يقتصر على الفيدا "اتهرون" فقط بل الحال نفسه بالنسبة إلى جميع الفيدات، إذ لا يخلو أحدها من التحريف والتبديل والنقص والزيادة. منه.

عشرات الملايين من عباد الله الذين جهلوا هذا البلد أو جهل أهلُ هذا البلد بلادَهم. والأغرب من ذلك أن هؤلاء الثلاثة أو الأربعة أيضا لم يوهَبوا منصب النبوة بمشيئة الله وحكمته الخاصة بحسب رأي الآريين ذوي الاعتقاد الخاطئ، بل استحقوا تلقائيا هذا المنصب نتيجة أعمالهم الصالحة التي كسبوها في إحدى مراحل حياهم المجهولة، فصار الله مضطرا ليجعلهم أنبياء على أية حال. أما بقية الناس فقد حُرموا من هذه المرتبة السامية إلى الأبد. فحرم البعض من تلقي الإلهام من جراء جريمة أو تقصير، وحرم آخرون لكونهم من غير قوم "الآريا" أو لإقامتهم خارج بلدهم.

والآن يجب الانتباه إلى مدى مجافاة الحق وفظاعة الظلم الكامن في سوء الظن بعباد الله المقبولين الذين ظهروا ظهور الشمس وبدّدوا الظلمة السائدة في الدنيا في عصورهم. وإضافة إلى ذلك، فإن هذا الاعتقاد هو سوء ظنٍ بإلههم كما يتصورونه أيضا؛ إذ يحسبونه غافلا أو سكران أو متخبط الحواس، وأنه غافل إلى درجة أنه قد نشأت بعد الفيدات آلاف أنواع البدعات، وهبّت مئات الآلاف من الأعاصير وحدثت صنوف المفاسد حتى وقع خلل كبير في ملكوته واحتاجت الدنيا إلى إصلاح جديد بشدة متناهية، ولكنه ظل راقدا رقودا طويلا وما استفاق منه، وهرّب فما رجع، وكأنه لم يكن في جعبته من الإلهام إلا ما أنفده في الفيدا، ولم يملك من المال إلا ما وزّعه من قبل، ثم بقي صفر اليدين خاوي الوفاض إلى الأبد، وخُتم على فيه. وأن كافة صفاته كانت سارية المفعول إلى الآن، أما صفة الكلام فكانت سارية المفعول إلى عصر الفيدا ثم تعطّلت وعَجِزَ الإله عن الكلام وإنزال الإلهام إلى الأبد[٢٧]. هذا هو اعتقاد

[٢٧] **الحاشية** رقم (٩): قد تطل هنا وسوسة برأسها في قلب أحدهم بأن المسلمين أيضا يعتقدون بأن الوحي بدأ من آدم عليه السلام وانتهى عند النبي ﷺ، فهذا الاعتقاد أيضا يستلزم انقطاع الوحي إلى الأبد بعد زمن سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ. فليكن معلوما في الجواب أننا لا نعتقد مطلقا مثل الهندوس أنه ليس عند الله من الكلام إلا ما قد أنفده سابقا، بل إن كلام

الله وعلمه وحكمته غير محدودة كذاته بحسب معتقد الإسلام. فقد قال تعالى في ذلك: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

أما اعتقادنا بانقطاع الوحي بعد النبي ﷺ فالحق في ذلك أنه مع أن كلام الله غير محدود في حد ذاته، وحيث كانت المفاسد التي ينـــزل كلام الله لإصلاحها أو الحاجات التي يسدّها الوحي الإلهي محدودة، لذا فإن كلام الله تعالى نزل أيضا بقدر حاجة بني آدم إليه. فقد نزل القرآن الكريم في زمن ظهرت فيه كافة الحاجات التي كان ظهورها ممكنا.. أي كانت الأمور المتعلقة بالأخلاق والمعتقدات والقول والفعل قد فسدت كلها، وكان كل أنواع الفساد وصنوف الإفراط والتفريط قد بلغت منتهاها، فجاءت تعاليم القرآن أيضا بالغة ذروتها. فبهذا المعنى صارت شريعة القرآن الكريم خاتمة ومكمِّلة، أما الشرائع السابقة فكانت ناقصة؛ لأن المفاسد التي جاءت تلك الكتبُ الموحى بها لإصلاحها لم تبلغ ذروتها في الأزمنة السابقة، بينما بلغت كلُّها أوجَها في زمن القرآن الكريم. فالفرق بين القرآن الكريم والكتب الأخرى الموحى بها هو أنه بسبب النقص في تعاليمها فقد كان ضروريا أن ينـــزل التعليم الكامل -أي القرآن الكريم- في وقت من الأوقات، حتى ولو ظلّت الكتب السابقة محفوظة من كل نوع من الخلل. أما القرآن الكريم فلا يحتاج أن يأتي بعده كتاب آخر، إذ لم تبق في الرفعة درجة أخرى بعد بلوغ القرآن درجة الكمال. ولو افترضنا جدلا أن مبادئ القرآن الكريم الحقةَ أيضا ستُحوَّل في زمن من الأزمان إلى الشرك مثل الفيدا والإنجيل، وسيتطرق التحريف والتبديل إلى تعليم التوحيد، وكذلك لو افترضنا جدلا إلى جانب ذلك أن ملايين المسلمين الثابتين على التوحيد أيضا سيسلكون طريق الشرك وعبادة المخلوق في زمن من الأزمان، لوجب في هذه الحالة أن تنـــزل شريعة أخرى ويأتي رسول آخر. ولكن كِلا هذين الأمرين محال. إن تحريف تعليم القرآن محال لأن الله تعالى ذاتُه قد قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠)، وإن صدق هذه النبوءة لا يزال يتحقق منذ ١٣٠٠ عام، إذ لم يتطرق إلى القرآن الكريم تعليم الشرك من أي نوع كما حدث للكتب الأخرى، ولا يستسيغ العقل أن يختلط به تعليم الشرك أيا كان نوعه في المستقبل أيضا، لأن هناك مئات الألوف من حفاظ القرآن الكريم، ويوجد آلاف من كتب التفسير، وتُتلى آياته في الصلوات الخمس كل يوم، ويُتلى كل يوم. كما أن انتشاره في البلاد كلها، ووجود ملايين النسخ منه في العالم، واطلاع كل الأمم عليه؛

الآريين الذي يُرغَّب فيه كل هندوسي ليتخذه دينا له. ومن اللافت أن هذا الاعتقاد لم يُذكر في الفيدا قط. ولا يوجد فيه أي نصٍّ يعلِّم سوء الظن هذا الناتج عن التعنّت. يبدو أن ذلك الاعتقاد قد اختُلق في الأيام نفسها التي ذكر فيها العلماء من قوم الآريين في كتبهم -سواء أكانت دينية أو غيرها- بأنه لا يوجد وراء جبال الهملايا وجزءٍ من آسيا أيُّ بلد. كذلك اختُلقت في الأيام نفسها مئات الأفكار الواهية والأوهام الأخرى التي أرى ذكرها عبثا ولا تزال

يجعل العقل حدوث أيّ نوع من التغيُّر والتبدّل فيه مستحيلا ويرفضه قطعا في المستقبل أيضا. وإن عودة المسلمين إلى الشرك من المحالات؛ إذ قد أنبأ الله تعالى نفسه في القرآن الكريم: ﴿مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سبأ: ٥٠).. أيْ قد قُضي على الشرك وعبادة المخلوق قضاءً نهائيا بحيث لن تقوم له قائمة ثانيةً ولن يعود إلى سابق عهده قط. فإن صدق هذه النبوءة أيضا أظهر من الشمس، لأن الشرك وعبادة المخلوق لم يحلّ محلّ التوحيد إلى يومنا هذا مع مرور عهود سحيقة في الأمم والبلاد التي مُحي منها الشرك والوثنية. وإن العقل موقن بصدق هذه النبوءة في المستقبل أيضا يقينا كاملا؛ لأن تعليم التوحيد لم يتـــزلزل حتى في أوائل الأيام حيث كان عدد المسلمين ضئيلا، بل ظلّ يتقدم يوما بعد يوم، فكيف يمكن أن يحدث التـــزلزل الآن في الأمة وقد تجاوز عدد هذه الجماعة الموحِّدة مئتي مليون؟ وبالإضافة إلى ذلك لقد حان أوانٌ بدأت فيه طبائع المشركين أيضا تميل إلى التوحيد رويدا رويدا نتيجة كثرة سماعهم تعليم القرآن وصحبتهم الدائمة لأهل التوحيد. أينما نظرتم وجدتم أدلة التوحيد تقصف أبراج الشرك المزعومة والموهومة كالجنود البواسل. وحماس التوحيد الطبيعيّ قد أحدث اضطرابا في قلوب المشركين. وإنّ وهْن بناء عبادة المخلوق يتكشف باستمرار على ذوي الأفكار السامية. وإن البنادق القوية لوحدانية الله تعالى لا تزال تنسف أكواخ الشرك المقرفة. فيتبين من هذه العلامات كلها استحالة انتشار ظلمة الشرك كما كان في الأزمنة الغابرة حين أشرك العالم المخلوقاتِ بذات الخالق وصفاته. وما دام تطرُّق التحريف والتبديل إلى مبادئ القرآن الكريم الصادقة مستحيلا، أو كان استيلاء ظلمة الشرك وعبادة المخلوق على الخلق كله محالا عقلا، استحال نزول شريعة جديدة ووحي جديد أيضا بموجب العقل، لأن ما استلزم محالا كان محالا بحد ذاته. وعليه فقد ثبت أن النبي ﷺ هو خاتَم الرسل في الحقيقة. منه

تتلاشى من الدنيا يوما فيوما، إذ يهجرها أهل العلم والفطنة تلقائيا. إنه لمن المؤسف حقا أن أصحاب هذا النوع من التحقيق والتدقيق -والذين يتعذر العثور في فيداتهم المقدسة على ذكر وجود الله ﷻ، خلاف ذكر النار والهواء والشمس والقمر وغيرها من المخلوقات- يحسبون موسى وعيسى عليهما السلام وسيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ مفترين، ويعدّون عصورهم المباركة عصور الخديعة والزيف، ويحملون انتصاراتهم التي تمثل نماذج سامية لتأييد الله تعالى محمل الحظ والصدفة، ويحسبون كتبهم المقدسة، التي أعطاهم الله تعالى في أوقات الضرورة تماما وأدّت إلى إصلاح عظيم في الدنيا، مسروقة من مضامين الفيدا. والأغرب من ذلك أنهم لم يبرهنوا إلى الآن على أية سرقة ارتُكبت. هل ورد في القرآن الكريم أو الإنجيل أو التوراة حكم بعبادة النار كما في الفيدا؟ وهل جاء في أي مكان منها مدح الهواء والماء أو في مكان آخر الثناءُ على السماء والقمر والشمس؟ أو هل طُلبت بقرات كثيرة وهل سئل مالٌ وفير مقابل كيل المديح للإلهة "إندرا"؟

فما الذي سُرق من الفيدا إن لم يُنقل منه شيء من هذه الأشياء التي هي لبُّه وملخّص تعاليمه؟ إنني أتأسف كثيرا على البانديت ديانند في هذا المقام لأنه استخدم كلمات قاسية جدا بحق التوراة والإنجيل والقرآن الكريم في بعض كتيباته وكذلك في مقدمة تفسيره للفيدا، إذ قد عدّ الفيدا ذهبا خالصا وحسب كتب الله الأخرى كلها ذهبا زائفا، والعياذ بالله. والسبب الوحيد وراء كل هذا الكلام الفارغ والحذلقة والهراء هو أن البانديت المذكور لا يعرف العربية ولا الفارسية ولا لغة أخرى سوى السنسكريتية، بل هو محروم بتاتا من أدنى معرفة بالأردية أيضا ويجهلها جهلا تاما. وهناك أمر آخر أيضا يتبين بمطالعة مؤلَّفاته الحديثة وهو أن فطنته الفطرية محرومة من الاستقامة والصمود على الصراط المستقيم؛ إضافة إلى تعصبه وقلة فهمه وقصور علمه وحاله حالُ المجانين والمتوهمين. وقد اعتاد بشكل عام أن يعدَّ الصالح طالحا والطالح صالحا، وأن يعُدّ

الخالص زائفا والزائف خالصا، والمستقيم معوجًّا والـمعوجّ مستقيما، ويتضح رأيه هذا في كل مكان بصورة عفوية. ولهذا السبب يقوم بتأويلات للفيدا لا يمكن أن تخطر ببال أحد مطلقا، ثم يطبع أفكاره اللامنطقية هذه ويفضح نفسه بنفسه بين الناس. مع أن جميع الباندیتات في الهند كلها يصرخون بأعلى صوتهم بأنه لا يوجد في فيداهم أيّ أثر للتوحيد، ولم يتعلّم آباؤهم وأجدادهم هذا الدرس قط، ولم تمنعهم الفيدات في أيّ مكان من عبادة الخلق، ولكن هذا الباندیت المحترم لا يتوقف عن إطلاق سهام أفكاره الزائفة، ويريد أن يجعل من مئات آلهة الفيدا إلها واحدا حتى لا يقع خلل في عدِّ الفيدا كتابا موحى به.

على أية حال، كلّ ما قام به الباندیت المحترم من التطاول على الفيدا وما زال يقوم به فـهو من شأنه، أما الإساءة إلى القرآن الكريم بغير حق فسوف تؤدي إلى فضيحته وهوانه الكبير. فبتأليف كتابي هذا قد أشرق ذلك اليوم أخيرا. ولا ندري هل سيبقى الباندیت حيا أو تثور في ذهنه فكرة الانتحار بعد أن يطّلع في كتابي هذا، مستعينا بأحد المثقفين، على مئات الأدلة على صدق القرآن الكريم وأفضليته وعلى بطلان مبادئ الفيدا. من المؤسف حقا أنه لا يخاف الذلة في العاقبة نتيجة الإساءة إلى كتاب قد بلغ ذروة العلو والفضل والتمام والكمال والحسن والجمال مثل القرآن الكريم، ولا يخشى الطعن والتشنيع في الدنيا، فلعلّه لا يبالي بكِلا العالَمين. أما إذا كان لا يخاف الله تعالى أدنى خوف، فـليتَه، إن لم يبق لديه شيء من الحياء والخجل، خاف لعن الناس وطعنهم على الأقل، حتى يتجنب الذلة والهوان الدنيوي على الأقل. وأما إذا كان من طبيعته أنه يُسَرّ بالإساءة إلى رسل الله المقدسين بغير حق، وكان مجبولا على عجزه عن ضبط نفسه؛ فماذا عسى أن تضر طبيعته هذه عباد الله الأطهار؟ هل من جهد ادّخره أعداء الأنبياء من قبل ليطفئوا هذه المصابيح المضيئة؟ وهل من مكيدة لم ينفذوها لهذا الغرض؟ ولكن لَمّا كان الأنبياء أشجار الصدق والحق، فقد ظلوا يزدهرون على الدوام نتيجة النصرة من الغيب، وما أصيبوا

بأدنى ضرر بمكائد المعاندين المعادية. بل ظلوا يزدهرون باستمرار كأغراس لطيفة وجميلة تسرّ صاحبها إلى أن صاروا مثل دوح عظيمة ذات ظلال وثمار لجأت إليها الطيور الباحثة عن الراحة الروحية والصادقة من أماكن نائية. ولم يقدر معاندوهم على أن يفعلوا شيئا. مع أن المعارضين لم يدّخروا جهدا قط، بل بذلوا كل ما في وسعهم، وقاموا بمكائد عظمى ومكروا مكرا كُبَّارا، ولكنهم ظلوا يضطربون مثل الديك المقبوض عليه ولم تقم لهم قائمة. فلما لم يلحق بهؤلاء المقدسين أيّ ضرر بأيدي هؤلاء المعاندين، فأنّى لهم أن يتضرروا بكلمات اللسان المسيئة؟ إن الأنبياء قوم مختارون قد اختُبر حظهم من الازدهار في عصورهم. فلم يتوقف ازدهارهم بتأثير مساعي عبدة الأوثان، وما سُدّ سبيلهم بمجهودات عبدة المخلوق، وما استطاع حد السيوف أن يقطع عظَمَتهم وشوكتهم، وما قدرت حدة السهام أن تعرقل سبيلهم. بل ظل ذلك الجلال يلمع حتى أدّى حسَدُهم إلى هلاك الكثيرين من الحساد. وقد انطلق ذلك السهم فجرح أكبادا كثيرة، ومَن وقع عليه هذا الحجر السماوي فقد سحقه تمامًا، ومن وقع هو عليه فقد ترضض.

"إن عباد الله الأطهار ينالون النصرة من الله، وعندما تأتي هذه النصرة تُري العالَم عالَـمًا آخر.

تتحوَّل أحيانا إلى رياح عاتية تذرو كل قشة وكل عصف مأكول من الطريق، وأحيانا أخرى إلى نارٍ تحرق كل معاند.

تتحول أحيانا إلى تراب يقع على رؤوس المعاندين، وأحيانا تتحول إلى ماء يسبب لهم فيضانا جارفا.

فباختصار، لا تتوقف أعمال الله بمكائد الناس، فهل يمكن أن تقوم للخلق قائمة أمام الخالق؟"[٢٨].

---

[٢٨] *أبيات أردية مترجمة. (المترجم)*

فلباب الكلام أنه إذا كان الबانديت المذكور وغيره من المعاندين والمعارضين لا يريدون أن يؤمنوا بكتب الله الصادقة بسبب حبهم للدنيا والقوم، أو نظرا إلى وجاهتهم ومرتبتهم أو بسبب ضعف الحياء عندهم؛ فهذا شأنهم. ولكننا ننصحهم أن يتوقفوا عن إطالة اللسان لأن عاقبتها ليست حسنة. ولو قبلنا – على سبيل الفرض المستحيل- أن صدق أنبياء الله الأطهار لا يثبت بحسب فهمهم العجيب، فمع ذلك فإن الذي يكنّ في قلبه شيئا من خشية الله ﷻ أو خوفِ طعن الناس فلا بد أن يعترف أن عدم ثبوت الصدق لا يستلزم ثبوت الكذب؛ لأن القول بأن زيدا لا يثبت صدقُه، لا يُساوي مطلقا القول بأن كذبه ثابت. فما لم يثبت كذب أحد فإن إطلاق أحكام الكذب الأخرى عليه ومناداته بالكاذب إنما هو عمل الذين لم يكن لهم من دينهم وإيمانهم وإلههم ومعبودهم إلا الطمع في جيفة الدنيا أو العزةُ والشرف الزائف المزعوم أو علائقُ القوم والقرابة. ولو قبلوا الحق وتخلوا عن كل أنواع التعنت لاضطروا للدخول في دين الله تعالى نابذين كل شيء وراء ظهورهم مثل درويش فقير، وفي هذه الحالة يصعب عليهم الاحتفاظ بألقاب "البانديت" و"الكاهن" وغيرهما؟ ولكن لو لم يعرقل هؤلاء القوم سبيل الحق والصدق، فمن سيفعل ذلك غيرهم؟ وإن لم يستشيطوا هم غضبا وغيظا فمَن يفعل؟ إنهم يرون في الاعتراف بعظمة الإسلام عارا على شرفهم، بل وستُغلَق أبوابٌ من مصادر معاشهم؛ فكيف يمكنهم إذن أن يشتروا لأنفسهم ألف مصيبة بقبولهم الإسلام؟ لهذا السبب فقط لا يقبلون الصدق الذي توجد لقبوله مئات الدوافع والأسباب، ويؤمنون بالكتب التي كل حرف منها يعلّم الشرك. ويتبين عدم إنصافهم من أنه لو أنّ امرأة لا يثبت عفافها إلا بالكاد، إذا اتُّهمت بتصرف غير لائق لتساءلوا فورا قائلين: مَن رآها ترتكب؟ ومن أمسك بها بجرم مشهود؟ ومن يشهد على ذلك شهادة عيان؟ أمّا هؤلاء المقدسون الذين لم يشهد على صدقهم مجرد شخص أو شخصين بل ظل يشهد بذلك ملايين الناس، فإن البانديتات مستعدون لإلصاق

التهم الباطلة بهم فورا دون أن يكون لديهم دليل على أن هؤلاء المقدسين قد وضعوا مسوّدة الافتراء على مرأى من أحد، أو استشاروا غيرهم في هذه المكيدة، أو كشفوا هذا السر لأحد من خدامهم أو أصدقائهم أو نسائهم، أو أمسك بهم شخص آخر وهم يستشيرون أو يكشفون هذا السر، أو اعترفوا بأنفسهم أنهم مفترون حين واجهوا الموت. فهذا كله يدل على سواد الباطن، ومن هنا تترشح سوء طويتهم. إن الأنبياء أناس قدموا براهين ساطعة على صدقهم الكامل وبذلك أقاموا حجة على أعدائهم، كما ذُكرت هذه الحجة في القرآن الكريم على لسان سيدنا خاتَم الأنبياء في الآية ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[29] أي لستُ من الكاذبين المفترين. انظروا: لقد عشتُ بين ظهرانيكم أربعين عاما من قبل، فهل أثبتم عليّ أيّ كذب أو افتراء؟ أفلا تعقلون إذن؛ كيف لِمَن لم يكذب أيّةَ كذبة قط إلى هذا اليوم أن يأتي ويكذب على الله الآن؟

إذن، فإن وقائع حياة الأنبياء وسلامة سيرتهم ثابتة وبديهية تماما بحيث لو تأملنا في أحداث حياتهم وحدها تاركين الأمور الأخرى كلها جانبا لكانت في سيرتهم وحدها كفاية لإثبات صدقهم. فمثلا لو تأمل منصف وعاقل في سيرة سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ غاضا الطرف عن كافة الأدلة والبراهين التي سنوردها في هذا الكتاب على صدقه ﷺ لأيقن من الأعماق -بالنظر إلى وقائع سيرته فقط- أنه نبيٌّ صادق دون أدنى شك. وكيف لا يوقن إذ تتعطر تلك الوقائع بكمال الصدق والصفاء بحيث تنجذب إليها قلوب طلاب الحق تلقائيا؟

يجب التأمل كيف استقام النبي ﷺ وصمد على إعلانه النبوة من أول يوم إلى آخر لحظة من حياته مع ظهور آلاف الأخطار ونهوض مئات الآلاف من المعاندين والمعارضين والمخوِّفين، وواجه إلى سنين عديدة من المصائب وتحمّل من الإيذاء ما كان من شأنه أن يؤدي إلى اليأس والقنوط من النجاح تماما. وقد

---

[29] يونس: ١٧

ظلت تلك المصائب تزداد يوما إثر يوم بحيث ما كان لِيُتصور أو يخطر على البال تحقق أيّ هدف دنيوي نتيجة الصبر عليها، بل الحق أنه ﷺ فقدَ أصدقاءه السابقين أيضا بسبب إعلانه النبوة. وبقيامه بإعلان واحد فقد اختار لنفسه مئات الآلاف من المعارضات، واستدعى لنفسه آلاف البلايا والآفات؛ فقد نُفي من وطنه، ولوحق للقتل، وقطعت أسباب معيشته، ودُسّ له السمُّ مرارا. لقد تحول المتعاطفون إلى أعداء، وعكف الأصدقاء على العداء. واضطر ﷺ لتحمّل أنواع المرارة والمعاناة إلى زمن طويل لا يسع مكّارا ومزيِّفا أن يصبر خلاله عليها بأقدام راسخة. ثم حين حصلت للإسلام الغلبة بعد مدة، فما جمعَ ﷺ لنفسه كنـــزا في أيام الازدهار والتقدم، وما شيَّد بناء وما أعدّ بلاطا، وما اختار أسباب الرفاهية وعيش الملوك، وما جلب لنفسه منفعة. بل أنفق كلّ ما جاءه على رعاية اليتامى والمساكين والأرامل والمثقَلين بالديون، ولم يأكل ﷺ ملء بطنه ولا مرة واحدة. كان سديد القول لدرجة أنه حوَّل جميع الأقوام والفِرق وكافة الناس الغارقين في الشرك إلى معارضين له نتيجة وعظهم بالتوحيد. أما أقاربه ﷺ فجعلهم قبل غيرهم أعداء له نتيجة معارضته لهم في عبادة الأوثان. أفسد علاقاته مع اليهود أيضا بمعارضته إياهم في أمر عبادة المخلوق بأنواعها المختلفة والأعمال السيئة الأخرى؛ مثل تكذيب المسيح عليه السلام والإساءة إليه، مما أدى إلى احتراق قلوبهم إلى أقصى الدرجات، فاستعدوا للعداوة المريرة وبدأوا يتحيَّنون الفرص لقتله. كذلك أسخط المسيحيين أيضا لأنه ﷺ لم يعتبر عيسى عليه السلام إلها ولا ابن إله ولا منجِّي الآخرين نتيجة موته على الصليب كما كانوا يزعمون. ثم سخط منه عبدة النار والكواكب أيضا لأنه عارض عبادة آلهتهم، وعدَّ التوحيد وحده مدار النجاة.

والآن قولوا عدلا وإنصافا، هل تعدُّ خطة لكسب مواساة الدنيا بأن يقال لكل حزبٍ أقوال صريحة وجارحة مثل ما جاء في أقواله ﷺ أدت إلى أن شمَّر الجميع عن سواعدهم للمعارضة وانكسرت قلوب الجميع من السخط؟ وقد

جعل الجميع يحتدمون -قبل أن يكوِّن لنفسه جماعة وإن كانت صغيرة، أو يحرز قوة لذب الهجوم عن نفسه- حتى صاروا عطاشى لدمه. بل كانت الخطة الذكية لكسب مواساة الدنيا أن يصدِّق ﷺ بعضَهم أيضا كما كذَّب بعضَهم الآخر لكي يوافقه بعضهم عندما يعارضه بعضهم الآخر. ولئن قال للعرب إن اللات والعُزّى حق لسقطوا جميعا على قدميه ﷺ ولاستغلهم كما شاء، لأنهم كانوا من أقاربه ومعارفه وعديمي المثال في الحميَّة العشائرية، فلو فعل ذلك لصار كل شيء على ما يرام؛ إذ كان العرب سيفرحون بتعليم عبادة الأوثان ولأطاعوه ﷺ قلبا وروحا.

ولكن يجب التأمل؛ أكان لمصلحة دنيوية أن يفسدَ النبيُّ ﷺ علاقته مع الأقارب وغيرهم دفعة واحدة وأن يتمسك بالتوحيد الذي ما كان هناك شيء أبغضَ منه في نظر العالم في تلك الأيام وكان مآل الاعتصام به يؤدي إلى مواجهة مئات المشاكل، بل كان الهلاك نفسه يحدق به بسبب ذلك؟ أيّ هدف كان ﷺ ينوي تحقيقه نتيجة الإصرار على ذلك المعتقد المثير للبلايا الذي بإظهاره سُجن المسلمون وصُفِّدوا وضُربوا ضربا مبرحا خاصة حين جعل ﷺ الدنيا كلها تعارضه للسبب نفسه وخسر من كان معه؟ هل هو أسلوب لكسب مواساة الدنيا بأن يقال لكل شخص كلامٌ مرير يعارض طبعه ومرضاته وعادته واعتقاده، وبذلك يحوَّل كلُّ شخص إلى عطِشٍ لدمه في لمح البصر، دون أن يبقى على أدنى صلة مع أيّ قوم قط؟

هل يقوم الطماعون والمكارون بما يحوِّل أصدقاءهم إلى أعداء لهم؟ هل يقوم الذين يريدون أن يكسبوا الدنيا بالمكائد بعمل يثيرون به الدنيا كلها لعداوتهم دفعةً واحدة ويوقعون أنفسهم في خطر داهم ودائم؟ بل الحق أنهم يسلكون مسلك الصلح والوئام مع الجميع لنيل مبتغاهم، ويشهدون بصدق كل فرقة، ولا يلاحظ فيهم الإخلاص لمرضاة الله تعالى، ولا يبالون بوحدانية الله وعظمته؛ فما لهم ولتحمل الضرب والمعاناة في سبيل الله دونما سبب؟ إنهم ينْصبون

شراكهم مثل الصياد حيثما يتسنى لهم قتل فريستهم بكل سهولة. ولا يختارون سبيلا إلا الذي تقل فيه المشقة وتكثر الفائدة الدنيوية. النفاق سيرتهم، والتملق طبعهم، والمعاملة مع الجميع بكلام معسول عادتهم، والتعامل مع اللص وصاحب البيت على السواء شيمتهم. إذا كانوا مع المسلمين كانوا على أتم الاستعداد لترديد: الله الله، وإذا خلوا إلى الهندوس كالوا المديح لآلهتهم. وفي كل مجلس يوافقون الرأي بحسب مصلحتهم ومقتضى الحال. فمثلا إذا سمّى رئيس المجلس النهار ليلا لــَهَبُّوا ليُروا الناس قمرًا ونجوما أيضا. ما لهم والعلاقة بالله تعالى! وما لهم والوفاءِ والإخلاصِ له ﷻ!! وما حاجتهم ليُلقوا بنفوسهم الفرِحة المسرورة في أتون أحزان شتى!!! لقد علّمهم معلِّمهم درسا واحدا فقط؛ وهو أن يقولوا للجميع: إن صراطك هو الصراط المستقيم، وإن رأيك هو الأصوب، وما فهمتَه هو الحق والسداد.

فباختصار، لا ينظرون قط إلى الصحيح والخطأ أو إلى الحق والباطل أو إلى الصالح والطالح، بل كلُّ من أطعمهم شيئا حُلوا كان هو التقي والزاهد والطيب في نظرهم. ومَن بمدحه تمتلئ جحيمُ بطونهم، يعدّونه ناجيًا ووارثًا الجنة وفائزا بالحياة الأبدية. ولكن النظرة إلى وقائع حياة سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ توحي بجلاء تام أنه كان مخلصا وطاهر الباطن وجاهزا للتضحية بروحه في سبيل الله ﷻ من الدرجة العليا، وراغبا تماما عن أيّ أملٍ أو طمع في المخلوق، وكان متوكلا على الله وحده. فقد فنى في مشيئة الله تعالى ومرضاته تماما، ولم يبالِ قط بما يمكن أن يقع على رأسه من بلايا نتيجة إعلان التوحيد، وما سيتحمله من إيذاء ومعاناة على أيدي المشركين. بل حمل على عاتقه كل المشاق والمعاناة والمصائب في سبيل تنفيذ أمر ربه. وأوفى بشروط المجاهدة والوعظ والنصيحة كما هو حقها، ولم يبال بتخويف أحد. ونقول صدقا وحقا: إنه لا تثبت مواضع الخطر في وقائع حياة الأنبياء أجمعين كما ثبتت في حياته، كما لا يثبت أن أحدا منهم عارض الشرك وعبادة المخلوق بهذا الحسم والوضوح متوكلا

على الله مثله ﷺ، أو كان لأحدهم أعداء بهذه الكثرة ثم أبدى رسوخ القدمين والاستقامة والصمود مثله ﷺ.

يجب التدبر بشيء من الأمانة كيف تدل هذه الأحداث كلها على صدق باطن النبي ﷺ. وبالإضافة إلى ذلك، إذا تأمّل عاقلٌ في تلك الظروف أكثر لرأى أن الزمن الذي بُعث فيه النبي ﷺ كان في الحقيقة بأمس الحاجة إلى مصلح ربّاني كبير وعظيم القدر، وكان يقتضي هاديا من السماء[٣٠]. وكلّ ما أعطى من

[٣٠] **الحاشية** (رقم١٠): يوضح التاريخ بجلاء تام أنه قد ذُكر في القرآن الكريم مرارا وبوضوح تام -كما سنوضح في الفصل الأول بإذن الله- أن النبي ﷺ بُعث في زمن كان الشرك والضلال وعبادة المخلوق فيه منتشرا في الدنيا كلها، وكان الناس كلهم قد تركوا المبادئ الحقة، واختارت كل فِرقة طريق البدع المتنوعة ناسين الصراط المستقيم. كانت عبادة الأوثان في قمتها عند العرب. أما في فارس فكانت عبادة النار في أوجها. وأما في الهند فكانت مئات أنواع من عبادة المخلوق منتشرة إلى جانب عبادة الأوثان. وفي هذه الأيام نفسها أُلِّف العديد من كتب الهندوس -منها كتبهم الدينية وغيرها، التي بسببها أُلّـه عشراتٌ من عباد الله- ووُضع أساس عبادة المقدسين. وبحسب قول القسيس جون دافنبورت (John Davenport) وغيره الكثير من العلماء الإنجليز: لم تكن في تلك الأيام ديانة أفسدَ من المسيحية، وكانت تصرفات القساوسة الشائنة وسوء اعتقادهم قد تسببت في إلصاق وصمة عار على جبين الديانة المسيحية. وقد احتلت أشياء عديدة منصب الألوهية في معتقدات المسيحية، وليس مجرد شيء أو شيئين.

إن بعثة النبي ﷺ في زمن انتشار الضلال بوجه عام -حين كان الدهر يقتضي معالجا ومصلحا عظيما وكانت الحاجة ماسة للهداية الربانية- ثم تنويره ﷺ العالَـمَ بالتوحيد والأعمال الصالحة بعد بعثته، واستئصالُه الشرك وعبادة المخلوق -وهي أمّ الشرور- ليدل دلالة واضحة على أنه ﷺ كان حقًّا رسول الله وأفضل الرسل أجمعين. إن صدقه يَثبت من أن قانون الطبيعة في زمن انتشار الضلال بوجه عام كان يقتضي هاديا صادقا؛ والسنَّةُ الإلهية تتطلب هاديا صادقا لأن سنة رب العالمين القديمة هي أنه كلما بلغت الشدة والصعوبة في الدنيا منتهاها، توجهت الرحمة الإلهية إلى إزالتها: فكلما أوشك الخلق على الهلاك بسبب حدوث المجاعة الشديدة في الدنيا عند إمساك المطر، نـــزَّل الله تعالى المطر.

وكلما أوشك مئات ألوف من الناس على الموت نتيجة أحد الأوبئة، اخترعت طريقة ما لتنقية الجو أو اكتشف دواء. وحينما يقع قوم في قبضة ظالم، يُخلق عادلٌ مُغيث في نهاية المطاف. كذلك حين يضل الناس عن سبيل الله تعالى ويتركون التوحيد والصدق، يهَب الله تعالى عبدا من عباده بصيرة كاملة من عنده ويشرِّفه بكلامه وإلهامه ويبعثه لهداية بني آدم ليصلح ما فسد. إن حقيقة هذا الأمر هي أن الرب -الذي هو قيوم العالمين، وعليه يعتمد وجود العالم وبقاؤه- لا يحرم الخلق من صفة من صفات إفاضته ولا يعطلها أو يبطلها، بل تظهر كل صفة من صفاته في وقتها المناسب على الفور. وعليه فقد وجب بمقتضى العقل أن تظهر لإزالة غلبة كل آفةٍ صفةٌ من صفات الله التي تقابل تلك الآفة. ولقد تبين من كُتب التاريخ وباعتراف المعارضين أنفسهم، وكذلك من بيان القرآن الكريم؛ أنه قد غلبتْ في زمن النبي ﷺ آفةُ أن جميع أمم العالم تركوا الصراط المستقيمَ للتوحيد والإخلاص والاعتصام بالحق. ويعرف الجميع أيضا أن الذي أصلح الفساد السائد في ذلك الزمن وأخرج العالم من ظلمات الشرك وعبادة المخلوق وأقامهم على التوحيد، كان هو النبي ﷺ وحده دون غيره. فالنتيجة التي نتوصل إليها من كل هذا البحث هي أن النبي ﷺ هو الهادي الصادق من الله تعالى. لقد أشار الله تعالى في كلامه المقدس إلى هذا الدليل بقوله: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (النحل: ٦٤-٦٦).. أيْ أقسم بألوهيتي التي هي مبدأُ بركةِ الهدايةِ والربوبية، وجامعةُ جميعِ الصفات الكاملة؛ بأننا أرسلنا من قبلك رسلا إلى عديد من أمم العالم وأقوامه، ولكنهم فسدوا بإغواء الشيطان، فهو وليهم اليوم. ولقد أنزلنا هذا الكتاب لِيُرفع الخلاف من بين الناس ويُكشف الأمرُ الحق. والحقيقة أن الأرض كانت قد ماتت كلها، فأنزل الله ماء من السماء وأحيا الأرض الميتة من جديد. وهذه آية صدق هذا الكتاب، ولكن للذين يسمعون أي يتحرَّون الحق. والآن يجب التأمل كيف ذُكرت في هذه الآية بأسلوب جميل ولطيف الأدلة الثلاثة المذكورة آنفا التي استنتجنا منها أن النبي ﷺ هادٍ صادق: فأولا شبّه قلوب الناس الضالين -الذين كانوا واقعين في الضلالة منذ مئات السنين- بالأرض القاحلة والميتة، وشبّه كلام الله بماء المطر الذي ينـــزل من السماء، وبذلك أشار إلى السنَّة القديمة بأن رحمة الله تتدارك بني آدم دائما من الدمار عند إمساك

المطر كليًّا. وقد بين أن قانون الطبيعة هذا لا يقتصر على الماء المادي، بل الماء الروحاني أيضا ينـــزل حتما عند الشدة والصعوبة.. أي عند انتشار الضلال بوجه عام. ففي هذه الحالة أيضا تنـــزل الرحمة الإلهية لتكسر غلبة آفة القلوب.

وقال أيضا في هذه الآيات بأن أهل الأرض كانوا قد ضلوا كلهم قبل بعثة النبي ﷺ. وبيّن في الأخير أن ذلك الكلام المقدس قد أحيا هؤلاء الموتى روحانيا. وقال في نهاية الآيات بأن في ذلك لآية على صدق هذا الكتاب، وبذلك وجّه طلاب الحق إلى الاستنتاج أن الفرقان المجيد هو كتاب الله تعالى.

فكما يتبين من هذا الدليل أن سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ نبي صادق.. كذلك أيضا يتبين أنه أفضل الأنبياء جميعا لأنه ﷺ واجَه العالم كلَّه. والمهمة التي وكِّلت إليه ﷺ كانت في الحقيقة جديرة بأن توكَل إلى ألف نبيّ أو ألفَين. ولكن لما كان مقدرا عند الله أن يصبح بنو آدم قوما واحدا وقبيلة واحدة وتزول المغايرة من بينهم تماما، وأن تنتهي هذه السلسلة إلى الوحدة كما بدأت من الوحدة؛ فقد أرسل الهداية الأخيرة للعالم كله. وكان الوقت قد حان لظهور بوادر الاتحاد بين البلاد إلى حدٍّ ما بسبب فتح الطرق والتعارف بين الأقوام، وبدأت أفكار بعض البلاد تؤثر في البلاد الأخرى بسبب كثرة اللقاءات. وما زال هذا الأمر في تقدم مستمر إلى الآن، وتُكتشَف في كل يوم جديد اكتشافات جديدة؛ مثل القطار والباخرة ونظام البرقية وغيرها التي توحي بجلاء أن من مشيئة الله القدير أن يجعل العالم كله قوما واحدا في يوم من الأيام.

على أية حال، قام الأنبياء السابقون بمحاولات محدودة في هذا المجال لأن رسالتهم أيضا كانت محدودة وخاصة بقوم معين. أما سعي النبي ﷺ فكان واسع النطاق وغير محدود، لأن رسالته كانت عامة وشاملة. لهذا السبب يوجد في القرآن الكريم ردّ على جميع الأديان الباطلة، ولا يوجد في الإنجيل إلا ذكر سوء تصرفات اليهود.

إذن، فإن كون النبي ﷺ أفضل من الأنبياء الآخرين يَثبت أيضا من جهوده الجبارة. وإضافة إلى ذلك فمن أجلى البديهيات أن إزالة الشرك وعبادة المخلوق وتوطيد وحدانية الله تعالى وجلاله في القلوب هي أفضل الأعمال وأعلى الحسنات كلها. فهل يسع أحدا أن ينكر أن هذه الحسنة لم تظهر من أيّ نبي كما ظهرت على يد النبي ﷺ؟ هل من كتاب في العالم سوى القرآن الكريم أقام وثبَّت عشرات الملايين من الناس على التوحيد؟ والمعلوم أن مَن يـــحدث هذا الإصلاحُ على يده فلا بد أنه هو الأفضل من الجميع.

وفي ذلك يقول القسيس "فندر" مؤلف "ميزان الحق" في كتابه: الحق أنه في الزمن الذي جاء فيه الإسلام كان المسيحيون متورطين في بدعات كثيرة، ضاربين العمل بالإنجيل عُرض الحائط. ثم يقول بعد ذكر النبي ﷺ: لهذا السبب لم يمنعه الله تعالى من نشر الدين، لأنه كان من مشيئة الله آنذاك أن ينذر ويعاقب النصارى الذين كانوا قد تركوا العمل بالإنجيل.

انظروا إلى أمانة القسيس المحترم وعدله وكيف أطال الكلام دون مبرر! فمن ناحية أنزل غضب الله على إخوته المسيحيين، ومن ناحية ثانية ما راق له الإيمان برسالة النبي ﷺ. واهًا لتعصبك، ما أغرب ما قلتَ عن المعاقبة! من المؤسف حقا أن القسيس المحترم ما خاف الله أدنى خوف عند إظهاره هذا الرأي المتعصب، وإلا فمن الظاهر البديهي أنه من الكفر البواح والوقاحة المتناهية والتعنتِ الشنيعِ القولُ بأن الله تعالى حين يرى العالم واقعا في الضلال والخطأ، فـيكيد كيدا زائدا حتى يزدادوا ضلالا. فمن "سعادة" القسس وحدهم وأمانتهم أنهم ينكرون أيضا صفة الله "الهادي" عداوةً للنبي ﷺ، وإلا فأيّ عاقل أو صاحب إيمان يمكنه أن يتجاسر على أن يعزو إلى الله ﷻ بأنه في الزمن الذي بلغت فيه الضلالة وسوء الاعتقاد منتهاهما وغرق الناس تماما في الشرك وعبادة المخلوق، خطرت بباله فكرة وحيدة وراقَهُ علاج وحيد -بحسب زعم القسيس المحترم- كان من شأنه أن يحوّل حالة الناس من سيِّئة إلى أسوأ، وبدلا من أن يخلق مصلحا فقد سلّط على الخلق شخصا يقضي على ما بقي فيهم من قدر نزير من الصلاح؛ أيْ بأن يحسب "الإله" بريئا من أن يُقحم في الدم والنجاسة، ويعُدّه نـزيها من التولّد والموت والألم والمعاناة؟! هل يمكن أن يخطر على بال أحد أو يفتي عدلُ منصفٍ أن من سنّة الله وعادته أن يزيد العالم ضلالا بمئات المرات أكثر من ذي قبل كلما وجدها ضالة؟ لا يصعب على منصف أن يدرك أن انتشار الفساد في العالم بوجه عام يقتضي مصلحا. وكل عاقل يستطيع أن يرى بكل وضوح أنه يجب أن تظهر صفة الله "الهادي" على الخلق عند غلبة الجهل والضلال. ولكن كيف يمكن أن يرى مَن أعماه التعصب؟ هل رأى الأعمى مرة شيئا حتى يرى هذا الأخير أيضا؟

من المؤسف حقا أن القسيسين لا يخافون يوم المؤاخذة مع كل هذا التعصب والتعنت. وأنّى لهم أن يخافوا أصلا ما داموا يعتمدون على كفارة المسيح. وإلا فليس للعقل أن يقبل بحال من الأحوال أن عقولهم ناقصة إلى درجة أنهم لا يزالون يجهلون سنة الله القديمة، ولا يعلمون أن الله لمّا رأى في زمن موسى قوما غافلا ومستعبدًا في قبضة ظالم، أرسل رسوله لنجاتهم، ثم عندما انحرف اليهود انحرافا بسيطا في زمن عيسى عليه السلام أرسل المسيح عليه السلام

تعليمٍ كان صادقا في الحقيقة، وكان ضروريا جدا بكل معنى الكلمة، وكان يجمع في طياته كافة المقوّمات الضرورية لسد حاجات العصر كلها. ثم أبدى ذلك التعليم تأثيرا، فجذب مئات ألوف القلوب إلى الحق والصدق، ورسّخ قول "لا إله إلا الله" في مئات آلاف الصدور، وبلّغ الغاية المتوخاة من النبوة، أيْ تعليم سُبل النجاة، أوج كمالها، لدرجةٍ ما بلغتها من قبل على يد أيِّ نبي وفي أيّ زمان.

فعند النظر في الأحداث الواقعة لا بد أن تتدفق من كل قلب شهادة عفوية بأن النبي ﷺ كان هاديا صادقا من الله ﷻ حتما. أما الذي ينكر ذلك تعصبا وتعنتا فمرضه مستعصي العلاج، وقد ينكر وجود الله ﷻ أيضا. وإلا فإن كافة علامات الصدق التي اجتمعت في شخص النبي ﷺ بوجه كامل لا يمكن لأحد أن يثبت ولا واحدة منها في أيّ نبي غيره. إن الإتيان بهراء الكلام ليس صعبا، فللمرء أن يهذي كما يشاء فلا وازع له ولا رادع. أما الرد المعقول والمدعوم بالدليل فهو شرط الإنصاف. الحق أن معارضينا قاطبة نشيطون جدا في كيل السباب والإساءة، وتعلّموا جيدا على يد أستاذٍ أساليب الهجو والإهانة. إن الهندوس يكذبون الأنبياء الآخرين كلهم والكتبَ كلها ويتغنون بمدح الفيدا فقط، وبأنه لا شيء جدير بالذكر إلا الفيدا. أما المسيحيون فيعتقدون أن التعاليم الإلهية كلها قد خُتمت على الإنجيل، ولا يدرون أن أهمية كل كتاب وعظمته تقَدَّر بمدى إفادته التوحيد، والكتاب الذي يكون أكثر فائدة من حيث التوحيد يكون أعلى مرتبة. لذا فإن منكر وحدانية الله ﷻ لن ينال النجاة مهما جمع في شخصه من أخلاق فاضلة.

فورا، ولكنه ﷻ صار في الزمن الأخير قاسي القلب وعديم الرحمة لدرجة لم يخطر بباله مطلقا أن ينـــزل الهداية مع أن الخلق كله كان غارقا في الشرك وعبادة المخلوق، بل عزم على تدمير الضالين أكثر من ذي قبل. وكأن الضلال ما راقه في الأزمنة الغابرة، أما الآن فقد صار معجبا به! منه

عليهم أن يفكروا الآن أيّ كتاب كان سببا في نشر التوحيد -الذي هو مدار النجاة- في العالم أكثر من غيره. فليخبرني أحد في أيّ بلد انتشرت وحدانية الله بواسطة الفيدا؟ أو أين يوجد على وجه الأرض عالَـمٌ تدق فيه الفيدات: "رِغ" أو "يَجُرْ" أو "شام" أو "اتهرون" طبول توحيد الله تعالى؟ إن ما نراه منتشرا في الهند بسبب الفيدا هو عبادة النار، وعبادة الشمس وإله "بِشن" وغيرها من أنواع عبادة المخلوق بحيث إن ذكرها ليبعث على القرف والاشمئزاز. انظروا من أقصى الهند إلى أقصاها لتجدوا الهندوس جميعا غارقين في عبادة المخلوق. فهناك من يعبد "مهاديوجي" وهناك مَن يتغنى بمدح "كرشنا"، وغيره يعبد الأوثان.

والحال نفسه فيما يتعلق بالإنجيل، إذ لا نرى بلدا انتشر فيه التوحيد بواسطته، بل إن المؤمنين بالإنجيل لا يحسبون الموحّد ناجيا أصلا. والقساوسة يدفعون أهل التوحيد إلى نار حالكة الظلام حيث البكاء وصرير الأسنان. ولن ينجو من تلك النار الحالكة، بحسب زعمهم، إلا من اعتقد بحلول الموت والمصيبة والجوع والعطش والألم والمعاناة بالإله وبتجسده وحلوله، وإلا فلا مجال للنجاة. وكأن تلك الجنة الافتراضية سوف توزَّع بالتساوي على قومين أوروبيين عظيمين فقط؛ أي الإنجليز والروس. أما غيرهم من الموحِّدين فسيُلقون في جهنم لجريمة اعتبارهم اللهَ بريئا من كل عيب ينافي كماله التام.

ما أقصده من هذا الكلام هو أن ما يسمَّى التوحيد لا يوجد على صفحة الأرض اليوم في أي قوم سوى أمة النبي ﷺ، ولا يوجد كتاب يُقِيم الملايين من الخلق على وحدانية الله ﷻ ويرشدهم إلى ذلك الإله الصادق بتعظيمه الكامل إلا القرآن الكريم. لقد اتخذ كل قوم إلها زائفا له، أما المسلمون فلهم الإله نفسه الموجود منذ الأزل لا يزول ولا يتبدّل، وما زال كما كان من حيث صفاته الأزلية. فمن كل هذه الأحداث يتبين صدق نبوة هادي الإسلام ﷺ بصورة أجلى وأظهر من الشمس، لأن معنى النبوة وغاية الرسالة المتوخاة ثابتة ومتحققة

في شخصه المبارك وحده. كما أن الصانع يُعرف من مصنوعاته، كذلك لا يزال العقلاء يعرفون هذا المصلحَ الرباني من خلال الإصلاح الملحوظ في العصر الراهن. وإضافة إلى ذلك هناك آلاف من الأحداث الأخرى التي تُثبت أنه ﷺ مؤيَّد بتأييد الله تعالى. أليس غريبا أن يأتي مثلا شخص وحيد -فقير وعديم القدرة والحيلة وأمّيّ ويتيم ومفلس- بتعليم منير في زمن كان كل قوم يملك فيه قوة هائلة مالية وعسكرية وعلمية، ويفحم الجميع بقوة براهينه القاطعة وحججه الساطعة، ويشير إلى أخطاء فادحة في الكبار من الناس الذين كانوا يزعمون أنفسهم حكماء وفلاسفة كبارا؟ ثم مع كونه فقيرا وعديم الحيلة، أظهر قوة بحيث أطاح بالملوك عن عروشهم وأجلس عليها الفقراء. ما الذي كان وراء كل ذلك إن لم يكن تأييد الله تعالى؟ هل الغلبة على الدنيا من حيث العقل والعلم والقوة والقدرة ممكنة دون تأييد الله سبحانه وتعالى؟

يجب التدبر؛ من كان مع النبي ﷺ عندما أعلن نبوته بادئ ذي بدء بين أهل مكة؟ وأيّ مَلِك وقع كنــزُه في يده ﷺ حتى قرر التصدي للعالم كله بناء عليه؟ وأيّ جيش جمعه ﷺ حتى أمِن صولات الملوك بالاعتماد عليه؟ يعرف معاندونا أيضا جيدا أنه ﷺ كان وحيدا على وجه المعمورة وكان عديم الحيلة مفتقرا إلى العدة والعتاد. لم يكن معه أحد إلا الله الذي خلقه لإنجاز هدف عظيم. ثم يجب الانتباه أيضا؛ ففي أيَّة مدرسة درس ومن أيّة كلية نال الشهادة؟ ومتى طالع كتبا مقدسة لليهود والنصارى والآريين وغيرها من الأديان الموجودة في العالم؟ فإذا لم يكن الله عزّ وجلّ هو منــزِّل القرآن الكريم فكيف إذن وردت فيه العلوم الإلهية الحقة الموجودة في الدنيا كلها؟ وأيّ فيلسوف عديم النظير والمثال سجّل في القرآن الأدلة الكاملة للعلوم الإلهية التي عجز عن كتابتها بالصحة والتمام جميع علماء المنطق والعقل والفلسفة بل ماتوا غارقين في الأخطاء؟ وكيف خرجت من فم أمِّيٍّ خطابات ذات معانٍ سامية ومدعومة بأدلة لو رأى نورَها وقوتَها المقدسة الحكماءُ المتكبرون من اليونان أو الهند لماتوا وهم أحياء إن كانوا

يملكون شيئا من الحياء؟ لدى أيّ من الأنبياء السابقين وُجدت أدلة الصدق بهذا الكم الهائل الذي خرج من فم أُمِّيٍّ فقير؟ أيّ كتاب على وجه الأرض يستطيع اليوم أن يبارز القرآن الكريم في هذه الأمور كلها؟ أيّ نبيٍّ واجه تلك الأحداث كلها التي واجهها النبي ﷺ كما بيّنّا آنفا؟ ولا سيما أنّ وجود رجال الدين المزعومين الذين أُلهمت إليهم الفيدات بحسب زعمهم غير ثابت، ناهيك أن يكون لصدقهم أيّ أثر.

فيا أيها الناس: إذا كان للعدل أية أهمية في أعينكم، وإذا كان العقل أيضا شيئًا يُعتدُّ به؛ فأخرجوا لنا من أيٍّ من كتبكم دلائل الصدق والحق التي يحويها القرآن التي سوف نسجلها بدءًا من الفصل الأول، أو توقّفوا على الأقل عن إطالة اللسان، مراعين الحياء والندم وإذا كنتم تكِنّون لله تعالى أدنى خوف أو ترغبون في النجاة، فآمِنوا.

إلى هنا قد انتهت المقدمة، وقد كتبتُ فيها الأمور الإضافية التي نويت كتابتها، والآن سأتوجه إلى صلب موضوع الكتاب وبيان الأدلة على صدق القرآن الكريم وصدق نبوة النبي ﷺ بالبسط والتفصيل. وسأبيّن من القرآن الكريم كافة البراهين التي -نظرا إلى سمو مرتبة صدقِها- ألحقتُ بهذا الكتاب إعلانَ جائزةِ عشرة آلاف روبية. إن أسلوب تقديم الأدلة العقلية التي حصرتها في كلام الله ﷻ بوجه خاص يمثّل كلمة الفصل بيننا وبين خصومنا، ويكفي لفتح عيون كل عاقل، وهو بمنـــزلة نورٍ هادٍ يستبين به الفرق بين الصادقين والكاذبين بكل سهولة.

فيا منكري الإسلام، إن كنتم تشكون في صدق القرآن أدنى شك أو تترددون في الإقرار بأفضليته فيجب عليكم أن تجيبوا من الناحية العقلية على هذه الأدلة والبراهين من كتبكم، وإلا فإنكم تعرفون -ويعرف كل منصف- أنه بعيدٌ عن العدل والإنصاف وبعيد أيضا كل البعد عن الحياء وعن الأخلاق

الفاضلة أنْ يُعدَّ الكتابُ الذي ثبتت أفضليته بمئات الأدلة افتراءَ إنسان، أو أنْ يساءِ إليه دون نقض أدلته ودون تقديم كتاب يساويه في كمالاته.

هنا أودّ أن أبين أيضا أن الذي لا يتوجه كذوي الطبائع السليمة إلى نقض أدلة هذا الكتاب بعد نشره، ويقول في المجلات والجرائد والخطابات والكتابات بغير حق وبُغية خداع عامة الناس، ويعدُّ عين الإسلام المقدسة عكِرة، أو يرى تعليم القرآن الكريم محل اعتراض وهو جالس في بيته سواء أكان من المسيحيين أو الهندوس أو البراهمو سماج أو غيرهم؛ فإن فعله هذا يعدّ مخالفا للأمانة ونـــزاهة الطوية. لأنني قد أثبتُّ جيدا وبالأدلة القاطعة حقيِّة القرآن الكريم وصدقه، ودحضتُ كافة الاعتراضات التي يثيرها قصيرو النظر وناقصو العقل، ووعدت أيضا -إتماما للحجة عليهم- بإعطاء مبلغ كبير لمن يرد عليها، ويمكنهم أن يسجلوا ذلك إذا أرادوا في أوراق رسمية لتطمئن قلوبهم. فإن لم يختاروا -مع صدقي وصفاء باطني إلى هذا الحد- طريقا مستقيما للنقاش والمناظرة التي تضمن غلبتهم فيها جائزة كبيرة لهم، واستمروا في توجيه التهم الباطلة إلى الإسلام لإغواء الجاهلين والمراهقين وعامة الناس، فماذا عسى أن نفهم من ذلك إلا أن في نيتهم فسادا وفي طويتهم زيغا.

فيا أيها الناس؛ اتركوا التعصب واقبلوا الحق واتقوا الله، إن الدنيا ليست دار القرار فلا تحبّوها، إن هذه الحياة المؤقتة مزرعة الآخرة، فلا تضيعوها في عقائد باطلة وأفكار كاذبة. وإن لها أهميتها فلا تضيعوها هكذا. إن هذه الدار فانية فلا تعلّقوا بها قلوبكم، إن رغد العيش والرفاهية ليس بدائم، فلا تنخدعوا به.

"ليس عيش الدنيا الدنية إلا لحظات معدودة، ثم إلى الله المعاد في نهاية المطاف.
إنها دار الفراق والموت والفناء، وكل من يقيم فيها مضطر للرحيل.
زُر المقبرة يوما واسأل الأموات هناك عن حالهم.
ما هي عاقبة الحياة الدنيا؟ وإلى متى يحيا كلُّ من يُولد؟
اترك الضغينة والكبر والتباهي حتى لا تؤدي بك إلى إضلالك في نهاية المطاف.

عندما ترحل من هذه الدنيا لن تعود إلى هذه المدن والبلاد أبدا.
يا أيها الغافل عن الدين عليك الاهتمام به لأن نجاتك منوطة بالدين وحده.
ألا، لا تجعل قلبك غافلا عن هذا الهمِّ والحزن لأنك في مواجهة أمر صعب.
اجعل قلبك جريحَ هذا الهم والألم، واجعل القلب والروح أيضا لهما فداء.
إن أمورك كلها منوطة بذات واحدة، ويلك كيف تصبر بدونه؟!
إن إعراضك سيكون سبب شقائك، وإن فلاحك يكمن في التواضع.
لماذا تقطع صلتك مع ذلك الحبيب؟ ولماذا تتصرف بحمق؟
إن هذه الدنيا كجيفة، والطماعون يحيطون بها من كل جانب كالكلاب.
السعيد مَن يُعرض عن تلك الجيفة ويتوجه إلى الرب.
ويعدل مغمضا عينيه عن الغير، ويقدّم رأسه من أجل الحبيب.
إن طوفان الحرص والجشع والطمع يبقى ما بقي الإنسان أعمى.
حين تنفتح عين القلب ولو قليلا، يفتر طمع المرء كلُّه.
لماذا لا تتوقف عن إشباع الأهواء يا مَن تركتَ حبال الأطماع على غاربها؟
إن ثروة الحياة في زوال مستمر، وأنت قلقٌ من أجل الثروة والمال.
إن القرابات والقبائل خديعة كبيرة، وقد قطعت علاقتك مع الله من أجلها.
إنها كلُّها تنوي قتلَك، فحينًا تقتل بالصلح وحينًا بالحرب.
ويلٌ للقرابة التي تقطع علاقتك مع صديقك الحميم.
إن عاقبة أمورك كلها إلى الله، إذ لستَ نصيرا لأحد وليس لك نصير.
اتَّخِذْ كل خطواتك بالخوف حتى ترحل من هذه الدنيا بقدمِ صدقٍ.
ولكي يتخذك الله صديقا له، وينظر إليك بتحنُّن.
ولتشرب خمر العشق الإلهي، فتكون سكران بنشوها.
ليست بدائمةٍ هذه الدار، فلتحذر حتى لا تكون عاقبتك سيئة.
إن حب ذلك الحيِّ سيزيدك نورا، وماذا ينفعك حب الأموات؟
إن الطعام والمعدة والرأس والعمامة؛ كلها عطاء من الله.

اعرِف حق الخالق، واندمْ قبل أن تغادر الدنيا.
لماذا تعرض عنه ﷻ؟! الكلب يكون وفيا لصاحبه، وأنت إنسان!
لا بد من خشية القدير الأكبر، فمَن كان أكثر معرفة كان أكثر خشية.
الطالحون مشغولون في السيئات، أما الصالحون فمشغولون في الدعاء والتضرع.
سعيدةُ الحظ العين التي تبكي من أجله ﷻ، ومبارك القلب الذي يحترق من أجله.
مبارك جدا مَن كان طالبه، ويبتعد عن عمرو وزيدٍ من أجله.
كل من يختار سبيل الله الواحد سيكفيه الله في العالَـــمين .
من الثابت المتحقق أن طالب رضا الله يقطع من أجله علاقته مع الجميع.
يكون دينه الفداء من أجل الحبيب والتخلي عن نفسه من أجل الله.
ويصبح ترابا ابتغاء مرضاة الله، ويطلب لنفسه العدم والهلاك والفناء فيه.
ويرضى برضا الحبيب ويصبر على القضاء والقدر.
أنت تحب الأغيار أيضا مع الله، هذه الفكرة هي أساس الضلال.
لو كنت تملك العقل والشجاعة لتوجّهتَ إلى الله وحده دائما.
ما دام القلب واحدا والروح واحدة والجسد واحدا فيكفي حبيب واحد.
إذا كان المرء يعشق أحدا، سهُلت عليه التضحية بالروح من أجله.
إن زقاقه أفضل عنده من الحديقة، ويفضّل وجهه على الريحان.
يستحسن كل معاملة يعامله بها الحبيب، ويفضّل رؤية الحبيب على مئة حياة.
تصفيده أمام الحبيب أفضل عنده من فِراقٍ مآلُه التجوال في بستان.
إذا كان المرء يحب أحدا فلا يستقر له القرار دون وصاله.
فيضطرب في فراق حبيبه على فراشه ساهرًا طول الليل حين ينام الجميع.
لا يصبر حتى يراه، وإن فيضان ذكرياته يكتسحه في كل لحظة.
لا تهدأ قلوب العاشقين، وأنّى لهم أن يملّوا من رؤيته.
لقد همس جمال الحبيب في أذن قلبهم سرًّا لا يمكن بيانه.
مِن سيرة العشاق أنهم يصدُقون القول مع الله.

تكون نفوسهم مضيئة بمصباح الصدق، ونور الحق يتدفق من جبينهم.
إنهم فائزون، وبريئون من الحياة الدنيوية، يملكون قوى عقلية سليمة فيطيرون بعيدا عن شراك الدنيا.
تحرَّروا من نفوسهم وصاروا مهبط فيض نور خاص.
عشِقوا ربهم وقطعوا علاقة قلبهم مع غير الله.
لا يدخل منـــزلَ قلوبهم غيرُ الله، وقد اتخذ الحبيب قلبهم وروحهم مسكنا له.
يكرِّسون الدين والدنيا للحبيب ويصبحون ترابا على عتباته.
لقد تحطمت زجاجة عطرهم، ويتدفق من صدرهم شذى حبيبهم.
لقد محى تجلّي الحبيب صورة نفوسهم، وتجلّى الحبيب من زاوية قلوبهم.
فلو أظهروا نيران قلوبهم، لصعد الدخان من قبر "مجنون".
لا يبالون بأنفسهم، ويضعون رؤوسهم على التراب في ذكر الحبيب.
كل شخص يهتم بأموره وشؤونه، أما العشاق فلا يعنيهم إلا حبيبهم.
كل شخص يهتم بكرامته، أما هؤلاء فجُلّ اهتمامهم مُنصبّ على كرامة الحبيب.
لقد أعرضتَ عن الدين، وإن ملخص حياتك هو العداوة فقط.
لقد ألقيت نفسك في العداوة والفساد، وتخليتَ عن العدل والعقل.
إنك مختالٌ تفاخرا وكبرا ورياء، وخارج عن حدود التديّن.
لقد ألقيتَ على عيونك مئة غشاوة ثم تسأل أين الشمس.
أزِل الستار حتى ترى ما أمامك، لقد آذيتَ قلبنا كثيرا بعماك.
لقد أعرضتَ عن المنعم المنان، يا غبيّ، هل هذا هو أسلوب شكر النعمة.
إن حب الدنيا التي لا حقيقة لها، يبعد المرء عن الدين في نهاية المطاف.
إن ترك عتبات الله يخالف مقتضى الوفاء، لا تعلّق القلب بالغير فإن الله غيور.
إنك تعلم ومع ذلك تتمرد عليه، فوا أسفا كيف تظلم نفسك.
كل ما كان في قلبك سوى الله فهو وثنك يا ضعيف الإيمان.
احذرْ هذه الأوثان الخفية، وخلِّص منها قلبك.

ما قيمة ذلك الشخص الذي كان الشرك شغله الشاغل، وله على شاكلة المومسات آلاف الأحباء؟
كن صادقا واتخذ الصدق مهنة، وكن مع الصادقين دائما.
بسبب الصدق ستنفتح عينك، وبسببه يعود إليك حبيبك الذي فارقك.
الصادق هو مَن يختار الدين الطاهر والقويم بصدق القلب.
الدين المقدس هو الإسلام من الله العليم.
لما كان الهدف من وراء الدين هو الإخراج من الباطل إلى الحق.
وهذه هي ميزة القرآن الكريم، وقد أحكمت الأدلة الساطعة مبادئها.
فيُري طريق الله الواحد بالأدلة الساطعة والمنيرة.
لو ملكتُ الثروة لكتبتُ هذه الأدلة بماء الذهب.
الله الله ما أطهر هذا الدين الذي هو رحمة خالصة من رب العالمين!
إنه شمس الصدق، واللهِ هذا الدين أجلى من الشمس أيضا.
يُخرج من الجهل والظلمة إلى أنوار القرب والوصال.
يُري طلاب الصدق الصراط المستقيم، والصدق مدعاة لنيل رضا الله.
إذا كنت تخاف الله العَدل، فأَسلِمْ ولا تخف الناس.
إذا كانت بك رحمة من الله القدوس فلا خوف عليك من لعنة الخلق وطعنهم.
إن لعنة الخلق لأمرٌ هيِّنٌ ليّن، إنما اللعنة هي التي تأتي من الله الرحمن".[٣١]

وفي الأخير، وبعد بيان جميع الأمور الضرورية، أرى من الحكمة أن أتناول في هذه المقدمة ذكر أنواع الفوائد التي يحتوي عليها هذا الكتاب، لكي ينالَ بشاراتٍ من محبوبه الروحي مَن يضحي بنفسه من أجل الاطلاع على الحقائق، ولكي يُفتح على الجياع والعطاشى للحق سبيل مبتغاهم القلبي.

وهذه الفوائد على ستة أنواع وبيانها كما يلي:

---

[٣١] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

الفائدة الأولى من هذا الكتاب هي أنه ليس ناقص البيان في ذكر المهمات الدينية، بل حُرِّرت فيه كافة الحقائق التي يشملها أصولُ علم الدين، وجميع الحقائق السامية التي مجموعتها تسمَّى الإسلام. تتلخص هذه الفائدة في أن قرّاء الكتاب سيحيطون بضرورات الدين علمًا، ولن يقعوا في شراك مُغوٍ أو مضلٍّ، بل سيصبحون معلِّمين كاملين وهداة أذكياء لوعظ الآخرين ونصيحتهم وإرشادهم.

الفائدة الثانية هي أن الكتاب يشمل ثلاثمئة دليل محكم وقوي على صدق الإسلام ومبادئه التي بالنظر إليها سيتبين صدق هذا الدين المتين لكل طالب حق إلا الذي كان أعمى تماما وكان واقعا في ظلمة التعنت الحالكة.

الفائدة الثالثة هي أن فيه جوابا على شبهات ووساوس جميع خصومنا بمن فيهم اليهود والنصارى، والمجوس، والآريا، والبراهمو، وعبدة الأوثان، والملاحدة، وأتباع مذهب الطبيعة والإباحية، واللادينيون. وقد أقيمت عليهم الحجة بكل معنى الكلمة وما تُرك لهم مجال للفرار قط. ثم لم يقتصر الأمر على رفع الاعتراضات فقط، بل أُثبت أن الأمر الذي عدّه قليلُو العقل والفهم من الخصوم محل اعتراض، كان في الحقيقة مدعاة لإثبات تفوق تعليم القرآن الكريم وأفضليته على الكتب الأخرى بدلا من أن يكون محل اعتراض. وقد أُثبتت الأفضلية بأدلة واضحة، فرُدّ الاعتراض على المعترض نفسه.

الفائدة الرابعة هي أنه قد نوقشت فيه من حيث العقل مبادئ الخصوم أيضا -مقابل مبادئ الإسلام- بكمال التحقيق والتدقيق. وقد كُشف بطلان جميع مبادئهم ومعتقداتهم التي يعوزها الصدق بالمقارنة مع مبادئ القرآن الكريم الصادقة؛ لأن قدر الجوهرة الثمينة لا يتحقق إلا بالمقارنة.

الفائدة الخامسة هي أنه بقراءة هذا الكتاب ستُعلَم حقائق كلام الله تعالى ومعارفه وتنكشف على الجميع حكمة هذا الكتاب المقدس ومعارفه، الذي ينكشف به نور الإسلام من نوره المنعش للأرواح؛ لأن كافة الأدلة والبراهين التي سُجّلت فيه، وجميع الحقائق الكاملة التي كُشفت فيه مستمدة من آيات

القرآن البينات حصرا. و لم يقدَّم فيه أي دليل عقلي إلا ما ذكره الله تعالى ذاتُه في كلامه المجيد. ونتيجةَ التزامِ هذا المبدأ فقد كُتب في الكتاب نحو ١٢ جزءا من القرآن الكريم. فالحق أن هذا الكتاب تفسير بليغ لبيان دقائق القرآن الكريم وحقائقه وأسراره السامية وعلومه الحكيمة وفلسفته السَنِيَّة. وبمطالعته ستستبين على كل طالب صادق المرتبة السامية لكتاب ربه -عديم النظير والمثال- كاستبانة الشمس في كبد السماء.

الفائدة السادسة هي أنه قد فُصِّلت مباحث الكتاب بكل جدية وبراعة بحسب قوانين الاستدلال، ولكن بطريقة سهلة وبكمال الحسن والتوازن واللطافة. وهذا الأسلوب سيكون وسيلة مُثلى لتقدم العلوم ونضج الفكر والنظر، لأن استخدام الأدلة الصحيحة والتوغل فيها يزيد من قوة الذهن وتتقوى به قوة إدراك الأمور الدقيقة. وبمزاولة البراهين الحقة يثبت العقلُ ويترسخ جذره في تربة الصدق. وتنشأ في الإنسان قدرة كاملة ومَلَكة عظيمة لكشف حقيقة كل أمر متنازع فيه، فتكون مدعاة لتكميل القوى النظرية وتمثِّل أقصى حد الكمال لنفس الإنسان الذي تعتمد عليه السعادة وشرف النفس كلها.

وهذا آخر ما أردنا بيانه في هذه المقدمة، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

تمت المقدمة






THE

BARÁHÍN-I-AHMADÍYAH,

ENTITLED

AL-BARÁHÍN-UL-AHMADÍYAH ALA-HAQQÍYÁT KITÁB-ULLAH-UL-QURÁN WAL NABUWAT-UL-MAHAMADIAH.

(DISCOURSES ON THE DIVINE ORIGIN OF THE HOLY QURAN, AND APOSTLESHIP OF MAHAMAD, THE PROPHET OF ISLAM,)

BY

MIRZÁ GULÁM AHMAD SÁHÍB, CHIEF OF QÁDÍÁN,

GURDASPORE DISTRICT, PUNJAB.

Umritsur:

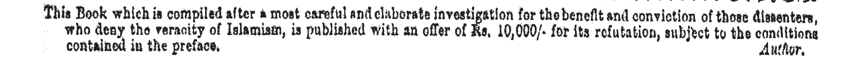
PRINTED AT THE SAFÍR-I-HIND PRESS,

AMÍR ALI DÚLÁH PRINTER.

1880.



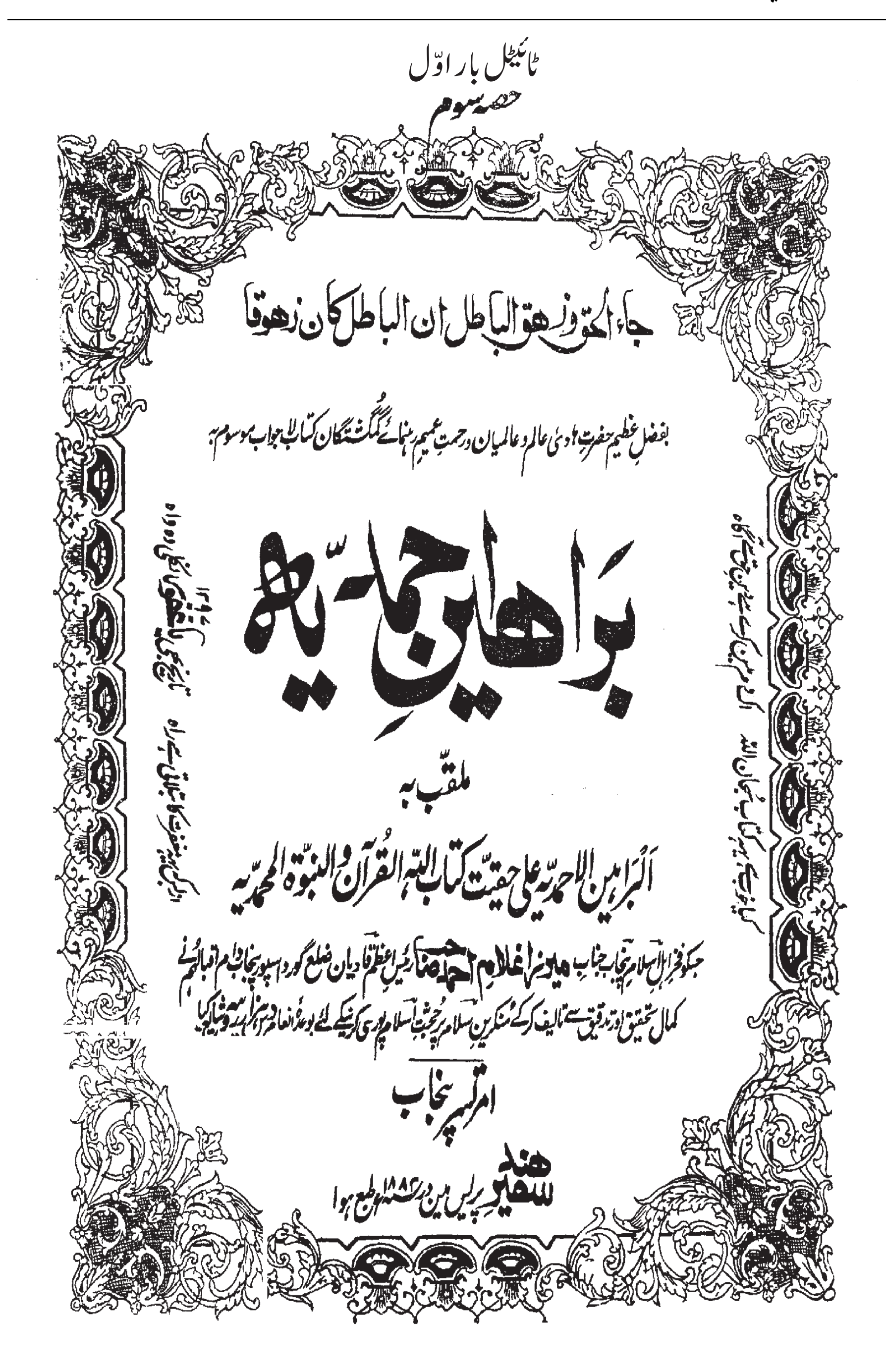
V. P. L.



This Book which is compiled after a most careful and elaborate investigation for the benefit and conviction of those dissenters, who deny the veracity of Islamism, is published with an offer of Rs. 10,000/- for its refutation, subject to the conditions contained in the preface.

Author.

صفحة الغلاف الأخيرة للطبعة الأولى لهذا الكتاب (الجزء الثاني)



ٹائیٹل بار اوّل

حصہ سوم

جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

بفضلِ عظیم حضرت ہادیٔ عالم و عالمیان و رحمتِ عمیم رہنمائے گمگشتگان کتاب لاجواب موسوم بہ

براہینِ احمدیہ

ملقّب بہ

البراهين الاحمدية على حقيّت كتاب الله القرآن والنبوّة المحمّدية

جسکو فخر اہل اسلام پنجاب جناب میرزا غلام احمد صاحب رئیس اعظم قادیان ضلع گورداسپور پنجاب دام اقبالہم نے

کمال تحقیق اور تدقیق سے تالیف کر کے منکرینِ اسلام پر حجتِ اسلام پوری کرنیکے لئے بوعدہ انعام دس ہزار روپیہ شائع کیا

امرتسر پنجاب

سفیرِ ہند پریس میں در ۱۸۸۲ء طبع ہوا

صفحة غلاف الطبعة الأولى لهذا الكتاب

(الجزء الثالث المنشور في عام ١٨٨٢)

اعتذار وإعلان[٣٢]

ما دامت طباعة الجزء الثالث قد تأخرت كثيرا هذه المرة[٣٣]، فلعل كثيرا من المشترين والقراء يحتارون بشدة بسبب هذا التأخير. وليس مستبعدا أن ينتاب بعض الناس شكوك وشبهات مختلفة أيضا. ولكن يجب أن يكون واضحا أن هذا التأخير لم يحدث بسببـي أنا بل حدث أنه حين اجتمعتْ عندي بعض النقود ودفعتُها في شهر أيار/مايو ١٨٨١م لمطبعة "سفير هند" بأمرتسر بُغية طباعة أجزاء الكتاب، وكنت أتوقع أن يُطبع ويُنشر الجزء الثالث في غضون شهرين على أكثر تقدير، لكن شاءت الأقدار -التي لا يسع الإنسان الضعيف البنيان أن يفعل شيئا تجاهها- أن واجه مدير مطبعة "سفير هند" آفات مباغتة وأمورا قاهرة مختلفة الأنواع. فبقيت المطبعة مغلقة مدة طويلة. ولما كان هذا التأخير خارجا عن سيطرته، كان من مقتضى الإنسانيةِ الانتظارُ بالصبر والجلَد إلى أن يتدارك أمره. فالحمد لله على أن موانعه بدأت تزول شيئا فشيئا بعد مدة من الزمن، فبدأت طباعة الجزء الثالث قبل مدة وجيزة. ولأنه قد مضت مدة طويلة في الموانع المذكورة قبل طباعة ذلك الجزء، فقد ارتأيت من الأنسب ألا أنتظر -متأسفًا- لحين تكميل طباعته، بل يجب أن يُرسل إلى المشترين ما تم طبعه إلى الآن لتطمئن وتقتنع قلوبهم إلى حد ما. أما ما تبقّى من هذا الجزء فسوف يُطبع بإذن الله القدير مع الجزء الرابع الأكبر نسبيا.

---

[٣٢] *لا يوجد هذا الإعلان في الطبعة الثانية المطبوعة في عام ١٩٠٠م ولكنه موجود في الطبعة الأولى عام ١٨٨٤م، والطبعة الثالثة عام ١٩٠٥م. (الناشر)*

[٣٣] *أي عند الطبعة الأولى عام ١٨٨٤م. (الناشر)*

قد يعترض علينا بعض الإخوة بأنه لماذا اختيرتْ لطباعة الكتاب مطبعة تتأخر فيها الطباعة لمدة طويلة كل مرة؟ فقد قلتُ في الجواب قبل قليل بأن ذلك التأخير كان ناتجا عن اضطرار مدير المطبعة وليس عن اختياره. فهو جدير بالرحم في هذا النوع من الاضطرار وليس جديرا بالإدانة. وإضافة إلى ذلك فإن مدير مطبعة "سفير هند" يتحلى بميزة فريدة أنه يعمل بنـــزاهة تامة وجدية وجهد دؤوب، ويقوم بالخدمة الموكلة إليه ببذل الجهود المضنية وبكل إخلاص. هو قسيس، ولكن الله تعالى أودع فطرته -مع الاختلاف الديني- أن لا يدّخر جهدا في عمله المهني من حيث الإخلاص والأمانة. ولديه جنون عدم التقصير في إنجاز العمل بالصحة والجودة المطلوبة. فبالنظر إلى هذه الأمور فضّلْنا مطبعته على مطابع أخرى مع أننا نضطر لندفع له تكلفة الطبع أكثر بكثير من المطابع الأخرى. ونأمل أملا قويا ألا يحدث التأخير منه في طباعة الجزء الرابع إلا إلى حين توفُّر النقود المطلوبة لطبعه. فحريّ بالمشترين الكرام ألا يقلقوا ولا يضطربوا -كقلقهم هذه المرة- في انتظار ذلك الجزء، ولسوف يُرسل ذلك الجزء إليهم جميعا فور طباعته، سواء أَطُبع سريعا أو متأخرا بعض الشيء بحسب مشيئة الله.

وفي هذا المقام أودّ أن أشكر جميع الإخوة الذين دعموا طباعة الجزء الثالث خالصًا لوجه الله تعالى. غير أنني عاجز هذه المرة عن تحرير الأسماء المباركة لهؤلاء الإخوة ذوي الهمم العالية وغيرهم من المشترين لضيق المكان ولأسباب قاهرة أخرى. ولكن سوف نكتبها بالتفصيل فيما بعد في جزء آخر في المستقبل بإذن الله وبشرط صحة النية.

هنا أريد القول أيضا بأني قد أوردتُ في الجزء الثالث جميع الأمور التمهيدية التي يُعدُّ قراءتها ووعيها بالتأمل ضروريا جدا لاستيعاب مفاهيم الكتاب اللاحقة. وسيتبين أيضا بقراءته أن الله تعالى قد أودع دين الإسلام الحقَّ شرفا وعظمة وبركة وصدقا لم يقدر على مواجهته أيّ قوم في أيّ زمن كما لا يقدر

الآن. ولقد بيّنت هذا الأمر بأدلة قاطعة وأتممتُ الحجة على المعارضين جميعا، وفتحتُ الباب لـــكل طالب حق للحصول على برهان كامل ليصل طلاب الحق إلى مرادهم ومرامهم، ولكي يرى المعارضون كلهم أنوار الصدق الكاملة فيُفحَموا ويُدانوا. وليندم ويخجل أيضا أولئك الذين اتخذوا لمعان أوروبا الزائف إلـــها لهم، ويعدُّون المعتقدين بالبركات السماوية جَهَلَةً ووحوشا وغير متحضرين، ويسمون المؤمنين بالآيات السماوية حمقى وسُذّجا وعديمي الفهم، ويزعمون أن اللمعان الحديث لعلوم أوروبا سيمحو بركات الإسلام الروحانية، وأن مكر المخلوق سيغلب أنوار الخالق.

والآن سيرى كل منْصِف مَن الغالب ومَن لا يُطيق جوابا ويعجز، ومَن الصادق والعاقل ومَن الكاذب والجاهل! **والله المستعان وعليه التكلان**.

العبد المتواضع

غلام أحمد عفا الله عنه



حالة المسلمين المتردية والحكومة الإنجليزية

"يا أيها الأعرابي إنني أخاف عليك، متى ستصل الكعبة؛ فأنت تسير على طريق يؤدي إلى تُركستان".[٣٤]

إن المسلمين الذين هم إخوتنا في الدين متقاعسون في هذه الأيام عن أداءِ فرائضهم الدينية والأخوّة الإسلامية، ومُهملون وغافلون عن تأدية مقتضيات المواساة القومية لدرجة لا نظير لها في أيّ قوم على الإطلاق. بل الحق أنه لم تعُد فيهم روح التعاطف القومي والديني أصلا. ولقد أوصلَتهم المفاسدُ الداخلية وأنواع العناد والاختلافات إلى شفير الهلاك، وقد رمتْ بهم تصرفات الإفراط والتفريط غير المبرّرة بعيدا عن الهدف المنشود كل البُعد. إن السلوك الناتج عن الأهواء النفسانية الذي تنشأ به الخصومات بينهم لا يُنذر فقط بتفاقم الضغينة المتبادلة بينهم بغير حق، ولا أن بعضهم سيَلْتهم بعضا كالحشرات وسيستأصلون أنفسهم بأيديهم، بل يُعتقَد أيضا على وجه اليقين أنه لو ظل الحال على هذا المنوال إلى مدة من الزمن لَلَحِق بالإسلام ضررٌ شديد بأيديهم، وَلَوَجد المعاندون المفسدون من الخارج فرصة كبيرة سانحة للطعن وإثارة الفتنة بسببهم. ومما يؤسَف له حالة بعض العلماء المعاصرين الذين يستعجلون كثيرا في الاعتراض على إخوهم ويستعدون للهجوم على أخيهم قبل أن يكون لديهم علم صحيح وقاطع. وكيف لا يستعدون لذلك وهم يهدفون -بسبب غلبة النفسانية عليهم- إلى العمل بأية طريقة ممكنة على إلحاق الهزيمة والذلة والهوان بمسلم يواجههم، لكي يثبتوا انتصارهم وأفضليتهم. ولهذا السبب تندلع بينهم مشادات

[٣٤] *ترجمة بيت فارسي. (المترجم)*

سخيفة على أتفه الأمور. ولقد رفع الله تعالى من بينهم التواضع والانكسار وحسن الظن والحب الأخوي نهائيا. إنا لله وإنا إليه راجعون.

قبل مدة وجيزة اعترض بعض الناس على ما ضمّنتُ الجزء الثالث من شكر الحكومة الإنجليزية، وبعث البعض رسائل أيضا وكتب فيها بعضهم كلمات قاسية جدا وقالوا: لماذا فضّلت الحكومة الإنجليزية على حكومات أخرى؟ والحق أنه إذا كانت هناك حكومة تفوق غيرها من حيث التحضر وحسن النظام فأنّى لأحد أن ينكر ذلك؟ إن الميزة -في أية حكومة كانت- تبقى ميزة من حيث كفاءتها الذاتية، **الحكمة ضالة المؤمن**... إلخ. وليكن معلوما أيضا أن الإسلام لا يتبنّى قط مبدأ أن يعيش المسلمون في كنف حكومة ويستفيدوا من أياديها البيضاء ويأكلوا رزقهم المقسوم لهم تحت ظل حمايتها سالمين آمنين، ويتربَّوا على نِعمها المتواترة ثم يلسعوا الحكومة نفسها كالعقرب، ولا يشكروها أدنى شكر على حسن معاملتها وإحسانها. بل علّمنا الله تعالى بواسطة رسوله الأكرم ﷺ أن نردّ الحسنة بحسنة أكبر منها ونشكر الـمُنعِم علينا، وأن نعامل حكومة مثلها بكمال التعاطف وبقلب صادق كلما سنحت لنا الفرصة، وأن نطيعها بالمعروف والواجب بطيب الخاطر. فالذي شكرتُ به الحكومة الإنجليزية في الجزء الثالث لم يكن نتيجة أفكاري الشخصية، بل ألزمتني بذلك التأكيداتُ الكبيرة الواردة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة المتمثّلة أمام عينيّ.

وأمّا الاعتراض على شكر الحكومة فهو إفراط بعض إخوتنا قليلي الفهم حيث ظنّوه اعتراضهم جُزءا من الإسلام نتيجة قصور فكرهم وبخل طبعهم.

"يا أيها الظالم إن تقديم الأعذار ليس من شيمة العشاق، فإنك تحاول أن تشوه سمعة الصالحين لغوا وعبثا".[٣٥]

لقد ذكرتُ قبل قليل إفراط بعض الإخوة، ولكن بعضا منهم مصابون بمرض التفريط أيضا، ولم تعد لهم أدنى علاقة مع الدين، بل جُلّ أفكارهم منصبَّة

---

[٣٥] *ترجمة بيت فارسي. (المترجم)*

وموجَّهة إلى الدنيا بكل قوة وشدة، ولكن مع الأسف الشديد لا ينالون الدنيا أيضا بل صاروا مصداق: خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ. وأنّى لهم أن ينالوها. فقد أفلت الدين من أيديهم، ولم يحرزوا كفاءات ضرورية لكسب الدنيا أيضا. قلوبهم مليئة بأفكار دنيوية مثل جُحا، ولكن قدمهم لم تطأ طريقا تُنال الدنيا بالسير عليه، وما جعلوا أنفسهم تتناسب معها. فأصبحوا: لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. الإنجليز يسمون هؤلاء القومَ شبه وحوش، فلكم أن تعُدّوا تسميتهم هذه لهم منةً عليهم أيضا، وإلا فالحق أن معظم المسلمين يَبدون أسوأ من الوحوش أيضا، إذ لم يبق فيهم فطنة ولا عزيمة ولا غيرة ولا حبٌّ. وصحيح تماما أنهم لا يكنّون في قلوبهم احتراما لقومهم ولإخوتهم ولا لمهمات دينهم الحقِّ بقدر ما يكّنه جيرانهم الآريون لتبجيل وتعظيم البقرة التي هي أدنى مخلوق لأننا نرى بأم أعيننا دائما أن قوم الآريا أولو العزم يجمعون مئات الآلاف من الروبيات ببذل مساع جبارة تشريفا للبقرة، بينما لا يقدر المسلمون على جزء بالألف منها لإظهار عظمة الله ورسوله، بل كلما جاء ذكر مساعدة الدين غطَّوا وجوههم كالنسوة. وإن عزيمة قوم الآريا تثبت أكثر عند التدبر لأن السعي للحفاظ على حياة البقرة أمر بسيط بحسب مذهبهم ولا يثبت من كتبهم الدينية. بل يعرف بانديتاتهم المحققون جيدا أنه لم تُذكر حرمة البقرة في أيّ من الفيدات. بل يتبين من الجزء الأول من "ريغ فيدا" أن لحوم البقر في زمن الفيدا كانت تُباع في الأسواق بوجه عام وكان الآريون يستهلكونها بطيب خاطر. وقد ألّف مؤخَّرا باحثٌ كبير "مونت استورت الفنستن" المحترم، الحاكم الأسبق لبومباي، عن وقائع قوم الآريا كتابا بالاستناد إلى كتب الهندوس الموثوق بها وأسماه "تاريخ الهند"، ويقول في الصفحة ٨٩ عن مجموعة "منو" بأنها تضم تأكيدا كبيرا على أن يأكل البراهمة لحم الثور بمناسبة الأعياد الكبيرة، بحيث يكونون مذنبين إن لم يأكلوه. وقد نشر أحد البانديتات مؤخرا في كالكوتا كتابا مماثلا جاء فيه أن أكل لحم البقر كان من فرائض الهندوس الدينية في زمن الفيدا، وكان البراهمة يُعطَون

قطعا كبيرة وشهية ليأكلوها. وكذلك ورد في الفصل الثالث عشر من كتاب "مها بهارت" أن لحم البقر ليس حلالا وطيبا فحسب، بل إن إطعام البراهمة أولادَهم هذا اللحم أَولى وأفضل من أيّ لحم آخر، لأنه سيؤدي بهم إلى الشعور بالشبع إلى عشرة أشهر.

باختصار، فقد عَدَّ جميع علماء الفيدا و"منو" المحترم و"بياس" المحترم استهلاك لحم البقر فريضة دينية، وعدُّوا ذلك عملا يثاب عليه. ويكون بياني هذا ناقصا في نظر البعض لو تركنا البانديت ديانند -الذي رحل من هذه الدنيا بتاريخ ١٨٨٣/١٠/٣٠م- خارجا عن الرأي المتفق عليه المذكور آنفا. فيجب التأمل جيدا في أن البانديت المذكور أيضا لم يحرم أكل لحم البقر و لم يعدّه نجسا في أيّ كتاب من كتبه، و لم يُثبت حرمة البقرة أو منع ذبحها من الفيدا بل عدَّ سبب هذه العادة مبنيا على رخْص سعر الحليب والزبدة، وقد عدَّ ذبح البقرة أيضا مناسبا عند الضرورة كما يتبين من كتبهم "ستيارتهـ بركاش" و"ويد بهاش".

لا أقصد قط من سرد كل هذه التفاصيل هنا أن أبين لماذا ينحرف الآريون عن فيداهم المقدس وكبار أوليائهم ويعارضون القول الجدير بالتعظيم لـ"بياس" المحترم و"منو" المحترم، وأقوالَ بانديتاتهم المحققين والأفاضل؛ بل ما أقصده هو ما أقوى قوم الآريا عزيمة وهِـمَّةً واتحادًا فيما بينهم إذ يستطيعون أن يتفقوا على أمر بسيط أيضا لا أهمية له ولا حقيقة له من حيث الدين، وتتكدس عندهم فورا آلاف الروبيات كتبرعات. فالقوم الذين يتفقون على أمور سخيفة بحماس يمكن تقدير علو همتهم وحماسهم القلبي في مهمات عظيمة. فحريّ بأصحاب الهمم الضعيفة من المسلمين أن يموتوا وهم أحياء. فإذا كانوا لا يكنّون في قلوبهم حبا لله وللرسول فلماذا يدّعون الإسلام أصلا؟ هل الإسلام هو إضاعة المال دون عدّ وحساب في أمور خبيثة واتباعا للنفس الأمارة والشموخ بأنوفهم، وعدم إنفاق حبة واحدة في سبيل حبّ الله ورسوله؟ كلا، هذا ليس بالإسلام قطعا. بل هذا جذام باطني، وهذا هو الانحطاط الوارد على المسلمين. إن معظم

الأغنياء من المسلمين قد حسبوا أن مواساة الدين واجبة على الفقراء فقط، أما الأثرياءُ فهم مستثنون من ذلك وكأنه ممنوع عليهم أن يحملوا هذا العبء. لقد جرّبت هذا الأمر بشدة أثناء طباعة هذا الكتاب نفسه، مع أنني كنت قد أعلنت على نطاق واسع أنه من الأنسب أن يُثبَّت ثمنه بمئة روبية نتيجة ضخامة حجمه، وعلى الأثرياء أن يراعوا هذا الأمر لأن الكتاب نفسه نبيعه للفقراء بعشر روبيات فقط. فمن واجب الأغنياء أن يعوّضوا هذا النقص، إلا أن الجميع قد سارعوا ودخلوا في عداد الفقراء ما عدا سبعة أو ثمانية أشخاص فقط. فما أحسن تعويضهم لهذا النقص! كلما فحصنا حوالةً بريديةً لنعلم من أرسل خمس روبيات أو عشر روبيات ثمنًا للكتاب علمنا في معظم الأحيان أنها جاءت من "نواب" فلاني أو الزعيم الأعلى الفلاني. غير أن النواب إقبال الدولة المحترم من حيدر آباد، وزعيمٌ آخر من محافظة "بُلَند شهر" الذي طلب أن لا يُذكر اسمه، قد أرسل كل واحد منهما مئة روبية ثمنا لنسخة واحدة من الكتاب. كما أرسل موظف آخر اسمه محمد أفضل خانْ مئة وعشر روبيات، وأرسل النواب المحترم من مالير كوتله مئة روبية ثمنا لثلاث نسخ. كذلك أرسل الزعيم الهندوسي "سردار عطر سنغ" الزعيم الأعلى في لدهيانه، لعلوّ همته وكمال سخائه، خمس عشرة روبية لدعم الكتاب. لقد أظهر السردار المحترم مواساته للإسلام مع كونه هندوسيا. فعلى البخلاء والممسكين من المسلمين الذين يُدعَون بألقاب كبيرة ويملكون أموالا هائلة كقارون ولا ينفقونها، أن يقارنوا حالتهم مع السردار المحترم. فما دام هناك أناس من الآريين أيضا يواسون قوما غير قومهم، وقليل من المسلمين مَن يواسون قومهم، فقولوا بالله عليكم؛ كيف يمكن أن يتقدم هذا القوم ويزدهر؟! ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ *(الرعد: ١٢)*.

إن المواساة الدينية ملحوظة في أغنياء كل قوم إلا المسلمين. غير أن هناك قلة قليلة من الأغنياء المسلمين الذين لديهم أدنى اهتمام بدينهم الحق والمقدس.

قبل مدة كتبتُ -من أجل دعم كتاب "البراهين الأحمدية"- إلى أحد النوّاب، وهو رجل تقيّ وورع جدا ومتصف بالفضائل العلمية ومطلع جيدا على ما قال الله والرسول؛ فلو قال في الجواب بأن الكتاب لا يحتل مستوى رفيعا حتى يُدعم لما تأسفت. لكنه قال في الجواب بدايةً بأنه سوف يشتري ١٥ أو ٢٠ نسخة حتما. ثم ذكَّرته مرة أخرى فجاء الجواب منه: إن شراء الكتب المحتوية على مباحث دينية ودعمها ينافي سياسة الحكومة الإنجليزية، لذا يجب ألا تتوقع من الولاية شراء الكتاب. فنحن أيضا لا نعدّ النواب محط أملنا قطعا، بل إن محط أملنا هو الله تعالى وحده وهو يكفينا. وأدعو الله تعالى أن ترضى الحكومة الإنجليزية عن النواب المحترم كثيرا، ولكن أقول بكل أدب إن مثل هذه الأفكار تمثّل هجوا مليحا للحكومة، إذ ليس من مبادئ الحكومة الإنجليزية أن تمنع قوما من إثبات صدق دينهم أو تمنع أحدا من دعم الكتب الدينية، إلا إذا كان الموضوع مخلا بالأمن أو ينافي نظام الدولة، عندها ستتدخل الحكومة، وإلا فهي تسمح لكل قوم أن يستخدم الوسائل المشروعة لتقدم دينهم. فإن كان دينُ قومٍ صادقا في الحقيقة، وصدقه ثابت بأدلة كاملة ودامغة، فلماذا تسخط الحكومة العادلة لو نشر ذلك القوم أدلته الصادقة لإفادة خلق الله بصدق النيّة وكمال التواضع والانكسار؟ لا يدرك الأغنياء من المسلمين إلا قليل منهم أن من مقتضى مصلحة الحكومة العادلة أن تقيم الحرية بانشراح الصدر. ولقد رأيت بأم عيني عديدا من الإنجليز الفطنين وذوي الفطرة السليمة الذين لا يحبون سيرة النفاق والمداهنة، بل يحبذون التقوى وخشية الله والإخلاص. والحق أن البركة كلها في الإخلاص وخشية الله تعالى التي تؤثر حتما في الأصدقاء والأغيار في حين من الأحيان. ومَن رضي اللهُ به رضي به الخلق أيضا في نهاية المطاف.

فباختصار، إن العكوف على المواساة الدينية والقومية بحسن النية والتقوى، ومواساة خلق الله الحقيقية في الدين والدنيا بحماس القلب، هما صفات طيبة،

وإن وجود أناس يتصفون بصفات من هذا القبيل في حكومة هو مدعاة اعتزاز لها. والأرض التي بها أناس مثلهم تنـــزل عليها بركات من السماء. وشقيةٌ جدا الحكومة التي يعيش في ظلها المنافقون فقط؛ الذين يقولون في السر شيئا وفي العلن شيئا آخر. فيجب أن يكون معلوما أن تقدم الناس في الإخلاص باستمرار وعدّهم الحكومة صديقا محسنا إليهم ومعاملتهم لها دون أدنى تكلف، هو من حسن حظ الحكومة الإنجليزية. لذا فإن حاكمينا المحسنين إلينا لا يعطوننا درس الحرية بلسانهم فقط بل يريدون أن يثبِّتونا على مبدأ الحرية بنصيحتهم العملية حيث يتصرفون بأنفسهم في الأمور الدينية بحرية. ويكفي مثالا على ذلك أنه قبل شهر تقريبا جاء حاكم البنجاب "النواب السير تشارلس ايجيسن" إلى مدينة بطاله بمحافظة غورداسبور، وعند وضعه حجر الأساس لكنيسة قال بكل بساطة ودون أدنى تكلف مُظهرا مواساته للديانة المسيحية: كنت أتوقع أن يتقدم هذا البلد كثيرا في الصدق والأمانة في مدة وجيزة، ولكن يتبين من التجربة والمشاهدة أنّ هذا التقدم لم يحصل إلى الآن كما يجب، (أي لم يتنصّر الناس بكثرة، وأن طائفة المتنصرين الطيبين ما زالت قليلة العدد) فعلينا ألا نيأس لأن أعمال القساوسة ليست عديمة الجدوى وأن جهودهم لن تذهب سدى، بل إنها تؤثر في القلوب بقدر وجود الخير فيها، وتستعد قلوب كثير من الناس داخليا. فقد جاءني مثلا أحدُ الزعماء المحترمين قبل أقل من شهر وتحدث معي عن الأمور الدينية إلى ساعة كاملة. وبدا لي أن قلبه أيضا بحاجة إلى شيء من الاستعداد. وقال: قرأت كتبا دينية كثيرة ومع ذلك لم أتخلص من الذنوب حتى الآن، وأعرف جيدا أني لا أستطيع القيام بأعمال صالحة وهذا ما يُقلقني كثيرا. فشرحت له بلغتي الأردية المكسّرة موضوع الدم الذي يخلّص من الذنوب جميعا ويطهِّر منها. ثم شرحت له الصدق الذي لا يُنال بالأعمال بل يُعطى مجانا. فقال: لقد قرأت الإنجيل في السنسكريتية ودعوت يسوع المسيح أيضا مرة أو

مرتين، أما الآن فسأقرأ الإنجيل بإمعان وسأدعو عيسى المسيح بقوة وشدة (أي أن وعظك قد أثّر فيّ كثيرا ووجدت في نفسي رغبة كاملة في المسيحية).

انظروا الآن، كيف أمالَ الحاكمُ زعيما هندوسيا إلى دينه بجهد جهيد. ومع أن مثل هؤلاء الزعماء يقولون كلاما مبنيا على نفاق كهذا أمام الحكام لنيل مبتغاهم منهم وليرضوا عنهم ويعدّوهم إخوانهم في الدين. لقد قصدتُ من هذا البيان كله في الحقيقة أنه يمكن تقدير الحرية الدينية في الحكومة الإنجليزية من خلال ما قاله الحاكم، لأنه إذا كان النواب الحاكم يرغب من الأعماق أن ينشر في الهند معتقده الذي يرغب فيه -بل كلما وجد فرصة سانحة بلّغ دعوته أيضا- فأنّى له أن يسخط على الآخرين بسبب مواساهم لأدياهم. وإن المواساة بالإخلاص الحقيقي صفة طيبة، ويجب قمع سيرة النفاق من أجلها.

ولقد كتب حاكم بومباي الأسبق "السير ريتشارد تيمبل" مقالا عن المسلمين مدفوعا بحماس الإخلاص -وقد نُشر في الجريدة البريطانية "Evening Standard" ثم نُقل في الجرائد الأردية أيضا- قال فيه بأنه "من المؤسف أن المسلمين لا يتنصرون، والسبب في ذلك أن دينهم ليس مليئا بأمور غير واقعية تزخر بها الهندوسية. يمكن لإقناع الهندوس والبوذيين أن تقدَّم لهم أدلة عادية على سبيل المزاح ويُزاحوا عن دينهم، أما الإسلام فيواجه العقل بكل سهولة ونجاح ولا يمكن هزيمته بالأدلة فقط. يمكن للمسيحيين أن يُظهروا على أصحاب الأديان الأخرى أمورا مستحيلة في أدياهم ويبعدوهم بذلك عن أدياهم، أما القيام بذلك مع المسلمين فصعب جدا." فهذا النوع من الإخلاص لا يوجد عند الأغنياء من المسلمين دع عنك أن يفكّروا في هذا الموضوع.

العبد الضعيف

غلام أحمد

يا اللّه[٣٦]

ذكر حالة المسلمين وغربة الإسلام، والإعلام ببعض الأمور الهامة

تظهر للعيان في هذه الأيام أمارات غُربة الإسلام والمصائب على الدين المحمدي المتين بحيث لا نجد لها -على حد علمنا- نظيرا في أيّ قرن بعد زمن بعثة النبي ﷺ. وأيّة مصيبة أكبر من أن المسلمين قد صاروا كسالى جدًّا في مواساة دينهم، أما الخصوم فنراهم نشطاء ومشمِّرين عن سواعد جِدّهم في كل حدب وصوب لترويج معتقداتهم ونشرها، الأمر الذي يؤدي إلى فتح باب الارتداد وسوء الاعتقاد على مصراعيه يوما بعد يوم، فيرتد الناس أفواجا ويعتنقون معتقدات سيئة. كم هو مؤسف أن معاندينا ذوي المعتقدات الفاسدة والبديهية البطلان نشطاء في نصرة دينهم ليل نهارَ -حتى إن الأرامل في أوروبا وأميركا أيضا يدفعن التبرعات لنشر المسيحية، كما أن معظم الناس يوصون قبل موتهم أن يُنفق جزء كذا وكذا من تركتهم لترويج المسيحية فقط- أما المسلمون! فماذا نقول عنهم وماذا نكتب! فقد بلغ كسلهم مبلغا؛ إذ لم يعودوا يهتمون بدينهم ولا يحسنون الظن بمن يهتم به. وكان جديرا بالتأمل كم كانت الفرصة مواتية لمواساة الدين وكم كانت الخدمة ضرورية؛ إذ أن كتاب "البراهين الأحمدية" الذي أُثبت فيه صدق الإسلام بثلاثمئة دليل مُحكم - واستُئصلت من خلاله المعتقدات الباطلة لكل معاند وكأن دينه قد ذُبح ذبحا فلن يحيا بعده أبدا- لم يُطبع منه إلا جزءان وشيءٌ قليلٌ من الجزء الثالث بمساعدة

[٣٦] *هذا الإعلان لم يرد في الطبعة الأولى عام ١٨٨٢م، ولا في الطبعة الثانية عام ١٩٠٠م، وقد ورد في الطبعة الثالثة عام ١٩٠٥م فقط. (الناشر)*

قلّة من ذوي الهمم العالية. أما مساعدة بقية الناس فأفضل من بيانها الاكتفاء بالقول: "**إنا لله وإنا إليه راجعون**".

أيها الإخوان المؤمنون، ما لكم لا تتوجهون! شوّقناكم فلم تشتاقوا، ونبّهناكم فلم تتنبهوا! اسمعوا عباد الله اسمعوا، انصُروا تؤجَروا، وفي الأنصار تُبعثوا، وفي الدارين تُرحموا، وفي مقعد صدق تقعدوا، رحمَنا الله وإياكم هو مولانا نعم المولى ونعم النصير.

وإذا لم ينتبهوا الآن أيضا فلا بأس، وسنسأل الله تعالى أرحم الراحمين، وإن وعوده المقدسة مدعاة لاطمئنان المساكين أمثالنا.

والأمر الآخر الجدير بالذكر هنا هو أن هذا الكتاب كان قد أُلِّف في البداية محتويا على خمسة وثلاثين قسما فقط ثم زِيد إلى مئة قسم، وحُدّد ثمنه بعشر روبيات لعامة المسلمين وخمسة وعشرين روبية لأهل الأقوام الأخرى والخواص. أما الآن فقد بلغ حجمه ثلاثمئة قسم إحاطةً بجميع حاجات التحقيق والتدقيق وبُغية إتمام الحجة. ويبدو واجبا بالنظر إلى نفقاته أن يُحدَّد ثمنه بمئة روبية مستقبلا. ولكن نظرا إلى صِغَرِ همّة معظم الناس رأيتُ من المناسب أن يُثَبَّتَ ثمنه السابق -وإن كان ليس شيئا يُذكر- وألاّ يُزعَج هؤلاء الناس بتكليفهم أكثر من إمكانياتهم. ولكن لن يكون من حق المشترين أن يطالبوا بهذا القدر من أقسام الكتاب كحق واجب لهم، بل أقسامه التي ستصلهم أكثر من حقهم ستكون في سبيل الله وابتغاء لمرضاته ﷻ وسيُثاب عليها أولئك الذين يساعدون في هذا المشروع خالصًا لوجه الله تعالى.

فليتضح أيضا أن هذا العمل لن يُنجَز فقط بمساهمة أولئك الذين يجدون في أنفسهم حماسا مؤقتا لكونهم مشترين، بل هناك حاجة إلى كثير من ذوي الهمم العالية الذين يجدون في قلوبهم حماسا حقيقيا وصادقا بسبب غيرهم الدينية، والذين لا يُحدُّ إيمانهم الغالي في دائرة البيع والشراء الضيقة، بل يريدون أن يشتروا بأموالهم جنة الخلد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأخيرا أنهي مقالي هذا بالدعاء: يا ربي الكريم؛ وجِّه عبادك المخلصين إلى هذا الأمر توجيها كاملا. يا رحمن يا رحيم؛ ذكِّرهم بذلك بنفسك. يا قادر يا قدير؛ ألهِم قلوبهم من عندك، آمين ثم آمين. ونتوكل على ربنا رب السماوات والأرض ربّ العالمين.

إعلام: لم تُسجَّل هنا لضيق المجال أسماء الإخوة الذين اشتروا الكتاب وأرسلوا ثمنه سلفا، أو ساعدوا ماليا لوجه الله فقط. ويرى بعض الإخوة عدم ضرورة تسجيل الأسماء. على أية حال، سنعمل في الجزء الرابع بما يراه معظم الإخوة مناسبا.

العبد المتواضع: ميرزا غلام أحمد

اعتذار: قد يستغرب أو يحتار كثيرا معظم المشترين للتأخير الذي حصل هذه المرة في صدور الجزء الثالث لنحو عامين، ولكن هذا التأخير كان بسبب بعض الظروف القاهرة التي واجهها مدير مطبعة "سفير هند" حيث يُطبع الكتاب.

العبد المتواضع:

غلام أحمد عفا الله عنه

التماس مهم[٣٧]

ما دام حجم الكتاب قد ازداد إلى ثلاثمئة قسم فإننا نلتمس من المشترين الذين لم يرسلوا شيئا من ثمنه أو لم يرسلوا ثمنه الكامل أن يرسلوا حالاً – لطفا منهم– بقية ثمنه على الأقل. وإن لم يرسل المسلمون سلفا هذا المبلغ الزهيد أيضا لكانوا سببا في عرقلة إتمام هذا المشروع؛ فَمَعَ أن ثمن الكتاب الحقيقي قد بلغ مئة روبية، إلا أنه ثُبِّتَ على عشر روبيات أو خمس وعشرين روبية بدلا منها.

لقد كتبنا هذا القدر مراعاة للأسباب الظاهرية، وإلا فمَن لم يساعد أو أهمل الموضوع فقد حرم نفسه من السعادة العظمى، لأن أفعال الله لن تتوقف أبدا ولم تتوقف من قبل. والأمور التي يريد القدير على كل شيء إتمامها لا تؤجَّل بسبب إهمال أحد. **والسلام على من اتبع الهدى.**

العبد المتواضع: ميرزا غلام أحمد

[٣٧] *أُدرج هذا الإعلان في نهاية الجزء الثالث في الطبعة الأردية عام ١٨٨٢م. (الناشر)*

التماس مهم إلى المنظمات الإسلامية

لقد وصلتني رسالة من سكرتير منظمة "أنجمن إسلامية لاهور"، كما وصلتني عبارة من المولوي أبي سعيد محمد حسين المحترم سكرتير منظمة "أنجمن همدري إسلام" لاهور، وقد طُلب فيهما تواقيع الإخوة المسلمين والمنصفين من الهندوس على المذكّرتين اللتين أُعِدّتا للتقديم للحكومة من أجل ترقية المسلمين في مجال التعليم والوظائف، والاحتفاظ بتعليم اللغة الأردية في المدارس. ولكنني، بكل أسف، لم أستطع أداء هذه الخدمة لاعتلال صحتي أولاً، ونظرا لاضطراري للمكوث في مدينة "أمرتسار" ثانيًا. ولكن أريد القول من منطلق "الدين النصيحة" بأنه من الضروري لإخواني في الدين -ولمصلحة دينهم ودنياهم- أن يعلموا أنه مع أن حالة المسلمين المتدهورة ستُعدُّ جديرة بالترحم حتما في نظر الحكومة المشفقة -وأنّى للحكومة التي ترحم في قوانينها الدواب والأنعام أيضا أن تغفل عن مواساة فئة كبيرة من الناس الذين هم رعاياها وخاضعون لها ويواجهون الفقر والانحطاط- إلا أن واجب إخواننا الكرام لا ينحصر في التركيز على إعداد مذكَّرة وإرسالها إلى الحكومة بعد تذييلها بتواقيعهم الكثيرة عليها دائما نظرا إلى فقر المسلمين وانحطاطهم وافتقارهم الدائم إلى التربية المناسبة، وإنما يجب بذل القوة والقدرة التي وهبهم الله تعالى في كل أمر -سواء أكان دينيا أم دنيويا- قبل الاستعانة بأحد، وبعد ذلك يمكن أن يطلبوا المساعدة لإكماله. هذا ما علّمنا الله تعالى إيّاه في عبادتنا اليومية إذ أمرنا أن ندعو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وليس: إياك نستعين وإياك نعبد. إن الأمور التي يجب على المسلمين إنجازها بجهدهم ومسعاهم بُغية إصلاح أحوالهم سوف تتبين لهم تلقائيا عند التدبر والتأمل، ولا حاجة لبيانها وشرحها. ولكن من تلك الأمور هناك أمرٌ جدير بالذكر بوجه خاص وهو ما تركّز عليه وتهتم به الحكومة الإنجليزية، أيْ

يجب التأكيد جيدا للحكومة الممدوحة أن مسلمي الهند هم رعاياها الأوفياء؛ لأن بعضا من الإنجليز عديمي الفهم وخاصة الدكتور "هَنْتَر" -الرئيس الحالي للجنة التعليم- قد أصر كثيرا على ادّعائه في كتابه الشهير بأن المسلمين ليسوا ناصحين أمناء للحكومة الإنجليزية، ويرون الجهاد ضد الإنجليز واجبا عليهم. مع أن فكرته هذه يثبت للجميع بطلانها تماما عند النظر في شريعة الإسلام. ولكن مما يؤسَف له أن تصرفات بعض سكان الجبال والسفهاء من قليلي الأدب تؤيد هذه الفكرة. ولعل هذه المشاهد، وليدة الصدفة، أدّت إلى توطيد هذا الزعم عند الدكتور المذكور، لأن مثل هذه التصرفات تصدر بين حين وآخر من الجهلاء. ولكن لا يخفى على الباحثين أن مثل هؤلاء الناس بعيدون كل البعد عن الالتزام بالإسلام، بل إن إسلامهم لا يختلف كثيرا عن فكرة "مكلين" عن المسيحية. فالمعلوم أن أفعالهم هذه تصرفات شخصية وليست نتاج التزامهم بالشريعة. وبالمقابل عوضًا عن هؤلاء القلة يجب النظر إلى آلاف المسلمين الذين كانوا ناصحين أمناء للحكومة الإنجليزية بكامل الإخلاص ولا يزالون. فلم يشترك مطلقًا في المفسدة التي حدثت في عام ١٨٥٧م أي مسلم متحضِّر متأدب ومثقف وسعيد الطبع عدا بعض الجهلاء من ذوي التصرفات المشينة. بل إن الفقراء من المسلمين في البنجاب أيضا أعانوا الحكومة الإنجليزية أكثر مما كان بوسعهم؛ فقد اشترى والدي المرحوم من جيبه الخاص -مع قلة ذات يده- نتيجة إخلاصه وحماس مواساته خمسين فرسا، وقدمها عونًا للحكومة مع خمسين فارسا قويا وبارعا، وأظهر مواساته وإخلاصه أكثر من استطاعته. أما المسلمون الذين كانوا يملكون ثروة وأملاكا، فقد قاموا بخدمات عظيمة وبارزة في هذا المجال.

والآن أعود إلى البيان أن المسلمين قد ضربوا أمثلة سامية في الإخلاص والوفاء، ولكن من سوء حظهم أن الدكتور المذكور قد غضّ الطرف عن نماذج

وفائهم كلها، وعند توصله إلى الرأي لم يُقِم أيَّ وزنٍ أو اعتبار لتلك الخدمات المخلصة في صُغرى قياسه ولا في كبراه.

على أية حال، يجب على إخواننا المسلمين أن يؤكدوا للحكومة مجددا أنهم ناصحون أمناء لها قبل أن تتأثر من مخادعاته. ما دامت القضية واضحة في الشريعة الإسلامية ويتفق عليها المسلمون جميعا، بأنه محرّم قطعا القتال أو الجهاد ضد الحكومة التي يعيشون تحت ظلها بأمن وعافية وحرية ويمتنّون لعطاياها ومدينين لجميلها، والتي تعِينهم حقيقةً على نشر الحسنة والهداية؛ فمن المؤسف جدا ألا ينشر علماء الإسلام هذه المسألة على نطاق واسع مُجمعين، ومهيّئين بذلك لألسنة عديمي العلم وأقلامهم فرصةً ليوجِّهوا إليهم اعتراضات من شأنها أن تسيء إلى دينهم وتضر بدنياهم بغير حق. فمن الحكمة بحسب رأيي أن تختار منظمة "أنجمن إسلامية" لاهور وكالكوتا وبومباي، بعض المشايخ المعروفين والمعترف بهم عند معظم الناس بعلمهم وفضلهم وزهدهم وتقواهم، ثم يُطلب من أهل العلم المعروفين نوعا ما في المناطق المجاورة أن يرسِلوا -إلى هؤلاء المشايخ الـمُختارين- عباراتهم الخطية الممهورة التي تحتوي على منعٍ صريحٍ من الجهاد -بحسب مقتضى الشريعة الإسلامية- ضد الحكومة الإنجليزية المحسنة والمواسية لمسلمي الهند. وعندما تُجمع كل هذه الرسائل -التي يمكن أن تسمَّى "مكاتيب علماء الهند"- فلتُطبع في مطبعة وبخط جميل مع العناية بصحتها جيدًا، ثم تُرسَل عشرة أو عشرون نسخة منها إلى الحكومة وتوزَّع البقية على الناس في أماكن مختلفة في البنجاب والهند وخاصة في المناطق الحدودية. صحيح أن بعض المسلمين المواسين قد كتبوا ردا على أفكار الدكتور "هنتر" ولكن الرد من قبل بضع مسلمين لا يمكن أن يقوم مقام الرد الجماهيري قط. ولا شك أن رد الجمهور سيكون قويا وذا تأثير يؤدي إلى محو عبارات الدكتور المحترم الخاطئة نهائيا، وسيطَّلع جيدا بعض المسلمين غير الملمين أيضا على مبادئهم الحقة والصادقة، كما سينكشف على الحكومة الإنجليزية صفاء باطن المسلمين ونُصحُ

الرعية لها كما هو حقه. وستظل أفكار بعض سكان الجبال قليلي الفهم تتماثل إلى الإصلاح بواسطة الوعظ والنصيحة الواردة في ذلك الكتاب.

وأخيرا أرى لزاما عليّ بيان التالي: مع أنه يجب على أهل الهند كلهم أن يعدّوا هذه الحكومة نعمة من الله نظرا إلى أيادي السلطنة الإنجليزية البيضاء التي يحظى بها عامة الناس بواسطة هذه الحكومة وحكمها المريح، ويشكروه ﷻ عليها كما يشكرون نِعمه الأخرى، ولكن لو لم يستيقن مسلمو البنجاب بأن هذه الحكومة -التي هي رحمة عظيمة من الله في حقهم- نعمة عظمى، لكانوا ناكري الجميل من الدرجة القصوى. عليهم أن يفكروا كيف كانوا يعيشون في حالة الألم والمعاناة قبل هذه الحكومة، ثم كيف حظوا بالأمن والأمان. الحق أن هذه الحكومة بمنــزلة بركة سماوية لهم وبمجيئها زالت معاناهم كلها، ونجوا من كافة أنواع الظلم والاضطهاد، وتحرروا من كل ما كان يعرقل طريقهم ويسدها بغير وجه حق. والآن ليس هناك ما يمنعنا من القيام بالأعمال الصالحة أو ما يكدر راحتنا. فالحقيقة أن الله الكريم الرحيم قد أرسل هذه الحكومة للمسلمين كالغيث الذي بواسطته يخضرّ غراسُ الإسلام في البنجاب كله باستمرار من جديد، فالاعتراف بخيراتها إنما هو اعتراف بمنن الله تعالى في الحقيقة. إن الحرية التي أعطتها هذه الحكومة بديهية الثبوت بحيث يودّ المسلمون المظلومون من بعض البلاد الأخرى من الأعماق أن يهاجروا إلى هذا البلد. وعلى حد علمي؛ في هذه الأيام، لا نظير في أيّ بلد آخر للحرية التي تتيح لنا الوعظ -في ظل حماية هذه الحكومة- لإصلاح المسلمين وإزالة بدعاتهم المتضاربة، وإقامة المناسبات التي تولِّد الحماس لدى علماء الإسلام لنشر دينهم في كنف هذه الحكومة، واستخدام الفكر والنظر في ظلها إلى مستوى أعلى، وتأليف الكتب بعد بحوث عميقة في تأييد الإسلام وإتمام حجته على الخصوم. وبسبب الحماية العادلة لهذه السلطنة، وجد العلماء بعد مدة مديدة -وكأنها مئات السنين- فرصة ليُطلِعوا قليلي الفهم من الناس بحرية تامة على شوائب البدعات ومساوئ

الشرك ومثالب عبادة المخلوق، وأن يبيِّنوا لهم صراط رسولهم ﷺ المستقيمَ. فهل تجوز الإساءة إلى مثل هذه الحكومة التي يعيش تحت ظلها جميع المسلمين بأمن وحرية، ويعملون بفرائض دينهم كما هو حقها، ويشتغلون في نشر دينهم أكثر من أيّ بلد آخر؟ حاشا وكلا، لا يجوز أبدا، ولا يمكن أن تخطر ببال شخص صالح وملتزم مثل هذه الإساءة أبدا.

أقول صدقا وحقا؛ إنها السلطنةُ الوحيدة اليوم في العالم كله، التي تتحقق في ظل عطفها بعض الأهداف الإسلامية التي لا يمكن تحقيقها في البلاد الأخرى قط. لو سافرتم إلى بلاد الشيعة لوجدتموهم ساخطين على مواعظ أهل السنَّة، أما في بلاد أهل السنَّة فيخاف الشيعةُ من إظهار رأيهم. كذلك لا يستطيع المقلِّدون أن ينبسوا ببنت شفة في بلاد الموحِّدين والعكس صحيح. ولو رأوا بأم أعينهم بدعةً تُمارَس لما استطاعوا أن يتفوّهوا بكلمة عنها. فهذه هي السلطنة الوحيدة التي في ظل حمايتها يُظهر أهل كل فرقة رأيهم بأمن وراحة. وهذا الأمر جدّ مفيد لأهل الحق، فكيف يمكن أن ينتشر الحق في بلد لا مجال فيه للكلام أصلا، ولا مجال فيه للوعظ وإسداء النصيحة؟ البلد الأنسب لنشر الحق هو ذلك الذي يستطيع فيه أهل الحق الدعوة والتبليغ بحرية.

وليكن مفهوما أيضا أن الهدف الحقيقي من وراء الجهاد الديني كان إقامة الحرية ودرء الظلم. ولم يكن الجهاد الديني إلا ضد البلاد التي كانت حياة الداعين فيها في خطر عند دعوتهم، أو في البلاد التي كانت الدعوة بالأمن مستحيلة أصلا، وما كان لأحد أن يأمن ظلمَ قومه عند اختياره سبيل الحق. أما الحرية السائدة في السلطنة الإنجليزية فليست خاليةً من هذه المساوئ فحسب، بل تدعم وتؤيد تقدُّمَ الإسلام إلى أقصى الغايات. فيجب على المسلمين أن يقدِّروا هذه النعمة الإلهية، ويتقدموا في ظلها حيث دينهم. ويتوجّهوا أيضا إلى أنه من واجبهم -شكرا لهذه الحكومة المحسنة- أن يواسوا حكومتها، كذلك عليهم أن يحاولوا من خلال وعظهم وبياناتهم المعقولة وتأليفاتهم المثلى أن ينال

هذا القوم حظا من بركات الإسلام بطريقة من الطرق. وهذه المهمة لا يمكن إنجازها دون الرفق والتسامح والحب والحِلم. إن الترحمَ بعباد الله وعدَّه ﷻ وحده خالقا للعرب ولأهل بريطانيا وغيرها من البلاد ومواساةَ خلقه الضعيف قلبا وروحا هو أصلُ الدين والإيمان.

فأولا وقبل كل شيء يجب أن نزيل شبهة بعض هؤلاء الإنجليز قليلي العلم الذين يظنون لعدم علمهم أن المسلمين قوم يسيئون إلى المحسنين إليهم، ويؤذون من يعاملهم بإحسان ويحقدون على حكومتهم التي تحسن إليهم، مع أن ما جاء في القرآن الكريم من تأكيد شديد على الإحسان إلى المحسن لا أثر له في أي كتاب آخر؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [٣٨]، وقال رسول الله ﷺ: من اصطنع إليكم معروفا فجازُوه، فإن عجزتم عن مجازاته فادعوا له حتى يعلم أنكم قد شكرتم[٣٩]، فإن الله شاكرٌ يحب الشاكرين.

الملتمس

العبد المتواضع

غلام أحمد عفي عنه



[٣٨] النحل: ٩١

[٣٩] *يبدو أنه عليه السلام يشير إلى الحديث التالي: "وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ" (مسند أحمد) (المترجم)*

الفصل الأول

في بيان البراهين؛ التي هي الشهادات الخارجية والداخلية على صدق القرآن الكريم وأفضليته

قبل تحرير البراهين في هذا الفصل لا بد من بيان بعض الأمور التمهيدية التي هي بمنـــزلة القواعد الأساسية لمعرفة معظم معاني الأدلة الآتية ومعرفة كيفيتها وماهيتها، فأسجلها فيما يلي:

التمهيد الأول: المراد من الشهادات الخارجية هو الأحداث الخارجية التي تحدث على نحوٍ يبرهن التدبرُ فيها على أن الكتاب من عند الله، أو تتأكّد ضرورة أنه من الله. والمراد من الشهادات الداخلية هو كمالات الكتاب الذاتية التي توجد في الكتاب نفسه، وبالتدبر فيها يوجب العقلُ بالقطع أنه كلام الله، وأن الإنسان ليس قادرا على تأليفه.

التمهيد الثاني: إن البراهين التي تمثِّل شهادات خارجية على صدق القرآن الكريم وأفضليته تنقسم على أربعة أقسام:

الأول: الشهادات المستمدة من أمور تحتاج للإصلاح. والثاني: الشهادات المستنبَطة من أمور تحتاج التكميل. والثالث: الشهادات المأخوذة من أمور تتعلق بقدرة الله. والرابع: الشهادات المستمدة من أمور غيبية. أما البراهين التي هي شهادات داخلية على صدق القرآن الكريم وأفضليته فكلها مأخوذة من أمور تتعلق بقدرة الله تعالى حصرا. وفيما يلي تعريف الأقسام المذكورة آنفا بالتفصيل:

الأمور التي تحتاج الإصلاح: المراد منها أعمال الكفر وعدم الإيمان والشرك والأعمالُ السيئة التي يرتكبها بنو آدم -بدلا من الاعتصام بالمعتقدات الحقة والأعمال الصالحة- وقد استحقت بسبب انتشارها في العالم بشكل عام أن تتوجه رحمة الله الأزلية إلى إصلاحها.

الأمور التي تحتاج التكميل: المراد منها الأمور المتعلقة بالتعاليم التي توجَد في الكتب الموحى بها بصورة ناقصة، ويثبت نقصها إذا روعي غرض كمال التعليم، وعليه فتكون بحاجة إلى كتاب موحى به يبلِّغها إلى درجة الكمال.

الأمور المتعلقة بقدرة الله: وهي قسمان:

١- الشهادات الخارجية: المراد منها الأمور التي تأتي إلى حيّز الوجود بمحض قدرة الله دون أن يكون فيها أيّ شأن لتخطيط الإنسان، وتهب لكل ذرة لا تُذكر عظمة وشأنا يُعدُّ الحصول عليه من المحالات عند العقل، ولا نظير له على وجه الأرض.

٢- الشهادات الداخلية: المراد منها المحاسن الظاهرية والمعنوية للكتاب الموحى به التي تعجز القوى البشرية عن مجاراتها، والتي بكونها عديمة النظير والمثال تدل على وجود القدير الأوحد وكأنها مرآة تُري وجه الله سبحانه وتعالى.

أما الأمور الغيبية: فالمراد منها هو ما يخرج من فم شخص من أمور يكون من المؤكد تماما أن بيانها يفوق قدرته من كل الوجوه.. أيْ أن النظر في تلك الأمور والتأمل في ظروف مَن يبيِّنها يؤكدان بالبداهة أن تلك الأمور ليست في حكم المقدور البديهي والمشهود بالنسبة إليه، ولا يمكن له حيازتها بالتأمل والتدبر، ولا يجيز العقلُ الزعم أن يحوزها ذلك الشخص بواسطة معارفه، وإنْ لم تكن الأمور نفسها تفوق قدرة شخص آخر. فتبين من هذا البحث أن الأمور الغيبية إنما هي أمور إضافية ونسبية لو نُسب صدورها إلى بعض الناس المعينين لكانت جديرة بأن يُطلق عليها "أمور غيبية"، ولو نُسبت الأمور نفسها إلى غيرهم لما استحقت هذه التسمية.

الأمثلة

(أ) إن "زيدا" شخص وُلد في زمننا هذا، وهناك شخص آخر اسمه "بكر" وُلد بعد زيدٍ بخمسين عاما، لم يشهد زيدٌ زمن "بكر" ولم تتسنّ لزيدٍ وسيلة خارجية أخرى أيضا للاطلاع على وقائعه. فالأحداث التي مرت على "بكر" ليست أمورا غيبية بالنسبة إليه لأنها تتعلق بشخصه هو وفي حكم المشهود والمحسوس بالنسبة إليه. ولكن لو أَخبر "زيدٌ" عن تلك الأحداث بعينها دون أدنى اختلاف فيها ولو قيد شعرة، لقيل بأن زيدا أَخبر عن أمور غيبية؛ لأنها ليست في مشهوداته ومحسوساته، وما كان ممكنا أن تتسنى له وسيلة خارجية أخرى للاطلاع عليها.

(ب) "بكر" فيلسوف وقد حاز على مَلَكة كاملة للاطلاع والتعرُّف على دقائق حِكمية بعد التدبر والتأمل العميق إلى مدة طويلة في كتب الفلسفة، وحفظ فعلا في مخيلته كثيرا من الحقائق العلمية والأدلة اليقينية نتيجة حيازته على العلوم العقلية ومطالعة مؤلَّفات الأوائل والاطلاع على كنوز بحوث المتقدمين بالإضافة إلى التفكر والتدبر الدائم والامتراس واستعماله القوى الذهنية، واستخدامه قواعد صناعة المنطق المحددة. أما "زيد"، فمعلوم عنه أنه لم يقرأ ولا حرفا واحدا من علم المنطق والفلسفة وليس مطّلعا على شيء من كتب الفلسفة، وليس لديه أدنى إلمام بأسلوب التدبر والتفكير ولم يخالط أهل العلم والحكمة ولم يحظ بصحبتهم بل هو أمِّيٌّ محضٌ ويعاشر الأميين دائما. فالعلوم التي حازها "بكر" بجهد مضنٍ وبعد تحمّل معاناة ومشقة كبيرة لم تعد غيبية بالنسبة إليه، لأنه قد اكتسبها وتعلّمها بعد جهد جهيد إلى مدة طويلة. أما "زيد"، وهو غير متعلِّم تماما، فلو بيّن علوم الحكمة والفلسفة الدقيقة بصورة واضحة وصحيحة تماما دون أدنى تفاوت فيها ولو قيد شعرة، وسرد أيضا حقائق العلوم السامية ودقائقها بالكمال التام دون أدنى عيب أو نقص، وساق

مجموعة دقائق الحِكمة بالتمام والكمال مما لم يتسن بيانها كاملا قبله لحكيم من الحكماء أيضا؛ لعُدَّ بيانه الكامل -لكل أمر تتوفر فيه الشروط المذكورة آنفا- من الأمور الغيبية، لأنه بيّن أمورا كان بيانها فوق طاقته وقدرته ومستوى علمه وفهمه، و لم تكن لديه لبيانها وسيلة من الأسباب العادية.

(ج) "بكر" قسيس أو بانديت أو عالمُ أي دين، ويعرف عن هذا الدين كل صغيرة وكبيرة، وكشف أمورًا دقيقة جدًّا عن ذلك الدين ببذل قسط كبير من عمره، وأجهد نفسه لعشرات السنين، وتحمل مشقة كبيرة، واطّلع أيضا بعد التفكُّر والتدبر إلى مدة طويلة على ما في كتاب ذلك الدين من صواب وخطأ، وعلم أيضا ما فيه من حقائق دقيقة جدا. وأما "زيد" فمعلوم عنه جيدا أنه لا يقدر على قراءة أيِّ كتاب لأنه أُمِّيّ. فلو بيّن "بكر" من تلك الكتب بعض الأمور أو المسائل أو الأحداث، فإنها لا تندرج في قائمة الأمور الغيبية؛ لأنه قد اطلع جيدا على مضامين تلك الكتب وأحاط بها جيدا نتيجة التعلُّم الكامل والممارسة إلى مدة طويلة. ولكن لو بيّن "زيدٌ" -الذي هو مجرد أُمِّيّ- تلك الحقائق العميقة التي تستحيل معرفتها دون الاطلاع التام عليها، وكشَف حقائق تلك الكتبِ الدقيقةَ التي لا تنكشف إلا على العلماء الخواص، أو أظهر للعيان جميع عيوبها ونقائصها التي يستحيل إظهارها عادة دون إمعان عميق للنظر فيها، وكان كاملا من حيث التدقيق والتحقيق بما لا نظير له؛ فإن القولَ في حقه بأنه قد بيّن أمورًا غيبية، يكون صادقًا وحقًّا تمامًا في هذه الحالة.

الشرح

قد يعترض معترض على هذا التمهيد ويقول بأن بيان المنقولات السهلة والهيِّنة المذكورة والمدوَّنة في الكتب الدينية ممكنٌ نتيجة السماع أيضا، وليس ضروريا أن يكون مبيِّنها مثقّفا، لأن غير المتعلم أيضا يستطيع أن يسمع أحداثا

من متعلم ثم يبينها، لأنها ليست بالمسائل الدقيقة التي يستحيل الاطلاع عليها من دون تعلُّم رسمي.

فسيُوجَّه إلى هذا المعترض سؤال: أتوجد في كتبكم حقائق دقيقة لا يسع اكتشافها إلا من كان عالما كبيرا أو فاضلا جليلا، ولا يسبق إليها إلا أذهان الذين بذلوا نفوسهم في سبيل مطالعة تلك الكتب إلى زمن طويل ودرسوها على أيدي الأساتذة الكُمَّل في المدارس العلمية؛ أم لا توجد؟ فلو ردّوا على ذلك أن هذه الحقائق الدقيقة والعليا لا توجد في كتبهم، بل هي مليئة بالأمور السخيفة والسطحية تماما والتي لا معنى لها ويمكن لعامة الناس أيضا أن يطّلعوا عليها بأدنى التفات، بل يستطيع كل مراهق قليل الفهم أيضا أن يصل إلى كنهها بمجرد إلقاء نظرة سطحية عليها، ولا يُعدُّ الاطلاع عليها شرفا علميا، بل إنها كمثل الكتب التي تُحرَّر فيها قصص وحكايات لمطالعة الأطفال وعامة الناس فقط.. لما وسعنا إلا أن نتأسف على تلك الكتب الواهية، إذ من الواضح الجليّ تماما أنه لو انحصرت مضامين كتاب في نطاق الفهم البسيط فقط ولعامة الناس، وكانت ساقطة ومنحطة تماما من مرتبة الحقائق الدقيقة، لما عُدَّ ذلك الكتاب مثاليا، بل عُدَّ سطحيا لا يحظى إلا باحترامٍ قليل وبسيط في نظر العقلاء كبساطة مضمونه. ولا يُعدُّ مضمونه مما ينخرط في سلك العلوم الحكيمة أو يُعدَّ على مرتبة الحقائق السامية. فالذي يدّعي أن كتابه الموحى به يضم في طياته أمورًا بسيطة وخفيفة ويخلو من جميع الحقائق الدقيقة والعميقة التي تكون معرفتها خاصة بأهل العلم والفكر والنظر، فإنه يهين كتابه بنفسه. وبذلك أيضا لا يبقى لتباهيه أيّ أثر أبدًا، لأن العالِم الذي يتساوى معه عامة الناس في الوصول إلى كنه شيء ما، لا يكتسب أية فضيلة علمية تجعله متميزا عن عامة الناس ولا تخلع عليه لقب عالِم نحرير أو فاضل كبير. بل سيبقى هو الآخر أيضا واحدًا من العوام كالأنعام دون شك، لأن علمه ومعرفته لا تزيد على علم عامة الناس ومعرفتهم. ولا شك أنه لن يكون لعلوم مثل هذه الكتب الواهية البسيطة

أيّة علاقة بالأمور الغيبية. ولكن مع ذلك هناك شرط آخر وهو أن تكون تعليماتها شائعة ومعروفة، ليكون هناك سبب معقول لليقين بأن كل شخص أُمّيٍّ وغير مثقف أيضا يستطيع الاطلاع على مضامينها بأدنى تدبر؛ لأنه لو لم تكن مضامينها شائعة ومعروفة -وإنْ كانت بسيطة جدا ولا معنى فيها- لكانت مع ذلك في حكم الأمور الغيبية بالنسبة للذي لا يعرف اللغة التي كُتبت بها مضامين تلك الكتب، وذلك إذا اعترفت أُمّة بأن كتبها الموحى بها خالية ومحرومة من الحقائق الدقيقة. أما إذا رأى قوم أن كتبهم الموحى بها تضم في طياتها حقائق دقيقة أيضا لا يحيط بها إلا أهل العلم من الدرجة الأولى الذين بذلوا أعمارهم في التدبر والتفكير فيها، وهي تحتوي على حقائق لا يصل إلى كنهها ومغزاها إلا الأذكياء جدا وأصحاب الفكر العميق والراسخون في العلم، لتحققت غايتنا تلقائيا بجوابهم هذا، لأنه لو بيّن شخص أميٌّ وغير مثقف حقائقَ تلك الكتبِ الدقيقةَ التي لا يسع بيانُها -بحسب اعترافهم- العامةَ من أهل العلم أيضا بل تقتصر هذه المهمة على الخواص فقط، لعُدَّ بيان ذلك الأمّيِّ -بعد أن ثبت أنه أُمِّيٌّ- من الأمور الغيبية دون أدنى شك. وهذا هو المراد من المثال الثالث.

التنبيه

إن الأمور الغيبية تحظى بالدلالة الكاملة على كونها من الله تعالى لأنه من الثابت عقلا بالبداهة أن اكتشاف الغيب يفوق قدرة البشر. وكل ما كان فوق قدرة البشر كان من الله ﷻ. فالواضح من هذا الدليل أن الأمور الغيبية تظهر من الله ﷻ، وإن كونها من عند الله تعالى أمر يقيني وقاطع.

التمهيد الثالث: كلّ ما يأتي إلى حيّز الوجود بقدرة الله الكاملة -سواء أكان مخلوقا من مخلوقاته ﷻ أو كتابا من كتبه المقدسة النازلة من عنده ﷻ لفظا ومعنًى- يجب أن يتحلى بصفة ألا يقدر أحد من الخلق على الإتيان بنظيره. إن

هذا المبدأ العام المتعلق بما ينـــزل من الله ﷻ يثبت بطريقتين: أولا بالقياس؛ لأن القياس الصحيح والمحكم يوجب أن يكون الله تعالى واحدا لا شريك في ذاته وصفاته وأفعاله، لأن شراكة المخلوق في أيّ من خَلقه أو قوله أو فعله لا تجوز. والدليل على ذلك أنه لو جازت شراكة المخلوق في أيّ من خَلقه أو قوله أو فعله، لجازت في جميع صفاته وأفعاله[٤٠]. ولو جازت في كافة الصفات والأفعال لجاز أيضا أن يُخلق إلهٌ آخر.

لأن الشيء الذي وُجدت فيه صفاتُ الله كلها سُمِّي إلـــهًا. ولو وُجدت في شيء ما بعض صفات الله، لكان شريكا لله في بعض صفاته، مع أن الشرك مع الله مستحيل ببداهة العقل. فثبت من هذا الدليل أن كون الله واحدا لا شريك له في صفاته وأقواله وأفعاله أمر محتوم. وإنه ﷻ منــزَّه عن جميع الأمور السخيفة التي تجرّ إلى الشرك به ﷻ. وثانيا؛ يثبت هذا الادّعاء بالاستقراء التام الذي يبلغ مبلغ الصحة عند التأمل في جميع الأشياء الصادرة عن الله تعالى؛ لأننا عندما نتعمق في كافة أجزاء العالم التي تأتي إلى الوجود بقدرة الله الكاملة، ونتأمل في جميع الأشياء من الأعلى إلى الأدنى حتى أحقر الأشياء مثل الذبابة والبعوضة والعنكبوت وغيرها؛ لا نعثر على أيّ شيء يقدر الإنسان على خلقه. بل نلاحظ في أجسامها -عند التدبر في هذه الأشياء وفي صنعها وتركيبها- غرائبَ قدرة الله ﷻ التي تشكِّل أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على وجود خالق العالم.

وبالإضافة إلى هذه الأدلة كلها، فإنه واضح تماما لكل عاقل بأنه لو جاز أن يقدر غير الله ﷻ أيضا على خلقِ الأشياء التي جاءت إلى حيِّز الوجود بيد الله تعالى، لما دلّ أيٌّ من المخلوقات دلالة كاملة على وجود الخالق الحقيقي، ولاشتبهت معرفة خالق العالم كليًّا؛ لأنه إذا استطاع غير الله أيضا خلق بعض الأشياء التي خلقها الله، فما الدليل على أنه لا يقدر غير الله على أن يخلق

[٤٠] *هنا تبدأ الحاشية ١١، وقد أخرناها إلى ص ١٩٥ (المترجم).*

الأشياء كلها؟ والآن، لما ثبت بالأدلة المحكَمة والقوية أن الأشياء التي خلقها الله تعالى عديمة النظير حتما، وأن كونها عديمة النظير يدل دلالة قاطعة على أنها من الله تعالى، وهو شرط ضروري على كونها صادرة من الله ﷻ؛ فبهذا التحقيق افتضح تماما كذب الذين يرون أنه ليس ضروريا أن يكون كلام الله تعالى عديم النظير، أو أن كونه عديم النظير لا يُثبت بالضرورة أنه من الله تعالى. ولكن أرى من الحكمة -إتماما للحجة- أن أزيل هنا شبهة تنتابهم نتيجة فكرة فاسدة قد تمكّنت من قلوبهم -بسبب قِصر نظرهم- أنه توجد في الدنيا عدة تأليفات من كلام الإنسان، ما وُجد مثلها حتى يومنا هذا، ولكنها لا يمكن أن تعدّ كلام الله.

فليكن واضحا في الجواب أن هذه الشبهة ناشئة عن قلة التفكر والتدبر، وإلا من الواضح تماما أنه مهما كان كلام البشر واضحا وسليما، فمع ذلك لا يجوز القول عنه بأن تأليفه يفوق قدرات البشر حتما، وأن المؤلف قد أتى بعمل الألوهية. بل الحق أن كل مَن يملك مسحة من العقل يعرف جيدا أن الشيء الذي صنعته قوى بشرية لا يفوق صنعُه قدرةَ البشر، وإلا لما قدر على صنعه أي بشر على الإطلاق. فلما حسبتم أيَّ كلامٍ كلامَ بشر، فقد اعترفتم ضمنيا أن القوى البشرية قادرة على تأليفه. فلما كان تأليفه من قدرة البشر فأنى له أن يعدّ عديم النظير؟ إذن، لو اعترف أحد أولا أن شيئا معينا إنما هو من صنع القوى البشرية، ثم تمتم وقال بعد ذلك بأن القوى البشرية عاجزة عن الإتيان بنظيره، لكان قوله شبيها بقول المجانين وذوي الحواس المضطربة. ولكان ملخّص هذا القول المبني على الجنون أن القوى البشرية قادرة على صنع شيء وعاجزة عن صنعه في الوقت نفسه. وإضافة إلى ذلك لم يدّع أحد إلى يومنا هذا أن كلامه ومصنوعاته عديمة النظير مثل كلمات الله ومخلوقاته تماما. ولو ادّعى أحد من الأغبياء والمتكبرين ذلك لوُجد حتما آلاف المؤلفين ليؤلفوا كتبا أفضل منه، فيُلقوا رماد الذلة في

وجهه. إنه من عظمة شأن الله تعالى وحده أن يعلِن عجزَ العالم كله وعدم قدرته على الإتيان بنظير كلامه، وأن يُذكِّرهم بكلمات قاسية جدا بما فيها "الملحدين والملعونين وأهل الجحيم"، بل ويحرّضهم ويثير حفيظتهم -بإعلانه عقوبتهم بالموت في حال إنكارهم- بالتكرار على ألا يدّخِروا جهدًا في الإتيان بنظيره، بل يجب أن يحاولوا قصارى جهدهم مجتمعين، وأن يتصدوا له باذلين كل ما في وسعهم بُغية إنقاذ حياهم. ولكن لو ظلوا مصرين على الإنكار بغير الإتيان بنظيره فليعدّوا بيوهم مدمَّرة ونساءهم إماء وأنفسهم مقتولين. فهل ادّعى بشرٌ بمثل هذا الادّعاء وبهذه القوة والشدة في حين من الأحيان؟ كلا. فلما لم يدّعِ بشرٌ أنّ كلامه عديم النظير، ولم يحسب قواه فوق قوى البشر، بل قد اختار مئاتٌ من فحول الشعراء أن يموتوا في هذا العراك، ولكن لم يقدروا على إعداد كلام مثل القرآن ولو بقدر سورة واحدة، فمن الغباوة والعَمه من الدرجة القصوى عدُّ كلام هؤلاء المساكين الناقص عديمَ النظير دون مبرر، وإشراكهم في صفة الله الكاملة والخاصة به، لأن مَن يرى فرقا واضحا بين أفعال الله ﷻ وأفعال الإنسان بناء على هذا الكم الهائل من الأدلة الواضحة ثم لا يُبصر، فليس إلا أعمى وغبيا.

فلقد تبيّن من هذا البحث كله أن حقيقة التفرد وكيفيته خاصتانِ بفعل الله تعالى وكلامه فقط. ويدرك كل عاقل أن أكبر وسيلة يملكها العقل للإيمان بألوهية الله ﷻ هي أن كل ما يصدر من الله تعالى يحتل مرتبة التفرد بحيث يدل دلالة كاملة على وجود ذلك الخالق الوحيد. ولولا هذه الوسيلة لكان طريق الوصول إلى الله تعالى مسدودا أمام العقل. ولما كانت معرفة الله تعالى مرتبطة بمبدأ أن نعدَّ كل ما هو من عند الله سبحانه عديم النظير، فإن عزو الصفة نفسها -التي هي خاصة بالله- إلى العباد، إنما هو بمنزلة استئصال العقل والإيمان من الجذور. وما دام واضحا تمام الوضوح وثابتا بالأدلة الدامغة أنه ليس هناك عمل من أعمال الإنسان عديم النظير، وأن

جميع أفعال الله ﷻ وكل ما صدر منه إنما هو عديم النظير حتما، ولكن؛ إن كنتم مع ذلك لا تعترفون بهذا الاستقراء التام الذي نُصّ عليه بالنظر إلى قوانين الطبيعة كلها، فلا تدّعوا العقل والاعتداد بقانون الطبيعة أصلا، بل مزِّقوا كتب المنطق والفلسفة العبثية وألقُوا بها في اليَمِّ. ألا تستحون حين تقولون إن الذبابة -التي تشمئز الطبائع من رؤيتها- هي عديمة النظير من حيث صورتها الظاهرية وتركيبها الباطني بحيث إن التدبّر فيها يُثبت كونها من خلق الله ﷻ، أما فصاحة كلام الله وبلاغته فليست عديمة النظير بحيث يثبت التدبر فيه أن هذا الكلام من الله تعالى؟

أيها الغافلون والعَمِهون، أَفصاحةُ كلام الله تعالى وبلاغته أقل درجة عندكم وأدنى ميزاتٍ من جناح الذبابة ورجلها؟ من المؤسف حقا أنكم تعترفون في تركيب جسد البعوضة أن الإنسان لا يقدر ولن يقدر في المستقبل أيضا على تركيب مثله، وتقولون عن كلام الله تعالى إن تأليفه ممكن. بل تقدمون حجة على سبيل المجادلة والنقاش وتقولون: صحيح أنه لم يقدر الإنسان إلى الآن على تأليف نظيره، ولكن ما الدليل على أنه لن يقدر على ذلك في المستقبل أيضا؟

فيا قليلي العقل! إنه الدليل نفسه الذي تقبلونه وتسلِّمون به جيدا في البعوضة والذبابة وفي كل ورقة من أوراق الأشجار، ولكن تعمى عيونكم مثل البومة، أو تصبح رؤيتكم ضبابية عند رؤية هذا النور الرباني، فتعترفون بعظمة الذبابة فقط لأنكم تمتلكون طبيعة الذبابة، ولا تعترفون بعظمة نور الله ﷻ. والكلمات التي تقولون إنها خرجت من فم الله تعالى وبكل ما تحمله من معنى لا تعدِلُ عندكم حتى مُفرزًا يخرج من فم النحل، أي أن الإنسان ليس بقادر على صنع العسل عندكم، ولكنه قادر على صنع كلام الله ﷻ! لقد راقتكم الحشرات والديدان ولقيت استحسانكم لدرجة لا يساويها كلام الله تعالى أيضا في نظركم.

أيها الأغبياء؛ إن لم يكن كلام الله ﷻ عديم النظير، فكيف ومن أين عرفتم أن الديدان وأوراق الأشجار عديمة النظير؟! ألا تفكرون أنه إذا كان كلام الله تعالى لا يملك في تركيبه كمالا مثل كمال تركيب دودة أيضا، فهذا يوجِّه اعتراضا على الله ﷻ بأنه أكرمَ الأدنى أكثرَ مِن الأعلى، وهيأ لنفس الأدنى دلالات لم يهيئها للأعلى؟

"إن جمال القرآن الكريم وحسنه نورٌ لروح كل مسلم، إن القمرَ عند الناس هو القمرُ وقمرُنا القرآن

لقد فكّرنا كثيرا ولكن لم نعثر له على نظير، وكيف لا يكون فريدًا فهو كلام الله الرحمن؟

ففي كل عبارة من عباراته ترى ربيعا دائما، ولا ترى هذه الميزة في أيّ بستان، بل لا بستان مثله أصلا.

لا يوجد لكلام الله المقدس نظير قط، فإنه لؤلؤة عُمانية من ناحية وهو ياقوت بدخشاني[٤١] من ناحية، أنّى لكلام البشر أن يساوي كلام الله؟ فالله يملك القدرة كلها، والبشر عديموا الحيلة، فالفرق بينهما واضح جليّ.

الملائكة أيضا يقرّون في حضرته بعدم علمهم، فأنّى للإنسان أن يبارزه في الكلام.

ليس بوسع الإنسان مطلقا أن يخلق حتى رجل حشرة صغيرة، فأنّى له أن يخلق نور الحق.

أيها الناس قدِّروا شأن عظمة الله، وأمسكوا ألسنتكم إذا كانت لديكم ذرة من الإيمان.

إن إشراك غير الله معه كفر بواح، فاتقوا الله أيها الناس، ما هذا الكذب والافتراء الذي تفترونه؟

---

[٤١] *نسبة إلى بلدة بدخشان. (المترجم)*

إذا كنتم تقرِّون بوحدانية الله، فلماذا تكنُّون هذا القدر من الشرك في قلوبكم؟

ما هذه الحُجُب للجهل التي وقعت على قلوبكم؟ إنكم مخطئون، فانتهوا إن كنتم تخافون الله.

لا أكنّ في قلبي شيئا من حقد وإنما أنصحكم نصيحة المسكين، فقلبي وروحي فداء لمن كان طاهر القلب."[٤٢]

كلّ ما قلتُه إلى الآن في كون كلام الله تعالى عديم النظير كان موجَّهًا إلى ناقصي الفهم وخليعي الرسن من المسلمين المعاصرين الذين جعلتهم الثقافة الإنجليزية والسفسطائية والتعاليم المغشوشة مستكبرين عَمِهين تجاه كون القرآن الكريم عديم النظير والمثال، وهو أهم مقتضى كونه من عند الله تعالى، فيُعرضون عنه وينكرونه ويحسبون، مثل الملحدين، كلام الله مساويا كلام إنسان ضعيف في ميزاته الظاهرية والباطنية، مع عدّ أنفسهم مسلمين وإيمانهم بالقرآن الكريم ونطقهم بشهادة الإسلام، وصاروا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فنسوا قدرات الله العظيمة وحِكمه الدقيقة التي يجب أن يكون كلُّ شيء صادر من الله سبحانه مرآة لرؤيته ﷻ. ولكن هذه الحقائق من الوضوح والنقاء بحيث يستطيع كل شخص، وإن لم يكن مسلما، أن يفهم بالتمام والكمال أن الكلام الذي يعدّ كلام الله يجب أن يكون عديم النظير والمثال حتما، لأن كل عاقل لو ألقى النظر على سنن الله في الكون، ووجد أن كل ما هو من عنده ﷻ مهما كان بسيطا فإنه مليءٌ بآلاف دقائق الحكمة، ورآه أعلى وأسمى كثيرا من قدرات البشر؛ لوجد نفسه مضطرا للاعتراف بأن الإنسان لا يقدر على الإتيان بنظير كل ما صدر من الله. ولا يقبل عقل بجواز اشتراك المخلوق في ذات الله أو صفاته أو في أفعاله ﷻ.

---

[٤٢] *ترجمة أبيات أردية. (المترجم)*

وبالإضافة إلى الأدلة المذكورة، هناك أيضا أوجه كثيرة أخرى لصاحب العقل والبصيرة يتبين له من خلالها أن كلام الله تعالى عديم المثال بوضوح أكثر، ويتجلى مثل أجلى البديهيات. فمن جملتها وجهٌ يُستنبَط من النتائج المتفاوتة التي يجب أن تترتب على عمل ما بأساليب مختلفة. وبيان ذلك أنه من البديهي تماما عند كل عاقل أنه لو أراد بعض الأدباء المتكلمين، كلٌّ بحسب قدرته العلمية، تأليف مقال خالٍ تماما من العبث والكذب والحشو واللغو والهزل والهراء والكلام المفتقر إلى المعنى، ومن جميع الأمور التي تخالف الحكمة والبلاغة، ومن الآفات المنافية للكمال والجامعية، وأن يكون من ناحية ثانية فياضًا بالحق والحكمة والفصاحة والبلاغة والحقائق والمعارف؛ لاحتل الدرجة الأولى في تأليفه شخص هو أكثرهم قدراتٍ علمية وأوسعهم معلوماتٍ وخبرةً وأعلاهم قدرة في العلوم الدقيقة وأفضلهم تمرينا وتدريبا وأكثرهم حنكة في مجال التأليف والأدب. ولن يحدث بأي حال أن يساويه من حيث الكمالات في تأليفه مَن كان أضعف وأدنى منه قدرة وعلمًا وموهبة، وأبسط منه تأهيلا وعقلا وذهنا. فمثلا هناك طبيب حاذق يملك خبرة تامة في علم الأبدان ولديه معرفة كاملة في تشخيص الأمراض والبحث في الأعراض بناء على ممارسته الممتدة على مدة طويلة من الزمن، وبالإضافة إلى ذلك هو وحيد عصره في الأدب وفريد دهره في النظم والنثر أيضا، فيستطيع أن يبين كيفية حدوث المرض وعلاماته وأسبابه ببيان فصيح ومفصّل بكمال الصحة والشفافية وبأسلوب جميل وبليغ، لا يمكن أن يبينه كمثله بحال من الأحوال شخص ليس لديه أدنى إلمام بفن الطبابة ويجهل أيضا أساليب الكلام الدقيقة. من الواضح والمفهوم تماما أنّ هناك فرقا بطبيعة الحال بين كلام الجاهل والعاقل. والكمالات العلمية التي يملكها المرء تلاحَظ في بياناته العلمية حتما كما يُرى الوجهُ في المرآة النقية بكل وضوح. والكلمات التي يتفوه بها عند بيانه الحق والحكمة، تُعدّ معيارا للتعرّف على مؤهلاته العلمية. والفرق بين الكلام الذي يتدفق من ينبوع العلم والعقل الكامل،

والكلام الذي ينتج عن أفكار ضيقة الآفاق ومظلمةٍ ومحدودة، يلاحَظ كالفرق الواضح بين الرائحة الزكية والكريهة عند حاسة الشم، بشرط ألا تكون ممسوخة نتيجة آفة فِطرية أو مؤقتة. فكِّروا في هذا الأمر ما استطعتم وتأملوا فيه كما تريدون، فلن تجدوا نقصا في هذه الحقيقة، ولن تروا فيها من تفاوت من أيّة جهة.

فلما ثبت من كل الوجوه أن الفرق الكامن بين القوى العلمية والعقلية المختلفة يظهر للعيان حتما من خلال الكلام، فلا يمكن قط أن يستوي الذين هم أفضل وأعلى من حيث العقل والعلم وفصاحة البيان وسمو المعاني مع غيرهم دون أن يبقى ما يميز بينهم وبين غيرهم.

إذن، فإن ثبوت هذه الحقيقة يستلزم ثبوت حقيقة أخرى وهي أنه لا بد أن يكون كلام الله تعالى أعلى وأفضل وعديم المثال من حيث كمالاته الظاهرية والباطنية مقارنة مع كلام الإنسان، لأنه من المستحيل تماما أن يتساوى علم أحد مع علم الله التام. فقد قال ﷻ مشيرا إلى هذه الحقيقة: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ *(هود: ١٥)* أيْ إن لم يقدر الكفار على الإتيان بنظير القرآن الكريم وعجزوا عن المواجهة، فاعلموا أن هذا الكلام ليس كلام بشر، بل نزل بعلم الله الذي أمام علمه الواسع والتام لا حقيقة لعلوم البشر ولا أهمية لها مطلقا. ففي هذه الآية جعل وجود التأثير دليلا على وجود المؤثّر من منطلق الدليل "الإني"[٤٣] وملخصه بتعبير آخر أنه لا يمكن أن يُشبه علم الله تعالى -لكونه الكامل والجامع- بعلم الإنسان الناقص، بل إن الكلام الذي

---

[٤٣] *الدليل اللِمّي والدليل الإني مصطلحان في علم المنطق. والمراد من الدليل اللِمّي هو الاطلاع على المدلول بواسطة الدليل. فمثلا إذا رأينا الدخان صاعدا في مكان اطلعنا بواسطته على النار. والمراد من الدليل الإنّي هو الانتقال من المدلول إلى الدليل. فمثلا حين نجد أحدا مصابا بالحمى الشديدة أيقنّا أن فيه مادة صفراوية قوية أدّت إلى إصابته بالحمى. (المترجم)*

خرج من هذا العلم الكامل وعديم المثال يجب أن يكون أيضا كاملا وعديم النظير، ومتميزا عن كلام الإنسان بجميع أنواعه. فهذا الكمال ثابت في القرآن الكريم.

باختصار، يجب أن يكون هناك فرقٌ بيِّن بين كلام الله تعالى وكلام الإنسان، كالفرق بينهما من حيث العلم والعقل والقدرة. فكما أن أفراد نوع البشر هم من جنس واحد، لكنهم مع ذلك يتفاوتون في البيان بسبب التفاوت في العلم والعقل والتجربة والتمرين، ولا يبلغ محدود العلم وضعيف العقل شأو واسع العلم وقوي العقل أبدا، فكيف تجوز إذن أدنى إمكانية للمساواة معه ﷻ مع أنه منـــزَّه تماما من الشرك النوعي وجامع للكمالات التامة دون أدنى شك، وهو واحد لا شريك له في صفاته؟ وكيف يمكن لمخلوق أن يجعل علمه الذي لا حقيقة له ولا معنى مساويا لعلوم الله تعالى غير المتناهية؟ هل بقي شك في إثبات حقيقة أن شوكة الكلام بجميع أنواعها وعظمته الظاهرية والباطنية تابعة للقوى العلمية والقدرات العملية؟ وهل من إنسان لم يطّلع بتجربته الشخصية ومشاهدته الذاتية على هذه الحقيقة في أية جزئية صغيرة؟ فلما كانت هذه الحقيقة قوية ومُحكمة وشائعة ومتعارف عليها بحيث لم يعجز عن فهمها عقلٌ بسيط أيضا، فما أغبى الذي يعترف بوجودها في الناقصين من بني البشر، ومع ذلك يصرف وجهه عن الاعتراف بوجودها في الكلام المقدس للذات الكامل الذي يسلّم الجميع أنه وحيد فريد وعديم النظير في علومه الكاملة.

يقدم بعض معاندي الإسلام شبهة ويقولون: مع أنه يبدو واجبا من حيث العقل أن يكون كلام الله عديم النظير، ولكن أين الكلام الذي يثبت أنه عديم النظير بدليل صريح؟ إذا كان القرآن الكريم عديم النظير فيجب إثبات ذلك بدليل واضح لأنه لا يمكن أن يطّلع على بلاغته عديمة المثال إلا الذي كانت

لغته الأم هي العربية، فلا يمكن أن تُعدّ فرادته حجة على الآخرين وهم لا يقدرون على الاستفادة منه.

أما الجواب فإن هذه الشبهة الناقصة يثيرها أناس لم يتوجّهوا مطلقا بصدق القلب إلى أن يسألوا أهل العلم والمعرفة أن القرآن الكريم عديم النظير، بل يشيحون بوجوههم عند رؤيتهم أنوار القرآن الكريم حتى لا يقع عليهم شيء من أشعة هذا النور. وإلا فإن تفرّد القرآن الكريم واضح وظاهر لطلاب الحق إذ ينشر أشعته في كل حدب وصوب مثل الشمس، ولا صعوبة ولا ريب ولا شبهة في استيعابه. ولولا حيلولة ظلمة العناد والتعصب دونه، لأمكن الاطلاع على ذلك النور الكامل بأدنى التفات. صحيح أن هناك حاجة لبعض الإلمام بالعربية للاطلاع على بعض وجوه تفرّد القرآن الكريم، ولكن من الخطأ الكبير والجهل الفاحش الظنُّ أن إدراك كافة أوجه إعجاز القرآن الكريم مقصورة على معرفة اللغة العربية، أو أن جميع عجائب القرآن الكريم وخواصه العظمى إنما تنكشف على العرب وحدهم، وأن سبل معرفتها مسدودة كلها على غيرهم. كلا، ثم كلا.

واضح على أهل العلم كافة أن معظم أوجه إعجاز القرآن الكريم سهلة وسريعة الفهم بحيث لا حاجة للإلمام بالعربية من أجل معرفتها والاطلاع عليها، بل هي بديهية وواضحة بحيث يكفي لفهمها أبسط عقل يلزم البشرَ؛ فمثلا من أوجه إعجازه أنه يشمل الحقائق الدينية كلها التي كانت متفرقة ومبعثرة في الكتب السابقة وصحف الأنبياء السابقين مع أنه كتاب وجيز يمكن أن يقع في أربعة أجزاء أو خمسة لو كُتب بخط متوسط[٤٤].

---

[٤٤] *القصد من الجزء هنا ليس الجزء المتعارف عليه في تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءا، بل هو الملزمة الطباعية، إذ يقسم كل كتاب إلى ملازم تُطبع على حدة ثم تُجمع. (المترجم)*

ومن كماله أيضا أن كل ما يستخرجه الإنسان من الحقائق عن العلوم الدينية بجهده وسعيه وفكره وإدراكه، أو استخراجَه دقيقةَ معرفةٍ، أو استنباطَه بقوته العقلية من حقائق ومعارف أو أدلة وبراهين من نوع آخر في العلم نفسه، فالقرآن محيط فيه، وكذلك لو أظهر للعيان على المنوال نفسه حقيقةً دقيقةً استخرجها الحكماء السابقون بجهد جهيد وسعي بليغ، أو أراد أن يستنبط من القرآن الكريم ذكرا أو علاجا للمفاسد الباطنية والأمراض الروحانية التي يصاب بها معظم الناس؛ فله أن يتحرّى بأيّة طريقة ومن أيّ باب يشاء، فسوف يجد أن القرآن محيط ببيان كل حقيقة وحكمة دينية كدائرة، ولم تبق حقيقة دينية خارجه على الإطلاق. بل قد أكمل القرآن الكريم وأصلح تلك الحقائق التي بيّنها الحكماء بصورة خاطئة نتيجة نقص علمهم وعقلهم. بل الحق أن الحقائق التي لم يتسنّ لحكيم أو فلسفي بيانها ولم يسبق إليها ذهن، فإنّ القرآن الكريم قد بيّنها وكشفها بكمال الصحة والصدق. وإن دقائق العلوم الإلهية التي سُجِّلت في مئات الدفاتر والكتب الطويلة -ومع ذلك كانت ناقصة وغير مكتملة- قد سجّلها القرآن الكريم بتمامها وكمالها ولم يترك مجالا لعاقل أن يأتي بدقيقة جديدة في المستقبل، مع أنه كتاب صغير الحجم لا يزيد على أربعين ورقة إذا خُطَّ بخط متوسط.

فمن الواضح أن وجه التفرد هذا هو من النوع الذي لا يمكن أن يشك فيه شخص ذو فهم بسيط أيضا، لأنه من الواضح لكل عقل سليم أن الإحاطة التامة بكل أنواع الحقائق الدينية وحقائق الإلهيات ومعارفها، وجمْع كافة الأدلة والوسائل للأصول الحقة ومغزى أقوال الأولين والآخرين كلهم في كتاب صغير الحجم بحيث لا يمكن العثور على حقيقةٍ خارجه، ليس بوسع الإنسان قط، ولا يدخل في نطاق قدرة أي من المخلوقات. والطريق السهل والمستقيم لتمحيص هذا الأمر أيضا مفتوح أمام كل دارس وغير دارس. فإذا كان هناك شك في كيفية إمكان أن يحيط القرآن الكريم بجميع حقائق

الإلهيات، فأتحمل مسؤولية أن أستخرج من القرآن الكريم أيّة حقيقة دينية استخرجها أحد من أي كتاب -سواء كان عبريا أو يونانيا أو لاتينيا أو إنجليزيا أو سنسكريتيا أو غيره- أو أيّة دقيقة إلهية استنبطها بقوة عقله، على أن يكون طالبَ حقٍّ.. أي وعَدَ خطيًّا بقبول الإسلام، وبشرط أن يرسلها لي في أثناء طباعة هذا الكتاب حتى تُسجَّل كحاشيةٍ في مكان مناسب منه وتُنشر معه. ولكن يجب الانتباه جيدا عند تقديم هذه الأسئلة إلى أنه يجب على من يريد ذلك، أن ينشر أولا بصدق ونـــزاهة -في جريدة- أنه يقوم به بحثا عن الحق فقط، وهو جاهز للانضمام إلى الإسلام في حال تلقيه أجوبة كافية وجامعة، لأن الذي لا ينوي طلب الحق ولا يكنّ في قلبه خشية الله سبحانه وتعالى، بل يجادل بكلام هراء بمحضِ خُبْث باطنه كالمفسدين فإن التوجه إليه إضاعةٌ للوقت.

والوجه الثاني لانعدام نظير القرآن الكريم الذي يمكن أن يفقهه كل طالب حق بسهولة هو أن عباراته -مع هذا الإيجاز والإحاطة بالحق والحكمة التي ذكرها في الوجه الأول- تحتوي على فصاحة واعتدال ولطافة ومرونة ورونق وبهاء بحيث لو أُصدر حكمٌ من حاكم مخوَّل بالتهديد بالإعدام لطاعنٍ متحمس ومعارض شديد للإسلام يملك قدرة كاملة على الكتابة بالعربية بأنه إذا لم يستطع أن يأتي بنظير للقرآن الكريم في غضون عشرين سنة، وهي مدة عمر جيل -بمعنى أنه لو لم يأت بمضمون يساوي مضمون بضعة سطور من القرآن الكريم، أو لم يؤلف عبارة أحسن منها تحتوي كافة الدقائق والحقائق التي تضمها الآيات القرآنية، بحيث تكون العبارة أيضا فصيحة وبليغة مثل القرآن الكريم تماما- لأُعدِم بسبب عجزه هذا، لما استطاع قط الإتيان بنظيره مع كل ما يكنه من العناد الشديد وخوف الإهانة والخزي والموت ولو استعان بمئات المتمكنين من اللغة والأدباء في العالم. إن هذا المثَل ليس من بنات الخيال والافتراض، بل هي حقيقة واقعية قد اختُبرت في عصر القرآن

الكريم، وظل صدقه يثبت على كل طالب صادق منذ البداية إلى يومنا هذا. وإذا أراد طالب حق أن يرى هذه المعجزة بأم عينه اليوم أيضا فأنا أتحمل مسؤولية إثباتها له بكل سهولة. وإن تمحيص هذا الأمر والاطلاع على الفرق بين الحق والباطل ليس صعبا على الإطلاق، وليس بالأمر الذي يقتضي بذل أموال أو ينذر بخطر الخسارة، بل كل ما يجب على طالب الحق هو أن يقتبس مضمونًا من أيّ مقام من القرآن بحسب رغبته، ثم يقدمه إلى عالم من علماء اللغة العربية -وهم موجودون في هذه البلاد بمئات الألوف في الأيام الراهنة- ليركِّب عبارة من عنده تحتوي على جميع الدقائق والنكات مثل عبارات القرآن الكريم. وإذا أُعِدَّت تلك العبارة فليرسلها إليّ وسأبين ببيان واضح كونها محرومة تماما من كمالات القرآن الكريم، وسيفهم بياني هذا بكل سهولة كلٌّ من لديه إلمام باللغة الأردية.

وليكن معلوما أيضا أنه كما تتبين خواص الأشياء الأخرى بتجربة متواترة واختبار، كذلك إن ميزة كون القرآن الكريم عديم النظير التي تكمن في الفصاحة والبلاغة، أيضا تتبين بواسطة التجربة والاختبار. السبيل الوحيد الذي وضعه الله تعالى لتمحيص خواص الأشياء هو أنه لو شُكَّ في وجود خاصية معينة في شيء، فيجب أن يُختَبَر بكثرة حتى يطمئن القلب. والذي يشك بعد اختبار تلك الخاصية في شيء معين ويقول: لماذا توجد فيه هذه الخاصية؟ فإنه مجنون ومخبول الحواس في الحقيقة. فمثلا إذا اختبر أحد مرارا وعلِم من التجربة المتكررة أن سم الفأر قاتل من حيث خاصيته، ومع ذلك يرفض خاصيته هذه لأنه لا يعرف لماذا هو قاتل، فإن شخصا مثله سيُعد مجنونا بل أسوأ من مجنون في نظر العقلاء، لأن الحقيقة المسلَّم بها أولا وقبل كل شيء هي أن في الأشياء خواصَّ مختلفة. ثم إذا ثبتت خاصية شيء معين بتجارب متكررة فإن إنكارها ليس إلا حمقا وغباوة. بل الحمق الأسوأ من ذلك هو إنكار صفات البارئ تعالى وأفعاله، لأن خاصية الشيء التي لا

توجد في غيره تثبُت بالتجربة وحدها دون أن يقوم على ضرورتها دليل عقلي. ولكن كما قلت من قبل، إن وجود صفات الله تعالى بالضرورة -أي كونه منــــزَّها من أن يشاركه غيره في ذاته وصفاته وأفعاله واتصافه بالقدرة الكاملة- ليس بالأمر الذي يثبت بالتجربة فقط، بل إن الأدلة العقلية أيضا توجب وتؤكد أن الله تعالى واحد لا شريك له في ذاته وجميع صفاته وأفعاله، وتجعل تحقق ألوهيته مشروطة بتحقق تلك الخواص.[٤٥]



[٤٥] *يرجى الانتقال إلى الصفحة رقم ١٥١ مباشرة لمتابعة الموضوع. (المترجم)*

ٹائیٹل بار اوّل



جلد چہارم

جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا

براہین احمدیہ

ملقب بہ

اَلْبَرَاهِيْنُ الْأَحْمَدِيَّةُ عَلٰى حَقِّيَّةِ كِتَابِ اللهِ الْقُرْاٰنِ وَالنُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

جسکو فخر اہل اسلام پنجاب جناب میرزا غلام احمد صاحب رئیس اعظم قادیان ضلع گورداسپور پنجاب دام فیوضہ نے کمال تحقیق اور تدقیق سے تالیف کر کے منکرین اسلام پر حجت اسلام پوری کرنیکے لئے بوعدہ انعام دس ہزار روپیہ شایع کیا۔

مطبع ریاض ہند امرتسر میں باہتمام کمترین محمد حسین مرادآبادی ۱۸۸۴ء میں طبع ہوئی

صفحة الغلاف للطبعة الأولى لهذا الكتاب

(الجزء الرابع المنشور في عام ١٨٨٤)

فهرس

مواضيع البراهين الأحمدية الجزء الرابع[٤٦]

[٤٦] أرقام الصفحات المذكورة هنا تطابق الأصل. (المترجم)

٦- ذكر عجز الباندیت دیانند عن الجواب مع ذكر الأسئلة التي لم يُطق الجواب عليها. وذكر النبوءة عن موته وسردها لبعض الآريين قبل الأوان: الصفحة ٥٣١ إلى ٥٣٦ الحاشية رقم ١١

٧- المقارنة بين تعليم الإنجيل والقرآن الكريم: الصفحة ٣٣٢ إلى ٣٦٦

٨- ذكر النبوءات التي أُخبِر بها بعضُ الآريين: الصفحة ٤٦٨ إلى ٥١٤ الحاشية في الحاشية رقم ٣

٩- بيان الأنباء المستقبلية: الصفحة ٥١٤ إلى ٥٦٢ الحاشية في الحاشية رقم ٣

١٠- لا يثبت ظهور أية معجزة للمسيح ولا يثبت أنه أدلى بأية نبوءة: الصفحة ٤٣٤ إلى ,٤٦٩

١١- ما المراد من النجاة الحقيقية وكيف يمكن نوالها؟ الصفحة ٢٩٣ إلى ٣٠٦ الحاشية في الحاشية رقم٢



فيجب أن يتفكر قليلا وبشيء من الحياء، هؤلاء الأغبياء الذين يتبنون عدم قبول كون كلام الله عديم النظير اعتراضا أنه ما دام كلام الله أيضا من جنس كلامنا ومركّبا من الكلمات والألفاظ نفسها التي يُركَّب بها كلامنا، فلماذا لا يمكن أن نقدر على الإتيان بمثله؟ إن حالة الذين لا يفقهون حقيقة مُحكَمة وبديهية وثابتة بالأدلة القاطعة تبعث على البكاء فعلا. لو كانوا يملكون شيئا من العقل الذي هو هبة إلهية، لتأملوا قبل توجيه هذا الاعتراض السخيف: هل من الضروري أن يكون الله تعالى واحدا لا شريك له في ذاته وصفاته وجميع أفعاله أم لا؟ وإن لم يتأملوا في هذا الدليل، فليتهم تدبّروا دليلا آخر؛ وهو أن الذي يحسبونه أعلى وعديم المثال والنظير في العلم والقدرة يجب أن يعدّوا تأثيراتها أيضا عديمة النظير. فكما بيّنت من قبل إن عظمة الكلام وشوكته تتبع قدرات المتكلم العلمية. فمن كان أكثر قدرات علمية، كان كلامه أكثر عظمة وشوكة. وإن كانوا قد أسقطوا هذا الدليل أيضا من نظرهم فليتهم تذكّروا على الأقل مبدأ يقول: "خواص الأشياء حق". ألا يدرون أن هناك مئات الأشياء من جنس واحد بل من صنف واحد، ومع ذلك قد أودع الله الحكيم القدير كل شيء خواصَّ مختلفة تماما. إن بعض الناس مخدوعون إذ يزعمون أن اللغة من إيجاد الإنسان، وأنه ما دام الأمر كذلك فيمكن للإنسان أن يصل إلى أقصى مراتب الفصاحة والبلاغة والكمالات الأخرى الضرورية المتعلقة بالكلام، لأنه من غير المعقول وبعيد عن القياس أن يعجز الإنسان عن إحراز التقدم في مجال أوجده هو. وما دام ليس ممنوعا عند العقل أن يحرز الإنسان تقدما من كل نوع أو يصل إلى مرتبة الكمال في بلاغة الكلام وفصاحته، فإن الإتيان بنظير بلاغة القرآن أيضا ليس مستحيلا!

فليكن واضحا أن هذه الشبهة تزول تلقائيا ببياني المذكور إذ كتبتُ بكل وضوح أن قدرات الإنسان العلمية لا تساوي قدرات الله العلمية بحال من الأحوال. فلا بد أن يظهر الفرق من خلال الكلام بين القدرات العلمية الدنيا

والعليا، والقوية والضعيفة. بمعنى أن الكلام الذي يصدر من القدرة العليا يكون أعلى حتما، والكلام الذي يصدر من القدرة الدنيا يكون أدنى، كما يتبين هذا الفرق بجلاء عند النظر إلى الناس ذوي القدرات المتفاوتة. ولا يمكن لذي قدرات دنيا أن يباري ذا قدرات عالية، مع أن الناس كلهم من جنس واحد.

إضافة إلى ذلك ليس صحيحا القول بأن اللغات كلها قد أوجدها الإنسان، بل قد ثبت بتحقيقات كاملة أن موجد لغات الإنسان وخالقها هو الله القادر القدير الذي خلق الإنسان بقدرته الكاملة، وأعطاه اللسان ليقدر على الكلام. ولو كانت اللغة من إيجاد الإنسان لما كانت هناك حاجة قط، في هذه الحالة، لتعليم اللغة لطفل حديث الولادة، بل كان بإمكانه أن يوجد لغة من عنده عند بلوغه أشُدّه. ولكن من الواضح ببداهة العقل أنه لو لم يُعلَّم الطفلُ لغةً لما قدر على الكلام. فسواء أربَّيتم الطفل في غابة اليونان أو تركتموه في جزيرة من جزر بريطانيا، أو ذهبتم به إلى منطقة تحت خط الاستواء لكان محتاجا لتعلُّم اللغة في كل الأحوال، وبقي أبكم دون تعليم.

وإذا قُدِّمت تأييدا لهذه الفكرة شبهة أننا نرى بأم أعيننا أن مئات التغييرات تتطرق إلى اللغات تلقائيا دائما، وهذا يدل على تصرّف الإنسان فيها! فليكن واضحا أن هذه الشبهة ليست إلا خديعة بحتة. فالتغييرات التي تحدث في اللغات بين حين وآخر، لا تحدث باختيار الإنسان، ولا وجود لقانون يبين أن طبيعة الإنسان تُحدث في اللغة تغيرات معينة في أوقات معينة، بل إن نظرة دقيقة توحي بأن هذه التغييرات أيضا تحدث بمشيئة علة العلل ﷻ واختياره، كما تحدث بقية التغيّرات السماوية والأرضية بمشيئته ﷻ الخاصة. ولا يمكن الإثبات بحال من الأحوال أن الناس أوجدوا مجتمعين أو فرادى كافة اللغات الـمَحكية في العالم.

وإذا أثار أحد شبهة أنه كما يُحدث الله تعالى تغييرات في اللغات دائما بصورة طبيعية، لماذا لا يجوز أن تكون اللغات أيضا وُجدت على المنوال نفسه

في البداية دون أن يكون هناك إلهام خاص في ذلك؟ فجوابها أن القانون العامّ للطبيعة ومنذ بداية العصر، هو أن الله تعالى قد خلق كل شيء بقدرته المحضة، ويتبين ذلك نتيجة التفكير في السماء والأرض والشمس والقمر بل في فطرة الإنسان نفسه أن تلك المرحلة الابتدائية كانت مرحلة إظهار القدرة فقط، وما شابتْها شائبة الأسباب العادية. وكلَّ ما خلقه الله تعالى في تلك المرحلة فقد خلقه بقدرته العظمى التي تركت عقل الإنسان في حيرة من أمره. انظروا إلى الأرض والسماء والشمس والقمر وغيرها من الأجرام تَرَوا كيف أُنجزتْ المهمة العظيمة لخلْقها دون الاستعانة بالأسباب والبنّائين والعمال، بل كانت بمشيئة الله وبأمره فقط. فلما أُنجزت جميع أفعال الله تعالى في المرحلة الأولى بالقدرة المحضة، وكانت نزيهة تماما من مشاركة الطبيعة والأسباب، وقد تمت بإرادة الله البحتة؛ فلماذا يعدُّ اللهُ تعالى عاجزا -كما يحسبه الملحدون- فيما يتعلق باللغات، ويقال بأنه لم يكن قادرا على خلق اللغات كما خلق كل شيء بقدرته المحضة؟ ولماذا يحسبُ قدرته ناقصة بخصوص اللغات مَن دلَّل على قدرته الكاملة بخلقه الإنسان بغير أبٍ وأمٍّ؟

فباختصار، ما دام كل عاقل مضطرا للاعتراف بأن المرحلة الأولى كانت مرحلة إظهار القدرة فقط، ولما كان قانون الطبيعة العام السائد حينذاك يقتضي أن يُنجَز كل عملٍ دون شائبة الأسباب العادية، لذا فإن إخراج اللغات من هذا القانون العام ونقضَ قانون الطبيعة جهل بحت وغباوة محضة.

إنّ ضرْب مثَل ظروف العصر الراهن كنظير على ذلك الزمن لا يجوز بحال. فاليوم مثلاً؛ لا يولَد ابن الإنسان من غير أم وأب، ولكن إذا اقتصرت ولادة الإنسان في الزمن البدائي أيضا على الوالدين فماذا عساها أن تكون كيفية خلق الدنيا؟

إضافة إلى ذلك؛ هناك فارق كبير بين التغييرات التي تحدث في اللغات بين حين وآخر بصورة طبيعية وبين خلق اللغة من العدم تماما. إن حدوث شيء من

التغيُّر في اللغة الموجودة شيء، وخلقها من العدم المحض من كل الوجوه شيء آخر. وإضافة إلى كل ذلك؛ ما دام الله تعالى لا يزال يُلهم عباده مختلف اللغات، ويقدر أيضا على أن يُلهم لغاتٍ ليس لدى الملهَمين بها إلمام كما أثبتنا في الحاشية على الحاشية رقم ١، فما أشنعها من غباوةٍ الظنُّ أن الله العليم القدير لم يملك قدرة على هذا الإلهام في المرحلة الابتدائية. فما دامت قدرته غير المحدودة ثابتة اليوم أيضا بالبداهة بأنه يُلهم عبادَه بلغات يجهلونها جهلا تاما و لم يتعلّموها من آبائهم وأمهاتهم ولا على يد معلِّم، فلماذا يعدُّ بعيدا عن قدرة الله ﷻ الكاملة أن يعلّم عبادَه اللغات في بداية الخلق حين كانت الحاجة إليها ماسّة؟ ولماذا يعدُّ ﷻ ضعيفا وعاجزا، وبذلك تُصَبُّ على الإنسان مصائب يقال في تفصيلها إن الإنسان ظل أخرس وأبكم بعد ولادته إلى مدة طويلة، وظل في مرحلة الشقاوة تلك يدبّر أموره بالإشارات فقط وبصعوبة بالغة، أما الأمور الدقيقة والخطابات الطويلة التي لم يتمكن الإنسان من توضيحه بواسطة الإشارات فقد ظل يكابد الخسارة التي كان لا بد من أن يتعرض لها نتيجة عجزه عن بيانها وعدم تمكّنه من فهم الكلام وإفهامه للآخرين! ومع كل المصائب التي واجهها الناس، لم يعالج الله تعالى آلامهم وما استطاع أن يسدّ حاجاتهم. ولا شك أن الله تعالى قد خلق الإنسان من العدم مطلقا بمحض قدرته الكاملة، ثم أعطاه اللسان والعينين والأذنين، ورزقه قدرات متنوعة على التقدم، وكذلك أعطاه بقدرته الكاملة من النعم ما لا يستطيع الإنسان إحصاءها، ولكن هذا الإله القادر نفسه لم يقدر على تعليمه اللغة التي كانت حاجته الملحة حتى أوجدها الإنسان بنفسه بعد تجشم معاناة البَكَم إلى مدة مديدة. فهل من شأن هذا الاعتقاد أن يجعل قدرة ألوهية الله تعالى جديرة بالمدح؟ هل لمؤمن أن يسيء الظن بذلك الذات الكامل والقادر أنه عجز عن إظهار بعض قدراته التي كان إظهارها ضروريا على العباد الغافلين في المرحلة الأولى؟

وهل من الأقرب للقياس أن مَن خلق آلاف المخلوقات بأمر واحد بغير مادة وهيولى لم يكن قادرا على إيجاد اللغات؟ هل يقبل العقل أن مَن خلق الإنسان لحكمة عظيمة وجعله أشرف المخلوقات بمشيئته الخاصة يمكن أن يترك خلقه ناقصا ليسدّ الإنسان هذا الخلل بنفسه وعلى سبيل الصدفة؟ هل الذات الذي لديه معرفة تامة باللغات كلها منذ القِدم، وكل ما سيأتي إلى حيز الوجود في المستقبل أيضا في حكم الموجود بالفعل عنده، والذي قدرته التامة قادرة على التعليم والإفهام من كل النواحي؛ يجدر بأن يُظَنَّ به أنه وجد الإنسانَ في حالة البَكَم و لم يهتم بتعليمه اللغةَ قصدا حتى عاش الإنسان -نتيجة قلة اهتمامه ﷻ- إلى مدة طويلة كالحيوانات والوحوش حتى تبادرت إلى ذهن الإنسان نفسه فكرة أنه يجب أن توجَد لغة؟ إنها لَفكرةٌ بديهية البطلان يكذّب هؤلاء بسببها قدرات الله الكاملة ورحمته الكاملة وتربيته الكاملة التي ظلت مشهودة في كل عصر. من العَمَه والغباوة الشديدة الظن بالله الذي عجائب إلهاماته تكشف على عباده اليوم أيضا لغات غير معروفة لديهم بأنه قصَّر في هذا النوع من الإلهامات في المرحلة الابتدائية حين كانت الحاجة إليها ملحّة.

ولو خطرت ببال أحدٍ شبهة أنه لماذا لا يُطلَع في العصر الراهن سكانُ الغابات -الذين يعيشون من دون لغة ويدبرون أمورهم بالإشارات فقط- على لغةٍ بالإلهام؟ ولماذا لا يتلقى طفلٌ حديثُ الولادة إلهاما من الله وهو يعيش في الفلاة؟ إن هذه الفكرة ناتجة عن سوء فهم صفات الله تعالى. فلا ينـــزل الإلهام والإلقاء في كل مكان وعلى فلان وعلان دون مراعاة مواهب المتلقي. بل إن وجود الموهبة في المتلقي شرط ضروري للإلقاء والإلهام. والشرط الثاني هو أن تكون هناك ضرورة حقة تقتضي الإلهام. حينما خلق الله تعالى الإنسان في البداية وُجد حينذاك كِلا الشرطَين لتعليم اللغات إلهامًا: فأولا؛ كانت المواهب الشخصية والضرورية لتلقي الإلهام موجودة في الإنسان الأول. وثانيا؛ إن الضرورة الحقة أيضا كانت تقتضي الإلهام لأنه لم يكن حينها لآدم عليه السلام رفيق

مشفق يعلِّمه اللغة ويبلِّغه مرتبة التحضر واللياقة نتيجة تعليمه سوى الله ﷻ، بل كان الله ﷻ هو الكفيل الوحيد لآدم وسدّ جميع حاجاته الضرورية، وأوصله إلى مرتبة الإنسانية الحقيقية بحسن تربيته وحسن تأديبه. وحين انتشرت ذرية آدم في الدنيا وعمّت فيهم وعلى نطاق واسع تلك العلوم التي علّمها اللهُ ﷻ آدمَ، صار بعض الناس معلِّمين لبعضهم الآخرين. وكان آباء كل ولدٍ كرفيق مشفق لتعليمه اللغة. أما آدم عليه السلام فلم يكن له أحد سوى الله تعالى ليعلِّمه اللغة ويحلِّيه بالآداب الإنسانية. لذا فكان الله ﷻ وحده أستاذا ومعلما له وبمنـــزلة الوالدين أيضا، الذي علَّمه كل شيء بعد أن خلقه.

باختصار، فقد صارت الضرورة حقّا وواجبا بحق آدم عليه السلام أن يربيه الله تعالى بنفسه ويدبّر له كل ما كان بحاجة إليه. ولكن لم تطرأ هذه الضرورة لذريته، لأن هناك الملايين من الناس الذين يتحدثون بلغات مختلفة ويعلّموها أولادهم.

إضافة إلى ذلك، وكما قلت من قبل؛ إن المؤهلات الشخصية التي هي شرط ضروري لتلقي الإلهام، لا تتوفّر في كل فرد من أفراد بني آدم. ولو كانت في أحد موهبة ذاتية لكان بإمكانه اليوم أيضا أن يطّلع بإلهام من الله على ما يحتاج إليه، ولا يضيعه الله أبدا. إن نظر الله العميق واصل إلى أعماق مواهب كل إنسان، فلا يحرم موهوبا من إظهار مواهبه قط. ولم يحدث قط أن تحلى شخص -بحسب علم الله تعالى- بموهبة تؤهله للمعرفة أو الولاية أو النبوة والرسالة ثم مات نتيجة بعض الحوادث الأرضية أو بسبب ولادته في صحراء موحشة دون أن يوصله الله تعالى إلى الدرجة القصوى التي أُعطي تلك الموهبة من أجل الوصول إليها. بل الحق أنه لا يبقى صحراويا ووحشيا وأبكم وجاهلا إلا مَن كان ناقصا وبدائيًّا، أو مثل الدواب طبيعةً.

إضافة إلى ذلك؛ ما دام الله تعالى قد علّم الملايين من الناس لغاتٍ مختلفة عديدة، وبذلك فتح باب التعليم العام لغيرهم؛ فلم تعد هناك حاجة لتعلّم اللغة

بالإلهام في كل الحالات إلا في حالة معينة إذا أُريدَ فيها إراءة آية. إن الله الحكيم القدير لا يقوم بشيءٍ دون ضرورة، ولا يلتزم دون مبرر بأساليب عابثة وغير مفيدة.

إن بعضا من الآريين القليلي الفهم يحسبون السنسكريتية وحدها لغة الإله، ويحسبون أن الإنسان هو من أوجد كافة اللغات الأخرى المليئة بمئاتٍ من عجائب وغرائب صنع البارئ.

وكأن الإنسان أيضا يملك نوعا من الألوهية، بمعنى أن الإله قد علّم لغة واحدة فقط، ولكن الإنسان أظهر قوته فأوجد عشرات اللغات الأفضل منها.

نسأل الآريين: إذا كان حقًا أن السنسكريتية هي اللغة الوحيدة التي خرجت من فم الإله واللغات الأخرى من صنع البشر وبعيدة من فم الإله أيما بُعد، فأخبرونا ما هي الميزات الخاصة التي توجد في السنسكريتية وتخلو منها اللغات الأخرى؟ إذ لا بد أن يكون لكلام الإله أفضلية على صنع البشر حتما، لأنه يُسمَّى إلــهًا لكونه أفضل من الجميع وعديم النظير والمثال في ذاته وصفاته وأفعاله. ولو افترضنا أن السنسكريتية هي كلام الله الذي نزل على آباء الهندوس وأجدادهم، أما اللغات الأخرى فقد اخترعها آباء الناس الآخرين وأجدادهم الذين كانوا أكثر ذكاء وفطنة من آباء الهندوس وأجدادهم، فهل لنا أن نفترض أيضا أن هؤلاء الناس كانوا أفضل من إله الهندوس أيضا إذ خلقوا مئات اللغات الجميلة بقدرتهم الكاملة، أما الإله فقد أعيته صناعة لغة واحدة فقط؟ إن الذين يجري الشرك فيهم مجرى الدم يجعلون إلههم يساوي شخصا عاديا في أمور كثيرة. ولِــم لا، وهم يحسبون أنفسهم أنهم موجودون منذ الأزل، ويزعمون أنفسهم شركاء لله؟

وإذا انتابت أحدا شبهة أنه لماذا لم يكتف اللهُ بلغة واحدة؟ فليعلم أن هذه الشبهة أيضا ناشئة عن قلة التدبر. فلو تدبر عاقل في الأوضاع المتفاوتة للأقاليم المختلفة وتأمل في طبائع الناس المختلفة لعلم باليقين الكامل أنه ما كان للغة

واحدة أن تنسجم مع ظروفهم جميعا، بل إن الناس في بعض البلاد يقدرون على لفظ بعض الحروف بسهولة أكثر، وإن لفظ الحروف نفسها يشكل مصيبة كبرى على أهل بعض البلاد الأخرى. فأنّى للحكيم القدير أن يحب لغة واحدة فقط دون أن يراعي مبدأ "وضع الشيء في موضعه"، وينبذ المصلحة العامة للطبائع المختلفة؟ هل كان من المناسب أن يقيّد أناسا بطبائع مختلفة في قفص ضيق للغة واحدة.

إضافة إلى ذلك؛ إن خلق اللغات بأنواعها وأقسامها المختلفة يدل على سعة قدرة الله ﷻ وإن مدح العباد الضعفاء إياه بلغات مختلفة يزيد في جمال العبودية.

التمهيد الرابع: إن التدبر في مخلوقات الله كلها يُثبت مبدأ أن العجائب والغرائب التي أودعها ﷻ في خلقه هي على قسمين: أحدهما سهل الفهم؛ فمثلا يعرف الناس جميعا أن للإنسان عينين وأذنين وأنفا وقدمين، وغيرها من الأعضاء. فهذه أمور يطّلع عليها الإنسان بنظرة عابرة. والقسم الثاني يحتوي على أمور تحتاج إلى دقة النظر؛ منها مثلا تركيب العين بطريقة تجعل العينين تعملان متفقتين كشيء واحد، فيرى بها الإنسان كل شيء؛ صغير الحجم كان أم كبيرا. أو تركيبة الآذان التي نسمع بها الأصوات على اختلافها. فهذه أمور لا نستطيع اكتشافها بنظرة عابرة، بل قد اكتشف هذه الحقائقَ الخبراءُ في علوم الطبيعة والطب بعد تدبّر وتفكر إلى زمن طويل. بل ما زالت هناك مئات الدقائق والحقائق في تركيب الإنسان خافية و لم يُحطْ بها ذهن حكيم إلى يومنا هذا. ولا شك أن الهدف الأسمى من وراء هذه الدقائق والحقائق هو أن يعترف الإنسان بقدرة ذلك الحكيم القدير الكاملة الذي قام بغرائب الأعمال وعجائبها هذه في خلقه.

قد يعترض هنا واحدٌ من قليلي الفهم ويقول: لماذا جعل الله ﷻ الأمر الذي كان الهدف منه معرفة الله دقيقا لدرجة يحتاج فهمه إلى إعمال الفكر والنظر إلى زمن طويل؟ ومع ذلك لا يُتوقع تحصيل الأمور الحكيمة كاملة شاملة. وبسبب

هذه الصعوبة المتناهية لم يقدر الإنسان على أن ينال قطرة واحدة من البحر إن صح التعبير. بل كان من المفروض أن تكون الغرائب والعجائب كلها واضحة جلية ليُنال بسهولة الهدفُ الذي من أجله أودعها الحكيم القدير في جسد الإنسان.

فجواب هذه الشبهة وغيرها من الشبهات المماثلة التي قد تختلج في قلب أحد عن عجائب خلق الله ﷻ وخواصها الدقيقة والخافية، هو أنه مما لا شك فيه أن قانون الله الجاري في الطبيعة في جميع مخلوقاته وفي كل شيء يصدر عنه ﷻ هو أنه لم يكتف بالعجائب البديهية فقط، بل جعل العجائب الدقيقة أيضا -التي هي عميقة جدا- كامنة في كل ما يصدر بيد قدرته ﷻ. ولكن عدَّ فعل الله هذا عبثا وبلا جدوى غباوةٌ ما بعدها غباوة.

فليكن معلوما أن الله تعالى لم يخلق الإنسان على وضع فطري بحيث يبقى علمه مقصورا ومحصورا في بعض الأمور البديهية والمحسوسة فقط مثل الدواب، بل وهبه موهبة بحيث يستطيع أن ينال التقدم باستمرار في علوم لا تنتهي نتيجة التدبر والتفكير. ولهذا السبب أعطى الإنسانَ جوهرة العقل المتقدة التي ما أُعطيتها الدواب. والمعلوم أنه لو كانت كل هذه الغرائب الإلهية واضحة ولائحة بالبداهة دون حاجة إلى التدبر والتفكير فيها، ففي أي شيء كان سيفكر ويتدبر الإنسان الذي يتوقف كماله على تكميل قوة التفكير والتدبر عنده؟ وأنّى له أن يبلغ كماله إن لم يفكّر ويتدبر؟ فلما كانت البشرية كلها مرتبطة باستخدام الإنسان قوة التفكير والتدبر، فقد جعل الحكيم القدير معظم الدقائق والحقائق كامنة بحيث لا تُكتشف ما لم يستخدم الإنسان بكمال السعي والجهد قدرتَه التي وهبه الله تعالى إياها. وبذلك أراد الله الحكيم القدير أن يبقى طريق التقدم مفتوحا أمام الإنسان ويصل إلى السعادة التي خُلق من أجلها.

إذن، فإن أفعال الله تعالى كلها لا تنحصر في خلق مصنوعات بسيطة، بل كلما تعمّق البحث فيها ظهرت الدقائق للعيان أكثر فأكثر. فلما ثبت كقانون

عام أن جميع الأشياء الصادرة عن الله تعالى مليئة بالنكات الدقيقة والأسرار العميقة، فيضطر كل عاقل للاعتراف تبعًا لقانون الطبيعة أن كلام الله تعالى أيضا لا يخلو من النكات الدقيقة، بل يجب أن يكون محتويا على الدقائق أكثر من غيره، لأنه كلام الله ومخزن علوم الحكيم القدير الأزلية؛ الذي جعله الله تعالى أداة بحيث توجد فيه كل الأسباب المطلوبة لإصلاح جميع قوانين الطبيعة الموجودة في السماوات والأرض. فإذا كان ناقصا في حد ذاته، فكيف يمكن تدبير الأمور العظيمة كلها بواسطته؟ ولو لم يكن قادرا على تخليص الإنسان من الأخطاء كلها، لكان مَثل تخليصه من بعض الأخطاء كتركه أحدا في الطريق قبل أن يوصله إلى غايته المنشودة.

فلما ثبت أن قانون الطبيعة الجاري في جميع الأشياء الصادرة عن الله تعالى هو أنه ﷻ قد أودعها أسرارا عميقة حتما ولم يتركها مقصورة على أمور بسيطة فقط، فتبين من هذا البحث كذب الذين يدّعون أنه يجب أن يكتفي كلام الله ببعض الأوامر سريعة الفهم فقط، ولا حاجة لأن يضم لطائف دقيقة وأنه لا يضمها في الحقيقة. ففي هذا المقام قد اخترعوا لتقوية شبهتهم هذه دليلا أن الكتب الإلهامية قد نزلت من أجل قليلي العلم والفهم أو الأميين والبدو، لذا يجب أن تحتوي على تعليم على قدر عقولهم، لأن الأميين وغير المثقفين لا يستطيعون الاستفادة من النكات الدقيقة، ولا يقدرون على الاطلاع عليها. ولكن يجب أن يكون واضحا أن هذه الشبهة تأخذ بقلوبهم لقلة فهمهم. وتفوح من هذه الفكرة الدنيِّة والسخيفة رائحة السفاهة والجهالة البالغة غايتها. ليتهم يتدبرون كلام الله بعمق ليعلموا أن مَثَل هذا الزعم عن كلام الله المقدس والكامل كمثل ذرّ الرماد على البدر. ولو قرأ هؤلاء القوم هذا الكتاب بعيون مبصرة الآن أيضا وتدبروا مئات الدقائق العميقة والحقائق الدقيقة لكلام الله التي سقناها في محلها بوضوح تام ورأوها بنظرة التأمل والتيقُّظ، لزالت فكرهم الفاسدة هذه كما يزول الظلام بطلوع الشمس.

والمعلوم جيدا أنه لا تقوم للقياس قائمة مقابل المعاينة والأمر المحسوس. وإذا تبيّنت خاصية معينة لشيء ما من خلال التجارب المتواترة، فمن الجنون والخبل تماما أن ينكر المرء بالاعتماد على مجرد القياسِ الأمرَ الواقع البالغ مبلغ الثبوت تماما. فلو استخدموا العقل الذي وهبهم الله إياه لتبين لهم تلقائيا أن فكرتهم فاسدة بحد ذاتها، ومثَلها كمثل شخص ينكر خواص النباتات الدقيقة ويقول: لو كان الله قد أودع النباتات والجمادات وغيرها من الأشياء أنواع الخواصّ بإرادته ومشيئته الخاصة لفائدة خلق الله وشفاء الإنسان، فلماذا إذن أخفاها عن أعين الناس في حجُب كثيرة، حتى ظل الناس يموتون إلى مدة طويلة دون علاج لعدم معرفتهم بها، ولم تتم الإحاطة إلى الآن بجميع خواصها الكامنة؟ غير أنه من الواضح أن التورط في شبهات مماثلة بعد تحقق قانون الله العام -الذي يجري في السماوات والأرض على المنوال نفسه- إنما هو عمل الذين لا يتدبرون في قانون الطبيعة أدنى تدبر. ويبدأون بنعت ملامح ذات الله تعالى وصفاته قبل أن يطّلعوا جيدا على صفاته وسننه كما تظهر في مرآة الفطرة. وإلا لو ألقى المرء نظرة في كل حدب وصوب بعيون مبصرة لرأى أن سنة الله ﷻ ليست محصورة في شيء أو شيئين، وليست خافية أيضا ليتعذر إدراكها. بل إنه لمن أجلى البديهيات أن الذبابة مع أنها حشرة حقيرة ورذيلة ومكروهة أيضا لا تخرج عن نطاق هذا القانون للطبيعة، دع عنك الأمور اللطيفة والمخلوقات السامية. فكيف يمكن الظن إذن أن كلام الله تعالى الذي يجب أن يكون مقدسا ومنصبغا بصبغة الكمال مثل ذاته ﷻ، هو أدنى وأرذل -والعياذ بالله- فلا يستطيع أن يبلغ حتى مرتبة الذبابة من حيث الدقائق الكامنة.

وليكن واضحا في هذا المقام أن الله تعالى لم يُخفِ أمرا من أمور ضرورات الدين، أما الدقائق العميقة فهي دقائق سامية غير المعتقدات الأصلية، وقد قدِّرت للنفوس التي تملك قدرة وموهبة لتحصيل الكمالات الفاضلة. أما الذين لا يريدون الاكتفاء بهذه المسائل مثل أي غبي وبليد، فيظلون يتقدمون في الحكمة

والمعرفة بواسطة هذه الدقائق حتى يصلوا إلى منارة حق اليقين العليا الذي هو أقصى مراتب المواهب البشرية. والمعلوم أنه لو كانت الأسرار العلمية كلها بديهية، لما بقي فَرق بين الغبي والفطين، ولأدّى ذلك إلى تدمير العلوم كلها نهائيا، ولفُقد المعيار الأمثل لمعرفة المواهب التي تزداد بسببها قوة الفكر لدى الإنسان وتستكمل النفوس. ففي أية أمور كان للإنسان أن يتدبر ويتأمل إذا فُقدت هذه الوسيلة نفسها؟ ولولا التدبر والتفكير لاضطر للتوقف -على غرار دواب أخرى- عند حد معلوم ومحدد، ولما وجد في نفسه قدرة على تقدُّم لا ينتهي، ولحرم في هذه الحالة من السعادة التي خُلق من أجلها. فكيف يجوز إساءة الظن بالإله -الذي وهب للإنسان قدرات للتدبر والتأمل ووهبه قوة لنيل الكمال- أنه لا يريد أن يوصل الإنسان إلى أيّ نوع من الكمال بإنزال كتابه، بل يحول دون ذلك؟ أليس صحيحا أن الله تعالى قد أنزل كلامه ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور؟ فإذا كان كتاب الله لا يستطيع أن يُخرج الإنسان من الظلمات، وكتب أرسطو وأفلاطون تستطيع ذلك، فإن قول الله بأن كتابه وحده قادر على النجاة من كل أنواع الظلمة، ليس إلا ادّعاء فارغا. فإذا تبيّن صدق أمرٍ ما بجلاء تام بالتجربة والقياس، فلا تقوم لشيء آخر مقابله قائمة. إن قراءة ما سقناه من الحقائق الدقيقة والسامية من القرآن الكريم وسجّلناه في هذا الكتاب، يكفي شهادة قوية على قولنا وبمنـــزلة القول الفصل. وبالاطلاع على كل هذه الدقائق والحقائق القرآنية يضطر المرء للاعتراف -إلا إذا كان عمِها تماما- أن القرآن الكريم يحيط بمئات الحقائق والمعارف التي لم تخطر حتى على بال أفلاطون وأرسطو وغيرهما. أفلا يُستنبَط من ذلك أن كلام الله تعالى جامع للدقائق الدينية؟

فأكرر وأقول بأن الله تعالى لم يُدخل الإنسان في ورطة باختياره هذا الأسلوب بل وهب له أولا قوة التفكير ثم هيأ له أسبابا أيضا للتدبر والتفكر. فبسبب هذه العطايا الإلهية يتلألأ نجم حظ الإنسان ويتميز عن الدواب. لم يعط

الله تعالى الدواب قدرة على التدبر والتفكير، فلم تفكّر و لم تتأمَّل شيئا، فانظروا هل بقيت على حالها أم لا؟

وأما الشبهة أن الله تعالى قد أنـــزل كتابه للأميين والبدو، لذا يجب أن يكون على قدر عقولهم فليست صحيحة. فأولا وقبل كل شيء فهي شبهة تضم في طياتها كذبا وهو أن ذلك الكلام نزل لتعليم الأميين فحسب، بينما قال تعالى بنفسه بأن هذا الكتاب قد نزل للعالم كله ولإصلاح مختلف الطبائع. فكما خوطب فيه الأميون كذلك فإن خطابه موجَّه إلى النصارى واليهود والمجوس والصابئين والملحدين وغيرهم من أتباع الفِرق كلها. وفيه ردّ على الأفكار الفاسدة للجميع، وقيل للجميع: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٩).

فلما ثبت أن القرآن الكريم موجَّه إلى طبائع الناس كافة، ففكِّروا في أنفسكم، هل كان ضروريا له في هذه الحالة أم لا، في أن يُظهر عظمته وصدقه على كافة الطبائع، ويزيل جميع أنواع الشبهات؟

صحيح تماما أن هذا الكلام موجَّه إلى الأميين أيضا، ولكن هذا لا يعني أنه ﷻ أراد أن يُبقي الأميين على ما هم عليه من الأُمّيّة. بل كان في مشيئته أن يَخرج من مكمن القوة إلى حيِّز الفعل كلُّ ما يوجَد في فطرهم من القوى الإنسانية والعقلية. أما إذا كان المقصود أن يُترَك الجاهل جاهلا إلى الأبد، فما الفائدة من التعليم أصلا؟ والحق أن الله تعالى بنفسه قد رغّب في العلم والحكمة. فانظروا كيف يؤكد الله تعالى على العلم والحكمة في الآية: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٧٠) والآية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥٢). والآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٩)، والآية: ﴿قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٥)، والآية: ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٣). أيْ من بقي أعمى في هذه الدنيا وما نال

البصيرة في علم الله، سيكون أعمى في العالم الآخر أيضا بل أسوأ من العميان. ثم يعلِّمنا ﷻ دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.. أيْ أَنِرْ لنا يا ربنا صراطا مستقيما أَنَرتَه لجميع الكُمَّل الذين أنعمتَ عليهم وأكرمتَهم. فلما كان صراط أهل الكمال المستقيمُ هو أنهم يتحرون الحقائق على وجه البصيرة لا كالعميان؛ فمحصّلة هذا الدعاء أن اجْمَعْ فينا يا ربنا جميع العلوم الحقة والمعارف الصحيحة والأسرار العميقة والحقائق الدقيقة التي وهبتها بين حين وآخر لجميع الكمّل في الدنيا بصورة متفرقة. لاحِظوا الآن، فقد طُلب من الله العلمُ والحكمة في هذا الدعاء أيضا، وطُلب العلم الذي كان مفرَّقا في العالم كله.

فملخص الكلام؛ مع أن الله تعالى قد بيّن في كتابه العزيز مبادئ النجاة بصورة سهلة وواضحة جدا، وليس هناك صعوبة أو إبهام في سبيل الاطلاع عليها، وأن المثقفين وغير المثقفين سواسية في ذلك، إلا أن ذلك الحكيم القدير أراد في دقائق عِلم الله سبحانه والأسرار العظيمة أن يطّلع عليها الإنسان بالجهد والكد، لكي يكون الجهد نفسه مدعاة لتكميل النفس، لأن قيام القوى الإنسانية كلها وبقاءها يتوقف على الجهد والتمرين. لو بقي الإنسان مغمض العينين دائما ولم يستخدمهما للرؤية قط، لعمي في غضون بضعة أيام كما هو ثابت من التجارب الطبية، كذلك إذا أغلق أذنيه لصار أصم، ولو منع الأيدي والأقدام من الحركة لكانت النتيجة النهائية أنها ستفقد الحسّ والحركة. وكذلك لو لم يستخدم ذاكرته لحدث الخلل فيها، ولو أبطل قوة التفكير لتلاشت بعد أن تضمحل شيئا فشيئا. فمن فضل الله تعالى ورحمته أنه قدّر أن يُسيِّر العباد على نهج يتوقف عليه كمال قوتهم الفكرية. ولو أراد الله أن يجعلهم متحررين تماما من الجهد والكدّ لما كان من المناسب أن يرسل كتابه الأخير إلى جميع الناس - الذين يتحدثون لغات مختلفة- بلغة واحدة ليس لديهم إلمام بها، لأن الإلمام بلغة أجنبية لا يمكن بدون جهد وإن كان قليلا نسبيا.

التمهيد الخامس: إن المعجزة التي يعرفها العقل ويشهد على كونها من الله تعالى أفضل بآلاف المرات من المعجزات التي تُسرَد كالمنقولات على سبيل القصص والحكايات فقط. ولهذا الترجيح هناك سببان اثنان:

أولا: المعجزات المنقولة ليست في حكم المشهود والمحسوس عندنا الذين خُلقنا بعد مئات السنين من الوقت الذي أُظهِرت فيه تلك المعجزات، ولكونها أخبارا منقولة لا تحتل درجة تحتلها المشاهَدات والمرئيات.

ثانيا: الذين رأوا المعجزات المنقولة التي تفوق إدراك العقل لا تكون مدعاة لاقتناعهم التام أيضا، لأن هناك كثيرا من العجائب التي يُريها المشعوذون أيضا. صحيح أنها ليست إلا مكرٌ وزيف، ولكن كيف يمكننا الإثبات لمعاند متعصب أن العجائب التي ظهرت من الأنبياء من هذا القبيل -فمنهم من صنع ثعبانا ومنهم من أحيا ميِّتا- منـــزَّهة من الشعوذات التي يُريها المشعوذون. فإن هذه المشاكل ما أطلّت برأسها في زمننا فقط، بل من المحتمل أن تكون قد ظهرت للعيان في الزمن نفسه الذي أُظهرت فيه تلك المعجزات. فمثلا حين نقرأ في إنجيل يوحنا: "وَفِي أُورُشَلِيمَ عِنْدَ بَابِ الضَّأْنِ بِرْكَةٌ يُقَالُ لَهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ "بَيْتُ حِسْدَا" لَهَا خَمْسَةُ أَرْوِقَةٍ. ٣ فِي هذِهِ كَانَ مُضْطَجِعًا جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ مَرْضَى وَعُمْيٍ وَعُرْجٍ وَعُسْمٍ، يَتَوَقَّعُونَ تَحْرِيكَ الْمَاءِ. ٤ لأَنَّ مَلاَكًا كَانَ يَنْزِلُ أَحْيَانًا فِي الْبِرْكَةِ وَيُحَرِّكُ الْمَاءَ. فَمَنْ نَزَلَ أَوَّلاً بَعْدَ تَحْرِيكِ الْمَاءِ كَانَ يَبْرَأُ مِنْ أَيِّ مَرَضٍ اعْتَرَاهُ. ٥ وَكَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ بِهِ مَرَضٌ مُنْذُ ثَمَانٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً. ٦ هذَا رَآهُ يَسُوعُ مُضْطَجِعًا، وَعَلِمَ أَنَّ لَهُ زَمَانًا كَثِيرًا، فَقَالَ لَهُ: أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟ ٧ أَجَابَهُ الْمَرِيضُ: يَا سَيِّدُ، لَيْسَ لِي إِنْسَانٌ يُلْقِينِي فِي الْبِرْكَةِ مَتَى تَحَرَّكَ الْمَاءُ. بَلْ بَيْنَمَا أَنَا آتٍ، يَنْزِلُ قُدَّامِي آخَرُ" (إِنْجِيلُ يُوحَنَّا ٥ : ٢-٧)

ومن الواضح أن منكر نبوة عيسى عليه السلام ومعجزاته حين يقرأ هذه العبارة من إنجيل يوحنا ويطّلع على البركة التي وُجدت في بلاد عيسى منذ القِدم، وكانت تتحلى بميزة من زمن قديم بأن مجرد نزول أحد فيها كان يضمن إزالة أمراضه أيا

كان نوعها ومهما كانت قاسية؛ سيخطر بباله بكل قوة لا محالة أنه إذا أظهر المسيح عليه السلام بعض الخوارق العجيبة فلا بد أن يكون سببها عائدا إلى أن حضرته كان يظهر بشيء من التأثير في ماء البِركة، لأنه قد وُجدت في الدنيا دائما أمثلة كثيرة لمثل هذا الاقتباس ولا تزال موجودة في الوقت الراهن أيضا. وصحيح عند العقل والأقرب إلى الفهم تماما أنه إذا شُفي العميان والعُرْج على يد عيسى عليه السلام فلا بد أن يكون قد خطف هذه الوصفة من البِركة المذكورة حتما، ثم أشاع بين الجهلاء والبسطاء الذين لا يصلون إلى كنه الأمور وحقيقتها بأنه ينجز هذه الأمور بمساعدة روح. ومما يؤكد على هذه الفكرة أكثر أنه ثابت أن المسيح عليه السلام كان يتردد إلى تلك البِركة كثيرا.

فلا شك أن من شأن المعجزات التي كانت تُريها البِركة منذ القِدم أن تخلق شبهات كثيرة في أمر عيسى عليه السلام عند المعارضين، وتظهر للعيان مشاكل كثيرة أمام إثبات أن المسيح عليه السلام ما كان مكّارا ومشعوذا كما زعم اليهود، بل كان رجلا صالحا لم يستفد من البِركة القديمة شيئا في سبيل إراءة العجائب، بل أرى المعجزات على وجه الحقيقة. مع أن الإيمان بالقرآن الكريم يخلّص من هذه الوساوس، ولكن كيف لمن لم يؤمن به بعد وما زال يهوديا أو هندوسيا أو نصرانيا أن ينجو منها؟ وكيف يمكن أن يطمئن قلبه إلى أنه عليه السلام لم يستفد من هذه البِركة العجيبة التي كان آلاف من العُرْج والعميان يُشفَون بمجرد الغوص فيها مرة واحدة، وكانت معروفة منذ مئات السنين بخواصها العجيبة بين اليهود وكافة الناس في تلك البلاد فكان ذكرها على ألسن الجميع؟ وكان كثير من الناس قد شُفُوا بالغوص فيها، بل كانوا يُشفَون كل يوم، فكانوا يجتمعون حولها بكثرة هائلة في كل حين وآن، وكان المسيح بنفسه أيضا يتردد إليها بكثرة، وكان مطّلعا على خواصها العجيبة والغريبة، ولكنه لم يستفد من تراب تلك البِركة القديمة ولا من مائها في إراءة المعجزات التي كانت البِركة تُظهرها منذ القِدم، و لم يتصرف فيهما لإيجاد وصفة جديدة من عنده.

فلا شك أنه لا يقوم دليل على الفكرة التي لا تفيد صاحبها شيئا مقابل الخصم. ولا شك أيضا في أن من شأن التفكير في وجود هذه البِركة ذات الصفات العجيبة أن يثير على حالة المسيح اعتراضات كثيرة لا تزول بحال من الأحوال. وبقدر ما نفكر في الموضوع تزداد الشكوك، ولا نجد طريقا لخلاص المسيحيين، لأن هذه الشبهات تتقوى أكثر فأكثر نظرا إلى حالة الدنيا الراهنة. بل إن ذاكرتنا نفسها تقدم لنا عدة أمثال على مثل هذا الخداع والزيف، بل في ذاكرة كل إنسان كمّ هائل مما شاهده بأم عينه من هذه الخديعات. وهذه الخُدَع التي تنطلي على البسطاء وقليلي الفهم وتبقى خافية تحت الحُجُب وتُشجِّع المكارين على مكرهم. أما عامة الناس الذين معظمهم كالأنعام فلا يخطر ببالهم أن يقوموا بتحقيقات واسعة النطاق ويصلوا إلى كنه الموضوع. والمعلوم أن مدة إراءة هذه الشعوذات تكون قصيرة، فلا يجد المرء فرصة كافية للتفكر والتدبر فيها، وبالتالي يجد المكارون مجالا واسعا للقيام بمكرهم، وقلما يجد الناس فرصة للاطلاع على أسرارهم الكامنة.

وبالإضافة إلى ذلك فعامة الناس ليسوا مطّلعين على العلوم الطبيعية وغيرها من فنون الفلسفة، ولا يدرون ما أودع الله الحكيم القدير في الكون من أنواع الخواص العجيبة، لذا فهم مهيأون لِيُخدعوا دائما وفي كل زمان. وكيف لا ينخدعون وخواص الأشياء محيرة للعقول في حد ذاتها وتزيد في حيرة المرء في حال عدم إلمامه بها؟ فمثلا من خواص الذبابة وبعض الحشرات الأخرى أنها إذا ماتت ولم تفترق أعضاؤها كثيرا، بل كانت على هيئتها الأصلية ووضعها السابق، ولم تتعرض للعفونة، بل كانت مازالت حديثة الموت إذ لم يمض على الموت أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات كحال الذبابة الميتة في الماء على سبيل المثال؛ فإنها تطير حيّةً لو وُورِيت تحت ملح مسحوق ووُضع عليها رمادٌ أيضا بالقدر نفسه. وهذه ظاهرة شائعة ومعروفة يعرفها كثير من الأطفال أيضا. ولكن لو لم يكن لدى أحد من البسطاء إلمام بهذا الأمر، وادّعى أمامه مكّارٌ أنه

مسيح الذباب ثم أحيا ذبابة بهذه الحيلة وظل يردد بعض الكلمات في الظاهر ليوهم أنه يحييها بواسطة هذا الوِرد، ففي هذه الحالة لا تكون عند المشاهد البسيط فرصة للبحث العميق في الموضوع. ألا ترون أن المكارين يكادون يُهلكون الدنيا في الوقت الراهن، فمنهم من يصنع ذهبا زائفا، ومنهم من يدّعي بتحويل المعادن الأخرى إلى الذهب، ومنهم من يدفن حجرا في الأرض ثم يُخرج منها إلـــهةً على مرأى من الهندوس. وكان منهم من مزج زيتا مُسهِّلا من نوع معين في مداد المحبرة ثم كتب رُقْية وأعطاها شخصا بسيطا ليظهر تأثيرها عند إصابته بالإسهال. هذا، وهناك آلاف أنواع الخدع والزيف يقوم بها الناس في العصر الراهن. منها ما هو دقيق جدا حتى ينخدع به كبار الأذكياء. أما الدقائق العميقة للعلوم الطبيعية والتراكيب المادية والخواص العجيبة للقوى التي لا تزال تنتشر يوما إثر يوم بناء على التجارب المتجددة، فكلها أمور حديثة يمكن أن يعتمد عليها أصحاب المعجزات الزائفة للقيام بشعوذات متجددة.

فقد تبيّن من هذا البحث أن المعجزات التي تشبه هذه الشعوذات ظاهريا، تكون محجوبة الحقيقة وإن كانت صادقة، ويواجه المرء صعوبات كثيرة في إثباتها.

التمهيد السادس: وكما أن المعجزات محجوبة الحقيقة لا تساوي المعجزات العقلية، كذلك لا تساوي الأنباءُ وأخبار الأزمنة الخالية -التي تشبه أسلوب بيان المنجمين والرمّالين والكهنة والمؤرخين- نبوءاتٍ وأخبارا غيبية ليست مجرد أخبار بل تحالفها قدرة الألوهية أيضا. لأن هناك كثيرا من الناس في الدنيا أيضا -فضلا عن الأنبياء- يُدلون بأنباء قبل أوانها؛ كالإنباء عن حدوث زلازل، أو تفشي وباء، أو اندلاع حروب، أو وقوع مجاعة، أو أن قوما سيغزون قوما آخرين وسيحدث كذا وكذا، وقد تحققت مرارا نبوءة من نبوءاتهم. فالنبوءات والأخبار الغيبية التي تحالفها آيات قدرة الله ويستحيل أن يشارك فيها الرمّالون والحالمون والمنجمون وغيرهم، ستُعدُّ عظيمة وكاملة لإزالة الشبهات من هذا

القبيل. بمعنى أنه يتراءى فيها لمعان عظيم لتدفُّق جلال الله الكامل وتأييداته التي تدل بالبداهة على توجهاته ﷻ الخاصة، وأن تشمل نبأ النصرة الذي يُنبئ بكل وضوح عن انتصار صاحب النبوءة وفشل المعارضين، وعزته وذلة المعاندين، وازدهاره وانحطاط الأعداء. ولسوف أسرد ذلك في محله، وقد بيّنت بعضه من قبل؛ وهو أن هذا النوع من النبوءات العظيمة خاصٌ بالقرآن الكريم فقط، وبقراءتها يتراءى عالَـــمٌ من جلال الله تعالى بكل وضوح.

التمهيد السابع: مع أن كل ما ذُكر في القرآن الكريم من الحقائق الدقيقة لعلوم الدين وعلوم العقائد الدقيقة، وبراهين المبادئ الحقة القاطعة مع غيرها من الأسرار والمعارف، كلها من النوع الذي تعجز القوى البشرية عن اكتشافها بصورتها الشاملة، وليس لعقل عاقل أن يسبق إلى كشفها من تلقاء نفسه، لأنه قد ثبت بإلقاء نظرة استقرائية على الأزمنة الخالية أنه ما خلا حكيم أو فيلسوف كشف هذه العلوم والمعارف. والأكثر غرابة في هذا المقام هو أن تلك العلوم والمعارف قد أُعطيها أُمِيٌّ لم يعرف القراءة ولا الكتابة مطلقا، ولم ير في حياته كُتّابا، ولم يقرأ حرفا واحدا في كتاب، ولم تتيسر له صحبة أحد من أصحاب العلم أو الحكماء، بل مكث مع البدو المتوحشين عمرا. فقد وُلد فيهم وتربّى بين ظهرانيهم وخالطهم. وإن كون النبي ﷺ أميًّا غير قارئ أمرٌ بديهي تماما لا يجهله مؤرخ من مؤرخي الإسلام. ولكن لما كان هذا الموضوع مفيدا جدا للفصول المقبلة، لذا أنقل هنا بعض الآيات القرآنية إثباتا لأميَّة النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٣)، وقال تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٩).

إن قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي للذين يجتنبون كل نوع من الشرك والكفر والفواحش... وقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾ أي يؤمنون بالرسول النبي الذي توجد فيه علامتان لقدرتي الكاملة، أولاهما: الآية الخارجية.. أي أنه توجد بحقه نبوءات في التوراة والإنجيل يجدونها في كتبهم. أما الآية الثانية فهي موجودة في شخص الرسول نفسه، وهي أنه مع كونه أُمِّيًّا وغير دارس، قد أتى بهداية كاملة، وبيّن لهداية الناس كافة الحقائق الحقة التي يعرفها العقل والشرع ولم يَعُد لها وجود على وجه الأرض وأمرهم بالعمل بها، ومنعهم من كل ما هو غير معقول ولا يصدقه العقل والشرع...

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٩-٥٠).

إن كون النبي ﷺ أمِّيًّا يثبت من هذه الآيات بكمال الوضوح، إذ من الواضح أنه لو لم يكن ﷺ أمِّيًّا وغير دارس، لوُجد كثير من الناس ليكذّبوا ادّعاء أمِّيته، لأنه لم يدَّعِ ﷺ ذلك في بلد يمكن أن يُعَدّ أهلُه يجهلون سيرة حياته. بل ترعرع النبي ﷺ بين ظهراني أهله منذ نعومة أظفاره، وقضى معظم حياته في صحبتهم وخالطهم. فلو لم يكن ﷺ أمِّيًّا في الحقيقة، لما أمكنه أن يدّعي أمِّيّته أمام هؤلاء

القوم الذين لم يخف عليهم حاله، وكانوا يتربصون به في كل حين وآن ليثبتوا ضده كذبة مهما كانت صغيرة ويشيعوها. كان عنادهم قد بلغ درجة بحيث لو استطاعوا لاخترعوا كذبا من عند أنفسهم ونسبوه إليه ﷺ. فمن هذا المنطلق كانوا يُعطَوْن -على الرغم من سوء ظنهم كل مرة- جوابًا يتركهم صامتين واجمين لا يطيقون جوابا. فمثلا حين بدأ بعض جهلاء مكة يقولون بأن التوحيد المذكور في القرآن لا يعجبنا، فَأْتُوا بقرآن يعظِّم الأوثان ويذكر عبادها، أو غيِّروا في القرآن الموجود واملأوه بتعليم الشرك بدلا من التوحيد، فنقبله ونؤمن به.. عندها -ردًّا على تساؤلهم- علّم الله تعالى نبيّه جوابا يتبين عند التدبر في سوانح حياته ﷺ، وهو:

﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ١٦-١٨).

إن قوله تعالى: ﴿لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ .. أي قد قطعوا علاقتهم معنا كليا، يقولون ائْتِ بقرآن ينافي تعليمه تعليم هذا القرآن ويغايره... فقل لهم: ليس لي أن أغيِّره من عندي، ولا يجوز ذلك أصلا.. وقد لبثت فيكم أربعين عاما من عمري أفلا تعقلون، أيْ ألا تعرفون جيدا أن الافتراء ليس من شيمتي والكذب ليس من عادتي؟

فباختصار، إن أُمّيّة النبي ﷺ كانت أمرا بديهيا ومؤكَّدا بين العرب والنصارى واليهود لدرجة أنه ما كان بوسعهم أن ينبسوا خلاف ذلك ببنت شفة. بل كانوا، من هذا المنطلق، يسألونه ﷺ امتحانا لنبوته عن قصص من التوراة لا يخفى معظمها على شخص متعلم. وحين وجدوا أجوبة صائبة وصحيحة تماما ومنـــزّهة عن الأخطاء الفادحة التي شابت قصص التوراة، آمن

به ﷺ بصدق القلب الراسخون منهم في العلم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَتجدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (المائدة: ٨٣-٨٥)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء: ١٠٨-١١٠)... مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ: أي عرف اليهود والنصارى صدق كلام الله.

فهذا هو حال الذين كانوا أهل علم وإنصاف من اليهود والنصارى؛ إذ كانوا يرون من ناحية أنه ﷺ أمّيٌّ محض لم يتلقَ من التعليم والثقافة شيئا، ولم يعاشر قوما متحضرين ولم يحضر مجالس علمية، ومن ناحية ثانية لم يجدوا في القرآن الكريم قصص الكتب السابقة فحسب، بل كانوا يجدون فيه مئات الحقائق الدقيقة التي كانت مكمِّلة ومتمِّمة للكتب السابقة، فكانت نبوته ﷺ تبدو لهم أظهر من الشمس بالنظر إلى أميَّة النبي ﷺ، وكذلك بالنظر إلى ما جاء به من الكمالات العلمية والأنوار الظاهرية والباطنية في ذلك الزمن المظلم. والمعلوم أنه لو لم يكن هؤلاء العلماء المسيحيون موقنين يقينا كاملا بكونه ﷺ أمِّيًّا ومؤيَّدا من الله تعالى، لما أمكنهم أن يهجروا -بناء على الشكوك والشبهات- دينا تقوم على نصرته وحمايته سلطنة عظيمة (سلطنة قيصر الروم) وما انتشر في آسيا فقط، بل في بعض مناطق أوروبا أيضا، وكان مفضَّلا جدا لدى عبَدَة الدنيا بناء على تعاليمه الشركية، ويختاروا دينا كان المشركون كلهم يستاؤون منه بسبب تعليمه المبني على التوحيد، وكان المؤمنون به معرّضين للهلاك والبلاء من كل حدب وصوب. فالأمر الذي وجّه قلوبهم إلى الإسلام

هو أنهم وجدوا النبي أمِّيًّا محضا ومؤيَّدا من الله ﷻ بكل معنى الكلمة، ووجدوا القرآن الكريم يفوق قدرات البشر. وكانوا بأنفسهم يقرأون في الكتب السابقة بشارات عن بعثة هذا النبي الأخير، فشرح الله تعالى صدورهم للإيمان، فصاروا مؤمنين لدرجة أنهم أهرقوا دماءهم في سبيل الله. والذين كانوا جهلاء وأشرارا وخبيثي الطوية من الدرجة القصوى من بين هؤلاء العرب واليهود والنصارى يتبين من النظر إلى أحوالهم أيضا بأنهم كانوا يعدّون النبي ﷺ أمِّيًّا بيقين كامل. لذلك حين كانوا يسألونه ﷺ عن بعض قصص التوراة امتحانا لنبوته ويجدون إجابات صائبة تماما، ما كان في وسِعهم أن يقولوا بأنه ﷺ متعلِّم ويُجيب علينا بعد قراءته الكتب. بل كانوا يقولون على استحياء ونادمين -كمن لا يسعفه جوابٌ فيقدم أعذارا واهية- لعلّ عالما مسيحيا أو يهوديا قد أطلعه على قصص الكتاب المقدس خِفية.

فمعلوم أنه لو لم يكن اليقين الكامل بأمِّيَّة النبي ﷺ متمكّنا من قلوبهم، لبذلوا قصارى جهدهم ليُثبتوا أنه ﷺ ليس أمِّيًّا، بل درس في كُتّاب أو مدرسة كذا وكذا، ولم تكن بهم حاجة ليتفوّهوا بكلام هراء يفضح حمقهم، لأن الاتهام أن بعض علماء اليهود والنصارى يصادقون النبي ﷺ ويعاونونه في الخفاء كان بديهي البطلان، لأن القرآن الكريم يعُدّ في آيات عديدة وحي أهل الكتاب ناقصا، وكتبهم محرَّفة ومبدَّلة، ومعتقداتهم فاسدة وباطلة، ويعدّهم ملعونين ومن أهل جهنم لو ماتوا بغير الإيمان، وينقض مبادئهم الزائفة بأدلة قوية. فكيف كان ممكنا لهؤلاء القوم، والحالة هذه، أن يهيئوا للقرآن الكريم بأنفسهم فرصة ليشجب دينهم، ويردّ على كتبهم، وبذلك يتسببوا في استئصال دينهم بأيديهم؟ والحق أن عبدة الدنيا هؤلاء اضطروا ليهذوا بمثل هذا الكلام الهراء لأنهم لم يجدوا مجالا لاختيار سبيل معقول، ولأن شمس الصدق كانت تنشر أشعتها النورانية بقوة هائلة في كل حدب وصوب، فكانوا يختفون هنا وهناك كالخفافيش، ولم يثبتوا قط على قول واحد، بل تركَهُم التعنت والعناد الشديد

كالمجانين والمخبولين: فأولا، لـمّا سمعوا قصص القرآن الكريم التي تضمنت ذكر أنبياء بني إسرائيل، توهّموا أن أحدا من أهل الكتاب يعلِّمه هذه القصص سرًّا، كما أورد القرآن الكريم قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٤). ثم حين رأوا أن القرآن الكريم لا يشمل القصص فقط، بل فيه حقائق عظيمة، أبدَوا رأيا آخر فقالوا: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٥).. أيْ أن تأليف القرآن الكريم ليس فعل شخص واحد، بل قامت به جماعة كبيرة مجتمعين. وحين رُدَّ عليهم في القرآن الكريم بأنه إذا كان القرآن من صُنع جماعة من العلماء والأدباء والشعراء فلهم أيضا أن يأتوا بنظيره مستعينين بجماعة مثلها حتى يثبت صدقهم. ولكنهم لزموا الصمت والوجوم وتخلوا عن هذا الرأي أيضا وأبدوا رأيا ثالثا وهو أنه قد أُلِّف بمساعدة الجن وليس ذلك من فعل البشر. ولقد ردّ الله تعالى على ذلك ردًّا مفحما حتى عجزوا عن أن ينبسوا تجاهه ببنت شفة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (التكوير: ٢٥-٢٧)، وقوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٩).. أيْ أن القرآن الكريم يشمل كل نوع من أمور الغيب، وبيان هذا القدر من الغيب ليس بوسع الجنّ... ثم حين تبين لهؤلاء الأشقياء كذب أفكارهم، وأنهم لن يتمكنوا من الإتيان بنظيره، فقد عقدوا العزم بكمال الوقاحة في نهاية المطاف كاللئام على أن يحولوا دون انتشار هذا التعليم بأي حال. ويذكر القرآن الكريم ذلك في الآيات التالية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٧)، ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٣)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ

نَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٢-٥٣). ألم تر إلى النصارى واليهود الذين قرأوا الإنجيل بصورة ناقصة، وهم يؤمنون بالآلهة الزائفة والأوثان ويقولون للمشركين بأن دينهم أي الوثنية دين أفضل، أما دين التوحيد الذي يدينه المسلمون فلا حقيقة له.

فملخص الكلام أنه لو لم يكن النبي ﷺ أُمِّيًا فكيف كان لمعارضي الإسلام أن يسكتوا على ذلك لو وجدوا الأمر خلافا للواقع، وخاصة اليهود والنصارى؛ الذين كانوا يكنّون للمسلمين البغض والحسد أيضا -إضافة إلى الخلاف في المعتقدات- لعدم مجيء الرسول من بني إسرائيل ومجيئه من إخوتهم بني إسماعيل؟ فمما لا شك فيه أنه كان ثابتا لهم وبكل جلاء؛ أن ما يقوله النبي ﷺ ليس بوسع أُمّيٍّ وغير دارس، وكذلك ليس عمل عشرة أشخاص أو عشرين، لذلك قالوا لجهلهم: ﴿أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾. أما العاقلون منهم وأصحاب العلم في الحقيقة فقد علموا جيدا أن القرآن الكريم يفوق قوى البشر. وقد فُتح عليهم باب اليقين لدرجة قال الله تعالى في حقهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٧). أي يعرفون هذا النبي ... والحق أن باب اليقين والمعرفة هذا لم يُفتح عليهم وحدهم، بل هو مفتوح للجميع في هذا العصر أيضا، لأن معجزات القرآن ما زالت هِيَ هِيَ، وتأثيراته لا تزال هِيَ هِيَ، والتأييدات الغيبية هِيَ هِيَ، والآيات التي لا ريب فيها موجودة اليوم أيضا لمعرفة صدق القرآن الكريم كما كانت في ذلك العصر. ولما كان الله تعالى يريد إبقاء هذا الدين القويم، فقد أبقى كافة بركاته وآياته على حالها. كان استئصال أديان النصارى واليهود والهندوس المحرَّفة والناقصة والباطلة مقدَّرا؛ فلذلك لم تبق في أيديهم إلا القصص وحدها، ولم يعد فيها لبركة الصدق والتأييدات السماوية أيّ أثر. إن كتبهم تخبر بآيات ليس في أيديهم أدنى قدرة على إثباتها، بل يشيرون إلى قصص سابقة. أما القرآن الكريم فيقدم آيات يستطيع أن يشهدها كل شخص.

التمهيد الثامن: إن الخوارق التي تصدر على يد وليّ من الأولياء هي في الحقيقة معجزة ذلك النبي المتبوع الذي يكون الوليّ من أمته. وهذا واضح وبديهي؛ لأنه إذا كان ظهور أمر ما مرتبطا باتّباع شخص أو كتاب معين ولا يمكن ظهوره بدون الاتّباع بأيّ حال، فيثبت بالبداهة أن مُظهره الحقيقي هو النبي المتبوع الذي كان ظهور الأمر مشروطا باتّباعه، وإنْ ظهر على يد التابع ظاهريا. والسر في ظهور معجزة نبيٍ بواسطة شخص آخر هو أنه عندما يأتمر أحد بأمرٍ أمرَ به مشرّعه، ويجتنب أمرا منع عنه مشرّعه ويلتزم بكتاب جاء به مشرّعه، ففي هذه الحالة يُفني نفسه نهائيا ويدخل في ذمة مشرّعه. فإذا كان المشرّع هاديا كاملا إلى الصراط المستقيم مثل الطبيب الحاذق، وجاء بكتاب مبارك يضم في طياته علاجا ناجعا للأسقام الروحانية للشخص التابع، وفيه أسبابٌ كافية لتكميله العلمي والعملي، ويقبل التابع تعاليمه بصدق القلب دون إعراض ظاهري أو معنوي؛ فكل ما يترتب من الأنوار والعلامات بعد الاتّباع الكامل هو في الحقيقة فيوض النبي المتبوع. إذن، فمن هذا المنطلق لو صدر أمر خارق للعادة من وليٍّ لكان معجزةً لذلك النبي المتبوع.

وبعد هذه التمهيدات أسجّل الآن أدلة على صدق القرآن الكريم، ونسأل الله ﷻ التوفيق والنصرة، هو نعم المولى ونعم النصير.



الباب الأول

في بيان البراهين التي هي شهادات خارجية على صدق القرآن الكريم وأفضليته

البرهان الأول: قال الله تعالى: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (النحل: ٦٤-٦٦)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٨-٥٩)، ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٤٩-٥١)، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٨)، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (الروم: ٤٢-٤٣)، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ

زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ (السجدة: ٢٨)، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء: ١٣)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر: ٢-٦)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾ (المزمل: ١٦)، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: ١٠٦)، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ٢٠)، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ﴿وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص: ٤٨)، ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٢-٢٥٣)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٨)، ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (يس: ٧)، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا﴾ (الفرقان: ٤٥)، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ (فاطر: ٤٦)، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ٤٩-٥٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢-٥٣)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٣)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٥)، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ

الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٦-٤٨)، ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد: ١٨).

أيْ أقسم بألوهيتي التي هي مبدأ فيض الهداية والتربية، والجامعة لجميع الصفات الكاملة بأني أرسلتُ الرسل في كثير من الفِرق والأمم قبلك، ففسدوا بإغواء الشيطان وبدا لهم سوء أعمالهم حسنات. فالشيطان رفيقهم الذي يضلّهم عن جادة الاستقامة... لقد أنزلنا هذا الكتاب لرفع الاختلاف من بين هؤلاء الناس، ولكي يُبيَّن للمؤمنين فيه بصورة كاملة التعاليم التي كانت ناقصة في الكتب السابقة لكي يكون رحمة كاملة؟ الحقيقة أن الأرض كلها كانت قد ماتت، فأنزل الله الماء من السماء أحيا الأرض الميتة من جديد. هذه آية صدق هذا الكتاب ولكن للذين يسمعون أي يبحثون عن الحق. ثم قال: إن الله تعالى كريم ورحيم وله قانون في الطبيعة أنه يسوق الرياح بين يدي رحمته أي قبل المطر.... نسوق الرياح إلى منطقة جفّت فيها الأرض كالميت بسبب إمساك المطر، ثم ننـــزِّل بها الماء ونخلق الثمرات من أنواع مختلفة، كذلك نخرج الموتى الروحانيين من هوّة الموت. وقد ضربنا هذا المثل لتتذكروا وتفقهوا أننا كما نحيي الأرض الميتة عند شدة إمساك المطر، كذلك مبدأنا هو أنه كلما انتشر الضلال بشدة وماتت القلوب التي تشبه الأرض، نفخنا فيها روح الحياة. والأرض الطيبة يخرج نباتها كما يجب بإذن الله. أما ما كان خرابا من الأرض فلا يخرج منها النبات إلا قليلا ولا يخرج نبات جيد. ثم قال: إن الله كريم ورحيم فيرسل الرياح التي تثير السحاب ثم ينشر الله السحابَ في السماء كما يشاء ويجعله طبقات بعضها فوق بعض ويصيب منه ماء المطر لمن يشاء من عباده إذا هم يفرحون فيبدل الله حزنهم فرحةً، ﴿...مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾: أي عندما يكونون قد فقدوا الأمل -بسبب الشدة المتناهية- قبل نزول المطر يأخذ

الله تعالى بيدهم وينـــزل عليهم الغيث ويحيي الأرض الميتة؛ أي ينـــزل عليهم الغيث حين يكونون قد فقدوا الأمل كليا في نزوله... ثم يقول تعالى إن من سنته أن الناس حين يموتون روحانيا وتصل الشدة غايتها فيحييهم الله كذلك... وقوله تعالى ﴿... فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: أي كل إنسان يستفيد من هذا الماء بقدر موهبته ومؤهلاته... وقوله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ .. أي جاء ذلك الرسول حين ساد الأرض كلَّها ظلام وضلال، وفسد الناس جميعا بمن فيهم الأميُّون وأهل الكتاب وأهل العلم، ولم يعد أحد منهم قائما على الحق. ولقد ساد هذا الفساد كله لأن الإخلاص والصدق قد تلاشى من قلوب الناس، ولم تعد أعمالهم لوجه الله بل وقع فيها خلل كبير، فتوجهوا إلى الدنيا ولم يعودوا متجهين إلى الحق فانقطعت عنهم نصرة الله، فأرسل الله رسوله ليتم حجته عليهم وليذيقهم وبال بعض أعمالهم لعلهم يرجعون... فانظروا كيف كانت عاقبة الذين خلوا من الكافرين والمتمردين. وقوله تعالى ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾.. ويجتنبوا الموت. أي لماذا لا تتفكرون لتدركوا أن الإله الكريم والرحيم الذي ينـــزِّل الغيث لإنقاذكم من الموت المادي عند شدة المجاعة وإمساك المطر، كيف يمكن أن يمسك عنكم إنزال ماء الحياة -الذي هو كلامه- عند شدة الضلال الذي هو القحط الروحاني؟ ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾: أيْ انتشار الضلال الذي يشبه الليل، وانتشار الهداية الذي يشبه النهار. إن بلوغ الليل أوجَه يدل على طلوع النهار، وعندما يبلغ النهار كماله يدل على قرب الليل. ثم قال: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: أيْ حين يطلع النهار يُعلم أن الظلام كان سائدا من قبل. فإن آية النهار مبصرة ومضيئة تنكشف بها حقيقة الليل أيضا. وقد جُعلت آية الليل أي زمن الضلال لكي تتبين بها ميزات وجمال آية النهار أي زمن انتشار الهداية، لأن قدر الجميل وروعته تتبين برؤية الدميم. لذا فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يحل بالدنيا الظلام والنور بالتناوب. ليبدأ الظلام بعد وصول النور كماله، وليُظِهر

النورُ وجهَه الجميل حين يبلغ الظلام منتهاه. لذا فإن طغيان الظلام دليل على ظهور النور، وإذا عمَّ النور فذلك دليل على قدوم الظلام.

كما أن هناك مثل معروف ومعناه: لكل كمال زوالٌ. فلقد أشير في هذه الآية إلى أنه حين بلغ الظلام ذروة كماله ومُلئ به البر والبحر، جعلنا آية النور مبصرة بحسب قانوننا القديم لكي يلاحظ العقلاء قدرة الله البارزة ويزدادوا يقينا ومعرفة. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. معنى هذه السورة الحقيقي - الذي يشمل حقيقة عظيمة كما كتبتُ من قبل- هو بيان قانون عام عن الزمن الذي يُرسل فيه كتاب أو رسول إلى الدنيا.

فذلك القانون هو أنه حين يسود القلوبَ ظلامٌ غليظ وتتَّجه القلوب كلها إلى الدنيا دفعة واحدة، ويتطرق الخلل والفساد إلى جميع معتقداتهم وأعمالهم وأفعالهم وأخلاقهم وآدابهم ونيّاتهم وهممهم وبالا على توجُّههم إلى الدنيا، ويتلاشى حب الله من القلوب نهائيا ويتفشى هذا الوباء بوجه عام حتى يعمّ الظلام الدهرَ كله كالليلة الليلاء؛ ففي هذا الوقت، أي حين يبلغ الظلام أوجه، تتوجه الرحمة الإلهية إلى تخليص الناس منه، فيبين ﷻ في كلامه الأساليب التي تقتضيها الحكمة لإصلاحهم. فهذا ما أشار إليه الله تعالى في الآية المذكورة آنفا حين قال بأننا أنزلنا القرآن الكريم في ليلة كان من الضروري فيها بيان كيفية الصراط المستقيم وبيان حدود الشريعة وذلك لإصلاح العباد وخيرهم. أيْ حين كانت ظلمة الضلال قد بلغت ذروتها مثل الليلة الحالكة الظلام تماما، توجّهت رحمة الله -بُغية إزالة ذلك الظلام الحالك- إلى إنزال نور باهر يقدر على إزالته. فقد أعطى اللهُ تعالى عبادَه نورا عظيما بإنزاله القرآن الكريم الذي يزيل ظلمة الشكوك والشبهات وينشر النور.

وليكن معلوما في هذا المقام أن ليلة القدر الباطنية لا تتنافى بشيء مع ليلة القدر الظاهرية المعروفة عند العوام بل جرت سنة الله على أنه يفعل كل شيء بحكمة ويُضفي على الحقيقة الباطنية صورةً ظاهريةً تناسبه تماما. فلأن الحقيقة

الباطنية لليلة القدر هي مرحلة كمال الضلال حين تتوجه أفضال الله تعالى لإصلاح العالم، لذا جعل ﷻ -لإحقاق الانسجام- المرحلة الأخيرة من هذا الزمن المليء بالضلال البالغ منتهاه ليلةً بصورة خارجية؛ فكانت هذه الليلة حين وجد الله تعالى الدنيا في ضلال كامل فأراد إنزال كلامه المقدس على نبيه. فمن هذه الناحية نشأت في هذه الليلة بركات عظيمة، أو قولوا إن شئتم بأنها قد خُلقت منذ القِدم بحسب هذه المشيئة القديمة، ثم بقي ذلك القبول وتلك البركة في تلك الليلة المقدّرة إلى الأبد.

ثم قال تعالى بأنه في تلك الفترة من الظلام التي كانت تشبه الليلة الليلاء التي نزل نور الكلام الإلهي لتنويرها، جُعلت ليلة واحدة فيها خيرٌ من ألف شهر بسبب نزول القرآن. ولو تدبّرنا من منطلق العقل أيضا لتبين أن زمن الضلال أقرب من أيِّ زمن آخر قربا وثوابا من حيث العبادة والطاعة، فهو أفضل من الأزمنة الأخرى، وإن العبادات فيه أقرب إلى القبول بسبب المشقة والصعوبة فيها، وإن العابدين فيه أحق برحمة الله؛ لأن مرتبة العابدين والمؤمنين الصادقين تتحقق عند الله في مثل هذا الوقت حين يستولي حبُ الدنيا على العالم كلّه وتكون الحياة مهددة بالخطر نتيجة الالتزام بالصدق. ومن الواضح تماما أنه حين تكتئب القلوب وتموت، تبدو جيفة الدنيا هي المحببة لدى الجميع، وتهبّ الريح السامّة للموت الروحاني من كل حدب وصوب، ويتلاشى حب الله من القلوب نهائيا، وتُحدِق بالمرء أخطارٌ من أنواع عدة لدى توجهه إلى الله وكونه عبدا وفِيًّا له ﷻ، ولا يوجد في هذا السبيل صديق ولا رفيق في الطريق، بل تتراءى لمن يتمنى السلوك على هذا الطريق مصائب تؤدي به إلى الموت ويعدُّ ذليلا مهانا في أعين الناس، فإن الصمود في ظل هذه الظروف والتوجّهُ إلى الحبيب الحقيقي وترك صحبة الأقارب والأصدقاء والمعارف غير المستقيمين، وقبول الفقر والمسكنة ومصائب العزلة وعدم المبالاة بالإيذاء والذلة والموت؛ إنما هو عمل لا يسع أحدا إنجازه إلا أولو العزم من المرسَلين والأنبياء والصديقين

الذين تهطل عليهم أمطار أفضال الله تعالى، والذين يُجذَبون إلى حبيبهم الحقيقي دون أن يكون لهم في ذلك خيار. والحق أن الصمود والصبر وعبادة الله ﷻ في مثل هذا الوقت تجلب لصاحبها من الأجر والثواب ما لا يُنال في أيّ وقت آخر قط.

فمن هذا المنطلق وبسبب شدة الضلال، وُضع أساس ليلة القدر في زمن كان الثبوت فيه على الحسنة عمل بطل عظيم. ففي هذا الوقت ينكشف قدر الأبطال وعظمتهم، وتبلغ ذلة الجبناء مبلغ الثبوت. فهذا هو الزمن المظلم -بل الحالك الظلام- الذي يظهر بكل صورة مهيبة كالليلة الليلاء. وفي هذا الزمن الثائر كأنه وقت الابتلاء الكبير؛ لا يُنقَذ من الهلاك إلا الذين تظللهم أفضال الله تعالى بوجه خاص. فبناء على هذه الأسباب جعل الله تعالى ليلة القدر كجزء من هذا الزمن الذي بلغ فيه الضلال غايته، ثم بيّن كيفية البركات السماوية التي يُتدارك بها ذلك الضلال، وقال: إن من سنّة أرحم الراحمين هي أنه عندما يبلغ الضلال أوج كماله ويصل خط الظلام إلى منتهاه المسمى ليلة القدر باطنيا، يتوجه الله تعالى إلى العالَم المظلم في تلك الليلة التي ظلمتها تشبه ظلمة باطنيةً، وتتنــزل الملائكة وروح القدس على الأرض بإذنه ﷻ الخاص، ويُبعث نبي الله تعالى لإصلاح الخلق. فينال ذلك النبي نورا سماويا ويُخرج خلق الله من الظلمة ويظل ذلك النور يزداد ما لم يبلغ كماله. وبحسب هذا القانون نفسه يُخلَق الأولياء أيضًا الذين يُبعثون للإرشاد وهداية الخلق لأنهم ورثة الأنبياء، ويوفَّقون للتأسي بأسوتهم.

يجب أن يكون معلوما الآن أن الله تعالى قد بيّن في القرآن الكريم بكلمات قوية جدا أن المدّ والجزر حاصل في حالة الدنيا منذ القِدم. وهذا ما أشار ﷻ إليه في الآية الكريمة: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [٤٧] .. أيْ أنه ﷻ يخلق الهدايةَ عند غلبة الضلال، والضلالَ عند غلبة الهداية. وحقيقة هذا

[٤٧] *آل عمران: ٢٨*

المد والجزر هي أنه تتولد في قلوب الناس بأمر من الله تعالى حالة من الانقباض والعُنجهية أحيانا؛ فيحبون زينة الدنيا وتعكف جُلُّ هممهم على تسوية أمور دنياهم والحصول على ملذاتها ورفاهيتها. تلك هي فترة الظلام، وليلتها البالغة منتهاها تسمّى ليلة القدر. وليلة القدر هذه تحلّ دائما، ولكنها حلّت بوجه أكمل حين حان أوان بعثة النبي ﷺ لأن الضلال الذي كان سائدا حينها وبصورة كاملة، لم ولن ينتشر مثله إلى يوم القيامة.

فباختصار، حين تبلغ هذه الظلمة نقطتها النهائية المقدرة لها؛ تتوجه الرحمة الإلهية إلى تنوير العالم، ويُرسَل أحد من أصحاب النور لإصلاح الدنيا. وحين يأتي تنجذب إليه الأرواح النَشِطة وكذلك تتوجه الطبائع الطيبة إلى الحق تلقائيا. كما من المستحيل تماما ألا تتجه الفراشة إلى السراج المضيء، كذلك لا يمكن قط ألا يتجه أصحاب الفطرة السليمة بحسن الاعتقاد إلى صاحب النور عند ظهوره.

إن أساس الادّعاء الذي بينه الله تعالى في هذه الآيات يتلخّص في أن حالة الزمن كانت قد آلت عند بعثة النبي ﷺ إلى وضْع مظلم اقتضى طلوع شمس الصدق. فمن هذا المنطلق بيّن الله تعالى في القرآن الكريم مهمة رسوله مرارا؛ وهي أنه وجد العصر في ظلمة حالكة، فأراد أن يُخرج أهله منها، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ٢)، وقال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الأحزاب: ٤٤)، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦-١٧)، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الطّلاق: ١١-١٢).

ففي الآية ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ سمّى الله ذلك العصر عصرا مظلما... فقد بيّن الله تعالى في هذه الآيات بكل وضوح أن الزمن الذي بعث فيه النبي ﷺ وأنزل القرآن الكريم كانت فيه حُلْكة الضلال سائدة في الدنيا، و لم يسلم قوم من تلك الحلكة.

والآن أعود إلى بيان معاني بقية الآيات المذكورة سابقا بإيجاز حيث يقول الله تعالى: لقد أرسلنا إليكم رسولا شاهدا على حالة معصيتكم وضلالكم. وهذا الرسول يماثل رسولا أُرسل إلى فرعون، وقد أنزلنا هذا الكلام بضرورة حقة وقد نزل بضرورة حقة. أي أن هذا الكلام حق وصدق في حد ذاته، وإن نزوله أيضا حقٌّ وضرورة. و لم ينـــزل عبثا وبلا فائدة وفي وقت غير مناسب. يا أهل الكتاب لقد جاءكم رسولنا بعد أن انقطع مجيء الأنبياء منذ فترة. فجاءكم في زمن انقطاع الأنبياء ليرشدكم إلى الصراط المستقيم الذي نسيتموه حتى لا تقولوا بأنكم بقيتم في الضلال هكذا و لم يأتكم بشير ونذير ليحذركم. فها قد جاءكم بشير ونذير اقتضته الضرورة. فقد وجدكم الله القادر على كل شيء ضالين وأرسل كلامه ورسوله، وكنتم على شفا حفرة من النار فنجّاكم أيها المؤمنون... ولكي لا يقول الضالون عند نزول العذاب لماذا لم ترسل رسولك يا ربنا لنتبع آياتك ونكون من المؤمنين. ولولا تدراك الله الضالين بالصالحين ولولا دفع بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين.. أي أنه من فضل الله تعالى أنْ يرسل الهداة من عنده عند انتشار الضلال؛ لأن الفضل والمنة من سنّته. ولقد أرسلناك لنمنّ على العالم كله ونفتح لهم طريق النجاة ولتوجّه الغافلين إلى الحق ولتُنذرهم... ليعلم الناس أن هذا هو الهدف وراء إرسال الأنبياء. ولو شئنا لبعثنا في كل قرية رسلا منفصلين ولكن فعلنا ذلك لكي تظهر منك مساعٍ عظيمة.. أيْ عندما يقوم شخص واحد بإنجاز

مهمة آلاف الأشخاص سينال أجرا عظيما دون شك، وسيكون ذلك مدعاة لأفضليته. فلأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء والرسل وأعظمهم؛ فكان بمشيئة الله أن يتبين للعالم كله كونه ﷺ أعلى الأنبياء والرسل وأسماهم من حيث الخدمات الظاهرية أيضا كما أنه أفضل الأنبياء والرسل وأعلاهم وأعظمهم جميعا في الحقيقة من حيث ميزاته الذاتية. لذا فقد جعل الله تعالى رسالة النبي ﷺ عامة لكافة بني آدم لكي تظهر جهوده ومساعيه للعيان بوجه عام، ولا تكون خاصة بقوم معين كرسالة موسى وابن مريم، وذلك كي يستحق ﷺ -نتيجة تحمله المعاناة الشاقة من كل فئة وقوم- أجرا عظيما لن يناله أنبياء آخرون... وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي أن تناوب الليل والنهار دليل على أنه كما تأتي مرحلة الضلال والغفلة بعد مرحلة الهداية، كذلك مقدّر من الله تعالى أن تأتي مرحلة الهداية بعد الضلال والغفلة... ثم قال: لقد خلق الله القادر على كل شيء البشر بقدرته الكاملة وجعل له نسبا وصهرا كذلك كان الله قادرا على خلق الإنسان الروحاني أيضا.. أي أن قانونه الطبيعي في الخلق الروحاني كمثل القانون في الخلق المادي تماما؛ بمعنى أنه تعالى أولاً؛ يخلق بيده شخصا خلقا روحانيا في وقت الضلال الذي هو في حكم العدم، ثم يهب أتباعه الذين هم في حكم ذريته حياة روحانية ببركة اتّباعهم إياه. فالمرسَلون كلهم أوادم روحانيون، والصالحون من أممهم ذرياتهم الروحانيون. والسلسلة الروحانية والسلسلة المادية تتطابقان تماما، ولا خلاف بين القوانين الظاهرية والباطنية من أي نوع قط. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي ترى الظلام سائدا في الأرض في كل حدب وصوب. ولو شاء الله لجعل الظلام مستديما دون أن يسطع النور أبدا، ولكننا نُطلع الشمسَ لكي تكون دليلا على أن الظلام كان سائدا قبلها. أيْ حتى يُعرف الظلام بواسطة النور؛ لأنه بضدها تتبين الأشياء. وإنّ قدر النور إنما يتبين للذي يعرف وجود الظلام. ثم قال: نزيل الظلام بواسطة النور شيئا فشيئا لكي يستفيد الجالسون في الظلام من النور

رويدا رويدا ولكيلا تنشأ الحيرة والوحشة التي يُتوقع حدوثها عند الانتقال من حالة إلى أخرى دفعة واحدة. كذلك عندما تسود الدنيا ظلمةٌ روحانية فإن شمس الصدق تظهر من عند الله تعالى لإفادة الخلق بالنور ولإظهار الفرق بين النور والظلمة، ثم تطلع على الدنيا كلها رويدا رويدا. وقال ﷿: إن قانون الله في الطبيعة هو أنه حينما تموت الأرض يحييها الله تعالى من جديد، وقد بيّنّا الآيات للناس لعلهم يتفكرون ويفقهون.

لقد قدم الله تعالى في هذه الآيات دليلا على ضرورة نزول القرآن الكريم وكونه من عنده ﷻ وهو أنه قد نزل في زمن كانت الأمم كلها قد تركت المبادئ الحقة، ولم يكن على وجه الأرض دين قائم وثابت على معرفة الله ﷿ والمعتقدات النـــزيهة والأعمال الصالحة، بل كانت الأديان كلها قد فسدت، وكانت أنواع الفساد قد تطرّقت إلى كل دين. ومُلئت طبائع الناس بحب الدنيا والعكوف عليها، ولم يبق لهم هدف إلا شهرة الدنيا ورفاهيتها وعزها وراحتها ومالها ومتاعها. وكانوا غافلين ومحرومين تماما من حب الله والشوق إليه، واتُخِذت العادات والتقاليد دينا. فلم يُرِدِ الله تعالى أن يظَلَّ خلقُه في مواجهة بلاءٍ نتيجتُه النهائية الهلاك الدائم والأبدي، وهو سبحانه الذي مِن سنّته اهتمامُه بعباده الضعفاء عند الشدائد والمصاعب وكشفُه الغُمَّة عنهم بإنزال الغيث حين يكونون على وشك الهلاك بسبب شدّةٍ ما؛ مِثلَ إمساك المطر. لذا فقد أنزل القرآن الكريم لإصلاح الخلق عملا بقانونه القديم الجاري منذ البداية روحانيا وماديا. وكان ضروريا أن ينـــزل القرآن الكريم في مثل هذا الوقت؛ لأن حالة الزمن المليء بالظلام الراهنة كانت تقتضي مثل هذا الكتاب العظيم وهذا الرسول العظيم. وكانت الضرورة الحقة تقتضي أن تطلع شمس الصدق والحق في وقت الظلام الذي عمّ العالم كله وبلغ منتهاه، لأنه ما كان ممكنا أن تتحول تلك الليلة الليلاء إلى النهار المنير من تلقاء نفسها دون طلوع تلك الشمس. وإلى هذا الأمر أشار الله تعالى في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ *(البينة: ٢-٤)*.. أي ما كان من الممكن أن يعود الكفار من أهل الكتاب والمشركون إلى الصراط المستقيم دون أن يُرسَل إليهم نبيّ عظيم جاء بكتاب عظيم يحيط بمعارف جميع الكتب الإلــهية وحقائقها، ومنــزَّهٌ من كل خطأ ونقصان.

والآن، إن إثبات هذا الدليل يتوقف على إثبات مقدّمتين: أولاهما أن قانون الله القديم هو أنه ينصر عند الحاجة المادية والروحانية؛ أي يأخذ بيد العباد الضعفاء بإنزال المطر وغيره عند المصائب المادية، وبإنزال كلامه الشافي عند المصائب الروحانية.

فإن هذه المقدمة بديهية الثبوت إذ لا ينكر عاقل أن هاتين السلسلتين، الروحانية والمادية، ساريتا المفعول إلى الآن بأمن وسلام، لأن الله تعالى يحميهما من التدمير والإبادة؛ فمثلا لولا حماية الله ﷻ السلسلةَ المادية ولولا نصرته بالغيث المغيث عند المجاعات الشديدة، لكانت النتيجة النهائية أن يستهلك الناس ما حصدوه من قبل من المزروعات، ثم يموتوا متقلبين لعدم وجود الغلال، ولقُضي عليهم نهائيا. كذلك لولا أن سخّر الله تعالى للإنسان الليل والنهار والشمس والقمر والرياح والسحاب للخدمات المعينة وفي الوقت المناسب، لانقلب نظام العالم رأسا على عقب. فقد أشار الله تعالى نفسُه إلى هذا في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ*...*وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الشورى:٢٥ و٢٩).. أيْ هل يقول المنكرون إن هذا افتراء على الله لا كلامه؟ فلو شاء الله لقطع نزولَه، ولكنه لا يفعل ذلك؛ لأنه قد جرت عادته أنه يحقّ الحق ويُبطل الباطل بكلماته. وهذا ما يليق به وحده لأنه هو العليم بالأمراض الروحانية، وهو وحده قادر على إزالة المرض وإعادة الصحة. ثم قال ﷻ استدلالا على ذلك بأن الله كامل

الرحمة، وقانونه القديم في الطبيعة هو أنه ينـــزل الغيث حتما في حالة الضيق حين ييأس الناس وينشر رحمته في الأرض ... وهو الولي الحقيقي والجدير بالحمد ظاهرا وباطنا. أي حين تبلغ الشدة منتهاها ولا يُرى للخلاص من سبيل، فقانونه الجاري منذ القِدم في هذه الحالة هو أنه يهتم بالعباد الضعفاء حتما وينقذهم من الهلاك. وكما يرحم عند الشدة المادية، كذلك حين تتجاوز الشدة الروحانية، أي الضلال، حدودها، ولا يبقى الناس على صراط مستقيم؛ فيشرِّف ﷻ أحدا بوحيه ويهبه نورا خاصا من عنده، وبواسطته يزيل ظلمة الضلال الحالكةَ. ولأن الرحمات المادية تكون بادية جليّة في أعين الناس، فقد بيّن الله تعالى في هذه الآية ضرورة نزول القرآن الكريم أولا، ثم أشار إلى القانون المادي بُغية التوضيح لكي يفهم العاقل قانون الله الروحاني بالنظر إلى القانون المادي الذي هو أمر واضح وبديهي.

وليكن معلوما أيضا في هذا المقام أن الذين يؤمنون بنـــزول بعض الكتب من الله تعالى، يضطرون للإقرار بأنفسهم أنها نزلت في أوقات الضرورة الملحة. فبإقرارهم هذا يضطرون للإقرار الثاني ضمنيا بأن إنزال الكتب في وقت الضرورة هو من سنّة الله تعالى. أما الذين ينكرون ضرورة الكتب الإلهية -مثل أتباع برهمو سماج- فمع أنني كتبت بالتفصيل إفحاما لهم، ولكن لو ملكوا شيئا من العدل لكفاهم دليل واحد بيّنه الله تعالى في الآيات المذكورة آنفا، لأنه ما دام هؤلاء القوم يقرّون أن الله تعالى بنفسه يدير نظام الحياة المادية كله، وهو الذي يخلّص العالم من الظلمة والهلاك بواسطة نوره السماوي وماء الغيث؛ فأين المفر لهم من أن وسائل الحياة الباطنية أيضا تنـــزل من السماء؟ فمن ضحالة التدبر وقلة المعرفة أن يُسلّم المرء بأن الاهتمام بالحياة المؤقتة إنما هو بقدرة الله الخاصة، أما الحياة الحقيقية والأبدية، أي معرفة الله تعالى والنور الباطني، فيكون نتيجة عقولهم فقط. أيمكن أن يُعدَّ الله ﷻ ضعيفا وعاجزا عن إظهار قدرته من حيث الروحانية، وهو الذي أظهر قدرات ألوهيته العظيمةَ لبقاءِ السلسلة المادية،

وأرى قدرات عظيمة بغير واسطة أيدي البشر؟ أو هل يمكن أن يبقى ﷻ كاملا نتيجة هذه الفكرة، أو هل يمكن أن يتيسّر دليل على قدراته الروحانية؟ إن الاطمئنان الحقيقي الذي يجب أن يكون مبنيا على اليقين المحكم لا يتأتّى نتيجة الأفكار القياسية فقط. بل إن أقصى ما يمكن أن تبلغ إليه الأفكار القياسية من التقدم هو مبلغ الظن الغالب، وذلك إن لم يَـــمِل القياس أيضا إلى الإنكار.

فباختصار، إن الأوجه العقلية غير جديرة بالاطمئنان نهائيا وبعيدة عن حد العرفان كل البُعد. وحدُّها الأقصى هو التخمينات الظاهرية التي لا تنال بها الروحُ الانشراحَ والعرفان الحقيقي، ولا تتسنى لها الطهارة من الشوائب الداخلية، بل يصبح المرء أسيرا للأفكار السفلية ويجعل علومه وبراعته أداة للمكر والزيف مثل أبي زيد المذكور في مقامات الحريري، وتكون طلاقة لسانه وحسن بيانه كلها أداة للتزييف والتزوير. هل لعقل الإنسان الضعيف وحده أن يُخرِجه من محبس يواجهه نتيجة أهواء النفس والجهل والغفلة؟ هل تملك أفكار الإنسان قدرة على التساوي بعلم الله تعالى وقدرته؟ إن أنوار الله المقدسة التي تؤثر في الروح وتنجِّي من الشكوك العميقة، فهل يملكها غير الله ﷻ أيضا؟ كلا، ثم كلا. بل إنما ينخدع به أولئك الذين لم يفكِّروا يوما على أية درجة من المعرفة تتوقف نجاتهم الحقيقية، وإلى أيّ مدى يمكن أن تؤثر قدرة الله تعالى في روحهم، وإلى أية درجة من القرب والمعرفة يمكن أن يصلوا نتيجة أفضال الله تعالى التي لا نهاية لها، وإلى أيّ مدى يمكن أن يزيل ﷻ الحُجُبَ من أمامهم. إن معرفتهم تنتهي على أوهام وشبهات بالية. أما المعرفة اليقينية والقطعية والضرورية بشدة لنجاة الإنسان فهي مستحيلة عند عقليتهم الغريبة. ولكن يجب أن يكون معلوما أنهم مرتكبون خطأ كبيرا باقتناعهم بالأفكار العقلية. ففي سبيل المعرفة الحقة هناك أسرار لا تعدّ ولا تحصى لا يمكن لعقل الإنسان الضعيفِ والضبابي أن يكتشفها. ولا يمكن لقوة القياس أن تصل، بسبب ضعفها، بحال من الأحوال إلى الأسرار العليا للألوهية. فلا سُلَّم للارتقاء إلى هذا

العلوّ سوى كلام الله الأعلى. إن الذي يطلب اللهَ بصدق القلب فهو يحتاج إلى هذا السلّم بالذات. وليس بمقدور الإنسان أن يبلغ المنارة العليا لمعرفة الله تعالى قط ما لم يتخذ ذلك السلّم المحكم والعالي وسيلة لترقيه، بل يبقى أسير الأفكار المظلمة التي لا تهب الطمأنينة بل هي بعيدة عن الحقيقة. وتبقى معلوماته كلها أيضا ناقصة وغير مكتملة لفقدان تلك المعرفة الحقة. وكما تكون الإبرة ناقصة وغير مجدية دون الخيط ولا تستطيع أن تخيط شيئا، كذلك تبقى الفلسفة العقلية مضطربة وغير محكمة وبلا ثبات وبلا أساس بغير تأييد كلام الله.

" إنّ قدَمَ أهل الاستدلال من خشب، وما أوهنَ قدمًا من خشب"[٤٨]



[٤٨] *بيت فارسي مترجم. (المترجم)*

نحن وكتابنا

عندما أُلِّف هذا الكتاب بداية كان وضعه مختلفا، ثم أطلعني، أنا أحقر العباد، التجلّي المباغتُ لقدرة الله ﷻ -مثل موسى تماما- على عالَمٍ ما كنت مطّلعا عليه من قبل. أي كنتُ أتجول أنا العبد المتواضع أيضا مثل ابن عمران في ليلة مظلمة لأفكاري، إذ سمعت دفعة واحدة صوتا من الغيب: "**إني أنا ربك**"، وكُشفت الأسرار التي لم تكن في متناول العقل والتصور. فالآن إن وليّ هذا الكتاب وكفيله ظاهرا وباطنا هو الله ربّ العالمين، ولا أدري إلى أيّ مدى وقدرٍ يريد سبحانه وتعالى إيصاله. والحق أن أنوار صدق الإسلام التي كشفها عليّ سبحانه وتعالى إلى الجزء الرابع من الكتاب، تكفي لإتمام الحجة. وآمل من فضل الله تعالى ورحمته أن يظل يؤيدني بتأييداته الغيبية ما لم يُزِل ظلمة الشكوك والشبهات كليا. مع أنني لا أعرف كم يمكن أن تطول حياتي، ولكنني جدّ سعيد على أن الله الحيّ القيوم والمنزَّه عن الفناء والموت قائم على نصرة الإسلام دائما وإلى يوم القيامة. وإن فضله على سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ عظيم بحيث لم يسبق له نظير على نبي من الأنبياء من قبل.

ولا يسعني هنا إلا أن أشكر هؤلاء المؤمنين طيبي القلوب الذين دعموا إلى يومنا هذا طباعة الكتاب، رحمهم الله جميعا، وأنزل عليهم فضله كما بذلوا لنصرة الدين كل ما في وسعهم وبحب صادق. إن بعض الناس حسِبوا هذا الكتاب تجارة، وقد شرح الله صدور بعضهم الآخرين وثبّت الصدق

وحسن الاعتقاد في قلوبهم. ولكن المذكورين أخيرًا هم أولئك الذين سعتهم المالية ما زالت ضئيلة جدا. ولقد جرت سنة الله تعالى مع أنبيائه الأطهار أيضا أن الضعفاء والمساكين هم الذين يتوجهون إليهم في بداية الأمر. وإذا شاء الله فسوف يفتح قلب أحد من ذوي السعة أيضا لإنجاز هذه المهمة. **والله على كل شيء قدير.**



الحاشية رقم ١١ [٤٩]

إن بعضا من قليلي الفهم الذين لم يعتادوا على التفكير العميق يقدمون هنا شبهة أنه مما لا شك فيه أن الأحرف والألفاظ المفردة تكوِّن قاسما مشتركا بين كلام الله وكلام الناس، وبذلك استلزمت شراكة الإنسان مع الله تعالى في الأحرف والألفاظ المفردة.

وجواب ذلك أنه كما ورد في المتن مفصلا أن الله تعالى هو الذي علّم اللغة، فهو الذي علّم الإنسان الأحرف والألفاظ المفردة، ولم يوجِدها الإنسانُ بعقله. إن ما يوجده الإنسان هو تركيب الكلمات فقط؛ أيْ أن كل ما يقدر الإنسان على اختياره وكسْبِه هو أنه يستطيع أن يركّب من عنده عبارة لبيان مفهوم معين فيضع فيها جملة هنا وجملة هناك، أو يستخدم تعبيرا في مكان وتعبيرا آخر في مكان آخر. فهذا كل ما يركِّبه الإنسان أو يؤلِّفه من جمل من عنده. ولكني أقول بأن تركيب الإنسان وتأليفه لا يساوي تركيب الله تعالى وتأليفه قط، ولا يجوز أن يتساوى معه أصلا؛ لأن ذلك يستلزم اشتراك المخلوق مع البارئ تعالى. ونطق الإنسانِ الأحرفَ والمفردات نفسها التي استخدمها الله تعالى في كلامه لا يُعدُّ شراكة، وإنما مَثله كاستخدام الإنسان التراب -الذي خلقه الله ﷻ- وصنعِه منه أواني وأشياء مختلفة. فهذا لا يُثبت أن الإنسان صار شريكا لله تعالى، لأن التراب من خلْق الله ﷻ وليس مما خلقه الإنسان. وإنما تثبت الشراكة إذا استطاع الإنسان أن يخلق مثل الله من التراب حيوانات ونباتات وجواهر

[٤٩] *مع أن الحاشية ١١ بدأت من ص ١٣٣ في الكتاب، لكنا أخّرناها هنا لطولها، وجعلناها ملحقا للكتاب بإذن من سيدنا أمير المؤمنين نصره الله. كما أنه تخللها أربع حواشٍ طويلة، فجعلناها في آخر الكتاب أيضا. (المترجم)*

مختلفة. والمعلوم أنه ليس بوسع الإنسان أن يُنجز بالتراب ما أنجزه الله به. الحق أنه ليس بيد الإنسان مادةً للإيجاد والخلق إلا ما أوجده الله تعالى ويستخدمه من مواد، وذلك مع الالتزام بقوانين قدرته ﷻ. فكيف يصح القول إذن بأن ما يوجده الإنسان ويركّبه، يعادل ما يخلقه الله ويركّبه، والعياذ بالله؟ فلو حاول الإنسان أن يختار أسلوبا سهلا أيضا على سبيل المبارزة مع الله –فمثلا إذا أراد أن يجمع العظام واللحم والدم لمخلوق تناثرت أعضاؤه وحاول أن ينفخ فيه الحياة، أو حاول أن يخلق قالبا مثله على الأقل إن لم يستطع نفخ الروح فيه– لما استطاع ذلك أيضا. فأنّى لإنسان ضعيف البنيان أن ينافس الله تعالى، إذ لا يسعه حتى منافسة الحيوانات، بل يعجز عن منافسة الديدان والحشرات الصغيرة أيضا؟ ومن الديدان ما يفوق الإنسان في صنائعه، فمنها ما يصنع له الحرير ومنها ما يُهيئ له العسل والأمثلة كثيرة. أما الإنسان فلا يعرف شيئا من هذه الصنائع. ثم انظروا إلى حمقه وغباوته إذ يستعد لمبارزة الله سبحانه بهذه القدرة والقوة!

"ما دمت لا تقدر على مبارزة ذبابة فأنّى لك أن تبارز الله القادر القدير.

يجب أن تستحي من مبارزة الله، اذهب وانظر إلى شأنك، فإنك أدنى من حشرة"[٥٠]

لا بد من التذكر جيدا هنا بأنه كما أن عناصر جسم الإنسان هي من الله تعالى، كذلك عناصر الكلام أيضا من الله ﷻ. والمراد من عناصر الكلام هو الأحرف والألفاظ والجمل القصيرة التي يتوقف عليها تعليم اللغة، مثل: "إن الله موجود"، "الإنسان فانٍ"، "الحمد لله"، "رب العالمين" وغيرها.. فهذه كلها عناصر الكلام التي كشفها الله تعالى على الإنسان من عنده، لأن مهمة الله تعالى لم تكن مقصورة على أن يخلق قالبا من التراب ثم يتنحى عنه. بل من الواضح

[٥٠] *بيتان فارسيان مترجمان. (المترجم)*

أن كل ما حازه الإنسان لتكميل فطرته، إنما حازه بفضلٍ من الله تعالى، ولم يُحرز شيئا بقوته وقدرته.

فعلى طالب الحق ألا ينخدع من أن الأحرف والألفاظ المفردة أو الجمل القصيرة التي توجد في كلام الله موجودة في كلام الإنسان أيضا، بل عليه أن يتذكر جيدا أنها عناصر الكلام، وهي من الله تعالى، فيستخدمها الإنسان ويستخدمها الله تعالى أيضا. والفرق هو أن تلك الألفاظ والجمل تأتي في كلام الله -الذي هو كلامه ﷻ لفظا ومعنى- في محلها المناسب بالترتيب المحكم والحكيم وبالتوازن التام والاعتدال الكامل، كما أن كافة أفعال الله الملحوظة في الدنيا مبنية دائما على كمال التوازن والاعتدال والحكمة الكاملة. أما الإنسان فلا يمكنه أن يحوز في تركيبه وتأليفه مرتبة الألوهية، كما لا يمكن أن يحوزها في أيّ من أعماله الأخرى. لهذا السبب لم ينبس جميعُ الكفار ببنت شفة مقابل القرآن الكريم، وظلوا ساكتين واجمين لم يطيقوا جوابا مع ادّعائهم الفصاحة والبلاغة وكونهم ملوك الشعراء، ولا يزالون صامتين واجمين، وكذلك لا يطيقون جوابا. وسكوتهم هذا شاهد على عجزهم، فما العجز إلا أن يسمع المرء حجة الخصم ويفهمها ثم يعجز عن نقضها.

إلى هنا قد أثبتُّ في هذه الحاشية ضرورة كون كلام الله تعالى منقطع النظير من حيث قانون الطبيعة. ولكن إضافة إلى ذلك يتأكد كون كلام الله عديم المثال من وجه آخر أيضا، وأرى من الحكمة أن أبينه في هذه الحاشية، وهو أنه مما لا شك فيه أن عاقبة الإنسان الحسنة التي يترتب عليها الأمل بالنجاة على وجه اليقين تعتمد على أن يصل المرء إلى مرتبة اليقين الكامل بوجود الخالق الحقيقي وبكونه قادرا وقديرا، وبوعده سبحانه وتعالى بالجزاء والعقاب. وهذا الأمر لا يتأتّى بالتفكير في المخلوقات فقط، بل للإيصال إلى هذه المرتبة من اليقين هناك حاجة لكتاب موحى به يفوق الإتيان بنظيره قدرة الإنسان.

ولتوضيح هذا البحث جيدا لا بد من بيان أمرينِ.

أولا: لماذا جُعل الأمل بالنجاة على وجه اليقين مقصورا على اليقين الكامل؟

ثانيا: لماذا لا يمكن نيل ذلك اليقين الكامل بالتفكير في المخلوقات فقط؟

فليكن معلوما أولا بأن المراد من اليقين الكامل هو الاعتقاد الصحيح والجازم الذي لا يبقى معه أيّ مجال للشك، ويطمئنّ القلب إلى أمر نبحث فيه اطمئنانا كاملا، ويقتنع به اقتناعا تاما. وكل معتقَدٍ كان ساقطا أو أدنى من هذا المستوى، فهو ليس على مرتبة اليقين الكامل، وإنما هو شك أو ظنٌّ غالب على أكثر تقدير.

إن الأمل بالنجاة على وجه اليقين يتوقف على اليقين الكامل، لأن مدار النجاة هو أن يُؤثر ربه الكريم على الدنيا كلها براحتها ومتعتها وأموالها وثروها وجميع علاقاها بل ويجب أن يؤثره ﷻ على نفسه أيضا، وألا يغلب أيّ حبٍّ على حب الله تعالى. ولكن الإنسان يواجه بلاء أنه يعلّق قلبه -على عكس ما تتوقف عليه نجاته- بأشياء يستلزم تعلُّقُ القلب بها صرفَه عن الله تعالى، ويعلّق قلبه بها لدرجة يظن أن جُلّ راحته ومتعته تكمن في تلك العلاقات وحدها. ثم لا يقتصر الأمر على هذا الظن فقط، بل تصبح تلك الملذات مشهودة ومحسوسة عنده بيقين كامل وبما لا يُبقي عنده أدنى شك في وجودها. فالمعلوم أنه ما لم يتأتَّ للإنسان اليقين الكامل بوجود الله ﷻ والمتعة بوصاله وثوابه وعقابه وآلائه ونعمائه، كيقينه بالثروة الموجودة في بيته وبالنقود المعدودة والمقفول عليها في صندوقه وبالحدائق التي زرعها بيده وبعقاره الذي اشتراه بنفسه أو ورثَه، وبالمتعة التي جربها واستمتع بها، وبأصدقائه الذين يطمئن لهم قلبه؛ فيستحيل عليه الرجوع إلى الله تعالى بقلب متحمس، لأن الفكرة الضعيفة لا تتغلب على الفكرة القوية قط. والصحيح دون أدنى شك أن الذي يقينه بالدنيا أقوى من يقينه بأمور الآخرة -حين يوشك على مغادرة الدنيا ويباغته الاحتضار ليفصله عن الملذات التي يتمتع بها في الدنيا، ويبعده عن أحبائه وأقاربه الذين يزورهم كل يوم، ويباعد بينه وبين الأموال والبلاد والثروات التي يعُدّها مِلكا له دون أن

يخالجه في ذلك أدنى شك- لا يمكنه أن يُبقي فكره موجّهًا إلى الله تعالى، ما لم يكن يقينه بوجود الله تعالى ولذة وصاله ووعده بالثواب والعقاب كاملا مثل كمال يقينه بالأشياء المذكورة آنفا بل أقوى منه. وإن لم تتسنَّ له في لحظاته الأخيرة هذه الدرجة من اليقين الذي من شأنه أن يدفع الأفكار الدنيوية، فسيكون ذلك مدعاة لسوء عاقبته غالبا.

أما القول بأن اليقين الكامل لا يتأتّى بمجرد رؤية المخلوقات، فيَثبت لأن المخلوقات ليست صحيفة ليقرأ الإنسان قد كُتب فيها بأن الله تعالى هو الذي خلق كل هذه المخلوقات فعلا، وأنه ﷻ موجود فعلا، وأن متعة وصاله هي المتعة الحقيقية، وأنه سيجزي المطيعين ويعاقب العصاة. بل يُعتقَد بالنظر إلى المخلوقات ومشاهدة هذا العالم مرتَّبا بترتيب أحسن وأبلغ أنه يجب أن يكون لهذه المخلوقات خالق، وذلك على وجه القياس والاجتهاد فقط. ولكن هناك فرق هائل بين: "يجب أن يكون" وبين مصداق: "موجود فعلا". إن مفهوم "يجب أن يكون" لا يوصل إلى اليقين الجازم الذي يوصل إليه مضمون: "هو موجود فعلا"، بل يبقى فيه عِرقٌ من الشك. والذي يقول عن أمرٍ ما بأنه "يجب أن يكون" على وجه التقدير والقياس، إنما يتلخص قوله في أنه لا بد من وجوده حسب تقديره هو، غير أنه لا يعرف على وجه اليقين هل هو موجود فعلا أم لا. لذا فإن مَن تفكَّر في المخلوقات فقط ممن خلَوا لم يتفقوا على استنتاج، وليسوا متفقين الآن أيضا، ولا يمكن أن يتفقوا في المستقبل. أما لو كان مكتوبا في زاوية من زوايا السماء وبخط عريض مثلاً: أنا الله الواحد الذي لا مثيل له ولا نظير، وقد خلقتُ كل هذه الأشياء، وسوف أجازي الصالحين والطالحين بقدر ما ارتكبوا من حسنات وسيئات؛ لحصل -بلا ريب- اليقين الكامل بوجود الله تعالى والثواب والعقاب من خلال رؤية المخلوقات فقط. وعندها ما كان ضروريا أن يخلق الله تعالى وسيلة أخرى للإيصال إلى اليقين الكامل. ولكن الأمر الآن ليس كذلك في الواقع. ومهما أمعنتم النظر في السماوات والأرض لما

وجدتم لمثل هذه العبارة أيّ أثر، وإنما هو تقديركم أنتم ليس إلا. لذلك يقول الحكماء جميعا بأن إلقاء نظرة على الأرض والسماء لا يؤدي إلى شهادة واقعية على وجود البارئ، بل تتأتّى الشهادة التقديرية فقط؛ التي لا يتعدى مفهومها بأنه يجب أن يكون هناك خالق، وذلك أيضا عند ذلك الشخص الذي يرى أن وجود هذه الأشياء من تلقاء نفسها مستحيل. أما في نظر الملحد فلا تصح هذه الشهادة، لأنه يعتقد بأزلية العالَم. وبناء على ذلك يقول بأنه إن لم يكن وجود أيّ شيء جائزا بغير موجده، فكيف يجوز وجود الله دون موجد؟ وإذا كان ذلك جائزا، فلماذا لا يجوز أن تُعدَّ دون موجد تلك الأشياءُ التي لم يشهد أحد تركيبها أو تكوينها بأم عينه؟

هنا أقول بأنه كان للملحد مجال للنـــزاع مع الذي يقول بأزلية وجود البارئ باجتهاده، وذلك لأن النظرة إلى المخلوقات لا تهيئ شهادة واقعية على خالق العالم؛ بمعنى أنه لا يتبين من خلالها أن خالق هذا العالم موجود فعلا، بل كل ما يتبين هو أنه "يجب أن يكون". لذا فإن أمر معرفة خالق العالم من حيث التقدير يبقى مشتبَهًا على الملحد. لقد تناولت هذا الموضوع بإيجاز في الحاشية رقم (٤) حيث أثبتُّ أن العقل يؤكد على ضرورة الوجود ولا يسعه إثبات أنه موجود فعلا. وإن ثبوت ضرورة الشيء أمرٌ وثبوت وجود ذلك الشيء فعلا أمرٌ آخر؛ فالذي يرى معرفة الله تعالى مقصورة على رؤية المخلوقات فقط، ليس في يده دليل للإقرار بأن الله تعالى موجود فعلا. بل إن علمه يقتصر على الاجتهاد فقط بأنه: "يجب أن يكون"، وذلك أيضا في حال عدم جنوحه إلى الإلحاد. لذا فإن الذين تقيدوا -من الحكماء المتقدمين- بالأدلة القياسية، وقعوا في أخطاء كثيرة وخلقوا مئات الأنواع من الخلافات ورحلوا عن الدنيا دون أن يحلّوها. وكانت نهايتهم في حالة مضطربة بحيث وقعوا في آلاف الشكوك والظنون، فمات معظمهم في حالة الإلحاد واتّباع المذهب الطبيعي، ولم تقدر سفينة الفلسفة الورقيةُ أن توصلهم إلى بر الأمان؛ فمن ناحية قد غلبهم حب

الدنيا، ومن ناحية أخرى لم يعلموا ما الذي يمكن أن يواجهوه على صعيد الواقع مستقبلا. فارتحلوا من هذا العالم في اضطراب شديد بعيدين كل البُعد عن حق اليقين. وقد أقرُّوا بأنفسهم بهذا الخصوص أن علمهم عن خالق العالم وعن أمور الآخرة الأخرى ليس من حيث اليقين، بل من حيث ما هو أشبه به. أيْ أن مَثل إدراكهم كمثل قول أحد عن شيء معين -تخمينا دون الاطلاع على حقيقة الأمر- بأنه يليق بهذا الشيء أن يكون على هذا النحو، وذلك دون أن يدرك هل هو على ذلك النحو فعلا أم لا. فإذا وجد الحكماء في أمر ما بأنه من الأنسب أن يكون على هذا النحو، فقد ظنُّوه على ذلك النحو من تلقاء أنفسهم، كأنْ يقول أحد مثلا: من المناسب أن يأتي "زيدٌ" إلينا في هذا الوقت، ثم يقرر في قلبه أنه آتٍ لا محالة. ثم يفكر في نفسه أنه يفضَّل أن يأتي زيدٌ راكبا حصانا، ثم يتصور أنه قد أتى راكبا حصانا بالفعل. كذلك ظل الحكماء يسيِّرون أمورهم بالتخمينات، ولم يكن في نصيبهم يقين بأن الله تعالى موجود في الحقيقة، بل إذا قطع عقلهم أشواطا على طريق الصواب، فما توصّلوا مع ذلك إلا إلى أن هناك ضرورة لوجود خالق. والحق أن الشكوك والشبهات ظلت تخالجهم مثل عديمي الإيمان في هذه الفكرة البسيطة أيضا، وما وقعت أقدامهم على جادة الصواب. فظل البعض منكرين أن الله تعالى مدبِّرٌ وخالقٌ بالإرادة، وبعضهم عَدُّوه محتاجا إلى هيولى. وحسِبَ غيرهم جميع الأرواح شريكة معه من حيث الأزلية مثل الشراكة بين الإخوة، ولا يزال ورثة هؤلاء القوم أي "الآريا"، موجودين إلى اليوم. والبعض لم يسلِّموا بدار الجزاء وبقاء الأرواح الإنسانية. وعدّ الآخرون الدهرَ مؤثِّرا حقيقيا كمثل الله تعالى. وبعضهم أعرضوا عن أنه تعالى عالم بالجزئيات، والبعض ظلوا يقدمون الأضاحي للأصنام، ويعبدون الآلهة الباطلة، وكثير منهم أنكروا وجود الله الحكيم نهائيا، فلم يسلم أحد منهم من كل هذه المفاسد.

والآن أعود إلى صلب الموضوع وأقول بأن اليقين الكامل لا يحصل برؤية المخلوقات وحدها، و لم يحصل لأحد من قبل. بل كل ما يمكن نواله -وربما ناله البعض أيضا- تنطبق عليه مقولة: "يجب أن يكون". وهذا فيما يتعلق بوجود الخالق، أما فيما يتعلق بيوم الجزاء وغيره من الأمور، فلا يبلغ الأمر هذا الحد أيضا. ولمّا لم يحصل اليقين الكامل بمجرد النظر إلى المخلوقات، فلا بد من قبول أحد الأمرين؛ إما أن الله لم يرد أن يوصل الإنسان إلى اليقين الكامل، أو لا بد أن يكون قد حدّد طريقا لإيصاله إليه. ولكن الأمر الأول بديهي البطلان، ولا يعترض عاقل على بطلانه. وفي حالة الإقرار بالأمر الثاني -أي في حالة تسليمنا بأن الله تعالى قد سنّ حتما وسيلة كاملة لنجاة المخلوقات- فلا بد من القبول أن تلك الوسيلة هي الكتاب الموحى به الذي هو عديم النظير والمثال في حد ذاته ويفصّل في بيانه كل إجمال يوجد في قانون الطبيعة؛ لأنه ما دام الشرط للوسيلة الكاملة أن يكون ذلك الشيء عديم النظير والمثال وأن يتضمن شهادة خطية أيضا على كونه من الله تعالى وفي كل أمر ديني، فلا شك أن كل هذه الصفات تجتمع في الكتاب الموحى به فقط والذي لا نظير ولا مثيل له، ولن تجتمع في غيره. لأن هذه الميزة لا تتحقق إلا في الكتاب الموحى به وحده، فهو الذي يوصل ببيانه ولكونه عديم النظير إلى درجة اليقين الكامل والمعرفة الكاملة. والسبب في ذلك أن الملحد الشقي إذا شك في وجود السماوات والأرض وقال بأنها موجودة منذ القِدم، فهذا شأنه، ولكنه إذا اعترف بأن كلاما ما، فوق قدرة البشر؛ فلا يبقى له مندوحة من الإقرار بأن الله تعالى الذي أنزل هذا الكتاب لموجودٌ فعلا.

بالإضافة إلى ذلك؛ إن الإيمان بوجود الله في هذه الحالة لا يكون مبنيا على الاجتهاد الشخصي فقط، بل يخبر الكتاب نفسه خبرا يقينيا أن الله موجودٌ وأن يوم الدين حقٌّ. فاليقين الكامل الذي يبحث عنه طالب الحق في الأرض والسماء ولا يجده، فإنه يجدُه بواسطة هذا الكتاب. فإن العلاج الأمثل الذي

يكمن في الكلام العديم النظير لإقناع الملحد بوجود الله، لا يُتصور بالنظر إلى السماء والأرض قط.

ويجدر بالانتباه أيضا إلى أن كل من يتمسك بالقياس وحده ففيه عِرق إلحاد، ثم يظهر هذا العرق للعيان في الملحد بعد أن ينتفخ أكثر من ذي قبل، ولكنه يبقى خافيا على الآخرين، ويقطعه الكتاب الموحى به الذي يفوق قدرات الإنسان في الحقيقة؛ لأنه كما بيّنت آنفا؛ إن فَهْم الناس كان مختلفا دائما فيما يتوصلون إليه من النظر إلى السماوات والأرض؛ فأحدهم قد فهم بطريقة وغيره بطريقة أخرى. ولكن لا يمكن حدوث هذا الاختلاف في الكلام العديم النظير. ولا يسع أحدا –وإن كان ملحدا– أن يقول عن الكلام العديم النظير بأنه وُجد –مثل السماء والأرض– منذ القِدم ومن تلقاء نفسه دون تكلُّم متكلِّم. بل سينازع الملحد في أمر الكلام العديم النظير ما دام لديه شك في كونه عديم المثال. وإذا قبِل أن صنعه يفوق قدرات الإنسان فعلا، فتُزرع في قلبه على الفور بذرة الإيمان بالله تعالى، لأنه لم يعُد هناك مجال ليزعم أن وجود صاحب هذا الكلام مبني على القياس والتخمين لا على الحقيقة، ذلك لأن وجود الكلام دون وجود المتكلم مستحيل. وبالإضافة إلى ذلك هناك ميزة أخرى في الكلام العديم المثال وهي أن علم المبدأ والمعاد موجود فيه ومكتوب كأمر واقع بقدر ما هو ضروري لتكميل النفس، وهذه الميزة أيضا لا توجد في السماء والأرض؛ لأنه أولا لا تُعلَم الأسرار الدينية بالتفكير فيهما قط، وإن عُلم منها شيء فسينطبق عليه المَثَلُ القائل: "إشارات الأبكم تفهمها أمه وحدها."

فتبين من هذا البحث كله أن كون كلام الله عديم النظير، ليس واجبا من باب أن حماية سلسلة قوانين الطبيعة تعتمد عليه فحسب، بل يجب من جهة أخرى أيضا.. وهي أن أمر النجاة يبقى ناقصا دون الكلام العديم المثال؛ لأنه ما لم يكن اليقين بالله كاملا، فما معنى النجاة أصلا، وكيف يمكن الحصول عليها؟ ما أغباهم أولئك الذين لا يرون ضرورة أن يكون كلام الله عديم النظير؛ إذ

يسيئون الظن بالحكيم القدير بأنه أنزل كتبا ومع ذلك بقي الحال على المنوال نفسه و لم يختلف الأمر عما كان عليه سابقا، و لم يعمل بما كان من شأنه أن يوصل إيمان الناس إلى درجة الكمال!

مؤسف حقا أنهم لا يدركون أن قانون الله في الطبيعة محيط بحيث لم يقصّر ﷻ في خلق الديدان والحشرات العديمة النظير أيضًا، مع أنه لا يُرجى منها فائدة كبيرة. أفلا يقع إذن اعتراض على حكمته في هذه الحالة أنه قصّر في أمر كان من شأنه أن يؤدي إلى هلاك الناس جميعا. فيضطر المرء للاستنتاج أن الله تعالى لا يريد أن ينال الناسُ النجاة أصلا؟ ولكن لما كان هذا الظن بالله تعالى كفرا عظيما، فلا بد أن يؤمن المرء بما يليق بعظمة الله تعالى وينسجم مع حاجات العباد؛ أيْ أن الله تعالى قد أرسل حتما لنجاة العباد وتكميل المعرفة كتابا يوصل إلى المعرفة الكاملة لكونه عديم النظير، وينجز ما لا يمكن للعقل وحده أن ينجزه. وذلك الكتاب هو القرآن الكريم الذي أعلن هذا الكمال التام وأثبت صدقه.

"إن القرآن الكريم شمس العلم والدين، لِيخرجك من الشك إلى اليقين.

إن القرآن حبل الله المتين، لِيجذبك إلى رب العالمين.

القرآن يوم منير من الله تعالى، لِيهبك نور العيون.

لقد أنزل الله هذا الكلام المنقطع النظير لكي تصل بواسطته إلى عتبة القدوس ذي الجلال.

إن إلهام الله دواء للشك لأنه يُظهر قدرة الله الكاملة.

كل من أعرض عن القرآن الكريم فما رأى وجه اليقين قط.

فيتحمل المعاناة لنفسه ومع ذلك يبقى في عالم الوقاحة والضلال.

ليت في قلبك رغبة للحصول على معرفة الله، ليت سعيك يبذر بذرة الصدق.

تفكّر بنفسك بالعدل والإنصاف، أنّى للظن أن يفيد اليقين.

كل من فُتح بابُه إلى الله كان بسبب اليقين وليس نتيجة الشكوك.
يا خائن لا أهمية للقرآن عندك، ولا تدري أنه لا نصير لك سواه.
إن وحي القرآن يحيي الأموات، ويأتي بمئات الأخبار عن عالم العرفان.
إنه يُري للعلوم اليقينية مشهدا ليس لأحد أن يراه في مئة عالَـــم".[٥١]

وفي هذا المقام وبجهد جهيد؛ أنشأ أصحاب مذهب "براهمو سماج" بضع وساوس ليوجدوا سببا لعدم قبول كتاب الله تعالى، ولكي يبقى أمر الدين ناقصا بكل حال ولا يبلغ كماله، فلا يضطر المرء للقول بأنه مثلما خلق الله الرحيم والكريم الشمس والقمر وغيرهما من الأشياء لتربية الناس تربية جسدية ليُهيئ لهم طعامهم، كذلك أرسل كتبه لتربيتهم الروحانية ليدبر لهم الهداية. فلأن هؤلاء القوم يريدون أن يتهموا الله الكريم والرحيم بالبخل والفتور وسوء الإدارة، ولأن عقائدهم الفاسدة تتضمن عدة أنواع من سوء الظن بالله تعالى والتحقير والإساءة إليه، فمن الأنسب أن تُسجَّل في هذا المقام وساوسهم المتعلقة بهذا البحث، وفيما يلي أذكر هذه الوساوس مع أجوبتها:

الوسوسة الأولى: إنّ البحث عن كتابٍ موحى به يفوق قدرة الإنسان، إنما هو فرع من البحث الأساسي المتعلق بالإلهام. والثابت عن الإلهام أنه ليس ضروريا عند العقل. ولـــمَّا لم يكن الإلهام ضروريا أصلا فلا فائدة من البحث إذا كانت القوى البشرية عاجزة عن الإتيان بنظير كتاب أم لا.

الجواب: لقد سبق أن بيّنا قبل قليل بأن كل ما يُتفكَّر به عن الله ﷻ وعن أمور الآخرة بواسطة القياس أو التقديرات العقلية، لا يتأتّى به اليقين ولا المعرفة الكاملة. والوساوس التي تنتاب قلوب المتمسكين بالقياس، لا يمكن إزالتها بغير الإلهام، لأنه لو اقتصر الفهم -نتيجة التفكير في الطبيعة- على أنه يجب أن يكون لهذا العالَـــم خالق، فمَن ذا الذي سيبين أن هذا الخالق موجود فعلا؟ صحيح

[٥١] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

أن الإنسان يستيقن بوجود البنّاء نظرا إلى البناء، ولكن هذا اليقين يحدث بصورة معتادة فحسب؛ لأننا كما نرى الأبنية كذلك نرى البنّائين، ولكن من ذا الذي يُرينا خالق السماوات والأرض. فلا يحصل لنا اليقين الكامل بوجوده إلا إذا عرفنا شيئا عنه أيضا مثلما نعرف عن البنّائين. ولئن شهد العقل أنه يجب أن يكون لهذا العالَــم خالق، فــسيغرق العقل بنفسه في بحر الحيرة؛ إذ لو كانت هذه الفكرة صحيحة وصادقة، لكان ضروريا أن يُعثَرَ على ذلك الخالق إلى يومنا هذا على الأقل. إذن، يجب الانتباه أيضا إلى أنه لو دلّ العقل إلى حد ما على وجود الخالق، كان العقل نفسه مضِلاً أيضا، إذ قد جعل أحدا ملحدا وجعل غيره تابعا لمذهب الطبيعة، ومال أحد إلى جانب ومال غيره إلى جانب آخر. فكيف يمكن أن يحصل اليقين نتيجة تصورات العقل فقط بمن لم يتم تصديقه من قبل ولن يتم في المستقبل أيضا؟ فإذا قام العقل بالقياس والتخمين أنه يجب أن يكون هناك خالق، فمن له أن يطمئننا طمأنينة كاملة بأنه ليس في هذا القياس خديعة؟ وماذا يمكننا أن نفكر به أكثر من ذلك؟ وإذا كان بإمكان العقل أن يحل لنا جميع المشاكل فلماذا يخذلنا في الطريق ويرفض متابعة السير معنا. فهل تقتصر المرتبة العليا لمعرفتنا بالله على أن نكتفي بأنه يجب أن يكون هناك خالق؟ فهل يمكننا أن ننال البحبوحة الدائمة التي أُعِدَّت لأصحاب المعرفة الكاملة واليقين الكامل بناء على هذه الأفكار المبنية على التخمين والتخريص فقط؟ لو أمكننا بالعقل فقط أن ننال اليقين الكامل الذي تضطرب لنيله روحنا دائما، لكان في محله تماما قولنا بأننا لسنا بحاجة إلى الإلهام لأننا قد بلغنا مرامنا. ولكن لو لم نبحث عن العلاج مع كوننا مرضى ولم نتحَرَّ وسائل الصحة الكاملة، لكان ذلك دليلا على شقاوتنا.

"يا منكر الإلهام إن فهْمك قد أدّى إلى تشويه سمعة العقل.

ما أغرب هذا المذهب الذي تقدمه بترك الله والتورط في إشباع مصالحك الشخصية!

أنّى للمرء أن يطّلع على سر التوحيد ما لم يتخلّ عن نفسانيته.
كيف تميز بين الخبيث والطيب ما لم تتواضع حتى تدوس رأس أنانيتك.
من أطاع كلام الله فقد تحرر من طاعة الأطماع والأهواء.
وتحرر من نفسه ونفسانيته وصار مظهرا لفيض نور الله تعالى.
وارتفع عن هذه الدنيا كثيرا لدرجة لا تُتصوَّر مرتبته ودرجته.
إننا أسارى النفس الأمارة، ووجودنا عبث بدون العلاقة بالله تعالى.
فلما جاء وحي من الله تعالى لهدايتنا حُلّت معضلاتنا الكثيرة.
إنك لا تستطيع أن تؤدي مهام الألوهية، فلماذا تدير الرحى الفارغة.
أين أنت وعلمُك من علمنا الذي وهبنا الله إياه، فانظرِ الفرق بين الثرى والثريا.
هناك من يتأبط معشوقه، والآخر يرنو إلى الباب في الانتظار.
هناك من يجلس بجنب الحبيب، والآخر يهيم في الزقاق.
أحدهما بلغ مرامه كاملا، والآخر يحترق كمدًا في البحث عن مرامه.
عليك أن تستحي من عالم الأسرار، إنك تستكبر بعقلك، فويل لاستكبارك.
لقد بقي عملك كله ناقصا، فويحك قد بُليت بعقل ناقص". [٥٢]

فيا أيها الإخوة أتباع مذهب برهمو سماج، ما دام الله تعالى قد أعطاكم عيونا للبحث والتدقيق، فافتحوها وانظروا هل تثبت ضرورة الإلهام أم لا؟ وقد ذُكر هذا الموضوع بتفصيل أكثر تحت أدلة القرآن العقلية فاقرأوه هناك.

ثم لو اخترتم الصراط المستقيم بتقوى الله وتركتم لله مقامَ هداية الناس، لكان علامة سعادة عظيمة. وإلا فانقُضوا إن استطعتم هذه الأدلة ببيان مدعوم بالأدلة. ولكن لا تمشوا على الأقل مِشية الأغبياء الذين لا يسمعون لأحد ويستمرون في هذيانهم. أفلا نستغربُ أنكم في كل قول تُفحَمون وفي كل خطوة تتعثرون؟ فلا ندري ما أثقل هذه الحُجُب التي لا تكاد تزول! من أيّ

[٥٢] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

نوع هذه القلوب التي لا تكاد تفهم؟ في أية كوَّة وضعتم محك العقل ونسيتموه فبدأتم تحسبون الزيف حقيقةً والحقيقة زيفا؟ من ذا الذي لا يتعصب لأفكاره، فأي جديد أتيتم به لتتباهوا به؟ لا نعرف سببا معقولا لعدم فتح أبواب قلوبكم؟ ولماذا عجزت عيونكم عن الرؤية؟ كيف خذلكم العقل وذهب بعيدا عن المشغوفين به أمثالكم كل البعد؟

أيها المساكين، تفكَّروا جيدا لتعرفوا أن اليقين الكامل لا يتأتّى دون الإلهام، ولا يمكن -من دونه- اجتنابُ الخطأ ولا الاعتصام بالتوحيد الخالص ولا التغلب على الأهواء النفسانية. بسبب الإلهام وحده ينتشر في كل مكان أن الله موجود فعلا، والعالم كله يناديه قائلا: "إنه موجود، إنه موجود". إن الإلهام هو الذي ظل ينفخ الحماس في القلوب منذ البداية بأن الله موجود، وبسببه ينال العابدون متعةً في عبادتهم، ويطمئن المؤمنون بوجود الله ﷻ وبوجود عالَم الآخرة. وبسبب اليقين هجر ملايين العارفين هذه الدار الفانية باستقامة عظيمة وحماس شديد لحب الله تعالى. وهو الذي ختم على صدقه آلافُ الشهداء بدمائهم. وبناء على قوته الجاذبة لبس الملوك لباس الفقر، وآثر الأثرياءُ الكبار الدروشة على الغنى. وببركته وحده غادر مئات الآلاف من الأمِّيِّين والعجائز هذه الدنيا مع إيمان مليء بالحماس. إنه لسفينة فريدة انتشلت مرات كثيرة أعدادا هائلة من الناس لا تُحصى من زوبعة عبادة المخلوق وسوء الظن وأوصلتهم إلى شاطئ التوحيد واليقين الكامل. وهو الصديق الوفي إلى آخر لحظةٍ في الحياة، والنصيرُ في كل موقف حرج. أما الضرر الذي لحق بالدنيا بحجب العقل وحده فلا يخفى على أحد. قولوا بالله عليكم، مَن دفع "أفلاطون" وأتباعه إلى إنكار صفة الله "الخالق"؟ ومن أوقع "جالينوس" في الشك في يوم الجزاء وفي بقاء الأرواح؟ ومن دفع الحكماء كلهم إلى إنكار أن الله ﷻ عالم بالجزئيات؟ ومن حرّض الفلاسفة الكبار على عبادة الأوثان؟ ومن حثّ الناس على تقديم الأضاحي بالدواجن وغيرها من الدواب أمام الأصنام؟ ألم يكن

السبب وراء كل ذلك هو العقل الذي لم يصحبه الإلهام؟ أمّا الاحتجاج بأن أناسا كثيرين قد أشركوا مع كونهم من متّبعي الإلهام واتخذوا آلهة جديدة فليس صحيحا، لأن ذلك ليس خطأ الإلهام الصادق من الله تعالى، وإنما هو خطأ الذين خلطوا الحق بالباطل، وآثروا عبادة الأهواء على عبادة الرب. ومع ذلك لم يغفل الإلهام عن تداركهم ولم ينسَهم، بل كلما ابتعدوا عن الحق في فهم بعض ما في إلهام من أمور أصلحها إلهام آخر.

وإذا قيل إن فساد العقل أيضا ناتج عن أخطاء ناقصي العقول وليس خطأ العقل الكامل. قلتُ: إن هذا الكلام ليس صحيحا، إذ من المعلوم أن العقل لا يستطيع أن يقوم بأي شيء من حيث كونه مطلقا وكاملا، لأنه "كلِّيٌّ" في هذا المقام، وإن الوجود الكلي لا يتحقق دون وجود الأفراد. بل إن كيفيته تتحقق بواسطة أفراده، ولكن من يستطيع أن يُرينا فردا كاملا واحدا لم يرتكب -في معتقداته التي اختلقها بنفسه- خطأ قط نتيجة اتّباعه العقل فقط، ولم يتعثّر في بيان الإلهيات؟ أين ذلك العاقل الذي بلغ يقينُه بوجود الخالق ويوم الجزاء وغيرهما من أمور المعاد درجة: "موجود فعلا"، ولم يبق فيه عِرق الشرك مطلقا، وغلب الرجوع إلى الله تعالى على أهوائه النفسانية؟ لقد كتبتُ قبل قليل أن الحكماء أنفسهم يقرُّون بأن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ مرتبة اليقين الكامل في مسائل الإلهيات بواسطة العقل وحده، بل يملك رأيا مشتبَها وظنِّيا فحسب. والمعلوم أنه ما دام علم المرء مشتبَهًا فيه وظنّيا وأدنى وأحطّ من مرتبة اليقين، فلا يأمن العثار والخطأ، كما لا يسلم الأعمى من أن يضل الطريق. أما القول بأنه يمكن أن تصدر من العقل المجرد أخطاء ولكنها تُعدَّل بإعادة النظر فيها مرة أو مرتين؛ فإن هذا القول نفسه هو من خطأ عقلِكم الغريب وما زال حتى الآن، وقد بيّنت من قبل أن صدور الخطأ من عقل الإنسان في حين من الأحيان وفي موضوع ما في أمور ما وراء المحسوسات أمر لا بد منه بسبب النقصان في مرتبة البصيرة الكاملة، وهذا ما لا ينكره عاقل. ولكن فكِّروا بأنفسكم جيدا وسترون

أن التنبُّه إلى كل خطأ وتداركه ليس أمرا محتوما. فتبين في هذه الحالة أن تدارك الأمر اللازم بغير اللازم ليس ممكنا دائما وفي كل الأحوال، فلا يمكن أن يصحِّح الخطأ اللازم إلا ما كان يتحلى بالصحة والصواب مقابله وما توجد فيه صفة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أما القول: لماذا لا يُنال التوحيد الكامل دون إلهام من الله، وكيف لا يمكن أن يتخلص منكر الإلهام من شوائب الشرك؟ فيمكن تبيان حقيقته بالتفكير في حقيقة التوحيد، لأن المراد من التوحيد أن ننــزه الله تعالى من اشتراك غيره في ذاته وصفاته، وأن نكون على يقين بأن ما يجب أن يتمّ بقوته وقدرته ﷻ لا يمكن أن يتم بقوة غيره. فبسبب تركهم هذا التوحيد فإن عبدة النار والشمس وعبدة الأوثان وغيرهم يسمَّوْن مشركين لأنهم يطلبون من أصنامهم وآلهتهم الباطلة تحقيق مراداتهم التي لا يمكن أن تتحقق إلا بقدرة الله تعالى وحده. والمعلوم أن الذين ينكرون الإلهام يعتقدون مثل المشركين تماما بتحلي المخلوقات بصفات الله تعالى، ويؤمنون بوجود قدرات ذلك القدير في العباد لأنهم يزعمون بأننا اطّلعنا على وجود الله بقوة عقلنا، وإنما خطر ببالنا نحن البشر في البدء أن يكون هناك إلــهٌ، فبمساعينا خرج الإله من زاوية الخمول، وعُرف وصار معبود الخلائق، وأصبح أهلا للعبادة، وإلا فــمَن كان يعرفه من قبل، ومَن كان مطّلعا على وجوده؟ فبولادتنا نحن العقلاء حالفه الحظ. هل يقلّ هذا المعتقد عن معتقدات المشركين؟ كلا. إذا كان هناك أيّ فرق فليس إلا أن المشركين يحسبون أشياء أخرى مُنعِمة عليهم ومحسنةً إليهم، أما هؤلاء القوم فيعُدُّون عقلهم الضبابي هاديا لهم ومحسنا إليهم من دون الله تعالى. بل لو تدبّرتم أكثر لوجدتم كفَّتَهم بهذا الشأن أثقل من عبدة الأوثان أيضا، لأن عبدة الأوثان -وإن كانوا يعتقدون أن الله تعالى قد وهب آلهتهم قوى وقدرات كبيرة لذا فإنها تحقِّق مرادات الذين يعبدونها نتيجة قبولها بعض النذور منهم- ولكنهم ما قالوا إلى الآن بأن هذه الآلهة هي التي أظهرت الله تعالى إلى الوجود، أو هي التي

اكتشفت هذه النعمة العظمى.. أي وجود الله بقوتها. إذن، فإن هذه الفكرة تبادرت إلى أذهان منكري الإلهام وحدهم؛ فعدّوا الله تعالى أيضا في قائمة مكتَشَفاتهم. وقالوا بأعلى صوتهم وبكل سفاهة بأنه لم يصدر قط من الله تعالى صوت "أنا الموجود"، وإنما هذا إنجازنا نحن؛ إذ اكتشفناه دون أن يخبر بوجوده ودون أن يُظهر نفسه، بل كان ساكتا صامتا كمن هو نائم أو ميت، أما نحن فظللنا نفكر في الموضوع ونتقصّى آثاره حتى اكتشفناه. وكأنهم هم الذين أحسنوا إلى الله تعالى -بدلا من أن تكون منّة الله عليهم- إذ وضعوا في رقابهم عبثا طوق طاعة إله خياليّ دون تلقّيهم خبرا يقينيا منه بواسطة كلامه وإلهامه بوجوده، وبغير اليقين الكامل بالعذاب بعصيانه، وبالثواب عند طاعته، فكأنهم طبخوا بأيديهم وأكلوا بأنفسهم. ولكن الإله كان ضعيفا لدرجة ليس بوسعِه أن يخبر عن نفسه، ويُطَمئن عباده عن وعوده، بل كان مختفيا وهم الذين أظهروه، وكان خامل الذكر وهم الذين جعلوه معروفا، وكان صامتا واجما فأنجزوا مهمته، وكأنه اشتهر كإله قبل زمن قريب، وذلك أيضا بمساعيهم. وكل عاقل يعرف أن هذا الكلام أشد خطورة مما يقوله المشركون أيضا، لأن المشركين يحسبون آلهتهم منعِمة عليهم ومحسنة إليهم، ولكن منكري الإلهام قد تجاوزوا جميع الحدود إذ يزعمون أن منة إلـــهتَهم (أي العقل) ليست على الناس فقط بل على الله أيضا، وبسببها نال الله الشهرة بحسب زعمهم. ففي هذه الحالة؛ من الواضح تماما أنه ونتيجة إنكارهم الإلهامَ فإنه لم يتطرق إليهم الفساد فحسب -إذ لا يؤمنون بوجود الله إلا على سبيل الشك والظن ويقعون في أنواع الأخطاء- بل لقد حُرموا أيضا من التوحيد الخالص وتورطوا في الشرك. إذ ليس الشرك إلا أن يحسب المرء غير الله تعالى مصدرا للنِّعَم والإحسانات التي مصدرها هو الله في الحقيقة.

هنا قد يرد على ذلك أتباع "برهمو سماج" بأننا نحسب عقلنا من عند الله تعالى، ونعترف بفضل الله وإحسانه. ولكن يجب أن يكون معلوما أن جوابهم

هذا خديعة محضة. فمن فطرة الإنسان أنه ينسب إلى نفسه دائما أمرًا يرى نفسه قادرا عليه أو شيئا يخلقه بجهده. إن جميع الحقوق التي تنشأ في الدنيا إنما تنشأ من فكرة أن الإنسان يعُدُّ كلّ ما يحوزه نتيجة سعيه إنما هو ملكه وماله الخاص به. فلو عدَّ صاحب المنـــزل أن كل ما في منـــزله من الأشياء والأثاث إنما هو لله ولا حق له فيه، فلماذا إذًا يبطش بالذي يريد أن يسرقه، ولماذا يطالب باستعادة القرض من مقترضيه؟ فمما لا شك فيه أن كل ما يحوزه المرء بقوته ينسبه إلى نفسه. إن الله تعالى أيضا وضع هذا القانون في نظام العالم، وإليه تميل كل طبيعة. إن الأجير يطالب بالأجرة بعد الخدمة، كذلك العامل يطالب براتبه بعد العمل. وإنّ تدخّل المرء الجائرَ في حق غيره يجعله مجرما.

باختصار من المستحيل أن يسهر أحد ليلا دون أن يكحل النوم عينيه لحظة واحدة ليسقي أرضه بتحمل عناء الجوع والعطش في الفلاة وتحمّل معاناة البرد القارس طول الليل، ثم يشكر الله تعالى صباحا كما كان سيشكره ﷻ لو نام في بيته بكل هدوء طول الليل ثم ذهب إلى أرضه صباحا ليجد أن سحابة جاءت ليلا وأمطرت بغزارة وملأت أرضه ماءً بقَدَر ما كان ضروريا. فالجلي أن من لا يعتقد أن الله تعالى وجد الإنسان ضعيفا لا حول له ولا قوة، ووجده ناقصا وعديم العلم ومغلوب النفس، ورآه عرضة للسهو والنسيان؛ فرحمه وهداه بواسطة إلهامه إلى الصراط المستقيم، بل يظن بأنه بنفسه أنجز مهمة الاطّلاع على وجود الله ومعرفته بجهده وقوته؛ فواضح أنه لن يتساوى أبدا في شكر الله تعالى مع مَن يعتقد من الأعماق أن الله تعالى هو الذي هداه إلى الصراط المستقيم بمحض فضله وإحسانه ومنته بواسطة كلامه دون أي نوع من الجهد والسعي من قبله، ويعترف بأنه كان راقدا فأيقظه اللهُ، وكان ميِّتا فأحياه الله، وكان جاهلا فأخذ الله ﷻ بيده.

فتبين من هذ البحث كله أن منكري الإلهام محرومون من التوحيد الكامل، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يصدر عن روحهم مثل المؤمنين الصادقين

صوت: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ (الأعراف: ٤٤).. هدانا للجنة. فبئس ما قدّر هؤلاء القومُ اللهَ ﷻ بأن نسبوا إلى عقولهم الصفاتِ التي كان يجب أن ينسبوها إلى الله تعالى! بل والجلال الذي كان يجب أن يُظهروه له ﷻ فقد أظهروه لأنفسهم والقدرات التي كانت خاصة به فقد نسبوها إلى أنفسهم!! فصدق الله تعالى في قوله عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩٢)، أي أن منكري الإلهام لم يعرفوا الله حق المعرفة ولم يعرفوا رحمته التي تجيش كلما احتاج إليها الناس لذلك قالوا بأن الله تعالى لم ينـــزل أي كتاب على أيّ بشر.

"إن عقلك يجعلك أسير الاستكبار دائما، فاطلُب عقلا ينجيك من الزهو والعجب.

الأفضل أن نتعلم علمَ الله هذا منه، لأن في علمنا مئات الهفوات والأخطاء.

وإن كان الله صامتًا فمَن له أن يقول شيئا أفضل منه؟ وإذا ترك يدك فمن يستطيع أن يأخذ بها.

عليك أن تعرف قدره ﷻ واترك المحاجة، لأن ما تقدمه أنت سيجلب لك المصيبة حتما".[٥٣]

أقول بجد وجزم: إنه ليس في اتّباع العقل وحده دون الإلهام خسارة واحدة، بل إنها آفة تقود إلى آفات أخرى كثيرة، وسيأتي تفصيل ذلك في محله بإذن الله تعالى.

فكما خلق الله تعالى كل شيء أزواجا، كذلك جعل الإلهام والعقل زوجين. وكذلك إن قانون الله الحكيم القدير في الطبيعة هو أنه ما دام الشيء منفصلا عن زوجه بقيت ميزاته خافية، وفي معظم الأحيان يتراءى للعيان ضرره بدلا من نفعه. والحال نفسه فيما يتعلق بالعقل، بمعنى أن نتائجه الطيبة تظهر في علم الدين حين يقترن به زوجه أي الإلهام. وإلا، فبدون الاقتران بزوجه يظهر

---

[٥٣] *أبيات فارسية مترجمة. (المترجم)*

كغول يريد أن يلتهم البيت كله، وينوي أن يجعل المدينة كلها خرابا يبابا. وكلما تيسّر له زوجه؛ فما أجمله وما أطيبه صورةً وسيرةً. فالبيت الذي يحل به يُغنيه، والشخص الذي ينـــزل عليه يزيل عنه جميع أنواع النحوسة. فلكم أن تفكروا بأنفسكم: هل ينفع شيءٌ دون زوجه؟ فلماذا إذن تعتزّون إلى هذا الحد بالعقل الناقص وتتباهون به؟ أليس العقل هو الذي واجه ذلة بسبب الكذب مرارا؟ أليس هو الذي تكدَّم رأسه بقعا كبيرة نتيجة سقوطه مرة بعد أخرى؟ قولوا لي بالله عليكم، ما هذا الذي أعجبكم واشتاقت له قلوبكم؟ أيّة جنّية هذه التي علّقتم بها قلوبكم إلى هذا الحد؟ ألا تعلمون كم من أناسٍ سفك العقلُ دماءَهم من قبل؟ وكم منهم دفعهم إلى جُبّ الضلال فأهلكهم؟ لقد سبق له أن قضى على كثير من المعجبين به مثلكم! وقد التهم مئات الجثث الهامدة من قبل!! ثم ما هي الحقائق الدينية التي اكتشفتموها بالعقل المحض وليست موجودة في القرآن الكريم سلفا؟ أخرِجوا لنا بضعا منها على الأقل. فلو اكتشفتم بمجرد العقل حقائق سامية لم تُذكر في القرآن الكريم، لكان الأمر جديرا بالانتباه. ففي تلك الحالة كان لكم أن تقولوا في مجالسكم وبكل اعتزاز أنكم أنتم الذين اكتشفتم حقائق لا توجد في الكتب الموحى بها. ولكن مع الأسف الشديد لا يوجد في مجلاتكم سوى بعض الأمور المسروقة من القرآن الكريم، بل كله متاع سخيف لا يثبت منه إلا عدم علمكم وعدم فهمكم وخطؤكم بدلا من التعقل. وسأبين حقيقة ذلك في هذا الكتاب مفصلا بإذن الله.

ثم إن إنكاركم الإلهام الرباني في هذه الحالة ومع هذا العلم، وتنصيبكم أنفسكم آلهة من دون الله واعتباركم الأنبياء الأطهار طماعين؛ خير دليل على حسن طويتكم!! فلا تنخدعوا ظانين أن العقل شيء مميز لأننا نقوم بكل البحوث والتحقيقات بواسطة العقل. لا شك أنه شيء مميز في الحقيقة، ولكن لا تنكشف ميزاته إلا إذا اقترن بزوجه؛ وإلا فهو أسوأ من الأعداء أيضا في

الخداع، وأسوأ من المنافقين من حيث كونه ذا وجهين. فمن شقاوتكم أنكم تتضايقون حتى من ذكر اسم زوجه.

أيها الأصدقاء، فكّروا جيدا، فما من أهمية لأي شيء دون زوجه. لقد جعل الله تعالى الأزواج أمرا عجيبا! وأينما نوجّه نظرنا، نرى أن الأمور تستقيم بالأزواج فقط. فمثلا نرى نحن وأنتم جميعا بالعيون، ولكن هناك حاجة إلى الشمس كي نرى. كما نسمع بالأذن، ولكن هناك حاجة للهواء أيضا كي نسمع. فعندما تغرب الشمس يجلس الجميع في الظلام كالعميان، ولو حُجبت الآذان عن الهواء لتعذر السمع. أنّى للمرأة التي يعاني زوجُها العنة أن تحمل؟! والمزرعة التي لم يمسسها ماء أنّى لها أن تُثمر؟! هذه الأمور لا تفوق فهمكم. إنه لَقانون الطبيعة الذي تدّعون العمل به. فاعملوا الآن بادّعائكم حتى لا يبقى ادّعاءً فارغا وخداعا فقط.

"كل عين بحاجة إلى الضوء، هذا هو قانون الله تعالى.

متى استطاعت العين المبصرة أن ترى بدون الشمس المنيرة؟ متى خلق الله عينا مثلها؟

فما دمتَ بنفسك تنقض قانون الطبيعة، فكيف تعترض على غيرك؟

إن الذي يقضي حاجتنا في كل مجال كيف ظننت أنه تعالى لا يهدي في أمر الدين.

والذي خلق الخيل والبقر والحمير ليرفع عن ظهرك أعباء ثقيلة.

كيف يتركك حيرانَ في أمر الآخرة؟ من الغريب حقا أن تعتقد ذلك مع كونك عاقلا.

يا غافلا، ما دام قد أعطاك الله عينين، فلماذا تغمض إحداهما عند النظر.

إن الذي أظهر كل قدرة، كيف غابت عنه القوة على الكلام؟

إن الذي تتجلى كل صفة من صفاته الحسنة، أنّى لصفته هذه أن تبقى خافية.

كل من يغفل عن ذِكر الحبيب، فإن رسالة منه هي العلاج لغفلته.

تتعجب من رسالة الله، ما هذا العقل والفهم الذي تملكه يا متكبِّر؟

ما دام الله قد وهب العشق لطفا منه لحفنة من التراب، فأنّى له أن ينسى العشاق.

وما دام قد وهب الحب بلطفه التام، فكيف يمكن ألا يعطي دواء لهذا الداء.

ما دام قد أحرق القلوب بالعشق، فكيف لا يكلِّمهم رحمة منه.

إنّ القلب لا يهدأ دون الحديث مع الحبيب، وإن كان الحبيب أمام الأعين.

أمّا إذا كان الحبيب محجوبا، فكيف يمكن الصبر إذن دون الكلام.

ولكن لا يدرك هذه الأمور إلا من سلّم قلبه لأحد ووصل ذروة العشق.

للجمال علاقة مع العشاق، ولا يوجد حَسِينٌ إلا وله من يقدِّره.

العاشق الحقيقي هو الذي ينسى نفسه، إن عدَّ المرء نفسه شيئا، هو في العشق مذموم.

ولكن استئصال الكبر والأنانية، لا يمكن بغير وحي الله.

كل من استمتع بوصال الحبيب، فإنما كان بواسطة الوحي الإلهي فقط.

لقد وُجد العشق في الدنيا بسبب الإلهام فقط، وبسبب الإلهام فقط صار الألم بركانا.

إن رونق الشوق والحب والوفاء والأنس والألفة وبهاءها، كله بسبب الإلهام فحسب.

كل من وجد الله فقد وجده بواسطة الإلهام، وبسببه أشرق كل وجه مشرق.

إنك لست ممن يعرفون حقيقة الحب، لذلك تستغرب من كلام الحبيب.

العشق يقتضي كلام الحبيب، اذهبْ واسأل العاشق حقيقة هذا السر.

لا تقل بأننا بعيدون عن عتباته ﷻ بحيث لا يمكن أن تكون له علاقة معنا، ونحن حفنة من التراب.

يعرف القلب المنير أن البحث عن الله مودَع في فطرة الإنسان.

لا يهدأ القلب من دون الله، هكذا جُعلت الفطرة منذ الأزل.

لا يصبر القلب دون كلام الحبيب، فقد زرع الله تعالى هذه البذرة في فطرته منذ الأزل.

الإله الذي رزق الإنسان تلك الفطرة، أنّى له أن يضيع كمالها.

هل يسع الإنسانَ أن ينجز أعمال الله؟ كيف تقوم دودة صغيرة بمهمات الألوهية.

نحن جهال جميعا، والله يعلم الأسرار كلها. نحن عميان كلنا، والله بصير دائما.

إن ادّعاء التعقل والفطنة بحذاء الله لجهل شديد وغباوة.

إن إعراض المرء عن الشمس المنيرة، والظن بقدرته على الإنارة من باطنه.

فكرة قد أعمت الدنيا وأهلكتها، ورمت بها في بئر مظلمة رأسا على عقب.

إذا كانت لديك مسحة من عقل فلا تعتزّ بالعقل، إن هذا العقل وثن في سبيلك.

إن عقل الناس المشوب بالكبر جهل محضٌ، ولكن الناس مع ذلك يدعونه عقلا.

إن الكبر يخرِّب مدينة العقل، ويضلّ العاقلين ويحوِّلهم إلى سفهاء.

الشيء الذي يزيد كبرا وعُجبا، أنّى له أن يوصلك إلى الله تعالى أيها الغويّ.

إن الأنانية ستدفعك إلى الشرك، فتُب من الأنانية أيها المرائي.

إن المشرك بعيد عن السعادة كل البعد، ومرمِيٌّ بعيدا عن رحمة الله الأبدية.

إن الوصول إلى الله يمكن بعون الله فحسب، وليس بالمكر والرياء والمكائد والكفاءة.

ما لم تقِفْ أمام الله مثل طفل صغير، ستظل كأسك مليئة بالزَبد.

إن التواضع والانكسار شرط لنيل فيض الله تعالى، إذ لم ير أحد الماء ثابتا في مكان مرتفع قط.

إن الله يحب التواضع ولا مجال لاختيال عنده، ولا يصل المرء إلى عتباته بقوة جناحيه.

إن ذلك الرب الجليل يربّي المتواضعين، أما الطغاة فيُحرمون ويُرَدّون دائما.

إن لم تقم في ضوء الشمس كيف يمكن أن يقع عليك ضوؤها من وراء الحجاب.

يا عزيزي: إن في كفك ماء مالحا، فلا تعتزّ به إن كان لديك شيء من العقل.

إن ماء الحياة ستناله من الحبيب، فإن ابتغيت الحياة فاذهب واسأله إياه.

إن ماء الحياة مخفيٌّ تماما، فلم ير أحد طريقه بغير سراج من الله تعالى.

الأفكار التي تتوصل إليها بعقلك، نورها أيضا يأتي بوحي من الله تعالى.

ولأن عينك الروحانية ليست مفتوحة، فلا يعلم قلبك هذا السر.

تعصي الله ظنا منك أنك شاطر، ولست بحاجة إلى وحيه لأنك عاقل.

إن زَلّتك تجعلك محتاجا، وستفضح حقيقة عقلك في لمح البصر.

إن عقلك مثل مقبرة بيضاء، جميلة المنظر من الخارج ولكن بداخلها جثث متفسخة.

إن ذروة العقل هي تعليم الله، وكل صدق يتبين بواسطة الأنبياء حصرا.

كل من حاز المعرفة فقد حازها بواسطة التعليم، وكلٌّ من لم يعص الله استنار وجهُه.

يقول الدهر بلسان حاله: يا قصير العمر أمسك بذيل الرحيم.

من كانت ولادته ناقصة، كان طبعه ناقصا. تكفيك كلمة نُصحٍ واحدة إن كانت لك أذنان.

إن الله بريء من الأخطاء وأنت مليء بها، فلا تخاصِم واستقم على الحق.

إن عقلك مغلوب بالأطماع والأهواء بشدة، إن الاعتماد على المغلوب شيمة الأشقياء.

تتعلم من فلان وعلاّن، وتستحي أن تتعلم من ذلك الحكيم الذي لا نظير له.

لقد تركتَ سبيل الحق استكبارًا، فما هذا الذي فعلتَه، وما هذه البذرة التي بذرتها.

أيها الظالم: هو ذا ربنا وولّينا، وإن السماوات والأرض كلها عطاء منه.

الذي خلق السحاب والمطر والقمر والشمس والصيف والشتاء.

لنتغذى بأغذيتنا بفضله ونعيش ونربّي أنفسنا.

إن الذي رحم وتلطّف على أجسادنا، كيف يمكن أن يترك أرواحنا محرومة.

إن في وحي القرآن جذبا من الله، ليجذبك من النفسانية إلى الروحانية.

إن القرآن يمحو الشرك الخفي، لكي ترى آية الله من عنده سبحانه وتعالى.

ولكي تنجو من الكبر والعُجب والزهو، وتكون عبدا شاكرا لله.

تجنَّب الكبر ليرحمك الله، واعبده فإن العبادة أمر منه سبحانه وتعالى.

الحياة تكمن في الموت والتواضع والتضرع، ومن مات في سبيله فقد نال الحياة.

إن كأس الفناء هو ماء الحياة في الحقيقة، ومن شربه فقد نجا من الموت.

العاقل هو الذي يتحرّى الحبيب، وينال مراده بالتضرع والابتهال إليه.

السفاهة خير من عقل ودهاء يُلقيك في بئر الكبر والنخوة.

اطلب الحقَ واخرج من قوقعة الأنانية، بالله عليك اترك الأنانية.

هل التباهي في حضرة رب العالمين من الدين والإيمان في شيء.

أين أنت من ذلك القادر القدير، تُب ولا تتصف بمثل هذه الغباوة.

لو قلّ رشحُ فيض الله لحظة واحدة، لانقلب الخلق والعالم كله رأسا على عقب.

يا ذا النفس الدنيّة لا تتباهَ بالعُلوّ، ولا تَمُدّنّ قدميك أكثر من بساطك.

العابد من فنى على عتباته، والعارف من أعلن أن الله واحد لا شريك له.

تحسب نفسك صالحا، هداك الله، ما أسوأ فهمَك.

لماذا تحلق عاليا هكذا، لعلك تنكر ذلك العليّ عديم النظير.

ماذا فهمتَ من مشهد الدنيا حتى راقت لك هذه الدنيا الفانية.

ليس العاقل من يعلّق بها قلبه ما دام مضطرا لمغادرتها فجأة.

إن قطع العلاقة مع الله من أجل الدنيا، إنما هي علامة الأشقياء.

حين يحل لطف الله بأحد، ينفر قلبه من الدنيا.

عُد إلى صوابك فإن الدنيا دار فانية، كن من أهل الله، لأن معادك إلى الله أخيرًا.

إذا تناولت شربة السم الزعاف بنفسك، فكيف أحسبك عاقلا.

انظر إلى الذين ينسون أنفسهم ويضحون بها بأمر الله تعالى.

إنهم براء من التفكير في الصيت والعزة والمكانة، فقد أعطَوه القلب واستغنوا عن عمائمهم.

تخلّوا عن الأنانية واتحدوا مع الحبيب، وقد ضحّوا بشرفهم في سبيل رؤية الحبيب.

إن رؤيتهم تذكّر بالله، إنهم صادقون عند حضرة الكبرياء.

إنك تثير ضجة كبيرة من استكبار، وقد انحرفت عن سبيل العباد.

ما لم تتحلّ نفسك بالتواضع، كيف يلمع فيها نور من الله.

ما لم تفنَ الحبة في الأرض، كيف تتحول من واحدة إلى مائة، ففكِّر.

اجعل نفسك فانيةً لينـــزل عليك فيض من الله، ضحِّ بنفسك لتنال حياة أخروية.

ما لم تختَر التواضع والمسكنة، فـــلا تستحق فيض ذلك الهادي.

ما الإيمان؟ هو الإيقان بوحدانية الله وتفويض أفعال الله إليه سبحانه وتعالى.

ما دمت قد نلت العقل نتيجة تعليم الله، فلماذا تُعرض عن تعليمه.

لا تحسبن صدرك منوَّرا، لأن كل ما هو منوَّر، فقد نوِّر ببركة السماء.

العينُ التي ليس فيها هذا النور عين عمياء، والصدر الذي لا يخلو من الشك فهو كالقبر.

إن الصالحين والصادقين والأتقياء كلهم قد نالوا الصراط المستقيم بواسطة الوحي الإلهي.

أيّ عقل يحظى بمعرفته سبحانه وتعالى بنفسه، لا يفهم هذا الأمر إلا من فهّمه الله.

إنّ عقلك دون وحيه عزّ وجلّ كالوثن في سبيلك، وأنت تعبده ليلَ نهارَ.

لو تراءى لك هذا الوثن أمام عينيك، لسالت منهما أنهار الدموع.

ولكن لم تبق لك عينان أصلا لسوء الحظ، وإن عبادة الأوثان حوّلتك إلى وثن.

إن العقل لا يصل إلى أسرار الحق أبدا، وكل ما يُنال بين حين وآخر إنما هو بفضل الله.

لو أتى العقل برأي صائب فلا يتأتى من عنده، بل يأتي به من مكان معين.

لقد هلكتَ استكبارا بسبب عقلك، أما نحن ففداء للذي خلق العقل.

إن قلبك أسير أفكار لا حقيقة لها، بينما قلبنا أسير علم ذلك البصير.

إن الصالح يحب الصالحين، وسيئ الطوية ينفر من الخصال الطيبة.

هناك أسرار فوق أسرار، إلام سيعدو حمار العقل والفكر.

كيف يريك السبيل الدقيق هذا السراج الموشك على الانطفاء من شدة الأطماع؟

إن وحي الله يدلك على الطريق، ويجعل النور يصاحبك إلى أن تصل الغاية المتوخاة.

لا ميزة لجسدنا ولا لروحنا، إن الخيلاء إزاء الواحد الذي لا شريك له حمق.

ما الدين؟ هو عدُّ المرء نفسه فانيا، وتخلّيه عن الأنانية تماما.

حين تسقط بصوت أليم وكئيب شديد الألم والكآبة، تهبّ يدٌ لتدرِكك دائما.

إن قلب العاقل يضطرب من أجل السفيه، والبصير يرحم الكفيف.

فمن قانون الطبيعة أن يهتم القويُ بالضعيف.

كيف يخرج الرحمن من هذا القانون بل لا بد أن تكون رحمة الله أوسع من الجميع.

إنّ الإله الذي رفع عنا جميع أعبائنا، ولم يقصر في رحمته من أجلنا.

أنّى له أن يُهمل أمر ديننا، عليك أن تستحي من هذا الإنكار والبُغض.

لا تعلّق قلبك بالدنيا الفانية، وتذكّر وفاءِ الله يوما من الأيام.

لقد ثبت لك مرارا أن هذه العقول كثيرا ما تقع في الخطأ والنسيان.

لقد شاهدتَ فساد عقلك مرارا، وقد فشلتَ بسبب عقلك هذا مرارا.

مع ذلك تفتخر بعقلك، ولا تزال تتقدم دون تفكّر ولا تدبر.

طهِّر نفسك من كل عبثٍ، وتحلَّ بالعفاف لتتنـــزل عليك رحمة من الله سبحانه وتعالى.

إنّ التخلّي عن الأنانية ليس سهلا، إن طعم الموت وقتل النفس الأمارة سيَّان.

نادرا ما يوجد في الصدور قلب منـــزَّه عن الغرور والغِلِّ.

الحق أن العارفين بالحقيقة قلة قليلة، وإن كان الجميع أناس من حيث الشكل.

عُد إلى صوابك يا مَن وقعتَ في البئر تاركا العقل والدين.

لا تبحث بعقلك المحدود عن الله الذي لا تحدُّه حدود، ولا تستخدم الدخان مكان النور النقي.

ولا تلتمس بالكبر والأنانية والتفاخر ما يجب الْتماسُه بالتواضع والانكسار.

واها لهذا المبدأ للسلوك الذي هو تذكار للشيخ "الرومي" في كتابه "المثنوي"!

الحذلقةُ ضد التواضع والانكسار، فاتركْها وابحث عن التواضع بحرص في كل مكان.

وذلك كما تحمل الأم بحرص طفلا صغيرا في حضنها طول النهار".[٥٤]

الوسوسة الثانية: لو افترضنا أيضا أن هناك حاجة إلى إلهام كامل وعديم النظير لتكميل المعرفة، فمع ذلك ليس ضروريا أن يكون الله تعالى قد أنزل ذلك الإلهام حتما، فهناك أشياء كثيرة يحتاج إليها الإنسان في الدنيا، ولكن لم يقضِ الله تعالى كافة حاجاته. فمثلا يود الإنسان ألا يصيبه الموت، وألا يُفلس قط وألا يمرض أبدا، ولكنه مع ذلك يموت يوما ما خلاف رغبته ويفلس ويصيبه المرض أيضا.

الجواب: إن الوحي الكامل وعديم النظير الذي كنا بحاجة إليه، أيْ القرآن الكريم، موجود بلا شك، و لم ينبس أحد مقابل كماله وكونه عديم النظير ببنت شفة إلى يومنا هذا، فعدُّ الموجود غيرَ موجود وعدّ ضرورته افتراضا، إنما هو فعل الذين فقدوا بصرهم. فانقُضُوا إن استطعتم تلك الأدلة التي سقناها في هذا الكتاب على كمال القرآن وكونه منقطع النظير. وإلا فإن إطالة اللسان مع عدم القدرة على الجواب علامة فقدان الحياء. وما دام قد جاء الوحي الكامل وعديم النظير وأعلن بنفسه أنه عديم النظير، وتحدى أنْ يدحض أحد ذلك أولاً قبل أن يُنكره؛ فإصرارهم على أن الوحي مجرد خيال دون ردّ معقول على التحدي، إنما هو تعنّت بحت وليس إيمانا.

إن قياس العالَم الآخر على الدنيا خطأ كبير. لم يخلق الله تعالى الدنيا للراحة الدائمة ولا للألم الدائم، بل الراحة والألم كِلاهما سينتهي وسينقضي دورهما يوما ما. أما الدار الآخرة فهي عالَـــم الراحة الدائمة أو العقوبة الدائمة. ومن أجلها يتحمل كل عاقل العناء بطيب خاطره، ويطيع الله تعالى بتحمل كل نوع

[٥٤] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

من المشقة خشية سوء العاقبة، ويتخلّى عن كل راحة ورفاهية ويختار كل شدة وصعوبة. والآن قولوا بالله عليكم، أليس تقديم مثال دار الفناء مقابل العالَم الأبدي قصور نظر؟

الوسوسة الثالثة: صحيح أن المعرفة التامة واليقين الكامل لا يحصلان بمجرد العقل، ولكن يمكن الحصول عليهما إلى حدٍ ما بواسطة العقل، وفي ذلك كفاية للنجاة.

الجواب: إن هذه الوسوسة مبنية على فكرة متعنتة تماما. لقد قلتُ من قبل إن العاقبة الحسنة بدون شائبة من الشك تتوقف على اليقين الكامل، واليقين الكامل لا يتأتّى دون كتاب الله الكامل وعديم النظير. كذلك إن اجتناب الذنوب أيضا غير ممكن دون المعرفة الكاملة، والمعرفة الكاملة غير ممكنة دون الوحي الإلهي الكامل. فكيف يمكن إذن أن يكون العقل وحده كافيا للنجاة؟ وخاصة إنّ ذلك الأسلوب لمعرفة الله الذي اختاره العقل الغريب لأتباعِ مذهب "برهمو سماج" اتّباعا لبعض الفلاسفة الأوروبيين، إنما هو غريب حقا، ويبعث على التردد بحيث يوقع الإنسان في أنواع الشكوك والشبهات دع عنك الحصول على مرتبة المعرفة، إذ أهم حسبوا الله ﷻ هيكلا بلا روح بحيث تتلاشى عزته وعظمته كليًّا. إنهم يقولون بأن معرفة وجود الله ليست من الله، بل حصلت صدفة بمساعي العقلاء. ثم يزيدون ويقولون بأنه حين وُلد بنو آدم في البداية كانوا بلا عقل كالوحوش، ولم يخبر الله تعالى أحدهم بوجوده. ثم تبادرت إلى أذهان الناس تدريجيا فكرة أن يتخذوا لأنفسهم إلــها تلقائيا. ففي البداية اتخذوا الأشياء القريبة منهم كالجبال والأشجار والأنهار وغيرها آلــهة، ثم تقدموا قليلا فاتخذوا الهواء والطوفان قادرين على كل شيء، ثم تقدموا أكثر واتخذوا الشمس والقمر والنجوم أربابا لهم. وهكذا توصلوا إلى وجود الله الحقيقي بعد التفكير العميق رويدا رويدا.

فتأملوا الآن كم تنشأ شكوك حول وجود الله ﷻ نتيجة هذا البيان، وكم من ظنون سيئة تطل برأسها حول كونه حيًّا وقيوما ومدبرا بالإرادة، حتى أن المرء يضطر للقبول، والعياذ بالله، بأن الله تعالى لم يخبر بوجوده بنفسه ولا عن صفات ذلك القدير العالِم بالغيب التي يجب أن يتصف بها، بل قد تبادرت إلى ذهن الإنسان فكرة أن يتخذ لنفسه إلـــها. فجعل الماء إلـــها أحيانا والأشجار أو الأحجار أحيانا أخرى. ثم ترسّخ في ذهنه أن هذه الأشياء ليست بالآلهة، فلا بد أن يكون الإله غير ذلك الذي لا نراه. أفلا يدفع هذا الاعتقادُ الإنسانَ إلى الشك أنه لو كان لهذا الإله المفترض موجود فعلا، لأخبر بوجوده كما يفعل الناس الأحياء والموجودون؟ وخاصة حين يرى المتمسك بهذه الفكرة أن عدَّ الله ناقصا وأبكم لا يصح، بل القدرة على التكلم أيضا ضرورية له كبقية الصفات الكاملة مثل الرؤية والسمع والعلم وغيرها. ثم يقع في حيرة أنه إذا وُجدت فيه قدرة على التكلم فما الدليل عليها، وإلا فكيف صار كاملا؟ وإذا لم يكن كاملا فكيف استحق الألوهية؟ وإذا جاز كونه أبكم فلماذا لا يجوز كونه أصم أو أعمى؟ ولسوف يتخلص المرء من كل هذه الشبهات نتيجة إيمانه بالإلهام فقط، وإلا سيموت كما مات آلاف الفلاسفة بوقوعهم في هوة الإلحاد.

والآن لكل منصف أن يحكم بنفسه؛ أليس هذا الاعتقاد مما يؤدي إلى إنكار وجود الله ﷻ؟ وهل يستقر إيمان شخص يرى الإله ضعيفا لدرجة أنه لولا وجود أهل المنطق لذهب الإيمان بالله كليًّا؟ إن هؤلاء الجهلاء لا يفقهون بأن الله تعالى يربّي الناس بصفاته كلها وليس ببعضها، فكيف يمكن إذًا ألا يستفيد عبادُه من بعض صفاته الكاملة؟ هل من كفر أكبر من القول بأن الله ليس ربا كاملا للعالمين بل يملك نصف الربوبية أو ثلثها.

الوسوسة الرابعة: إذا كان تكميل المعرفة يقتصر على كتاب موحى به فقط، كان من الأفضل في هذه الحالة أن يتلقى بنو آدم جميعا الإلهام، لكي يبلغ الناس قاطبة مرتبة المعرفة الكاملة مباشرة وينالوا الفيض الإلهي دون واسطة أو

حاجة إلى غيرهم، لأنه لو كان الإلهام أمرًا جائزَ الوقوع في حد ذاته لجاز أن يكون كل شخص ملهَما، وإلا فلا يجوز أن يتلقّى أيّ شخص إلهاما.

الجواب: إن الكفاءة والقدرة شرطٌ لتلقي المرء الإلهامَ. ليس صحيحا أن يصبح كل فلان وعلان رسولا من الله تعالى، وأن ينـــزل الوحي الصادق على كل شخص. لقد أشار الله تعالى نفسه إلى هذا الأمر في القرآن الكريم فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٥). أيْ عندما نُري الكفار آية لإظهار صدق القرآن الكريم يقولون لن نؤمن حتى ينـــزل كتاب الله علينا نحن. والله أعلم حيث يجعل رسالته، أي هو أدرى من هو أهل لذلك، فيُنـــزل فيض الإلهام على مَن يكون جديرا به.

وبيان هذا الإجمال أن الحكيم القدير خلق الناس على أطوار مختلفة بناء على حِكَمه المختلفة. وجعل سلسلة فطرة بني آدم شبيهة بخطٍّ أحدُ طرفيه مرتفعٌ جدا بينما الآخر منخفض جدا. ففي الطرف المرتفع نفوس نقيةٌ، كفاءاتهم كاملة بحسب مراتبهم المتفاوتة. وفي الطرف المنخفض نفوس على درجة منخفضة جدا في هذه السلسلة حتى صاروا قريبا من دواب لا تعقل. وفي الوسط نفوس تحتل درجة وسطى من العقل وغيره. ولإثبات ذلك يكفي دليلا مشاهدة الناس مختلفي الكفاءات، لأنه ما من عاقل يُنكر أن الناس يحتلون درجات مختلفة من حيث العقل والتقوى وخشية الله وحبه ﷻ. وكما يولَد أحد جميلا بمقتضى قدر الله ﷻ ويولَد غيره دميما، كذلك يولَد أحد بصيرا وغيره كفيفا. وهناك من يولَد ضعيف البصر وآخر قوي البصر، ومن يولَد تام الخلقة وآخر ناقصها، كذلك إن التفاوت في المراتب في القوى الذهنية والأنوار القلبية أيضا ملحوظ ومحسوس. غير أنه صحيح تماما أن كل شخص يستطيع أن يتقدم في العقل والتقوى وحب الله ﷻ إن لم يكن مختل الحواس أو مسلوب العقل تماما.

والجدير بالانتباه أنه ليس لنفسٍ أن تتقدم أكثر من دائرة كفاءاتها أبدا. فمثلا مهما جرت من محاولات لتعليم شخص ضعيف الدماغ ولادةً أو ناقص الخلقة أو التربية وتثقيفه -مثل من يقول له عامة الناس في بلادنا "فأر دولي شاه"[٥٥]- حتى لو وُظِّف لتعليمه فيلسوفٌ كبير، فلن يقدر على التقدم أكثر من الحد الطبيعي الذي حدده الله تعالى له، لأنه لا يستطيع -بسبب ضيق دائرة كفاءته- أن يصل أبدًا إلى تلك المراتب العالية التي يصل إليها شخص واسع القوى. إن هذه المسألة بديهية بحيث لا أتصور أن ينكرها عاقل بعد التدبر فيها. ولكن لا غرابة إنْ رفضها شخص خلعَ ربقة العقل نهائيا.

والمعلوم أيضا أنه لولا التفاوت في العقول لما وُجد اختلاف في فهم العلوم، ولما سبقت بعض الأذهان بعضها الآخر. إن الذين يمارسون مهنة التربية والتعليم يعرفون جيدا أن بعض الطلاب يكونون أذكياء بطبيعتهم ويفهمون المقصود بأدنى رمز أو إشارة، وبعضهم متّقدو الذهن بحيث يكتشفون أمورا جديدة وممتازة من تلقائهم، ويكون بعضهم الآخر أغبياء من حيث طبائعهم وبليدين، فلا يفهمون الحديث مهما شرحتموه لهم، حتى لو فسرتموه لهم ألف مرة. وحتى لو فهموا شيئا بعد تعب شديد لأعوزتهم قوة الحفظ، فينسون سريعا كالنقشِ في الماء. كذلك يوجد تفاوت كبير بين القوى الأخلاقية والأنوار القلبية أيضا. فمثلا هناك ابنان لشخص واحد، ويتعلمان على يد معلِّم واحد، ثم يتبين أن أحدهما سليم الطبع وصالح، بينما الآخر خبيث الطبع وشرير النفس، أو أحدهما جبان والآخر شجاع باسل، وأحدهما غيور والآخر تعوزه الغيرة تماما. ويحدث أحيانا أن شرير النفس أيضا يميل إلى الصلاح بعض الشيء بالوعظ والنصيحة. وفي بعض الأحيان يبدي الجبان شجاعة إلى حد ما نتيجة أطماع النفس، فينخدع قليلُ الخبرة فيظن أنه تخلّى عن طبعه. فأقول مرة بعد

---

[٥٥] *"دولي شاه" وفأره كائنان خرافيان معروفان في الأساطير الشائعة في القارة الهندية. (المترجم)*

أخرى بأنه ما من نفس تستطيع أن تتقدم أكثر من دائرة كفاءتها. وإذا حاز شيئا من التقدم فيحوزه ضمن دائرة قواه الفطرية. لقد انخدع كثير من قليلي الفهم إذ ظنوا أن القوى الفطرية يمكن أن تتفوق على القوى المقدرة لهم منذ ولادتهم نتيجة ممارسات مناسبة. والأسخف من ذلك والأبعد عن العقل قول المسيحيين بأن فطرة الإنسان تنقلب بمجرد الإيمان بألوهية المسيح. ومهما غلبت على أحدٍ القوى السَّبُعية أو القوى الشهوانية أو الضعف في القوى العقلية من حيث الخِلقة، فإنه يتخلّى عن حالته التي جُبل عليها بمجرد الاعتقاد بكون عيسى عليه السلام الابن الوحيد لله تعالى. لكن يجب الانتباه إلى أن مثل هذه الأفكار إنما تنشأ في قلوب الذين لم يفكروا في العلوم الطبيعية والطبية، أو الذين عميت عيونهم لفرط العناد وعبادة الخلق، وإلا فإن قضية الاختلاف في الطبائع ثابتة ومتحققة لدرجة أن الحكماء حين بحثوا في هذا الموضوع ثبت لهم بناء على تجارب متتالية أن كون المرء جبانا أو شجاعا أو بخيلا أو سخيا أو ضعيف العقل أو قويّ العقل أو دنيّ الهمة أو رفيعها، أو حليم الطبع أو سريع الغضب، أو فاسد الأفكار أو صالحها؛ ليس من الأمور العارضة أو وليدة الصدفة.. بل قد جعل الخالق الأزلي فروقا مختلفة في تكوين العناصر في الإنسان وفي نسبتها وفي وضعية خِلقة الصدر والقلب والجمجمة له. فبسبب هذه الفروق يلاحَظ الفرق البيّن بين القوى الأخلاقية والعقلية لدى مختلف الناس. ولقد وافق الأطباء أيضا على هذا الرأي القديم وقالوا بأنه عندما بُحِث في جماجم اللصوص والنهاب بدقة وُجد أن تركيبها خاص بهذه الفئة الفاسدة الأفكار بوجه خاص. وقد زاد بعض اليونانيين على ذلك، وبعض الناس يستنبطون أفكار البعض الباطنية بالنظر إلى أعناقهم وأعينهم وجباههم وأنوفهم وغيرها من الأعضاء أيضا.

على أية حال، من الثابت والمتحقق تماما، ولا مندوحة من القبول بأن التفاوت الفطري بين قوى بني آدم الخلقية والعقلية واردٌ، وأن كل نفس تتقدم إلى الصلاح إلى حدٍ ما ولكن ليس أكثر من قدرتها.

قد تخالج هنا قلبَ أحد شبهةٌ أن الله تعالى بيَّن أن جميع الناس فُطروا على الاعتقاد بالتوحيد إذ قال: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ *(الروم: ٣١)*.. أيْ أن القيام على التوحيد موجود في فطرة البشر التي خُلقوا عليها. وكذلك قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ *(الأعراف: ١٧٣)*.. أيْ أن كل روح قد أقرّت بربوبية الله دون استثناء ولم تنكر أيٌّ منها، وهذا أيضا إشارة إلى الإقرار الفطري. وقال أيضا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ *(الذاريات: ٥٧)*، وفي ذلك أيضا إشارة إلى أن العبادة أمر طبيعي. إذن، فما دام توحيد الله تعالى وعبادته أمرا طبيعيا لبني آدم كافة، ولم يُخلق أحد للتمرد والإلحاد، فكيف يمكن أن تُعدَّ من الفطرةِ أمور تعارض معرفة الله ﷻ وخشيته؟

إن هذه الشبهة ناتجة عن سوء الفهم للحقيقة، لأنه لا يثبت من الآية المذكورة إلا أنه قد زُرعت في فطرة الإنسان بذرة الرجوع إلى الله تعالى والإقرار بوحدانيته. ولكن أين ورد في الآية أن تلك البذرة متساوية في كل فطرة؟ بل قد جاء التصريح في القرآن الكريم مرارا بأن تلك البذرة تصبح متفاوتة المراتب في بني آدم؛ ففي بعضهم توجد بقدر ضئيل جدا وفي بعضهم بقدر متوسط، وفي بعضهم الآخر بقدر كبير جدا، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ *(فاطر: ٣٣)*.. أي أن بني آدم يملكون طبائع مختلفة، فمنهم ظالم وقد غلبت القوى البهيميةُ أو الغضبية على نور فطرتهم، ومنهم من يحتلون الدرجة الوسطى، وبعضهم سبقوا في الحسنات والرجوع إلى الله تعالى. وقال عن بعضهم الآخر: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ *(الأنعام: ٨٨)*.. أي أن هؤلاء المجتبين كانوا متميِّزين عن غيرهم من حيث قواهم الفطرية فاستحقوا الرسالة والنبوة. وقال عن بعضهم: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ *(الأعراف: ١٨٠)*.. أي أن نور فطرتهم تضاءل لدرجة لا فرق بينهم وبين الدواب إلا قليلا.

فيجب الانتباه إلى أنه مع أن الله تعالى قد قال بأن بذرة التوحيد موجودة في كل نفس، ولكنه بيّن أيضا إلى جانب ذلك في عدة أماكن أن تلك البذرة ليست على مستوى واحد في كل الناس، بل قد غلبت الأهواء النفسانية على طبائع البعض لدرجة صار نورها كالمفقود. فمن الواضح أن كون القوى البهيمية أو السَّبُعية هي من الفطرة، لا ينافي الاعتقاد أن وحدانية الله ﷻ أيضا من الفطرة. ومهما غلبت المرءَ الأهواءُ النفسانية والنفسُ الأمارة، فإن نور الفطرة يظلّ فيه إلى حد ما. فالذي يسرق مثلاً أو يسفك الدم أو يرتكب الفعل الحرام بسبب غلبة القوى الشهوانية أو الغضبية عليه -وإن كان ذلك من مقتضى طبيعته- فإن نور الصلاح المودَع في فطرته مقابل ذلك يُدينه كلما صدر منه فعل غير لائق. وإلى هذا أشار الله تعالى في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ *(الشمس: ٩)*.. أي لقد أنزل الله تعالى على كل إنسان إلهاما يسمّى نور القلب؛ أي القوة على التمييز بين فعل الخير والشر. بمعنى أنه كلما قام السارق بسرقة أو سفك القاتل دما، فإن الله تعالى يلقي في قلبه فورا بأنه أساء العمل وما أحسن صنعا، ولكنه لا يُلقي لذلك الإلقاء بالا، لأن نور قلبه يكون مضمحلاً جدا وعقله ضعيفا، وتكون القوةُ البهيمية غالبة والنفس طالبة. فتوجد في الدنيا مثل هذه الطبائع أيضا، إذ يثبت وجودها في المشاهدات اليومية. إن حدة نفوسهم واشتعالها الطبيعي لا يقلُّ، لأنه لا يقدر أحد على محو ما خلقه اللهُ، غير أن الله تعالى قد أوجد له علاجا أيضا. فما هو ذلك العلاج؟ إنه التوبة والاستغفار والندم؛ بمعنى أنه لو صدر من الناس عمل سيئ -وهو مقتضى نفوسهم- أو خطرت ببالهم فكرة سيئة نتيجة مقتضى الطبيعة ثم حاولوا تداركها بالتوبة والاستغفار، لغفر الله لهم ذلك الذنب. ثم إذا ندموا وتابوا مرارا نتيجة التعثر المتكرر، فالتوبة والندامة تغسل تلك الشوائب. هذه هي الكفارة الحقيقية، وهي العلاج للذنب الطبيعي. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّٰهَ يَجِدِ اللّٰهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(النساء: ١١١). إن هذه الآية الحكيمة والدقيقة المعاني تعني: أنه كما أن صدور العثار والذنب من لوازم النفوس الناقصة، فإن المغفرة والرحم صفة الله الأزلية والأبدية، لأنه هو الغفور والرحيم، أي أن مغفرته ليست سطحية أو آنية، بل هي الصفة الأزلية لذاته الأزلية التي يحبها، ويحب إفاضتها على كل إنسان ذي صفات متميزة. أيْ أنه كلما رجع الإنسان إلى الله تعالى عند الزلة وصدور الذنب نادما تائبا، كان جديرا عند الله بأن يرجع عليه بالرحمة والمغفرة. وإن رجوع الله إلى العبد النادم والتائب لا يقتصر على مرة أو مرتين بل هذه صفة الله الدائمة. فكلما رجع المذنب إليه ﷻ بالتوبة، تجلت له صفته هذه دائما وحتما. فليس من سنة الله تعالى ألا تتعثر الطبائع القابلة للعثار أو أن تتغير جذريا فطرة الذين تغلب عليهم القوى البهيمية والغضبية، بل إن من سننه الثابتة والجارية أن الناقصين الذين يرتكبون الذنب من جراء النقص فيهم فإنه تعالى يغفر لهم نتيجة توبتهم واستغفارهم. أما من كان ضعيفا بطبيعته من حيث بعض قواه، فلا يمكن أن يتقوى؛ لأن ذلك يستلزم التغيير في الخلق وهو محال بداهةً. والملحوظ والمحسوس بشكل عام أن الذي يملك طبيعة سريعة الغضب لا يمكن أن يتحول إلى بطيء الغضب قط، بل يلاحَظ دائما أن شخصا مثله يُظهر في مواضع الغضب أماراته عفويا على الرغم منه، ويفقد السيطرة على نفسه أو يقول ما لا يجوز قوله. ولو صبر بالكاد لاحترق قلبه كمدا على أية حال.

فمن الغباوة الظن أن شعوذة ما أو اختياره دينا معينا سيؤدي إلى التغيير في طبعه. لذا قال النبي المعصوم ﷺ الذي كانت الحكمة جارية على شفتيه: "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام".. أي أن الذين يملكون طبائع سليمة في الجاهلية هم الذين يكونون سليمي الفطرة بعد دخولهم الإسلام أيضا. إذن، فالطبائع الإنسانية مختلفة الأقسام والأنواع كالجواهر في المناجم؛ فمن الطبائع ما هو لامع ونـــزيه مثل الفضة، وبعضها كريه الرائحة وسريع الاحتدام مثل الكبريت، بعضها مضطرب غير مستقر مثل الزئبق وبعضها صلب وكثيف

كالحديد. وكما أن الاختلاف في الطبائع بديهي الثبوت، كذلك فإنه ينسجم مع سنة الله تعالى أيضا، وليس بالأمر العشوائي، وليس بالذي يخالف قوانين نظام العالم، بل عليه تعتمد عمارة العالم وتقدمه.

والمعلوم أنه لو كانت الطبائع كلها على مستوى واحد من حيث الكفاءات، لبطل اختلاف الأمور التي تقتضي كفاءات مختلفة وتعتمد عليها عمارة الدنيا، لأن الطبائع الشديدة تتناسب مع الأعمال الشديدة، والطبائع اللطيفة تنسجم مع الأعمال اللطيفة. لقد أبدى الحكماء اليونانيون أيضا رأيهم بأنه كما يكون بعض الناس أقرب إلى الدواب، كذلك يقتضي العقل أن يملك بعضهم نفوسا تبلغ كمال الصفوة واللطافة، فكما تلاحَظ سلسلة الطبائع الإنسانية مترديةً إلى الأسفل لدرجة تتصل بالدواب كذلك يجب أن ترتقي إلى الأعلى بحيث تتصل بالعالم الأعلى.

فلما ثبت أن للناس مراتب متفاوتة من حيث العقل والقوى الأخلاقية ونور القلب، ثبت بذلك أن الوحي الإلهي يختص ببعض الأفراد منهم.. أي الكاملين منهم من كل الوجوه؛ لأنه من الواضح لكل عاقل أن كل نفس تستقبل الأنوار الإلهية بحسب كفاءتها ومقدرتها وليس أكثر من ذلك. إن مثال الشمس واضح جليّ لفهم هذا الأمر؛ فمع أن الشمس تنشر أشعتها في كل جانب، ولكن لا يستقبل كل بيت ضوءها بالمستوى نفسه. فالبيت الذي بابه مغلق لن يدخله الضوء. والبيت الذي فيه نافذة صغيرة تقابل الشمس سيدخله قليل من الضوء، ولكنه لا يزيل الظلمة كليا. أما البيت الذي أبوابه مفتوحة كلها أمام الشمس وليست جدرانه مصنوعة من مادة كثيفة بل من زجاج شفاف وجليّ تماما، فلن يستقبل الضوء بصورة كاملة فحسب، بل سينشره أيضا في كل جانب ويوصله إلى غيره. هذا المثل ينطبق على نفوس الأنبياء النقية المذكورة آنفا. أيْ أن النفوس المقدسة التي يصطفيها الله تعالى لرسالته تكون من حيث رفع الحُجُب والصفاء الكامل كقصر من زجاج لا كثافة فيه ولا حجاب. فمن الواضح أن

الذين لا يحظون بهذا الكمال التام لا يمكن أن ينالوا مرتبة النبوة من الله تعالى. بل وُهبت هذه المرتبة من قبل القَسَّام الأزلي لذوي النفوس المقدسة البريئة تماما من الحُجُب المظلمة، والمنـــزّهة حقًّا من الأغشية المادية، والذين بلغت قداستهم ونزاهتهم درجة لا يُتصوَّر أكثر منها. فإن تلك النفوس التامة والكاملة تكون وسيلة لهداية جميع المخلوقات. وكما أن فيض الحياة يصل إلى جميع الأعضاء بواسطة القلب، كذلك قد قدّر الله تعالى الحكيم أن يصل فيض الهداية بواسطة هؤلاء الكُمّل، لأنهم وحدهم قد زُوِّدوا دون غيرهم بالعلاقة الكاملة التي يجب أن تتحقق في المفيض والمستفيض. ولا يمكن بحال من الأحوال أن يُفيض الله - الأحد والمنـــزَّه- بأنوار وحيه المقدس على أناس معظم أجزاء دائرة فطرتهم مظلمة وضبابية وضيقة جدا ومنقبضة، وطبائعهم الخسيسة منغمسة في التكدرات السِّفلية. ولو لم نخدع أنفسنا بأنفسنا، لما وسعنا إلا أن نعترف بأن تحقيق الاتصال الكامل بالذات الأزلية ومكالمة ذلك القدوس الأعظم ﷻ، يُشترط الكفاءة الخاصة والنورانية التي تليق بتلك المرتبة العظيمة وشأنها. وليس صحيحا مطلقا أن كل من كان في حالة النقصان والفقر والتورط في الشوائب، وكان محجوبا بمئات الحُجُب المظلمة يمكنه أن ينال هذه المرتبة مع قصور طبيعته وفتور همته. فلا ينخدعنّ أحد من أن المسيحيين من جملة أهل الكتاب أيضا يعتقدون أن الأنبياء الذين ينـــزل عليهم وحي الله ليسوا حائزين على القدسية والتنـــزه والعصمة والكمال في حب الله ﷻ، لأن المسيحيين قد فقدوا المبادئ الحقة وقد ضحّوا بالحقائق كلها ليُعدّ المسيح إلـــها، ولتترسخ عقيدة الكفارة في كل الأحوال. ولما كان في عصمة الأنبياء وقدسيتهم هدمٌ لبنائهم الذي يبنون، اضطروا ليختلقوا كذبة أخرى كتمانا على كذبتهم الأولى، واضطروا ليفقأوا عينهم الثانية أيضا بعد أن ضاعت عينهم الأولى. فبسبب حبهم للباطل اضطروا لترك الحق، وأجازوا الإساءة إلى الأنبياء، وزعموا الأطهار نجسين. وحسبوا القلوب التي كانت مهبط الوحي قاسية ومكدّرة لكيلا تقلّ عظمة إلههم

الزائف، أو لا يحدث أي خلل في عقيدة الكفارة. فبسبب حماس هذه الأنانية لم يفكّروا أن ذلك لا يؤدي إلى إهانة الأنبياء فقط بل يحط من قدوسية الله سبحانه وتعالى أيضا، لأن الذي ظل على صلة وعلاقة مع النجسين -والعياذ بالله- أنّى له أن يكون طاهرا بنفسه!!

فزبدة القول أن كلام المسيحيين هذا منحرف عن الحق تماما لحبهم الشديد للباطل. والآن يريدون أن ينضِّروا دون مبرر هذا المعتقد الذي تمسك به آباؤهم عبدةُ المخلوق، وإن انقلبت بسببه الحقائق كلها رأسا على عقب، أو مهما اضطروا لمعارضة الحق والصدق. ولكن على طالب الحق أن يدرك أن أقوال هؤلاء المبطلين لن تضر الحق الصراح شيئا، ولن يتغير الحق الذي صِدْقه بيّنٌ في حد ذاته بهرائهم وهذيانهم، بل الحق أنهم يفضحون أنفسهم ويهينونها بالكذب وتركِ سبيل الحق ويسقطون من نظر العقلاء. إن كون القدسية الكاملة شرطا لتلقي وحي الله تعالى ليس بالأمر الذي أدلة إثباته ضعيفة أو يصعب فهمه على ذي عقل سليم، بل إنها لمسألة توجد شهادتها في الأرض والسماوات كلها، وتصدّقها كل ذرة من ذرات العالم، ويقوم عليها نظام الدنيا كلها.

لقد وضّح القرآن الكريم هذه المسألة بمثال رائع جدا أسجله فيما يلي مع تحقيق دقيق يتعلق بتفسيره وضروري لتكميل هذا البحث، فيقول الله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ *(النور: ٣٦)*.. أي أن النور الذي يُرى في كل مرتفع ومنخفض، سواء أكان في الأرواح أو في الأجساد، وسواء أكان ذاتيا أم عرضيا، وسواء أكان ظاهريا أم باطنيا، ذهنيا أم خارجيا؛ كله من عطاء فضله عز وجل. وفي ذلك إشارة إلى أن فيض الله رب العالمين العامَّ يحيط بكل شيء، ولا يخلو من فيضه شيء. فهو المصدر لكل

فيض، وعلة العلل لكل نور، ومنبع كل رحمة. إن ذاته الحق قيومُ العالم كله وملاذ كل كبير وصغير. هو الذي أخرج كل شيء من ظلمة العدم وخلع عليه خلعة الوجود، ليس من دونه وجود أزلي وواجب الوجود في حد ذاته، أو ليس مستفيضا منه ﷻ، بل الأرض والسماوات والإنس والدواب والحجر والشجر والأرواح والأجساد كلها موجودة وقائمة ببركة وجوده. هذا هو الفيض العام الذي ورد ذكره في الآية: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فهذا هو الفيض الذي أحاط بكل شيء إحاطة الدائرة، ولا يوجد لإفاضته شرط الكفاءة. ولكن مقابل ذلك هناك فيض خاص، وهو مشروط بشروط، ويصيب أناسا خاصين يملكون كفاءة وقدرة على قبوله، أي ذوو النفوس الكاملة، ألا وهم الأنبياء عليهم السلام، الذين أفضلهم وأعلاهم وأجمعهم للبركات كلها هو سيدنا محمد المصطفى ﷺ، ولا يصل هذا الفيض غيرهم قط. ولما كان هذا الفيض حقيقة دقيقة ومسألة دقيقة من دقائق الحكمة، فقد بيّن الله تعالى أولا الفيض العام البديهيّ الظهور، ثم بيّن الفيض الخاص بُغية بيان كيفية نور سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ بضرب مَثلٍ يبدأ من الآية: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ وبيّن ذلك كمثال كيلا يبقى إبهام أو صعوبة في فهم هذه النقطة الدقيقة، لأنه لو بُيِّنت المعاني المعقولةُ بصورة محسوسة لَفَهِمها كل غبيٍّ وبليد أيضا وبكل سهولة.

إن مثل هذا النور، في الفرد الكامل، أي النبي ﷺ، كمثل مشكاة -أي الصدر المنشرح لرسول الله ﷺ- فيها مصباح.. أي وحي الله تعالى. والمصباح في زجاجة نقية للغاية.. أي القلب الطيب والنقي والمقدس للنبي ﷺ الذي هو كزجاجة نقية وشفافة بطبيعته، ومنـــزَّه ومطهَّر من كل كثافة وتكدُّرٍ، وبريء تماما من كل علاقة بغير الله. والزجاجة نقية وكأنها نجم ذو نور عظيم من النجوم التي تظهر متلألئة في كبد السماء بكل عظمة وشوكة، وتسمّى الكواكب الدُّرِّيّة. أيْ أن قلب سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ نقي وطيب ومنوَّر ولامع

للغاية مثل الكوكب الدُّرِّيِّ، فيُلاحَظ نوره الباطني جاريا في قالبه الخارجي جريانَ الماء. والمصباح يوقد بزيت شجرة مباركة؛ أي بزيت الزيتون. إنّ المراد من الشجرة المباركة، الزيتونة، هو وجود محمد ﷺ المبارك الذي يجمع في شخصه -بسبب جامعيته وكماله- كافة أنواع البركات، وفيضه ليس خاصا بجهة معينة أو بمكان معين أو زمان معين، بل هو للناس جميعا وعلى الدوام، وجارٍ دائما ولن ينقطع أبدا. والشجرةُ المباركة ليست شرقية ولا غربية. أي لا إفراطٍ في فطرة محمد الطيبة ولا تفريط، بل فيها الوسطية والاعتدال على وجه كامل، وقد خُلقت في أحسن تقويم. أما قوله تعالى بأن مصباح الوحي يوقد من زيت هذه الشجرة المباركة فالمراد من الزيت هو العقل اللطيف النوراني لمحمد ﷺ مع جميع الأخلاق الفاضلة المودعة في فطرته ورُبِّيت بينبوع نقي للعقل الكامل. ومعنى إضاءة مصباح الوحي باللطائف المحمدية هو أن فيض الوحي نزل على تلك اللطائف المتميزة فكانت سببا لظهور الوحي. وفي ذلك إشارة أيضا إلى أن فيض الوحي قد نزل بحسب تلك اللطائف المحمدية، وظهر بحسب جميع أنواع الاعتدال الموجودة في فطرته ﷺ.

وبيان ذلك أن كل وحي إنما ينـــزل مطابقا لفطرة النبي المنـــزَّل عليه؛ فكما كان في طبيعة موسى عليه السلام الجلالُ والغضب، فنـــزلت شريعة التوراة جلالية مطابقة لفطرته. وكانت طبيعة المسيح عليه السلام تتسم بالحِلم والرفق، فجاء تعليم الإنجيل مشتملا على الحلم والرفق. أما طبيعة النبي ﷺ فكانت مستقيمة ومعتدلة للغاية، فما كان يحب الحِلم في كل مكان، وما كان يرغب في الغضب بكل مناسبة، بل كان طبعه المبارك يراعي الحكمة بحسب مقتضى الحال دائما. لذا فقد نزل القرآن الكريم متوازنا ومعتدلا تماما، فقد جمع في طياته الشدة والرحمة والهيبة والشفقة والرفق والغضب. وقد بيّن الله تعالى في هذا المقام أن مصباح وحي القرآن قد أُضيء بالشجرة المباركة التي ليست شرقية ولا غربية، أي نزل القرآن الكريم منسجما تماما مع طبيعة محمد ﷺ المعتدلة تماما التي ليست فيها

قسوة كطبيعة موسى ﷺ، ولا رِفق كطبيعة عيسى ﷺ، بل إنه ﷺ مجموعة دقيقة ولطيفة جدا للشِّدة والرفق، والغضب واللطف. وهو مظهر الاعتدال الكامل والجامعُ بين الجلال والجمال. فكانت أخلاق النبي ﷺ الفاضلة والمعتدلة بصحبة العقل اللطيف، بمنـــزلة الزيت لظهور نور الوحي، وقد قال الله تعالى عنها مخاطبا النبي ﷺ في آية أخرى: ﴿وإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ *(القلم: ٥)*.. أيْ يا أيها النبي؛ إنك مجبول ومفطور على خُلق عظيم، أيْ أن شخصك متمِّم ومكمِّل لمكارم الأخلاق كلها، ولا يُتصوَّر فوق ذلك. لأن كلمة "عظيم" تُستخدَم في اللغة العربية لبيان صفة شيء حاز في نوعه كماله التام. فمثلا لو قلنا: إن هذه الشجرة عظيمة. لكان المراد من ذلك أن الطول والعرض الذي يمكن تصوُّره في الشجرة متحقق فيها. وقال البعض إن "العظيم" يُطلَق على شيء تبلغ عظمته درجة تخرج عن حدود الإدراك. ولا يُراد من الخُلق -في القرآن الكريم، وكذلك في الكتب الحِكمية الأخرى- التصرفات المستقيمة أو حسن التعامل أو الرفق أو اللطف أو الدماثة فحسب كما يظن عامة الناس، بل "الخَلق" و"الخُلق" كلمتان منفصلتان جاءتا بحذاء بعضهما. والمراد من "الخَلق" هو الصورة الظاهرية التي وهبها الله واهبُ الصور للإنسان، وبها يتميز عن الحيوانات من حيث الصورة الظاهرية، والمراد من "الخُلق" هو الصورة الباطنية، أي الصفات الباطنية التي بسببها تتميّز حقيقة الإنسان عن حقيقة الدواب تميّزًا تاما. فكل ما يوجد في الإنسان من صفات باطنية إنسانية ويمكن استخلاصها من شجرة الإنسانية وتميِّز الإنسان عن الدواب من حيث الباطن، تسمَّى "الخُلق". ولما كانت الفطرة الإنسانية مبنية في حقيقتها على الاعتدال والوسطية ونزيهة من كل أنواع الإفراط والتفريط الموجود في القوى الحيوانية - التي أشار الله تعالى إليها في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ *(التين: ٥)*؛ فكلما أُطلقت كلمة "الخُلق" دون الإشارة إلى ما هو مذموم، أُريدَ منها الأخلاق الفاضلة دائما. والأخلاق الفاضلة التي هي حقيقة الإنسانية كلها، هي

صفات باطنية توجد في الإنسان، مثل: العقلانية، وسرعة الفهم، صفاء الذهن، وحسن الحفظ، وحدّة الذاكرة، والعفة، والحياء، والصبر، والقناعة، والزهد، والورع، والشجاعة، والثبات، والعدل، والأمانة، وصدق المقال، والسخاء في محله، والإيثار في محله، والكَرَم في محله، والمروءة في محلها، والشجاعة في محلها، وعلوّ الهمة في محلها، والِحلم في محله، والتحمل في محله، والحميَّة في محلها، والتواضع في محله، والأدب في محله، والشفقة في محلها، والرأفة في محلها، والرحمة في محلها، وخشية الله، وحب الله، والأنس بالله، والانقطاع إلى الله ﷻ وغيرها.

والزيت نقيّ ولطيف لدرجة يكاد يشتعل ولو لم تمسسه نارٌ. أي أن عقل هذا النبي البريء وجميع أخلاقه الفاضلة معتدلة ودقيقة ونورانية إذ كانت جاهزة لتضيء تلقائيا حتى قبل نزول الوحي. ﴿نُوْرٌ عَلَى نُوْرٍ﴾.. أيْ لما كانت عدة أنوار مجتمعة في شخص سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ المباركِ، لذلك فقد أُنزل عليها نور سماوي آخر وهو الوحي الإلهي، وبنـــزول ذلك النور صار الوجود الكريم لخاتم الأنبياء ﷺ مجموعةَ أنوار. وفي ذلك إشارة أيضا إلى أن فلسفة نزول الوحي هي أنه لا ينـــزل إلا على نور، ولا ينـــزل على الظلمة؛ لأن الانسجام شرط للإفاضة، ولا انسجام بين الظلمة والنور، بل النور ينسجم مع النور فقط. والحكيمُ القدير لا يفعل شيئا دون مراعاة الانسجام. وهذا القانون الإلهي نفسُه يعمل في إفاضة النور أيضا؛ بمعنى أن الذي يملك شيئا من النور سابقا هو الذي يُعطى نورا آخر، والذي لا يملك شيئا لا يُعطى شيئا. فالذي في عينه نور يجد من الشمس نورا، أما الذي ليس في عينيه نور، فيحرَم من نور الشمس أيضا. فمن أُعطِي قدرا نزرا من نور الفطرة، يُعطى نورا آخر أيضا بقدر ضئيل، والعكس صحيح. أما الأنبياء فهُم أولئك الأفراد العظام -من جملة سلسلة الفطرة الإنسانية المتفاوتة- الذين يُعطَون النور الباطني بكثرة وكمال، فكأنهم صاروا نورا متجسدا. فمن هذا المنطلق سُمِّي النبي ﷺ في القرآن الكريم نورًا

وسراجا منيرا، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ *(المائدة: ١٦)*، وقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ *(الأحزاب: ٤٧)*. وبناء على هذه الحكمة فإن نور الوحي -الذي يُشتَرط له أن يكون نورَ الفطرة؛ كاملٌ وعظيمٌ- قد أُعطيه الأنبياء وحدهم، وجُعل هذا النور خاصا بهم دون غيرهم. ومن خلال هذه الحجة المقنعة في المثل المذكور أكد الله ﷻ على بطلان قول الذين -مع اعتقادهم بتفاوت مراتب الفطرة- يزعمون حمقا وجهلا أن النور الذي يناله أصحاب الفطرة الكاملة يمكن أن يناله نفسَه أصحاب الفطرة الناقصة أيضا. عليهم أن يفكروا بأمانة وإنصاف؛ ما أكبر هذا الخطأ الذي يرتكبونه فيما يتعلق بفيض الوحي! فإنهم يرون بوضوح تام أن قانون الله تعالى في الطبيعة لا يصدّق فكرهم الباطلة، ومع ذلك يتشبثون بها مع فسادها لشدة تعصبهم وعنادهم. كذلك النصارى أيضا لا يرون أن نور الفطرة شرط لإفاضة النور، ويقولون بأن القلب الذي ينـــزل عليه نور الوحي فليس من الضروري أن يتحلى بالنورانية باطنيا، بل إذا كان أحد غبيا وسفيها جدا بدلا من تحليه بعقل سليم، أو كان جبانا رعديدا بدلا من كونه شجاعا باسلاً، وكان بخيلا من الدرجة القصوى بدلا من ثبوته على خُلق السخاء، وكان ديّوثًا للغاية بدلا من كونه غيورًا، وكان عاكفا على الدنيا بكل وسعه بدلا من التوجه إلى حب الله تعالى، وكان سارقا كبيرا ومن النُّهّاب بدلا من كونه ناسكا وورعًا وأمينا، وكان وقحا وشهوانيا إلى أقصى الحدود بدلا من كونه عفيفا وحييّا، وحريصا طمّاعا بدلا من كونه قنوعا؛ فإن هذا الشخص أيضا يمكن أن يصبح نبيا ومقربا إلى الله تعالى كما يزعم النصارى مع حالته الفاسدة المذكورة آنفًا. بل لو تركنا المسيح عليه السلام جانبا، فإن جميع الأنبياء الذين يؤمنون بنبوتهم ويعتقدون بكون كتبهم الموحى بها مقدسة، كانوا جميعا -على حد قولهم، والعياذ بالله- من هذا القبيل، وكانوا محرومين من الكمالات القدسية التي تستلزم العصمة وطهارة القلب. فواها لعقل النصارى ومعرفتهم بالله تعالى

ألف مرة، ما أجمل بيانهم لفلسفة نزول نور الوحي!! غير أن أتباع هذه الفلسفة والمعجبين بها، هم أنفسهم واقعون في ظلام حالك وعمًى باطني. وإلا فوجود النور لاستفاضة النور، حقيقة بديهية لا ينكرها حتى ضعيف العقل، ولكن ماذا نفعل بالذين لا علاقة لهم بالعقل أصلا، ويبغضون النور ويحبون الظلام؟ وتنفتح عيونهم جيدا في الليل مثل الخفافيش، ولكنهم يعمَون أثناء النهار المشرق.

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ (أي إلى القرآن الكريم).. أيْ أن الهداية أمر من الله تعالى لا ينالها إلا الذي يوُفَّق لها برحمته الأزلية. ويبيّن الله تعالى المسائل الدقيقة بواسطة الأمثال ليقرِّب الحقائق العميقة إلى الأفهام. ولكنه ﷻ يعلم بعلمه الأزلي مَن سيستفيد من تلك الأمثلة ويقبل الحق، ومن سيبقى محروما ومخذولا.

ففي هذا المثل الذي فسرناه آنفا قد شبّه الله تعالى قلب الرسول ﷺ بالمرآة النقية التي لا تكدُّر فيها من أيّ نوع. فهذا نور القلب. ثم شبّه فهم النبي ﷺ وإدراكه وعقله السليم وجميع أخلاقه الفاضلة الفطرية والجبِلِّية بزيت لطيف ومضيء شديد السطوع، وبه يوقَد المصباح. فهذا نور العقل؛ لأن العقل هو المنبع والمنشأ لجميع اللطائف الباطنية. ثم ذكر ﷻ نزول نور سماوي آخر، وهو الوحي، وقد نزل على جميع تلك الأنوار؛ فهذا نور الوحي. وإن هذه الأنوار الثلاثة مجتمعةً كانت سببا لهداية الناس. فهذا هو المبدأ الحق عن الوحي من القدوس الأزلي منذ القِدم وهو يليق بذاته المقدسة.

فتبين من هذا البحث كله بأنه ما لم يوجد في الإنسان نور القلب والعقل بالدرجة الكاملة، فلا ينال نور الوحي قط. ولقد ثبت من قبل أن كمال العقل وكمال نورانية القلب يحصل لبعض الناس فقط وليس للجميع. فقد تحقق باجتماع هذين الدليلين أن الوحي والرسالة ينالهما بعض الناس الكمَّل فقط وليس كل إنسان. فبهذا الثبوت القاطع تمزّقت فكرة البرهمو سماج الفاسدة إربا، وهو المطلوب.

الوسوسة الخامسة: يقدم بعض من أتباع "البرهمو سماج"، بأنه إذا كانت المعرفة الكاملة مقصورة على القرآن الكريم، فلماذا لم يُشِعْهُ الله تعالى في البلاد قاطبة وفي المعمورات القديمة والجديدة كلها؟ ولماذا حرم البلايين من مخلوقاته من المعرفة الكاملة لذاته والمعتقد السليم؟

الجواب: إن هذه الوسوسة أيضا ناتجة عن قصور الفهم، لأنه قد ثبت بجلاء كامل أن الحصول على اليقين الكامل والمعرفة الكاملة بمجرد العقل مستحيل تماما، بل اليقين من الدرجة العليا والمعرفة الكاملة لا تتأتّى إلا بالإلهام الذي هو عديم النظير في ذاته وكمالاته، ولكونه عديم النظير يصبح كونه من عند الله بيّن الثبوت. ولقد أثبتُّ أيضا في هذا الكتاب أن الكتاب العديم النظير الذي يوجد في الدنيا هو القرآن الكريم وحده لا غيره. ففي هذه الحالة يكون الطريق السويّ لطالب الحق هو إما أن ينقض أدلتنا ويثبت أن العقل وحده قادر على إيصال الإنسان إلى مرتبة اليقين الكامل والمعرفة الحقة واليقينية في أمور المعاد، وإن لم يستطع فعليه أن يؤمن بصدق القرآن الكريم الذي بواسطته فقط تُنال مرتبة المعرفة الكاملة. وإن لم يقبل ذلك أيضا فليأتِ بنظيره ويستخرج الكمالات الخاصة به من كتاب آخر حتى يَثبت على الأقل أن هناك حاجة ماسة لكتاب موحى به بُغية تكميل مراتب اليقين والمعرفة، ولكن مع ذلك لا يوجد في الدنيا كتاب من هذا القبيل. وإن لم يستطع الخصم الرد على أيٍّ من هذه الأمور، بل لم يقدر على أن ينبس ببنت شفة، فليكن عادلا ليرى كم هو بعيد عن الأمانة والصدق تقديم المزاعم الفاسدة مقابل الإثباتات القاطعة بعد أن ثبتت الحقيقة بأدلة دامغة لا يسعه دحضها ولا يقدر على نقضها.

يعلم العالَم كله أن الأمر الذي بلغ صدقه وصحته مبلغ الثبوت بالبراهين القاطعة فلا يمكن تخطئته بواسطة أفكار واهية ما لم تُنقَض تلك البراهين. هل يمكن أن تُهدم بنفخات الأفواه عمارة قوية الأساس والجدران والسقف؟ أما الشبهة أنه لماذا لم ينشر الله كتابه في البلاد كافة، ولماذا لم تستفد منه الطبائع

المختلفة قاطبةً، فليست إلا أفكار الأغبياء. فإذا لم يصل ضوء الشمس الـــمُشرق إلى بعض الأماكن المظلمة، أو أغلق بعض الناس عيوهم كالبومة عند رؤيتها، فهل يستلزم ذلك أن الشمس ليست من الله؟ ولو لم ينـــزل المطر على أرض قاحلة، أو لم تستفد منه أرض مجدبة، فهل يحسب نتيجة لذلك أن نزول الغيث من فعل الإنسان؟ فلدحض المزاعم من هذا القبيل قد بيّن الله تعالى ذاتُه في القرآن الكريم، ووضّح جيدا أن الإلهام الإلهي لا يهدي كل شخص، وإنما يهدي فقط تلك الطبائع النقية والتي تتحلى بتقوى الله وتتصف بالصلاح. فهؤلاء هم الذين ينتفعون من هدي الإلهام الكامل، فيصل الإلهام إليهم في كل الأحوال. وفيما يلي أورد بعض الآيات المتعلقة بهذا الموضوع منها: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٢-٨)

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة: ٣-٥)

ومن بين هذه الآيات المقتبسة، تأمّلُوا أولا في أول آيتين من سورة البقرة: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، ترَوا كيف ردّ الله تعالى على هذه الوسوسة بدقة متناهية مراعيًا الإيجاز. فأولا بيّن العلة الفاعلة لنـــزول القرآن الكريم، وأشار إلى عظمته وشوكته، فقال: ﴿الم﴾ أيْ؛ أنا الله أعلم، وأنا الحكيم العليم منـــزِلُ هذا الكتاب ولا يعادل علمُ أحد علمي. ثم ذكر بعد

ذلك علّة القرآن المادية وأشار إلى عظمته فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾.. أي هذا كتاب عظيم ويحتل مرتبة سامية، وعلته المادية هو علم الله. أيْ من الثابت والمتحقق عن هذا الكتاب أن مصدره ومنبعه هو ذات الله الأزلي الحكيم القدير. ففي قوله ﴿ذَلِكَ﴾ اختار الله تعالى لفظا يفيد البُعد، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الكتاب ناتج عن علم ذلك الإله ذي الصفات السامية والذي لا مثيل له ولا نظير، والذي علومه الكاملة وأسراره الدقيقة بعيدة كل البُعد عن مدى نظر الإنسان. ثم ذكر ﷻ أن الكتاب بصورته الظاهرية أيضا جدير بالمدح والثناء، فقال: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾.. أيْ أن ما جاء في القرآن الكريم فقد جاء من المعقولية والأدلة الدامغة، ولا يترك مجالا لأي نوع من الشك فيه، بمعنى أنه لا يتضمن قصصا وحكايات مثل الكتب الأخرى، بل يشمل أدلة يقينية وبراهين قاطعة، ويسوق على بيانه حججا بيّنة وأدلة شافية، وهو في حد ذاته معجزة وفي حكم السيف البتّار لإزالة الشكوك والشبهات. ولا يترك المرءَ على مرتبة الظن في مجال معرفة الله تعالى؛ إذ لا يكتفي بالقول: "يجب أن يكون" فقط، بل يوصله إلى مرتبة اليقين والقطعية أي "هو موجود فعلا".

فبذلك بيّن عظمة العلل الثلاث. ومع عظمة هذه العلل الثلاث التي لها مكانة عظيمة من حيث التأثير والإصلاح، جعل العلة الرابعة لنـــزوله -أي العلة الغائية، وهي الإرشاد والهداية- مقصورة على المتقين فقط، وقال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.. أيْ أن هذا الكتاب قد أُنزل لهداية ذوي الصفات المتميزة الذين سيصلون في نهاية المطاف إلى درجة الإيمان ومعرفة الله والتقوى الكاملة، وذلك نتيجة طهارتهم الباطنية وعقلهم السليم وفهمهم المستقيم وشوقهم إلى طلب الحق وصحة نيتهم. أي أن الذين يعلم الله تعالى بناء على علمه القديم أن فطرتهم منسجمة مع هذا الهدي، وهم قابلون للتقدم في مجال المعارف الحقة، سينالون الهداية من هذا الكتاب في نهاية المطاف، وسيصلهم هذا الكتاب في كل الأحوال. وسيهديهم الله تعالى قبل موتهم.

لاحِظوا الآن، فقد بيّن الله تعالى هنا بكل جلاء أن الذين يستحقون الهداية في علم الله ﷻ ويتصفون بفطرهم الحقيقية بصفة التقوى فقط سيهتدون حتما. ثم زاد الموضوع شرحا وتفصيلا في الآيات التي تلتها فقال تعالى بأن الذين سيؤمنون -بحسب علم الله- سينضمون إلى المسلمين عاجلاً أو آجلاً وإن لم ينضموا إليهم إلى الآن، ولن يبقى بعيدا إلا الذين يعلم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا بالإسلام الحقيقي. وسواء أُسدِيت إليهم النصيحة أم لا، فلن يؤمنوا، أو لن يصلوا إلى مراتب التقوى والمعرفة الكاملة.

باختصار، قد بيّن الله تعالى في هذه الآيات بوضوح تام أنه لا يستفيد من هدي القرآن إلا المتقين الذين لا تغلب على فطرهم الصحيحة ظلمةُ النفس، فسيهتدون بهذا الهدي حتما. أما غير المتقين فلا يستفيدون من هدى القرآن، وليس ضروريا أيضا أن يصلهم هديُه في كل الأحوال.

إذن، فإن ملخص الجواب هو أن الناس في الدنيا على نوعين؛ بعضهم متّقون وطلاب الحق وهم الذين يقبلون الهداية، وبعضهم ذوو طبائع فاسدة، سواءٌ عليهم أوعظتَهم أم لم تعظْهم. ولقد بيّنتُ أيضا قبل قليل بأن القرآن الكريم يصنف الذين لم يصلهم هديُه إلى آخر لحظة من حياتهم أو لن يصلهم في المستقبل في النوع الثاني. فمن الغباء الادّعاء -مقابل القرآن الكريم- في هذه الحالة بأن الذين لم يصلهم هديه لعلهم يندرجون في القسم الأول (أي في حزب المهتدين)؛ لأن "لعلّ" لا تفيد دليلا قاطعا، أما إخبار القرآن الكريم عن موضوع ما، فهو دليل قاطع في حد ذاته. والسبب في ذلك أنه قد أثبت بالأدلة الكاملة؛ بأنه مخبر صادق، وأنه من الله تعالى. أما الذي لا يعدُّ خبرا أدلى به القرآن دليلا قاطعا فعليه أن ينقض أدلة صدقه التي كتبتُ بعضا منها في كتابي هذا. وما دام عاجزا عن نقضها ولم يطق جوابا، كان من مقتضى العدل والأمانة أن يعتقد بصدق وصحة الأمر الذي جاء الخبر بمصداقيته في كتاب ثبت صدقه في حد ذاته، لأن إخبار الكتاب -الذي صدقه بيِّنٌ- بأمر ممكنِ الوقوع، يشكّل شهادة

قاطعة عليه. والمعلوم أن ترك الشهادة الدامغة والثبوتِ القاطعِ، وتقديمُ المزاعم الباطلة مقابله والتمسكُ بأفكار لا أصل لها؛ علامة الغباوة والسذاجة وليس إلا.

وإذا قلتم: ما حكمُ نجاة الذين لم يصلهم الكتاب الموحى به؟ فجوابه بأنه إذا كان هؤلاء مثل الدواب ومحرومين من العقل تماما، فهم لا يؤاخَذون، وقد رُفع عنهم القلمُ، وينطبق عليهم حكم المجانين ومسلوبي الحواس. أما الذين يملكون شيئا من العقل والحواس فسيحاسَبون على قدر عقولهم.

وإذا انتابت أحد وسوسة: لماذا خلق الله تعالى طبائع مختلفة؟ ولماذا لم يُعطِ الجميعَ قوى متساوية ليصلوا بها إلى المعرفة الكاملة والحب الكامل؟ فهذا السؤال أيضا تدخّلٌ عبثيٌّ في أفعال الله ولا يجوز مطلقا. يمكن لكل عاقل أن يدرك أن إبقاء الخلق كله على مستوى واحد وإعطاء الجميع قدرات الكمالات العليا، ليس حقا واجبا على الله ﷻ، وإنما هو فضل منه ﷻ فقط، وله الحق أن يؤتي فضله مَن يشاء ويمنعه عمن يشاء. فمثلا خلقكم الله أناسًا ولم يخلق الحمار إنسانا، وأعطاكم عقلا ولم يُعطه إياه، وأوتيتم العلم ولم يؤته. فكل ذلك بمشيئة الله المالك، وليس نتيجة حق تستحقونه ولا يستحقه الحمار. فما دام هناك تفاوت واضح في خلق الله ولا مندوحة لعاقل من الاعتراف به، فهل يحق أن تنبس ببنت شفة أمام المالك المقتدر ﷻ مخلوقاتٌ لا تستحق حتى وجودها دع عنك أن تستكبر؟! إنّ خلْع الله تعالى على الناس خلعة الوجود هو عطاء منه ومنّةٌ عليهم. والمعلوم أن للمعطي والمحسن حقا أن يقلل من عطائه ومنته أو يُكثر. وإذا لم يكن له الحق بأن يعطي أحدا قليلا أو يُعطي غيره أكثر، لكان في هذا الحالة عاجزا تماما عن تنفيذ حقوق الملكية. والمعلوم أنه لو فُرض حق المخلوق على الخالق دون مبرر، فهذا سيستلزم التسلسل؛ بمعنى أنه إذا خلق الخالقُ مخلوقا -أيا كان مستواه- فللمخلوق أن يقول بأني أستحق درجة أعلى من ذلك. ولأن الله تعالى قادر على أن يهبهم مراتب لا متناهية، ولا يقتصر كمال قدرته التي لا نهاية لها على خلق البشر فقط، فلن تنتهي سلسلة سؤال

المخلوق أبدا، بل سيكون لهم الحق أن يطالبوا -إلى ما لا نهاية له- بحقهم عند كل مستوى من تخليقهم، وهذا هو المراد من التسلسل.

أما إذا كان السؤال: ما الحكمة من وراء التفاوت في المراتب؟ فليكن معلوما أن القرآن الكريم بيّن ثلاث حِكم لذلك، وهي بديهية وواضحة جدا عند العقل لا يسع عاقلا إنكارها. وتفصيلها:

أولا: لكي تتحقق المهمات الدنيوية، أي أمور العيش، بأحسن وجه كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.. أي يقول الكفار: لماذا لم ينـــزل القرآن على رجل عظيم من أثرياء وزعماء مكة أو الطائف ليليق بشأن زعامته، ولكي ينتشر الدين بسرعة أكثر بسبب نفوذه وسياسته وبذل ماله؟ ولماذا اختير لهذا المنصب شخص فقير لا يملك من عقارات الدنيا شيئا؟ ثم قال ﷻ بعد ذلك: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾.. أي من مشيئة الله الحكيم القدير أن جعل كفاءات البعض وهِمَمهم منحطة، فعكفوا على زخارف الدنيا، وظلوا يتباهون بكونهم زعماء وأثرياء وأغنياء ونسوا الهدف الحقيقي. ومن مشيئته أن رزَق بعضهم أفضالا روحانية وكمالات قدسية، ففنَوا في حب المحبوب الحقيقي وصاروا من مقربيه والمقبولين عنده ﷻ. ثم أشار إلى الحكمة الكامنة في الاختلاف في الكفاءات والتباين في الأفكار فقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ...﴾ أيْ جعلنا بعضهم أثرياء وبعضهم الآخر دراويش، وبعضهم رقيق الطبع وبعضهم غليظه، ورغّبنا بعضًا في مهنة وغيرهم في مهنة أخرى لكي تسهل عليهم الأمور فيكون البعض خداما للبعض حتى لا يُثقَل كاهل شخص واحد، بل تسير عجلة مهمات بني آدم بسهولة تامة على هذا النحو.

ثم قال تعالى بأن وجود كتاب الله في هذا المجال أكثر نفعا من مال الدنيا ومتاعها، وفي ذلك إشارة دقيقة إلى ضرورة الإلهام. وبيان ذلك أن الإنسان مدني الطبع، ولا يتم أمر من أموره إلا بالمساعدة المتبادلة. فخذوا مثلا الخبز الذي عليه مدار العيش، ترون كم يحتاج إعداده إلى التمدن والتعاون! فهناك ضرورة لتعاون عشرات من المهنيين بدءا من مصاعب الزراعة إلى إعداد الخبز للأكل. فمن هنا يمكن أن يُفهم كم تمس الحاجة للتعاون والمساعدة المتبادلة للتعايش. فلإدارة هذه الأمور خلَق الحكيمُ القدير بني آدم على طبائع وكفاءات مختلفة لكي ينشغل كل شخص في عمله بطيب خاطره وبحسب كفاءته وميله الطبيعي، فيحرث شخصٌ الأرضَ ويزرعها، ويصنع غيره أدوات الزراعة، ويطحن أحدٌ ويجلب غيره ماءً، ويخبز غيرهما، ويغزل أحد وينسج آخر، ويفتح أحد محلا ويُحضر غيرُه مبيعات ويتوظف آخر، وهكذا يتعاون بعضهم مع بعض ويعين بعضهم بعضا. فما دام التعاون المتبادل ضروريا، فإن التعامل أيضا ضروري. فحين وصل الناس إلى التعامل والمقايضة فيما بينهم، وسادهم أيضا الغفلة التي هي مقتضى الاستغراق في الأمور الدنيوية؛ مست الحاجة لِيُسَنَّ لهم قانونٌ عادل ليكُفّهم عن الظلم والاعتداء والبغض والفساد والغفلة عن الله، وذلك كي لا يقع خللٌ في نظام العالم؛ لأن مدار المعاش والمعاد إنما هو على العدل ومعرفة الله تعالى. وإن معرفة الله والالتزام بالعدل يعتمد على دستور تَرِد فيه دقائق العدالة وحقائق معرفة الله تعالى بكل دقة وصحة، وليس فيه أي نوع من الظلم والاعتداء سهوا أو عمدا. ولا يمكن أن يصدر مثل هذا القانون إلا ممّن هو بريء تماما من السهو والخطأ والظلم والاعتداء، والذي يكون الانقياد له وتعظيمه في حد ذاته فرضا واجبا؛ لأنه إذا كان القانون في حد ذاته مثاليا، ولكن مشرِّعُه لا يستحق الحكمَ والتفوقَ على الجميع نظرا إلى مكانته، أو ليس بريئا في نظر الناس من كل ظلم وخبث وخطأ وسهو، لاستحال أولا وقبل كل شيء أن يكون هذا القانون ساري المفعول، ولو تفعَّل لبضعة أيام، لتطرقت إليه

في بضعة أيام فقط أنواع المساوئ، ولكان مجلبة للشر بدلا من الخير. فكل هذه الأسباب تؤكد على الحاجة إلى كتاب من الله تعالى، لأن كل الصفات الحسنة وكل كمال وكل ميزة، إنما توجد جميعا في كتاب الله وحده لا في غيره.

ثانيا: إنّ الحكمة الثانية في تفاوت المراتب هي أن تتبين للناس ميزات الصالحين والأطهار؛ إذ تظهر الميزات عند المقارنة فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.. أي خلقنا كل شيء في الأرض زينة لها كي يتبين صلاح الصالحين مقابل فساد الطالحين، وتنكشف لطافة اللطيف برؤية شِدّة الشديد لأنه "بضدها تتبين الأشياء"، وإنَّ قدْر الصالحين ومكانتهم تتبيَّن بوجود الطالحين فقط.

ثالثا: إنّ الحكمة الثالثة في التفاوت بين المراتب هي ليُجلِّي اللهُ قدراتِه بكل أنواعها، ويوجه الناس إلى عظمته؛ إذ قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي ما لكم لا تتنبّهون إلى عظمة الله مع أنه خلقكم على مختلف الصور والسِيَر لإظهار عظمته. بمعنى أن الحكيم القدير قد خلق كفاءات وطبائع مختلفة لكي تُعرف قدرته وعظمته. كما قال في آية أخرى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي ذلك أيضا إشارة إلى أن الله تعالى قد خلق هذه الأشياء المختلفة لكي تتجلّى قدراته المختلفة.

فباختصار، إن حكمة الله في التفاوت بين طبائع المخلوقات تنحصر في هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها ﷻ في الآيات الثلاثة المذكورة آنفا. فتدبّرْ.

الوسوسة السادسة: لا يمكن أن يكون شيء ما وسيلة للمعرفة الكاملة إلا ما كان ملحوظا بكل وضوح دائما وفي كل عصر، وهذه الصفة خاصة بصحيفة الطبيعة التي لا تُغلق أبدا بل تبقى مفتوحة دائما، فهي التي تجدر بأن

تكون هادية، لأن الذي يظل بابه مغلقا في معظم الأوقات ويُفتح في زمن خاص فقط، فلا يمكن أن يكون هاديا.

الجواب: إن اعتبار صحيفة الطبيعة مفتوحة على عكس كلام الله ﷻ علامةٌ على أنّ العيون مغلقة. والذين لا خلل في بصيرتهم وبصرهم يعرفون جيدا أن الكتاب الذي تكون عباراته واضحة جلية ولا التباس في قراءته فـــهو الذي يُعَدّ مفتوحا. ولكن مَن له أن يُثبت أن الالتباس لدى شخص ما قد زال بمجرد إلقاءِ النظر على صحيفة الطبيعة؟ ومن يعرف بالتأكيد أن عبارة صحيفة الطبيعة أوصلت أحدا إلى الغاية المتوخاة؟ من يستطيع أن يدّعي أنه قد استوعب جيدا دلالات صحيفة الطبيعة كلها؟ فلو كانت هذه الصحيفة مفتوحة لما وقع في ألوف الأخطاء أناس اعتمدوا عليها، ولما اختلفوا في الآراء بعد قراءتهم تلك الصحيفة، لدرجة أن هناك من يعتقد بوجود الله إلى حد ما وهناك من ينكره نهائيا. ولو قبلنا كافتراضٍ محال بأن مَن لم ير وجود الله ضروريا بعد قراءته صحيفة الطبيعة فـــسوف ينال عمرا طويلا ليتنبّه إلى خطئه يوما من الأيام، ولكن السؤال: أنه إذا كانت هذه الصحيفة مفتوحة في الحقيقة، فلماذا وقعوا بعد قراءتها في تلك الأخطاء الفادحة؟ هل الكتاب المفتوح في رأيكم هو ذلك الذي يختلف دارسوه حتى في وجود الله تعالى؟ أيْ أن تكون البداية خاطئة؟ أليس صحيحا أن آلافا من الحكماء والفلاسفة ماتوا ملحدين ومعتنقين مذهب الطبيعة بعد قراءتهم هذه الصحيفة بالذات؟ أو ظلوا يعبدون الأوثان، ولم يتوجه منهم أحد إلى الصراط المستقيم إلا من آمن بالإلهام الإلهي؟ هل هناك أدنى كذب في أن الذين درسوا هذه الصحيفة فقط، ظلوا منكرين أنّ الله مدبّرٌ وخالقٌ قديرٌ وعالمٌ بالجزئيات مع كونهم من كبار الفلاسفة، وماتوا في حالة الإنكار؟ ألم يهبكم الله ولو قدرا يسيرا من العقل لتتعلموا أن الرسالة التي يفهم زيدٌ من مضمونها شيئا ويفهم بكرٌ شيئا آخر ويفهم خالدٌ غير ما فهمه كلاهما؛ لا تُعدُّ عباراتها بيّنة ولا واضحة، بل تُعدّ مشكوكا فيها وملتبسة ومبهمة. وهذا

ليس بالأمر الذي يحتاج عبقرية لاستيعابه، بل هو حقيقة بديهية تماما. ولكن ما علاج هؤلاء الذين يظنون الظلام نورا والنور ظلاما ويعُدّون الليل نهارا والنهار ليلا بمحض التعنت والتعصب؟ إن طفلا صغيرا يدرك أيضًا أن الطريق المستقيم الذي وضعه الله تعالى لبيان مرام القلب كاملة هو أن يبيّن المرء بكلام واضح صريح ما يضمره قلبه، لأن ملَكة النطق هي الأداة الوحيدة لبيان الأماني القلبية. فبواسطة هذه الأداة وحدها يطّلع الإنسان على ما في قلوب الآخرين. وكل ما لا يمكن تفهيمه بهذه الأداة يظل دون درجة التفهيم الكامل. فهناك آلاف الأمور التي لو حاولنا استنتاج مفهومها بدلالة الفطرة لاستحال ذلك، ولو فكّرنا فيها أيضا لوقعنا في الخطأ. فمن الواضح مثلا أن الله تعالى خلق العين للرؤية والأذن للسمع واللسان للكلام. إذن، فقد اطّلعنا على هذا القدر من خصائص هذه الأعضاء نتيجة التفكير في طبيعتها. ولكن لو اكتفينا بتلك الدلالة الطبيعية ولم نتوجه إلى تصريحات كلام الله، لوجب أن يكون مبدأنا بحسب دلالة الطبيعة أن نستطيع رؤية كل ما نريد أن نراه دون وازع ورادع دون تمييز بين مواضع الحلال والحرام، ونستطيع أن نسمع كلّ ما يحلو لنا سماعه، ونتفوه بكل ما يخطر ببالنا؛ لأن قانون الطبيعة يكتفي بإخبارنا أن العين خُلقت للرؤية والأذن للسمع واللسان للكلام، وبذلك يوقعنا في خديعة صريحة أننا أحرار وخليعو الرسن تماما في استخدام حاسة البصر والسمع والنطق. والآن لا بد من الانتباه إلى أنه لو لم يفصِّل كلامُ الله إجمال قانون الطبيعة، ولم يرفع عنه الإبهام ببيانه الواضح وكلامه البيّن؛ فكم من أخطار يُخشى الوقوع فيها عند اقتفاء قانون الطبيعة وحده. إنه لَكلام الله تعالى وحده الذي -ببيانه البين والواضح تمام الوضوح- ألزمَنا في كل أقوالنا وأفعالنا وكل حركاتنا وسكناتنا بالوقوف عند حدود محددة وبينة، وعلّمنا الآداب الإنسانية وأرانا سبيل السلوك المستقيم، وهو الذي أمرنا بكل تأكيد لنحفظ العين والأذن واللسان وغيرها من الأعضاء فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى

لَهُمْ﴾، أيْ على المؤمنين أن يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم من غير المحرَّمين ويجتنبوا كل ما لا يجوز رؤيته وسماعه وفعله، وهذا سيؤدي إلى طهارتهم الباطنية.. أي ستُحفَظ قلوبهم من كافة أنواع الأهواء النفسانية، لأن هذه الأعضاء هي التي تحرّك الأهواء النفسانية في معظم الأحيان وتؤجج القوى البهيمية. فانظروا كيف أكّد القرآن الكريم على اجتناب غير المحارم، وكيف بيّن بكل وضوح أن على المؤمنين أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا آذانهم ويحفظوا عوراتهم ويكفُّوها عن مواضع السيئة. وأكّد على ثبات اللسان أيضا على الصدق والصواب فقال: ﴿قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٥٦]، أي لا تقولوا إلا ما هو صحيح ومعقول تماما ولا دخل فيه للغو والعبث والكذب قيد شعرة. ثم من أجل تسيير جميع الأعضاء على جادة الاستقامة، قال تنبيها وإنذارا كلمة جامعة فيها كفاية لتنبيه الغافلين وملؤها التهديد: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ *(الإسراء: ٣٧)* أي كلّ ما يوجد عند الإنسان من أعضاء؛ مثل الأذن والعين والقلب وغيرها من القوى التي يتمتع بها الإنسان، فهو مسؤول عن استخدامها في غير محلها، وسيُسأل عن الإفراط والتفريط في استخدامها.

فانظروا الآن إلى مدى التأكيدات والتصريحات الموجودة في كلام الله ﷻ لاستعمال كافة الأعضاء والقوى بما فيه الخير والصلاح، ولاحِظوا أيضا بأي وضوح قيل لوضْع كل عضو من الأعضاء في مركز الاعتدال وعلى الخط المستقيم بحيث لم يبق أيّ إبهام أو إجمال! هل يمكن الاطّلاع على هذا التصريح والتفصيل بقراءة صفحة من صفحات صحيفة الفطرة؟ كلا. والآن، فكِّروا بأنفسكم؛ أيّ الصحائف مكشوفة وواضحة، وأيتهما بيّنت حِكم الدلالات الفطرية وحدودها أهذه أم تلك؟

---

[٥٦] *الأحزاب: ٧١*

أيها السادة، لو كان نيل المرام ممكنا بالإشارات فقط، لما أُعطي الإنسان لسانا أصلا؟ أليس الذي أعطاكم لسانا بقادر على النطق؟ أوليس الذي علّمكم الكلام بقادر على الكلام؟ والذي أظهر قدرته بفعله أن خلق هذا العالَم الكبير بدون مساعدة مادة وهيولى، وخلق كل شيء بمجرد الإرادة دون الحاجة إلى البنّائين والعاملين والنجّارين، هل يجوز القول عنه بأنه غير قادر على الكلام؟ أو هو قادر لكنه حرم الناس من بركة كلامه بخلاً منه؟ هل يجوز التصور عن القادر القدير أنه أقل من الدواب أيضا في قدراته؟ لأن الدابة تستطيع بصوتها أن تخبر بوجودها على وجه اليقين دابةً أخرى، وإن الذبابة أيضا تستطيع بطنينها أن تخبر الذبابات الأُخرى بمجيئها، أما ذلك القدير فلا يملك -بحسب زعمكم- قوة كقوة الذبابة أيضا، والعياذ بالله. وما دام قولكم عنه واضحا بأنه لم يفتح فمه ولم يقدر على الكلام قط، فعليكم أن تقولوا إنه ناقص وغير مكتمل، إذ قد عُثر على صفاته الأخرى، ولكن لم يُعلم عن صفة الكلام شيء في حين من الأحيان. فبأيّ وجه تقولون عنه إنه أعطاكم صحيفة مفتوحة وبيّن فيها كلّ ما كان في خلده؟ بل الحق أن أفكاركم تتلخص في أن الله تعالى لم يقدر على فعْل شيء في باب الهداية، بل أنتم الذين عرفتموه بعقلكم وفطنتكم.

بالإضافة إلى ذلك فإن التعليم الإلهامي واضح بمعنى أنه يترك تأثيره في قلوب الناس جميعا وتستفيض منه كل طبيعة بوجه عام وتستفيد منه الطبائع المختلفة، وكل طالب من كل نوع يستطيع أن يستعين به. ولهذا السبب اهتدى كثير من الناس بواسطة كلام الله ﷻ ولا يزالون يهتدون. أما بواسطة الأدلة العقلية وحدها فقليلون جدا من اهتدوا، وكأنهم في حكم العدم. ويقتضي القياس أيضا أنه يجب أن يكون الأمر كذلك، لأنه من الواضح تماما أن الذي ثبت عند الناس أنه مخبر صادق، ثم بيّن تجاربه وخبرته الشخصية وما لاحَظه وعاينه بنفسه فيما يتعلق بأمور المعاد، وإلى جانب ذلك ساق أدلة عقلية أيضا؛ فإنه يملك قوة مضاعفة في الحقيقة، لأنه من المؤكد عنه أولاً بأنه عاين الأمر الواقع بنفسه

وشاهد الصدق بأم عينيه، وثانيًا: فإنه يُظهر نور الصدق بالمعقول وبالأدلة البينة أيضا. فباجتماع هذين الإثباتَين يتحلى وعظه ونصحه بجذب قوي، فيجذب حتى القلوب المتحجرة ويؤثر في كل نفس؛ لأن كلامه يتسم بقدرة التفهيم بأنواع مختلفة، ولا يُشتَرَط لِفهمه مستوى معين من العقل والذكاء، بل يفهمه الكلّ، سواء أكان مستواهم أعلى أم أدنى، ويفهمه كل فطين وغبي إلا من كان مسلوب العقل كليا. فهو يقدر على إقناع الناس فورا -أيًّا كان نوعهم- على قدر طبائعهم وكفاءاتهم. لذا فإن كلامه يملك قدرة واسعة النطاق لجذب الأفكار إلى الله ﷻ والتخليص من حب الدنيا وترسيخ نقوش أحوال الآخرة في القلوب. ولا تكون قدرته محدودة في نطاق التصورات الضيقة والمظلمة التي تُقزّم أفكار أتباع العقل المجرد. فمن هذا المنطلق تكون تأثيراته عامة وفائدته تامة، فيمتلئ بها وعاء كل طبيعة بحسب كفاءتها. هذا ما يشير إليه الله تعالى في كلامه المقدس فيقول: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، أيْ أن الله تعالى قد أنزل من السماء ماءً، أي كلامه، فسالت به الأودية بقدَرها؛ أي أن كل شخص قد نال حظا منه بحسب طبيعته وفكره وكفاءته. فنالت الطبائع العالية أسرار الحكمة، أما الأعلون منهم فنالوا نورا غريبا يخرج عن نطاق التحرير والبيان. والذين كانوا دونهم شاهدوا عظمة المخبر الصادق وكماله الشخصي، واستيقنوا من أعماق القلوب صدق إخباره؛ وبذلك وصلوا شاطئ النجاة راكبين سفينة اليقين، ولم يبق خارجها إلا الذين لم تكن لهم أدنى علاقة مع الله تعالى، بل كانوا ديدان الدنيا فقط.

وبالنظر إلى قوة التأثير أيضا نجد أن طريق اتّباع الإلهام واضح وواسع؛ إذ يعرف العارفون جيدا أن الكلام يتحلى بالبركة والحماس والقوة والعظمة والجذب بقدر ما يحتل المتكلم مدارج عليا من اليقين والإخلاص والوفاء. فإن هذا الكمال أيضا لا يتحقق إلا في كلام شخص يكون حائزا على معرفة الله ﷯ بصورة مضاعفة. والواضح لكل عاقل أن الكلام المليء بالحماس والذي

يترتب عليه التأثير إنما يخرج من فم الإنسان إذا كان قلبه زاخرا بحماس اليقين. ولا يترسخ في القلوب من الكلام إلا ما يتدفّق من قلوبٍ كاملة اليقين. فتبين هنا أيضا أن تربية الإلهام وحده بابه مفتوح من منطلق شدة التأثير أيضا. فثبت أنّ صحيفة الوحي وحدها مفتوحة من منظور عمومية التأثير ومن منطلق شدة التأثير أيضا. ومن أبسط البديهيات أن مَن كان جامعًا في شخصه الإلهامَ والعقل كان وحده أكثر الناس نفعا لعباد الله، لأنه يملك قدرة على أن يُفيد كل طبع وفطرة. أما الذي يريد أن يجذب الناس إلى الصراط المستقيم بقوة البراهين المنطقية فقط، فلا يؤثر -إن ترتّب على مجاهداته الذهنية أي تأثير- إلا في أصحاب طبائع معينة فقط مِن المثقفين والأذكياء والمحنكين الذين يفهمون كلامه العميق والدقيق. أما الآخرون فلا يملكون قلوبا ولا أذهانا ليفهموا كلامه المبني على الفلسفة. فيبقى فيض علمه مقتصرا على عدد قليل ممن يدركون منطقه، ولا يستفيد منه إلا من كان لديه إدراك مثله بحجج عقلية. وهذا ما يمكن إثباته بكل وضوح بوضع إنجازات العقل المجرد والإلهام الحقيقي في كفّتين بُغية المقارنة بينها. فالمطّلعون على وقائع الحكماء القدامى يعرفون جيدا مدى فشلهم في نشر تعليمهم بوجه عام، وكيف عجز بيانهم الناقص والمتحجِّر عن تأثيره في القلوب العاديّة. ثم انظروا -بحذاء حالتهم المنحطة- تأثيرات القرآن الكريم العليا كيف ملأت قلوب أتباعه المخلصين بوحدانية الله تعالى بقوة خارقة، وكيف اجتثت وقمعت تعاليمُه العظيمة بأسلوب عجيب تلك الملكاتِ الرديئة والعاداتِ الراسخة منذ مئات السنين، واستأصلت من شغاف القلوب تلك التقاليد القديمة التي كانت قد أصبحت طبيعتها الثانية، وكيف سقتْ ملايين الناس الشراب العذب لوحدانية الله سبحانه وتعالى!

وهو *(أي القرآن الكريم) الذي استصدر من* كبار المعاندين بتقديم شهادة عيان الاعترافَ بفضائله العديمة المثال بإنجازه البيّن ونتائجه البارزة والمثلى والطويلة المدى لتأثيراته العديمة النظير، لدرجة قد وقع تأثيره في قلوب أشد

الملحدين إلحادا وأشد المتمردين تمردا أيضا؛ فعدُّوا ذلك علامة بارزة على عظمة شأن القرآن الكريم، حتى اضطروا -مع إصرارهم المستمر على الإلحاد وعدم الإيمان- للقول: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. أجل، هو الذي وجَّهت تأثيراته العظيمةُ الأفكارَ إلى الله تعالى بطريقة تفوق العادة بآلاف المرات، حتى صدّق ألوف مؤلفة من عباد الله وحدانيته مضحين بدمائهم. وكذلك كان الإلهام وحده دائما المؤسس والهادي إلى هذا الأمر الذي بواسطته نال العقل الإنساني تقدما وازدهارا، وإلا فقد استحال على كبار الحكماء والعقلاء أيضا أن يجدوا دائما فرصة الاطّلاع على جميع جزئيات أمور ما وراء المحسوسات ليعلموا كيفية وجود تلك الجزئيات وخصائصها. أما الذين لا يملكون عقلا يدرك كنه القوى البشرية أو لم تتسنّ لهم أسباب للسعي والجهد، فهم أقل علما وأكثر غفلة من هؤلاء الذين سبق ذكرهم آنفا. فالتسهيلات التي قدّمها إلهامُ الله الصادق والكامل -أي القرآن الكريم- للعقل بهذا الشأن، وقيامه بحماية الفكر والتأمل من المتاهات لأمرٌ يجب أن يَشْكُرَه عليه كل عاقل.

فباختصار، يضطر كل عاقل للاعتراف -سواء بالنظر إلى أن معرفة الله قد حصلت منذ البداية بإلهام من الله تعالى، أو أن إحياء المعرفة الإلهية من جديد أيضا حصل بواسطة الإلهام دائما، أو انطلاقا من أن النجاة من مصاعب الطريق تقتصر على الاستعانة بالإلهام فقط- بأن الصراط المستقيم والسويّ والمفتوح منذ الأزل الذي أوصل إلى الغاية المنشودة دوما، هو وحي الله تعالى فقط. والظن أن الوحي ليس صحيفة مكشوفة، هو فكرةٌ لا طائل من ورائها وليست إلا حمقا محضا.

لقد كتبت مفصلا قبل قليل عن تصور معرفة الله عند "براهمو سماج" بأن إيمانهم المبني على الأدلة العقلية فقط، إنما يقتصر على مرتبة "يجب أن يكون"، ولا يصل إلى كمال مرتبة "موجود فعلا". فثبت من هذا البحث أيضا أن السبيل المكشوف والبيّن إلى معرفة الله تعالى يُنال بواسطة الكلام الإلهي فقط،

ولا سبيل آخر للوصول إليه أو الحصول عليه. احرِموا طفلا صغيرا من التعليم واتركوه وصحيفة الفطرة وحدها، ثم انظروا أيّة معرفة سينالها بواسطة صحيفة الفطرة التي يظنها "براهمو سماج" مفتوحة، وأي مبلغ من معرفة الله سيبلغه. لقد ثبت من تجارب عديدة أنه لو لم يطّلع أحد على وجود الله بالسماع -الذي أصله الإلهام- لما علم هل لهذا العالم خالق أم لا. ولو اجتهد أحد إلى حد ما في البحث عن الخالق، لعَدَّ بعض المخلوقات -مثل الماء والنار والقمر والشمس وغيرها- خالقا ومعبودا في رأيه. لقد ظل هذا الأمر يبلغ مبلغ اليقين دائما بالنسبة إلى الذين يسكنون في أعماق الصحاري والغابات، فمِن بركة الإلهام وحده أن عرف الإنسانُ اللهَ الواحد الذي لا نظير له ولا مثيل كما يليق بكماله وتنـــزيهه عن كل عيب. والذين جهلوا الإلهام ولم يبق عندهم كتاب موحى به ولم تتسنَّ لهم وسيلة للاطّلاع على الإلهام، لم يحظوا بأدنى قدر من معرفة الله تعالى مع أنهم كانوا يملكون عيونا وقلوبا أيضا، فابتعدوا رويدا رويدا عن دائرة الإنسانية وقاربوا دوابا لا تعقل، ولم تنفعهم صحيفة الفطرة شيئا. فتبين أنه لو كانت تلك الصحيفة مكشوفة لاستفاد منها الأعراب، ولصاروا في معرفة الله متساوين مع الذين تقدموا فيها بواسطة الإلهام.

فأي دليل أقوى على كون صحيفة الفطرة مغلقة من أن الذي ابتُلي بهذه الصحيفة فقط ولم يسمع عن الإلهام الإلهي قط قد حُرم من معرفة الله كليًّا، بل ابتعد عن الآداب الإنسانية أيضا أيما بُعد؟!

وإذا كان المراد من كون صحيفة الفطرة مكشوفة أنها تتراءى للعيان بصورة ظاهرية، فهذه فكرة عبثية لا علاقة لها ببحثنا هذا، لأنه ما دام التفكير في صحيفة الفطرة وحدها لا ينفع أحدا من حيث علم الدين، ولا يسعه الوصول إلى الله تعالى ما لم يرشده الإلهام، فماذا نستفيد من هذا الشيء سواء أكان ملحوظا كل حين أم لا؟

أما الزعم أن باب إلهام الله تعالى كان مغلقا في زمن من الأزمان، فلا يثبت منه إلا أن "براهمو سماج" ليسوا مطلعين على تاريخ العالَــم على الإطلاق، وليسوا إلا كالأعمى الذي يسقط في هوّة نتيجة انحرافه عن الطريق ثم يصرخ بأعلى صوته ويشكو: أيّ ظالم حفر حفرة في الطريق، أو يثبت من هذه الأفكار المتعنتة أن "براهمو سماج" يكتمون الحق قصدا منهم، ويتعمدون إنكار أمر مشهود وموجود. وإلا كيف يمكن القبول أنهم ما زالوا جاهلين كطفل صغير إذ لم يطّلعوا إلى الآن على حقيقةٍ بديهية وهي أن التوحيد الإلهي انتشر دائما بواسطة الإلهام فقط، وأن هذا هو الباب الوحيد الذي ظل مفتوحا دائما على الباحثين عن معرفة الله سبحانه وتعالى.

شيئا من التقوى أيها الناس! ولا تبالغوا إلى هذا الحد في الكذب. إذا كان هناك خلل في بصيرتكم فهل ذهبت أبصاركم أيضا؟ ألا ترون أن عشرات الملايين من الموحِّدين (أي المسلمين) الذين أُشربت قلوبهم من ينبوع التوحيد النقي -بينما توجد في معتقداتكم أنواع عدة من شوائب الشرك ومئات أصناف الفتور والقصور مقابل معتقداتهم المبنية على الوحدانية الخالصة- قد نالوا الفيض من كلام الله سبحانه وتعالى؟ لقد تدفّق الينبوع نفسه من كلامه تعالى وسال ماؤه إلى أبعاد شاسعة. وهو الذي خضّر ثُلث حديقة الهند اليابسة تقريبا. وأثّر الينبوع المقدس نفسه على قلوب كثير ممن تبقى منهم أيضا وجذبهم إلى التوحيد شيئا ما. للاطلاع على مبلغ الضلال الذي بلغته حالة الهندوس قبل وصول القرآن الكريم إليهم اقرأوا كتب الهندوس القديمة وغيرها، والتي أُلِّفت قبل نزول القرآن الكريم بمدة وجيزة، التي كانت تعاليمها المبنية على الشرك قد أحاطت الهند كلها إحاطة الدائرة، لتعلموا منحى أفكار رجال الدين الهندوس ولتطّلعوا على الشبهات الباطلة التي غرق فيها رجال الدين والعابدون الهندوس، وكيف كانوا يعبدون الأصنام التي لا حياة لها وكيف كانوا يقرأون الأوراد. ومع أنهم كانوا في ذلك الزمن حائزين على قدرٍ لا بأس به من العلوم العقلية وتقدموا

كثيرا في إعمال الفكر والنظر مقارنة مع زمن الفيدات، بل ما كانوا أقل من الإغريق في علوم المنطق والفلسفة، ولكن معتقداهم كانت فاسدة ونجسة؛ فكانت ملطخة كليا بأدران الشرك ظاهرا وباطنا، ولم يمسسها الصدق والحقيقة، بل كانت بحذافيرها كاذبة وواهية وتافهة وباطلة. وبسببها اتخذ كبارُ عقلائهم العالَـــم كله معبودا لهم. فمثلا لو رأوا شجرة خضراء وجميلة اتخذوها معبودا، ولو وجدوا شعلة نار صاعدةً من الأرض شرعوا يعبدونها. بل كل ما رأوه غريبا في صورته الظاهرية أو خصائصه أو وجدوه مهولا اتخذوه إلها. فلم يتركوا ماء ولا هواء ولا نارا ولا حجرا ولا قمرا ولا شمسا ولا دابة ولا طيرا، حتى أنهم عبدوا الثعابين أيضا. بل الحق أن تعليم عبادة الخلق في الفيدات كان أقل نسبيا، وما كان فيها لعبادة الأصنام أيّ أثر إلى ذلك الحين. أما الذين جاءوا بعد ذلك وأضافوا عليها حواشي جديدة حاسبين أنفسهم علماء المنطق، فقد اتخذوا مئات الآلهة أو أخرجوا كل ما كان في جعبتهم لتأليه أنفسهم، فكانت نتيجة تفكيرهم وتدبرهم أن وقعوا في مزاعم سخيفة وأنكروا وجود مدبّر العالم الحقيقي وجميع صفاته الكاملة. وأما التأثيرات التي تركتها كتب الهندوس الدينية القديمة وغيرها في قلوب الهندوس وما أوقعتهم فيه من الشبهات، والسبل التي جعلتهم يسلكونها، وما رغّبتهم في عبادها من الأشياء؛ فليس مما يمكن أن يخفى على أحد أو أن يُخفى بإخفاء أحد، أو يلتبس بإنكار أحد. وكان الحال نفسه ينطبق على الإغريق أيضا، فهم أيضا أكلوا نجاسة الشرك مع ادّعائهم الذكاء كالغراب. فلم يخلق العقل وحده في أي عصر جماعةً ثابتة على التوحيد الخالص. لقد بحثتُ جيدا ووجدت أن السبب وراء ميل "براهمو سماج" إلى التوحيد هو أن أحد أسلافهم الذي أسس هذا المذهب قد نال نصيبا من التوحيد من القرآن الكريم ولكنه لم يستطع لسوء حظه أن يناله بكامله. ثم ظلت بذرة التوحيد هذه المأخوذة من القرآن الكريم تنتشر بين أتباع "برهمو سماج". وإذا كان لأحد أتباع هذا المذهب اعتراض على تحقيقي هذا فعليه أن

يرد بالأدلة على تساؤلي كيف وصلتْهم مسألة التوحيد؟ هل وصلتهم بالسماع أو اخترعها أحد من بُناة مذهبهم بعقله؟ إذا كانت قد وصلتهم بالسماع فقط، فعليهم أن يبيّنوا بوضوح: أيّ كتاب سوى القرآن الكريم كان قد نَشر في الهند في ذلك الزمن فكرة أن الله تعالى واحد لا شريك له، وأنه منـــزَّه عن الأهل والأولاد والحلول والتجسد، وأنه كامل ووحيد وفريد في ذاته وجميع صفاته؛ فأخذوا منه مسألة التوحيد هذه؟ عليهم أن يخبرونا باسم ذلك الكتاب.

وإذا كانوا يدّعون أن التوحيد لم يصل ذلك المؤسس بالسماع بل أوجد هذه المسألة بقوة عقله فقط، ففي تلك الحالة يجب أن يثبتوا أن التوحيد لم يكن قد انتشر في الهند بواسطة القرآن الكريم إلى زمن ذلك المؤسس، أي إلى الزمن الذي أوجده فيه مؤسس "براهمو سماج" كمذهب جديد، لأنه إذا كان قد انتشر من قبل فإن اكتشاف التوحيد لن يُعدَّ كإيجاد شيء جديد، بل سيُفهم يقينا أن مؤسس مذهب "براهمو سماج" قد تعلّمه من القرآن الكريم حصرا.

على أية حال، ما لم تدحضوا موقفي هذا بأدلة قوية سيظل ثابتا متحققا أنكم تعلّمتم مسألة التوحيد من القرآن الكريم فقط، ولكن ظللتم تنكرون الجميل ككافر النعمة، ولم تشكروا محسنكم ومربِّيكم، بل أسأتم إليه بدلا من الشكر كالذين تنطوي طبائعهم على الخبث والفساد.

إضافة إلى ذلك يعلم المؤرخون كلهم أنه بواسطة الإلهام فقط اطلع الناس في الأزمنة الغابرة على وجود الله ﷻ وصفاته الكاملة اطلاعا شاملا، ولم ينتشر التوحيد بالعقل في زمن من الأزمان. لذا؛ حيثما لم يصل الإلهام، فإن الناس جهلوا اسم الله تعالى وأعوزهم الآداب والتحضر مثل الدواب. فمَن له أن يُخرج لنا كتابا أُلِّف في زمن من الأزمنة الغابرة في بيان علم الله ﷻ، وحوى الحقائق الثابتة، وادّعى مؤلفُه بأنه لم يهتد إلى الصراط المستقيم لمعرفة الله تعالى بواسطة الإلهام ولم يطّلع على وجود الله تعالى بالسماع، بل استعان للاطلاع على وجود الله ومعرفة صفاته الحسنة بعقله وفكره وجهده ومجاهدته فقط،

واكتشف مسألة وحدانية الله ﷻ من تلقاء نفسه دون تعليمٍ من غيره، ووصل فكره إلى معرفة الله الكاملة والصادقة؟ من يستطيع أن يثبت لنا زمنا لم يكن فيه لإلهام الله تعالى أيّ أثر في الدنيا، وكان باب كتب الله المقدسة مغلقا، وكان الناس في ذلك الزمن قائمين على التوحيد ومعرفة الله بسبب صحيفة الفطرة فقط؟ من يقدر على أن يُطلعنا على بلد جهل سكانه الإلهام تماما ثم وصلوا إلى الله تعالى بمجرد العقل، وآمنوا بوحدانية الله بمحض عقلهم ونتيجة تفكيرهم فقط؟ لماذا تخدعون السذج؟ ولماذا تروّجون الزيف والتدليس نابذين خشية الله وراء ظهوركم كليا، وتغلقون المفتوح وتفتحون المغلَق؟ هل فعلا تؤمنون بالله القدير الذي يعلم حقيقة قلب الإنسان جيدا ولا يخفى الخائنون عن نظره الدقيق؟ ولكن المشكلة أن إيمانكم مثل مكان ضيّق ومظلم لم يصله الضوء الواضح الصافي قط، لذا فإن دينكم أيضا مجموعة من آلاف المضايق والظلمات، وهو مغلقٌ بحيث لا يُرى أيّ جزء منه مفتوحا، ولا تبدو عقدة منه محلولة بنــــزاهة وصدق. لقد سمعتم عن مدى إيمانكم بالله تعالى وكيفيته، أما كيفية إيمانكم بيوم الجزاء، وما هي المعارف التي فتح قانون الطبيعة عليكم بابها في هذا المجال؛ فليس منها أيضا في أيديكم شيء إلا الأفكار الواهية والمزاعم الباطلة. كيف يمكن أن تعلموا يقينا الجزئيات الدقيقة للثواب والعقاب ولم يثبت لكم على وجه اليقين أن الجزاء والعقاب حقيقة واقعة حتما، وأن الله تعالى سيجزي عباده على أعمالهم يقينا؟ فإذا كنتم تعلمون ذلك فأثبتوا لنا عقلا؛ لماذا يجب على الله أن يجزي بني آدم على تقواهم ويؤاخذ الفساق على فسقهم وفجورهم؟ فما دام من غير الواجب على الله ﷻ أن يحفظ أرواح الناس إلى الأبد، ويقضي على أرواح الحيوانات كلها، فكيف وجب عليه أن يجزي الناس بوجه خاص ويحرم غيرهم من ذلك؟ هل تفيد الله تعالى حسناتكم شيئا أو تضره سيئاتكم شيئا؛ فيرتاح للصالحين فيجازيهم على حسناتهم ويتأذى من الطالحين فيبغضهم؟ وإذا كانت حسناتكم أو سيئاتكم لا تنفعه شيئا ولا تضره

في حد ذاته، فإن طاعتكم له أو عدم الطاعة سواء عنده. وإذا كانت سواء، فكيف ثبت أن يترتب الجزاء أو العقاب على الأعمال على وجه اليقين دونما سبب؟ هل من العدل في شيء أن يعمل أحد عملا برغبته دون أمر من أحد ويثبت له حقٌ على الآخر دونما سبب؟ كلا. فمثلا لو حفر "زيدٌ" حفرة أو شيّد بناية دون أمر من "بكرٍ" -ولو قبلنا أيضا أن في ذلك مصلحة "بكر"- لما وجب على "بكر" في هذه الحالة أيضا من حيث العدل والإنصاف أن يدفع لزيد أجرة عمله وجهدِه، لأن الجهد الذي قام به "زيد" كان برغبته هو وليس بناء على ترغيب من "بكر" أو بأمره. فما دامت حسناتنا لا تنفع الله شيئا، بل لو صار العالم كله متقيا وورعا لما زاد في ملكوت الله شيئا، وكذلك لو أصبح الجميع فسّاقا وفجارا؛ لما سبب ذلك أدنى خلل في ملكوت الله ﷻ، فكيف يُفهَم أنه ﷻ سيجازينا على حسناتنا أو سيئاتنا حتما ما لم يكن هناك وعد صريح منه ﷻ بهذا الأمر؟ أما إذا كان هناك وعد من الله تعالى، فيمكن عندها لكل عقل سليم أن يستيقن أنه ﷻ سيحقق وعوده حتما. ويدرك كل شخص -إن لم يكن غبيا محضا- أن الوعد وعدم الوعد ليسا سواء. إن الاطمئنان والاقتناع الذي يناله المرء بالوعد لا يمكن نيله بأفكار بحتة يخترعها من عنده. فمثلا قد وعد الله تعالى المؤمنين في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلا﴾ (النساء: ١٢٣)، قولوا الآن عدلا وإنصافا، هل تعدل الأفكار المحضة التي تتولّد في القلوب هذا الوعد الصريح؟ أو هل تستوي حالة شخصٍ صادق القول بإعطائه أحدا شيئا من المال مع شخصٍ لا يعد غيرَه بشيء قط؟ هل يستوي المبشَّر وغير المبشَّر؟ كلا. والآن فكّروا في أنفسكم أيّ الأمرين أوضح وأكثر اطمئنانا، آلذي وعد الله فيه بإعطاء أجر حسن، أم الذي سكت الله عنه سكوتا تاما ثم يخطط له المرء من عند نفسه؟ هل من عاقل لا يعدّ الأمر الموعود أفضل من غير الموعود به؟ أيُّ قلب لا يضطرب

رغبةً في الوعد؟ إذا كان الله ﷻ صامتا واجما دائما فعلى أيّ أساس يجتهد المرء في سبيله، وعلى من يتوكّل؟ هل له أن يعدَّ أفكاره الشخصية وعودا من الله تعالى؟ كلا. والذي لا يُعرف عنه شيء؛ أيَّ جزاء سيجزي به، وكيف يجزي ومتى يجزي، فمن الذي يعلّق به آمالا قوية؟ وكيف يمكن أن يلقي بالا للمساعي والمجاهدات في حالة اليأس؟ إن وعود الله تعالى هي التي تدفع المرء إلى السعي وتخلق في قلبه حماسا كاملا. فبالنظر إلى تلك الوعود يتخلى العاقل عن حب الدنيا ويهجر آلاف العلاقات والروابط والعلائق والقيود من أجل الله تعالى. إنما الوعود التي تجذب المتلطخين بالأهواء والأطماع إلى الله دفعة واحدة. حين ينكشف على المرء أن كلام الله حق وأن كل وعد من وعوده ﷻ متحقق لا محالة يوما من الأيام، فيفتر حبه للدنيا فورا، ويتحول إلى شخص آخر تماما في لمح البصر ويصل إلى مقام يختلف كليا.

فملخص الكلام أن الباب المفتوح -سواء من حيث الإيمان أو العمل أو الأمل في الجزاء والعقاب- إنما هو باب إلهام الله الصادق وكلام الله المقدس وحده.

"إن كلام الله الذي لا شريك له يسقي من العرفان مئات الكؤوس، فأنّى للمحروم من هذه الخمر أن يتذوق الإيمان؟

العين التي قضت الحياة كلها في العمى ليست عينا بالمرة، وكذلك الأذن التي لم تسمع كلام الحبيب قط ليست أذنا".[٥٧]

الوسوسة السابعة: لا يمكن أن تنتهي جميع حقائق علم الله عند أيّ كتاب، فكيف يُتوقع من الكتب الناقصة أن توصل إلى المعرفة الكاملة؟

الجواب: لو اكتشف أحد أتباع "برهمو سماج" بقوة عقله حقيقةً جديدة عن معرفة الله تعالى أو أمر آخر من أمور المعاد لم يُذكر في القرآن، لكانت هذه

[٥٧] *بيتان فارسيان مترجمان. (المترجم)*

الوسوسة جديرة بالانتباه. ففي تلك الحالة كان بإمكان "براهمو سماج" أن يقولوا بكل اعتزاز بأن كافة الحقائق عن علم المعاد ومعرفة الله ليست مذكورة في كتاب موحى به، بل بقيت حقيقة كذا وكذا خارجه وقد اكتشفناها نحن. فلو فعلوا ذلك لكان بإمكانهم أن يخدعوا جاهلا. ولكن ما دام القرآن الكريم قد ادّعى بوضوح تام: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٩) أي ليس هنالك أية حقيقة تتعلق بعلم الله ﷻ وهي ضرورية للإنسان، خارج هذا الكتاب. وقال تعالى: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة: ٣-٤)، أي أن رسول الله ﷺ يتلو صحفا مطهَّرة تشمل الحقائق الكاملة وعلوم الأولين والآخرين كلها. وقال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ٢)، أي في هذا الكتاب ميزتان اثنتان: أولاهما أن الحكيم القدير قد فصّله بأدلة محكمة؛ أي على غرار العلوم الحكيمة وليس كالقصص والحكايات. والميزة الثانية أنه يتضمن تفصيل جميع الحوائج المتعلقة بعلم المعاد. وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[٥٨] أي أن هذا الكتاب يحكم في كافة النـــزاعات التي قد تطل برأسها بخصوص علم المعاد، فهو ليس كتابا بلا جدوى. وقال: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل:٦٥) أي أنزلنا هذا الكتاب لتُرفع كافة الخلافات التي نشأت بسبب العقول الناقصة أو بسبب الإفراط أو التفريط المتعمّد، ولكي يبيَّن السبيلُ السويّ للمؤمنين. ففي ذلك إشارة أيضا إلى أن إصلاح الفساد الذي انتشر بسبب أقوال بني آدم المختلفة، إنما يتوقف على هذا الكلام، بمعنى أنه لإصلاح الفساد المنتشر بسبب الأقوال السخيفة والخاطئة، هناك حاجة إلى كلام منـــزّه من كل العيوب؛ لأنه من البديهي تماما أن الذي يضِل الطريق بسبب الكلام لا يعود إلى الطريق إلا بالكلام. ولا تستطيع إشارات قانون الطبيعة أن تحكم في النـــزاعات الكلامية، ولا أن تدين الضال

[٥٨] الطارق: ١٤-١٥

على ضلاله بقوة وشدة. فمثلا: إن لم يدوّن القاضي إفادات المدّعي ولم ينقض أعذار المدّعَى عليه بأدلة قاطعة، فأنّى للفريقين أن يجدا أجوبة على أسئلتهما واعتراضاتهما واستفساراتهم بإشاراته فقط؟ وكيف يمكن أن يترتب الحكم النهائي على تلك الإشارات المبهمة التي لم يُدحَض بسببها استفسار أحد الفريقين بشكل مقنع؟ كذلك لا تتم حجة الله على العباد أيضا إلا إذا التزم ﷻ -بواسطة كلامه الصادق والكامل- تجاه الذين وقعوا في معتقدات خاطئة بسبب الكلام الخاطئ، بأنْ ينبههم على أخطائهم، وأن يؤكد لهم ببيان قوي وواضح أنهم ضالون؛ لكي يستحقوا العقاب إن لم يرتدعوا عن ذلك بعد الاطلاع على خطئهم وأصروا عليه. فلو بطش الله ﷻ بأحد بعدِّه مجرما واستعدَّ لمعاقبته دون أن يثبت ببيان واضح خطأ الأدلة التي يقدمها على براءته، ودون أن يمحو بكلامه البيّن ما يختلج في قلبه من شبهات، فهل سيكون حكمه ذلك مبنيا على العدل والإنصاف؟ وقد أشار ﷻ إلى ذلك في قوله الآخر أيضًا: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٦)، أي أن القرآن يتحلى بثلاث صفات: أولا: إنه يهدي الناس إلى علوم الدين التي جهلوها. ثانيا: يفصّل العلوم التي كانت مجملة من قبل. ثالثا: يميز بين الحق والباطل ببيان قولِ الفصل في الأمور التي حدث فيها الاختلاف والنـــزاع.

وقال عن الشمولية نفسها: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (بني إسرائيل: ١٣) أي قد فُصِّلَ في هذا الكتاب كل نوع من علوم الدين، ولا ينال الناس بسببه تقدما جزئيا، بل إنه يُطلعهم على الوسائل والعلوم الكاملة التي تُحدث تقدما كلّيًا. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٩٠)، أي لقد أنزلنا عليك هذا الكتاب لتُبيِّن لهم كل حقيقة دينية، وليكون بياننا الكامل هذا مدعاة للهداية والرحمة للذين يطيعون الله. وقال: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ٢). وفي ذلك إشارة إلى أن القرآن الكريم يزيل كافة أنواع

الوساوس والشكوك والشبهات التي تنشأ في قلوب الناس، ويمحو الأفكار الفاسدة من كل نوع ويهبهم نور المعرفة الكاملة؛ بمعنى أنه يهب الناس كل ما يحتاجونه من المعارف والحقائق من أجل الرجوع إلى الله تعالى والإيقان به. ويقول: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١٢)، أي أن القرآن ليس بالكتاب الذي يمكن أن يؤلّفه الإنسان، بل إن علامات صدقه واضحة جلية لأنه يصدّق الكتب السابقة؛ بمعنى أن الأنباء التي جاءت عنه في كتب الأنبياء السابقين قد تحققت كلها بنـــزوله. أما المعتقدات الحقة التي لم ترِد الأدلة الواضحة عليها في الكتب السابقة، فقد بيّن القرآن الكريم أدلتها وأوصل تعليمها إلى مرتبة الكمال، وقد أثبت صدق الكتب السابقة بأسلوب يُثبت صدقَه هو أيضا.

والعلامة الثانية لصدقه أنه يبين كل حقيقة دينية، ويخبر بجميع الأمور الضرورية لنيل الهداية الكاملة. ولقد عدَّ ذلك علامة صدقه؛ إذ يفوق قدرة الإنسان أن يكون علمه واسعا ومحيطا لدرجة أن لا تبقى حقيقة دينية أو حقائق دقيقة أخرى خارجه.

فباختصار، لقد قال تعالى في جميع هذه الآيات بوضوح تام بأن القرآن الكريم جامع الحقائق كلها، وهذا هو الدليل الأعظم على صدقه. ولقد مضى على هذا الادّعاء مئات السنين ومع ذلك ما وسِع أحدا من أتباع مذهب "براهمو سماج" أو غيره أن ينبس إزاءه ببنت شفة إلى يومنا هذا. فمن الواضح في هذه الحالة أن تقديم المزاعم الباطلة التي لا أصل لها كالمجانين والجهلاء دون تقديم حقيقة جديدة لم تُذكر في القرآن الكريم، لَدليل قاطع على أن هؤلاء القوم لا يهدفون إلى البحث عن الحق كالصادقين، بل إنهم عاكفون على أن يتخلصوا من أوامر الله بأية طريقة، بل ليتحرروا من الله ﷻ نفسه نهائيا إرضاءً لنفوسهم الأمارة. ولنيل هذا التحرر ينحرفون عن كتاب الله الصادق الذي

صدْقُه أظهرُ من الشمس، فلا يتحلون بأدب ولياقة إذا كانوا متكلمين، ولا يستمعون بإصغاء إذا كانوا سامعين. فليسألهم أحد: متى قدّم أحد حقيقة دينية مقابل القرآن الكريم ولم يُجبه عليها القرآن، بل ردّ السائلَ صفر اليدين؟ فما دام القرآن الكريم يدّعي بأعلى صوته منذ ١٣٠٠ عام بأنه يجمع في طياته الحقائق الدينية قاطبة، فأيّ نوع من خبث الطوية أن يُعَدّ هذا الكتاب العظيم الشأن ناقصا دون اختبار! ما هذه المكابرة بأنهم لا يقبلون بيان القرآن الكريم ولا ينقضون إعلانه! الحق أنهم يذكرون الله تعالى أحيانا بلسانهم، ولكن قلوبهم مليئة بخبث الدنيا. ولو بدأوا نقاشا دينيا لما أرادوا إكماله بصورة نهائية، بل يخنقون البحث كله سريعا وهو لا يزال غير مكتمل حتى لا تظهر الحقيقة للعيان. ثم وبكل وقاحة يصمون ذلك الكتاب الكامل بالنقص وهو الذي أعلن بكل وضوح: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ٤)، أي قد أبلغتُ اليوم بإنزال هذا الكتاب علم الدين مبلغ الكمال وأتممت جميع نِعَمي على المؤمنين.

أيها القوم، ألا تخافون الله أدنى خوف؟ هل تظنون أنكم ستعيشون إلى الأبد؟ ألن تصيب هذه الوجوه الكاذبة لعنةٌ يوم تمثلون أمام الله ﷻ؟ إذا كان في جعبتكم حقيقة عظيمة تظنون أنكم اكتشفتموها بالجهد والكدح والبحث العميق، وتزعمون بحسب زعمكم الخاطئ أن القرآن عجز عن بيانها؛ فعليكم أن تقدموها لنا نابذين كل شيء وعمل وراء ظهوركم، لكي نخرجها لكم من القرآن الكريم. ولكن في هذه الحالة يجب أن تكونوا جاهزين لدخول الإسلام. وإن لم تتركوا سوء الظن والهذيان ولم تتخلوا عن الهراء ولم تختاروا طريق المناظرة الآن أيضا، فما عسانا إلا أن نقول: **لعنة الله على الكاذبين.**

"يا من شدّ مئزره للافتراء، لا تهلك نفسك بترك الحياء.

حتّامَ تعادي عباد الله الخواص، عليك أن تستحي من ربّ العالمين يوما.

وإذا ثبتت عظمة شيء، فكل من اعترض عليه كان سفيها.

لئن أسأت الظن بصالح، لعدَّك الناسُ خبيث الطوية.

لو حسبتَ اللؤلؤة اللامعة ضبابية، لتبيّن أن عينيك هي الضبابية.

إن الكلام الخبيث والعبثي وعديم المعنى، يدل على خبث أهله فقط.

لا تقدر على أن تقول شيئا إلا الكذب، وأنّى للكذب أن يزدهر أمام الحق.

إنك لا تذكر الله الواحد الذي لا نظير له، وقد صرتَ معجبا بالدنيا التي لا حقيقة لها.

ما دام الجميع سيرحلون من هذه الدار بغتة، فأنّى للمرء أن يعلّق قلبه بهذه الدنيا.

إن عاقبة هذه الدار هي الشجن والألم، فلا يقعنّ الرجال في شراكها.

لا تلطِّخ قلبك بوحل الدنيا كاللئام، فليس لها طول البقاء.

إن وقت الجزاء موشك، فلا تفتخر بالحياة الدنيوية.

لا تنخدعنّ بالذهب والفضة والمال، لأن المال لا محالة زائل.

ما جئنا بشيء من عندنا ولن نأخذ شيئا معنا، فقد جئنا صفر اليدين وهكذا سنرحل.

ألا لا تُعرضنّ عن الحبيب، فإن العالم كله لا يساوي شعرة واحدةً من الحبيب.

لن تجد الطريق إلى الله -الذي نضحّي بأرواحنا في سبيله- دون اتباع المصطفى ﷺ.

إن "أبا القاسم" نور العالم كله، وبه ستستنير الأرض والدهور.

أنّى كان للبشر أن يصبح أفضل من الملاك إن لم يولَد شخص مثل محمد ﷺ.

ألا تستحي من الله مع كونك عاقلا ومعزَّزًا.

مع ذلك تنكر ذلك الرسول الذي منه تنال العقولُ نور المعرفة.

لم تتحرَّر من العثار والغفلة، ولم تتقدم أقدامُك إلى القِيم الإنسانية.

من المستحيل أن تؤدي مهمات رب العباد، فلا تتكلم بكلام مبني على الجهل والبُغض.

فلا تحسبنّ الله ناقصا وأبكم مثل الجمادات ولا تنسَ كماله.

أنت الناقص ودنيء الصفات بنفسك، فلا تنسب العيب إلى الذات المقدسة.

لقد أهلكتْك أفكارك السخيفة، فقد سقطت في البئر ماشيا إليها بقدميك؟

إن أفكارك مظلمة كليلٍ حالك، وقد جعلتْها ضغينتك مغبرَّة أكثر من ذي قبل.

لا تفرح كاللصوص بحلول الليل، بل اخشَ وتذكَّر يوم العقاب.

لو طِرت في الجو مثل الطيور، وسبحتَ في الماء.

وخرجت من النار سالما، وحولتَ التراب ذهبا بسحرك.

فلن تستطيع أن تجعل الحق مغلوبا وعاجزا، فلا تهذِ مثل المجانين والسفهاء.

إن الذي جعله الله سراجا منيرا، لا يمكن أن يصبح ترابا بيدك.

يا أيها السافل لا تحرق قلبك بلا جدوى، إن الشيء النامي لا يمكن أن ينقص بمكائدك.

الفصلُ فصل الربيع، ونسيم الصبا يداعب الورد والياسمين في البستان.

ويهبُّ النسيم ناشرا شذى النرجس وغيره من أزهار فصل الربيع.

وأنت يا أيها السفيه جالس في الخريف بعد سقوط الأوراق كلها.

لماذا تهاجم القرآن عداوة، ألم تر فيه أية ميزة؟

لولا القرآن في الدنيا لما بقي فيها للتوحيد أثر.

كانت الدنيا غارقة في الظلام، وقد أشرقت به البلاد كلها.

وبه استبان طريق التوحيد، وقد علمتَ أيضا أن الله عديم النظير.

وإلا فانظر إلى آبائك، وانظر إلى دينهم بنظر الإنصاف.

إنه لسافل وسيئ الطوية مَن يتمرد على مُحسنه.

فلا تحلّق في الجو أكثر من استطاعتك، ولا تمارس الطب إن كنت لا تتقن هذه المهنة.

تيقّن أنه فعل الله ﷻ، ولا دخْل فيه لمكائد الإنسان.

هذا الدين لذو شأن عظيم بفضل الله، ولا دخْل فيه للمكر والزيف والإكراه.

فيه يسطع النور مثل الشمس، إنك أعمى؛ لذلك لا تراه.

لا تسئ الظن لخبث القلب، وإذا كان عندك دليل واضح فبيِّنْ.

اخلُق في قلبك رغبة عارمة، ثم انظر قدرة ذلك الإله القادر.

اختَر من قومك مجلسا لكي يعقدوا معنا عقدا بالاتفاق.

إن فضل الله القدوس معنا، فلا نهاب المبطلين.

إن فيض الله الواحد ثائر في قلبي، لكي أفكّ سلاسل كل طالب.

إن أبواب ألطاف الله مفتوحة، ويهبُّ نسيم رحمة الله.

إن الذي يُعرض عن العدل والإنصاف، لا يسعه أن يقوم أمام الحق.

وإن كلام الله يسوّد وجه ذلك الوقح بكل جلال وعظمة.

كيف يمكن أن يكون رأيه سديدا مَن صرعتْه ثوائر نفسه.

إن البحث بقلبٍ طاهر، وبنظرٍ وتفكُّر؛ أصلان متلازمان.

لا تُكتب الطهارةُ في القلب إلا بمداد من ماء العيون.

لقد خلقك الله من حفنةٍ من التراب، ورزقك طعاما لكيلا تهلك.

لقد تولّى بنفسه قضاء حاجاتك، وفتح كلتا يدَي سخائه رحمة منه.

هل تجازي عطاءه بجعْل نفسك شريكا له بحسب زعمك.

كيف تزعم نفسك ندّا لله ﷻ، ويل لهذا العقل والفهم والفكر.

إذا أسقط الله أحدا في قعر المذلة، فلا نستطيع رفْعه بجهدنا.

ليس لنا إلا أن نسعى، ولن يحدث على صعيد الواقع إلا ما يرضى به الله".[٥٩]

الوسوسة الثامنة: إنّ عدَّ إنسانٍ كليم الله بعيد عن الأدب، أيّ مجال للمقارنة بين الفاني والذات الأزلية والأبدية؟ وما وجه الشبه بين حفنة من التراب ونور الله؟

الجواب: هذا الزعم أيضا سخيف للغاية ولا أصل له من الصحة، ولقلعه من جذوره يكفي المرء أن يفهم أن الله الرحمن والكريم قد ألقى في قلوب الكاملين من بني آدم حماسا مفرطا لمعرفته، وجذبهم إلى حبه وأُنسه والشوق إليه حتى نسوا أنفسهم كليًّا. فالقول في هذه الحالة بأنه ﷻ لا يريد أن يكلّمهم؛ يعني أن عشقهم وحبهم له كله عبث، وأن جلّ حماسهم أحادي الجانب فقط. فما أسخف هذه الفكرة وما أوهنها! هل يُعقل أن يبقى الطالبُ الذي وهبه الله تعالى قدرة على التقرب منه وجعله مضطربا بحبه وعواطف عشقه، محروما من فيض كلامه؟ هل صحيح أن عشق الله وحبه والفناء من أجله كله جائز ولا يحط من شأنه شيئا، بينما إنزال الله إلهامه ﷻ على قلب محبّه الصادق مستحيلٌ ولا يجوز بحال من الأحوال ويحط من شأنه؟ إن استغراق الإنسان في البحر اللامتناهي لحب الله تعالى وعدم توقفه في مكان، يدل دلالة قاطعة على أن روحه ذات الخِلقة العجيبة خُلقت لمعرفته ﷻ. والشيء الذي قد خُلق لمعرفة الله ثم لا يوهَب له وسيلة المعرفة الكاملة أي الإلهام، فلا بد من القول في هذه الحالة إنه ﷻ ما خلقه لمعرفته، بينما لا ينكر أتباع "براهمو سماج" أيضا أن فطرة الإنسان السليمة متعطشة لمعرفته تعالى في الحقيقة.

والآن، يجب عليهم أن يدركوا بأنفسهم بأنه ما دام الإنسان السليم الطبع يطلب معرفة الله بفطرته، وثبت أيضا بأنه ما من وسيلة كاملة لنيل معرفة الله

[٥٩] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

إلا الإلهام الإلهي، ففي هذه الحالة؛ لو كانت الوسيلة لنيل معرفة الله الكاملة غير ممكنة الحصول بل مجرد البحث عنها أيضا يُعدّ بعيدا عن الأدب، لوقع اعتراض شديد على حكمة الله تعالى بأنْ خلق في الإنسان حماسا لمعرفته ولكنه لم يرزقه وسيلة المعرفة، وكأنه ما أراد أن يعطيه الخبز بقدر ما ابتلاه بالجوع، وما رزقه ماء على قدر خلقه العطش. ولكن العقلاء يعرفون جيدا أن هذه الفكرة نكران لرحمة الله العظيمة كليًّا. إن القول بأن الحكيم القدير -الذي وضع جلّ سعادة الإنسان في أن يرى أشعة الألوهية كاملة في هذه الدنيا ليُجذَب إلى الله تعالى بجذبها القوي- لا يريد أن يوصل الإنسان إلى سعادته المطلوبة ومرتبته الفطرية، يدل على عقلية غريبة لأتباع "برهمو سماج".

الوسوسة التاسعة: إن الاعتقاد بأن الله تعالى ينـــزل كلامه من السماء ليس صحيحا قط، لأن قوانين الطبيعة لا تصدق ذلك، ولا نسمع صوتا هابطا من الأعلى إلى الأسفل. بل الإلهام اسم لأفكار تنشأ في قلوب الناس العاقلين نتيجة إعمال الفكر والنظر ليس إلا.

الجواب: إذا كانت هناك حقيقة ثابتة بحد ذاتها وشاهدها عدد لا يُحصى من أصحاب المعرفة بأم أعينهم، وثبت وجودها لطالب الحق في كل زمان، ثم إذا أنكرها شخص محروم من البصيرة الروحانية أو تقاصر عند تصديقها فهْمُ شخص محجوب القلب وعلمُه الناقص؛ فهذا لا يضر الحقيقة شيئا، ولا تخرج تلك الحقيقة بهرائه عن قائمة قوانين القدرة. ففكروا مثلا: إذا كان أحد يجهل قوة المغناطيس الجاذبة، و لم ير مغناطيسًا قط، ثم قال بأن المغناطيس حجر، وأنه لم ير حجرا قط -على قدر علمه بقوانين الطبيعة- فيه هذا النوع من الجذب، فحسِب أن قوة الجذب التي عُلم وجودها في المغناطيس ليست موجودةً في رأيه لأنها تخالف قوانين الطبيعة؛ فهل تصير خاصية المغناطيس المتحققة غير جديرة بالاعتبار ومشكوكا فيها بسبب هرائه؟ كلا. بل كل ما سيثبت من هراء هذا

الجاهل هو أنه أحمق وجاهل من الدرجة القصوى؛ إذ يعدّ عدم علمه دليلا على عدم وجود الشيء، ولا يقبل شهادة آلاف الناس أصحاب التجربة والخبرة. فكيف يمكن أن يُشترَط لإثبات قوانين الطبيعة أن يتمكن من اختبارها كل فلان وعلان؟ لقد خلق الله تعالى البشر بقوىً ظاهرية وباطنية متفاوتة؛ فهناك من يملك قوة بصرٍ قوية وبعضهم ضعيف البصر، وبعضهم أعمى. فحين يطّلع ضعيف البصر على أن صاحب البصر القوي رأى من بعيدٍ شيئا دقيقا مثل الهلال، فلا ينكر ذلك بل يرى الإنكار مدعاة لإهانته وفضيحته، وأما الأعمى فلا ينبس في هذا الشأن ببنت شفة. كذلك الذين تعوزهم حاسة الشمّ؛ إذ يسمعون من مئات الناس الثقاة والصادقين أخبار الرائحة الزكية والكريهة، فيوقنون ولا يرتابون قط، ويعلمون جيدا أن هذا العدد من الناس لا يكذب بل يصدق القول حتما، ويدركون أن حاسة الشم عندهم مفقودة إذ إنهم محرومون من القدرة على الإحساس بالروائح. وكذلك إن بني آدم يتفاوتون من حيث الكفاءات الباطنية، فبعضهم أدنى درجة ومحجوبون في حُجُب نفسانية، وبعضهم يملكون منذ القدم نفوسا عالية ونزيهة ويأتيهم الإلهام من الله تعالى. وإن إنكار أصحاب الطبيعة الدنيا الذين هم محجوبو النفس بالخصائص التي يملكها أصحاب النفوس السامية واللطيفة، هو كإنكار الأعمى أو ضعيف البصر مرئيات أصحاب البصر القوي، أو كإنكار الأخشم، فاقد الشم، ما يشمه صاحب حاسة الشم السليمة.

وكذلك إن الأمور التي تدين المنكِر ظاهريا هي نفسها التي تدينه باطنيا أيضا، فمثلا إذا كانت حاسة الشم لدى أحد مفقودة بسبب مرض ولادي وأنكر وجود الرائحة الطيبة أو الكريهة، وحسبَ جميع الذين يملكون حاسة الشم كاذبين أو متوهمين، فكان بالإمكان أن يُوضَّح له بأن يُطلب منه أن يرشّ العطور على أشياء مختلفة -كقِطَع قماشٍ مثلاً- ولا يرشّ على بعضها الآخر، وبذلك يمتحن الذي يملك حاسة الشم حتى يتيقن بتجربة متكررة أن حاسة

الشم موجودة فعلا وحقيقةً، ويوجد في الحقيقة أناس يستطيعون التمييز بين شيء معطَّر وغيره. كذلك يثبت وجود الإلهام أيضا لطالب الحق من خلال التجارب المتكررة، لأنه حين تنكشف على الملهَم الأمور الغيبية والدقائق الخفية التي لا يمكن اكتشافها بمجرد العقل، وأن الكتاب الموحى به يشمل العجائب التي لا يضمها كتاب آخر؛ فعندها يفهم طالب الحق من هذا الدليل وحده أن الإلهام الإلهي حقيقة متحققة الوجود. وإذا كان هذا الشخص من ذوي النفوس المنزّهة، فسوف يتلقى الإلهام الإلهي مثل الأولياء بقدر نور قلبه وبسبب سلوكه الصراط المستقيم. وبذلك يتسنّى له العلم بوحي الرسالة كحق اليقين. وأنا أتحمل مسؤولية إثبات ذلك لطالب حق لو أظهر رغبة في قبول الإسلام بصدق القلب والصدق الروحاني والطاعة الخالصة. **وإن كان أحد في شك من قولي، فليرجع إلينا بصدق القدم، والله على ما نقول قدير وهو في كل أمر نصير.**

أما القول بأن الدقائق التي تنكشف على الناس نتيجة إعمال الفكر والنظر هي الإلهام نفسه، وليس هناك شيء سواها يسمَّى إلهاما، فإنها شبهة ناتجة عن العَمَه وعدم العلم. فإذا كانت أفكار الناس هي الإلهام الإلهي فقط، لأمكن لهم أن يكتشفوا -مثل الله تعالى تماما- أمورا غيبية نتيجة إعمال الفكر والنظر. ولكن من الواضح تماما أنه لا يسع بشرا مهما كان ذكيا وفطينا أن يخبر بأمرٍ غيبيٍّ نتيجة التفكير فقط، ولا يسعه أن يُظهر أية قوة إلهية، ولا يمكن أن تتحقق في كلامه علامة القدرة الخاصة بالله ﷻ. بل لو بذل نفسه في هذا التفكير لما استطاع أن يطّلع على الأمور الخافية التي تفوق عقله ونظره وحواسه. ولا يكون كلامه من السمو بحيث تعجز القوى الإنسانية عن مبارزته. لذا فهناك أوجه كثيرة تدفع العاقل إلى اليقين بأن الأفكار السيئة أو الطيبة التي يتوصل إليها الإنسان نتيجة إعمال فكره ونظره لا يمكن أن تكون كلام الله ﷻ. فلو كانت كلام الله لفُتحت على الإنسان أبواب الغيوب كلها،

ولكان قادرا على بيان أمور يتوقف بيانها على القدرة الإلهية فقط، لأنه لا بد من وجود تجليات إلهية في أفعال الله وكلامه. ولكن لو خطرت ببال أحد شبهة أنه عند إعمال الإنسان الفكر والنظر، كيف يتطرق إلى قلبه المكرُ الخيِّر والمكر السيئ والحِكم الدقيقة المتعلقة بكل خير وشر والزيفُ والمكائد، وكيف تتطرق إلى قلبه فكرة مفيدة فجأة أثناء التفكير والتأمل؟ فجوابها أن كل هذه الأفكار إنما هي خلق الله وليست أمر الله. وهناك فرق دقيق بين خلق الله وأمر الله. إنّ المراد من خلق الله هو فعله ﷻ؛ أي أن الله يخلق شيئا في العالم بواسطة الأسباب وينسبه إلى نفسه لكونه علة العلل. وأما المراد من الأمر فهو ما يكون من عند الله خالصًا دون واسطة الأسباب ولا يكون لأي سبب دخْل فيه، فكلام الله الذي ينـــزل من الله القادر يكون نزوله من عالَـــم الأمر وليس من عالَـــم الخلق. وأما ما سواه من الأفكار التي تنشأ في قلوب الناس عند إعمالهم النظر والفكر، فهي من عالَـــم الخلق كلها، إذ أن قدرة الله تتصرف فيها في الخفاء بواسطة الأسباب والقوى. وبيانها أن الله تعالى قد خلق الناس في عالَـــم الأسباب هذا مزودين بشتى القوى والقدرات وجعل فطرتهم مبنية على قانون الطبيعة؛ أي قد أودع فطرتهم خاصية أنهم كلما أعملوا فكرهم في أمر خير أو شر تطرقت إلى أذهانهم خطط بحسب مقتضى حاله. فكما وُضع لقوى الإنسان الظاهرية وحواسه قانون أنه إذا فتح عينيه سيرى شيئا ما، وإذا وجّه سمعه إلى جهة معينة سمع شيئا، كذلك لو فكّر المرء في طريق النجاح سواء في الخير أو في الشر لتوصّل حتمًا إلى خطة ما. فالصالح يفكر في الحسنة ويكتشف سبيلا للخير، أما اللص فيفكر في أسلوب النقب ويكتشف سبيلا ناجعا لهذا الغرض.

فباختصار، كما تتطرق إلى ذهن المرء أفكار عميقة ودقيقة عن السيئة عند تفكيره في السيئة، كذلك حين يبذل الإنسان هذا الوقت في سبيل الخير تتطرق إليه أفكار حسنة. وكما أن الأفكار السيئة مهما كانت عميقة ودقيقة ومهما

ملكت تأثيرا سحريا، لا يمكن أن تكون كلام الله، كذلك فإن أفكار الإنسان التي يستنبطها بنفسه ويزعمها حسنة، فهي ليست كلام الله تعالى.

وملخص الكلام: إن ما يتوصل إليه الصلحاء من الحِكم الطيبة، أو ما يتوصل إليه اللصوص والنهاب والقتلةُ والزناة والمزيفون من أفكار سيئة عند إعمالهم الفكر والنظر؛ إنما هي تأثيرات وخصائص طبيعية، وتسمَّى خلق الله – لكونه ﷻ علة العلل– ولا تسمى أمر الله. وإنها خصائص طبيعية للإنسان مثلما القدرة على إحداث الإسهال أو الإمساك وغيرهما، هي خصائص طبيعية في بعض النباتات. وكما أن الله الحكيم القدير قد وضع خصائص مختلفة في أشياء مختلفة، كذلك أودع قوةَ الإنسان المتفكرةَ ميزةً أنه كلما أراد الاستعانة بها – سواء في أمور الخير أم الشر– نال منها ذلك النوع من العون. فمثلا هناك شاعر يريد أن ينظم أبياتا يهجو بها أحدا، فتتطرق إلى ذهنه أبيات الهجو عند التفكير، وشاعر آخر يريد أن يمدح الشخص نفسه، فيتطرق إلى ذهنه المديح فقط وباستمرار.

إذن، فإن الأفكار السيئة والحسنة من هذا القبيل لا يمكن أن تكون مرآة لمرضاة الله تعالى بوجه خاص، ولا يمكن أن تسمَّى أفعاله أو كلامه. بل إن كلام الله ﷯ المقدس أعلى وأسمى من قوى الإنسان كليا، ويزخر بالكمال والقدرة والقدوسية. والشرط الأول لظهوره وبروزه هو أن تكون قوى البشرية عاطلة وباطلة كليا بحذائه؛ إذ لا ينفعه فكرٌ ولا تدبّر، بل يكون الإنسان مثل الميّت، وتنقطع الأسباب كلها، وينـــزِّل اللهُ تعالى –الذي هو واجب الوجود بذاته– كلامَه على قلب أحد بمشيئته الخاصة.

فليكن معلوما أنه كما ينـــزل ضوء الشمس من السماء فقط ولا يمكن أن يتكوّن داخل العين، كذلك فإن نور الإلهام أيضا ينـــزل من الله تعالى وحده وبمشيئته الخاصة ولا يظهر من داخل الإنسان. وما دام الله تعالى موجودا في الحقيقة وهو يرى ويسمع ويعلم ويتكلم، فلا بد أن ينـــزل كلامٌ من ذلك الحي

والقيوم دون أن تتحول أفكار الإنسان إلى كلام الله. وإن الأفكار السيئة أو الحسنة التي نحيط بها بحسب طبيعتنا هي التي تتدفق من داخلنا. ولكن كيف يمكن أن تحيط قلوبنا بعلم الله اللامتناهي وحِكمه التي لا تعدّ ولا تحصى؟ أيّ كفر أكبر من أن يظن المرء بأن ما عند الله من كنوز العلم والحكمة وأسرار الغيب، كلها موجودة في قلوبنا، وتتدفق من قلوبنا.

فكان معنى ذلك بتعبير آخر هو أننا نحن الإله بحد ذاتنا، ولا يوجد سوانا كيان قائم بنفسه ومتصف بصفاته يمكن أن يسمى إلـــهًا، لأنه إذا كان الإلـــه موجودا فعلا وكانت علومه غير المتناهية خاصة به وحده ولا يمكن أن يكون قلبنا وعاء لها، فكم هو باطلٌ وسخيف القول في هذه الحالة بأن علوم الله اللامتناهية وجميع كنوز حكمته موجودة في قلوبنا، وكأنه ليس عند الله علم إلا ما يوجد في قلوبنا. ففكِّروا في أنفسكم؛ فماذا يكون ذلك إن لم يكن ادّعاء الألوهية! هل يمكن أن يصبح قلب الإنسان جامعا لجميع كمالات الله؟ هل يمكن أن تتحول الذرَّة شمسًا؟ كلا، ثم كلا.

لقد قلت من قبل أيضا بأنه لا يمكن أن تظهر من الإنسان قط صفات الألوهية "مثل علم الغيب والإحاطة بدقائق الحكمة" وغيرها من الآيات الدالة على القدرة. وإن كلام الله هو ذلك الذي يتضمن عظمة الله وقدرته وبركاته وحكمته والأدلة على أنه تعالى عديم المثال. فكل هذه الشروط تتوفر في القرآن الكريم، وسوف أُثبت ذلك في محله بإذن الله.

فلو ظل أتباع "برهمو سماج" إلى الآن مصرين على إنكار الإلهام الذي يشمل الأمور الغيبية وغيرها مما يتعلق بالقدرة، فعليهم أن يقرأوا القرآن الكريم بإمعان لتُفتح عيونهم وليعلموا كيف يجري في هذا الكلام المقدس بحر زخار من أخبار الغيب وأمور القدرة التي تفوق قدرات البشر. وإن لم يطّلعوا على فضائل القرآن هذه بأنفسهم لقلة بصيرتهم وضعف بصرهم، فعليهم أن يقرأوا كتابي هذا بعيون مفتوحة ليطّلعوا -كغيضٍ من فيض- على كنوز الأمور الغيبية

وأسرار القدرة التي يزخر بها القرآن الكريم. وليتذكروا أيضا أن هناك سبيلا آخر أيضا لتحقيق الإلهام الرباني الذي ينـــزل من الله وحده ويشمل الأمور الغيبية؛ وهو أن الله تعالى يخلق دائما في الأمة المحمدية القائمة على الدين الحق أناسا يتلقون الإلهام من الله تعالى ويُنْبئون بأمور الغيب التي لا يسع أحدا بيانها إلا الله الواحد الذي لا شريك له. والله تعالى لا ينـــزل هذا الإلهام المقدس إلا على المؤمنين الذين يؤمنون بكون القرآن الكريم كلام الله بصدق القلب، ويعملون به بصدق وإخلاص، ويؤمنون بأن سيدنا محمدًا المصطفى ﷺ رسول الله الصادقُ والكاملُ، وأفضل الأنبياء جميعا وأعلاهم وخيرهم وخاتم الرسل، ويؤمنون به هاديا ومقتدى لهم. أما الآخرون مثل اليهود والنصارى والآريا وبرهمو وغيرهم فلا يتلقّون هذا الإلهام قط، بل تلقّاه دائما أتباع القرآن الكريم الكمَّل، ولا يزالون يتلقَّونه، وسيتلقونه في المستقبل أيضا. ومع أن وحي الرسالة منقطع من ناحية لعدم ضرورته، إلا أن هذا الإلهام الذي ينـــزل على خُدَّام النبي ﷺ المخلصين لن ينقطع في أي زمان. وإن هذا الإلهام حجة عظيمة لوحي الرسالة، وكل منكر للإسلام وعدوٍ له ذليل مهان أمامها. ولما كان هذا الإلهام المبارك ينـــزل بكل بركاته وشأنه وعظمته وجلاله على العباد المكرَمين المنتمين إلى الأمة المحمدية وخُدَّام النبي ﷺ ذي الجاه فقط، ولا يوجد هذا النور الكامل الذي يبشر بقرب الله والقبول في حضرته ورضاه ﷻ في أي فئة أخرى، لذا فإن وجود هذا الإلهام المبارك لا يثبت صدق الإلهام فقط بل يثبت أيضا أن الحزب المتمسك بالدين المقبول والمستقيم في الدنيا هم المسلمون فقط. أما غيرهم فكلهم على الباطل وضلّوا الطريق وصاروا مورد غضب الله ﷻ.

قد يقول الجهلاء ما يحلو لهم لدى سماعهم كلامي هذا ويُنغضون رؤوسهم منكرين، أو يستهزئون كالأغبياء والأشرار، ولكن عليهم أن يدركوا أن الإنكار والاستهزاء بدون مبرر ليس من شيمة الشرفاء وطلاب الحق، بل هي سيرة خبثاء الطوية والأشرار الذين ليست لهم أدنى علاقة مع الله والصدق. توجد في

الدنيا آلاف الأشياء التي لا تُعلم خصائصها بالعقل وحده بل يدركها الإنسان بالتجربة؛ لذلك فإن المبدأ العام والمتّبَع عند العقلاءِ قاطبة هو أنه عندما تتحقق خاصية شيء بالتجارب المتكررة، فلا يشك عاقل في وجودها وإنما يشك فيها بعد الاختبار من كان حمارا محضا. فمثلا توجد في نبات "التُّرْبُد" قوة إحداث الإسهال، وكذلك في المغناطيس قوة الجذب مع أنه لا يوجد دليل على سبب وجودها، ولكن ما دامت التجارب المتكررة تثبت وجودها بوضوح، فلا بد للعاقل من الاعتراف بحسب مقتضى الشهادة القاطعة والتجربة والاختبار بأن قوة الإسهال في "التُّرْبُد" وقوة الجذب في المغناطيس موجودة حتما وإن لم يكن على كيفيتها ووجودها دليل عقلي. ولو أنكر أحد وجودها بحجة أنه لا يجد عليها دليلا عقليا، لعدَّه كل عاقل مجنونا، ولَعَدّه مختل العقل مسلوبه وسفيها.

والآن أقول لأتباع "برهمو" وغيرهم من المعاندين بأنه لم يكن بلا دليل ما قلته بأن الإلهام ينـــزل الآن أيضا على الأفراد الكمّل من الأمة المحمدية، وهو خاص بهم وحدهم ولا يوجد في غيرهم قط؛ فكما تُكتشف آلاف الحقائق بالتجربة، كذلك يمكن أن يتبين ذلك أيضا لكل طالب حق من خلال التجربة والاختبار. وإذا كان هناك باحث عن الحق فإنني أتحمل مسؤولية إثبات ذلك بشرط أن يعلِن أحد من أتباع برهمو سماج أو غيرهم من منكري الإسلام وينشر وعده بأنه سيقبل الإسلام بصدق القلب كطالب حق ويرجع بالإخلاص وصدق النية والطاعة. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.[٦٠]

ومن الناس مَن يقدّم شبهة أنه ما دامت هناك فئات عديدة في الدنيا يُنبئون بشيء من الأمور الغيبية أحيانًا، مثل المنجمين والأطباء والقيافين والكهنة والضاربين بالرمل والجفريين وفاتحي الفأل وبعض المجانين، وفي بعض الأحيان يتحقق كلامهم أيضا، كما تُكتشَف بعض الأمور من هذا القبيل في هذه الأيام

[٦٠] آل عمران: ٦٤

بواسطة "المسمرية"[٦١] فكيف يمكن إذن عدُّ بيان الأمور الغيبية حجة قاطعة على صدق الإلهام؟

فليكن معلوما في الجواب أن كلام أصحاب الفئات المذكورة آنفا كلها يكون مبنيا على الظن والتخمين فقط، بل على الأوهام، ولا يكون لديهم علم يقيني وقاطع، وهم لا يدّعون ذلك. وما يتنبأون به من أحداث كونية إنما يكون مصدره مؤشرات وأسباب ظنية فقط ما مسّت مرتبة القطع واليقين، ولا تُرفع عنهم إمكانية التلبيس والاشتباه والخطأ. بل معظم أخبارهم تكون عديمة الأصل والأساس وكذبا محضا. ولعدم تحقق أنبائهم وكونها كاذبة وخلافا للواقع لا توجد فيها أنوار الشرف والقبول والنصرة والنجاح. ويكون المتنبئون من هذا القبيل في حد ذاتهم مفلسين وفقراء وأشقياء، ومهانين وذوي همم منحطة ونفوس دنيئة وخائبين خاسرين في معظم الأحيان، ولا يستطيعون أن يجعلوا الأمور الغيبية بحسب مبتغاهم، بل تكون أمارات غضب الله ﷻ بادية على أحوالهم، ولا تحالفهم من الله بركة أو مكرمة أو نصرة قط. أما الأنبياء والأولياء فلا يُنبئون بالأمور الغيبية فقط كالمنجمين، بل يتنبأون بفضل الله الكامل ورحمته العظيمة التي تحالفهم دائما بنبوءات عظيمة تلاحَظ فيها أنوار القبول والمكرمة ساطعة مثل الشمس، وتحتوي على بشارات المكرمة والنصرة وليس على النحوسة والنكبة[٦٢]. اقرأوا نبوءات القرآن الكريم فستعلمون أنها ليست

---

[٦١] *المسمرية: طريقةٌ منسوبة إلى الطبيب الألماني "فرانز أنطون مسمر" (Franz Anton Mesmer) (١٧٣٤-١٨١٨م) تبحث في الوسائل العلمية -بعيدًا عن السحر والشعوذة- في إمكانية التأثير في عقول وأبدان الآخرين؛ إذ يرى "مسمر" أن كافة الكائنات الحية غارقة في بحر من سائل أو أثير، ويمكن لها من خلاله أن تتواصل عن طريق ما سمّاه "المغناطيسية الحيوانية". وكما أن الشيء المعدني يمكن أن ينقل تأثيره المغناطيسي إلى غيره، كذلك يمكن للكائن البشري أن يركز السائل الأثيري وينقله إلى داخل جسد شخص آخر. (المترجم)*

[٦٢] *هنا تبدأ الحاشية الأولى على الحاشية ١١، وقد نقلناها إلى صفحة ٤٥١. (المترجم)*

كمثل نبوءات المنجمين وغيرهم من البائسين قط، بل تلاحَظ فيها القدرة والجلال بتدفق تام الوضوح. والأسلوب المتبع في جميع النبوءات في القرآن الكريم هو أنها تُظهر دائما شرف صاحب النبوءة وذلة العدو، وتبين تقدمه وانحطاط العدو، وتتحدث دائما عن نجاحه وفشل العدو، وفتحه وهزيمة العدو وازدهاره ودمار العدو. فهل لمنجّم أن يتنبأ بنبوءات مثلها، أو يمكن أن تظهر على يد ضارب الرمل أو مَن يمارس المسمرية؟ كلا. إنَّ بيانَ صاحب النبوءات الخيرَ لنفسه دائمًا وانحطاطَ العدو ووبالَه، ودحضَ كلِّ ما يقوله العدو، والوعدَ بتحقق مبتغاه كلَّ حين وآن؛ إنما هو عمل الله تعالى بكل وضوح، وليس ذلك بوسع إنسان مطلقا. ولتفهيم هذا الأمر جيدا ننقل فيما يلي بعض الآيات القرآنية المحتوية على أمور الغيب على سبيل المثال لكي يقرأها العقلاء من المنصفين والمتقين بتأمل ويدرسوا هذه النبوءات كلها، ثم لينصفوا بأنفسهم هل يسع أحدا إلا الله القدير أن يبين أخبار الغيب مثلها؟ وفيما يلي تلك الآيات:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ *(يونس: ٢- ٣)*. ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ *(الحجر: ٧)*. ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ *(الذاريات: ٥٣-٥٤)*. ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ *(الطور: ٣٠)*. ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ *(الإسراء: ٨٩)*. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ *(البقرة: ٢٤-٢٥)*. أي إذا كنتم تزعمون أنه افترى هذا القرآن من عنده أو تعلّمه من الجن، أو كان نوعا من السحر أو الشعر، أو

ينتابكم شك من أيّ نوع آخر فأتوا بسورة من مثله. ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ *(الأنبياء: ٤-٦)*. ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ *(الأنبياء: ٣٨)*. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ *(فصلت: ٥٤)*. ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ *(المؤمنون: ٧١-٧٢)* أيْ أتينا لهم بهدي كانوا بحاجة إليه ولكنهم يُعرضون عن الهدي الذي يحتاجونه.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ *(الشعراء: ٢٢٢-٢٢٧)*. أي تنزل الشياطين على الكاذبين والعصاة وتكون معظم نبوءاتهم باطلة. والشعراء يهيمون في كل واد وراء السجع والقافية أي لا يلتزمون الحقيقة. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ *(الشعراء: ٢٢٨)*. ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ *(الإسراء: ١٠٦)*. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ *(فصلت: ٤٢-٤٣)*.. أي أن هذا الكتاب سيبقى منزّها من شوائب الباطل إلى الأبد، فلم يستطع أي باطل أن يبارزه، ولن يستطيع في المستقبل أيضا؛ بمعنى أن حقائقه الكاملة المنزّهة من كل نوع من الباطل سوف تدين وتُفحم جميع المبطلين الموجودين الآن وكذلك الذين سيأتون في المستقبل، ولن تقدر فكرة معادية على مقاومته.

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ *(الأحقاف: ٣٣)* أي من أنكره لن يقدر على أن يمنع الله من إظهار

غلبته. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ *(الحجر: ١٠)*. ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ *(سبأ: ٥٠)* أي لن يأتي الكذب بشيء جديد لا يوجد رد عليه في القرآن الكريم، كذلك لن يعود إلى حالته الأولى. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ *(فصلت: ٢٧)*.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ *(آل عمران: ٧٣)*. أي قال بعض من اليهود والنصارى أن آمِنوا في أول النهار ثم أنكِروا صدق الإسلام في آخره، أي في المساء، لعل الناس ينتهون عن الرجوع إلى الإسلام باختياركم هذا الأسلوب. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ *(فصلت: ٢٨)*. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ *(التوبة: ٣٢-٣٣)*. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ *(آل عمران: ١٣)*. ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ *(الأنعام: ١٣٥)*. وهذا هو الوعد بانتشار الإسلام في الدنيا بعزة وشرف، وذلة الذين يحاولون الحيلولة دون ذلك، وإن هذا الوعد على وشك التحقق ولن تقدروا على ردّه. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ *(المائدة: ٦٥)*. أي يقولون بأن كل ما يتحقق إنما يتحقق بمكائد الناس فقط، والله عاجز عن عمل أي شيء بقدرته. فقد صفّد الله أيدي اليهود إلى الأبد، فإذا كانت أفكارهم ومكائدهم شيئا يُذكر فلينالوا حكومات الدنيا بقوتها. ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ *(آل عمران: ١١٣)* أي حيثما يسكنون سيعيشون أذلاء محكومين. فلقد قدّر

لهم أنهم لن يعيشوا بشرف واحترام في أيّ بلد بل سيعيشون تحت سيطرة قوم آخرين بضعف وهوان وشقاء أبدا.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ *(غافر: ٥٢)*. ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ *(المجادلة: ٢٢)*. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ *(الزمر: ٣٧)*. ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ *(الأعراف: ١٩٦-١٩٧)*. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ *(الطور: ٤٩)*. ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ *(المائدة: ٦٨)*. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ *(الروم: ٤٨)*. إن سنة الله الجارية منذ القدم هي أنه لا يخذل أنبياءه الصادقين، ولا يتفرق شملُ جماعتهم بل هم يُنصَرون. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ *(الأنعام: ١١-١٢)*. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ *(الأنعام: ٣٨)*. ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ *(الأنعام: ٦٦)*. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ *(يونس: ٤٩-٥٠)*. ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ *(الزمر: ٤٠-٤١)* .... عذاب مقيم أي عذاب الآخرة. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ *(النحل: ٨٩)*. ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ *(آل عمران: ١٧٧)*. ﴿كَدَأْبِ آلِ

فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ *(الأنفال: ٥٣)*. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ *(البقرة: ١٣٨)*. ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ *(المؤمنون: ٩٦)*. ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ *(يونس: ٢١)*. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ *(النمل: ٩٤)*. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ *(المزمل: ١٦-١٨)*. أي قد دُمِّر فرعون وانمحى من وجه الأرض نتيجة مؤاخذتنا، فكيف تأمنون أنتم مؤاخذتنا مع معصيتكم وأنتم بمنـــزلة فرعون؟ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ *(القمر: ٤٤-٤٦)*. أي هل كفاركم خير من حزب فرعون أم أنتم مستثنون مبرأون في كتب الله من العذاب والمؤاخذة؟ هل يقولون إن جماعتهم قوية وستحرز الفتح والانتصار ... ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ *(الرعد: ٣٢)*. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ *(الصافات: ١٧٢-١٧٦)*. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ *(الأنعام: ٣٥)*. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤). أي عندما لا تُسمعهم آية يقولون لماذا لا تخترع اليوم أي آية؟ قل لهم إني أتبع ما ينـــزل عليّ من ربي، ولا أخترع شيئا من عند نفسي. وهذه ليست بالأمور التي يمكن للإنسان أن يخترعها افتراء منه. إنها بصائر أي حجج بينة على كونها

من الله تعالى وهداية ورحمة للمؤمنين. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ *(الأنفال: ٨-٩)*. أي ليُثبت صدق الدين الصادق وكذب الأديان الباطلة... ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ *(الأنفال: ٣١)*. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ *(إبراهيم: ٤٧-٤٨)*. ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ *(القصص: ٨٦)*. ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ *(البقرة: ٢١٥)*. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ *(الصف: ١١-١٤)*. ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ *(آل عمران: ١٤٠)*. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ *(آل عمران: ١٨٧)*. ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ *(آل عمران: ١٢١)*. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ *(النور: ٥٦)*.. أي بعد أن يسود الخوف بسبب وفاة سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ أن الدين قد ينقرض الآن، ففي هذه الحالة من الخوف والخطر سيقيم الله تعالى الخلافة الحقة ويُخرج المسلمين من خوف افتراق شمل الدين ويُدخلهم في حالة الأمن. فهذه بشارة ظاهرية. كذلك في الآية معنًى باطني أيضا -كما جرت سنة الله في الآيات القرآنية- وهو أن فيها إشارة كامنة إلى خلافة روحانية أيضا. والمراد

من ذلك أنه عندما يتلاشى حب الله تعالى من القلوب عند كل خوف وتنتشر المذاهب الفاسدة في كل حدب وصوب ويعكف الناس على الدنيا، ويكون هناك خطرُ انقراضِ الدين، ففي مثل هذه الظروف سيبعث الله تعالى الخلفاء الروحانيين دائما لكي تظهر على أيديهم نصرة الدين الروحانيةُ وانتصارُه، ولكي ينال الحقُّ شرفا وكرامة ويصيب الباطل ذلة وهوان، وليعود الدين نحو نضارته المعهودة، ويأمن المؤمنون من خطر انتشار الضلال وفقدان الدين.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ *(آل عمران: ٧٠)*. ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ *(آل عمران: ١٨٩)*. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ *(البقرة: ١١٥)*. لقد ذكر الله تعالى هنا تصرفات النصارى الشنيعة وسلوكياهم السيئة، إذ لم يكترثوا ببيت المقدس وهدموه مدفوعين بحماس الاستكبار. ثم قال بأن النصارى الذين قاموا بهذه الوقاحة، سيصيبهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ *(الأنبياء: ١٠٦)*. (أي أرض الشام، انظر: المزمور ٣٧). ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ *(آل عمران: ٢٧)*. ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَولا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ *(الفرقان: ٧٨)* ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ *(التوبة: ٢)*. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ *(الحج: ٤٠)*. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ *(الجمعة: ٣-٤)* أي أن الله هو الكريم والرحيم الذي أرسل من بينهم رسولا كاملا يتلو عليهم آيات الله مع كونه أُمِّيًّا ...، وفي حزبهم أناس من بلاد أخرى أيضا قُدِّر دخولهم في الإسلام منذ البداية ولكنهم لم يلحقوا بالمسلمين بعد. وهو الغالب الحكيم الذي لا يخلو فعله من الحكمة؛ أي حين يأتي ذلك الزمن الذي قدّر الله تعالى بحكمته الكاملة أن تدخل الإسلام بلاد أخرى، عندها سيدخل هؤلاء الناس في الإسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ *(المائدة: ٥٥)* بمعنى أن هذا وعد من الله بأنه كلما ارتد عن الإسلام أحد من ناقصي الفهم فلن يحدث في الدين نقص نتيجة ارتداده، بل سيُدخل الله تعالى الإسلامَ عوضا عنه كثيرا من عباد الله الأوفياء الذين سيؤمنون به بإخلاص ويحبون الله وهو يحبهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ *(الأنفال: ٣٧)*. أي جميع الكفار الذين يُنفقون أموالهم لعرقلة الإسلام وصدِّه، سينفقونها بقدر ما استطاعوا ولكن إنفاقهم كله سيكون مدعاة للتأسف والحسرة لهم، ثم يُغلبون. ﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ *(الفتح: ٢١- ٢٢)* أي قد وعدكم الله بمغانم من شتى البلاد، فالأول منها أن أعطاكم الله كافة حصون اليهود مع ما فيها من أموال وعتاد، وآمنكم من شر الأعداء لتكون آية للمؤمنين. وسيهبكم الله بلادا أخرى أيضا أي بلاد فارس والروم وغيرهما، وقد عجزتم عن السيطرة عليها بقوتكم أنتم لكن قدرات الله ﷻ تحيط بها. إن الآيات التي ذُكرت إلى هنا تتضمن نبوءات بتقدم مادي، وفي آيات أخرى أشار الله تعالى إلى بشارات بأمور روحانية فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ *(النساء: ١٦٩-١٧٠)*. أي أن الكافرين والمشركين الذين يموتون على الكفر والشرك لن يغفر الله لهم ذنوبهم، ولن يُريهم طريقا إلى معرفته وهم كفار. وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ *(الحديد: ٢٠)*. بمعنى أنهم سيتلقّون البشارات في حياتهم؛ أي ينالون من الله تعالى نور الإلهام، ويسمعون بشارات فيها خير لهم ومدحُهم والثناء عليهم. وسيبيّن الله صدقهم وسيتحقق كل ما وعد الله به. (انظروا الحاشية على الحاشية رقم ١، لترَوا كيف تتحقق هذه النبوءة أيضا)

وقال ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ *(يونس: ٦٥)*... هذه هي السعادة العظمى التي ينالها المؤمنون بمحمد المصطفى ﷺ.

وقال ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٧-٥٨).

إن المراد من اللعنة في الدنيا هو أنهم سيحرمون من البركات الروحانية، وتكون اللعنة في الآخرة بإلقائهم في عذاب جهنم أذلاء مهانين.

يتبين من الآيات المذكورة آنفا بأن الله تعالى القادر القدير بجلال ألوهيته الكامل، قد وعد شخصا ضعيفا متواضعا -لا حول له ولا قوة، فقيرا وأُمِّيًّا، ولم يتلق من أحد علما ولا تربية- بالفوز مقابل العالم كله؛ ضد المعاندين والأعداء كلهم وبحذاء المنكرين جميعا، وإزاء الأثرياء والأقوياء قاطبة، ومقابل الملوك والحكماء والفلاسفة وأهل الأديان أجمعين. فهل لأحد من أصحاب الإيمان وطلاب الحق أن يشكّ في هذه الوعود التي تحققت كلها في مواعيدها ولا تزال تتحقق، فيزعم أن تحققها كان من صنع الإنسان؟ انظروا، لقد أنبأ شخص

ضعيف ووحيد ومسكين بانتشار دينه وتأصيله حين لم يكن معه إلا بعض الدراويش الفقراء. وكان عدد المسلمين قليلاً جدا يُعدّون على الأصابع، فكانت تسعهم حجرة صغيرة، وكان بإمكان بضعة أشخاص من قرية واحدة أن يهلكوهم. ولكنهم كانوا في مواجهة ملوك الدنيا وسلاطينها الذين رغم كونهم بالملايين اتفقوا على قتلهم وإبادتهم نهائيا. ولكن انظروا الآن بتأمل عميق في أكناف العالم كله كيف نشر الله تعالى هؤلاء الضعفاء قليلي العدد في الدنيا كلها، وكيف رزقهم القوة والثروة والحكم، وكيف سُلّمت إليهم التيجان والعروش التي كانت راسخة منذ آلاف السنين. لقد مضى زمن حين لم يكن عدد تلك الجماعة يساوي حتى عدد أفراد بيت واحد، أما الآن فتراهم موزَّعين في العالم كله بالملايين.

لقد قال تعالى بأنه سيحفظ كلامه بنفسه. وانظروا الآن، أليس صحيحا أن التعليم نفسه الذي بلّغه النبي ﷺ بأمرٍ من الله تعالى نتيجة وحي منه ﷻ، لا يزال محفوظا في كلامه، إذ يوجد مئات الألوف من حفاظ القرآن الكريم ومنذ القِدم. وقال تعالى أيضا بأنه لن يقدر أحد على مواجهة كتابه في الحكمة والمعرفة والبلاغة والفصاحة والإحاطة بالعلوم الربانية وبيان الأدلة الدينية. فما قدر أحد على المواجهة. وإذا أنكر أحد ذلك فليبارز الآن، وليُخرج لنا من أيّ كتاب آخر الحقائق والدقائق والعجائب القرآنية التي كتبناها في هذا الكتاب - مصحوبة بإعلان جائزة عشرة آلاف روبية- وهي تفوق قدرات البشر بالتأكيد. وما لم يُخرج؛ فإن حجة الله الصريحة قائمة عليه. وقال تعالى بأنه سيحرر أرض الشام من سيطرة النصارى ويورثها المسلمين. فانظروا أن المسلمين ما زالوا يرثونها إلى الآن. إن هذه الأخبار كلها تحالفها قدرة الله تعالى وعظمته، وليست من قبيل إخبار المنجمين بحدوث الزلازل والمجاعة، وغزو قوم قوما آخرين، وانتشار الأوبئة وكثرة الأموات وما إلى ذلك. إذن، فإن الذين يتبعون القرآن الكريم ويؤمنون برسول الله ﷺ المقرَّب بصدق القلب ويحبونه

ويعدُّونه أفضل وأعلى وأطهر وأكمل وخيرا من جميع المخلوقات والأنبياء والرسل والمقدسين، ومن كافة الموجودات أو التي ستوجد في المستقبل؛ لا يزالون ينالون حظًّا من تلك البركات بسبب اتّباعهم كلام الله وتأثيره وبركاته. ولا يزالون يشربون بكثرة ولذة ولطافة الشراب نفسه الذي أُشربه موسى والمسيح عليهما السلام. وتلمع فيهم أنوار إسرائيل (يعقوب) وتلاحَظ فيهم بركات أنبياء بني يعقوب. سبحان الله ثم سبحان الله، ما أعظمَ سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ شأنا! الله الله، ما أعظم النور الذي يوصل خُدّامَه الضعفاء، وأفراد أمته المتواضعين، وخَدَمه الحقيرين جدا، إلى المراتب المذكورة آنفا!! اللهم صلّ على نبيك وحبيبك سيد الأنبياء وأفضل الرسل وخير المرسلين، وخاتم النبيين محمد وآله وأصحابه وبارك وسلّم.

يجب ألا يُصدَمَ هنا القسس والبانديتات والبرهمو والآريون وغيرهم من المعاندين المعاصرين فيقولوا: أين تلك البركات التي حازها المسيح وموسى والتي تشاركهما أمة سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ المرحومة فيها؟ وأين تلك الأنوار السماوية التي ورثتها الأمة المحمدية وحُرمت منها الأمم الأخرى وأهل الأديان كلهم؟

لقد كتبنا أكثر من مرة في الحاشية نفسها لإزالة هذه الشبهة أني أتحمل مسؤولية إثبات ذلك من الناحية الدينية لكل طالب حق جاهزٍ لاعتناق الإسلام فورا بعد مشاهدته فضائل الإسلام الخاصة به. وقد أشرت إلى هذا الموضوع بصراحة تامة في "الأسلوب الثاني" المذكور ضمن الحاشيةِ على الحاشية. بل ذكرت أيضا بالإيجاز في الحاشية نفسها كيف يُظهر الله تعالى قدرات ألوهيته وأفضاله وبركاته على المسلمين من مواعيد وبشارات ربانية تفوق قدرات البشر. فإذا كان هناك أحد من القسس أو البانديتات أو أتباع برهمو سماج ينكر ذلك لعماه الباطني، أو كان أحد من الآريين أو من فئة أخرى باحثا عن الله تعالى صدقا وحقا، لكان لزاما عليه -كالصادقين- أن يتنحّى عن جميع أنواع

الكبر والزهو والنفاق والتعنّت وعبادة الدنيا والخصومات، ويأتينا طالبا الحق وباحثا عنه متحليا بالمسكنة والتواضع وكإنسان عاجز ذليل، وإن تحلّى بالصبر والجلَد والطاعة والإخلاص كالصادقين فسينال مرامه بإذن الله. وإذا أعرض الآن أيضا فهو شاهدٌ على إلحاده بنفسه. عندما يرى بعض قصيري النظر أن أنبياء الله ورسله أيضا تعرضوا للمصائب والمعاناة، يثيرون في نهاية المطاف شبهة أنه لو حالفتْهم قدرة الله -التي هي علامة الأخبار الإلهامية- لما تعرضوا لهذه المصاعب، ولما صُبَّت عليهم المصائب أكثر من غيرهم. ولكن الحق أنه لا أصلَ لهذه الشبهة التي تنجم عن قلة التدبر. إذ أن بيان الأخبار الإلهامية مدعومةً بالقدرة الإلهية شيء، وتعرُّض الأنبياء للمعاناة شيء آخر ويحتوي على حِكم من أنواع وأقسام مختلفة. ولسوف يتبين لكم عند الإطلاع على حقيقة الأمر أنها ليست بالمصائب في حقيقتها بل هي نِعم عظيمة لا يُعطاها إلا الذين يشملهم فضل الله ورحمته العظيمة. إنها لَنِعمٌ تكمن فيها مصلحة الأنبياء جميعا ومصلحة العالم كله.

إن مغزى هذا الكلام أن الأنبياء والأولياء يأتون ليتّبعهم الناس في جميع الأخلاق، ولكي يخطو طلاب الحق قاطبة على جادة الاستقامة في الأمور التي وفّق الله تعالى الأنبياء والأولياء للاستقامة عليها. ومن البديهي تماما أن الأخلاق الفاضلة لا تتحقق في الإنسان إلا إذا ظهرت في وقتها المناسب، وعندها فقط تترك تأثيراتها في القلوب. فمثلا؛ إن العفو مع القدرة على الانتقام هو الجدير بالتقدير والثناء. والتقوى الجديرة بالاعتداد بها؛ هي أن يلتزم بها صاحبها مع القدرة على إشباع أهواء النفس.

فباختصار، من مقتضى مشيئة الله في الأنبياء والأولياء أن تظهر منهم كافة أنواع الأخلاق الفاضلة وتبلغ درجة التحقق والثبوت. ولتحقيق هذا الهدف يقسم الله عمرهم النوراني إلى قسمين: فقِسم منه ينقضي بالضيق والمصائب؛ فيؤذَون كل أنواع الإيذاء والتعذيب لكي تظهر أخلاقهم السامية التي لا يمكن

ظهورها أو تحققها قط دون المصائب الشديدة. فما لم تنـــزل عليهم مصائب شديدة وقاسية جدا لا يمكن أن يثبت بأنهم قوم لا يخذلون مولاهم عند مرورهم بالمصائب، بل يتقدمون إلى الأمام دوما، ويشكرون الله على أنه اصطفاهم بنظرة عطفه تاركا غيرهم أجمعين، وعدَّهم مستحقين لأن يؤذَوا من أجله وفي سبيله. فإن الله تعالى يُنـــزل عليهم المصائب ليُظهر أمام الناس صبرهم وقَدَم صدقهم وبسالتهم واستقامتهم ووفاءهم وعزيمتهم. ويجعلهم مصداق المقولة: "الاستقامة فوق الكرامة". لأن الصبر الكامل لا يتبين دون المصائب الكاملة، والاستقامة والصمود من الدرجة العليا لا يتبين بغير الزلزال الشديد. والحق أن هذه المصائب إنما هي نِعم روحانية للأنبياء والأولياء وبسببها تظهر في الدنيا أخلاقهم الفاضلة -التي ينفردون بها ولا يوجد لهم فيها نظير ولا مثيل- وترتفع درجاتهم في الآخرة. إنه لو لم يُنـــزل الله عليهم المصائب لما نالوا تلك النِعم، ولما انكشفت للناس شمائلهم الحسنة كما هو حقها، بل لعدّوا مثل بقية الناس تماما. وقد كانوا سيرحلون من هذه الدار الفانية يوما من الأيام لا محالة مهما قضوا حياتهم الفانية في الرفاهية والراحة ورغد العيش. وفي تلك الحالة لما كان لحياتهم المتسمة بالرفاهية والراحة بقاء، ولما نالوا في الآخرة مدارج عليا، ولما ذاعت في الدنيا عزيمتهم وبطولتهم ووفاؤهم وشجاعتهم، الأمر الذي صاروا نتيجته سعداء لا نظير لهم، وأصبحوا أفذاذا لا ندّ لهم، وكانوا فريدين لا مثيل لهم، وصاروا غيب الغيب الذي لا يصل كُنهه إدراكٌ، والذي بسببه عدّوا شجعان باسلين كأن هناك آلاف الأسود في جسد واحد، وآلاف النمور في جسد واحد، ففاقت قوتهم وقدرتهم إدراك الجميع وبلغت أعلى درجات التقرب.

والقسم الثاني من حياة الأنبياء والأولياء يضم في طياته فترة بلوغهم درجة الكمال في الفتح والازدهار والثراء، وذلك لكي تظهر أخلاقهم التي لا يمكن ظهورها إلا إذا كانوا فاتحين وأصحاب ازدهار وثروة وحُكم وسلطة وقوة، لأن

غفران ذنوب المؤذين والعفو عن المعذِّبين ومواساة الأعداء والإحسان إلى المسيئين، وعدم الرغبة في المال وعدم الزهو به، وعدم الإمساك والبخل في حالة الغنى، وفتح باب الكَرَم والجود والعطاء، وعدم اعتبار المال مدعاة للأنانية، وعدم اتخاذ السلطة وسيلة للظلم والاعتداء؛ كلُّها أخلاق يُشتَرَط لظهورها أن يكون المرء حائزا على المال والقدرة، ولا تثبت إلا إذا تيسرت للإنسان الثروة والسلطة كلتاهما. فما دام لا يظهر أيٌّ من نوعَي هذه الأخلاق إلا في زمنه سواء المصائب والانحطاط أو في زمن حيازة المال والسُلطة، فلذلك اقتضت حكمة الله الكاملة أن تمتِّع الأنبياء والأولياء بكلتا الحالتين اللتين تشملان آلاف أنواع النِعم. ولكن مرحلة ظهور هاتينِ الحالتين لا تكون على المنوال نفسه لكل شخص. بل تهيئ الحكمة الإلهية للبعض زمن الأمن والرفاهية في الجزء الأول من حياته وتؤخِّر له فترة المصائب. وتنزل المصائب على بعض آخرين في المرحلة الأولى من حياتهم ثم تتداركهم نصرة الله في نهاية المطاف. وتكون كلتا الحالتين كامنة في البعض وتبرز في بعضهم الآخر بوجه كامل. إن أعلى وأوضح مثال على ذلك هو شخص سيدنا خاتم الرسل محمد المصطفى ﷺ؛ إذ قد وردت عليه كلتا الحالتين بكل وضوح وترتيب إذ سطعت جميع أخلاقه الفاضلة سطوع الشمس وتحقق في شخصه المبارك مضمون: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ *(القلم: ٥)* بكل جلاء. إن تحقُّق أخلاق النبي ﷺ على وجه الكمال من كلا النوعين يُثبت أخلاق الأنبياء جميعا، لأنه ﷺ صدّق نبوتهم وكُتبهم وأثبت أنهم مقرَّبون إلى الله. فمن هذا البحث زال أيضا اعتراضٌ يمكن أن يخطر ببال أحد عن أخلاق المسيح عليه السلام بأنه لا تثبت فيه الأخلاق من كِلا النوعين على الوجه الأكمل، بل لا تثبت حتى من نوع واحد؛ فالصبر الذي أبداه المسيح في مرحلة المصائب لا يتحقق بالصحة والكمال إلا إذا عفا بصفاء القلب عن الذين آذَوه بعد إحرازه الغلبة والقدرة عليهم كما عفا سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ عن أهل مكة وغيرهم بعد أن انتصر عليهم كليا وأصبحوا تحت سيفه، ولم يعاقب إلا بضعة

منهم سبق أن صدر من الله تعالى الأمر القاطع بمعاقبتهم. فغفر ﷺ لكل عدوٍّ ذنبَه ما عدا هؤلاء الملعونين منذ الأزل، وأعلن للجميع أنْ "لا تثريب عليكم اليوم" وذلك بعد الانتصار عليهم. فبسبب هذا العفو عن إساءاتهم -الذي كان يبدو في نظرهم مستحيلا؛ لأنهم بسبب شرورهم ضد المسلمين كانوا يرون أنهم مقتولون لا محالة بعدما صاروا في قبضة معارضيهم- قد أسلم آلاف الناس في لمح البصر، واستبان لهم مثل الشمس الساطعة ذلك الصبر الحقيقي الذي أبداه النبي ﷺ على إيذائهم الشديد إلى مدة طويلة. ولأن من طبيعة الإنسان ألا تتبين له عظمة الصبر على الوجه الأكمل إلا إذا صبر شخص تلقّى إيذاءً شديدا إلى مدة طويلة ثم عفا عن أخطاء المؤذي بعد امتلاك القدرة على الانتقام منه؛ ولذلك لم تثبت أخلاق المسيح عليه السلام بوضوح في الصبر والتحمل والحِلم، ولم يتبين جيدا إذا كان صبْر المسيح وحِلمه بخِياره أو كان ناتجا عن اضطراره؛ إذ لم يجد مرحلة القوة والقدرة ليُعلَم هل كان سيعفو عن أخطاء الذين آذوه أو ينتقم منهم. ومقابل ذلك فقد تبيّنت أخلاق النبي ﷺ جيدا في مئات المناسبات واختُبرت وبان صدقها مثل الشمس. فقد استبانت ولمعت وسطعت في شخصه الكريم الأخلاق المتعلقة بالكَرَم والجُود والسخاء والإيثار والعزيمة والشجاعة والزهد والقناعة والإعراض عن الدنيا لدرجة ما لمعت بهذا الوضوح في المسيح عليه السلام، بل ولا في أيّ نبي خلا قبل النبي ﷺ؛ إذ قد فتح الله تعالى عليه ﷺ أبواب كنوز لا تعد ولا تحصى، فأنفقها ﷺ كلها في سبيل الله ولم يُنفق على نفسه منها مثقال ذرة. لم يشيِّد لنفسه بناءً وما أعَدَّ بلاطا، بل قضى حياته كلها في حجرةٍ صغيرةٍ من طينٍ لم تكن أفضل من أكواخ الفقراء قط. لقد أحسن ﷺ إلى المسيئين والذين كانوا يؤذونه، فقد أراحهم بماله عند تعرّضهم للمصيبة. لقد اختار لنومه في معظم الأحيان فراشا على الأرض وحجرة صغيرة للعيش، وآثر في الأكل إما خبزا من الشعير أو جوعًا. لقد أُعطي أموال الدنيا بوفرة ولكنه ﷺ لم يلوّث بها يديه الطاهرتين قط. وآثر الفقر على الثروة، والمسكنةَ على القدرة

دائما. لم يعتمد على شيء سوى مولاه الكريم، وذلك منذ يوم بعثته إلى أن لقي رفيقه الأعلى. فقد صمد في المعارك مقابل آلاف الأعداء خالصًا لوجه الله حين بدا القتل أمرا محتوما، وبذلك أثبت شجاعته ووفاءه وصموده.

فباختصار، قد أثبت الله تعالى في شخص سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ الأخلاق الفاضلة مثل الجُود والسخاء والزهد والقناعة والشجاعة والبسالة وحب الله تعالى بما لم ولن يكون له نظير في الدنيا أبدا. ولكن لم تثبت هذه الأخلاق في المسيح عليه السلام بصورة ملحوظة، لأنها ما كانت لتبلغ مبلغ الثبوت إلا في زمن الحكم والغنى. والمعلوم أن المسيح لم يجد مرحلة الحكم والغنى، لذا بقي كِلا النوعين من أخلاقه في زاوية الكمون إذ لم تتحقق شروطها أصلا. فإن هذا الاعتراض الذي يقع على حالة المسيح الناقصة المذكورة آنفا قد رُفع تماما عن حالة النبي ﷺ الكاملة، لأنه ﷺ كان متمِّما ومكمِّلا لكل نبي، وبواسطة شخصه الكريم لمع ما كان خافيا ومشتبها من أمر المسيح والأنبياء الآخرين. وقد ختم الله تعالى النبوة والرسالة على ذاته المقدس بمعنى أن جميع الكمالات قد خُتمت على شخصه الكريم. **وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.**

الوسوسة العاشرة: يقدم بعض قصيري الفهم وسوسةً أن في الإلهام نقصا وعيبا فهو يمنع من الوصول إلى المعرفة الكاملة التي هي مدار النجاة الأبدية والسعادة الدائمة ويحول دون الحصول عليها[٦٣]. ويقولون في هذا الاعتراض إن الإلهام يحول دون تطور الأفكار ويسدّ طريق تقدم سلسلة البحوث؛ لأن في حالة الالتزام بالإلهام والتقيد به، يتم الاكتفاء للرد على كل شيء بأنه قد ورد في كتابنا الموحى به جواز هذا الأمر أو عدم جوازه. وتُترك القوى العقلية عاطلة وكأن الله تعالى لم يُزوِّد الناس بها أصلا. فبسبب عدم استخدامها تضمحل تلك القوى رويدا رويدا بل توشك على الانقراض. وتنقلب طبائع الإنسان رأسا

[٦٣] *هنا تبدأ الحاشية الثانية على الحاشية ١١، وأخرناها إلى الصفحة ٤٨٣. (المترجم)*

على عقب وتصبح شبيهة بالدواب، ويضيع كمال النفس الأمّارة الأمثلُ - أي التقدم في المعقولات- دون مبرر، فيتوقف الإنسان عن الحصول على المعرفة الكاملة. وتعرقِل الكتبُ الموحى بها سبيلَ الحصول على الحياة الأبدية والسعادة الدائمة التي يحتاجها الإنسان.

أما الجواب : فليتضح أن الزعم بأن مآل العمل بكتاب الله الصادق هو تعطيل القوى العقلية وكأن الإلهام والعقل على طرفَـي نقيض لا يجتمعان في مكان واحد؛ إنما هو ناتج عن قلة فهم أتباع البرهمو وسوء تفكيرهم وتعنتهم لأقصى درجة، وهو تركيبة عجيبة للشبهة الغريبة التي تتكون أجزاؤها من شيء من الكذب وشيء من التعصب والجهل. إن المراد من كذبهم أنهم يعرفون جيدا أن الحقائق تطورت دائما بواسطة أولئك الذين التزموا بالإلهام، والذين كانوا سببا في نشر أسرار وحدانية الله تعالى، فهم أولئك الأخيار الذين آمنوا بكلام الله، ومع ذلك يقول هؤلاء البراهمة على عكس هذا الواقع المعلوم تعصبا. والمراد من تعصبهم أنهم -من أجل تحقيق كلامهم دون مبرر- كتموا حقيقةً بديهية هي أن العقل وحده لا يستطيع أن يوصل إلى مرتبة اليقين الكامل في مجال الإلهيات. والمراد من جهلهم أنهم حسبوا الإلهام والعقل أمرين متناقضين لا يجتمعان في مكان واحد، وعَدُّوا الإلهامَ مضرًّا ومنافيا للعقل، مع أن هذه الشبهة باطلة تماما.

والمعلوم أن متّبع الإلهام الصادقِ لا يمكن أن يمتنع عن البحوث العقلية، بل ينال الدعم من الإلهام لرؤية حقائق الأشياء من منطلق العقل. وببركة حماية الإلهام ونوره لا يواجه خديعة في الأوجه العقلية قط، ولا يحتاج إلى اختلاق الأدلة غير الحقيقية مثل العقلاء المخطئين، ولا يضطر للتصنع، بل يرى صراط العقل المستقيم، وينصبُّ نظره على الصدق الحقيقي.

فلب الكلام أن مهمة العقل هي أن يُظهر وقائع الإلهام على سبيل القياس والتخمين. أما مهمة الإلهام فهي أنه يُجنِّب العقل من التخبط والعشوائية. ومن

الواضح في هذه الحالة أنه لا خصام بين العقل والإلهام، وليسا على طرفي نقيض. وأن الإلهام الحقيقي أي القرآن الكريم ليس حجر عثرة في سبيل التطورات العقلية، بل هو منوِّر للعقل ومعاونه العظيم ونصيره ومربِّيه. وكما أن أهمية الشمس لا تتبين إلا بالعين، وأن فوائد النهار الساطع لا تظهر إلا على أهل البصر، كذلك لا يقدّر كلام الله تعالى حق التقدير إلا أصحاب العقل، إذ يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ *(العنكبوت: ٤٤)*. فعلى هذا، كما أن فوائد نور العين لا تنكشف إلا بالشمس، وأنه لولاها لما كان هناك فرق بين الإبصار والعمى، كذلك فإن ميزات البصيرة العقلية أيضا تتبين بسبب الإلهام فقط، لأن الإلهام يُنقِذ العقلَ من آلاف أنواع التخبط ويهديه إلى الطريق الأقصر للتدبر والتأمل، ويريه الطريق الذي يضمن السلوكُ عليه نيلَ المرام بأسرع وقت. وكل عاقل يدرك جيدا أنه إذا نال المرء دعما عند التفكر في موضوع معين وعلِم أسلوب اختيار الصراط المستقيم، فينال العقل دعما كبيرا من علمه هذا، وينجو من الأفكار المشوَّهة والمشاكل التي لا مبرر لها. إن متّبعي الإلهام لا يختارون جوهر العقل الأمثل بناء على فهمهم فقط، بل الإلهام نفسه يؤكد على تقوية العقل. إذن، فهناك جذب مضاعف يجذبهم لتطوير العقل؛ أولهما الحماس الفطري الذي بواسطته يشتاق الإنسان بطبيعته أن يعرف ماهية كل شيء وحقيقته بالأدلة من ناحية العقل، وثانيهما التأكيدات الإلهامية التي تُذكي لظى نار الشوق ضِعفين. فالذين يقرأون القرآن الكريم -ولو بنظرة عابرة- لا يسعهم إنكار أمر بديهي أن في هذا الكلام المقدس تأكيدات عظيمة على استخدام الفكر والعقل لدرجةِ أنه جعَل من علامات المؤمنين أنهم يفكرون في عجائب الأرض والسماء دائما ويتدبرون في قوانين الحكمة الإلهية، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ

قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا﴾ *(آل عمران: ١٩١-١٩٢)*..

أي أنهم يتأملون في وجود خالق العالم وقدرته ... ويتفكرون في خلق السماوات والأرض والمخلوقات الأخرى، ويصدر من قلوبهم ويجري لسانهم نداء ما خلقتَ -يا ربنا- أيّ شيء عبثا وباطلا، بل كل شيء من مخلوقاتك مليء بعجائب القدرة والحكمة ويدل على وجودك المبارك. أما الكتب الإلهامية الأخرى التي حُرِّفت وبُدّلت -كإنجيل النصارى مثلا- ففيها تأكيد على الاعتصام بأمور غير معقولة ومستحيلة. ولكن هذا ليس خطأ الإلهام، بل هو في الحقيقة خطأ العقل الناقص. فلو كان عقل أهل الباطل على ما يرام وكانت حواسهم سليمة، لما اتّبعوا تلك الكتب المحرَّفة المبدَّلة، ولما أجازوا عزو كل هذه المصائب والآفات إلى الله غير المتغير والكامل والأزلي وكأنه كان يتغذى على طعام نجس بصفته جنينا عاجزا، وخرج متجسدا من جسد غير نظيف وعبر سبيل غير نظيف فجاء إلى دار الفناء وتحمّل ألوان المصائب حتى مات في حالة بؤس وشقاوة متناهية وهو يصرخ إيلي إيلي. فالإلهام وحده أزال هذا الخطأ أيضا.

سبحان الله، ما أعظم هذا الكلام وكأنه بحر الرحمة الذي أخرج عبَدَة المخلوق إلى التوحيد من جديد! وما أجمله وأكثره جذبا ذلك النور الذي أخرج العالم من الظلمات المتراكمة! أما قبله فظل آلاف الناس غارقين في هذا الخطأ وغيره من الأخطاء المماثلة التي لا تعدّ ولا تحصى مع عدِّهم أنفسهم عقلاء وفلاسفة. وما لم ينـــزل القرآن الكريم ما كتب أحد من الحكماء ردّا على هذا الاعتقاد الباطل بقوة وحزم وما أصلح هؤلاء القوم الهالكين. بل كان الحكماء بأنفسهم متورطين في مئات العقائد الخبيثة من هذا القبيل، كما يقول القسيس

"يوت"[٦٤] بأن الحق أن المسيحيين قد أخذوا عقيدة التثليث من "أفلاطون" ووضعوا أساسا خاطئا آخر على أساس خاطئ وضعه هذا الإغريقي الأحمق.

وباختصار شديد، فإن الإلهام الإلهي الصادق والكامل لا يعادي العقل، بل العقلُ الناقص هو نفسه عدوّ أصحاب العقول الناقصة؛ فكما هو معلوم أن الترياق لا يضر جسم الإنسان في حد ذاته، ولكن لو حسب أحد السمَّ ترياقا لقصور عقله، فإن ذلك خطأ عقله وليس خطأ الترياق. وكذلك فإن الزعم بأن الرجوع إلى كتاب موحى به عند البحث في كل شيء مدعاة للخطر، إنما هو حمق وغباوة بحتة؛ لأنه كما قلتُ من قبل بأن الإلهام كمرآة للعقل يُري وجه الحق. والدليل الأعظم على صدقه أنه بريء تماما من جميع الأمور التي تبدو مستحيلة بعد النظر إلى قدرة الله وكماله وقدوسيته. بل الإلهام هو الذي يهدي ويرشد العقل الإنساني الضعيف إلى دقائق الإلهيات الخفية والعميقة جدا. فالمعلوم أن الرجوع إليه لا يعطل العقل بل يوصله إلى الأسرار الدقيقة التي كان متعذرا تماما أن يصل إليها العقل بنفسه. إذن، فإن الإلهام الحقيقي أي القرآن الكريم يفيد العقل كثيرا ولا يضره شيئا. وبسبب الإلهام يجتنب العقل الأخطار الحقيقية بدلا من أن يقع فيها، إذ من المسلّم به عند كل عاقل، بل من أجلى البديهيات؛ أنه من الممكن أن يقع العقل في الخطأ والهفوات عند التشخيص، ولا يمكن الخطأ في كلام الله عالم الغيب. والآن يمكن أن تفكروا بعدل وإنصاف؛ إذا واجه شيءٌ عثارًا شديدًا بين حين وآخر، ثم اقترن به رفيق يحميه من العثار ومواضع الزلل، فهل يكون ذلك الرفيق خيرا له أم شرا؟ أو هل أوصله رفيقه هذا إلى كماله المطلوب أم منعه من الوصول إليه؟ أيّ عَمَهٍ هذا أن يعدَّ المعين والنصير عرقلةً ومانعا، ويُعَدّ المكمِّلُ والمتمِّمُ مُضلا ومضرا! فلو تفكرتم في هذا الموضوع بقوى عقلية سليمة وكطلاب الحق لتبين لكم على الفور أن الله تعالى حين جعل الإلهام رفيق العقل، فهذا ليس مما يضر العقل، بل

---

[٦٤] *هذا سهو من الناسخ، والصحيح: John Davenport (الناشر)*

الحق أنه ﷻ وجد العقل هائما على وجهه يتخبط خبط عشواء فهيأ له وسيلة يقينية إذا عرفها اجتنب من التخبط في مئات الطرق المعوجّة وغير المستقيمة، فلا يهيم على وجهه ولا يتيه في كل مكان حيران مشدوها، بل يهتدي إلى صراط يؤدي إلى المرام الحقيقي، فيرى المرام والمطلب الحقيقي تماما، ويأمن من التخبط في المتاهات السخيفة. ومَثله كمثل مخبر صادق يخبر بكل دقة عن شخص مفقود أنه ذهب إلى جهة كذا وهو مختف الآن في مدينة كذا وفي حارة كذا وفي مكان كذا بالذات. فالمعلوم أن المخبر الصادق الذي يخبر عن مفقود بدقة متناهية ويدل على طريق سهل للوصول إليه لا يعترض عليه العقلاء بأنه يعرقل عملهم، بل يشكرونه ويمتنون له جدا على أنهم كانوا يجهلون ذلك فأعطاهم خبرا يقينا، وكانوا يهيمون على وجوههم فدلّهم على المكان بدقة، وكانوا يخمّنون ففتح عليهم باب اليقين. كذلك فإن الذين وهبهم الله عقلا سليما، ممتنون للإلهام الصادق ويمدحونه ويثنون عليه ويعرفون جيدا ويفقهون أن الإلهام الصادق لا يحول دون تطور الأفكار بل يمنع تخبّطها في المتاهات فإنه يهدي إلى السبيل المنشود بعينه من بين السبل المتنوعة والمعقّدة والمشتبه فيها، فيَسهُل على العقل التقدمُ عليه، وبذلك يخلّص الإنسان من جميع المشاكل التي تواجهه بسبب قصر العمر وضعف القدرة العلمية وقلة البصيرة.

لقد قلت مرارا بأن عقل الإنسان ناقص وغير مكتمل بطبيعته، بحيث لا يسير أمر من أموره دون الاستعانة برفيق آخر. وما لم يعثر على شهادة حقٍ حول قضية ما، لا يسعه أن يحكم حكما صائبا وسديدا فيها، سواء أكانت القضية دينية أم دنيوية. وعندما يجد العقل شهادة حق على القضية بواسطة مصدر موثوق به، فيسهل عليه الأمر وكأن جبلا من المشاكل قد زال عن رأسه. فما دام عقل الإنسان محتاجا بطبيعته إلى الرفيق، فأنّى له أن يتقدم في الأفكار من تلقاء نفسه؟ ولقد كتبت أكثر من مرة أيضا أن القرآن الكريم يجبُر نقص العقل في مجال الإلهيات وعلم المعاد. وليس ذلك فحسب، بل يبين الأدلة العقلية من

عنده أيضا، وبنفسه يرشد ويهدي إلى كافة الحقائق الدينية. وقد أشرتُ إلى ذلك قبل قليل وقلت بأنه إذا أراد أحد تصديق هذا الأمر وبحثه، فأنا أتحمل هذه المسؤولية، فكل طالب صادق يستطيع أن يختبر ذلك بواسطتي ليطمئن قلبه. فلما أُتِمَّت الحجة من كل الوجوه بدحض جميع الاعتراضات، فلماذا لا يتورع أتباع برهمو سماج عن هرائهم؟ هل فقدوا صوابهم نتيجة سُكْرٍ ما أو أصابهم الجنون أو تعطّلت حواسهم كلها دفعة واحدة؛ إذ قد أسمعتُهم فلا يسمعون، وفهّمتهم فلا يفقهون، وأَريتُهم فلا يبصرون.

وليكن معلوما أيضا أن زعمهم القائل بأن سلسلة البحوث والتحقيقات مستمرة وتتقدم إلى الأمام دائما ولا تتوقف عند أية نقطة، لهو زعم لغوٍ وسخيفٌ تماما. إذ من الواضح أنه لو كان الأمر كذلك لما اكتمل أمر من أمور الدنيا أو الدين في وقت من الأوقات، ولما أمكن لقاضٍ أن يصدر قرارا نهائيا في قضية من القضايا، ولعُدَّ قراره غير ممكن وغير جائز بسبب الشك والريب فيه دائما. ولكن هل يصح القولُ بأن حقائق الأشياء كلها لا تنكشف بصفاء وجلاء أبدا ولا بأي حال من الأحوال، بل يبقى المجال للنقاش والبحث فيها باقيا؟ حاشا وكلا، هذا ليس صحيحا على الإطلاق. بل الحق أنّ الأمر يكون مشتَبَها فيه ولا يثبت بجلاء ما دام مدار اكتشافه على العقل وحده. وكلما تزوَّد العقل بأحد من هؤلاء الرفقاء المهمين -بما فيها وحي الرسالة أيضا الذي يخبر عمّا وراء المحسوسات وعالم المعاد- وصلت تحقيقات العقل مرتبة اليقين الكامل. فينال العقلُ يقينا كاملا بحسب مقتضى الأمر بواسطة الإلهام الكامل أحيانا، وأحيانا أخرى بناء على شهادة التجارب المتتالية، وأحيانا بواسطة الشهادات التاريخية القوية والمحكمة. أما إذا لم يتسن للعقل رفيق سفرٍ في الطريق الذي يريد سلوكه، فلا يبلغ مبلغ اليقين قطعا، بل غاية ما يبلغه هو الظن الغالب. ولكن لو تيسر له في الطريق رفيق مناسب، لأوصله مرتبة اليقين الكامل حتما دون أن يبقى مجال لأدنى شك. والشك في الأمر الثابت والمتحقق إنما هو

عادة المجانين والمخبولين والسفسطائيين الذين غلبت الأوهام على طبيعة قلوبهم، فلم يعد من نصيبهم الإيقان -ولو كظن غالب- بحقيقة من الحقائق، فيبقون غارقين في الشكوك والشبهات دوما، ومهما بلغ النور كماله، فلا يقلل شيئا من عماهم الجِبلِّي الذي يلازمهم كالخفاش منذ ولادتهم؛ فيبقون في شك من وجود الله تعالى أيضا. إذن فإن مرض العميان أمثالهم مستعصي العلاج في الحقيقة، وإلا فالشخص الذي لديه مسحة من البصيرة يستطيع أن يدرك جيدا أنه إذا بلغت سلسلة التحقيق والتدقيق مبلغا انكشفت فيه الحقيقة بجلاء تام وسطعت الأدلة الواضحة والشواهد القاطعة من كل حدب وصوب كشمس ساطعة، فإن عملية التنقيح والتفتيش تنقطع في حينها، ويتحتم على كل طالب حقٍ أن يثبت عليها بأقدام راسخة، ولا يسع الإنسان إلا قبولها. ومن الواضح أنه عندما يطّلع الإنسان على ثبوت كامل وتستنير كل زاوية من زوايا الأمر المبحوث عنه كفلق الصبح ويستبين وجه الأمر الحق بكل جلاء، فأنّى لعاقل وذي حواس سليمة أن يشك فيه، وكيف لا يطمئن له قلبُ ذي عقل سليم؟ غير أنه لو بقيت هناك إمكانية للخطأ ولم تنكشف الحقيقة بجلاء تام، لكان بالإمكان أن يمعن المرء النظر في الموضوع أكثر فأكثر، ويمكن إعادة النظر مرة بعد أخرى بدلا من أن يشك المرء مثل المتوهمين في حقيقة متحققة مُوقِعا نفسه في وساوس سخيفة، لأن ذلك ليس تقدما للأفكار بل هو تقدم في الجنون. والذي تبيَّنَ عليه جواز أمر ما أو عدم جوازه كالشمس في كبد السماء، فهل هو سكران أو مجنون حتى يتساءل بعد الانكشاف التام فيما لو كان الأمر الذي يراه غير جائز، قد يكون جائزا في الحقيقة، أو قد يكون العكس هو الصحيح. غير أنه كان من الممكن أن تطلّ مثل هذه الأسئلة برأسها أو تنشأ في القلوب وساوس من هذا القبيل إذا كان المدار كله على الاجتهادات العقلية فقط، وكان العقل محروما -مثل عقل أتباع البرهمو- من صحبة رفيقه الآخر ومؤازرته. ولكن عقل أتباع الإلهام الحقيقي ليس معوزا وعديم الحيلة هكذا، بل

يدعمه ويعينه كلام الله الكامل الذي يوصل سلسلة التحقيقات إلى مركزها الحقيقي ويهبهم مرتبة اليقين والمعرفة بحيث لا يبقى مجال للتقدم بعد ذلك ولو خطوة واحدة، لأنه يبين الأدلة العقلية بتمام وكمال من جانب، ويشكِّل حجة قاطعة -لكونه عديم المثال والنظير- في حد ذاته لليقين بالله وبهديه من جانب آخر؛ فلا يعلم قدر مرتبة حق اليقين هذه التي ينالها طالب الحق نتيجة هذا الثبوت الثنائي إلا مَن كان باحثا عن الله تعالى بصدق القلب، ولا يطلبها إلا الذي يبحث عن الله تعالى بروح صادقة. ولكن أنّى لأتباع البرهمو سماج -الذين مبدأهم أنه ما من كتاب ولا إنسان بريء من إمكانية الخطأ- أن يصلوا إلى هذه المرتبة من اليقين ما لم يتوبوا من مبدئهم الشيطاني هذا ويطلبوا سبيل اليقين؟ لأنهم ما داموا لم يعثروا إلى الآن -بحسب اعترافهم- على كتاب مثله يجمع في طياته مجموعة المسائل الخالية من الأخطاء ولم يختلقوه بأنفسهم؛ فمن الواضح أن إيمانهم لا يزال غارقا في ورطة الشبهات. وإن مبدأهم هذا يدل على أنهم ليسوا حائزين على يقين في أية مسألة من المسائل التي تتعلق بمعرفة الله. ومن المحالات عندهم أن يجمع كتاب بين دفتيه المسائل الصحيحة في علوم الدين. بل قد أعلنوا جهارا نهارا أنه مهما كان الكتاب ينص على وجود الله تعالى تماما ويعُدُّه واحدا لا شريك له وقادرا وخالقا وعالما بالغيب وحكيما ورحمانا ومتصفا بصفات كاملة أخرى، ويعدُّه بريئا من الحداثة والفناء والتغيُّر والتبدّل والشرك وغيرها من الأمور المعيبة؛ فمع ذلك كله لا يمكن أن يكون -ذلك الكتاب- خاليا من إمكانية الخطأ عندهم، وبالتالي ليس جديرا باليقين. ولهذا السبب نفسه ينكرون القرآن الكريم أيضا.

لاحِظوا الآن، إن ملخص مذهبهم وإيمانهم بحسب اعترافهم هو أن وجود الله تعالى ووحدانيته وقدرته أيضا ليست خالية من إمكانية الخطأ. وباختصار، ما داموا قد اعترفوا بأنفسهم أنه ليس لديهم كتاب يمكن الجزم بصحته بحسب رأيهم، فتبين من ذلك بجلاءٍ تام أن مذهبهم مؤسَّس على الظنيات فحسب،

وأن إيمانهم بعيدٌ من مراتب اليقين كل البُعد. وهذا ما ذكرته مرارا في هذه الحاشية، وقلتُ بأن الطمأنينة الكاملة والقناعة التامة في علم الإلهيات بمجرد الأدلة العقلية مستحيلة. ففي هذه الحالة نحن نتفق مع أتباع البرهمو على أنه لا يمكن للإنسان أن يبلغ اليقين الكامل بناء على هدي العقل وحده. وكان الأمر المتنازَع فيه بيننا هو: هل خلق اللهُ الإنسانَ بحسب رأي البرهمو ليبقى خائبا ومحروما من مراده الفطري -مع أنه ﷻ قد أودع فطرته حماسا لنوال اليقين والحق المحض بحسب رأيهم- ويبقى علمه مقتصرا على أفكار لا تخلو من إمكانية الخطأ فيها، أم أنه ﷻ أوجد سبيلا لحصول الإنسان على معرفةٍ كاملة ونجاح كامل، وأعطاه كتابا يفوق مبدأهم المذكور الذي إمكانية الخطأ فيه واردة من ناحية مبدئية؟ فالحمد لله والمنة على أن نزول هذا الكتاب من الله تعالى قد ثبت لنا بالبراهين القاطعة. وبواسطة هذا الكتاب الممدوح قد خرجنا من ورطة الهلاك التي ما زال البرهمو واقعين فيها كالأموات، وهو ذلك الكتاب العظيم والمقدس الذي اسمه الفرقان، ويفرق بجلاء بين الحق والباطل، وهو منـــزَّه عن كل خطأ، وصفته الأولى هي: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾، وهو الذي وضح لنا أن الله تعالى لا يريد أن يهلك طلاب الحق بحرمانهم من مراتب اليقين، بل قد منّ ذلك الرحيم الكريم على عباده الضعفاء والناقصين أن أنجز لهم مهمةً ما كان للعقل الناقص أن ينجزها. والشجرة العالية التي ما كان ليد الإنسان القصيرة أن تصلها، فقد ذلل ﷻ قطوفها له بيده، وبذلك هيأ لطلاب الحق وعطاشى الصدق وسائل اليقين الكامل والقاطع. وإن آلاف الدقائق والحقائق الدينية المنتشرة كالذرات في أجواء السماء الروحانية البعيدة، وماء الحياة المخفي والمحجوب والمنتشر كقطرات الندى في ظلمات طبيعة الإنسان ومواهبه العميقة والذي كان إظهاره وجمعه في مكان واحد من الأجواء اللامتناهية يفوق العقل البشري، وما كان عند قوى البشر الضعيفة أداة دقيقةٌ ودالةٌ على الغيب ليكتشفها ويحصل عليها بسهولة وذرات الحقيقة الدقيقة

والخفية هذه التي لم يسعفه البصر لرؤيتها كما يجب، ولم تعطه حياته فرصة لجمعها؛ قد جمع هذا الكتاب الكامل لطائف الحكمة ودقائق المعرفة هذه دون تفاوت أو نقصان أو سهو أو نسيان، ووضعها أمامنا بالقدرة الإلهية والقوة والسلطة الربانية لننال النجاة بشرب هذا الشراب ولا نقع في هوة الموت. واللافت في الموضوع أنه جمعها بكمال وشمولية بحيث لم تبق دقيقة من دقائق الصدق أو لطيفة من لطائف الحكمة خارجه، ولم يدخلها أمر ينافي الصدق أو يعارض الحقيقة. وقد كتبنا بصراحة تامة مرارا وتكرارا من أجل إدانة المنكرين وإفحامهم وأعلنّا لهم بصوت عالٍ أنه إذا كان أحد من البرهمو يعدُّ أيّ حكم في القرآن الكريم خلافا لحقيقةٍ أو يعدّه خاليا من الصدق، فليقدم اعتراضه، ولسوف ندحض زعمه بفضل الله تعالى ورحمته بحيث سينكشف عليه أن ما كان يراه عيبا بحسب ظنه الباطل هو الميزة بعينها.

هنا يجب أن يكون معلوما أيضا أن عيوب الأفكار الناتجة عن العقل وحده لا تقتصر على قصورها عن مراتب اليقين وعدم إحاطتها بجميع الدقائق الإلهية، بل هناك نقيصة أخرى أيضا وهي أن الكلام النابع عن العقل وحده يكون ضعيفا جدا ولا حياة فيه من حيث التأثير في القلوب. والسبب في ضعفه هو أن تأثير الكلام في القلوب يعتمد على أن يكون صدقه راسخا في ذهن المستمع بحيث لا يبقى مجال لأدنى شك فيه، وأن يترسخ في ذهنه بيقين القلب أن الأمر الذي أُخبر به لا إمكانية للخطأ فيه. وكما تبين قبل قليل أن العقل وحده لا يوصل إلى اليقين الكامل، فمن البديهي في هذه الحالة أن علامات اليقين الكامل، أو التأثيرات التي يتركها الكلام اليقيني في القلوب لا تُتوقع من العقل وحده قط، وذلك متحقق من خلال التجارب اليومية. فمثلا إذا سافر أحد في جولة طويلة في دولة ما، فيسأله كل قريب وبعيد عن أخبارها عند عودته إلى وطنه، وتترك أخباره المبنية على شهادة عيان تأثيرا كبيرا في القلوب -بشرط ألا يكون هذا الزائر متّهما بالكذب والزور- وتُعدُّ صحيحة وصادقة في الحقيقة

دون أدنى تردد أو شك ولا سيما إذا كان المخبر صالحا وورعا في نظر الناس. فلماذا هذا التأثير في الكلام؟ لأن المخبر عُدَّ أولا وقبل كل شيء شخصا صالحا وصادقا وظُنّ أن ما يحدّث به من وقائع تلك البلاد قد رآه بأم عينه، وما يُدلي به من أخبار تلك الأقطار قد شهده بنفسه. لذا يترك كلامه تأثيرا قويا في القلوب، ويترسخ بيانه في الطبائع وكأن صورة الوقائع ماثلة أمام الأعين. بل حين يسرد الزائر حكاية سفره الزاخرة بالرقة أو يسوق قصة أليمة تتعلق بقوم تأخذ في معظم الأحيان بقلوب المستمعين فتذرف عيونهم دموعًا وتطرأ عليهم حالةٌ وكأنهم موجودون في قلب الأحداث ويشاهدونها بعيونهم.

أما الذي لم يخرج من أسوار بيته قط ولم يزر ذلك البلد ولم يسمع أحواله من الذي زاره، ثم بدأ بسرد أخباره تخمينا منه، فلن يترك هراؤه أدنى تأثير، بل سيقول له الناس: أمجنون أنت أم مخبول؟! إذ تقول ما يخرج عن نطاق تجربتك ومعاينتك ويفوق علمك الناقص. وسيقولون عنه كما جاء في حكايةٍ رواها شخص صالح عن غبيّ كان يمدح كثيرًا خبزًا من دقيق القمح ويقول بأنه لذيذ جدا. فسأله سائل: هل تذوقتَه مرة؟ قال: لم أتذوقه، ولكن جدي كان يقول بأنه رأى مرة شخصا يأكله.

فملخص القول: لو لم يكن أحد محيطا بكافة تفاصيل الحدث في نظر الناس لكان عرضة للضحك والسخرية بدلا من أن يترك كلامه تأثيرا في قلوبهم. لهذا السبب لم يوجِّه كلام العقلاء وحده أحدا إلى عالم الآخرة على وجه اليقين، وظل الناس يظنون أنه كما يقول هؤلاء بناء على مجرد التخمين، فيمكننا نحن أيضا أن نخمّن ما نشاء على المنوال نفسه خلافَ رأيهم؛ إذْ لم يشهدوا هم حقيقة الأمر بأم أعينهم بحضورهم واقع الأحداث، وكذلك نحن لم نشهدها. لذلك حين أبدى بعض أهل العقل رأيهم عن وجود الله، ألّف غيرهم من أهل العقل أيضا كتبا في معارضتهم وتأييدا للإلحاد. والحق أن فئة العقلاء الذين كانوا يعتقدون بوجود الله إلى حد ما، لم يكونوا خالين تماما من عِرق الإلحاد

في وقت من الأوقات، كما ليسوا خِلوًا منه الآن أيضا. فانظروا إلى أتباع برهمو مثلا؛ متى عدَّ هؤلاء القوم اللهَ تعالى متصفا بصفات كاملة؟ ومتى أقرّوا أن الله ليس بأبكَم بل يتحلى بصفة التكلم بصورة حقيقية كما يجب أن يتحلى بها كل ذو نفس منفوسة؟ متى آمنوا بصدقٍ بأنه ﷻ مدبِّرٌ كامل ورزَّاق كامل؟ ومتى آمنوا بأن الله تعالى هو الحي القيوم في الحقيقة ويقدر على أن يوصل نداءه إلى القلوب المخلصة؟ بل يحسبونه كِيانا وهميًّا، وكَميتٍ يفترضه العقل البشري بحسب تصوراته، ولا يصدر من جانبه صوت كالأحياء في حين من الأحيان، وكأنه ليس إلـــها، بل هو وثن موضوع في زاوية مُهملة.

إنني أستغرب أشد الاستغراب كيف يطمئن هؤلاء القوم ويفرحون لأفكار واهية وضعيفة كهذه! وأيّة ثمار يتوقّعونها من هذه الأفكار المبتدَعة؟ ولماذا لا يبحثون كطالبين صادقين عن الله القادر القدير والحي القيوم الذي يقدر على أن يُخبر بوجوده، ويستطيع أن يحيي الأموات في لمح البصر بصوت "إني أنا الله". ما دام هؤلاء القوم يعرفون جيدا أن نور العقل ضبابي، فلماذا لا يطلبون نورا كاملا؟ ما أغباهم! يعترفون بأنهم مرضى ولكن لا يهتمّون بالعلاج! يا للأسف! لماذا لا تُفتح عيونهم ليروا حقيقة الأمر؟ لماذا لا تزول عن آذانهم الحُجُب ليسمعوا صوت الحق والصدق؟ لماذا اعوجّت قلوبهم وانقلبت عقولهم رأسا على عقب إذ يوجّهون إلى متّبعي الإلهام الصادق اعتراضا يقع على أنفسهم في الحقيقة؟ ألم نُثبت لهم إلى الآن أن معرفتهم ما زالت ناقصة جدا ومهددة بالأخطار؟ ألم نُؤكد لهم بعدُ أن المعرفة التامة لا تُنال إلا بواسطة القرآن الكريم وحده؟ فلمّا ثبت كذبهم وخطأُهم من كل الوجوه، فأيّة أمانة هذه أنهم يتجاهلون مأتما في بيتهم ويحسبون المسلمين مرضى، ويأتون بكلام خبيث وشرير يُفهَم منه على وجه اليقين أنه لا علاقة لهم بالصدق والحقيقة، وهذا ليس كلامهم بلسانهم فقط، بل حسدهم وتعنتهم البغيض.

هناك وسوسة أخرى لأتباع برهمو سماج كرديف للوسوسة المذكورة وهي قولهم بأن الإلهام سجنٌ، أما نحن فأحرار من كل سجن؛ أيْ نحن نحتل درجة عليا، لأن الـــحُرَّ أفضل من المسجون.

نقبل طعنهم هذا ونقرّ بأن الإلهام سجنٌ بلا شك، ولكنه سجن لا يمكن نوال الحرية الصادقة بدونه، لأن الحرية الصادقة هي أن ينجو الإنسان من كل خطأ وشكٍّ وشبهة ويصل إلى مرتبة اليقين الكامل ويرى ربه تعالى في هذه الدنيا. ولقد أثبتُّ في هذه الحاشية أن هذه الحرية الحقيقية قد نالها في الدنيا المسلمون الكمَّل وأحباء الله بواسطة القرآن الكريم، ولم ينلها أحد سواهم مثل البرهمو وغيرهم. ومن الممكن أن يُسمّى أتباع برهمو سماج من زاوية أخرى أحرارا وبلا قيود، ومن هذا المنطلق قد أسميناهم خليعي الرسن في بعض الأماكن من هذا الكتاب. وكما أن مدمني الخمر يشربون الخمور أو يتعاطون مخدراتٍ مثل الأفيون وغيره، ويتحررون من كل نوع من الحياء والآداب والالتزام، بل ويتحررون من الله تعالى أيضا، ويتفوّهون بكل ما يخطر ببالهم ويهذون بما يحلو لهم؛ فإن أتباع برهمو أيضا قد أثبتوا لنا مثلهم أنهم يحظون بحرية من هذا القبيل تماما، إذ قد نالوا راحة هذه الدنيا إلى حدّ كبير بعد تحررهم؛ فقد أحلّوا ما شاءوا وحرّموا ما شاءوا وأخذوا مفاتيح الأوامر الدينية بأيديهم ليفتحوا أيّ باب شاءوا وليغلقوا أيّ باب أرادوا بحسب ما تطلب النفس الأمارة، لأنهم قد أسّسوا مذهبهم بأيديهم على أية حال. ولكنهم سيتذوقون طعم هذه الحريات حين يُسألون عن مفاسدهم هذه عند الله تعالى.

وهناك ضميمة أخرى للوسوسة نفسها، وهو قولٌ آخر لأتباع برهمو سماج وكأنهم أظهروا اعوجاجهم في لباس آخر؛ إذ قالوا بأن اتّباع الإلهام يخالف الاستقامة ويباين طريق الفطرة، لأن الصراط المستقيم -للاطلاع على حقيقة كل شيء- الذي تتطلبه روح الإنسان بمقتضى فطرته هو أن تُكشَف الحقيقة بالأدلة العقلية. فمثلا؛ إن السبب الحقيقي الباعث على الطمأنينة الروحانية

لكون السرقة أمرا شنيعا هو أنه ظلم واعتداء لا يليق ولا يجوز عند العقل، وليس لأنه قد ورد في كتاب موحى به أن ارتكابه ذنب. أو لنأخذ سم الفأر مثلا؛ فإن المنْع من تناوله مبني على حقيقة أنه سمٌّ قاتل ومهلك وليس لأنه قد مُنع تناوُله في كلام الله. فثبت أن المرشد الحقيقي والصادق إلى الحق هو العقل فقط وليس الإلهام.

لكن هؤلاء القوم لا يعرفون إلى الآن أن هذه الوسوسة قد استُؤصِلت من جذورها حين ثبت بالأدلة القوية المتينة أن عقلهم بدائي وناقص. هل من العقل في شيء أن يقدِّم المرء كالوقحين مرارا وتكرارا وسوسة ميتة قد سبق وأن سحقها جيش عرمرم من الأدلة القوية؟

الأسف كل الأسف! أيها المساكين: ألم تسمعوا مرارا وتكرارا أن انكشاف حقائق الأشياء بالأدلة العقلية صحيح إلى حد ما، ولكن ليس صحيحا مطلقا أن استكمال مراتب اليقين كلها يتوقف على العقل فقط. إنكم تُدانون بمَثَلٍ قدّمتموه بأنفسكم، لأن كون سم الفأر سما قاتلا لا يبلغ مبلغ الثبوت بمجرد العقل، بل تبينت خاصته هذه على وجه اليقين عندما جرّب العقل صفته الكامنة باتخاذه التجربة الصادقة رفيقا له. هذا ما نريد أن نفهِّمكم إياه؛ فكما احتاج العقل إلى رفيق آخر أي التجربة الصادقة لاكتشاف خاصية سم الفأر على وجه اليقين، كذلك يحتاج العقل إلى الإلهام الإلهي لاكتشاف حقائق الإلهيات وعالم المعاد على وجه اليقين. فكما يبقى العقل ناقصا لا حول له ولا قوة دون الرفقاء الآخرين في العلوم الأخرى كذلك لا يمكن أن تسير أمور العقل في العلوم الدينية أيضا بغير رفيق.

فزبدة الكلام أن العقل في حد ذاته لا يستطيع أن ينجز أمرا بصورة مستقلة ما لم يرافقه رفيق آخر، ولا يمكن أن يأمن الخطأ ويُعصم من الهفوات دون أن يرافقه رفيق، وخاصة فيما يتعلق بعلم الإلهيات؛ الذي كنه أبحاثه كلها -وكذلك حقيقة ذلك العالم- ما وراء الوراء، ولا يوجد نموذجه في هذه الدنيا.

ففي هذه الأمور لا يمكن للعقل البشري الناقص أن يوصل إلى مرتبة كمال المعرفة ناهيك أن يسلم من الخطأ. وغاية ما يُكتشف بواسطة العقل هو أن صاحب التخمين يقرّر ضرورة أمر ما بحسب ظنه، سواء أكان ظنه واقعيا أم لا. ولكن لا يستطيع أن يثبت أن ما حسبه ضروريا إنما هو متحقق الوجود خارجيا أيضا. فمن هذا المنطلق يعدُّ علمه خيالا محضا لا أساس له -لكونه مبنيا على ضرورة افتراضية لم يُعثَر عليها خارجيا- ويكون محروما تماما ويائسا من الوصول إلى درجة اليقين الكامل. ولقد كتبنا مرارا وتكرارا أنه لا يمكن على الإطلاق أن ينال العقل مرتبة اليقين الكامل بناء على تقدير ضرورات افتراضية وأفكار محضة. بل الحق أن جميع أمور الدين والدنيا تجري -من أجل الحصول على اليقين الكامل- على أصل محكم واحد؛ أي أن كل أمر سواء أكان دينيا أم دنيويا يبلغ درجة اليقين الكامل حين لا يكون علم حقائق الأشياء منحصرا في الأوجه الاجتهادية، ولا يكون الدليل على إثبات وجود شيء ما مقتصرا على أن القياس يقتضي وجوده.. بل يجب أن يتم العثور بطريقة ما على وجوده في الخارج أيضا حتى لا يبقى العقل العاجز غارقا في ورطة الأفكار فقط، بل يطّلع حقيقةً على وجود الأمر الذي افترض وجوده من حيث التصور والخيال. وما دام استكمال اليقين مقصورا على علمِ واقعِ الأمر، والمعلوم أن الإخبار بالأحداث الخارجية ليس مهمة العقل ولا مسؤوليته وإنما هي مسؤولية المؤرخين ومدوِّني الأحداث وأصحاب الخبرة الذين شاهدوا تلك الأحداث بأم أعينهم أو سمعوا ممن شاهدها. ففي هذه الحالة يحتاج العقل البشري الناقصُ إلى مدوّني الأحداث والمؤرخين وأصحاب الخبرة. ولهذا السبب فإن شأن أمر ما وعظمته تتحقق وتنكشف من خلال التجربة أو التاريخ، ولا يمكن الوصول إليها بمجرد القياس قط مهما وضَّحتموه. وحيثما مست الحاجة إلى شهادة الرؤية، فلا ينفع حينها القياس والتخمين وحده. والذي يطلق سهام القياس ويكتفي بالكلام فقط، لا يمكن أن ينوب مناب مؤرخ مطّلع على الأحوال الواقعة أو صاحب

الخبرة والتجربة. ولو أمكن ذلك لما كانت هناك حاجة إلى المؤرخين ومدوّني الأحداث والخبراء، بل لَعلِم الناس بناء على تقديراتهم وقياساتهم أحوال العالم المختلفةَ التي يقتصر علمها على التاريخ والخبرة والاطلاع على الوقائع، ولأنجزوا كل ما في نظام العالم بمجرد التخمينات الظنية. وقد مست الحاجة إلى المؤرخين ومدوِّني الأحداث وأهل الخبرة حين استحال سريان الأمور بالعقل وحده وبمجرد القياس، ووُجدت مهام العالم كلها غارقةً بركوب سفينة القياس وحده، ووُجد نظام العالم كله معطوبا وفاسدا نتيجة الاعتماد على العقل وحده. مع أن أمور الدنيا ليست معقّدة إلى هذا الحد، بل هي واضحة صريحة كأنها أمام أعيننا وتحت أنظارنا. أما ما يطرأ من الصعوبات في أحداث ذلك العالم غير المشهود، وما يتراءى من أمور محيرة عند تصور ذلك العالم غير المرئي الذي هو غيب الغيب، ويظهر للفكر والنظر بحر لا شاطئ له؛ فلا يوجد جزء من الألف منه في هذا العالم الموجود. فإن لم نتعمد العوج نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف حتما بأننا بحاجة -لمعرفة أحوال العالم الأخروي وأحداثه بصورة صحيحة وللإيقان بها- إلى مئات المؤرخين ومدوِّني الأحداث والخبراء أكثر من حاجتنا إليهم للاطلاع على أحوال هذه الدنيا. ولأن مؤرخ ذلك العالم ومدوّن أحداثه لا يمكن أن يكون إلا كلام الله ﷻ، بينما سفينة يقيننا تكاد تُدمَّر بدون مدوّن الأحداث، والريح الصرصر للوساوس تعرِّض سفينة إيماننا لزوبعة الهلاك، فأيّ عاقل يمكن أن يعتمد على إرشاد العقل الناقص وحده في هذه الحالة ويُعرض عن ضرورة الكلام الذي تعتمد عليه سلامة حياته، والذي ليست مضامينه مقتصرة على القياسات والتخمينات فقط بل يخبر بصفته مؤرخا صادقا -بالإضافة إلى الأدلة العقلية- عن أحداث العالم الثاني الصحيحة، ويبين المشهد كشاهد عيان.

"لقد انبلج فجر الصدق من وحي الله دائما، والعين التي لم تر تلك الصحف المقدسة كأنها ما رأت شيئا.

لقد تعطّر بيت قلبنا بعطر الوحي فقط، وبسببه عاد إلينا حبيبنا العاتب علينا.

والعين التي لم تستفد من نور القرآن الكريم، فوالله لن تتخلص من العمى مدى الحياة.

والقلب الذي حاول البحث عنه في الحدائق والبساتين، فوالله ما شمَّ رائحته ﷻ قط.

لا أستطيع أن أشبه هذا النور بالشمس، لأني أرى أن هناك مئات الشموس متحلقة حوله.

الأشقياء والمحرومون هم الذين أعرضوا عن هذا النور وقطعوا علاقتهم به كبرا واستكبارا".[٦٥]

صحيح تماما أن العقل أيضا ليس بلا جدوى أو دون فائدة. ومتى قلنا إنه لا جدوى منه؟ ولكن أين المفر من قبول حقيقة ثابتة أنه لا يمكننا أن ننال بواسطة العقل والقياس فقط ثروة اليقين الكامل التي ننالها نتيجة اجتماع العقل والإلهام. ولا نستطيع أن نجتنب الزلات والأخطاء والهفوات والضلال والأنانية والعُجب، ولا يمكن أن تتغلب أفكارنا المخترعة على الأهواء النفسانية كما يغلبها حكم الله القوي والجلالي والمهيب. ولا يمكن لتصوراتنا الناتجة عن قريحتنا وتخيلاتنا الدنيوية ومزاعمنا التي لا أساس لها أن تبعث فينا الفرح والسرور والطمأنينة كما يبعثها الكلام الحلو لمحبوبنا الحقيقي. فهل لنا أن نتّبع العقل وحده ونقبل لأنفسنا جميع أنواع الخسارة والشقاوة وسوء الحظ نتيجة اتباعنا العقل وحده، ونفتح على أنفسنا باب آلاف البلايا؟ ليس لعاقل أن يقبل بحال من الأحوال الكلام السخيف القائل بأن الذي كتب في نصيب الإنسان الظمأ للمعرفة الكاملة قد قصّر في إعطائه كأسها المترعة، والذي جذب القلوب إلى نفسه قد أغلق أبواب المعرفة الحقيقية، وجعل كافة مراتب معرفة الله مقتصرة على التفكر في الضرورة الافتراضية فقط. هل خلَق الله تعالى الإنسان شقيا وتعيس الحظ إلى

[٦٥] *أبيات فارسية مترجمة. (المترجم)*

هذا الحد ليبقى محروما ويائسا تماما في هذه الدنيا من نوال الطمأنينة الكاملة والمعرفة الإلهية التي تضطرب لنيلها روحه ويلتاع لها قلبه مع أن قلبه وروحه مفعمان بالحماس من أجل الحصول عليها؟ أليست فيكم روح واحدة -وأنتم تُعَدُّون بالآلاف- يمكن أن تفهم أن أبواب المعرفة التي تُفتح بيد الله ﷻ فقط، لا تُفتح بقوى إنسانية؟ وأن أفكار الناس المبنية على القياسات فقط لا تساوي قول الله: "أنا الموجود". لا شك أن إخبار الله بوجوده بمنـــزلة إراءته لنا إياه عيانا، أما إخبار الإنسان بوجوده تعالى بناء على قياسه فقط فلا يساوي ذلك مطلقا. وما دامت أفكارنا الناتجة عن العقل لا تساوي بحال من الأحوال كلامَ الله الدال على وجوده بوجه خاص، فلماذا لا نحتاج إلى كلامه لتكميل اليقين؟ ألا توقظ قلوبَنا رؤيةُ هذا التفاوت الصريح؟ أليس في كلامي شيء من شأنه أن يؤثر في قلوبكم؟

أيها الناس؛ لا يصعُب استيعاب أن العقل البشري لا يمكن أن يكون أداة لفهم الغيوب. من منكم يستطيع أن ينكر أن ما سنواجهه بعد الممات يدخل كلُّه في الغيب. ففكِّروا على سبيل المثال؛ هل منكم من أحد يدرك على وجه الحقيقة كيف تزهق روح البشر عند الموت وأين تذهب؟ ومَن يأخذها معه وأين تستقر؟ وما هي الأوضاع التي تتعرض لها؟ فأنّى للعقل البشري أن يحكم في هذه الأمور كلها حُكما صريحا؟ ليس للإنسان أن يحكم فيها حكما قاطعا إلا إذا كان قد مات مرة أو مرتين من قبل وكان ملمًّا بسُبلٍ وَصَل عبرها إلى الله تعالى، وكان يذكر أيضا المقامات التي سكنها لمدة من الزمن. أما الآن، فليس هذا الكلام إلا من قبيل الحزر والتخمين فقط. ولو قدّمتم مئة احتمالٍ وإمكانية، لكن لم ير أحد منكم المشهدَ بأم عينه. والمعلوم أن الاطمئنان إلى هذا النوع من الأفكار المفتقرة إلى الأساس ليس إلا اطمئنانا باطلا وليس صادقا.

لو تبيّنتم الأمور بنظرة التحقيق لشهدتم بأنفسكم أنه ليس بوسع عقل الإنسان وضميره قط أن يكتشف جميع هذه الأمور على وجه اليقين، ولا تدل

عليها صفحة من صحيفة القدرة الإلهية دلالة يقينية. فالعقل يحتار عند الخطوة الأولى -دع عنك الأمور الأخرى- عن ماهية الروح، وكيفية دخولها وخروجها، إذ لا نرى شيئا في الظاهر داخلا ولا خارجا. ولو أغلقتم ذا نفس منفوسة عند الاحتضار في زجاجة، لما رأيتم شيئا يخرج منها. ولو نشأت الديدان في مادة داخل الزجاجة، لما رأيتم سبيلا لدخول الأرواح إليها. وقضية البَيضة أكثر غرابة من ذلك أيضا، إذ لا يُعرف من أين تأتي إليها الروح طائرةً وتدخلها، وإذا مات الفرخ داخل البيضة فلا يُعرف كيف تخرج الروح منها. هل لعاقل أن يحل هذه المعضلة بقوة عقله فقط؟ يمكنكم أن تجيلوا المزاعم كيفما شئتم وبقدر ما شئتم، ولكن لا يُعرف شيء بمجرد العقل على وجه القطع واليقين. فإذا كان هذا هو الحال في الخطوة الأولى، فما الذي يمكن أن يكتشفه هذا العقل الناقص عن أمور المعاد بصورة يقينية؟ أليس فيكم أحد يفهم هذه الأمور؟ ألا ترحمون حالتكم البائسة بأنفسكم؟ ما دامت بطونكم تضطرب من أجل جيفة الدنيا -إذ تسافرون آلاف الأميال برًّا وبحرا بحماس مفرط راغبين في الحصول عليها- أفليس لعالم المعاد أية أهمية في نظركم؟

يا أسفا، لماذا لا تفقهون أن مداواة كل اضطرابٍ يطرأ على الروح وعلاج كل مرض يصيب النفس الأمارة غير ممكن بأفكارنا وتصوراتنا فقط. إن من قانون القدرة أنه إذا أصيب الإنسان بأهواء نفسانية أو آفة روحانية -أيْ إذا كانت قوة غضبه محتدمة مثلا، أو كانت قوة شهوته مشتعلة، أو فُجِع أو ابتلي بِالهم والغم أو كان مقهورا بتغيُّر آخر روحاني أو جسدي- فلا يمكنه إزالة تلك الأمراض والأعراض التي تقهر نفسه وروحه بمجرد وعظه ونصحه، بل هو بحاجة -لإخماد ثورة هذه العواطف- إلى واعظ يكون في نظر المستمع ذا هيبة وصالحا وصادقا في قوله وكاملا في علمه وصادقا في عهوده. وبالإضافة إلى كل ذلك يكون قادرا أيضا على إنجاز جميع تلك المهام التي من شأنها أن تبعث الخوف أو الرجاء أو الاطمئنان في قلب السامع، لأنه من البديهي والواضح تماما

أنه تطرأ على الإنسان حالةٌ في معظم الأحيان أنه -وإن عدَّ الذنب ذنبا في الحقيقة، أو عدَّ أمرا منافيًا للاستقامة والصبر كما هو في الحقيقة- يشعر بأنه يغشّي قلبَه غشاءُ الغفلة أو الصدمة المباغتة، ولا يزول إلا إذا نصحه ووعظه بالترغيب أو الترهيب شخص ممن عظمتُه وصلاحه وصدقه راسخ في قلبه وطمأنه بحسب مقتضى الأمر، ويملك كلامه تأثيرا غريبا يجعل مهيضَ الجناح قويَّ العزيمة، ويحوِّل الخامل نشيطا والضعيف قويا والمضطرب مطمئنا حتى لو ساق الأدلة التي يعرفها السامع من قبل. وإنها لأمور يعترف العاقل من تلقاء نفسه أنه بحاجة إليها عند كونه مغلوب النفس أو مضطربا. بل الذين أرواحهم لطيفة جدا وتبحث عن الحق، وتتبرأ قلوبهم من كدورة الذنوب وكثافتها سريعا، يستدعون بأنفسهم -عند كونهم مغلوبي النفس- هذا العلاجَ كالمرضى حتى يشفوا من انقباضهم الباطني بسماعهم كلمة الترغيب أو الترهيب أو كلمة المواساة والطمأنينة من لسان رجل من رجال الله.

لا شك أن فطرة الإنسان أُودِعت ميزة أنه لا يتأثر بكلام نفسه قط -مهما كان عالما وخبيرا- كما يتأثر بكلام غيره عند وقوع الحوادث وغلبة الأهواء النفسانية. فمثلا إذا أصيب أحد بحادث أو فُجِعَ بمصيبة، فمع أنه لا يجهل أن الدنيا ليست مقام راحة وأمن وليست مكان بقاء، ولكن القلق والاضطراب يغلب قلب الإنسان العاجز عند إصابته بالصدمة، وكأن القلب يكاد ينفلت من يده. ففي هذا الوقت إذا نصحه شخص صالح ومقدس وكامل في نظره وقال له: اصبر؛ فإن الصابرين ينالون أجرًا كبيرا عند الله تعالى، وأن الدنيا ليست مقامَ بقاء أبدي. فإن كلامه هذا يترك فيه تأثيرا غريبا وكأنه أدرك المتهالك، وإن كان يعلم هذا الأمر من قبل أيضا.

فملخص الكلام أن أفكار المرء المخترعة لا تؤثر في قلبه دائما وفي كل حال. بل في كثير من الأحيان يُغلب العقل بالأهواء النفسانية أو الآلام الروحانية بحيث يفقد المرء قوة التأمل والفهم أيضا، فيجد نفسه في حالة وكأنه ينتظر أن تصدر

من غيره كلمات الترغيب أو الترهيب أو كلمات المواساة والطمأنينة. فبالنظر إلى كل هذه الأمور يمكن أن يتوصل العاقل إلى نتيجة أنه ما دام الله تعالى قد خلق طبيعة الإنسان على هذا المنوال، فهذا الوضع الفطري يدل على أن الله الحكيم لم يترك الإنسان الضعيف ورأيَه وقياسَه ومنطقه، بل خلق له كل أنواع الواعظين والمتكلمين الذين من شأن كلامهم ووعظهم أن يهب له المواساة والطمأنينة ويكبت أهواءه النفسانية ويزيل قلاقله الروحانية. وهيأ ﷻ له كلاما من شأنه أن يزيل أمراضه وأعراضه. وإن الدليل على ضرورة الإلهام لا يأتي بأسلوب آخر بل فإن قانون الله في الطبيعة بنفسه يثبت ضرورته. أليس صحيحا أن عشرات الملايين من الناس في الدنيا يقعون في المصيبة والمعصية والغفلة، ويتأثرون دائما بكلام واعظ أو ناصح، ولا تكفيهم علومهم وأفكارهم الشخصية في كل الأحوال؟ والصحيح أيضا أنه كلما كانت عظمة المتكلم وأهميته راسخة في نظر المستمع، كان كلامه مدعاة لمواساته وطمأنينته بالقدر نفسه. كما لا يسكّن رُوع المرء إلا وعدُ شخص هو في رأي السامع صادق الوعد وقادر على الوفاء به. فمَن له أن يطعن بعد ذلك في أمر بديهي بأن المرتبة العليا في أمور المعاد وما وراء المحسوسات التي تهب الطمأنينة والمواساة وتهدِّئ الرُوع وتُخمد الأهواء النفسانية وتُزيل الآلام الروحانية لا تُنال إلا بكلام الله سبحانه وتعالى وحده؟ وبالنظر إلى قانون الطبيعة لا يمكن أن نجد أمرا أفضل منه طَمْأنةً ومواساة. حين يؤمن المرء بكلام الله تعالى إيمانا كاملا ولا يُعرض عنه ظاهرا أو معنًى، ينقذه كلام الله تعالى من زوابع عاتية، ويهبه القوة لمقاومة الأهواء النفسانية القوية ويوفقه للصبر في حوادث مهيبة. وعندما يجد العاقل وعدا أو وعيدا في كلام الله ﷻ عند مواجهته مشكلة أو ثورة الأهواء النفسانية، أو ينصحه غيره بأن الله تعالى قد قال كذا وكذا؛ يتأثر من كلامه فورا فيستغفر الله كثيرا. والمعلوم أن الإنسان يواجه مواقف عظيمة لنيل الطمأنينة من الله تعالى، ففي بعض الأحيان يتورط في مصيبة كبيرة، ولولا كلام الله تعالى وبُشراه

القائلة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ *(البقرة: ١٥٦-١٥٨)* لكان بالإمكان أن ينكر حتى وجود الله نتيجة فقده العزيمة، أو أن يقطع علاقته مع الله تعالى نهائيا يائسا، أو يهلك نتيجة صدمات الأحزان. والحال نفسه فيما يتعلق بالأهواء النفسانية التي مست الحاجة لكلام الله لكسر ثورتها؛ ففي كل خطوة يواجه الإنسان أمورا لا يقدر شيء على استئصالها إلا كلام الله فقط. عندما يريد الإنسان أن يتوجه إلى الله تعالى تمنعه من ذلك مئات العراقيل، إذ تتراءى له ملذات الدنيا مرة، وتجذبه صُحبة الأصدقاء مرة أخرى. وأحيانا تخوِّفه مصاعب الطريق، كما تصبح العادات القديمة والملكات الراسخة حجر عثرة في طريقه أحيانا أخرى. وأحيانا يعرقل طريقَه الشرف أو السمعة أو الزعامة أو الحكومة، وفي بعض الأحيان تجتمع كل هذه الأمور مرة واحده كالجيش العرمرم وتجذبه إلى نفسها وتعرض عليه فوائدها الموجودة. وباتفاقها واجتماعها في مكان واحد تحرز قوة لا تستطيع أفكار المرء المخترعة أن تدحضها، بل لا تستطيع أن تقاومها ولو للحظة واحدة. ولحسم مثل هذه المعركة، هناك حاجة لبنادق قوية من كلام الله تعالى لكي ينسف رصاصها صف الأعداء دفعة واحدة.

هل يمكن أن يتحقق أمر من جانب واحد؟ كيف يمكن إذن أن يبقى الله تعالى صامتا واجما دائما كأنه حجرٌ، ويظل الإنسان يتقدم في الوفاء والصدق والصبر من تلقاء نفسه، وأن تكون الفكرة التي تقوّيه دائما هي أنه لا بد أن يكون للسماء والأرض خالق، وتدفعه إلى الأمام دائما في ميادين العشق؟ إن الكلام المبني على التصورات لا يمكن أن يحلّ محلّ الحقيقة قط، وما كان كذلك من قبل. فمثلا إذا وعد غنيٌّ صادق القول شخصا فقيرا مَدينًا أنه سيسدد قرضه عند موعد التسديد تماما، وهناك شخص فقير مدينٌ آخر لم يعده أحد بذلك،

ولكنه يفكر من تلقاء نفسه ويقول في نفسه لعلي أيضا أجد المبلغ المطلوب في الوقت المناسب، فهل يستويان من حيث الاطمئنان؟ كلا، ثم كلا. بل إنها كلها قوانين الطبيعة، ولا تخرج حقيقة عن نطاق قوانين الطبيعة؟ ولكن الأسف كل الأسف على الذين ظلوا يدّعون الالتزام بقوانين الطبيعة ثم نقضوها وفروا إلى جانب آخر، وعملوا على عكس ما قالوا.

يا أتباع برهمو سماج، إن كنتم لا ترون أمور الدين بحرقة قلبية، وإن كنتم لا تهتمون بالمعاد أيضا، أفلم يثبت لكم إلى الآن في الأمور الدنيوية أن العقل وحده لم يُنجز أيًّا من أمور دنياكم أيضا؟ هل ما زال عندكم مجال للعذر في قبول حقيقةِ أنّ العقل بحد ذاته لم يقدر قط على أن ينجز وحده شيئا على أحسن وجه وأكمله دون أن يشاركه رفيق آخر؟ قولوا صدقا وحقا، ألم تتبينوا إلى الآن أن كلّ مهمة أوكِلَت إلى العقل وحده بقيت مشتبها فيها وظنية وناقصة، وما لم تمثل الأحداث للعيان بوضوح وبواسطة شخص مطَّلع عليها، ظلت مهمة العقل والقياس ناقصة غير مكتملة؟ قولوا بإنصاف، ألم تعلموا إلى اليوم أنه كان من عادة أتباع العقل دائما منذ القِدم أنهم يدعمون وجهات نظرهم المنطقية بالتجربة مرة ويقوونها بالتواريخ أو بواسطة الخرائط الدالة على المكان أو المراسلات تارة أخرى، أو أحيانا أخرى يدعمونها بشهادة بصرهم أو حاسة السمع والشم واللمس وغيرها؟ فتدبروا وفكروا في أنفسكم وتبيّنوا أنه ما دام هناك حاجة إلى رفقاء في أمور الدنيا المشهودة والمحسوسة، فكم تكون الحاجة ماسة لمعرفة الحقيقة في أمورٍ هي وراء الوراء وغيب الغيب وخافية الخفاء؟ وما دام العقل وحده لا يكفي في أمور الدنيا السهلة والبسيطة فكيف يمكن أن يكون كافيا في اكتشاف أمور المعاد التي هي أدقّ وألطف؟ وما دمتم لا تعدّون العقل والقياس وحدهما مدعاة للاطمئنان في أمور الحياة الآنية والسخيفة التي نفعها وضره شيئ عابر، فكيف إذًا جلستم هادئين مطمئنين بالاعتماد على العقل الناقص نفسه في أمور المعاد دائمة التأثير وذات الأخطار مستعصية

العلاج؟ أليس ذلك دليلا قويا على أنكم نبذتم فكرة الآخرة وراء ظهوركم وتلذذتم بجيفة الدنيا وتمتعتم بها؟ وإلا كيف يمكن القبول بأن الله ﷻ لم يرزقكم فهمًا إلى هذا الحد؟ وما دام الله تعالى الكريم والقدير لم يترك عقل الإنسان وحيدا في أمور الدنيا بل قوّاه بعدد من الرفقاء، فكيف اختفت إذن صفة عظيمة لرحمته الأزلية والأبدية في مهمات دار الآخرة الدقيقة والأبدية، ولم يُسعِف فيها العقلَ المسكين والهائم على وجهه ولم يقوّه بالرفيق الكامل؟ ولم يزوِّده برفيق يحظى بمعرفة شخصية بتفاصيل ذلك العالم الكلية والجزئية، فأمكن له أن يخبر بها كشاهد عيان، ليجتمع القياس والتجربة فيكونا مصدرا لأنواع البركات ويوصلا طالب الحق إلى مرتبة المعرفة الكاملة التي أُودعت فطرتُه حماسًا للحصول عليها.

لا أدري مَن أغواكم فزعمتم أن هناك تناقضا بين العقل والإلهام فلا يجتمعان في مكان واحد؟ فتح الله عيونكم وأزال الحُجُب عن قلوبكم، ألا تستطيعون أن تفقهوا أمرا بسيطا أنه ما دام العقل يصل كماله بواسطة الإلهام ويتنبه إلى أخطائه، ويكتشف الطريق المعين لنيل مرامه، ويتخلص من التخبط العشوائي وينجو من الجهد العبثي والمشقة السخيفة والكدّ الذي لا جدوى من ورائه، ويحوِّل علمَه المظنون به والمشتبه فيه إلى علم اليقين والعلم القاطع، ويتجاوز التخمينات البحتة ويطّلع على الوجود الحقيقي وينال الاطمئنان والراحة؛ فهل الإلهام في هذه الحالة محسنٌ إليه ومعينه ومربّيه أم هو عدو له ومخالف ومضر به؟ ما هذا التعنت والعمى بحيث تحسبون المربّي العظيم الذي يعمل عمل الهداية والإرشاد بكل وضوح مضلا ومعرقلاً، والذي ينتشل من الهوة تعُدّونه الدافع إليها؟! يعلم العالم كله ويرى أهل الأبصار كلهم ويشاهد المتدبرون أنه قد خلا في الدنيا مئات الآلاف الذين اعتقدوا بميزات العقل وعظمته، ولا يزالون موجودين في الوقت الراهن أيضا أولئك الذين آمنوا برسالة العقل وعدُّوا عقلاء وظلوا يعُدّون العقل شيئا عظيما ومرشدا لهم، ومع ذلك كله أنكروا وجود الله

ﷻ دائما وماتوا وهم منكِرون. ولكن أرونا شخصا واحدا آمن بالإلهام ثم أنكر وجود الله. فما دام الإلهام هو الشرط للإيمان اليقيني بالله تعالى، فالواضح أنه إذا فات الشرط فات المشروط تلقائيا. لذا فقد تبين بالبداهة أن الذين ينكرون الإلهام قد أحبوا سبل الإلحاد قصدا وأجازوا انتشار الإلحاد وذيوعه. ولا يفكر هؤلاء الجهلة أن الذي هو غيب الغيب الذي ولا يمكن إدراكه بالبصر ولا بالشم ولا باللمس، فإذا كان السمع أيضا محروما من سماع كلامه فكيف يمكن إذن الإيمان بذلك الوجود غير الظاهر للعيان؟ وإذا خطرت أيضا بالبال أدنى فكرة بوجود الخالق عند النظر إلى المخلوقات، ولكن لم ير طالب الحق الخالقَ بأم عينه مع سعيه على مدى العمر، ولم يطلع على كلامه ولم يعثر على أثر يجب صدوره من ذات حية؛ أفلا تنتابه وسوسة بأن فكره ربما أخطأ في تعيين هذا الخالق، فيفكر لعل الملحدين أو أتباع مذهب الطبيعة على حق في عدّهم بعض أجزاء العالم خالقةَ بعضِها، ولا يرون ضرورة لأي خالق آخر؟

أعلَم جيدا أنه عندما يُعمِل المتمسكُ بالعقل وحده أفكاره في هذا الباب أكثر فأكثر، ستأخذ الوسوسة المذكورة بشغاف قلبه حتما، لأنه ليس ممكنا له أن ينجو من الوساوس من هذا القبيل لدى فشله في العثور على وجود الله ﷻ بعد تحرِّيه البالغ ذروته وسعيه المكثف، لأن من فطرة الإنسان ومقتضى طبعه أنه عندما يعدّ وجود شيء ما ضروريا بناء على قرائن قياسية ثم يبحث عنه باذلا كل سعيه ولا يجد له أثرًا مع تحريه البالغ منتهاه، فيخالجه الشك في صحة قياسه بل لإنكاره نهائيا، وتنشأ في قلبه مئات الاحتمالات التي تتعارض مع قياسه هذا. والمعلوم أننا نقيس في كثير من الأحيان عن أمر خفيّ ونظن أنه قد يكون كذا أو كذا، ولكن حين تنكشف الحقيقة يبدو الأمر على عكس تفكيرنا تماما. إن هذه التجارب اليومية قد علّمت الإنسان أنه من الغباوة المتناهية أن يطمئن المرء بمجرد القياسات.

فما لم يقترن الخبر اليقين بالتخمينات القياسية البحتة، لكان ما قدّمه العقل كله سرابا لا أكثر، وتكون نتيجته النهائية هي الإلحاد. فإذا كنتم تريدون أن تُلحدوا فهذا شأنكم، وإلا؛ فما لم تتمسكوا بعروة وثقى للإلهام الحقيقي، فلا يمكنكم النجاة بحال من الأحوال من سيل الوساوس العرمِ الذي جرّ باكتساحة واحدة آلافا من أتباع العقل -الذين كانوا أفضل منكم- إلى تحت الثرى؛ إذ ليس ممكنا أن تستمروا بالتقدم في الأفكار العقلية فتجدوا الله في نهاية المطاف متربعا في مكان ما. بل لن يكون مآل تقدّمكم في الأفكار العقلية إلا أنكم لن تجدوا لله أي أثر أو تجدوه محروما من علامات الأحياء، وفي نهاية المطاف ستصافحون إخوانكم الملحدين بعد أن تتعبوا وتعجزوا عن تقصّي آثاره. فلا تنخدعوا بأنه إذا كان مآل العقل البحت هو الإلحاد، فلماذا لا يزال أتباع برهمو سماج يقرون بوجود الله إلى حد ما ولا ينكرونه كليا، فهناك سببان اثنان لذلك.

أولا: لم تتطور أفكارهم كثيرا إلى الآن، وما زالوا قائمين على فكرة مفترضة بوجودٍ أقرّوا به على سبيل الافتراض، ولم يتقدموا إلى الآن ليبحثوا في الخارج عن هذا الوجود الافتراضي. ولكن اعلموا جيدا أنه كلما خطَوا خطوة إلى الأمام في أفكارهم ستكون النتيجة الأولى لتقدمهم هذا أن ترتاب قلوبهم؛ فيقولون: أين وفي أي مكان وجهة يتواجد مَن نعدّه حيًّا وقيوما وموجودا في كل مكان؟ وإذا كان موجودا فعلا بوجوده الخارجي فلماذا لا نجد له أيّ أثر؟ ولماذا لا يُظهر نفسه على الباحثين عنه؟ وعند نشوء هذه الريبة إما أنهم سيؤمنون بالإلهام الحقيقي في نهاية المطاف وينقذون أنفسهم من ورطة الشبهات، وإلا فدعوهم يتقدمون في أفكارهم ثم انظروا هل سيصبحون ملاحدة شديدي الإلحاد أم لا؟ إن مئات الآلاف من إخوانهم الذين كانوا متمسكين بالعقل وحده قد ماتوا في نهاية المطاف ملحدين وأتباعا لمذهب الطبيعة حين تقدموا في أفكارهم. وإن المتمسكين بالعقل المعاصرين ليسوا

فريدين من نوعهم حتى نظن أن تطوُّر أفكارهم لن يؤدي بهم إلى الإلحاد بل سيرون صروحا ممرّدة من قوارير يسكنها الله ﷻ! الحق أن أصحاب العقل الحاليين سيتطور حالهم وسيؤول مصيرهم يوما إلى مصير أسلافهم نفسه. وإذا كان هناك بعض التأخير في ذلك، فسببه عائد إلى أن هناك تقصيرا شديدا من قِبَلهم في البحث والتحري عن الله ﷻ، ولا يزالون يرون الدنيا حلوة ومحبوبة لديهم، فلا يزالون مشغوفين بها ليل نهار. ومن أجلها يمخرون البحار ويصلون إلى بلاد نائية، ولم يتوجهوا إلى الآن إلى مُلك الآخرة، أو يعيروا أيّ اهتمام إلى مالك الملك. ولكن حين تأتي أيام حين يحاولون فيها أن يحكموا بالعقل وحده بأنه إذا كان الله موجودا فأين هو؟ ولماذا لا يلاحَظ وجوده مثل كل الأشياء الأخرى الموجودة؟ عندها سيصدر القرار النهائي؛ بمعنى أنهم إما سيضطرون للإيمان بكلام ذلك الإله اللطيف الخبير، أو يضطرون للإقلاع عن الفكرة الافتراضية أيضا بأنه لا بد أن يكون للمخلوقات من خالق. والسبب الثاني الذي تمنع قوتُه المتمسكين بالعقل من التحوُّل إلى ملحدين سريعا هو بركات الإلهام الإلهي وأشعة شمس وحي الله تعالى التي جعلت وجود الله معروفا في العالم كله، والتي رسّخ نزولها الغزير أمطارها قواعد الإقرار بوجود الله جيدا في مئات آلاف النفوس التي تخشاه ﷻ، وتركت تأثيرا عظيما في ملايين القلوب. فلما مُلئ سمع كل إنسان بأصوات عالية لشهاداتها المحكمة والقديمة، وسرَتْ تلك الألحان الجميلة في لُحمة كل خلية من أعصاب السمع وسَداها، بحيث لو سئل شخص جاهل وأُمِّي -لا علاقة له بالعقل، ولا يدري ما الأدلة- عن وجود الله أو عدمه، لعدَّ مثل هذا السائل غبيا من الدرجة القصوى؛ إذ يعتقد بوجود الله اعتقادا راسخا بحيث لو وُضع المتمسكون بالعقل البحت في كفة ووُضع هو في كفة أخرى، لكانت كفة يقينه هي الراجحة. والأغرب من ذلك أنه لا يذكر دليلا واحدا مثل العقلانيين والفلاسفة، بل لم يخطر بباله قط ما هو البرهان والدليل والحجة والقياس. فبفضل هذه البركات ما زال أتباع برهمو

سماج أيضا يعتقدون بوجود الله إلى حد ما على الرغم من سلوكهم مسلك الضلال الشديد. وإن ذيوع صيت وجود الله تعالى على نطاق واسع قد منع أفكارهم من التخبط خبط عشواء.

فباختصار، إن لم يشكر أحدٌ الإلهامَ الإلهي لخبث باطنه فهذا شأنه، وإلا فالحق أن سفينة اليقين والصدق إنما تمخر بفضل يده القوية وعضده القويمة، وهو الربان في بحر معرفة الله ﷻ. وإذا حرم الملحدون أنفسهم من تأثيرات فيوضه فهذا ليس خطأه، بل الحق أن الملحدين ليسوا إلا كمن هو أعمى وأبكم بطبيعته، أو هم كعضو فسد وتآكل نتيجة الجذام.

فليكن معلوما أيضا في هذا المقام أن المعتقدين بالعقل المحض هم ناقصون وقاصرون من حيث العلم والمعرفة واليقين، وكذلك هم ناقصون من حيث العمل والوفاء وقدم الصدق أيضا. ولم تضرب فئتهم مَثلا يَثبت به أنهم عباد الله الأوفياء والمقبولون مثل ملايين من المقدسين الذين ظهرت بركاتهم في الدنيا، إذ توجّه إلى الله سبحانه وتعالى مئات الناس نتيجة وعظهم ونصحهم ودعائهم وتركيزهم وتأثير صحبتهم، وصاروا أهل الله وخضعوا له لدرجة لم يعبأوا بالدنيا وما فيها، وصرفوا نظرهم كليا عن ملذات هذا العالم وراحته ومسراته وشهرته والاعتزاز به وأمواله وأملاكه، وسلكوا مسلك الحق والصدق الذي زهقت أرواح مئات منهم نتيجة السلوك عليه، وقُطعت آلاف الرؤوس، ومُلئت الأرض بدماء مئات آلاف من المقدسين في سبيله. ولكنهم مع تعرضهم لكل هذه البلايا ضربوا أمثلة عليا للصدق والإخلاص، إذ ظلوا مبتسمين وهم مكبَّلون في الأصفاد، وفرحين مسرورين على إثر المعاناة، وشكروا لله بعد تعرضهم للبلايا. نُفوا من أوطانهم بسبب حب ذلك الحبيب وحده، وآثروا الذلة على العزة، وتحمَّلوا المصائب بسرور، وقبلوا الفقر بديلاً عن الغنى، وقنعوا بالمسكنة والفقر والعزلة مقابل كل علاقة وصِلة وقرابة. وصدّقوا بوجود الله ﷻ بإراقة دمائهم وتقديم رؤوسهم والتضحية بأرواحهم. وببركة اتباعهم الصادق لكلام الله نشأت فيهم

أنوار خاصة ما وُجدت في غيرهم قط. وإن أناسا مثلهم ما كانوا في الأزمنة الغابرة فقط، بل ظلت هذه الجماعة المختارة موجودة في صفوف المسلمين دائما، وأدانوا معانديهم وأفحموهم دائما بوجودهم النوراني. فقد تمت حجتنا على المنكرين من هذه الناحية أيضا بأن القرآن الكريم كما يوصل إلى أعلى درجات المراتب العلمية، كذلك تُنال كمالات المراتب العملية أيضا بواسطة القرآن الكريم وحده. وظلت آثار القبول عند الله وأنوارُه تظهر ولا تزال تظهر حصرا في الذين اتبعوا هذا الكلام المقدس، ولا تظهر في غيرهم قط. ففي هذا الدليل الذي يستطيع طالب حق مشاهدته بأم عينه كفاية له، أي أن البركات السماوية والآيات الربانية توجد في أتباع القرآن الكريم الكمَّل فقط. أما الفئات الأخرى التي تُعرض عن الإلهام الحقيقي والمقدس، سواء أكانوا أتباع برهمو أو الآريا أو النصارى، فكلهم محرومون كليا من نور الصدق هذا. وأنا جاهز لأتحمل مسؤولية إقناع كل منكِرٍ بشرط أن يتوجه إلى ذلك بكامل الاستعداد والاستقامة والصبر والصدق طالبًا الحق ومستعدا لقبول الإسلام بصدق القلب. وإن لم يرتدع أحد عن الإنكار بعد ذلك أيضا، فإنكاره يدل بصراحة تامة على أنه لا يريد قبول الحق نتيجة حبه للدنيا، وكل ما يقوله إنما هو مبني على العناد والبُغض وليس على البحث عن الحق.

فيا أتباع البرهمو؛ انظروا الآن وبعيون واعية: إن بحثنا هذا يُثبت بجلاء تام أن نزول الإلهام ليس مستحيلا ولا عديم الوجود، بل هو حقيقة بديهية الثبوت وواجبٌ وضروري عند العقل ومتحقق الوجود عند التحقيق، وقد أثبتنا وجوده. فالآن يجب عليكم أيها السادة أن تقرأوا هذه الحاشية والحاشية على الحاشية رقم ١ و٢ و٣ بتدبر، وأن تقرأوها أكثر من مرة. ثم يجب أن تتخلوا عن أفكار الباطل المظلمة بمقتضى تقوى الله تعالى بعد أن تجدوا مصباحا منيرا. ولا تفسحوا إلى قلوبكم طريقا للخجل المتعنت ولا تقولوا: كيف نفكّ ما نسجناه بأيدينا؟ بل يتحتم على كل مَن يحسب نفسه منصفا أن يبدي إنصافه،

وكل من يعدّ نفسه طالب حق عليه ألا يتردد في قبول الحق. لا شك أنه سيشق على مَن كان أنانيًّا قبول حق من شأنه أن يقلل تباهيه وأنانيته. فيا مَن يملك طبيعة كهذه، يتحتم عليك أيضا أن تخاف الله القادر على كل شيء الذي إليه معادك في الأخير. وتفكّر جيدا أن الذي يجد الحق ومع ذلك لا يترك طريقا غير سليم ويصر على المعارضة، ويقيس نفوس أنبياء الله الأطهار على نفسه الأمارة ويزعمهم ملطَّخين بأطماع الدنيا -مع أنه يُخزى ويُهان مقابل كلام الله تعالى- فإن روحه تشهد على شقاوته وتعاسة حظه وتُدينه كل حين وآن، وينال عند الله وبال عدم إيمانه دون شك، لأن الذي يقف تحت الشمس الحارقة لا يمكن أن ينال راحة الظل الظليل. فمع أن النصيحة ليست كسَهْم ينفد فور انطلاقه، ولكن كيف يختار أولئك الذين يدّعون أنهم يريدون أن يسلكوا مسلك العقل؛ عملاً معروفًا عنه بصراحة تامة أن فيه الخزي في الدنيا، وأن شقاوة الآخرة أيضا ليست شيئا زائلا؟ إننا نأمل أملا قويًا من أولئك -ولا سيما بعض أتباع البرهمو المتحضرين وذوي العلم واللباقة منهم؛ نظرا إلى طبائعهم الحكيمة- أنهم سيقبلون الحقائق التي ثبت صدقها في هذه الحاشية. بل آمل أن يتأثر هؤلاء الناس وينالوا الهداية قبل أن يقرأوا هذه الحاشية بالتمام والكمال، لأن العاقل والنبيل حين يرى نفسه مخطئا في نقاش، فإنه لا يوصل الأمر إلى خزي نفسه، بل يجعل نفسه جديرا بالتعظيم والتبجيل في أعين أهل الحق باعتناقه الحق باحترام قبل أن يظهر هوانه. أمّا مَن كان وقحا وعديم الحياء بطبيعته فلا يبالي بخزيه وذلته أدنى مبالاة ولا يلقي لهوانه بالا. والحق أنه يوجد في الدنيا أناس كثيرون يصرون على أمر بديهي البطلان بكل وقاحة متخلين عن صفة الحياء كليا، ولا يتخلون عن إصرارهم مهما نصحتَهم، ولا يتركون طريقهم المعوج ولا يرتدعون عن عدِّ النهار ليلا بعد رؤيته عيانا، ولا يأبهون بأن الناس سيعدونهم عميانا. إنهم كالميتين بسبب شدة تعنتهم وقلة علمهم وقلة لباقتهم، ولا يتحركون إلى الصدق بأدنى حركة، ولا يتخذون الصدق والاستقامة

منهجا. فترى كل عمل من أعمالهم غريبا وكل تصرف من تصرفاهم معوجا. فنقول لهؤلاء الناس مرارا وتكرارا: عودوا إلى صوابكم، ولا تكونوا أغبياء بعد ما ادّعيتم العقل والفطنة. إنه لغبي جدا وضعيف الهمة مَن كان لسانه سليطًا جدا في تحقير المقدسين والأطهار ولكنه يخرس عندما يُطالب بقول كلمة الحق. فلو امتنعوا عن قبول أمر كان دقيقا جدا في الحقيقة، لقلتُ بأنه لا خطأ لهم في ذلك؛ لأن الأمر كان دقيقا في حد ذاته، فلم يقدروا على استيعابه. ولكن انظروا إلى تعنتهم؛ إنهم ينكرون أمورا بسيطة يستطيع أن يفهمها البسيط جدا أيضا. فليفكر كل منصف في بحث الإلهام مثلا، هل يتعذر على الفهم الاستيعاب أن الإله المتصف بجميع الصفات الكاملة لا يمكن أن يكون أبكم، وأنه لا بد أن يتكلم أيضا كما يبصر ويسمع ويعلم. وإذا وُجدت فيه صفة الكلام، فلا بد أن تصل بركتها إلى المستحقين من الناس؛ إذ ليس هناك صفة من صفات الله تعالى تخلو من إفاضة الفيض، وهو سبحانه وتعالى مبدأ الفيوض بجميع صفاته وليس ببعض صفاته. وهو عز وجل رحمة للإنسان من حيث جميع صفاته وليس من حيث بعض صفاته. وهل يتعذر فهمُ أمر بسيط وهو أنه هل يمكن أن يكون الإنسان -المتورط في أنواع الأهواء النفسانية والميالُ إلى الأطماع والأهواء دائما- هو المشرِّع لقانون الشريعة؟ بل إن ذلك القانون المقدس لا يمكن أن يصدر إلا ممن كان نـــزيها عن كل نزعةٍ نفسانية وبريئا من كل سهو وخطأ. هل من شك في أن العقل وحده لا يستطيع أن يوصل في مجال معرفة الله إلى مرتبة: "موجود فعلا"؟ ألا يوجد في قلوب الناس رغبة طبيعية في السمو عن الظنون العقلية في أمر معرفة الله عز وجل؟ ألا تضطرب أرواح الطلاب الصادقين لاكتشافٍ من شأنه أن يهيئ لهم يقينا كاملا واطمئنانا تاما بوجود الإله الحي وعالَم الجزاء وليطّلعوا على وجوده ووعوده بصورة حقيقة؟ هل يخفى على منصف أن مئات الخصومات الدينية التي نشبت نتيجة خطب مطوّلة -وسببها الحقيقي هو تأثير الخطب الخاطئة- لا يمكن أن تحلَّ بإشارات قانون القدرة

وسنن الطبيعة وحدها وإيماءات تلك الصحيفة المبهمة فقط؟ بل الحق أن ما أفسده الكلام لا يمكن إصلاحه إلا بالكلام. ومَن أماته الكلام إنما يمكن إحياؤه بالكلام فقط. ولكن يجب أن يكون هذا الكلام طاهرا ومقدسا -مقابل ذلك الكلام الخبيث- وحقا محضا ونابعا عن علم الله الحقيقي. ولكن ما دام بعض الناس يصرون على إنكار ضرورة الإلهام -مع أن القضية بديهية الصدق- ويحسبون كتاب الله المقدس تأليف الإنسان، فكيف يمكن الظن بأنهم يخافون الله أدنى خوف؟ وكيف نتوقع أنهم سيتفوهون بكلمة عدل وإنصاف؟ والذين لا يريدون أن يتورعوا عن الكذب بحال من الأحوال، فمن العبث أن ننصحهم بشيء، ومن العبث كذلك أن يقرأوا هذا الكتاب. الأسف كل الأسف أن مئات الناس متورطون في الجهل مع أنهم يُعدّون من العقلاء، لديهم أعين ولكن لا يبصرون بها، ولهم آذان ولكن لا يسمعون بها، ولهم قلوب ولكن لا يفقهون بها.

ليس بقليل عددُ أتباع برهمو سماج عدد الذين كلّ ما أنجزوه باستخدامهم العقل هو أن فصَلوا صفات الله القديمة عن ذاته، وحسبوه ﷻ أبكم وناقص الفيض وناقص القدرة. فلما كان حال عقلائهم على هذا المنوال، فكيف لن ينكرها إنكارا تاما مَن هم أقل منهم عقلا؟ لأنه إذا لم يكن الله قادرا على الكلام، فكيف يُدرك أحد أنه قادر على البصر والسمع والعلم؟ ولولا وجود صفة الكلام فيه، فما الدليل على أنه توجد فيه صفات أخرى؟ أما إذا كان يتحلى بصفة التكلّم ولكنها ما أفادت الخلقَ أدنى فائدة، أفلن يخطر بالبال أن شجرة الرحمة تلك لا تُظلل على خلقه بكل أغصانها التي هي صفاتها الكاملة، بل بعض غصونها يابسة أيضا و لم تُفِد أحدا قط. فهذا هو المعتقد الخاطئ الذي يتبنّاه أتباع برهمو سماج. ثم يحسب هؤلاء الناس مع اعتناقهم هذه المعتقدات الواهية والباطلة أن القرآن، الذي هو ينبوع كل صدق وحقيقة، ليس كلام الله، والعياذ بالله، بل أُلّف نتيجة أهواء النفس. ولأن الأفكار السيئة تحرم صاحبها

من الأخلاق الفاضلة، لذا فقد وقع هؤلاء القوم في خبائث مختلفة؛ لأنهم أيضا أساءوا الظن بالقرآن الكريم، وأجازوا أنواع الإهانة بحقه، فحسبوا السليمَ مريضا وتجاهلوا المأتم في بيتهم.

الأسف كل الأسف أنهم لا يفكرون؛ هل من علامات الكتاب الذي يُؤلَّف نتيجة الأهواء النفسانية أن يكون أفضل وأعلى من جميع الكتب الأخرى حكمةً ومعرفةً وحقائقَ ودقائقَ، ويعجز الإنسان عن مواجهته؟ فهل يُعدّ الكتابُ -الذي لا يستطيع الناس منافسته حتى لو ماتوا جميعا مخططين لذلك- افتراءَ الناس؟ هل يجوز أن يُعدَّ ذلك الإنسان المقدس البريء والطاهر والكامل ﷺ الذي لم يكن له من تعاليم الدنيا أدنى نصيب، ومع ذلك أفحم الحكماء بفضائله العلمية وكسّر كِبر الفلاسفة جميعا مع كونه أمّيًّا، وهدى التائهين إلى الطريق المؤدي إلى الله ﷻ تابعًا لأهواء نفسه وطمّاعا؟ وإذا استطاع أحد من البشر أن ينجز هذه المهمة فإنه ليس إنسانا، بل هو إله بعينه إذ استطاع أن يعمل ما عجزت وتقاصرت القوى البشرية كلها عن الإتيان بنظيره. إذا كان ذلك النبي المقدس الذي جاء بالقرآن الكريم تابعا لأهوائه النفسانية، والعياذ بالله، فماذا عسى أن نسمي أولئك الذين عدُّوا عقلاء كبارا وحكماء وفلاسفة عظاما، بل دُعوا آلهة وعُدُّوا في نظر عبدَة المخلوق أنهم أرباب العالمين ومع ذلك ما استطاعوا التساوي معه في الفضائل العلمية، ولم يحظ كلامهم مقابل القرآن الكريم بقدر قطرة حقيرة مقابل البحر.

الأسف كل الأسف أن هؤلاء القوم لا يفكرون عند الإساءة إلى عظمة النبي ﷺ أن ذلك يستلزم الإساءة إلى العالَم بأكمله. وإن اعتزَّ أحد بعقله، أو تبع نبيا آخر بحسب زعمه، فالطريق المستقيم له هو أن يبذل أولا قصارى جهده ويستخرج بعقله أو من الكتاب الموحى الذي يؤمن به حقائق الحكمة المماثلة مقابل حقائق القرآن الكريم ومعارفه، ثم ليهذِ كما يشاء. ولكنه إذا سعى للحط من شأن القرآن الكريم أو تفوه بكلمات التحقير بحق سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ قبل

إنجاز هذه المهمة، فإنها في الحقيقة تُردُّ كلها على ذلك الجاهل ناقص العقل، أو تعود على نبيه أو زعيمه؛ لأنه إذا حسبَ أحدٌ ضوء الشمس ظلاما، فأيّ شيء يمكن أن نعدَّه بعد ذلك منيرا؟

"يا من تنـــزلق قدماه إلى لجة الطغيان تمردا على القرآن الكريم.

لا تتباه هكذا أمام نور الهُدى، وتب عن المكر والاستهزاء.

ما أتعس العين وما أعماها، التي ترى الشمس ذرّةً.

لو لم تترك هذا الطريق وهذا المنهج، فلن تجد سفينتك شاطئًا.

إلامَ تكنّ العداوة والعناد لربك، وإلامَ تستمر بالسخرية والاستهزاء بالدين.

لا تهلكْ نفسك بترك الحياء، ولا تجعل نفسك موضعا للرثاء نتيجة الاستهزاء.

إذا كانت الشمس مشرقةً في كبد السماء، فكيف يمكنك أن تخفيها بالتراب والأعشاب؟

يمكن أن تختفي مئات المكائد في ظلمة الليل، ولكن لا يمكن ذلك في وضح النهار المشرق.

إن وهْج نور الفرقان لا يمكن أن يخفى على أهل البصيرة.

إنه رحمة للعالم كله، وهادٍ ومرشد للدنيا بأكملها.

إنه رحمة من الله للدنيا، ونعمة من السماء على العالم.

إنه كنـــز أسرار الله تعالى، ووسيلة من الله تعالى لمعرفته.

إنه يفوق مراتب الإنسان في الكمالات، ويهدي القياس والاستدلال.

هو ولينا الكامل في العلم والعمل، إن حجته قوية وتأثيره كامل.

من رأى طلعة عظمته ذكَر اللهَ تعالى لفوره.

ومن لم ير ذلك النور كِبْرا وضغينةً فهو أعمى ومُبعَدٌ عن نور الحق.

سبحان الله، ما أعظم الأسرار التي يتمتع بها من الله، جسمي وروحي فداء لتلك الأسرار.

إن القرآن مرآة لإراءة وجه الله، فقد جذب العالَـــم إليه ﷻ.

البُكم صاروا ببركته فصحاء، ودميموا الشكل صاروا ذوي وسامة.

أكلوا ثمرة بستان الفناء، وقضوا على أنانيتهم وأهوائهم.

لقد جذبتْ قلوبَهم يدٌ من الغيب، وانتشل جذب الحبيب أقدامهم من الوحل.

إنه لجذبُ كلام الله الذي صرف قلوبهم من الدنيا.

وطهّر صدورهم من غير الله، وملأها بخمر حبِّ ذلك الأحد.

عندما ترسّخ هذا النور فيهم سطع البدر التام من وراء الحجاب.

وانزاحتْ عنه حجبُ الظلام كلُّها وصار كيانا نورانيا خالصًا.

وأمال قلوبهم إلى عشق الله بجذب خفيٍّ.

لقد أركض العشقُ خيلَه بسرعة هائلة، فلم يبق شيء من حفنة التراب هذه.

فلم تبقَ فيها أنانية ولا حرص ولا هوى، مثل رأس مضرَّج بالتراب والدم.

إنهم عشاق وجه الله ﷻ ذي الجلال، وطلاب ماء نهره الزلال.

إنهم زاخرون بالعشق وخِلو من الطمع، ولم يتأوهوا رغم المعاناة.

لقد تطهّروا من شوائب وجودهم وتحرروا من أنانيتهم.

لقد أسرهم الحبيب فلم يتوجّهوا إلى غيره قط.

قد غرقوا في ذكره من قمة الرأس إلى أخمصِ القدمين، وسلكوا مسلك الفناء.

إن ذكر الحبيب قُوت حياتهم المفضّل، هذا هو مقصد عيشهم ومغزى حياتهم.

إنهم براء من كل أمنية سوى تمنّي الحبيب، ومُغمِضون عيونهم عن كل ما سواه.

لقد جعلوا قلبهم وروحهم فداءً لوجهه وحده، وجعلوا وصْله غايتهم المنشودة.

قد ماتوا وأفنوا نفوسهم، لقد ثار العشق وأنجز مهمات عظيمة.
ابتعدوا عن الأنانية، وجرفهم سيل العشق العارمُ معه.
لقد وجدوا نور الله أخيرا، فحين تلاشت الأنانية ظهر الإله.
بقتل النفس يتسنى وصال الحبيب، وبالتفاني في الله يفوز المرء بالحياة.
صار عشق الحبيب يتدفق من وجوههم بغزارة، وعلى أزقة قلوبهم نزل غيث الرحمة.
إن هذه المرتبة خاصة بالأطهار، ولا يبلغها أهل الدنيا قط.
حين يرفعون أَكُفّهم للدعاء يصبحون محط فيوض الله تعالى.
إذا تمنّوا ليجدوا من الله سرًّا، تلقَّوا إلهاما منه ﷻ.
لا أحد يعرف عنهم شيئا، لأنهم مختفون في قباب الله.
حين يُظهر الله أحدا منهم، يسعى الملوك ليستظلوا بظله.
إن عشاق الله هؤلاء كلهم ينالون نورا من كلام الله الأحد.
إنهم يبقون مختفين عن أهل الدنيا عموما، ولكن يظهرون بين حين وآخر،
فيخرجون مثل الشمس والقمر، ويُبدون وجوههم للأغيار أيضا.
ولا سيما حين تخرّب رياح الخريف حديقة الحب والوفاء.
ويعلِّق أهل الدنيا قلوبهم بالدنيا الفانية، ويشرعون في الإشادة بها.
فيمدحون جيفة الدنيا ويُعرضون عن الله الكريم.
ويعشقون المال والعزة والجاه، ويفتر عندهم حب ذلك السلطان.
ويُعجِب شأن هذه الدار الفانية وشوكتها نظر الأغبياء.
ويبقى ذكر الله على الألسن فقط، ويُملأ باطنهم بالأطماع والأهواء.
ففي تلك الأيام التي هي كالليلة الليلاء، تمسك رحمة الله العدْل بأيدي الناس.
فيرسل إلى الخلق وجودا نورانيا، لينقشع الظلام بنوره.
ولكي يستفيق الخلق من نومه نتيجة صخب هذا العاشق المشغوف.
ليعرف الناس الطريق السديد، وليعرف المنكِرون وجود الله.

عندما يظهر مثل هذا الإنسان في الدنيا، يُظهر الله عظمته على العالم.
بمجيئه يعود فصل الربيع، ويعود فصل الأزهار والورود.
ويعود موعد رؤية الحبيب، فيستقر للعشاق قرار.
ويعود الحبيب بوجهه مثيل القمر، وتصل الشمس إلى أوج ضيائها.
يترنح الورد والياسمين بالدلال، وتبدأ البلابل بتغريدها مجددا.
تربّيه يد الله من الغيب بلطف، وينبلج صدقُه كاملا كفلق الصبح.
ويأتيه نور الإلهام بالروائح الطيبة من الغيب كالنسيم العليل.
يتلقى بالإلهام الأمور الخافية التي هي خاصة بالله تعالى وحده.
ليُظهر الحقيقة بصورة بارزة، ولكي يسحق رأس المنكِرين.
وعليه فإن الله القادر الكريم المقدس ينوِّره كالشمس المنيرة.
وببركته يجعل العيون مبصرة، والآذان قادرة على السمع.
ومن أتاه بالصدق والصفاء، شُفي على يده بأمر من الله تعالى.
لقد أَخبر الرسول الأكرم من الله عالم الغيب.
أنه سيُبعث على رأس كل قرن أناس مؤهلون لإنجاز هذه المهمة.
ليُنــــزَّه الدينُ من البدعات نتيجة نوال الخلق البركات منه.
فملخص الكلام أن وجود الأولياء الكرام خاص بالإسلام.
لا تقل إن هذا الكلام لغو وخطأ، بل فاطلبْ وأنا أضمن لك الإثبات.
يا أيتها الذرّة الحقيرة، أنّى لك أن تُعجز ذلك الخالق.
كل ذلك حقيقة وليس تباهيا، فاختبرْ إن كنت لا تقبل.
لا أعِد الطلابَ وعدا كاذبا، وإن لم أخبر بوجوده ﷻ لكنتُ كاذبا.
لقد خُلقت لأحقق هذه الآية، وأنا بريء من كل الهموم والأحزان الأخرى.
ولما كانت هذه السعادة من نصيبنا، فقد جاء دورنا رويدا رويدا.
أنا أدعو إلى عين الماء الزلال كما تعتني الأم بأولادها.
عسى أن يأتيني العطاشى من الفلوات نتيجة عويلي وصراخي.

ولكن الشرط هو الحضور بالتواضع والصدق والصفاء والاحتياج وتقوى الله.

والتحرّي بالمسكنة والتواضع القلبي والإخلاص والطاعة الكاملة.

لو أعرض أحد الآن أيضا وترك سبيل الإنصاف واختار سبيل الخطأ.

ولم يسألنا ولم يعرف بنفسه شيئا، ولم يتخلّ عن البُغض والضغينة.

فليس ذلك إنسانا، بل دودة حقيرة مطرودة من باب الله.

لا علاقة له مع الله، فلا بد أن تنـــزل عليه لعنته ﷻ.

لقد تمت عليه حجة المؤمنين، فقد صار كلامنا قويا وعذره ضعيفا.

أيها الجامحون في الشهوات، أكثِروا ذكر هادِم اللذات.

إن هذه الدار دار فانية، فلماذا تعلّقون قلوبكم بهذه الدنيا الفانية عاجلا؟

فكِّروا أين ذهب العمر السابق، ثم فكِّروا ما الذي فقدتموه بذهابه؟

لقد انقضى هزيع من العمر في الصبا، وقد أضعْتُم هزيعا آخر في التمرد.

لقد مضت الرفاهية وبقي الإفلاس، الأعداء سعداء والأصدقاء حزينون.

لقد التهمت الأرض مئات المستكبرين مثلك، ولكن عنقك ما زال مشرئبًّا ضغينةً.

استوعِبْ حالة الدنيا الفانية كما تُبيِّنها بلسان حالها.

هذه الدنيا ليست وفيَّة مع أحد، ولا تصبر ما لم تُبعد المرء عن نفسها.

لو أصغيتَ جيدا لسمعتَ من داخلك مئات الآهات لميت كالح.

يقول: لماذا أعرضتُ عن الله تعالى؟ ولماذا علّقتُ قلبي بشيء انفصل عني؟

سل الأموات عن هذا الطريق، ففي القبور حسرات كثيرة.

فالأفضل أن تبتعد عن هذا المقام بالتقوى والورع، وابتعدْ عن كل ما يُبعدك عن ذلك الحبيب.

إلامَ تستمر في غيّك يا سيئ الأدب، هل من عاقل يقطع العلاقة مع الحبيب؟

عليك أن تصرف قلبك عن الأغيار وتبحث عن الحبيب دائما.

انظر إلى تجلّي وجه الحبيب، والوجوه كلها فداء لوجه الحبيب.

اُخرج من قوقعة أنانيتك فهو البقاء، وكن فانيا في الحبيب فهو اللقاء.

من كان غافلا عن ذلك الأحد الذي ليس كمثله شيء فليس عاقلا، بل هو مجنون أشد الجنون.

إلامَ تُعرض عن الحبيب؟ هل لك أن تدلّنا على مثيل له؟

لا نظير لذلك الحبيب في العالــمَين، فما لعشاقه ولغيره.

حين اضطرمت نار العشق في القلب بقي فيه الحبيبُ وحده واحترق كل شيء سواه.

هذا عطاء من الله، وما لم يحالف المرءَ لطفٌ من الله لا تستوي أموره.

إن هذه المرتبة يهبها الله للذين يتحررون من أسر الأنانية.

ويمشون تحت أوامر الله تعالى، ولا يخرجون عنها أبدا.

لا تُعطى هذه المرتبة لغيرهم، وإلا فبيِّنْ.

لا يوجد في غيرهم الوفاء والحب لأن أقصى ما يهدف إليه المعتمدون على العقل هو الزهد الظاهري الذي لا لبّ فيه.

العقلاء الذين يعتزون بعقلهم، ويجهلون الحقيقة والأسرار الإلهية.

لقد اهتموا بظاهرهم كالقبور، وباطنهم مليء بأنواع الأوساخ.

يحسبون الله أبكم وعاجزا عن الكلام كالحجر.

إن ذلك الإله الحي القيوم هو عندهم كائن خيالي.

إن ذلك الحفيظ والقدير ورب العباد صار في رأيهم كالجماد لا حياة فيه.

إنهم أنانيون وأسرى عقولهم، وبعيدون عن الله العليم القدير.

من كان معجبا بنفسه ومستكبرا، أنّى له أن يذكر الله القدوس.

إن سنة العشاق هي التواضع والانكسار، لم نر العشق والاستكبار يجتمعان في مكان واحد.

إذا كنت تبحث عن مطية إلى الصراط المستقيم، فابحث عنها حيث يصعد الغبار.

وابحث عنها حيث لم يبق الظلم ولا الرياء ولا الاستكبار ولا الفتنة أو الفساد.

إن عباد الدنيا لا يمكن أن يكونوا مثل المتفانين، ولا يستوي العصاة والمطيعون المضحُّون.

إن الشر والضجيج سائد في الخلق والعالم كله، أما العشاق فيعيشون في عالم آخر.

ما لم تبلغ حالة قلبك الموت الوشيك، كيف تصلك رسالة الحبيب.

ما لم تتخلّ عن الأنانية وما لم تجعل نفسك فداءً للحبيب.

ما لم تترك الأنانية وما لم تبحث عن الله كالمجانين.

ما لم يتحول ترابك غبارا وما لم يقطر الدم من غبارك.

ما لم يُهرَق دمك من أجل أحد وما لم تُفد أحدا بروحك.

كيف يمكن أن يُفسَح لك الطريق إلى زقاق الحبيب، تأمل بنفسك بصدق وحرقة.

إن هذا العقل ليس مطية هذا الطريق، عُد إلى صوابك ولا تضلَّنَّ السبيل.

الطاعة الحقيقية هي إفناءِ الهوى، أين أنت من طريق العشق.

فقد ضحَّيت بالإيمان من أجل أنانيتك، مستمرا على التعنت بغطرسة واستعلاء.

ما حقيقة عقلك وفطنتك ورأيك إذ تدّعي التساوي مع الله.

ما الذي علّمك أستاذك الغبي، ما هذا الغضب الإلهي الذي أغلق عينيك.

ما هذا الخطأ الذي ارتكبته إذ جعلتَ أول الدَنّ دُرديًّا.

كيف يمكن أن يعادل عقلك الناقص الله تعالى، وأنّى للجسد المادي أن يطير ويصل إلى السماء.

من أين سيأتي بكلام الله القدوسِ عقلٌ متورطٌ في مئات الأخطاء.

من المؤسف أنك تمدح العقل الساهي، ما هذا السهو والخطأ الذي ترتكبه، يا أسفا عليك.

العقل الذي يتعثر مئة مرة بكل خطوة، أنّى له أن يوصلك إلى شاطئ الأمان.

إن هذا العقل سراب ولكنه يُبدي عين ماء من بعيد، فلا تعجل بالتوجه إليه.

إن سفينتك هذه مخروقة بل مدمَّرة، ثم أصابتها الزوبعة أيضا.

فلا تعتزّ بسفينة كهذه، ولا تمشِ في الأرض مرحا مع قبحك المهين أيها السافل.

لن تصل اليقين عن طريق القياس، لأن أساسه الشك والريب.

لا يمكن أن تصبح صاحب الأسرار وإن ذبتَ في التفكر والتدبر.

لو زهقت مئتا روح من جسدك، لا يمكن أن يزول الشك والظن.

إن علاج القلب هو كلام الله، ولا يمكن أن تسكر دون أن تشرب كأس الله.

إن سبيله مسدود أمام الأغيار، وأبواب السماء كلها مغلقة في وجه الآخرين.

لم يَزُل جهل أحد في الليلة الليلاء ما لم يُشعَل مصباح من الغيب.

يجب اجتناب كل نوع من الكبر في هذا المجال، ولكنك تعتزّ بالعقل والقياس.

أيّ غباء هذا، أنك تفرح بهذا الطريق ولا تفكِّر في الله في وقت من الأوقات.

اذهبْ واطلب من الحبيب وصاله، ولا تعتمد على قوّتك أبدا.

ما لم يخضع رأسك تواضعا، لن تزول حُجُب نفسك.

لا يمكن الطيران في هذا المقام ما لم يسقط ريشك كله.

الضعف هو القوة في هذا المجال، فاخْلُق هذه القوة وتعال إلى هنا.

لا حجاب على وجه الحبيب، فارفع عنك حجاب الأنانية.
من حالفتْه السعادة الأزلية كان التواضع شيمته في كل شيء.
من خرج من زقاق الكبر الضيّق فقد نال القبول عند الله.
إن معرفة الحق لا تُنال بالأنانية، بل الأنانية تزيد الأنانية أكثر فأكثر.
لا تُفسِد حالتك بالأنانية، ولا تحاول أن تعمل عمل الشمس وأنت خفّاش.
كلما كان البشر مستكبرا كان قلبه بعيدا عن الحبيب.
عندما يبلغ تواضع أحد درجة الكمال عندها تحين وتتسنى حرقة العشق.
يا من حجَب الكبرُ عينيك، ماذا أفعل حتى تفتح عينك.
إذا كان في قلبك طلب صادق، فلا تستكبر مسيئا الأدب.
سل اللهَ سرَّ الطريق المؤدي إليه، وابقَ ضمن حدودك فإنك لست مثل الله.
نحن عباد، وعلى العبد أن يفعل ما يأمره به سيده.
العُجب لا يليق بالعبد، ولا يجدر به أن يتربع على عرش الحكم بنفسه.
والذي يقوم بتنفيذ الحكم دائما هو الذي ينال الأجر والقبول أيضا.
أما الذي يقوم بعملٍ من تلقاء نفسه دون أن يؤمَر لا تُدفع له أجرة أبدا.
نحن ضعفاء وساقطون على التراب، فأنّى لنا أن نطّلع على سر الله القدوس بأنفسنا.
لا حقيقة لنا ولا أهمية، وهو الذات الكامل، فلا يمكن أن يصير علمُنا كعلمه.
أنّى لأفكار العقل أن تدرك ذلك الكامل عديم النظير الذي اسمه "الله"،
والذي يأتي من ذلك الحبيب، يُطلِع على أسرار ذلك الحبيب.
ما كان كامنا في قلبك، أنّى لأحد أن يعلمه كما تعلم أنت.
ما كان علمُه عند الله، أنّى لك أن تعرفه مثله ﷻ يا غدّار.
إن الذي خلق العين هو الذي يهب النور، وواهب القلب هو الذي يهب الفرح والسرور.

انظر إلى العين المادية كيف وهبها الخالق الشمسَ بلطفه.

وقد أظهر تلك الشمس مرة وأخفاها مرة أخرى لمصلحة الزمن.

والحال نفسها للعين الباطنية، فإن شمسها كلام ذلك الذي لا مثيل له.

انتبهْ جيدا يا أيها الإنسان، فإن في رؤية العقل الإنساني المجردة آلاف الأخطار.

إن التمرد طريق الشيطان وينافي فطرة الإنسان.

مهما بذلت من المساعي فكلها غير مجدية ما لم يفتح فضل الله أمامك السبيلَ.

لا مجال للقياس في الأسرار الدقيقة، أنّى للجمل أن يلج سم الخياط.

إنك تجهل كنه هذا المجال، ولا تدرك جمال هذا الوجه الكريم.

فماذا تخبر به الآخرين، والهلال الذي لم تره كيف تدل عليه غيرك.

الحديث عن الحبيب بقلب حزين، مَثله كمثل إلباس الميت لباس الحي.

إن هبوب الريح سيُسقط الرمل حتما مهما علوتَ به.

إن إلـــهنا واحد، مِن عنده يأتي كل فيض وبركة، وهو حافظ جسمنا وروحنا.

الله الذي خلق العالَم كله هو حافظ الخلقِ كلِّه.

كل ما كان ضروريا للخلق مثل اللباس والطعام وسبيل النجاة.

قد هيأه الله لهم لطفا منه ومنّةً، لأنه كريم وقادر ومحبٌّ.

انظُر إلى المزارع الواسعة فترى النبات واقفة بالدلال.

كل هذه الأشياء إنما هي لنا لنستفيد منها ولا نعاني من ألم المخمصة.

إن الذي أعاننا إلى هذا الحد من أجل حياة فانية.

كيف لا يفعل ذلك من أجل الدار الأبدية؟ ففكّر وتأمل بالعقل والحياء.

ويل للعقل البعيد عن الصدق كل البُعد.

ولو سألتَ نفسك كيف يمكنك الوصول إلى ذلك المقام.

لتصاعد من داخلك صوت عفويٌّ أن هذا لا يمكن إلا بتأييد الله الذي ليس كمثله شيء.

لا يمكن أن يدرك أحد قط أنه يمكن للذبابة أن تُنجز مهمة الفيل.

فكيف يمكن إذن أن تُنجز الذرّة أفعال الله باختيارها وقوتها وقدرتها.

فافهَمْ قدرة الله القدوس، وخف الإساءة إليه بهذه الطريقة.

تجعل نفسك شريكا له ﷻ وتدّعي التساوي معه.

ما هذا العقلُ يا مَن كان أحطَّ من الدواب، وما هذه الحُجُب على عقلك.

فلو قال لك أحد مستحقرًا إن في هذا البلد ألوفا من أمثالك.

ولستَ أكثر فطنة من غيرك، بل يُساويك أدنى الناس أيضا.

لعاديتَه مستشيطا غضبا، ووددت أن تقتله.

فما لا تستسيغه لنفسك كيف ترضاه للبارئ تعالى.

كيف قبلتَ أن الذي يتولّى الأمور كلها أبكم وعاجز عن الكلام.

وكيف قبلتَ أن واهب الأنوار كلها قد بخل إلى هذا الحد أو عجز.

كيف قبلتَ أن الله الغيور عاجز كالأموات في الأجداث.

جاء الدين لإقامة عظمة الله، وويل للدين الذي يسيء إليه ﷾.

إن الله الذي وهب الخلق لسانا، ووهب حفنة التراب قوة الكلام.

كيف يمكن أن يكون بنفسه أبكم وبغير لسان، فعليك بالاستحياء من ذلك الكامل والمقدس.

هو جامع الكمالات والعز والجلال كله، فكيف يمكن أن يكون ناقصا يا أسير الضلال.

فلما ظهرتْ جميع صفاته، فأنّى لصفة الكلام أن تبقى خافية.

إن الهدف من العين هو أن يرى بها المرء طريقه.

واها لعينك ونظرك هذا إذ لا ترى الشمس أيضا.

لو كان في قلبك أدنى خوف من الله، لما ظهر منك استغناء كهذا.

ولبحثتَ عن الطريق إليه بكل قلبك وروحك، واندفعت إليه بصدق.

إذا كان قلب أحد معلّقا بحبيب فهو يسأل الخبيرَ عنه دائما.

وإن لم يحظ بلقاء الحبيب، فإنه يتمنى رسالة منه على الأقل.

فلا يهدأ دون الحبيب، فمرة ينظر إلى وجهه ومرة إلى كلامه.

مَن كان حبُّه في قلبك، فلا تصبر دون لقائه قط.

ولو انفصلتَ عنه صدفةً تكاد نفسك تزهق.

إن قلبك يحترق كمدا بفراقه، وبذهابه تسيل دموعك.

ثم إذا مثُل أمام عينيك ذلك الجمال وذلك الوجه في زقاق.

فتمسك بذيله كالمجانين قائلا له: لقد دَميَ قلبي لعدم رؤيتك.

تحب ذرة من الخلق إلى هذه الدرجة، ولكنك تغافلتَ عن الله الأحد.

لقد هجرت ذلك الحبيب نهائيا، وقطعت علاقتك مع جماله وكلامه.

تحمل الأموات في الأحضان وتنفر من الحبيب الحي.

هل سمعت مرة عن عاشق صبر على عشقه، فالصبر والعشق لا يجتمعان.

فالذي يدخل في أعماق القلب لا تشبع العين برؤيته.

لقد أعطيتَ القلب للأغيار وتغافلتَ عن الحبيب نهائيا.

هل هذه شيمة العاشق المشغوف وحالته، وهل هذا هو مقام الحبيب يا أيها الميت؟

لدى العشاق تلاحَظ علامات العشق، ما لك والعشق يا مسودّ القلب.

ما لم تتخل عن الأنانية لن تزول من قلبك بذرة الشرك.

ولن تتقدم خُطى سعيك ما لم يتلاش استكبار قلبك.

سيتجلّى الحبيب عندما تتنحّى عن الأنانية كليا.

لن تتخلص من الحزن والحرقة ما لم تحترق، ولن تنجو من الموت ما لم تمت.

ما الفائدة من الجسم والروح السافلَين اللذين لا يحترقان حزنا، فارمِ في النار قلبا لا يحزن.

دمِّر كوخ جسدك إن لم يكن عامرا بذكر الحبيب.

إن لم تختر قدمُك طريق الصدق والسداد فابتُرها عن الجسد.

لا شيء يماثل ذلك الإلهَ عديم النظير، لقد هلك قلب لا يحزن من أجله.

إن كنوز العالم كلها له فداء، إن تراب قدمَي الحبيب أفضل من مئات الكنوز.

كل ما نجده من يده فهو الخير، وإن شوكه أفضل من ألف بستان.

إن قبول الذلة من أجله أفضل من العزة، وقبول الفقر من أجله أفضل من الثراء.

إن الموت من أجله هو الحياة الأبدية، ومئة راحة فداء لتلك المعاناة.

يا أيها الماشي في زقاق الحبيب تمسَّكْ بالوفاء للأبد حتى لو ذهبتْ في سبيل ذلك روحُك.

الصادقون الذين يطلبون الحبيب بإخلاص يضحّون بأرواحهم من أجله.

ولو لم يجدوا طريقا لوصاله لهلكوا في هذا الحزن.

يتصبغون بصبغة الحبيب، ويشعرون بالعار من الشهرة.

يجدون متعتهم في الألم، ويرون الجمال في وجه أصفر.

أما أنت المتمرِّغ في الوحل كالحمار، أنّى لك أن تدرك عزيمة هؤلاء الأبطال.

إن الحديث عن الألم والمعاناة سهل، ولكن لا يدرك حقيقتها إلا من يمر بها.

رحم الله شخصا تخلّى عن الأنانية من أجل ذلك الحبيب.

وأفسح في قلبه مكانا له، وابتعد عن الأطماع والأهواء مئات الأميال.

وابتعد عن الأنانية ووجد الله تعالى، وفقدَ نفسه وأمسك بيد الهادي.

ماذا عسى أن تفهم ما دمت بعيدا عن هذا الطريق ولست مطّلعا على جلال ذلك الإله.

ظلت أعمالك كلها مرتبطة بالعقل الناقص، وخابت كافة مساعيك.

إنك تردد كالببغاء كلاما واحدا فقط بأن الإنسان عاقل وحرٌّ.

يا مَن تركض وراء الثروة والمال كالمجانين، الأسف على إهمالك الدين إلى هذا الحد.

وجِّهْ قلبك إلى الدين وقدِّم التفكير في الآخرة على كل شيء.

إن اعتمادك على القياس في كل الأحوال دليل على غبائك.

ما لم يكن الأمر واضحا كالإعلان أنّى لأحد أن يطيع أمرا كهذا.

ما لم يُنفَّذ حكمُ الحاكم، أنّى لك أن تطيع أمره إلى ذلك الحين.

ما لم يكن أحد مأمورا من الله الحق، كيف يتميز الإيمان من الكفر.

كيف يمكن للعاشق المشغوف أن يقوم بعمل ما لم يشر عليه الحبيب.

كيف يمكن التمييز بين مطيع الله والمتمرِّد عليه دون أمر منه.

ما دام التنفيذ مشروطا بوجود الأمر، فابحث عنه أولا يا أيها الغبي.

وإلا؛ فاترك ادّعاءك الفارغ بأنك تمشي تحت أمر الله تعالى.

إن اختلاق أمر من تلقاء النفس لا يساوي أمر الله يا جهول.

لا يجوز عقلا أو عُرفا أن يصبح ظن النفس أمرا من الله.

إن أمره هو ما يُصدره بنفسه، فكلما أمر بشيء وجب أن تتوجه إليه فورا.

إذا ثبت الوحي من الله، ثبتت ضرورته أيضا.

لو حظيتَ بمعرفة دينية لوجدت أن في الظنون هلاكك.

انظر بعيون العقل والفكر والقياس ليتبين لك أن أساس العقل ليس متينا.

ولا يجد سبيلا إلى اليقين ما لم يرافقه رفيق.

ما لم تر مكانا بأم عينك أو تجد عنه خبرا ممن كان بصيرا.

لا يخبرك العقل وحده قط أن له علامات كذا وكذا.

فكيف يمكن الإخبار عن عالم الآخرة أن تلك الديار والأماكن هي كذا وكذا.

من الغباوة الشديدة والوقاحة الكبيرة أن يتباهى أحد مع كونه جاهلا.

كيف يمكنك أن تسلك بالقياس وحده على سبيلٍ لم تره مدى العمر.
كيف علمت عن عالم الآخرة؟ هل رأته أمُّك أو أبوك؟
وإن لم يره أحد فكيف علمتَ عنه؟ فلا تمش مختالا يا لئيم وأنت عريان.
إن إنكارك الأنبياء جهل محض وعُجب.
ألقِ نظرة على طباع الناس، فإنهم لا يملكون قدرات متساوية.
كل شخص يختلف عن غيره، فمنهم من تقدّم في الخير ومنهم من تقدّم في الشر.
فما دام هناك من تقدّم وتأخّر، كذلك لهم مدارج مختلفة في تلقّي فيوض الله.
والآن انظر بالصدق والصفاء ما الذي يثبت من ذلك؟
الليل مظلم والخوف شديد، فلا تهلك نفسك في الأنانية.
ما دمت لا تدري ما وراء الجدار، فأنّى لك أن تعرف غيب الله.
إنني لأستغرب كيف تعتز بالعقل مع وجود هذا القدر من النقص.
أيّ عقل وأيّة معرفة هذه، وأيّ غضب الله هذا الذي أغلق عينيك.
لقد أحببت هذا العالم كما تحب العيد، ولم تعد تذكر عقاب الله.
اِسمعْ وحي الله وما يفصح عنه من أسرار الله الأحد.
كل العقول التي يملكها العقلاء كمثل جذوة نار كامنة تحت الرماد.
إن كلام الله المقدس ليس في السماء فقط حتى تقول إنه بعيد عن متناولنا.
أو تقول بأن الأمر متعذر، وأنّى لي أن أصعد إلى السماء.
كذلك ليس كلام الله تحت الأرض أيضا حتى تقول كيف أخرقها.
وكيف أستخرجه من أعماق الأرض، فإني لا أملك تلك القدرة.
بل رفع الله القدوس عذرك إذ نزل نور العرش على الأرض.
لو جذبتْك رحمة من الله الأحدِ، لذهبتْ بك سعادتك إلى ذلك النور.
الله الله، ما أجمل الأنوار التي نشرها، ففي هذا الكلام فيض من نوع غريب.

برؤيته يزول الجهل، و بمشاهدته تنحلّ مئات المشاكل.

إن تلاوته تخرج ثمرة النور من كمها، وإن عالما مدين لمننه.

حفظه الله من نظرة سيئة، ما أغرب هذا الجمال، فكأنه عين ماء زلال.

منذ أن عُرفت ظاهرة الحب في الدنيا لم يخطر ببال أحد حبيبٌ مثله.

النور الذي ظهر منه لم يره أحد في الدنيا في الشمس ولا في القمر.

إلامَ تعتز بالعقل الناقص، ماذا أفعل حتى تفتح عينيك.

انظر إلى نقصك، ثم انظر إلى كمال الله، وانظر إلى ذلتك ثم انظر إلى جلال الله.

لم ولن يجد أحد بمحض العقل سبيل الرب المجيد.

إذا كانت هناك ضرورة للاحتراق، فكيف يمكن أن يُكشف الطريق بالمنطق البارد فقط.

ما لم ينـــزل وحيُ الله، و لم يأت نسيم الربيع بشذى زكيّ.

لم يعرف العقل عن ذلك البستان شيئا، وكان طائر الفكر مَهيض الأجنحة.

فجاء نسيم الصبا برِيّا فم الحبيب، فتنشط العقل أيضا.

لقد سقى الحبيب شجرة العقل بنفسه مرارا حتى صارت مثمرة.

إنه لَوقتُ الترفيه وموسم السرور والسعادة، فلماذا أنت في حالة مأتم وحزن.

اطلب من الله رياحا عاتية حتى تَذْرُوَ قمامتك في لمح البصر.

لا شك في وجود الشمس والقمر، ولكن اُطلب العيون من الحبيب.

إنك ضال ما دمتَ متمردا، وعندما ستبحث عنه بصدق القلب فستجده.

إنك لا تريد إدراك سر الحقيقة، هذه هي المشكلة يا من هو عارٍ من العقل.

إن الاستدلال على وجود الله من خلال خلقه مجاز محض وليس وصالا حقيقيا.

إن وصاله لا يُنال بطريقة المجاز، افتح عينيك فإن الأمر ليس بالمزاح.

لن تنال النجاح بالعقل فقط وإن أحرقتَ مئتَي كبد في النار.

ليس لديك خبر عن الحبيب، بل تتخبط بسخفٍ خبط عشواء.
إن اليقين الذي وهبك الله إياه، أنّى لعقلك أن يهبك إياه.
هناك واحد سمع النكات والأسرار من فم الحبيب بنفسه.
والآخر أسير في شكوك فكره، فكيف يستويان؟
يا من تعتزّ بسبيل الظن والشك لست عاقلا، بل إنك مجنون أشد الجنون.
إن ذلك الإله الذي هو مصدر المنن، هل تراه يمن عليه العاقلون؟
إن فكرة الإله المترسخة في ذهنك لغريبة حقا، إذ تحسبه ضعيفا وخاملا وعاجزا
وأنه لم يظهر على المخلوق ما لم تحالفه النصرة من أصحاب العقل.
لا يمكن للعقل أن يقبل أن الله اكتسب الشهرة كلها بفضل الناس فقط.
إن الليل مظلم وهناك خوف الفلاة الواسعة، فلماذا تنام نوم الغفلة يا قليل الفهم؟
قم وافحص حالتك، وانظر إلى الأخطار في الطريق وتأوّهْ.
قم واسأل نفسك ما هي درجات المعرفة التي تتطلبها.
وانظر هل تضطرب لإزالة الحُجُب، أو ترى في القياس كفاية في كل أمر؟
قال الله تعالى: "أفلا تبصرون[٦٦]"، فقم واعلم حقيقة ظمأ نفسك.
إنك مأخوذ بجريرة مئات الألوف من الأخطاء، وكل خطأ أخطر من الثعابين.
إن هذا الجهل وعدم الفهم لغريب حقا، إذ تجهل هذا الأمر البسيط أيضا.
إنه لَقولٌ صادق وليس كاذبا، بل الخطأ أنك لا تفهم الأمر على حقيقته.
من يستطيع أن يكشف الأسرار المختومة إلا وحي الله تعالى؟
ومن يستطيع أن يكشف الحقيقة إلا الله الذي يعلم الأسرار؟
إنك حفنة من تراب الطريق، وتطلب من الله عاصفة.

---

[٦٦] ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات ٢٢)

إنك لا تفهم كلامي هذا، فكيف أَنزِل في قلبك؟

يا أسفا؛ إن الحزن أدمى قلبي، ولكن المخاطَب لا يقدّر ألمي.

فيا شمس وجه الحبيب اطلعي بسرعة، فإن القلب حزين لطول الليل وحُلكته.

إن نظرة واحدة تكفي في أمور الدين، ليت أحدا يلقيها بخشية الله.

الكفر بيّن والإيمان بيّن، لقد أخبرتك بذلك في السر والعلن أيضا.

إن التخلي عن خوف الله وكسب السيئات دليل على سواد القلب.

إن وجه الحبيب ليس مستورا، فالحُجُب كلها منك أنت يا ميِّت القلب.

إن الحبيب أقرب من حبل الوريد، ولكن سخافتك قد أطالت القضية.

من تخلّى عن أنانيته دفعة واحدة تولّى الله تعالى أمره بنفسه.

إن ذلك الحبيب حيٌّ وقيومٌ وقادر، فلا تحسبه ميتا يا أيها المهينُ.

إذا كنت مشتاقا للذهاب إلى الحبيب، فقدّم الصدق على كل شيء.

وإذا كنت تشكّ في ذلك فقم وجرِّب، حتى أستأصل شكوكك من الجذور.

لو كان العقل منـــزَّها عن الخطأ، لكان كل عاقل من أهل الله.

ما من أحد بريء من الذهول والسهو والخطأ، إلا الله الذي يعلم كل شيء.

فكِّر بُغية تحرِّي الأمر، وإن كان هناك أحد سلم من ذلك فبيِّن.

وإلا توقَّف عن الفساد والإنكار، ولا تأكل جيفة الكذب المنتنة.

ستكون معاملتك مع الله تعالى في الأخير، ففكِّر في نفسك وخف ذلك العدل.

من كان قلبه معلَّقا بالحانات، كيف يسعه التخلص من الوحل من تلقاء نفسه.

لقد توجّهتَ إلى الباطل، فتوقَّفْ عن ذلك، لقد عشقتَ دميما فتوقَّفْ.

انتبهِ فإنك واقع في المزبلة. أين موقفك؟ انتبه إليه جيدا.

يا من يتباهى بالعقل والفطنة عُد إلى صوابك ولا تمدّ رجليك أكثر من بساطك.

إن الادّعاء بالمستحيلات خبث وضلال.

من يتخذ من الفلوات مسكنا له فهو أسوأ من المجانين.

لماذا تُعرض عن الصراط المستقيم، ألا تعلم أنك معرَّض للحساب في الأخير.

رِجلك عرجاء وغايتك بعيدة، فكيف تصل غايتك في هذه الحالة؟

إن من فطرة الإنسان أنه حين يرى الصعوبة شديدة.

يبذل أولا قصارى جهده وسعيه بكل قوته وقدرته وسعيه.

لعل عمله المتوقّف يجري على ما يرام دون أن يضطر ليكون مدينا لغيره.

ولكنه حين يجد الأمر فوق طاقته، وحبل القوة قد أفلت من يده.

فيتوجّه إلى زقاق أصدقائه، ويستعين بأنصاره.

ويدعو إخوته الأقوياء، ويسعى إلى كل عاقل.

وحين ييأس من كل جانب فيبكي في حضرة الله تعالى.

ويتضرع على عتباته ﷻ المقدسة، ويسجد على التراب تواضعا.

يغلق بابه ويدعو باكيا متضرعا ويقول: يا من تحل المشاكل.

اغفرْ لي ذنوبي واستُرني كيلا يشمت بي الأعداء.

فلما كانت فطرة الإنسان تتمتع بالصفات الثلاث التي ذكرتُها.

فقد أعطاه ذلك الحكيم القدير بلطفه أسبابا تنسجم مع فطرته.

لقد أعطاه الله ﷻ العقل للجهد والاجتهاد، وفتح سبيل الفكر والقياس والتدبر.

وأودع قلوبهم رحمة من أجل التعاون المتبادل.

وجعلهم شعوبا وقبائل وأقواما، وبذلك أقام سلسلة العلاقات المتبادلة.

وأنعم عليهم بالإلهام رحمةً منه ليسد حاجتهم إلى فيوض الله.

ولكي يبلغ الإنسان كماله، وتتحقق كافة أمنياته ومراميه.

ويبلغ التعليم مبلغ اليقين، ويتيسر سبيلان للتعليم.

فبواسطة هذين السبيلين للتعليم يتسع الطريق لنوال اليقين.

وبواسطتهما تخرج كل طبيعة من بئر الضلال بحسب فهمها وفكرها.

فالميل الطبيعي الذي خلقه الله تعالى في فطرة الإنسان.

ينشغل في البحث عن إلهام الله تعالى دائما، فانظُر بعين التدبر لتفهم الحقيقة.

فما دامت طبيعتك على هذا المنوال، فلماذا تُعرض عنها يا قليل العقل.

إنه لمقتضى فطرة الإنسان التي وهبها له الله المحسن.

يجذب البشر أحيانا إلى القياس لكي يؤسس أموره على العقل.

ويجذبه أحيانا إلى المنقولات ليطمئن بكلام الناس الثقات.

لأن الطمأنينة القلبية والسكون لا يكونان دون كلام الصادقين المبني على المعرفة.

ولما كان ضروريا للتعليم أن يتم على قدر عقل الطالب.

فقد فُتح سبيلان اثنان لكي يصل إلى الله كل إنسان أيًّا كان طبعه.

ولكي يصل الأذكياءُ وقليلو الفهم وصغار الناس وكبارهم أيضا إلى الله الواحد الأحد.

وهناك دليل آخر أيضا على ضرورة الوحي من الرحمن.

وهو أنه لا يمكن ذيوع اسم الله الأحد إلى هذا الحد بمساعي العقول فقط.

ولو لم يقل الله "أنا الموجود" لما سجد له العالم بتواضع.

إن الضجة الكبيرة عن وجود الله التي جعلت العالم كله عاشقه المشغوف.

قد أقامها الله تعالى بنفسه، وليس ذلك منة الإنسان عليه ﷻ.

يا أسفا، أيّ نوع من الناس هؤلاء الذين تركوا الله تعالى ووقعوا في الأنانية!

كيف يمكن وجود العقل لولا فيض الوحي، إن وجود العين مرتبط بضوء الشمس.

لو لم تعطِ الشمس نورها، لما أمكن لعيننا وحدها أن ترى.

بفضل الزهرة تعلّم البلبلُ التغريدَ، ولا ينكر ذلك إلا من أغلق عينه قصدا.

إن العالم كله يشهد نِعم الله، ولكن الغبي ينكر هذا الوحي والإلقاء.

رسِّخ في قلبك حبَ الناس الأطهار، لكي تكون أيضا -يا عزيزي- من الأطهار.

إن هذا العقل يملكه الناس كلهم، فلا تعتزّ به؛ فهناك كثير من أمثالك.

أين علاجنا بغير الحبيب؟ ما أهمية وجودنا وما حقيقة عقلنا الضعيف؟

أنت تذوق سم الفراق وخائبةٌ آمالُك، ومع ذلك تنكر الوحي والإلهام.

أنت موشك على لفظ أنفاسك لعدم شربك الماء، ومع ذلك تُعرض عن ماء الحياة.

أنت أعمى ثم تعادي أهل الأبصار، يا أسفا على شقاوتك وخسارتك.

ليس عقلنا هو دواء ألم القلب، بل هذا الدواء يوجد في مشفى وحي الله.

إن التفكير في الذهب لا يُغني عن الذهب، بل الذهب الحقيقي هو ما يمثل أمام الأعين.

إن منة الإلهام على العقل هي أنه أصلحَ كل فكرة ناقصة.

العقل قام بالتصور فقط، أما الإلهام فقد فصّل كل شيء؛ الأول عدَّ السرَّ مخفيا، وأما الأخير فقد أظهره.

العقل أسقط الشيء والإلهام أعطاه في اليد، ذاك أنشأ الطمع فقط وأما هذا فقد حقق الأمنية.

الشيء الذي كسر كل وثن من أوثان قلوبنا إنما هو وحي الله الأحد.

والذي أرانا وجه الحبيب، إنما هو إلهام الله الودود.

والذي سقانا جام يقين القلب إنما هو كلام ذلك الحبيب.

لقد تيسَّر وصال الحبيب ونشوة كأسه كلها نتيجة إلهامه سبحانه وتعالى.

إن أصل كل مقصد هو وصال ذلك الحبيب، ومن كان غافلا عنه كان غِرًّا.

نحن صفر اليدين بدون نِعمه، ولسنا بشيء بغير ألطافه".[٦٧]

أرى من المناسب أن أوضح هنا أن البانديت "شيو نرائن اغني هوتري" وهو عضو بارز من برهمو سماج في لاهور، اعترض على ما كتبت من قبل في باب ضرورة الإلهام الإلهي، وأراد بحسب زعمه أن يحول دون وصول تأثير حقيقة الأمر إلى قومه بأي سبيل. فأخرج كل ما كان في جعبته وكتب تعليقا أيضا باذلا قصارى جهده. ولكن كما يقال في المثل "لا خوف على الحق، ولا تُحجب شمس الحق بإخفاء أحد". ولذلك لم تُثمر محاولاته، وتبيَّن للعقلاء بكل جلاء مدى نفوره من قبول الحق. ومع أن عبارة البانديت لا تستحق البتّة أن نتوجه للرد عليها، بل إن في قراءة بياني السابق بتأمل ردٌّ كافٍ ووافٍ عليها. ومهما كانت عبارة البانديت فاقدة الأهمية، فمع ذلك أرى من المناسب أن أكشف حقيقتها على المنصفين كيلا يتأسف البانديت على عدم ردّنا عليها، أو كيلا يحمل بعض رفقائه سكوتنا على عجزنا لسوء فهمهم.

فليكن واضحا أن البانديت المحترم قد أكّد في تعليقه -مقابل أدلتنا- على أن الأسلوب المتّبَع في اعتبار الكتب السماوية موحى بها محالٌ وغير ممكن عقلا، وليس مستساغا مطلقا، لأنه يخالف قوانين الطبيعة. أيْ لا يمكن في نظر البانديت بحال من الأحوال وجودُ الإلهام الذي يسمَّى كلام الله وينـــزل من الله الحكيم والعالم بالغيب، ويكون منـــزَّها تماما -مثل ذاته ﷻ المقدسة- عن كل شك وشبهة وخطأ وسهو ونسيان، ويكون متصفا بجميع الصفات الكاملة التي يجب وجودها في كلام الله؛ أي أن ذلك الكلام أيضا يحتوي علم الغيب، كما أن الله عالم الغيب، ويشمل الحكمة والعلم كما أن الله حكيم وعليم، وكما أن الله تعالى منـــزّه عن الخطأ والكذب والسهو والنسيان، كذلك يكون ذلك الكلام أيضا منـــزَّها عن هذه الأمور كلها، ولا دخل فيه لأفكار الإنسان. وليس بوسع الإنسان أن ينال أيّ نوع من التقدس والطهارة أو أن يفتح على

[٦٧] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

نفسه باب الإلهام محتالا بحيلة من الحيل أو يطّلع على الأنوار الغيبية والأمور المستورة والأسرار السماوية حين يشاء، لأنه لو حدث ذلك لأحاط الإنسانُ أيضا بكل ذرّة علمًا مثل الله تعالى تماما، ولما بقي شيء خافيا عليه، ولاقتنى لنفسه نتيجة قداسته وطهارته كافة المعلومات المؤدية إلى ازدهاره وإزالة مصائبه، ولما تعرّض لمعاناة أو ألم من أيّ نوع أبدا.

ولكن اللافت في الموضوع أن الباندیت المحترم -مع إنكاره الشديد لكلام الله وإصراره- لم ينقض أدلتنا وبراهيننا التي تؤكد بالقطع واليقين على ضرورة كلام الله، بل لم يتطرق إليها أصلا. فالمعلوم أنه ما دمتُ قد سُقتُ أدلة كاملة على ضرورة كلام الله وتحقُّق وجوده بل وسجّلت بعضا من إلهاماتي أيضا نموذجا؛ فما كان لدى الباندیت المحترم سبيل إلا أن يدحض أدلتنا إذا كان يريد النقاش بصدق المقال وبحثا عن الحق، وأن ينقض أدلتنا بأدلة مضادة لما قدّمناه في كتابنا من الإثباتات على ضرورة الإلهام ووجوده. يعرف الباندیت المحترم جيدا أني قد أرسلت له رسالتين على التوالي بالبريد المسجل، وقلتُ فيهما بأنه إذا كان يشك في سنّة الله أنه يكلّم حتما بعض عباده ويُطلِعهم بكلامه الخاص على أمور وعلوم عظيمة لا يمكن أن يصل عظمتها كلام الإنسان الذي منشأه ومنبعه أفكاره المحدودة، فعليه أن يقيم عندي لبضعة أيام بصدق النية والصبر، ويرى بأم عينه حقيقة يظنها مستحيلة الوقوع ومخالفة لسنن الطبيعة، ثم ليسلك كالصادقين مسلكا يُعَدّ شرطا لإثبات صدق الصادق وعلامة على نزاهة باطنه. ولكن من المؤسف حقا أن الباندیت المحترم لم يقبل -مع ادّعائه التنسك- هذا الأمر كطلاب صادقين، مع أنه هو العلامة الأولى للتنسك الحقيقي، بل كتب عن القرآن الكريم بعض الكلمات التي لا يمكن قط أن يخطّها شخص يخشى الله تعالى. يبدو أن الباندیت المحترم لا ينكر الصدق المتحقق فحسب، بل يعاديه أيضا، وإلا فما الذي يمنعه من قبول الحق سوى البُغض والعداوة الشخصية، وقد أثبتُّ بكل قوة وشدة وجود كلمات الله من حيث العقل والمشاهدة،

واستأصلتُ كل نوع من الوساوس من جذورها، وإني جاهز أيضا للإقناع والطمْأنة من كل الوجوه.

والآن لاحظوا ما هي أعذار الBANDيت مقابل بحثنا. يقول أولا وقبل كل شيء إن البرهمو قائلون بوجود الإلهام، ولكن من حيث معناه الحقيقي وطريقته الطبيعية. ثم يشرح الطريقة الطبيعية ويقول بأنه ليس هناك كلام محدد ومعين ينـــزل على قلب الإنسان بصورة خارقة للعادة ويحتوي على أمور تفوق قوة البشر، بل المراد من ذلك هو الأفكار العادية التي تخطر ببال الناس من الله تعالى على قدر مرتبة كل شخص. ولأن الله تعالى كامل وحاضر وموجود وعلة العلل، لذا فإن روحه تعمل عملها دائما في كل ذرة وفي كل شخص روحاني. فبقدر ما يكون الإنسان متعطشا وحريصا على نيل النعم الروحانية والتقرب إلى الله ﷻ، وبقدر ما يجعل حياته الباطنية مقدسة، وبقدر ما يسلِّم نفسه لله سبحانه وتعالى؛ وبقدر ما يكون إدراكه وإيمانه سليما، يستفيض من ذلك الفيض الطبيعي. وهذا الفيض يبدأ من يوم ولادته. فهذا هو الإلهام الباطني الذي ينـــزل على روح الإنسان؛ لذا فإن روح الإنسان هي كتاب الله الحيُّ والموحى به.

ثم يقول: ما دامت الإنسانية تشمل النفسانية أيضا، فإن الأفكار التي تخطر ببال الناس، وتسمَّى الإلهام أو الإلقاء عند أتباع البرهمو، لا تستحق الثقة المطلقة، بل يعدّ أتباع البرهمو القوى الأخلاقية محكا لاختبار تلك الأفكار التي فيها احتمال الكذب والصدق في آن معا. والقوة التي نستخدمها للحكم في ذلك هي العقل.

فهذا هو ملخص بيان الBANDيت المحترم. والواضح الآن أن المراد من بياناته كلها هو أن الأمور التي يسميها الBANDيت وأشياعه إلهاما، إنما هي أفكار عادية تخطر ببال الناس العاديين بوجه عام ولا تخلو من إمكانية الخطأ والسهو بإقرار الBANDيت. ولكن الإلهام الذي يسمَّى في كتب الله؛ كلامَ الله ووحي الله ومخاطبات الله تعالى، إنما هو نور من نوع فريد، وهو أرفع وأعلى من الأفكار

والقوى البشرية. أما الباندیت فيعتقد أن هذا النور السماوي -الذي هو صوت من الغيب ولا دخل فيه لأفكار الإنسان أو طبيعته على الإطلاق- بأنه مستحيل تماما لأنه ينافي الطبيعة، وأمرٌ خارق للعادة، ولا يجوز بحال من الأحوال أن ينـــزل الله كلامه على بشر. بل المراد من الإلهام هو الأفكار التي تخطر ببال الناس عموما بحسب طبيعتهم، وتكون صادقة أحيانا وكاذبة أحيانا أخرى، وتكون صحيحة مرة وخاطئة أحيانا أخرى، وتكون طاهرة مرة أو غير طاهرة مرات أخرى، ولا توجد فيها خاصية تفوق قدرة البشر، بل كلها تنشأ ضمن حدود قدرات الإنسان ومنشأها طبيعة البشر.

ولكن من المؤسف أن الباندیت قد هدر وقته بغير وجه حق في كتابة هذه الأسطر القليلة. فلو قرأ الصفحات ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥ من الجزء الثالث لهذا الكتاب بإمعان لتبين له أن الأفكار من هذا القبيل لا تُعدّ كلام الله، بل هي من خلق الله وجزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان. أما كلام الله الذي ينـــزل من الله، فهو أمرُ الله، وهو هبةٌ من الله وأمرٌ من لدنه. والشرط الضروري لكلام الله تعالى أن يكون منـــزَّها من السهو والخطأ والكذب والعبث ومن كل نقص وحالة رديئة مثلما أن الله تعالى منـــزَّه من السهو والخطأ والكذب والعبث ومن كل نقص وحالة رديئة، لأن الكلام الذي خرج من النبع المقدس والكامل لا يجوز له بحال من الأحوال أن يكون فيه شيء من النجس والنقصان. ويجب أن يكون متحليا بجميع الكمالات التي ينبغي وجودها في كلام الله القادر والكامل والقدوس وعالم الغيب. ولكن الباندیت المحترم يقرّ بنفسه أن ما أسماه إلهامًا لا يخلو من الشك والريب والسهو والخطأ والنقص، بل إن بيانه يتلخص في أن الإلهام قد أوقع الناس في الكفر والإلحاد دائما. فقد أخبر الناس أحيانا في الزمن الابتدائي وكأن الأشجار هي إلـــههم، وفي بعض الأحيان جعل الجبال آلهتهم، وكذلك الطوفان أو الماء أو النار أو النجوم أو القمر أو الشمس أحيانا أخرى. وهكذا ظلّ يوجّه أنظارهم إلى آلهة مختلفة، وظل العقل أيضا يصدق ذلك

الإلهام، حتى اطّلع الإلهام والعقل على الإله الحقيقي بعد مدة طويلة؛ أي قبل مدة وجيزة من الآن. ولكننا نقول بأنه كما تعرّض الإلهامُ المزعومُ لأجداد الباندیت المحترم وعقلُهم للخديعة من أنواع مختلفة آلاف المرات من قبل فتخبطوا دائما في معرفة الله، فأنّى للباندیت المحترم أن يطمئن الآن أن إلهامه المزعوم وأفكاره المبنية على التخمينات مصونة من الخطأ؟ ألا يمكن أن يكون فيها أيضا خديعة كامنة؟ وما دام إلهام الباندیت المزعوم غارقا في الخطأ والسهو منذ البداية، فكيف يمكن الثقة به أصلا؟ وبذلك قد تبيّنت جيدا حقيقة الإلهام المزعوم عند الباندیت وثبت باعترافه هو أنه يسمي الأفكار التي لا أصل لها إلهاما.

والمعلوم أن ما يغلب عليه الكذب في معظم الأحيان لا يمكن أن يكون وسيلة لمعرفة الله. وكيف يمكن أن تُنقِذ الإنسانَ من الخطأ أفكارُه المحضة التي يسميها الباندیت إلهاما؟ وكيف يمكن أن تُخرجه تلك الأفكار المظلمة من كل ظلمة وتوصله إلى نور اليقين الكامل؟ إن هذه الأفكار المشوَّشة التي تُسمى إلهاما بحسب زعم الباندیت، جعلت الناس -الذين كانوا باعترافه أول المستفيضين من فيوض الإلهام وكانوا يحتلون مقام الصدارة بين الملهَمين وكانوا أكثر الناس عطشا وحرصا لمعرفة الله ويريدون بإخلاص القلب أن يكون لهم إله وكانوا يقدسون حياتهم الباطنية كثيرا- يعبدون الأحجار؛ فأُلِّه القمر والشمس في نظرهم في الزمن الابتدائي الذي كان زمنا نزيها، لأن الذنب ما كان قد انتشر في الدنيا إلى ذلك الحين، وكان الزمن زمن الصدق والأمن والوئام، وكان الناس يحبون أن يسلِّموا أنفسهم لله تعالى. فبناء على ذلك انتابتهم فكرة من تلقاء أنفسهم أن تعالوا نعيّن لأنفسنا إلــها وألا نبقى دون إله. ولأن إيمانهم وإدراكهم كان سليما، خطرت ببالهم فكرة دقيقة وشرعوا في البحث عن الإله من تلقاء أنفسهم. فلما كان هؤلاء الناس -بحسب رأي الباندیت المحترم- أول نموذج لخلق الإله المبني على حكمته الكاملة، وكانوا أبرياء من التعصبات

والشوائب المعاصرة، وكانوا عاكفين على البحث عن خالق العالَم بحماس القلب، وكانوا مطّلعين على خلقهم الحديث وحداثة فعل الخالق عمومًا، ثم تؤول مع كل ذلك حالة إلهامهم وعقلهم إلى أن شرعوا في عبادة الأحجار والجبال وحسبوا الشمس والقمر والنار والهواء خالقهم، فأنّى لهذا النوع من الإلهام والعقل المزعوم -عند الباندیت- الذي أضلهم في المرحلة الأولى أن يهدي إلى الصراط المستقيم أناسا آخرين وُلدوا في زمن الغفلة ومئات الظلمات؟ إذ أن هؤلاء الناس ليسوا مطلعين حتى على نوعية سلسلة خلقهم ولا يملكون حياة مقدسة بسبب غلبة حب الدنيا والمفاسد المختلفة، وليسوا عطاشى لقرب الله بل يتعطشون للتقرب إلى السلطة البشرية. فلما ترك إلهام الباندیت المزعوم في الأزمنة الطيبة تأثيره أن حسِب الناسُ المخلوقَ خالقا، فلا بد أن يترك تأثيره في هذا الزمن المظلم بصورة إنكار الناس وجود الله أصلا.

فباختصار، إن تسمية الباندیت المحترم الأفكارَ التي أدت إلى الأخطاء منذ البداية بحسب اعترافه هو والتي يسميها إلهاما -أو قولوا إن شئتم ما يزعمه إلهاما- إنما هي فكرةٌ خاطئة تماما وكذب صريح. فمع أن الله تعالى هو علة العلل لأفكار الناس أيضا، وهو الذي يُلقيها في القلوب ويهدي العقول، ولكن الإلهام -الذي هو كلام الله المقدس وصوتُه ووحيُه- هو أعلى وأرفع من أفكار الناس الفطرية. وينـزل من الله ﷻ وبمشيئته على قلوب الكاملين. ولكونه كلام الله تعالى؛ ترافقه بركات من الله وتحالفه القدرات الإلهية والحقائق المقدسة منه ﷻ، وإن كونه لا ريب فيه؛ هي صفته الذاتية. وكما أن الرائحة الزكية تدل على وجود العطر، كذلك يدل ذلك الإلهام على ذات الله وصفاته ووجوده دلالةً قطعية ويقينية. ولا يمكن لأفكار الإنسان أن تنال هذه المرتبة. ولأن الإنسان قد خُلق ضعيفا، فإن الضعف نفسه غالب على أفكاره أيضا. وما يخرج من نبع القادر القدير شيء، وما ينشأ من طبيعة الإنسان هو شيء آخر تماما.

فمن المناسب أن يعيد البانديت المحترم قراءة الصفحة ٢١١ إلى ٢١٥ في الجزء الثالث من هذا الكتاب ليعرف الفرق بين كلام الله وأفكار الإنسان. وإن اعتزاز البانديت مرارا وتكرارا بالعقل، هو في غير محله بتاتًا. لقد كتبت في الجزء الثالث من الكتاب بالتفصيل أن المخلوقات لا تُثبت مطلقا الوجود الفعلي للخالق، بل تثبت ضرورة وجوده فقط، وذلك أيضا على سبيل الظن. أما كلامه ﷻ فيثبت وجوده بالقطع واليقين ولا يكتفي بإثبات ضرورته فقط. كذلك إن التدبر في المخلوقات لا يثبت أزلية الله تعالى، لأن المخلوقات بنفسها ليست أزلية وقديمة، فأنّى لها أن تُثبت أزلية غيرها؟ إن الحادث الذي جاء إلى حيّز الوجود حديثا وهو مستحدَث بحد ذاته لا يثبت ضرورة وجود الله تعالى إلا إلى غايته هو.. أي إلى نقطة ظهوره وحدوثه. كذلك لا يثبت بواسطة حادث إذا كان الله تعالى موجودا منذ الأزل قبل وجود الكون أم لا. فإن مجال العلم بذات البارئ الذي يحصل بواسطة وجود الأشياء المستحدثة ضيق جدا، وهو علم محدود وناقص لا يُخلّص الإنسان من ورطة الشكوك والشبهات قط، ولا يُخرجه من ظلمة الجهل، بل يوقعه في أنواع الشبهات. لذا فإن الذين كان مدار معرفتهم على العلم العقلي فقط لم تكن عاقبتهم حسنة، ورحلوا من الدنيا مع كثير من الظلمات في معتقداتهم. فلو تنحّى الإنسان عن التعصب والتعنت تماما وفكّر في نفسه -كباحث صادق عن الصدق ومتعطش لمعرفة الله تعالى في الحقيقة- ما الذي يحتاج إليه من كنوز المعرفة من أجل الحصول على يقين كامل بوجود الله وقدرته وبجميع صفاته الكاملة، ومن أجل المعرفة عن عالم المعاد وقضية الجزاء والعقاب معرفة قاطعة وضرورية، وفكَّر أيضا في نفسه: هل أستطيع أن أنال السعادة الدائمة نتيجة المرتبة العلمية التي تُنال بصورة ظنّية بواسطة العقل أم أن الله تعالى جعل لي سبيلا آخر أيضا؟ أم لم يجعل ﷻ سبيلا آخر لإكمال معرفتي وتَرَكَني أتخبط في أفكاري؟ أو هل قصّر في أن يبلّغني بقوته الربانية حيث لا أستطيع الوصول بقدمي الضعيفة، وأن يُريني بقوة نظره الثاقب

أشياء لا أقدر على رؤيتها ببصري الضعيف؟ هل يمكن أن يبتليني بعطش أحتاج لإروائه بحرا ثم يحصرني في قطرة ماء حقيرة تعلوها رائحة قلة المعرفة الكريهة؟ هل هذا ما يقتضيه جُوده وسخاؤه ورحمته وقدرته؟ هل تقتصر قدرته على أن يترك معرفة العبد عند نقطة يصلها العبد ببذل كل ما في قدرته فيصل إلى نتيجة تخمينية عن وجوده ﷻ ويرسّخها في قلبه، ويجعل معرفته تقف عند هذا الحد، ولا يجعله بقوى ألوهيته الخاصة يتجول في عالَـــم معرفة الحق؟ فلو طرح طالب حقٍّ مثل هذه الأسئلة على نفسه، لأجابه ضميره جوابا محكما أن من مقتضى نِعم الله اللامتناهية حتما أنه ﷻ يأخذ بيد عبده الضعيف ويهدي الضال إلى الصراط المستقيم، ويأخذ بيد الضعيف. هل يمكن أن يظل الله تعالى صامتا واجما مع كونه قادرا وقويا ورحيما وكريما وحيّا وقيوما، ويترك العبد الجاهل والأعمى يتخبط خبط عشواء في البحث عنه؟

أنّى للضعفاء قدرة أن يطلعوا على الذي لا تدركه الأبصار.

إن عقل العميان بنفسه يبحث عن المرشد من أجل السير على الطريق، فلا تسترشدنّ عقول العميان.

لا يسع عقلنا إلا البكاء والعويل، أما إزالة أسقام الجهل فبفضل الله تعالى.

لا يسع عقلَ الطفل الصغير إلا الصراخ والبكاء، ولا يُدرُّ له الحليب إلا من أمه". [٦٨]

فيا أيها القراء الكرام، اقرأوا هذا المقال بإنصاف وتدبروا وتأملوا فيه بعمق، وحذارِ أن تقعوا في شراك مخادع. اسألوا أنفسكم إلى أيّ مدى تتمنّى قلوبكم اليقين. هل يمكن أن تُطمئن أفكارُكم البالية قلوبكم؟ ألا تحب أرواحكم أن تبلغوا في هذه الدنيا مبلغ اليقين الكامل، وتتخلصوا من العمى؟ قولوا صدقا وحقا، ألا تتمنون أن تزول ظلمتكم وحيرتكم، وأن تتلاشى الشبهات الخافية في قلوبكم التي لا تقدرون على إظهارها؟ فإذا كنتم راغبين في الحصول على

---

[٦٨] *ترجمة أبيات فارسية. (المترجم)*

معرفة الله فاعلموا يقينا أن سنة الله ﷻ في هذه الدنيا هي أنه جعل لمعرفة كل شيء أو للحصول عليه وسيلة. وإن مهمة العقل هي أن يثبت ضرورة تلك الوسيلة، ولكن لا يمكن أن يعمل عمل الوسيلة نفسها. فمثلا: العقل يُثبت ضرورة الرحى للطحن، ولكن لا يمكن أن يصير العقل رحًى بنفسه ويبدأ بطحن القمح. وعلى غرار ذلك قد أرشد العقل إلى استخدام أدوات كثيرة، ولكن لم يُنجز عملٌ إلا بواسطة الأداة. أما العمل الذي لم تتيسر له الأداة، فالعقل يحتار دائما في إنجازه.

فألقُوا نظرة على أمور الدنيا كلها تجدوا أن غاية سعي العقل هي أن تتطرق إلى القلب فكرة عن أداة لإنجاز عمل ما. فمثلا فكّر العقل أن هناك حاجة لأداة لعبور النهر، فبدرت إلى الذهن صورة السفينة ثم تيسرت لصنعها مادة تعوم على الماء ولا تغرق، فبتوفُّر هذه المادة صُنعت السفينة. وعلى غرار ذلك هناك آلاف الأدوات الأخرى التي بسببها تجري أمور الدنيا. وإن مهمة العقل في كل مناسبة هي أنه يُثبت ضرورة الأداة، ويبين أنه يجب أن تكون هناك أداة من نوع كذا وكذا، ولكن لا يسعه أن يعمل عمل الأداة المطلوبة.

من الواضح أن كل عقل سليم يُدرك بالبداهة أن الاطلاع على أحداث العالم الثاني ووجود خالق العالَم وما يرضى به وما لا يرضاه وكيفيات الجزاء والعقاب وكمياته، والأحوال اليقينية لخلود الأرواح وبقائها.. إنما هي أمور دقيقة جدا يستحيل معرفتها بصورة صحيحة ويقينية بغير أداة سماوية. وكما أثبت العقل ضرورة آلاف الأدوات ليجري نظام الدنيا على أحسن ما يرام، كذلك يوجِب العقلُ السليم للاطلاع -بصورة قاطعة- على ذلك العالم الذي لم تره عين، ضرورةَ أداة سماوية لكي يُعرف على وجه اليقين والقطعية وجودُ ذلك القادر القدير الذي أخطأ في معرفته مئات الآلاف من أهل العقل. وكذلك ليُعلَم أيضا بالقطع واليقين عن عالَم الجزاء والعقاب ليترقّى طالب الحق عن الظنون ويرى في هذا العالَم البارئَ تعالى وصفاته الكاملة وعالَمَ

الآخرة بعين اليقين. والأداة التي توصل إلى تلك المرتبة العليا من اليقين هي كلام الله تعالى الذي بواسطته يُدرك الإنسانُ وجود الله تعالى وصفاته الكاملة وعالـــم الجزاء والعقاب باليقين الكامل. ولقد أثبت الله تعالى بإيصاله مئات الآلاف من الناس إلى تلك المرتبة من المعرفة أن هذه الأداة لمعرفة الله موجودة في الدنيا حتما. والذي لا ينال النور من هذه الأداة السماوية، مثله كمثل أعمى يمشي على طريق فيه خنادق هنا وهناك وحفرٌ واسعة في كل مكان، فلا يدرك طريقا آمنا، ولا يدري منجاه، ولا يعلم ماذا عسى أن تكون عاقبة اتخاذه الخطوة التالية؛ لأنه لا يرى بنفسه و لم يُمسك بذيل مرشد، ولا يدري ما مسيره وما مصيره، وليس متأكدا هل سينال حتما المرام الذي ينشده أم لا، بل إنه أعمى القلب والعين.

ثم هناك وسوسة أخرى تخالج قلب البانديت المحترم وهي أن الكتاب الموحى به لا يمكن أن يكون أساسا لإيمان أحد. ولكن لماذا لا يمكن أن يكون كذلك؟ يورد بنفسه دليلا على ذلك أنه لا بد من ترسيخ الإيمان بالله قبل التسليم بكتاب موحى به. فكل نبي أو صالح نزل عليه كلام الله، قد آمن بوجود المتكلم قبل الإيمان بالكلام؛ إذ يجب الإيمان بالمتكلم قبل الإيمان بالكلام. فمن الواضح أن الأنبياء ما نالوا اليقين بوجود منـــزِّل الكلام من خلال الكلام النازل عليهم، بل كانوا حائزين على اليقين بشهادة فطرهم الباطنية قبل نزول هذا الكلام.

هذا هو الدليل الذي قدّمه البانديت المحترم عصارةً لعقله على عدم ضرورة كلام الله. ولكن التدبر في الموضوع يؤكد لكل عاقل أن ذلك زعم باطل تماما للبانديت، وقد نشأ في قلبه نتيجة فهمٍ خاطئ لحقيقة أنه يحسب الأمرين المذكورين أدناه اجتماعا للضدين.. أيْ لو نزل كلام الله على عبد غافل غير ملمٍّ بذات الله وصفاته، وإلى جانب ذلك أطلعه الله القادر على ذاته نفسه بواسطة كلامه المقدس، لكان ذلك ضدين لا يجتمعان بحسب رأي البانديت

المحترم. لكن العاقل لا يرى اجتماع هذين الأمرين اجتماعَ ضدين. ما دام الإنسان أيضا قادرا على أن يخبر غيره عن نفسه بكلامه، فكيف لا يمكن أن يخبر الله تعالى عن نفسه بكلامه؟ أليس الله قادرا -عند البانديت المحترم- أن يُطلع أحدا على نفسه بواسطة كلامه الكامل والمقتدر المحتوي على تجليات الألوهية؟ أما إذا انتابت البانديت شبهة أن جميع الأنبياء الذين جاءوا كانوا يوقنون بلا أدنى شك بوجود الله قبل نزول كلام الله عليهم، وبذلك تبين أنهم حازوا على ذلك اليقين بواسطة الفطرة والعقل؛ فليكن واضحا أن هذه الشبهة منشؤها قلة التدبر، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون السبب وراء هذا اليقين مجرد العقل أو الفطرة. لم يولَد الأنبياء في فلاة في معزل عن الناس حتى يقال إنهم لم يطّلعوا على اسم الله -قبل تلقيهم الإلهام- عن طريق سماع يعدّ الإلهام حلقته الأولى؛ بل كانوا يوقنون بوجود الله بعقلهم وفطرتهم. إنما الواضح بداهةً أن اسم الله تعالى قد ذاع في الدنيا بواسطة كلام الله ﷻ الذي نزل على آدم عليه السلام في البداية. إن انتشار اسم الله سبحانه وتعالى على نطاق واسع بواسطة سلسلة الرواة التي بدأت بصحيفة آدم عليه السلام، هو السبب في اطلاع الأنبياء -الذين جاءوا بعده عليه السلام بين حين وآخر لإصلاح الزمان- على وجوده ﷻ قبل تلقيهم الوحي. فقد قبلتْ فورًا فطرة الأنبياء المتحمسة والمستعدة تلك الشهرة الناتجة عن السماع. ثم أوصلهم الله تعالى إلى مراتب عليا من اليقين والمعرفة بواسطة كلامه الخاص، وجبرَ النقص أو القصور الذي أصابهم من قبل نتيجة مجرد السماع.

لقد كتبت من قبل أيضا أن وجود الله سبحانه وتعالى كان معروفا نتيجة سلسلة السماع، وكانت سلسلة السماع مبنية على إلهام نزل على أبي البشر آدم عليه السلام بدايةً. ويكفي دليلا على ذلك أنه من البديهي تماما أن معرفة وجود الله القادر القدير قد حصلت في البداية بواسطة الشيء نفسه الذي لا يزال حائزا قدرةً مستديمة على تلك المعرفة. فتلك القوة المستديمة توجد في كلام الله تعالى فقط؛

لأن هذه القدرة لا تزال موجودة ومشهودة في كلام الله بأنه قادر على أن يطلِع إطلاعا صحيحا -كما يجب- على الأمور المكتومة، وقادر كذلك على بيان الأخبار السابقة، ويستطيع أن يزوّد بمعرفة وجود البارئ تعالى الذي لا تدركه الأبصار معرفة تامة، ويهب اليقين به بطريقته الخارقة للعادة. ويستطيع أن يُطلع مفصَّلا على حقائق العالم الثاني وكيفياته، كما تُصدِّق ذلك تجاربُ الملهَمين الصحيحةُ في العصر الراهن.

ولكن لا توجد هذه الصفة المتميزة في العقل. فمن الثابت المتحقق تماما أنه لو حُرم طفل حديث الولادة من التعليم السماعي كلّيًّا وتُرك أمر معرفته بالله تعالى لعقله فقط، لظل جاهلا تماما بذات الله وصفاته الكاملة وعالَم الجزاء والعقاب فما دام اكتساب المعرفة الحقة عن طريق كلام الله فقط وليس عن طريق العقل، فلا بد للعاقل من التسليم بأن أساس الإيمان والدين هو كلام الله تعالى وليست الأفكار العقلية على الإطلاق. فمع أن القوة العقلية موجودة في الإنسان، ولكنها عديمة الجدوى بغير هدي كلام الله ﷻ. فكما أن قدرة النظر موجودة في العيون، ولكنها عديمة الجدوى دون وجود الضوء، وكما يُثبت ضوء الشمس وجوده ويرشد إلى وجود الشمس أيضا، كذلك فإن كلام الله يثبت أنه من الله تعالى، وكذلك يدل بالقطع واليقين على وجود الله تعالى أيضا بواسطة نوره الذاتي وصدقه وكونه بلا مثيل.

ثم ادّعى الباندیت المحترم في مجلة "دَهرم جِيون" عدد كانون الثاني/يناير ١٨٨٣م أن شخصا فطينا يستطيع أن يؤلف كتابا يماثل القرآن الكريم أو يفوقه من حيث الكمالات.

أقول: إن الباندیت المحترم أيضا شخص فطين، بل يدّعي أنه مصلح لقومه، لذا عليه تقع المسؤولية قبل غيره في أن يؤلف كتابا مثله. وحيث إن القرآن الكريم جامع للحقائق والدقائق مع كمال الإيجاز، وقد بلغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة مع التزام الحق والحكمة والصدق، وزاخر بالنبوءات العظيمة

والأمور الغيبية، ويطهِّر قلوب الطلاب الصادقين وينوِّرها بالنور السماوي نتيجة تأثيراته الطيبة، ويخلق فيهم البركات الخاصة التي لا توجد في الأديان الأخرى، وقد أثبتنا كل هذه الأشياء في كتابنا وقدمنا عليها إثباتات كاملة؛ فإن على البانديت أن يؤلف كتابا بهذه المرتبة والعظمة.

"ما لم تقلْه لا يهمّ أحدا، ولكن عليك أن تأتي بدليل على ما تقوله"[٦٩]

ولكنني أقول للبانديت: لا يسع أحدا قط أن يخلق في كلامه الأمور المذكورة آنفا التي تفوق قدرة البشر، ولكن اجتماعها في كلام الله تعالى ليس ممكنا فقط بل هو ضروري. وكما لا يوجد لله تعالى مثيل ولا نظير، كذلك إن الشيء الذي يصدر منه يجب أن يكون عديم النظير والمثيل أيضا، فيعجز الإنسان عن الإتيان بنظيره. إن الادّعاء الذي قام به القرآن الكريم بكونه عديم النظير في كمالاته ليس في غير محله بل هو قضية قانون الطبيعة، والسلوكُ بموجبه إنما هو من فطنة الإنسان، والانحراف عنه دليل على حمقه وغبائه. فكّروا في أنفسكم وقولوا عدلا وإنصافا: أليس ضروريا من حيث قانون الطبيعة أن يكون كلام الله عديم النظير؟ إن لم يكن ضروريا عندكم وكان اشتراك الآخرين في أفعال الله ﷻ جائزا، فلماذا لا تقولون بصراحة إنكم تشكّون أصلا في كون الله واحدا لا شريك له؟ ألا تفقهون أمرا بديهيا أن وحدانية الله قائمة ما دامت صفاته ﷻ كلها نزيهة عن اشتراك غيره فيها؟ فلو استطاع الإنسان أيضا أن يصوغ كلاما مثله فكأن حقيقة الله قد تبيّنت كلها، أو كُشف سرّ ألوهيته بأسره[٧٠].

هنا أوضح بُغية الفائدة العامة وكقاعدة عامة المرتبة التي لو احتلّها الكلام لصار جديرا بأن يُعَدَّ عديم النظير ومن عند الله تعالى. ثم سأورد سورة من سور القرآن الكريم مثالا وسأثبت من خلالها أن كافة الأوجه لكون الشيء عديم

---

[٦٩] *بيت فارسي مترجم. (المترجم)*

[٧٠] *هنا تبدأ الحاشية الثالثة على الحاشية ١١، وأخرناها إلى الصفحة ٤٩٧. (المترجم)*

النظير المذكورة في القاعدة العامة متحققة في تلك السورة بوجه أتم وأكمل. فلو أنكر أحد بعد ذلك أيضا أوجه كونه عديم النظير لكان من مسؤوليته هو أن يقدم كلاما آخر توجد فيه كافة أوجه كونه عديم النظير.

فليكن واضحا أنه إذا كان الكلام مطابقا تماما لشيء من الأشياء التي صدرت من الله وخُلقت بيد قدرته، بمعنى أنه لو اجتمعت فيه العجائب الظاهرية والباطنية كما اجتمعت في أيٍّ من خلق الله ﷻ لقيل في تلك الحالة أن ذلك الكلام يحتل مرتبة تعجز القوى الإنسانية عن الإتيان بنظيره، لأن الشيء الذي كان مسلَّمًا به عند الخواص والعوام -دون خلاف ونـــزاع- أنه عديم النظير أو صادر من الله تعالى، ثم شاركه شيء آخر في أوجُه كونه عديم النظير، لثبت بلا أدنى شك أن الشيء الأخير أيضا عديم النظير. فمثلا لو تطابق شيء تماما مع شيء آخر طولُه عشرة أمتار لعُلم عن الأول أيضا بعلم صحيح وقاطع يفيد يقينا جازما أن طوله أيضا عشرة أمتار.

والآن أقدم كمثال؛ خَلقًا لطيفًا من خلق الله.. وهو الورد، وأسرد عجائبه الظاهرية والباطنية التي بسببها عُدَّ حائزا على عظمة تعجز قوى الإنسان عن الإتيان بنظيره. ثم سأثبت أيضا أن عجائب سورة الفاتحة وكمالاتها تعادل تلك العجائب كلها، بل كفة كمالاتها راجحة. والسبب في اختيار هذا المثل هو أنني رأيت ذات مرة بعين الكشف سورة الفاتحة في يدي مكتوبةً على ورق، وهي من الجمال وروعة الشكل وكأن الورق الذي كُتبت عليه سورة الفاتحة مليء بالورود الحمراء والناعمة التي لا حصر لها. وكلما قرأت آية من آياتها طارت منها ورود كثيرة إلى الأعلى مع صوت رخيم. وكانت الورود لطيفة جدا وكبيرة الحجم ورائعة الجمال وطرية نضرة وذات رائحة زكية جدا. وعند صعودها إلى الأعلى تعطَّر القلب والذهن إلى أقصى الحدود، وخلقت عالَـــمًا من النشوة؛ وكانت تنفِّر من الدنيا وما فيها بشدة متناهية نتيجة جذب متعتها العديمة المثال.

فهمت من هذا الكشف أن للورد علاقة روحانية بسورة الفاتحة، وبسبب هذه المماثلة اخترتُ هذا المثال. ورأيت من المناسب أن أكتب أولا عجائب الورد الظاهرية والباطنية على سبيل المثال -لكي يتم العمل أيضا بما أُشير إليه في الكشف بكتابة هذا المثال- ثم أكتب مقابلها عجائب سورة الفاتحة الظاهرية والباطنية ليعلم القراء المنصفون أن الميزات التي توجد في الورد ظاهرا وباطنا، التي بسببها عدَّ الإتيان بنظيره مستحيلا عادةً؛ موجودة نفسها بل أفضل منها في سورة الفاتحة.

فليكن معلوما أنه من المسلَّم به عند كل عاقل دون أدنى تردد أو ارتياب أن الورد أيضا يجمع في طياته مثل مخلوقات الله الأخرى ميزات مُثلى لا يقدر الإنسان على الإتيان بنظيرها. وتلك الميزات تنقسم إلى قسمين: أولا تلك التي توجد في صورته الظاهرية؛ ألا وهي أن لونه جميل جدا، بل أجمل ما يكون، وأن رائحته لطيفة وتنعش القلوب وتسحرها، وكيانه الظاهري ناعم جدا وفيه النُضرة والنضارة واللين والرقة والصفاء. وثانيا ما أودع الله الحكيم القدير فيه من الميزات الباطنية فمنها أنه يُفرِح القلبَ ويقويه ويهدّئ مادة الصفراء، كما يقوّي القوى والأرواح كلها، ومقشّع للصفراء والبلغم الرقيق أيضا، وكذلك يقوِّي المعدة والكبد والكِلية والأمعاء والرحم والرئة. وهو مفيد جدا في الخفقان الحاد والغشي وضعف القلب، بالإضافة إلى كثير من الأمراض الجسدية الأخرى. فقد اعتُقد بناء على تلك الميزات من النوعين المذكورين بأنه يحتل مرتبة الكمال؛ بحيث لا يسع أحدا قط أن يصنع زهرة تماثل الورد في جمال لونه وطيب رائحته ونضارته ونعومته ورقّته وصفائه في صورته الظاهرية، وتملك خواص الورد الباطنية.

وإذا طُرح سؤال: لماذا ظُنّ أن القوى البشرية عاجزة عن الإتيان بنظير الورد؟ ولماذا لا يمكن أن يصنع أحد وَردا مثله ويخلق في الورد الزائف الميزات الموجودة في الورد الحقيقي ظاهرا وباطنا؟

فجوابه أن صنع مثل هذا الورد مستحيل على العموم، ولم يتمكن إلى يومنا هذا طبيب أو فيلسوف من إيجاد أدوية يمكن أن يؤدي مزجها إلى تكوين شيء يحمل من حيث الظاهر والباطن الصفات التي يملكها الوردُ سيرةً وصورةً.

واعلموا يقينا أن كل هذه الأوجه لكون شيء عديم المثال توجد في سورة الفاتحة أيضا، بل في كل جزئية صغيرة من القرآن الكريم تقل عن أربع آيات. أولا انظروا إلى صورته الظاهرية تروا ملاحة عباراته وحلاوة بيانه وجودة كلماته. كلامه يتسم بكمال السلاسة والرقة والرونق والبهاء واللطافة، كما يتجلى فيه لوازم حسن الكلام على أكمل وجه لدرجة لا يُتصوَّر المزيد عليه. وهو سالم وبريء تماما من وحشة الكلمات وتعقيد التركيبات. وكل جملة من جُمله فصيحة وبليغة للغاية، وكل تركيب من تركيباته جاء في محله المناسب تماما. وقد رُوعي فيه كل أسلوب يزيد في حسن الكلام ويكشف رونق العبارة. وكل ما يمكن تصوُّره من علو مرتبة البلاغة وحسن البيان فهو موجود وملحوظ فيه على أكمل وجه. وكل ما يُحتاج إليه من حسن البيان بُغية ترسيخ المراد في القلوب فهو مهيأ فيه كله. وإلى جانب بلاغة المعاني والالتزام بحسن الكلام بوجه كامل مليء بشذى الصدق والحق. لا توجد فيه مبالغة يشوبها الكذب قيد ذرة، ولا توجد فيه عبارة محبّرة استُخدمت فيها نجاسة الكذب أو رائحة الهزل الكريهة، ولغو الحديث مثل الشعراء. فعلى عكس ما يكون كلام الشعراء مليئا برائحة الكذب والهزل ولغو الحديث الكريهة، مُلئ هذا الكلام بشذى لطيف للصدق والحق والطيبة. وإلى جانب هذا الشذى جُمع فيه حسن البيان وجَودة الألفاظ ورونق العبارة ونزاهتها، كما جُمعت في الورد ملاحة لونه وصفاؤه إلى جانب شذاه الطيب. هذه هي الميزات الفريدة الظاهرية. أما خواص سورة الفاتحة الباطنية فمنها أنها تشمل علاجا ناجعا للأمراض الروحانية المستعصية، وفيها وسائل كثيرة لتكميل القوة العلمية والعملية، وتصلح مفاسد كبيرة. وقد ذُكرت فيها المعارف والدقائق واللطائف

العظيمة التي ظلت خافية عن أعين الحكماء والفلاسفة. وبقراءتها يزداد قلب السالك يقينا، ويُشفى من مرض الشك والشبهة والضلال. إن مضمونها المبارك زاخر بأنواع الصدق العظيم والحقائق الدقيقة الكثيرة التي لا بد منها لتكميل النفس. وواضح أن اجتماع تلك الكمالات في كلام الناس مستحيل كاستحالة إتيان أحد بكمالات الورد. وإن هذه الاستحالة ليست نظرية، بل بديهية؛ لأن الله تعالى قد بيّن الدقائق والمعارف السامية في كلامه الفصيح والبليغ عند الضرورة الحقة، وأظهر الميزات الظاهرية والباطنية على أحسن وجه مُبلِغًا كِلا الجانبينِ "الظاهر، والباطن" أعلى مراتب الكمال مع مراعاة الشروط الهامة. بمعنى أنه سجل أولا المعارف السامية والضرورية التي اندرست معالمها وعفَت من التعاليم السابقة، ولم يسبق حكيمٌ أو فيلسوف إلى تلك المعارف العالية. ثم لم يسجلها ﷻ من غير ضرورة أو عبثا، بل بيّنها حين كانت الحاجة لبيانها ملحّة لإصلاح العصر، وكان من شأن عدم بيانها أن يجلب الدمار والهلاك للدهر، كذلك لم يسجِّل تلك المعارف العالية بصورة ناقصة أو غير مكتملة، بل جاءت على أكمل وجه كيفا وكمًّا، بحيث ليس لعاقل أن يقدِّم حقيقة دينية بقيت خارج نطاقها، ولم تبق شبهةُ مُبطِلٍ لم تُدحَض في هذا الكلام. إن الإتيان بكمالات الفصاحة والبلاغة هذه التي لا يُتصوَّر أكثر منها، مع التزام جميع كمالات الحقائق والدقائق هذه التي ترتبط من ناحية ثانية بالضرورات الحقة؛ عمل جبّار جدا ويفوق قوى البشر بالبداهة. ولكن الإنسان غِرٌّ تعوزه البراعة؛ فلو أراد أن يكتب حتى الأمور الأدنى والبسيطة -التي لا علاقة لها بالحقائق السامية- بعبارة محبَّرة وفصيحة مع التزام صدق المقال وقول الحق، لما أمكنه ذلك أيضا. كما هو بديهي تماما عند كل عاقل أنه إذا كان هناك صاحب محلٍّ مثلا، وهو في الوقت نفسه شاعر وأديب من الدرجة الأولى، وأراد أن يكون حديثه الذي يضطر له كل يوم مع زبائنه المختلفين وأصحاب العلاقة معه متسما بكمال البلاغة والعبارة المحبَّرة، وأن يراعي في كلامه مقتضى الحال

أيضا؛ بمعنى أنه إذا كان بحاجة إلى حديث وجيزٍ أوجزه، وإن دعت الحاجة للإسهاب أسهب، وإذا اضطر للنقاش مع زبون سلك مسلكا يضمن كسب النقاش لصالحه فيستحيل أن يبلغ مراده. أو أن يكون هناك حاكم مثلا وشغلُه تسجيل إفادات الفريقين والشهود بدقة، والقيامُ بالنقد والطعن اللازم فقط عند كل إفادة، كما يُشترط لتنقيح القضية وبما يناسب التحقيق في الأمر المتنازَع فيه، وأن يطرح السؤال حين تقتضي الحاجة للسؤال ويسجل الجواب في حينه، وأن يبين الأوجه القانونية على أحسن وجه وفق القانون كلما اقتضت الحاجة للبيان، وإذا وجب كشفُ الأحداث بحسب الترتيب كشَفَها مراعيا الترتيب والصحة، ثم يبين بكمال الصحة رأيه وجميع الأوجه التي تؤيد هذا الرأي، وأن يكون كلامه إلى جانب كل هذه الالتزامات على درجة عليا من الفصاحة والبلاغة التي لا يسع أحدا الإتيان بأفضل منها؛ فمن المستحيل عليه بالبداهة أن يوصل كلامه هذه الدرجة من البلاغة. هذه هي حالة فصاحة الإنسان؛ فهو لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة دون لغو الكلام وعابثه وما لا لزوم له. ولا يتفوه الناس بشيء بغير الكذب والهزل، وإذا تفوهوا كان كلامهم ناقصا. فمثلهم في ذلك كمثل رسم صورة، فلو رسموا فيها أنفًا أسقطوا أذنا، وإذا رسموا الأذن فُقدت العينُ. بمعنى أنه إذا صدقوا القول ضاعت الفصاحة، وإذا اهتموا بالفصاحة جمعوا كومة من الكذب ولغو الكلام. وكان مثله كمثل البصلة التي هي مجموعة قشور لا شيء بداخلها.

فما دام العقل السليم يحكم بصراحة تامة أنه لا يمكن بيان الأمور البسيطة والأحداث الواهية أيضا بعبارات محبّرة وبليغة وبالتزام الصدق والضرورة الحقة، فما أسهل فَهْمَ أن بيان المعارف السامية بعبارة محبرة في قمة الفصاحة والصفاء وبالتزام الضرورة الحقة، هو أمر خارق للعادة وبعيد عن قدرة البشر كل البُعد. وكما أنه من المستحيل أن تُصنع زهرة تشبه الورد ظاهرا وباطنا، كذلك يستحيل تماما ما ذكرناه آنفا، لأنه ما دامت التجربة الصحيحة تشهد في الأمور

البسيطة، وأن الفطرة السليمة أيضا تقبل أنَّ الإنسان لو أراد أن يبيّن كلامه الضروري والسديد -سواء أكان يتعلق بأمر من أمور البيع والشراء أو تفصِّيات المحكمة وغيرها- بصورة أصلح وأنسب، لاستحال أن يكون كلامه مناسبا وموزونا دائما ومسجَّعا وفصيحا وبليغا ومحتلا أعلى درجات الفصاحة والبلاغة وأن يكون إضافة إلى التزامه بالصدق والحق زاخرا بمعارف الصدق والحقائق العالية، وأن يصدر عن ضرورة حقة، ويحيط بالحقائق الواقعة، ولا يقصِّر أدنى تقصير في مهمته لإصلاح الحالة السائدة وإتمام الحجة وإفحام المنكرين، وأن يراعي كافة جوانب المناظرة والبحث كما هو حقها، ويشمل جميع الأدلة الضرورية والبراهين المهمة والتعليم الضروري والأسئلة والأجوبة الضرورية، فأنى لكلام البشر أن يجمع في طياته -مع وجود المشاكل المعقدة التي تزداد على الحالة الأولى بمئات المرات- كل هذه الأمور مع التزام الفصاحة والبلاغة التي لا نظير لها ولا مثيل؛ بحيث لا يمكن بيان ذلك الموضوع بعبارة أفصح من ذلك؟

فهذه هي الأوجه التي توجد في سورة الفاتحة والقرآن الكريم، وتتطابق كليا مع الورد في ميزاته. وبالإضافة إلى ذلك هناك ميزة عظيمة أخرى في سورة الفاتحة والقرآن الكريم خاصةٌ بهذا الكلام المقدس وحده؛ وهي أن قراءته بتركيز وإخلاص تطهِّر القلب وتزيل الأغشية المظلمة وتشرح الصدر وتجذب طالب الحق إلى الله تعالى وتجعله مورد الأنوار والتأثيرات التي يجب وجودها في المقربين إلى الله تعالى، ولا يسع أحدا أن ينالها بحيلة أو خطة أخرى قط. وقد أثبتُّ في هذا الكتاب وجود ذلك التأثير الروحاني أيضا. وإذا كان هناك طالب حق فأنا جاهز أن أثبت له ذلك وجها لوجه، ومستعد أيضا أن أثبته في كل حين وآن.

ويجب التذكر جيدا أن كون القرآن الكريم عديم النظير والمثال من حيث كلامه لا يقتصر على الأدلة العقلية فقط، بل إن التجربة الصحيحة الممتدة على زمن طويل أيضا تؤيد وتصدّق ذلك؛ فمع أن القرآن الكريم لا يزال يُقدِّم ميزاته منذ ١٣٠٠ عام على التوالي ويعلن بأعلى صوته: "هل من معارض؟" ويتحدى

الدنيا كلها بأعلى صوته بأنه عديم النظير والمثيل من حيث صورته الظاهرية وخواصه الباطنية، ولا يقدر جنٌّ ولا إنسٌ على مواجهته أو منافسته؛ فمع ذلك ما وسع نفسا منفوسة أن تنبس مقابله ببنت شفة، بل لم يقدر أحد على مواجهة الميزات الظاهرية والباطنية حتى لسورة قصيرة منه كسورة الفاتحة. فأيّة معجزة أوضح وأكثر بداهة من أن يتبين كون هذا الكلام المقدس فوق القوى البشرية عقلا أيضا؟ كذلك تشهد التجربة الصحيحة الممتدة على زمن طويل على مرتبته المعجزة. وإذا كان هناك أحد لا يقبل هاتين الشهادتين اللتين بلغتا مبلغ الثبوت من حيث العقل والتجربة الممتدة على زمن طويل، بل يعتز بعلمه وبراعته أو يثق ببراعة إنسان أنه يستطيع أن يصوغ كلاما مثل القرآن الكريم، فأسجل هنا على سبيل المثال، كما وعدتُ سابقا، بعضا من حقائق سورة الفاتحة ودقائقها، ويجب على المنكر أن يقدم كلامه مقابل ميزات سورة الفاتحة الظاهرية والباطنية. ولكن قبل تفصيل حقائق سورة الفاتحة أقول مكررا بلا خوف من الإطالة، بأنه يجب على المعارض أن يتذكر جيدا، كما قلت آنفا، أن في سورة الفاتحة -مثل القرآن الكريم- ميزتين فريدتين؛ أي الظاهرية والباطنية. الميزات الظاهرية كما ذكرتُ مرارا هي أن عباراتها محبَّرة وفيها رونق وبهاء ونعومة ولطافة وبلاغة وحلاوة وسلاسة ويتجلى فيها حسن البيان وحسن الترتيب بحيث لا يمكن أداء هذه المعاني في عبارة أخرى أفصح منها أو مثلها. ولو اجتمع الأدباء والشعراء من العالم كله وأرادوا أن يكتبوا الموضوع نفسه من عند أنفسهم بعبارات أخرى تعادل عبارة سورة الفاتحة أو أفضل منها، لاستحال ذلك حتما؛ لأن القرآن الكريم يدّعي على الملأ تفردّه منذ ١٣٠٠ عام. فلو أمكن لمعارض لتصدى له حتما، علمًا أن عدم التصدي لمثل هذا الادّعاء يُثبت هوان المعارضين جميعا وخزيهم، ويدل على عظمة القرآن الكريم وشوكته. فلما لم يُقدِّم أحد من المعارضين عبارة مثل القرآن الكريم منذ ١٣٠٠ عام؛ فإنّ عجْز جميع المعارضين عن تقديم الـمِثل، وقبولَهم لأنفسهم كافة

أنواع الإهانة والندامة واللعنة التي تقع على الكاذبين الذين لا يُسعفهم جوابٌ أثناء هذه المدة الطويلة كلها، يدل بصراحة تامة على أن قدرتهم العلمية عاجزة عن المواجهة. وإنْ لم يقبل أحد هذا الأمر فعليه تقع مسؤولية الإتيان بنظير عبارة القرآن الكريم بنفسه أو طلب ذلك من أحد أنصاره. فيمكنه مثلا أن يصوغ انطلاقا من مضمون سورة الفاتحة عبارة فصيحة تساويها كمالا وفصاحة وبلاغة. وما لم يفعل ذلك، فلا يمكن بحال من الأحوال تضعيف جواب أهل الحق الذي في أيديهم نتيجة صمت المعارضين ووجومهم منذ ١٣٠٠ عام. بل إن سكوت المعارضين إلى مئات السنين وعدم قدرتهم على الجواب، قد أوصله إلى مرتبة الثبوت الكامل التي لا يبلغها الورد وغيره أيضا من حيث كونه عديم النظير، لأنه لم يتم ترغيب حكماء الدنيا وصنَّاعها إلى هذا الحد في مواجهة أيّ شيء آخر، ولم يتم تخويفهم أيضا بأنه سوف يحل بهم أنواع الدمار والهلاك في حالة عجزهم عن الإتيان بمثله.

فمن الواضح أن البداهة والرونق والبهاء الذي يثبت به كون بلاغة القرآن الكريم وفصاحته فوق قوى البشر، لا تثبت بالمستوى نفسه للورد ميزاته وجمال لونه قط.

فهذا بيان موجز لميزات سورة الفاتحة والقرآن الكريم الظاهرية، وبواسطته قد ثبت أنه عديم النظير والمثال ويفوق قدرات البشر؛ وذلك من خلال عجز المعارضين.

والآن أعيد ذكر الميزات الباطنية أيضا لكي تترسخ جيدا في أذهان المتدبرين. فليكن معلوما أنه كما أودع الله الحكيمُ القدير الوردَ منافع متنوعة لجسد الإنسان؛ منها أنه يقوّي القلب والقوى والروح، ويفيد في أمراض عديدة، كذلك أودع ﷻ سورة الفاتحة شفاء للأمراض الروحانية، مثل القرآن الكريم كله. وفيه علاج للأسقام الباطنية لا يوجد في غيره مطلقا، لأنه مليء بالحقائق الكاملة التي كانت قد اندرست من وجه الأرض ولم يعد لها في الدنيا أثر قط؛

فلم يأت هذا الكلام المقدس إلى الدنيا عبثا أو دون جدوى، بل تجلّى هذا النور السماوي حين كانت الدنيا بأمسّ الحاجة إليه. وقد جاء بالتعاليم التي كان نشرها في العالم كان ضروريا لإصلاحه. فالتعاليم المطهَّرة التي مسّت الحاجة لها، والمعارفُ التي ألــحَّت الضرورة لنشرها فقد بيّنها هذا الكلام عند الحاجة بفصاحةٍ وبلاغة عديمة المثال وفي الوقت المناسب تماما. وبالإضافة إلى الالتزام بذلك، لم يترك شيئا ولا قيد شعرة مما كان بيانه ضروريا لهداية الضالين ولإصلاح الحالة السائدة. أما ما كان غير ضروري وسخيفا وعبثا، فلم يتطرق منه شيء إلى أية جملة إطلاقا.

فباختصار، إن العظمة والبركة الكبرى للأنوار والحقائق المقدسة -إلى جانب الشأن العظيم الذي تمتلكه، لكونها معارف عالية- هي أنها ما أُظهرت للعيان عبثا ودون فائدة، بل قد أُظهرت تلك الحقائق في وقت الضرورة تماما بكل قوة وشدة كالغيث المغيث لنشر النور ورفع كل نوع من الظلمة المنتشرة في الدنيا، ولإزالة كل نوع من الجهل والفساد الذي ساد العالم في الأمور العلمية والعملية والعقدية. والحق أنه كان هو الغيث المغيث الذي نزل من السماء لإنقاذ المصابين بالظمأ الشديد. والحق أن حياة الدنيا الروحانية كانت تعتمد على أن ينــزل من السماء ماء الحياة هذا، ولم تكن هناك قطرة واحدة منه إلا وكانت دواء لمرض من الأمراض السائدة. وقد برهنت حالة الدنيا السائدة بثبوتها على ضلالها المعهود إلى مئات السنين أنها لا تجد من تلقاء نفسها علاجا لهذه الأسقام إلا بنــزول هذا النور، ولا تقدر على رفع ظلماتها بنفسها، بل هي بحاجة إلى نور سماوي من شأنه أن ينور الدنيا بأشعة صدقه ويبصِّر الذين لم يبصروا قط، ويفهِّم الذين لم يفهموا قط. فإن هذا النور لم يقدِّم إلى العالم الأنوار الحقة الضرورية فحسب التي لم يكن قد بقي لها أثر، بل ملأ أيضا بقوته الروحانية صدورا كثيرة بجواهر الحق والحكمة، وجذب إلى وجهه الجذاب والباهر قلوبا كثيرة، وأوصل الكثيرين بتأثيره القوي إلى مرتبة عليا من العلم والعمل.

فالميزات، من كِلا النوعين المذكورين، التي توجد في سورة الفاتحة والقرآن الكريم كله تمثّل أدلة نيّرة لإثبات تفرّد كلام الله كمثل ميزات الورد التي عُدَّت عند الجميع فوق قدرات البشر. بل الحق أنه ليس في الورد قط مثل هذه الميزات في خرقها للعادة وفي كونها فوق قدرة البشر بداهة. إن عظمة تلك الميزات وشوكتها وندرتها تتبين بجلاء حين يتأمل فيها الإنسان بصورتها الشاملة ويتدبر كيفيتها الكلّية بنظرة شاملة. فمثلا، لو تخيَّل الإنسان كلامًا تبلغ عبارته درجة عليا من الفصاحة والبلاغة واللطافة والحلاوة والسلاسة وحسن البيان والعبارة المحبّرة، بحيث لو أراد أحد أن يصوغ من عنده عبارة مثلها تشمل المعاني نفسها بالتمام والكمال، فلا يمكن على الإطلاق أن تبلغ عبارته تلك الدرجة من البلاغة والحلاوة. ثم لو تخيل الإنسان فكرةً ثانية بأن يكون مضمون تلك العبارة محتويا على الحقائق والدقائق التي تمثل حقائق عظيمة في الحقيقة ولا توجد فيها جملة أو لفظ أو حرف لا يحتوي على بيان حكيم، ثم تخيل فكرةً ثالثة بأن تكون تلك الحقائق من النوع الذي يحتاج إليها الزمنُ بشدة متناهية، ثم تخيل فكرةً رابعة بأن تكون تلك الحقائق فريدة من نوعها لا يُعثر على حكيم أو فيلسوف يكون قد كشفها بفكره وتدبره، ثم تخيل إضافة إلى ذلك فكرةً خامسة بأن تظهر تلك الحقائق في زمن ظهورها كمثل نعمة متجددة كان الناس قبل ظهورها يجهلون ذلك الصراط المستقيم كليا، ثم تخيل فكرة سادسة بأن تتحقق في ذلك الكلام بركة سماوية إذا تبعه طالب حقٍّ أدى إلى نشوء علاقته الوطيدة وأُنسه الحقيقي بالله تعالى، وأن تلمع فيه الأنوار التي يجب لمعانها في رجال الله. فهذه المجموعة كلها تلاحظ متحققة بحيث يحكم العقل السليم دون أدنى تردد أن احتواء كلام البشر على كل هذه المراتب الكاملة مستحيل ومحال وخارق للعادة. ومما لا شك فيه أن النظرة الشاملة إلى جميع تلك الفضائل الظاهرية والباطنية تؤدي إلى حالة مهيبة تؤكد للعاقل أن تحقُّق هذه المجموعة كلها بقوى البشر يفوق إدراك العقل والقياس. ولا توجد هذه الحالة

المهيبة في الورد قط، لأن في القرآن الكريم ميزة إضافية أن صفاته المذكورة التي هي مدار تفرّده بديهية الثبوت بكل المعايير. ولهذا السبب، عندما يعرف المعارض أن ليس في كلامه ولو حرف واحد ينحرف عن جادة الحق والحكمة، ولا توجد جملة واحدة غير ضرورية أشد الضرورة لإصلاح الدهر، وكذلك حين يرى كمال بلاغته بأنه ليس ممكنا بحال من الأحوال استبدال سطر واحد منه بسطر آخر؛ يستولي على قلبه هيبة شديدة بمشاهدته هذه الكمالات البديهية.

أما الجاهل الذي لم يفكر بهذه الأمور قط فقد يطرح لجهله سؤالا: ما الدليل على أن كل هذه الميزات ثابتة ومتحققة في سورة الفاتحة وفي القرآن الكريم كله؟ فليكن واضحا أن الدليل على ذلك هو أن الذين فكروا في كمالات القرآن الكريم النادرة ووجدوا عباراته على درجة عليا من الفصاحة والبلاغة بحيث عجزوا عن الإتيان بنظيره، ثم رأوا حقائقه ودقائقه على مرتبة سامية لم يجدوا نظيرها في العالم كله، وشاهدوا فيه من التأثيرات العجيبة التي لا تلاحَظ في كلمات الإنسان قط، ثم رأوا فيه صفة طيبة وهي أنه لم ينـــزل على سبيل الهزل والعبث، بل جاء في وقت الضرورة الحقة بعينها؛ اعترفوا عفويا بعظمته النادرة عند مشاهدتهم هذه الكمالات. أما الذين ظلوا محرومين من نعمة الإيمان لشقاوتهم الأزلية، فقد استولى على قلوبهم أيضا رعب هذا الكلام عديم النظير وهيبته، حتى قالوا مبهوتين مبهورين: "إن هذا إلا سحر مبين".

ثم يجد المنصف دليلا قويا وإثباتا واضحا على أن القرآن عديم النظير من خلال أمر آخر أيضا؛ وهو أنه مع أن القرآن الكريم لا يزال يثير غيرة المعارضين وحماسهم للمواجهة منذ ١٣٠٠ عام، ويسمي المعارضين الذين ينكرونه -مع عدم قدرتهم على الجواب- أشرارا ونجسين وملعونين وأهل جهنم؛ إلا أن المعارضين مع ذلك قبلوا لأنفسهم كل إهانة وذلة وخزي بكمال الوقاحة كالعِنِّين والمخنّثين، ورضوا بأن يسمَّوا كذابين وأذلاء ووقحين وخبثاء ونجسين

وأشرارا وملحدين وأهل جهنم، ولم يقدروا على مبارزة سورةٍ قصيرة، ولم يتمكّنوا من أن يجدوا عيبا في الميزات والصفات والعظمة والحقائق التي قدمها كلام الله سبحانه وتعالى. بينما كان ولا يزال واجبا على معارضينا إذا كانوا لا يريدون أن يتخلوا عن كفرهم وإلحادهم، أن يأتوا بنظير لسورة من سور القرآن الكريم ويقدِّموا لنا من باب المواجهة كلاما يحمل في طياته كافة الميزات الظاهرية والباطنية التي تتحلى بها أقصر سورة من سور القرآن الكريم؛ أيْ أن تكون عبارته على درجة عليا من البلاغة مع التزام الصدق والحق والضرورة الحقة، بحيث يستحيل تماما لأي بشر الإتيان بتلك المعاني بعبارة فصيحة أخرى مثلها، وأن يكون مضمونه محتويا على حقائق عليا لم تُكتَب عبثا بل أوجبت الحاجاتُ الملحة تحريرها، وكانت الدنيا كلها تجهلها تماما قبل ظهورها للعيان، وأن يكون ظهورها نعمة بديعة. ثم يجب أن تتحلى إلى جانب كل تلك الميزات بخاصية روحانية بأن تتوفر فيها -مثل القرآن تماما- التأثيرات الواضحة التي أثبتُّها في هذا الكتاب وما زلتُ جاهزا لإثباتها لكل طالب صادق في كل حين. وما لم يأت معارض بمثلها، فإنّ عجزه عن ذلك يؤكد أن القرآن الكريم عديم النظير. وإنّ أوجه تفرّد القرآن الكريم التي سجلتها هنا قد ذكرتها بإيجاز شديد.

ولو جعلنا ميزاته الأخرى كلها أيضا شرطا واجبا للإتيان بنظيره كأنْ نقول للمعارضين: عليكم أن تستخرجوا لنا من كلامكم المنافس الميزات التي توجد في القرآن الكريم مثل شمولية المعارف الدينية -إذ ما من حقيقة دينية بقيت خارجه- والإحاطة بمئات الأمور الغيبية والتنبؤ بأمور دالة على القدرة المطلقة التي تنبئ عن مكرمته وذلة الأعداء، وازدهاره ودمار الأعداء، وانتصاره وهزيمة الأعداء، فإن هذا الشرط سوف يجلب لهم دمارا على دمار، وموتا بعد موت. ولكن لما كانت ميزات القرآن الكريم التي سجلناها من قبل كافية لإفحام العدو العَمِه وإدانته وإثبات عجزه، وستجلب على معاندينا حالة سيكونون بسببها أسوأ من الميتين؛ فإن تقديم جميع الميزات القرآنية بُغية طلب نظيره ليس ضروريا.

كذلك إن تحرير جميع الميزات سيزيد صفحات الكتاب كثيرا، فاكتفيتُ بهذا القدر فقط وعَدَدتُ ذلك سلاحا ماضيا لقتل المؤذي. ومع أني قد طلبت من المعارضين نظير أقصر سورة من القرآن الكريم تخفيفا عليهم وشفقة بهم، فمع ذلك فإنه معلوم لدى كل خبير أنهم ظلوا عاجزين منذ القِدم وما زالوا عاجزين عن المبارزة والمواجهة ولم يجد أحد منهم مجالا لأن ينبس ببنت شفة مع شدة حرصهم على ذلك، ومع شدة عنادهم ومعارضتهم وعداوتهم من الدرجة القصوى. ومع أن عجزهم عن المواجهة يُثبت أنهم أذلاء مهانون ومن أهل جهنم ويُطلِق عليهم لقب الكفار والملحدين ويسميهم وقحين وعديمي الحياء. ومع ذلك لم يصدر من أفواههم صوت، وكأنهم ميّتون. وإن في قبولهم كل نوع من الذلة الناتجة عن عدم تمكّنهم من الجواب، وتسليمهم بإطلاق كافة أنواع الأسماء الحقيرة على أنفسهم، وقبولهم كل نوع من الوقاحة وعدم الحياء دليلا بيّنا على أنه لا تقوم لهؤلاء الخفافيش الدنيئة قائمة أمام شمس الحقيقة هذه. فما دامت أشعة شمس الصدق هذه تصدر من كل حدب وصوب بحيث يعمى أمامها أعداؤنا أصحاب السيرة الخفّاشية، فمن مكابرتهم وجهلهم الشديد في هذه الحالة أن يعدّوا القوى البشرية عاجزة عن الإتيان بنظير ميزات الورد - وهي أضعف وقليلة الثبوت مقابل ميزات القرآن الكريم العديمة النظير- ويظنّوا أن البشر قادرون على الإتيان بنظير ميزات القرآن الكريم العظيمة التي هي أفضل وأسمى كثيرا من ميزات الورد الظاهرية والباطنية، وقوية الثبوت. وما دام الإنسان غير قادر على أن يصنع نظيرا للورد الذي يُرى نضرا ويسرّ الناظرين لسويعات معدودة ثم يذبل ويسوء منظره ويبهت لونه الجميل أيضا وتتناثر أوراقه وتسقط، فأنّى له أن يواجه ذلك الورد الحقيقي الذي قدّر له الله المالك الأزلي سبحانه وتعالى ربيعا مستديما وحفظه إلى الأبد من صدمات ريح الخريف، والذي لا تقلّ نضرته ونضارته وطراوته ونعومته وجماله ولطافته أبدا، ولا يتطرق إلى وجوده المبارك ذبول ولا خمول، بل كلما مرّ عليه الدهر تبيّنت نضارته وطراوته

أكثر من ذي قبل، وانكشفت عجائبه أكثر فأكثر، وتبينت للناس حقائقه ودقائقه باستمرار وكثرة؛ أفليس إنكار الفضائل العظيمة لهذا الورد الحقيقي ومراتبه أقصى درجات العماية الباطنية؟

على أية حال، إذا كان هناك شخص عمِهٌ إلى هذه الدرجة ولا يُدرك عظمة شأن هذه الميزات لعماه، فعليه تقع مسؤولية الإتيان بنظير كلام الله الذي أثبتنا من أوجهٍ متنوعة أن هذا الكلام المقدس عديم النظير ويفوق على قدرات البشر. وعليه أن يُريَ في كلام بشرٍ من الكمالات الظاهرية والباطنية ما أثبتنا وجوده في كلام الله. والآن أكتب فيما يلي بعضا من دقائق سورة الفاتحة وحقائقها إتماما للحجة. فأنقل سورة الفاتحة بكاملها أولا ثم أشرع في تحرير معارفها السامية: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾

ففيما يلي تفسير السورة مع ذكر بعض معارفها وحقائقها نموذجا: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.. هذه هي الآية الأولى من آيات هذه السورة، وقد وردت البسملة في بداية سور أخرى أيضا في القرآن الكريم، كما وردت في مكان آخر أيضا في القرآن الكريم. ولم تُكرَّر آية أخرى في القرآن مثل تكرار هذه الآية. ولأن المسنون في الإسلام أن هذه الآية تُقرأ تيمُّنًا واستعانة في بداية كل عمل أُريدَ فيه الخير والبركة، لذا فقد اشتهرت هذه الآية بين الأعداء والأصدقاء، والصغار والكبار لدرجة أنه إذا كان هناك شخص يجهل الآيات القرآنية كلها، فمع ذلك يُؤمَل أملا قويا ألا يجهل هذه الآية.

وإليكم الآن ما تحويه هذه الآية من الحقائق الكاملة. فمن جملتها أن الهدف الحقيقي من نزولها أن يُعلِّم العبادُ الضعفاء والغافلون أن الاسم الأعظم لذاتٍ واجبة الوجود؛ وهو "الله" بحسب المصطلح الرباني المذكور في القرآن الكريم، يُطلَق على الذات الجامعة لجميع الصفات الكاملة والمنـزَّهة عن جميع الرذائل؛

وهو المعبود الحق والواحد الذي لا شريك له ومبدأ جميع الفيوض. ولهذا الاسم الأعظم صفات كثيرة، وقد ذُكِرت اثنتان منها في البسملة، وهما: "الرحمن" و"الرحيم"؛ وهاتان الصفتان اقتضتا نزول كلام الله وصدور أنواره وبركاته. وبيان ذلك أن نزول كلام الله المقدس في الدنيا وإطلاع العباد عليه إنما هو مقتضى صفة "الرحمن". لأن كيفية صفة الرحمانية -كما سأفصّل ذلك لاحقا أيضا- هي أنها تعمل عملها بمحض فضل الله وجُوده وعطائه دون أن يسبقها عمل عامل، كما خلق الله تعالى الشمس والقمر والماء والهواء وغيره لصالح الناس. فإن هذا الجُود والعطاء كله هو نتيجة صفة الرحمانية، وليس لأحد أن يدّعي أنها خُلقت جزاء على عمل من أعماله. كذلك إن كلام الله الذي نزل لإصلاح العباد وهدايتهم فقد نزل نتيجة هذه الصفة، وما من نفس منفوسة يسعها الادّعاء أن كلام الله المقدس الذي يشمل شريعته ﷻ، قد نزل جرّاء عملٍ من أعماله أو مجاهدة من مجاهداته أو أجرًا على طهارته الباطنية. لذا فإن كلام الله الكامل والمقدس الذي جاء إلى الدنيا بفرائضه ﷻ وأحكامه وأطلع خلق الله على مشيئته، قد نزل في الوقت المناسب تماما حين كانت الحاجة لنـــزوله ملحّة، مع أنه قد خلا إلى يومنا هذا آلاف من الذين ادّعوا الطهارة الباطنية وعاشوا عيش الزهد والعبادة. بيد أنه من المحتوم تماما ألا ينـــزل كلام الله المقدس إلا على الأطهار الذين يحتلون مكانة عليا في القدسية والطهارة الباطنية، لأنه لا انسجام ولا علاقة بين الطيب والنجس. ولكن ليس ضروريا على الإطلاق أن تستلزم القداسة والطهارة الباطنية نـــزول كلام الله دائما، بل إن نزول شريعة الله الحقة وتعليمه مرتبط بالضرورات الحقة. فحيثما نشأت الضرورات الحقة وبدا نزول كلام الله لإصلاح الزمن واجبا، أنزل الله الحكيم القدير كلامه في ذلك الزمن. وإن كان هناك مئات الآلاف من الناس متصفين بصفة التقوى والطهارة في أيّ زمن آخر، ومهما كانوا متحلين بالقدسية والطهارة الباطنية، فلا ينـــزل عليهم كلام الله الكامل الذي يشمل الشريعة

الحقة قط. غير أن بعضا من هؤلاء الأطهار باطنيا يحظون بمكالمات الله تعالى ومخاطباته، وذلك أيضا إذا كانت لها ضرورة حقة بحسب حكمة الله ﷻ. والفرق بين كِلا النوعين من الضرورات هو أن الشريعة الحقة تنـــزل حين ينحرف الناس عن جادة الاستقامة بسبب الضلال، وتكون هناك -لإعادتهم إلى الصراط المستقيم- حاجة لشريعة جديدة تستطيع أن تتدارك جيدا آفاتهم السائدة، وترفع ظلمتهم وظلامهم بنورها كليا ببيانها الكامل والمقنع، وتقدر بواسطة بيانها القوي على القيام بمعالجة مطلوبة لحالة الزمن الفاسدة. أما المكالمات والمخاطبات التي يحظى بها أولياء الله فلا ضرورة في أغلب الأحيان للحاجة العظمى المذكورة آنفا، بل يكون المراد من تلك المكالمات أن يُخلَع على الولي لباس الصبر والاستقامة عند المصيبة أو المحنة، أو يُبشَّر عند غلبة الهمّ والحزن. أما الكلام الكامل والمقدس الذي ينـــزل على أنبياء الله ورسله فينـــزل، كما بيّنت قبل قليل، عندما تطرأ الضرورة الحقة حين يكون البشر بحاجة ماسة إلى نزوله.

فباختصار، إن الموجب الحقيقي وراء نزول كلام الله ﷻ هو الضرورة الحقة؛ فعندما يظلم الليل كله ولا يبقى للضوء أثر، تُدركون فورا أن طلوع الهلال الجديد قريب. كذلك حين تغلب على الدنيا ظلمة الضلال بشدة يرى العقل السليم أن طلوع هذا الهلال الروحاني قريبا جدا. كذلك حين تسوء حالة الناس بشدة بسبب إمساك المطر، يترقّب العقلاء نزول الغيث قريبا جدا. وكما حدد الله تعالى بعض الشهور لهطول الأمطار في قانونه المادي (أي الشهور التي يكون فيها خلق الله تعالى بأمس الحاجة إلى المطر في الحقيقة) فلا يُستنتج من المطر الذي يهطل في تلك الأشهر أن الناس في تلك الأشهر المعينة يكسبون الحسنات أكثر، ويتورطون في أشهر أخرى في الفسق والفجور، بل يجب أن يُفهم من ذلك أن الزروع تكون بحاجة إلى المطر في تلك الأشهر، وإن نضرة بقية أشهر العام وخضرتها تعتمد على نزول الأمطار في تلك الأشهر بالذات. كذلك إن

طهارة أحد أو تقواه ليس مدعاة لنــزول كلام الله ﷻ، بمعنى أنه لا يمكن أن تكون العلة الموجبة لنــزول ذلك الكلام الإلهي أن فلانا كان مقدسا وطيب الباطن جدا أو كان متعطشا للصدق وحريصا عليه، بل كما قلنا مرارا: إن الموجب الحقيقي لنــزول الكتب السماوية هو الضرورة الحقة.. أي الظلمة التي تسود العالم وتقتضي نورا سماويا لينــزل ويزيل الظلام. فإلى ذلك أشار الله تعالى في كلامه المجيد إشارة لطيفة فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.. فمع أن هذه الليلة هي ليلة عظيمة بحسب معناها المتداول، ولكن يبدو من إشارات القرآن الكريم أن حالة الدنيا المظلمة أيضا في حكم ليلة القدر من حيث ميزاتها الخافية، وأن للصدق والصبر والزهد والعبادة في هذه الأيام المظلمة قدرا عظيما عند الله تعالى. وإنها لتلك الحالة من الظلمة التي بلغت أوجها في زمن بعثة النبي ﷺ واقتضت نورا عظيما. فبالنظر إلى تلك الحالة المظلمة وترحما على العباد الذين يعيشون فيها هاجت صفة الرحمانية، فتوجهت البركات السماوية إلى الأرض. فصارت تلك الحالة المظلمة مباركة للدنيا فنالت حظا من الرحمة العظيمة فجاء لهداية الدنيا الإنسان الكامل وسيد الرسل الذي لم ولن يولَد مثله أبدا، وجاء للدنيا بكتاب منير لم تر عين مثله. فكان تجليا عظيما لكمال رحمانية الله ﷻ إذ أنزل في وقت الظلمة والظلام نورا عظيما اسمه الفرقان الذي يفرِّق بين الحق والباطل، والذي أحقّ الحق وأفنى الباطل، ونزل على الأرض حين كانت الأرض قد ماتت ميتة روحانية، وظهر فساد كبير في البر والبحر، فقد حقّق بنــزوله مهمة عظيمة أشار الله تعالى إليها بنفسه قائلاً: ﴿اِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ *(الحديد: ١٨)*؛ أي كانت الأرض قد ماتت، والآن يحييها الله من جديد.

يجب الانتباه جيدا إلى أن نزول القرآن الكريم لإحياء الأرض كان نتيجة هياج صفة الرحمانية. إنها الصفة نفسها التي تهيج أحيانا ماديا وتُسعف الذين أصابهم القحط، فتُمطر الغيث على الأرض اليابسة، وأحيانا أخرى تهيج الصفة

نفسها روحانيا وترحم الجياع والمتعطشين الموشكين على موت الضلال، ولا يبقى لديهم غذاء الحق والصدق الذي هو مدعاة للحياة الروحانية. فكما يهيئ الرحمن القديرُ غذاء للجسم عند حاجته إليه، كذلك يهيئ بمقتضى رحمته الكاملة غذاء روحانيا أيضا عند الضرورة الحقة. غير أنه صحيح تماما أن كلام الله تعالى إنما ينـــزل على الأصفياء فقط الذين يرضى ﷻ عنهم، ويكلّم الله ويخاطب الذين يحبهم فقط. ولكن ليس صحيحا قط أن مَن كان الله تعالى راضيا عنه ينـــزل عليه كتابًا دون ضرورة حقة، أو أنه ﷻ يكلّم أحدا حتما ودائما بغير ضرورة حقة نتيجة التزامه بالطهارة فقط. بل الحق أن كتاب الله تعالى إنما ينـــزل حين تمس الحاجة لنـــزوله في الحقيقة.

فملخص الكلام أن الموجب الحقيقي لنـــزول وحي الله هو رحمانية الله تعالى وليس عمل عامل. وإنه لصدقٌ عظيم يجهله معارضونا البرهمو وغيرهم.

ثم ليكن معلوما أيضا أن استفاضة أحد من الناس من كلام الله تعالى على وجه الحقيقة ووصوله إلى الغاية المنشودة بعد أن يحظى ببركاته وأنواره، وأن ينال ثمرة سعيه وجهده؛ إنما يحدث نتيجة تأييد صفة الرحيمية. لذلك فقد ذكر الله تعالى صفة الرحيمية بعد الرحمانية ليُعلَم أن وقوع تأثيرات كلام الله في النفوس البشرية يكون نتيجة تأثير صفة الرحيمية. وبقدر ما يكون أحد منـــزَّها عن الإعراض الظاهري والمعنوي، وعلى قدر ما يتولد في قلبه إخلاص وصدق، وبقدر ما يتمسك بالاتباع بجهد وسعي؛ تقع تأثيرات كلام الله ﷻ في قلبه ويحظى بأنواره بالقدر نفسه، وتتولد فيه العلامات المتميزة للمتقبَّلين عند الله تعالى.

والحقيقة الثانية المودَعة في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هي أن هذه الآية نزلت لافتتاح القرآن الكريم، والهدف من وراء قراءها هو الاستعانة بذاتٍ جامع لجميع الصفات الكاملة الذي من صفاته "الرحمن"، فهو يخلق لطالب الحق أسباب الخير والبركة والرشد بمحض فضله ومنته.

والصفة الثانية هي أنه "الرحيم"؛ أي لا يُضيع عمل عامل ولا يُهدِر سعي ساعٍ، بل يثمر جهوده بثمرات حسنة، ويرزقه ثمرات مساعيه. ولا يمكن أن يتم عملٌ سواء أكان دنيويا أم دينيا بغير هاتين الصفتين؛ أي الرحمانية والرحيمية. لو تأملتم في الموضوع لتبيّن أن هاتين الصفتين تعملان عملهما في كل حين وآن لإنجاز مهمات الدنيا كلها. إن رحمانية الله تعالى لا تزال تتجلى منذ زمن لم يكن الإنسان قد خُلق فيه بعد. فإن الرحمانية تهيئ للإنسان أسبابا تفوق قدرته، ولا يستطيع أن ينالها بحيلة أو طريقة قط. ولا تُعطى هذه الأسباب نتيجة عمل، بل توهب على سبيل الفضل والمنة، وذلك مثل بعثة الأنبياء، ونزول الكتب، وهطول الأمطار، وتسخير الشمس والقمر والهواء والسحاب وغيرها، ومجيء الإنسان نفسه إلى هذه الدنيا مشرَّفا بأنواع القوى وأصناف القدرات، ثم نواله عمرا مديدا بالصحة والفراغ والأمن؛ فكل هذه الأمور تأتي إلى حيّز الوجود بمقتضى صفة الرحمانية. كذلك إن رحيمية الله تعالى أيضا تتجلى حين ينشِّط الإنسانُ قواه التي وهبها الله تعالى إياه لإنجاز عمل ما -بعد نيله جميع أنواع التوفيق منه- ويبذل قوته وقدرته قدر استطاعته. فقد جرت عادة الله في هذه الحالة أنه ﷻ لا يدَع مساعيه تذهب أدراج الرياح، بل يثمرها بثمرات حسنة. فإنها رحيميته المحضة التي تنفث الحياة في مساعي الإنسان الميتة.

وليكن معلوما الآن أن المراد من تعليم هذه الآية الشريفة هو طلب العون والبركة عند افتتاح القرآن الكريم برحمانية الله الجامع للصفات الكاملة ورحيميته. والهدف من وراء طلب البركة من صفة الرحمانية هو أن ييسر ذلك الإله الكامل برحمانيته وبمحض لطفه وإحسانه جميع الأسباب التي يقتضيها الجهدُ في اتباع كلامه ﷻ؛ مثل طول العمر والتمتع بالصحة والفراغ ووقت الصفاء وسلامة القوى والقدرات، وعدم مواجهة ما من شأنه أن يوقع الخلل في الراحة والأمن، وعدم حيلولة مانع يمنع القلب من التركيز. فإن نوال التوفيق من كل نوع يتسنى نتيجة الرحمانية.

والهدف من وراء طلب البركة من صفة الرحيمية هو أن يثمر ذلك الذات الكامل مساعي الإنسان بثمرات حسنة برحيميته وينقذ جهوده من الضياع، ثم يبارك في أعماله بعد مساعيه وجهوده. إذن، فإن التبرّك والاستعانة بصفتيَ الله تعالى الرحمانية والرحيمية كلتيهما عند افتتاح كلام الله ﷻ، بل عند كل أمر ذي بال؛ حقيقة ناصعة بدرجة عليا تؤدي بالإنسان إلى الحصول على حقيقة التوحيد، فيطّلع المرء على جهله وعدم علمه وقلة فهمه وضلاله وعجزه وهوانه بيقين كامل، ويتمركز نظره على عظمة مبدأ الفيض وجلاله، ويرى نفسه مفلسا تماما ومسكينا وضعيفا وشيئا لا يُذكر، فيطلب من الله القادر القدير بركات رحمانيته ورحيميته. ومع أن هاتين الصفتين من صفات الله تعالى تعملان عملهما من تلقائهما، ولكن الله الحكيم القدير قد وضع للناس في قانون الطبيعة منذ القِدم أن لدعائه واستعانته دورا كبيرا في النجاح. إن الذين يدعون ربهم بصدق القلب في مهماتهم ويبلغ دعاؤهم مبلغ الإخلاص الكامل، يتوجه الفيض الإلهي إلى حل مشاكلهم حتما. كلّ من ينْتبه إلى نقاط ضعفه ويتنبّه إلى تقصيراته، لا يقوم بعمل تاركا الحبل على الغارب ومُعجبا بنفسه، بل توجّهه العبوديةُ الحقة إلى أنه لا بد من الاستعانة بالله القادر القدير. يوجد هذا الحماس للعبودية الصادقة في كل قلب ثابت على بساطته الفطرية ومطّلع على ضعفه.

إذن، فإن الصادق الذي لم يتأصل الكبر والعجب في روحه وهو مطلع جيدا على ضعفه وعلى أنه ليس شيئا يجدر بالذكر، ولا يرى نفسه قادرا على إنجاز عمل ما، ولا يجد في نفسه قوة ولا قدرة حين يبدأ بأي عمل، فإن روحه الضعيفة، تتطلب قوة من السماء دون أدنى تصنّع. ويرى الله القادر المقتدر بكماله وجلاله أمام عينيه كل حين وآن، ويرى رحمانيته ﷻ ورحيميته مدار إنجازِ كل عمل، فيستعين بالله بدعاء: "بسم الله الرحمن الرحيم" عفويا قبل استخدام قوته الناقصة وقدرته المتداعية. وبسبب هذا التواضع والانكسار يصبح جديرًا بأن ينال قوة من قوة الله وقدرة من قدرته ﷻ وعلما من علمه ويفوز في

مراداته. لا أرى حاجة لإثبات هذا المبدأ بأدلة متكلّفة فلسفية أو منطقية، بل إن في روح كل إنسان قدرة على فهمه، كما تشهد بالتواتر تجارب عارفٍ صادق على صدقه. وإن استعانة العبد بالله تعالى ليس عملا لغوا أو مزيَّفا أو مبنيا على أفكار لا أصل لها بحيث لا تترتب عليه نتيجة معقولة، بل هذه الحقيقة سارية المفعول منذ قديم الزمان بحسب سنة الله القديمة -الذي هو قيوم العالَـــم في الحقيقة، والذي بالاستناد إليه تجري أمور الدنيا كلها- أن الذين يستعينون بالله في أمورهم حاسبين أنفسهم محتقَرين أذلاء ويبدأون أعمالهم باسمه ﷻ يعينهم الله ﷻ. وعندما يتوجهون إليه بكامل التواضع والعبودية تحالفهم تأييداته. فالاستعانة باسم مبدأ الفيض "الرحمن الرحيم" عند بدء كل عمل، إنما هو طريق الأدب والعبودية والفناء والزهد، وهو طريق في غاية الأهمية؛ إذ تبدأ به الدرجة الأولى للتوحيد في الأعمال، وبالالتزام به يتواضع الإنسان كالصبيان، ويتطهّر من مختلف أنواع الزهو الذي تمتلئ به قلوبُ الذين يدّعون التعقّل والمتكبرين من أهل الدنيا. وبيقينه الكامل بضعفه ونصرة الله ﷻ ينال المرء نصيبا من المعرفة التي يُعطاها أهل الله فقط. ومما لا شك فيه أنه كلما التزم المرء بهذا المبدأ وفرض على نفسه العمل به، ورأى في نبذه هلاكه.. أصبح توحيده صافيا ومقدسا وتنـــزَّه من شوائب العُجب والأنانية، وزال عن وجهه سواد التكلّف والتصنُّع، ولمع في وجهه نور البساطة والطيبة والبراءة. فهذا هو الصدق الذي يوصل الإنسان إلى مرتبة الفناء في الله رويدا رويدا، حتى يرى المرء أن كلَّ ما يملكه ليس من عنده، بل ينال كل شيء من الله تعالى. وكلما اعتصم المرء بهذا المبدأ بدأت نسمات شذى التوحيد تصله دفعة واحدة، وتعطر قلبه وذهنه بشرط ألا تكون حاسة شمّه فاسدة.

فمن أجل الالتزام بهذا الصدق، يحتاج الطالب الصادق للاعتراف بضعفه وكونه حقيرا ولا قيمة له، ويضطر للإدلاء بشهادة أن الله جلّ شأنه هو المتصرف والقدير ومبدأ الفيوض كلها. وإن كِلا هذين الأمرين هما الغاية

المنشودة لطالب الحق، وشرط أساسي للوصول إلى مرتبة الفناء. ويكفي لفهم هذا الشرط الضروري مثالٌ أن ماء المطر لا يسقط إلا على مَن يقوم في المطر أثناء نزوله، حتى لو كان المطر نازلا على مستوى العالم. فمَن طلب أُعطِي ومَن جدّ وجد. أما الذين يعتمدون على عقلهم أو براعتهم أو قوتهم عند الشروع في عمل، ولا يتوكلون على الله فهم لا يقدِّرون الله القادر القدير الذي تحيط قيوميته بالعالم كله، ويكون إيمانهم كغصن يابس ليس له علاقة بشجرته الخضراء النضرة، بل قد يبس ولم يعد له أدنى نصيب من نضرة شجرته ولا من ثمارها أو أزهارها، وليس له مع الشجرة إلا علاقة ظاهرية يمكن أن تُقطع بهزة هواءٍ خفيفةٍ أو بتحريك من أحد. فهذا هو مثل إيمان الفلاسفة المتمسكين بظواهر الأمور، الذين لا يتوجهون إلى الاستعانة بقيوم العالَم، ولا يحسبون لطرفة عين أو دائما أنهم بحاجة لله تعالى الذي هو مبدأ الفيوض. فإن هؤلاء القوم بعيدون عن التوحيد الحقيقي بُعد الظلام عن النور. لا يفقهون أن اعتبار المرء نفسه حقيرا وشيئا لا يُذكر، وطرحه نفسه على عتبات قوة عظمى للقادر القدير هو النقطة النهائية لمراتب العبودية، والمقامُ الأعلى للتوحيد؛ الذي منه تتدفق عين الفناء الأتم، ويبتعد الإنسان من نفسه ومشيئته كليا، ويؤمن بقدرة الله ﷻ بصدق القلب. وفي هذا المقام ينبغي عدم الاعتداد بمقولة فلاسفة ماديين القائلة بأنه لا حاجة للاستعانة بالله تعالى عند الشروع في العمل، لأن الله تعالى قد زوّد فطرتنا مسبقا بالقوى، لذا فإن الاستمداد من الله مع وجود تلك القوى إنما هو تحصيل حاصل.

فأقول: لا شك أن الله تعالى قد أعطانا بعض القوى لإنجاز بعض الأعمال، ومع ذلك لم تتخلَّ عنا سلطةُ قيوم العالم ذلك ولم يبتعد ﷻ عنا، ولم يُرد أن يحرمنا من عونه، ولم يرض بحرماننا من فيوضه غير المتناهية. إن ما أعطانا الله إياه محدود، أما ما يُطلب منه ﷻ فلا نهاية له، وكذلك ما أُعطينا قوة لإنجاز أعمال لا طاقة لنا بها.

فلو تأمّلتم الآن جيدا وتدبرتم بنظرة فلسفية، لتبين أننا لا نملك قوة كاملة من أيّ نوع. فمثلا إن قوانا الجسدية تتوقف على صحتنا، وصحتنا تعتمد على أسباب كثيرة أخرى؛ منها سماوية ومنها أرضية، وكلها تفوق قدراتنا تماما. ما قلتُه آنفا إنما هو كلام بسيط على قدر فهم عامة الناس، وإلا؛ فكيفية إحاطة قيوم العالم -لكونه علة العلل- بظاهرنا وباطننا وأوَّلنا وآخرنا وبما فوقنا وما تحتنا وبيميننا وبيسارنا وبجميع قوى قلوبنا وأرواحنا ونفوسنا؛ قضية دقيقة لا تدرك العقول البشرية كنهها، ولا أرى حاجة إلى تفهيمها هنا أيضا، بل ما كتبته آنفا يكفي لإفحام المعارضين وإتمام الحجة عليهم.

فالطريق الوحيد للفوز بفيوض قيوم العالم هو أن يطلب المرء حمايته بكل ما أُعطِيه من قوة وقدرة. وإن هذا الطريق ليس بجديد، بل هو الطريق نفسه الذي لزم فطرة بني آدم منذ القِدم. والذي يريد أن يسلك مسلك العبودية فإنه يختار هذا الطريق نفسه، والذي يطلب فيوض الله تعالى يخطو على الطريق نفسه، والذي يريد أن يكون مورد رحمة الله تعالى فهو يعمل بهذه القوانين الأزلية. إن هذه القوانين ليست ببدعة، وليست بأمر مستحدَث مثل إله المسيحيين. بل هو قانون الله المحكم الذي ظل على حاله منذ قديم الزمان، وسنة الله الجارية منذ الأزل التي صدقُها واضح على كل طالب صادق من خلال كثرة التجارب. وكيف لا يكون واضحا! فكل عاقل يُدرك حالة ضعفنا وافتقارنا إلى القوة، وكم نحن عديمو الحيلة دون نصرة الله ﷻ وعونه. لو لم يكن هناك قادر وقدير يرعانا في كل لحظة وآن، ولو لم تتولّنا رحمانيته ورحيميته لدُمِّرت جميع أمورنا، بل لهلكنا نهائيا. إذن، فإن افتتاح أعمالنا، وخاصة قراءة الكتاب السماوي -وهي أدق وألطف الأعمال- باسم الله القادر القدير الرحمن الرحيم بنية التيمّن والاستعانة، هي حقيقة بديهية ننجذب إليها عفويا، فالحق أن كل بركة تأتي من التوجّه أولا وقبل كل شيء إلى ذلك الذات الذي هو القادر وعلة العلل ومبدأ الفيوض كلها واسمه "الله" في مصطلح القرآن الكريم، ويُجلّي أولا صفته

"الرحمن" ويُعطي كلَّ ما يُحتاج إليه قبل ظهور السعي بمحض فضله وإحسانه وبغير واسطة العمل. وعندما تكمِّل رحمانيته مهمَّتها بالتمام والكمال ويؤدّي الإنسانُ حق جهده وسعيه نتيجة التوفيق، عندها يُجلِّي الله تعالى صفته الرحيمية وينقذ جهود الإنسان ومساعيه من الضياع ويثمرها بثمرات طيبة ويعطيه مرامه. فقد قيل انطلاقا من هذه الصفة الثانية: من جدّ وجد، ومن سأل أعطي، ومن طرق فُتح له؛ أي لا يُضيع الله تعالى سعي ساعٍ وجهد جاهد من منطلق صفته "الرحيم"، فكل من جال نال.

فباختصار، هذه الحقائق واضحة جدا بحيث يستطيع كل شخص أن يعرف صدقها من خلال تجربته الشخصية، ولا يمكن أن تبقى هذه الحقائق البديهية خافية على أحد إذا كان يملك شيئا من العقل. ولكن هذا الأمر لا ينكشف على الذين تبقى نظرهم مركَّزة على الأسباب المعروفة فقط نتيجة قسوة قلوبهم وغفلتها، ولا يعلمون التصرفات اللطيفة لله تعالى المتصرف في الأسباب، ولا يملكون عقلا واسعا حتى يفكروا أن هناك آلافا، بل ما لا يُعدّ ولا يُحصى، من الأسباب السماوية والأرضية التي هي ضرورية لتزيين جسد الإنسان، وأن الحصول عليها ليس في قدرته، بل هناك ذات واحد جامع لجميع الصفات الكاملة؛ الذي يخلق جميع الأسباب من فوق السماوات إلى تحت الأرضين ويملك التصرف والقدرة عليها من كل النواحي. أما الذين يعقلون، فيفهمون هذا الأمر دون تردد ويدركونه بالبداهة، بل الذين وصلوا مراتب عليا منهم -وهم أصحاب التجربة- قد بلغوا منه مرتبة حق اليقين. أما الشبهة: لماذا لا تنفع هذه الاستعانة، بل تكون بلا جدوى في بعض الأحيان، ولماذا لا تتجلّى رحمانية الله ورحيميته عند الاستعانة في كل الأحيان؟ فالحق أن هذه الشبهة ناتجة عن سوء فهم الحقيقة، لأن الله تعالى يستجيب حتما الأدعية التي يدعوها الإنسان بإخلاص، ويعين المستعينين به كما يراه مناسبا. ولكن يحدث أيضا أن استعانة الإنسان ودعاءه يكون خاليًا من الإخلاص أحيانا، إذ لا يستعين بالله تعالى

بتواضع القلب، ولا تكون حالته الروحانية على ما يرام، بل يكون الدعاء على شفتيه، بينما الغفلةُ أو الرياء في قلبه. وفي أحيان أخرى يسمع الله تعالى دعاءه، ولكن يعطي الداعي ما يراه الأصلح والأنسب له بحسب حكمته ﷻ الكاملة. ولكن الجاهل لا يُدرك ألطاف الله الخفية هذه، فيشتكي نتيجة جهله وعدم إلمامه بالأمر، ولا يفهم مضمون الآية: ﴿عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ *(البقرة: ٢١٧)*

فقد تبين من بياننا هذا كله كم تحمل الآية: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في طياتها صدقا عظيما، وأن فيها أسبابا عظيمة للترقي في التوحيد الحقيقي والعبودية والإخلاص بحيث لا يوجد لها نظير في أيّ كتاب آخر. وإذا زعم أحد أنه يوجد لها نظير فليستخرج لنا تلك الحقيقة مع ذكر كافة الحقائق الأخرى التي سأسجلها أدناه.

لقد وجّه بعض الأعداء قصيرو الفهم في هذا المقام اعتراضا إلى بلاغة البسملة. فمن هؤلاء المعترضين قسيس يُدعى عماد الدين الذي أورد في كتابه "هداية المسلمين" اعتراضا سيلي ذكره. والمعترض الثاني هو "باوا نرائن سنغ" المحامي الأمرتسري؛ الذي عدَّ اعتراض القسيس صحيحا، وأثار في مجلته "وِديا بركاشك" الاعتراض السخيف نفسه نتيجة عناده القلبي. فأرى من المناسب أن أنقل هنا اعتراضه مع الجواب ليعلم المنصفون إلى أية درجة من العَمَه والعمى أوصل فرطُ التعصب والتعنت معارضينا، إذ يرون النور الساطع ظلاما، ويزعمون أزكى الشذى رائحةً كريهة.

فليكن معلوما أنهم يعترضون على بلاغة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بأن كلمتَي: "الرحمن الرحيم" اللتان وردتا في البسملة ما وردتا بأسلوب فصيح، بل إذا ورد "الرحيم الرحمن" لكان أسلوبا فصيحا وصحيحا؛ لأن اسم الله "الرحمن" هو من منطلق الرحمة التي نطاقها واسع وعام. أما لفظ "الرحيم" فيأتي

-مقارنة بالرحمن- لبيان رحمة قليلة وخاصة، ومن مقتضى البلاغة أن ينتقل المعنى من القلة إلى الكثرة وليس العكس. هذا هو الاعتراض الذي وجهه هذان الشخصان مغمضَين عينيهما عن كلام اعترف ببلاغته جميع أهل اللغة من العرب بمن فيهم فحول الشعراء، على الرغم من معارضتهم الشديدة. بل قد استغرب لعظمة شأن هذا الكلام كبار المعاندين أيضا أيما استغراب. بل معظم الذين كانوا يدركون جيدا أساليب فصاحة الكلام وبلاغته وكانوا ملمِّين بمذاق الحديث وكانوا منصفين أيضا، حين وجدوا أسلوب القرآن الكريم فوق قدرة البشر آمنوا به موقنين بأنه معجزة عظيمة، وشهاداتهم مسجلة في القرآن الكريم في عدة آيات. أما الذين كانوا عمهين بشدة فقالوا -وإن لم يؤمنوا به بأنفسهم- في حالة من الذعر والحيرة: إنه سحرٌ عظيم لا يمكن مواجهته. وبياتهم هذا أيضا مذكور في عدة أماكن في القرآن الكريم. أما اليوم فيعترض على الكلام المعجز نفسه أناسٌ، ومنهم شخصٌ لا يقدر على كتابة سطرين بالعربية بصورة صحيحة وبليغة، ولو صدفَ أن حدّث أحدًا من أهل اللغة فلن يقدر على التفوه إلا ببضع جمل مكسَّرة خاطئة وغير مترابطة، وإذا شك أحد في ذلك فليجرِّب.

أما المعترض الثاني فهو يجهل العربية نهائيا وليس لديه إلمام ملحوظ بالفارسية أيضا. ومن المؤسف أن القسيس المذكور لا يدري أن المثقفين من مرشديه وكباره من أوروبا -الذين ذكرهم "John Davenport" وغيره من الإنجليز- يعترفون ببلاغة القرآن الكريم العظيمة. وعلى العاقل أن يفكر أكثر؛ كيف يكون محل اعتراض كتاب نزل على واحد من أهل اللغة أصلا، واعترف بكمال بلاغته أهل اللغة جميعا، بل الشعراء أيضا أمثال أصحاب المعلقات السبع. فهل يمكن أن يكون الكلام المسلَّم الثبوت مثله محل اعتراض نتيجة إنكار أجنبي جاهل معقود اللسان ومحرومٍ تماما من فن الحديث ومِن التوغل في علوم العربية، بل يعجز عن الحديث حتى مع عربي عادي وبسيط؟ بل إن هؤلاء الذين

يتفوهون بكلام يفوق مقامهم يفضحون جهلهم بأنفسهم، ولا يدرون أن الطعن خلاف شهادة أهل اللغة وفحول الشعراء إنما يفضح جهلهم وطبيعتهم مثل الحمار. فليحاول القسيس "عماد الدين" الحديث ساعةً أو نصفها مقابل شخص عربي في قضية دينية أو دنيوية لينكشف للناس بدايةً فيما إذا كان قادرا على حديث عادي وبحسب أسلوب العرب ومذاقهم أم لا. وأنا على يقين أنه ليس قادرا على ذلك، وعلى يقين كذلك أننا لو جئنا بعربي للحديث معه لما قدر على بيان حكاية قصيرة كالعرب وعلى مذاقهم، بل سيبقى متورطا في وحل الجهل. وإذا كان أحد يشك في ذلك فأناشده بالله أن يجرّب. وأنا أتحمل المسؤولية بأنه إذا طلب مني القسيس عماد الدين ذلك فسأُحضر شخصا عربيا وسأعقد جلسة في يوم محدد يحضرها بعض الهندوس المثقفين وبعض المشايخ المسلمين، وسيكون من واجب القسيس عماد الدين أن يُحضر معه بعضا من إخوته المسيحيين. ويجب على عماد الدين أن يقص أولا وقبل كل شيء بالعربية أمام الحضور قصة يُخبَر بها آنذاك. ثم يُطلب من الشخص العربي الحاضر هنالك أن يقص القصة نفسها بلسانه هو. ولو حكم المنصفون أن عماد الدين ألقى خطابا لطيفا ورائعا بحسب مذاق العرب تماما، لاعترفتُ أن طعنه في أهل اللغة ليس مما يدعو إلى الاستغراب، بل سأدفع له في الحال خمسين روبية نقدا جائزةً. ولكن لو نشر عماد الدين رائحة كريهة لبيانه الخاطئ بلسانه المعقود بدلا من الخطاب الفصيح والبليغ، أو خاف ولم يطلعنا بواسطة جريدة من الجرائد أنه جاهز لهذه المواجهة، فما عسانا أن نقول إلا: لعنة الله على الكاذبين.

وليكن معلوما أيضا أن عماد الدين لا يقدر على مواجهة أهل اللغة ولو وُلد من جديد. فما دام لا يقدر على أن ينبس ببنت شفة بحذاء العرب، بل هو جاهز ليخرس؛ فنأسف ألف أسفٍ ونلعن ألفَي لعنة على فهْم هؤلاء المسيحيين والآريين الذين يعترضون -معتمدين على تأليف هذا الغبي- على بلاغة الكتاب

الذي لا نظير له، والذي نزل على سيد العرب، وجعَل فصحاء العرب وبلغاءهم جميعا يعترفون بعظمة شأنه. وأُزيحت بنـــزوله المعلقات السبع من باب مكة، وآمن به دونما إبطاء شاعر كان حيا آنذاك من شعراء المعلقات السبع.

والسبب الثاني للتأسف هو أن هذا المسيحي الجاهل لا يدري إلى الآن أن البلاغة الحقيقية لا تنحصر في أن يُقدَّم الكثير على القليل دائما وفي كل الأحوال دون مبرر معقول، بل إن قاعدة البلاغة هي أن يعكس الكلام واقع الأمر ويكون مناسبا بحسب مقتضى الحال. فهنا أيضا جاء الكلام -بتقديم "الرحمن" على "الرحيم"- واقعيا ومناسبا ومرتَّبًا بحسب مقتضى الأمر. وسيأتي ذكر هذا الترتيب الطبيعي الآن في تفسير آيات سورة الفاتحة.

والآن نتوجه إلى تفصيل تلك الآيات:

﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ أي جميع المحامد متحققة في ذلك المعبود الحقيقي الجامع لجميع الصفات الكاملة الذي اسمه "الله". لقد بيّنتُ من قبل أن "الله" في مصطلح القرآن الكريم هو اسم ذلك الذات الكامل الذي هو المعبود الحق والجامع لجميع الصفات الكاملة والمنـــزَّه عن جميع الرذائل، وهو واحد لا شريك له، وهو مبدأ جميع الفيوض. ولأنه ﷻ قد جعل في كلامه المقدس، أي القرآن الكريم، اســـمَـــه "الله" موصوفا لسائر أسمائه وصفاته الأخرى، ولم يجعل لأيٍّ من الأسماء الأخرى هذه المنـــزلة، لذا فإن الاسم "الله"؛ يدل على كافة الصفات التي وُصف بها لأنه متصف بجميع الصفات الحسنة، ولأنه قد جُعل موصوفا لجميع الأسماء والصفات، لذا فإن مفهومه هو أنه يشمل جميع الصفات الكاملة. إن ملخص "الحمد لله" هو أن كافة أنواع الحمد ظاهرية كانت أم باطنية أو باعتبار الكمالات الذاتية أو عجائب القدرة خاصةٌ بالله تعالى ولا شريك له فيها. وكذلك إن جميع المحامد الصحيحة والكمالات التامة التي يمكن أن يتفكر بها عاقل أو يمكن أن تخطر ببال متفكر موجودة في ذات الله تعالى. وليس هناك ميزة يمكن أن يشهد العقل بإمكانية وجودها ويكون الله محروما منها مثل إنسان

شقيّ. فلا يسع عقل عاقل أن يطلع على ميزة لا توجد في الله ﷻ، بل مهما فكر الإنسان بمزايا فإنها موجودة كلها في ذات الله تعالى، وهو حائز على الكمال في ذاته وصفاته ومحامده من كل الوجوه، ومنـــزَّه من الرذائل كلها.

لاحِظوا الآن، إنها لحقيقة يميَّز بها الدين الصادق والكاذب؛ إذ يتبين من التأمل في جميع الأديان أنه ما من دين سوى الإسلام يعدّ اللهَ تعالى منـــزَّها عن جميع الرذائل ويعدّه متصفا بجميع المحامد الكاملة. إن عامة الهندوس يعدون آلهتهم شركاء في نظام الربوبية ويعدونها شريكة دائمة في أمور الألوهية. بل يزعمون أنها تغيّر مشيئة الله وتقلّب مقاديره رأسا على عقب. وكذلك يعتقد الهندوس عن كثير من الناس والدواب بل عن بعض الدواب غير النظيفة التي تأكل النجاسة (أي الخنازير) أيضا أن إلههم ظل يُولَد على هيئتها بطريقة التناسخ في الأزمنة السابقة وظل ملوَّثا بجميع التلوُّثات والأنجاس التي تلازم تلك الدواب، وعانى مثلها من آفات الجوع والعطش والألم والمعاناة والهمّ والحزن والمرض والموت والذلة والخزي، والعجز وعدم القدرة. والمعلوم أن كل هذه المعتقدات تصم صفات الله وتحط من عظمته وجلاله الأزلي والأبدي. أما أتباع آريا سماج الذين ظهروا كإخوانهم المتحضرين ويزعمون أنهم يتبعون "الفيدا" حرفيا، فهم ينكرون صفة الله الخالق نهائيا، ويعدّون الأرواح غير مخلوقة وواجبة الوجود وموجودة بوجودها الحقيقي مثل ذات الله الكامل تماما، مع أن العقل السليم يعُدّ عيبا صريحا بحق الله تعالى أن يُدعى مالك الكون دون أن يكون ربًّا وخالقا لأي شيء، وأن حياة العالم ليست قائمة بقيوميته، بل بوجودها الذاتي. عندما يُعرض على العقل السليم أمران: هل الأنسب والأصلح لمحامد الله القادر القدير التامةِ أن يخلق جميع الموجودات مُظهرا قدرته الكاملة ويكون ربّها وخالقها وأن تنتهي سلسلة الكون كله إلى ربوبيته هو، وأن توجد في ذاته الكامل صفة الخالقية والقدرة التامة، وأن يكون بريئا من عيب الولادة والموت، أم يليق بشأنه أن يقال بأن كافة المخلوقات التي تحت قدرته وتصرفه ليست

خلقه ولا يقوم وجودها على قيوميته ولا تحتاج إليه من أجل وجودها وبقائها، وليس هو ﷻ خالقها وربّها، ولا توجد فيه صفة الخلق أو القدرة عليه، وليس منـــزَّها عن نقيصة الولادة والموت؟ فلا يفتي العقل قط أن مالك العالم ليس خالقه، وأن آلاف الصفات الحكيمة التي تتحلى بها الأرواح والأجسام جاءت إلى حيِّز الوجود من تلقاء نفسها وليس لها خالق، ولا يفتي أن الذي يُسمَّى مالك تلك الأشياء كلها هو مالكها على سبيل الافتراض فقط. كذلك لا يفتي العقل أن يُعَدَّ ﷻ عاجزا عن الخلق أو فاقد القدرة وناقصا أو تُنسب إليه النجاسة والاعتياد على التغذي على الأوساخ أو يُجازَ له الموت والألم والمعاناة والجهل وعدم العلم، بل يشهد العقل بكل صراحة أن الله تعالى يجب أن يكون منـــزّها عن جميع أنواع الرذالة والنقص، ويجب أن يتحلى بكمال تام. والمعلوم أن الكمال التام مرتبط بقدرة تامة، ولو لم تبق فيه القدرة التامة ولم يعد قادرا على خلق شيء ولم يتمكن من إنقاذ نفسه من كل عيب ونقيصة، لما بقي فيه الكمال التام أيضا. وإن لم يبق فيه كمال تام فيكون محرومًا من المحامد الكاملة أيضا.

هذه هي حالة الهندوس والآريين، وأما جلال الله تعالى الذي يُظهره النصارى فهو أمر يفهمه العاقل من سؤال واحد. فمثلا لو سئل عاقل: هل يجوز للذات الكامل والأزلي والصمد الذي يكفي في حد ذاته لأعماله العظيمة التي ظل ينجزها منذ الأزل، وخلق الدنيا كلها دون الحاجة إلى الأب أو الابن، ووهب للأرواح والأجساد كلها قوى تحتاج إليها، وهو الحافظ والقادر والقيوم ومدبر الكون كله، بل خلَق قبل وجودها نتيجة صفة رحمانيته كل ما كانت بحاجة إليه لحياتها، وخلق للناس -دون انتظار عمل عامل منهم- الشمس والقمر والنجوم التي لا تُعدّ ولا تُحصى والأرض، وخلق أيضا آلاف النِعم الأخرى التي توجد على الأرض بمحض فضله ورحمته، وما احتاج لابن لإنجاز أيٍّ من هذه الأعمال؛ هل يُعقَل أن يحتاج الإله الكامل نفسه -من أجل المغفرة

والنجاة مُبطلا جلاله وقدرته كلها- في الزمن الأخير للابن الناقص الذي ليس له أدنى نسبة مع الأب، إذ لم يخلق -مثل الأب- جزءا من السماء ولا قطعة من الأرض حتى تثبت ألوهيته، بل بيّن حالة عجزه في الإنجيل كالتالي: "فَتَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ: لِـمَاذَا يَطْلُبُ هذَا الْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هذَا الْجِيلُ آيَةً". (مَرْقُسَ ٨ : ١٢).

وقد قال اليهود عند تعليقه على الصليب أيضا بأنه لو صار حيًّا على مرأى منا لآمنا به، ولكنه لم يعد إلى الحياة ولم يقدم أيّ دليل على ألوهيته وقدرته الكاملة. بل إذا أظهر بعض المعجزات أيضا فكانت مما سبق أن أظهرها الأنبياء السابقون بكثرة بل ظهرت المعجزات من هذا القبيل من بِركة الماء أيضا. (انظروا إنجيل يوحنا، الإصحاح ٥).

فملخص الكلام أنه لم يتمكن من إراءة آية على ألوهيته كما يتبين من عبارة الإنجيل المذكورة آنفا، بل وُلد من بطن امرأة ضعيفة وعاجزة وواجه -على حد قول المسيحيين- طول عمره ذلة وهوانا وعدم قدرة وخزيا كما يواجهها الأشقياء والتُعساء من الناس. وكذلك قبِل لنفسه حالة قذرة ببقائه أسيرا إلى مدة من الزمن في ظلمات الرَحم، وبولادته عبر طريق غير نظيف، وما بقي تلوُّث من تلوثات البشرية وعيوبها لم يتورط فيه ذلك الابن المشوِّه لسمعة أبيه. وأضف إلى ذلك أنه اعترف في كتابه بجهله وعدم علمه وعدم قدرته وعدم كونه بارا. وقد عُدَّ ذلك العبد الضعيف ابنا لله دون مبرر مع أنه كان أقل من بعض الأنبياء العظام من حيث الفضائل العلمية والعملية، وكان تعليمه أيضا ناقصا إذ كان فرعا من شريعة موسى. فكيف يجوز إذن أن تُوجَّه إلى الله القادر القدير والأزلي والأبدي تهمةٌ أنه صار محتاجا في نهاية المطاف -بعدما كان كاملا وغنيا وقادرا قديرا في ذاته- إلى ابن ناقص كهذا، وفقدَ جلاله وعظمته كلها دفعة واحدة؟

لا يسعني أن أفهم على الإطلاق أن يجيز عاقل بحق ذلك الذات الكامل والجامع لجميع الصفات الكاملة، أنواع الذلة والإهانة من هذا القبيل. والمعلوم أنه لو نُقِّيت وقائع ابن مريم من المحامد الزائفة والعابثة، لكان ملخص وقائعه الصحيحة الواردة في الأناجيل أنه كان عبدا عاجزا وضعيفا ناقصا كبقية الناس، وكان أحد الأنبياء المطيعين لموسى عليه السلام. وكان تابعا ومطيعا لنبي عظيم الشأن ولم يبلغ تلك العظمة بنفسه. أيْ كان تعليمه فرعا لتعليم عالٍ وما كان تعليما مستقلا. وقد أقرّ بنفسه -كما ورد في الأناجيل- بأنه ليس بارا ولا عالما بالغيب، وليس قادرا بل عبدٌ ضعيف. والواضح من بيان الإنجيل أنه قد دعا لنجاته مرارا أثناء الليلة قبل اعتقاله، وتمنّى أن يستجاب دعاؤه، ولكنه ما استُجيب. وكذلك ابتُلي من الشيطان كما يُبتلى العباد الضعفاء. فمن الواضح أنه كان ضعيفا وعاجزا بكل المعايير. وكذلك وُلد من مخرج معلومٌ عنه أنه طريق نجاسة وقذارة، وظل يعاني من الجوع والعطش والألم والمرض إلى مدة طويلة. وحدث ذات مرة أن ذهب إلى شجرة التين وقد سعَرَه الجوع ولكن لم يكن في نصيبه شيء منه، لأن الشجرة كانت خالية من الثمار، ولم يقدر على أن يخلق بضع حبات من التين ليأكلها.

باختصار، بقي إلى مدة من الزمن في هذه الحالات من التلوُّثات حتى مات في نهاية المطاف بعد تحمُّل أنواع المعاناة بحسب إقرار المسيحيين ورُفع من هذه الدنيا. هنا نتساءل: هل يجوز وجود هذه الصفات الناقصة في الإله القادر القدير؟ هل يُدعى قدوسا وذا الجلال من كان مليئا بهذه العيوب والنقائص؟ وهل يمكن أن يولد من بطن أم واحدة -أي مريم- خمسة أولاد فيصير أحدهم ابن الله بل الإله نفسه، وأما المساكين الأربعة الآخرون فما نالوا أدنى نصيب من الألوهية. فقد كان بمقتضى القياس أنه ما دام ممكنا أن يولَد إله من بطن مخلوق وليس ضروريا أن يولد إنسان من بطن الإنسان وحمار من بطن الأتان؛ فكان واجبا أنه لما وُلد من بطن المرأة إله ألا يولَد من البطن نفسه مخلوق آخر بعد

ولادة الإله، بل يجب أن يكون جميع الأولاد الذين يتولّدون من هذا البطن آلهةً، لكي يبقى ذلك الرحِم المقدس منــزّها من شراكة ولادة المخلوق ويبقى مصدرا لخلق الآلهة فقط. فبناء على القياس المذكور كان ضروريا أن يجد إخوة المسيح عليه السلام وأخته أيضا نصيبا من الألوهية. أما أمُّ هؤلاء الخمسة فكان من المفروض أن تكون ربة الأرباب، لأن هؤلاء الخمسة استفاضوا منها من حيث القوى الروحانية والمادية. لقد افترى المسيحيون كثيرا في مديح ابن مريم دون مبرر، ولكن مع ذلك ما استطاعوا أن يخفوا نقاط ضعفه، بل أقروا بأنفسهم بتورطه في أنواع التلوّثات، ثم جعلوه ابن الله دون مبرر. مع أن اليهود والنصارى كلهم أبناء الله بحسب كتبهم المشبوهة، بل هم الآلهة ذاتها بحسب إحدى العبارات، ولكننا نرى أن البوذيين كانوا أفضل منهم في افترائهم واختراعهم، لأنهم لم يجيزوا لبوذا قط -بعد أن اتخذوه إلها- ولادته عبر طريق نجس وأكله النجاسة من أيّ نوع، بل كانوا يعتقدون أنه وُلد عن طريق الفم.

فالأسف كل الأسف أن المسيحيين قاموا بافتراءات كثيرة، ولكن لم يخطر بباهم أن يفتروا قولاً بولادة المسيح عن طريق الفم وينقذوا إلههم من البول والنجاسة. ولم يخطر بباهم أيضا ألا يجيزوا له الموت الذي ينافي حقيقة الألوهية كليا. ولم يخطر بباهم أيضا أن يحذفوا من الإنجيل الأماكن التي ذُكر فيها اعتراف ابن مريم أنه ليس بارا وليس عاقلا كاملا ولم يأت باختياره، وليس عالما بالغيب ولا قادرا وليس في قدرته استجابة الدعاء أيضا، بل ليس إلا عبدا ضعيفا ومسكينا من أبناء آدم وجاء مرسَلا من قبل المالك رب العالمين.

فملخص الكلام أن الصدق العظيم الذي يوجد في مضمون ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾ لا يوجد في أي دين قط سوى الدين المقدس والطاهر؛ أي الإسلام. ولو قال أَتباع برهمو بأنهم معترفون بهذا الصدق لكانوا كاذبين في قولهم هذا، لأني كتبت من قبل في هذا الموضوع بالذات أن البرهمو يقولون بأن الإله أبكم وغير قادر على النطق والكلام، وبأنه عاجز عن إلقاء إلهامه وعلومه أيضا. ويعدّونه عاريا من

الصفات الحقيقية التي يجب وجودها في الهادي الحقيقي والكامل. بل ما كان من نصيبهم قدرا ضئيلا من الإيمان أيضا ليعتقدوا أن الله تعالى أظهر وجوده وألوهيته في الدنيا بإرادته ومشيئه؛ بل يقولون خلاف ذلك بأنه تعالى كان لا يزال في زاوية الخمول مثل ميت أو حجر، حتى اكتشف العقلاء وجوده باجتهاداتهم وأذاعوا ألوهيته في الدنيا. فالمعلوم أنهم أيضا ينكرون مثل إخوتهم الآخرين محامد الله الواحد الأحد الكاملة. بل ينسبون إلى أنفسهم المحامد كلها التي يجب أن يُذكَر بها هو ﷻ.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لقد بيّن الله تعالى هنا أربعا من صفاته، أي: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، و﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. لقد قدّم ﷻ صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على الصفات الأربعة الأخرى كلها، ثم أورد ﴿الرَّحْمَنِ﴾ ثم ﴿الرَّحِيمِ﴾ ثم أورد ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في الأخير. يجب التأمل الآن، لماذا اختار الله تعالى هذا الترتيب؟ الحكمة في ذلك أن هذا هو الترتيب الطبيعي لهذه الصفات الأربعة؛ فإنها تتجلى بهذا الترتيب على صعيد الواقع أيضا. وبيان ذلك أن فيض الله يوجد في الدنيا على أربعة أنواع، ويمكن لكل عاقل أن يدركها بالتدبر.

الفيض الأول هو **الفيض الأعم**. وهو فيض عام وساري المفعول بصورة متواصلة على كل شيء بدءا من الأفلاك إلى الأرضين، دون تمييز بين ذوي الأرواح وغيرهم. إن سبب مجيء كل شيء من العدم إلى حيّز الوجود ثم وصول الوجود إلى الكمال يعود إلى هذا الفيض، ولا يخرج عن نطاقه شيء سواء أكان ذا نفس منفوسة أم غيره. وبسببه وُجدت جميع الأرواح والأجساد، وبه تربّى ويتربّى كل شيء. إن هذا الفيض هو روح الكون كله، ولو انقطع للحظة واحدة لدُمِّر العالم كله. لولا هذا الفيض لما وُجد من المخلوقات شيء. لقد ذُكر هذا الفيض في القرآن الكريم بالربوبية، ومن هنا جاءت صفة الله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ *(الأنعام:*

١٦٥) أي أن الله ربّ كل شيء ولا يخرج عن ربوبيته شيء قط في هذا العالم. فقد ذكر الله تعالى في سورة الفاتحة صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قبل غيرها من بين صفات فيضه، فقال: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك لأن صفة الربوبية حائزة على تقدُّم طبيعي على صفات الفيض كلها، أي أنها متقدمة على غيرها من حيث الظهور وأعَمُّها، لأنه فيضها يصيب كل شيء سواء أكان كائنا حيا أم غير حيّ.

والفيض الثاني الذي يأتي في المرتبة الثانية هو **الفيض العام**. والفرق بينه وبين الفيض الأعم هو أن الفيض الأعم يعني الربوبية العامة التي بسببها وُجد وظهر الكون كله. أما الفيض العام فهو بمنزلة فضل الله الأزلي المنصبِّ على ذوي النفوس المنفوسة. أيْ أن العناية الخاصة المنصبَّة على ذوي الأرواح بوجه خاص تُسمى الفيض العام. والمراد من هذا الفيض هو أنه جارٍ مجانا لكل ذي روح بحسب حاجتها دون أن يكون حقًا لأحد، وليس نتيجةً عمل عامل. وببركة هذا الفيض يحيا كل ذي روح ويأكل ويشرب ويُحفظ من الآفات وتُسَدّ حاجاته ويتمتع بضروراته، كما نرى أن جميع أسباب الحياة المطلوبة لبقاء كل كائن حيّ أو لنوعه مهيأةٌ له. ومن بركة هذا الفيض أن أُعطيَت الأرواح كل ما تحتاج إليه لتربيتها المادية. وكذلك فيما يتعلق بالأرواح التي تحتاج إلى التربية الروحانية أيضا إضافة إلى التربية المادية، أي الذين يملكون قدرة على التقدم الروحاني؛ فقد ظل كلام الله ينزل عليهم منذ القِدم عند حاجتهم بالضبط. فبسبب فيض الرحمانية هذا سُدّت حاجات ملايين الناس، بما فيها الأرض للسكن، والقمر والشمس للضوء، والهواء للتنفس، والماء للشرب، وأنواع الأرزاق للأكل، ومئات الآلاف من الأدوية للعلاج، ومختلف أنواع اللباس للارتداء، والصحائف الربانية للاهتداء. ولا يسع أحدا أن يدّعي أن هذه الأشياء قد خُلقت ببركة أعماله. أو أن يقول بأنه كان قد عمل عملا حسنا في أثناء حياته السابقة، لذا أعطى الله تعالى بني آدم هذه النِعم التي لا تعدُّ ولا

تُحصى. فثبت أن هذا الفيض الذي تجلى بآلاف الطرق لإراحة ذوي الأرواح، إنما هو عطية من الله تعالى دون استحقاق وليس عوضا عن عمل، بل هو جيشان رحمة الله ﷻ لكي يصل كلُّ ذي نفس منفوسة إلى مطلوبه الفطري، وتتحقق جميع الحاجات المودَعة في فطرته. إذًا، فإن دور رحمة الله الأزلية في هذا الفيض هو أنها تهتم بحاجات الإنسان بل بجميع الحيوانات أيضا، وتتنبه إلى بؤسهم وراحتهم حتى لا يَضِيعوا وألا تبقى مؤهلاتهم في حيز الكتمان. وإن وجود صفة الإفاضة هذه في ذات الله تعالى ثابت بالبداهة بمشاهدة قانون الطبيعة، إذ لا يشك عاقل أن كل ما يوجد في الدنيا مثل الشمس والقمر والأرض وغيرها من النعم التي عليها مدار حياة كل كائن حيّ، قد وُجد نتيجة تأثير هذا الفيض. وكل ذي نفس منفوسة، دون التمييز بين إنسان ودابة، أو مؤمن وكافر، أو صالح وطالح يستفيض من هذا الفيض بحسب حاجاته، ولم يُحرم منه أيّ كائنٍ حي. وقد سمِّي هذا الفيض في القرآن الكريم بالرحمانية، ومن هذا المنطلق جاءت صفة الله ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في سورة الفاتحة بعد صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كما يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ﴾. وقد أشير إلى الصفة نفسها في عدة آيات أخرى أيضا في القرآن الكريم، منها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا * تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا * وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ *(الفرقان: ٦١-٦٤)* أيْ عندما يقال للكافرين والملحدين وعديمي الإيمان أن اسجدوا للرحمن يتساءلون مظهرين نفورهم مِن اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾؟ فقال ﷻ بنفسه جوابا عليهم: إن الرحمن ذات كثير البركات، ومصدر الخير الأبدي الذي جعل في السماء بروجا، وجعل فيها الشمس والقمر لِيُهيئا الضوء لعامة الخلق دون تمييز بين كافر ومؤمن وهو الرحمن نفسه الذي

جعل لكم أي لبني آدم الليل والنهار خِلفة ليستفيد مَن كان طالب المعرفة من دقائق المعرفة ويتخلص من حجب الجهل والغفلة، وليشكر مَن أراد الشكر... إن عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون بقسوة الكلام ردّوا عليهم بكلمات السلام والرحمة؛ أيْ يعاملوهم بالرفق مقابل القسوة، ويدعون لهم مقابل السب والشتم، وينصبغون بصبغة أخلاق الله الرحمن، لأن الرحمن أيضا يفيد العباد جميعا بالشمس والقمر والأرض وغيرها من النعم الكثيرة التي لا تُعد ولا تحصى دون تفريق بين صالح أو طالح. ففي هذه الآيات قد وضّح الله تعالى جيدا أن كلمة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تُطلق على الله ﷻ لأن رحمته الواسعة تحيط بكل شخص سيئا كان أم بارا. وكذلك أشار ﷻ إلى الرحمة الواسعة نفسها في مكان آخر أيضا فقال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ *(الأعراف: ١٥٧)* أي سأعذب مَن أراه يستحق العذاب فقط، أما رحمتي فمحيطة بكل شيء. وقال أيضا: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ *(الأنبياء: ٤٣)* أي قل للكافرين والعصاة بأنه لو لم يكن الله متحليا بصفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ لما حظيتم بالحماية من العذاب. أي من بركة رحمانية الله تعالى أنه يمهل الكافرين والملحدين ولا يؤاخذهم سريعا. وقد أشار إلى الرحمانية نفسها في آية أخرى فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ﴾ *(الملك: ٢٠)* أي ألم يروا الطيور تطير فوقهم إذ تفتح أجنحتها أحيانا وتقبضها أحيانا أخرى، والله تعالى الرحمن يحفظها من السقوط، بمعنى أن فيض الرحمانية محيط بكل كائن حيٍّ، حتى أن الطيور الرخيصة الثمن التي يمكن أن يُشترَى اثنان أو ثلاثة منها بمليم واحد، تسبح بكل سرور في بحر هذا الفيض الواسع. ولأن مرتبة هذا الفيض تأتي بعد الربوبية، فمن هذا المنطلق ذكر اللهُ تعالى في سورة الفاتحة صفة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أولا، ثم بيّن صفة رحمانيته لكي يبقى الترتيب الطبيعي قائما.

والقسم الثالث للفيض هو **الفيض الخاص**. والفرق بينه وبين الفيض العام هو أنه ليس شرطا للمستفيض من فيض عام أن يصلح نفسه أو يُخرجها من الحُجُب المظلمة، أو يقوم بمجاهدة وسعي من نوع آخر. بل في حالة الفيض العام يهيئ الله تعالى من عنده -كما قلت من قبل- لكل كائن حي كل ما يحتاج إليه بمقتضى فطرته، ويعطيه دون سؤال وسعي. أما الفيض الخاص فيُشترَط له الجهدُ والسعي وتزكية القلب والدعاءُ والتضرع والتوجه إلى الله تعالى وكل مجاهدة أخرى بحسب مقتضى الحال. فلا يحظى بهذا الفيض إلا الذي يبحث، ولا ينـــزل هذا الفيض إلا على الذي يجاهد من أجله. وهذا الفيض أيضا ثابت من التفكر في قانون الطبيعة، لأنه من البديهي تماما أن المجاهدين في سبيل الله والغافلين عنه لا يستوون. مما لا شك فيه أن الذين يجاهدون في سبيل الله بصدق القلب ويجتنبون كل ظلمة وفساد تحالفهم رحمة خاصة. فمن منطلق هذا الفيض جاء اسم الله ﴿الرَّحِيمِ﴾ في القرآن الكريم. وإن مرتبة صفة الرحيمية هذه -لكونها خاصة ومشروطة بشروط- ذُكرت بعد الرحمانية لأن صفة الرحمانية تجلت أولا من الله ثم الرحيمية. فبحسب هذا الترتيب الطبيعي ذُكرت صفة الرحيمية في سورة الفاتحة بعد الرحمانية، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وقد ورد ذكر صفة الرحيمية في آيات عديدة من القرآن الكريم منها: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ *(الأحزاب: ٤٤)* أي أن رحيمية الله خاصة بالمؤمنين فقط، ولا نصيب فيها للكافر أي عديم الإيمان والمتمرد.

يجب الانتباه هنا إلى أن الله تعالى كيف جعل صفة الرحيمية خاصة بالمؤمنين، ولم يجعل الرحمانية خاصة بهم في أيّة آية، ولم يقل في أيّ مكان: "كان بالمؤمنين رحمانا". بل ذكر الرحمة الخاصة بالمؤمنين بصفة الرحيمية كل مرة. فقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ *(الأعراف: ٥٧)* وقال أيضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ *(البقرة: ٢١٩)* أي أولئك الذين

تركوا أوطانهم وهجروا أطماعهم المادية وسعوا في سبيل الله فهم الذين يتوقعون رحمة الله.. أي أن فيض رحيمية الله تعالى تحالف حتما أولئك الذين يستحقونه، وليس هناك أحد طلبه و لم يجده.

"أيّ عاشق هذا الذي لا يلتفت حبيبُه إلى حاله، فيا صاحبي لا وجود للألم الحقيقي، وإلا فالطبيب موجود."[٧١]

والقسم الرابع للفيض هو **الفيض الأخص** الذي لا يترتب على الجهد والسعي فقط، بل الشرط الأول لظهوره وبروزه هو أن ينعدم ويتلاشى نهائيا في نظر المرء عالَـــمُ الأسباب هذا الذي هو مكان ضيق ومظلم، وأن تتجلى له قدرة الله الكاملة عيانا بتجلّيها التام دون واسطة الأسباب المعروفة؛ لأن الإضافة والكمال -الذي يمكن تصوره من حيث العقل مقارنة مع الفيوض الأخرى- في هذا الفيض الأخير الذي هو قمة الفيوض كلها، هو أن الأخير يكون واضحا جليا ولا يوجد فيه شيء من الاشتباه والخفاء أو النقص. أي يجب ألا يكون هناك أدنى شك في أن المفيض قادر على الإفاضة بالإرادة، ولا يكون هناك أيّ شك في كون الفيض فيضا حقيقيا ورحمةً خالصة وكاملة، بل يجب أن تتبين الإفاضة والجزاء للمالك الأزلي الذي نزل منه هذا الفيض بجلاء تام كوضح النهار. وأن يشاهد متلقّي الفيض ويلاحظ كحق اليقين أن الذي يعطيه نعمة عظمى ومتعة كبرى بمشيئته وإرادته وقدرته الخاصة هو مالك الملك حتما، وأنه في الحقيقة يتلقى على أعماله الصالحة جزاء دائما وكاملا أصفى وأعلى وأحب إليه إلى أقصى الحدود، وأن ذلك الجزاء ليس امتحانا أو ابتلاء له. والتمتع بهذا النوع من الفيض الأكمل والأتم والأبقى والأعلى والأجلى يعتمد على أن ينتقل العبد من هذا العالم الناقص والمكدَّر والثقيل والضيق وغير المريح والفاني ومشتبه الحال إلى عالَــم آخر، لأن هذا الفيض مظهر للتجليات العظمى التي يُشترَط لها أن يكون جمال المحسن الحقيقي ملحوظا بجلاء تام ومشهودا إلى مرتبة حق

---

[٧١] *بيت فارسي مترجم. (المترجم)*

اليقين، وألا تنقصه مرتبة شهود وظهور ويقين، وألا يحول دونه حجاب الأسباب المعروفة، وأن تخرج كل دقيقة من المعرفة التامة إلى حيّز الفعل من مكمن القوة. وأن يكون الفيض مكشوفا ومعلوم الحقيقة بحيث يكون الله تعالى قد كشف أنه بريء من تكدّر كل امتحان وابتلاء، ويتزامن مع المتعة العظيمة والكاملة التي تحيط كيفيتها المقدسة والكاملة بقلب الإنسان وروحه وظاهره وباطنه وجسده ونفسه وكل قوته الروحانية والجسدية بصورة أكمل وأبقى لا يُتخيَّل المزيد عليها عقلا وفكرا وتصوُّرا. إن هذا العالم بما هو ناقص الحقيقة ومكّدر الصورة وهالك الذات ومشتبه الكيفية وضيِّق الآفاق، لا يقدر على احتمال هذه التجليات العظمى والأنوار الأصفى والعطايا الدائمة، ولا تسعه تلك الأشعةُ الكاملة والدائمة، بل إن ظهورها يحتاج إلى عالَم آخر بريءٍ ومنــزَّهٍ تماما عن ظلمة الأسباب المعروفة، ومظهرٍ تام للقدرة الكاملة لله الواحد القهار. صحيح تماما أنه لا يجد من هذا الفيض الأخص حظا إلا الكمَّل الذين يسلكون مسلك الصدق بوجه أكمل، ويتخلون عن مشيئتهم وأهوائهم كليا ويتبتّلون إلى الله تعالى، لأنهم يموتون قبل أن يموتوا. يكونون في هذا العالم ظاهريا ولكنهم في الحقيقة يسكنون عالما آخر. ولأنهم يفصلون قلوبهم عن أسباب الدنيا ويقضون على عادات بشرية ويُعرضون عن غير الله كليا ويختارون طريقا خارقا للعادة، فيعاملهم الله تعالى أيضا المعاملة نفسها ويجلِّي عليهم بوجه خارق للعادة أنواره الخاصة التي لا تظهر على غيرهم إلا بعد الموت.

فباختصار، إنهم ينالون قدرا يسيرا من نور الفيض الأخص في هذا العالم أيضا بسبب الأسباب المذكورة آنفا، علما أن هذا الفيض هو أخص من الفيوض الأخرى كلها ومنتهاها. والحاصل عليه يبلغ السعادة العظمى وينال البحبوحة الدائمة التي هي منبع السعادات كلها. ومن حُرم منه دخل جهنم خالدا. فمن هذا المنطلق ذكر الله تعالى في القرآن الكريم صفته ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. والهدف من جعل كلمة "الدين" معرَّفة هو البيان أن المراد من الجزاء

هو الجزاء الكامل، وتفصيله مذكور في القرآن الكريم. وذلك الجزاء الكامل لا يتحقق إلا بتجلّي المالكية التامة الذي يستلزم هدم بنيان الأسباب. فإلى هذا الأمر يشير تعالى في آية أخرى فيقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ *(غافر: ١٧)* أي في ذلك اليوم سوف تتجلى ربوبية الله تعالى من تلقائها دون توسط الأسباب العادية. وسيكون ملحوظا ومشهودا أن كل شيء إنما هو فانٍ وبلا حقيقة، سوى قوة الله العظمى وقدرته الكاملة. عندها ستتراءى بكل جلاء أن السعادة كلها والمتعة كلها والجزاء والعقاب كله من الله ﷻ، ولن يكون هناك حجاب ولا مجال للشك. والذين تبتّلوا إليه كليا سيجدون عندئذ أنفسهم في سعادة كاملة تحيط بجسدهم وروحهم وظاهرهم وباطنهم ولن يُحرم جزء من وجودهم من تلك السعادة العظمى.

وفي ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة أيضا إلى أن الله تعالى سيكون هو السبب الحقيقي وراء الراحة أو العذاب، والمتعة أو المعاناة التي ستصيب بني آدم في ذلك اليوم. ويكون سبحانه وتعالى هو المالك الحقيقي لأمر الجزاء والعقاب؛ بمعنى أن وصله أو فصله يكون موجبا للسعادة الأبدية أو الشقاوة الأبدية، بحيث أن الذين آمنوا به من قبل واختاروا التوحيد وصبّغوا قلوبهم بصبغة حبه الخالص، سوف تنـــزل عليهم أنوار رحمة ذلك الذات الكامل بكل وضوح وجلاء. والذين لم يؤمنوا و لم يحظَوا بحب الله ﷻ سيُحرمون من تلك المتعة والراحة ويُبتلون بعذاب أليم.

هذه هي الفيوض الأربعة التي كتبناها بالترتيب والتفصيل. وبذلك قد تبين أن تقديم صفة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على ﴿الرَّحِيمِ﴾ كان ضروريا ومقتضى البلاغة الكاملة، لأننا إذا نظرنا إلى صحيفة القدرة، فأول ما يقع عليه النظر هو ربوبية الله تعالى العامةُ، ثم رحمانيته، ثم رحيميته، ثم كونه مالك يوم الدين. وهذا هو كمال البلاغة أن يُراعى الترتيب في صحيفة الإلهام بحسب الترتيب الموجود في صحيفة الفطرة، لأن قلب الترتيب الطبيعي في الكلام يعني قلب ترتيب قانون الطبيعة ونظامه الطبعي. ومن الضروري جدا للكلام البليغ أن يكون نظامه

مطابقا لنظام الطبيعة وكأنه صورته الانعكاسية، وأن يُقدّم في الترتيب أمرٌ هو مقدَّم من حيث الطبيعة والوقوع. فمن البلاغة العظيمة في الآية المذكورة أنها حافظت على الترتيب الواقعي والطبيعي بالإضافة إلى كمال الفصاحة وحسن البيان. وقد اختارت للبيان أسلوبا يلاحظه كل بصير في نظام العالم بالبداهة. أليس طريقا مستقيما أن تُذكر نعماء الله تعالى في صحيفة الإلهام أيضا بالترتيب نفسه الذي وردت به في صحيفة الفطرة. فالاعتراض على هذا الترتيب الحكيم والمحكَم هو في الحقيقية عمل العميان الذين ذهبت بصيرتهم وبصارتهم دفعة واحدة.

"فُقِئت عين الشرير إلى الأبد، لأنه لا شغل لها إلا البحث عن العيوب في الحق."[٧٢]

والآن أكرر بياني وأقول بأن ما بيّنه الله تعالى في سورة الفاتحة الكريمة بدءا من صفة ﴿رب العالمين﴾ إلى ﴿مالك يوم الدين﴾ يشمل أربع حقائق عظيمة بحسب تصريحات القرآن الكريم وأرى من الحكمة بيانها هنا بالتفصيل.

الحقيقة الأولى هي أن الله رب العالمين، بمعنى أن الله ربُّ كلِّ ما يوجد من الأشياء في العالم ومالكها. وكل ما يوجد في العالم أو ما يُرى أو يُلمس أو يمكن أن يدركه العقل كله مخلوق، ولا وجود حقيقي لأي شيء سوى ذات البارئ تعالى. وباختصار شديد إن العالم بجميع أجزائه خلْق الله ﷻ، ليس هناك شيء في أجزاء العالم لم يخلقه الله. وإن الله تعالى متصرف وحاكم بربوبيته التامة على كل ذرة من ذرات العالم، وإن ربوبيته تعمل عملها في كل حين وآن باستمرار. وليس أن الله تعالى خلق العالم ثم انفصل عن نظامه وجلس عاطلا، وسلّمه إلى قانون الطبيعة ولم يعد يتدخل في أي شيء، ولم تعد بين الخالق الحقيقي والمخلوقات أية علاقة، كما تنقطع العلاقة بين الأداة وصانعها بعد صنعها. بل الحق أنه ربّ العالمين ويسقي العالم كله كل حين وآن بماء ربوبيته

---

[٧٢] *بيت فارسي مترجم. (المترجم)*

التامة، وأن غيث ربوبيته ينـــزل على العالم كله بالتواتر دون انقطاع. ولا يخلو وقت من رشح فيضه. بل الحق أن هناك حاجة -إلى الله مبدأ الفيض- بعد خلق العالم أيضا دون أدنى تفاوت وكأنه لم يخلق شيئا بعد. وكما كانت الدنيا بحاجة إلى ربوبيته من أجل وجودها وظهورها من قبل كذلك لا تزال بحاجة إلى ربوبيته اليوم أيضا من أجل بقائها وقيامها. وهو الذي يحافظ على الدنيا في كل حين وآن، وكل ذرة من الدنيا نضرة بسببه هو ﷻ، وهو الذي يتولى ربوبية كل شيء بحسب مشيئته وإرادته كيفما يشاء، وليس أن يكون سببا لربوبية شيء دون إرادته.

فالمراد من هذه الحقيقة المذكورة بحسب الآيات القرآنية التي ألخصها هنا هو أن كل ما يوجد في العالم إنما هو مخلوق وبحاجة إلى ربوبية الله تعالى في جميع كمالاته وفي جميع حالاته وجميع أوقاته. وما من كمال روحاني أو مادي يمكن أن يناله مخلوق تلقائيا بدون مشيئة ذلك المتصرف القدير الخاصة. وبحسب توضيح هذا الكلام المقدس هناك معان أخرى أيضا أُخذت بعين الاعتبار في هذه الحقيقة وغيرها، وهي أن صفة رب العالمين وغيرها التي توجد في الله تعالى خاصةٌ بذات الله وحده لا شريك له، ولا يشاركه فيها أحد، كما ذُكر في الجملة الأولى لهذه السورة أي: ﴿الحمد لله﴾ أن المحامد كلها خاصة بالله تعالى. والحقيقة الثانية هي: ﴿الرحمن﴾ التي ذُكرت بعد ﴿رب العالمين﴾. ومعنى الرحمن كما بينتُ من قبل أيضا، هو أن كل ما يوجد في العالم من كائن حي سواء كان من ذوي الشعور أم غيرهم، وسواء كان صالحا أم طالحا، فقد هيأ الله تعالى ويهيئ دائما نتيجة رحمته العامة أسبابا مطلوبة كلها لقيامه وبقاء وجوده وبقاء نوعه وتكميله. وهذا عطاء محض لا يتوقف على عمل عامل. والحقيقة الثالثة هي "الرحيم" التي ذُكرت بعد "الرحمن"، ومعناه أن الله تعالى يُرتِّب بمقتضى رحمته الخاصة ثمرات حسنة على سعي كل ساعٍ، فيغفر للتائبين ذنوبهم، ويعطي السائلين، ويفتح للذين يطرقون.

والحقيقة الرابعة المذكورة في سورة الفاتحة هي: ﴿مالك يوم الدين﴾، أي أن الله القادر والقدير هو مالك الجزاء الكامل الذي يخلو من كل نوع من الامتحان والابتلاء ومنـــزَّه عن شوائب أسباب الغفلة والافتراء، وبريء من كل كُدورة وشكٍّ وارتياب ونقص، ومظهر للتجليات العظمى. ولا يعجز قط عن إظهار جزائه الكامل والواضح وضح النهار. ويهدف الله تعالى من إظهار هذا الصدق العظيم أن تتبين على كل شخص الأمور التالية كحق اليقين.

أولا: أن الجزاء والعقاب أمر حتمي ويقيني وينـــزل من المالك الحقيقي، ويصيب العباد بمشيئة الله الخاصة، ولكن لا يمكن كشفه بوضوح تام في الدنيا لأنه لا يستبين لعامة الناس في الدنيا ما هو السبب وراء كل ما يصيبهم من الخير والشر والراحة والألم، وبأمر مَن يصيبهم؟ ولا يتناهى لأحد صوت أنه نائل جزاءه، ولا يُكشف على أحد بشكل مشهود ومحسوس أن كل ما يمرّ به إنما هو جزاء أعماله.

ثانيا: قد أريدَ من خلال هذه الحقيقة كشف أن الأسباب العادية ليست شيئا بل الفاعل الحقيقي هو الله وحده. وهو الذات العظيم والوحيد الذي هو مبدأ جميع الفيوض ومالك الجزاء والعقاب كله.

والأمر الثالث الذي أُريدَ بيانه من خلال هذه الحقيقة هو ماهية السعادة العظمى والشقاوة العظمى. أيْ أن السعادة العظمى هي حالة الفوز العظيم حين يحيط النور والسرور والمتعة والراحة بظاهر الإنسان وباطنه وجسده وروحه ولا يبقى عضو أو قوة خارج نطاقها. أما الشقاوة العظمى فهو عذاب أليم يُضرَم في القلوب بسبب المعصية وعدم التطهُّر والبُعد ثم يستولي على الأجساد حتى يبدو الوجود كله في النار والسقر. إن هذه التجليات العظمى لا يمكن أن تتجلى في هذا العالم لأن هذا العالم الضيق والمنقبض والمكدَّر والواقع في حالة ناقصة بسبب الاختفاء وراء الأسباب الظاهرية لا يحتمل ظهورها، بل يغلب هذا العالمَ الابتلاءُ والفتنةُ، وإن راحته وألـــمه مؤقتان وناقصان. وكل ما

يصيب الإنسان في هذا العالم يكون محجوبا بحُجُب الأسباب، الأمر الذي يؤدي إلى حَجب وجه مالك الجزاء وكتمانه لذا لا يمكن أن يكون هذا العالم يوم الجزاء بوجه خالص وكامل ومكشوف بل إن يوم الدين، أي يوم الجزاء الخالصُ والكاملُ والمكشوف، هو ذلك العالم الذي سيأتي بعد نهاية هذا العالم، وهو المظهر لتجليات عظمى وهو مكان ظهور الجلال والجمال بوجه أكمل. ولأن هذا العالم الدنيوي ليس دار الجزاء من حيث وضعه الحقيقي بل إنما هو دار الابتلاء لذا فإن ما يصيب الناس من العسر واليسر والراحة والألم والسعادة والحزن في هذا العالم أيضا، لا يدلّ على لطف الله أو غضبه دلالة قاطعة. فمثلا إن غنى أحد من الناس لا يدل بالقطع على أن الله تعالى راض عنه تماما، كذلك إن إفلاس أحد وفقره أيضا لا يدل بالجزم على أن الله ساخط منه. بل كِلا هذين الأمرين يشكل ابتلاء ليُبتَلى الغني بغناه ويُبتَلى الفقير بفقره.

هذه هي الحقائق الأربعة التي قد ذُكرت في القرآن الكريم ببيان مفصل. ويتبين بمطالعة القرآن الكريم أن آيات القرآن الكريم تجري في تفصيلها كبحر زخار. لو فسرتُ هنا تلك الآيات بالتفصيل لنفدت في ذلك عدة أجزاء من الكتاب، لذا فقد اكتفيتُ في هذا البحث التمهيدي بما قلّ ودلّ من كلمات سورة الفاتحة لأني سأفصلها قريبا بإذن الله تعالى في محلها عند ذكر البراهين القرآنية.

والآن أريد أن أذكر أن هذه الحقائق الأربعة البيِّنة الثبوت وبديهية الصدق إنما هي عديمة النظير وتحتل درجة عليا بحيث يثبت بالأدلة القاطعة أنها كانت قد اختفت من الدنيا في أيام بعثة النبي ﷺ، وما كان على وجه المعمورة قوم ملتزم بها دون شوائب الإفراط والتفريط. ثم نزل القرآن الكريم وأخرج هذا الكلامُ المقدسُ تلك الحقائق المفقودة من زاوية الكتمان من جديد وأخبر الضالين عن وجودها الحقيقي، ونشرها في الدنيا ونوّر عالـــمًا بنورها. ولكن كيف كانت أمم العالم غافلة وجاهلة عن تلك الحقائق! يكفي إثباتا لذلك دليل واحد أنه لا

يوجد في العصر الراهن أيضا أمة ملتزمة بهذه الحقائق على وجه صحيح وكامل سوى أهل الدين الحق؛ الإسلام. ومن ادّعى بوجود أمة مثلها فعليه تقع مسئولية الإثبات.

وبالإضافة إلى ذلك فإن شهادة القرآن الكريم التي هي حجة على كل مخاصم بسبب انتشارها بين الأصدقاء والأعداء تكفي دليلا. وتلك الشهادات مذكورة في القرآن الكريم بكثرة في عدة آيات. ولا يجهل مؤرخ وملمٌّ بالحقيقة أن كل قوم كان قد بلغ من الضلال والغواية قمّته في أيام بعثة النبي ﷺ، وما كانوا ثابتين على أيّ صدق بوجه كامل. فلو ألقينا نظرة على حالة اليهود قبل غيرهم لتبين أن شكوكا وشبهات كثيرة كانت تخالجهم في ربوبية الله تعالى التامة، فقد اتخذوا لأنفسهم مئات الأرباب المتفرقة غير مكتفين برب العالمين الواحد. أيْ أن عبادة المخلوق وعبادة الآلهة فيهم كانت على أشدها، كما ذكر الله تعالى حالتهم هذه في القرآن الكريم فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ *(التوبة: ٣١)*. أي أن اليهود قد اتخذوا مشايخهم ورهباهم الذين هم مخلوقون وليسوا آلهة أربابا وقاضي حاجاهم. وإن معظم اليهود كانوا يعتقدون مثل أتباع مذهب الطبيعة أن نظام الدنيا جارٍ على قوانين ثابتة ومعينة ومنضبطة، وأن الله ﷻ عاجز عن التصرف بالقدرة في هذا القانون، وكأن يديه مغلولتان فلا يقدر على خلق شيء بخلاف هذا القانون ولا يقدر على الإفناء، بل لا تزال آلة العالم تعمل من تلقاء نفسها معتمدة على قوة أجزائها منذ أن لمّ شمل العالم بطريقة معينة وتفرّغ عن خلق العالم، ولا تصرُّف ولا دخل لرب العالمين في عمل تلك الأداة. وليس له الخيار في أن يُظهر ربوبيته على مراتب متفاوتة بحسب رغبته ومشيئته، أو أن يغيّر شيئا بحسب مشيئته. بل يعدّ اليهودُ اللهَ تعالى كيانا ماديا ومتجسدا ويعُدّونه مثل العالم المادي وجزءا منه. وقد ترسخ في ذهنهم الناقص أن كثيرا من الأشياء التي تجوز للمخلوق تجوز لله أيضا، فلا يعتقدون بأنه منـــزَّه من كل الوجوه. وفي توراهم المحرَّفة والمبدَّلة

أنواع من الإساءات بحق الله تعالى. فقد جاء في سِفر التكوين: ٣٢ ما مفاده أن الإله ظل يصارع يعقوب طول الليل ومع ذلك لم يقدر عليه. واتخذوا بعض الرجال أبناء الله بخلاف المبدأ القائل بأن الله ربّ لكل ما في العالم، كما ورد عن النساء في مكان أنهن بنات الله. وجاء في مكان آخر في الكتاب المقدس أنكم جميعا آلهة. صحيح أن المسيحيين قد تعلّموا عبادة المخلوق من هذه التعاليم لأنهم حين علموا أن تعليم الكتاب المقدس يجعل أناسا كثيرين أبناءً وبناتٍ لله تعالى بل يعُدُّهم آلهة أيضا قالوا في أنفسهم تعالَوا نُقحم ابن مريم أيضا فيهم حتى لا يتخلّف عن بقية الأبناء. لذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم بأنهم لم يأتوا بشيء جديد عندما عدّوا ابن مريم ابنا لله تعالى بل حذوا حذو الملحدين والمشركين الذين سبقوهم.

فباختصار، كانت عبادة المخلوق في زمن سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ غالبة على اليهود إلى أقصى الدرجات، وكانوا قد ابتعدوا عن المعتقدات الحقة أيما بُعد، لدرجة كان بعضهم يعتقدون بالتناسخ أيضا مثل الهندوس، وكان البعض ينكرون الجزاء والعقاب نهائيا. أما بعضهم الآخرون فكانوا يعتقدون باقتصار الجزاء والعقاب على الدنيا فقط وما كانوا يعتقدون بالقيامة. وحذا آخرون منهم حذو الإغريق فاعتقدوا بأزلية المادة والأرواح وكونها غير مخلوقة. كان البعض يعتقدون بفناء الروح مثل الملحدين وذهب غيرهم إلى أن الله تعالى ليس ربّ العالمين ومدبّر الكون بإرادته.

فزبدة الكلام أن أفكارهم كانت فاسدة كلها فسادَ جسد المجذوم، فما كانوا يعتقدون بصفات الله الكاملة مثل الربوبية والرحمانية والرحيمية، ومالكية يوم الدين. وما كانوا يعدّون تلك الصفات خاصة به ﷻ وما كانوا يوقنون بوجودها في الله تعالى على وجه كامل. بل تطرق إلى معتقداتهم كثير من الظنون السيئة وأنواع الإلحاد والشوائب. وقد شوّهوا صورة تعليم التوراة بشدة متناهية وبدأوا بنشر رائحة كريهة للشرك والسيئة. فكان معظمهم مرشدي

المشركين ومن السابقين الأولين في عدّ الله تعالى كيانا متجسدا وعاطلا عن ربوبيته ورحمانيته ورحيميته وغيرها من الصفات، وفي عدّ أشياء أخرى شريكة له سبحانه وتعالى فيها.

هكذا كانت حالة اليهود، ولكن من المؤسف حقا أن النصارى جعلوا حالهم أسوأ من ذلك في غضون أيام قليلة، فلم يعودوا ثابتين على أيّ من أقسام الحقائق المذكورة آنفا، ونسبوا صفات الله الكاملة كلها إلى ابن مريم. يتلخص دينهم في أن الله تعالى ليس ربًّا لجميع ما في العالم، بل المسيح خارج عن ربوبيته بل هو ربٌّ بحد ذاته. وكل ما خُلق في العالم ليس مخلوقا وحادثا كقاعدة عامة بحسب زعمهم الباطل، بل إن ابن مريم غير مخلوق ويساوي اللهَ تعالى بل ربٌّ في حد ذاته مع كونه حادثا ومخلوقا في العالم، وفي شخصه العجيب أعجوبة إذ إنه قديم مع كونه حادثا. ومع أنه بحسب إقراره هو تحت إمرة وتصرُّف ذات واجب الوجود إلا أنه واجب الوجود ومستقل بحد ذاته وليس تحت إمرة أحد. ومع أنه ضعيف وتعوزه القوة بحسب اعترافه هو ولكنه مع ذلك قادر وقدير وليس عاجزا بحسب زعم المسيحيين الباطل. ومع أنه معترف بنفسه أنه يجهل الأمور الغيبية تماما لدرجة لا يدري متى تقوم القيامة ولكنه يُعدّ عالم الغيب بحسب عقيدة النصارى الخاطئة. ومع أنه عبد ضعيف بإقراره وبشهادة صحائف الأنبياء ومع ذلك يُعدّ إلـــها في نظر النصارى. ومع أنه ليس بارا وبريئا من الذنب كما اعترف بنفسه ولكنه بارٌّ وبريء من الذنب عند النصارى.

فباختصار، إن المسيحيين قوم غريبون حقا قد جمعوا الضدَّين وأجازوا التناقض. ومع أن تمسكهم بالمعتقدات المذكورة آنفا يستلزم كذب المسيح ولكنهم مع ذلك لم يتخلوا عنها، وعدّوا عبدا فانيا وحقيرا وعاجزا ربَّ العالمين، وأجازوا لربّ العالمين كل نوع من الذلة والموت والألم والمعاناة

والتجسد والحلول والتغيُّر والتبدُّل والحدوث والتولُّد، فقد اتخذ الأغبياءُ اللهَ ألعوبة!!

ثم لا يقتصر الأمر على النصارى فقط بل قد اتُّخذ قبلهم كثيرٌ من العباد الضعفاء آلـــهةً. فهناك من يقول إن "رام تشندر" إلـــهٌ، ويقول الآخر: لا، بل إن ألوهية "كرشنا" أقوى منه. كذلك هناك من يحسب "بوذا" إلـــهًا، وهناك من يؤلِّه غيره وهكذا دواليك. فعلى المنوال نفسه حذا هؤلاء السذج في العصر الأخير حذو المشركين الأوائل واتخذوا ابن مريم إلـــها وابن إله.

فلباب الكلام أن المسيحيين لا يعدّون الله الحقيقي ربّ العالمين ولا يعُدّونه الرحمن ولا الرحيم، ولا يعتقدون بكونه مالك يوم الدين بل السماوات والأرض خالية من وجود الإله الحقيقي بحسب زعمهم، ويعدّون ابن مريم كل شيء. فيزعمون أنه إذا كان هناك ربٌّ فهو ابن مريم، وإذا كان هناك "الرحمن" أو "الرحيم" فليس إلا هو، وإذا كان هناك مالك يوم الدين فليس إلا ابن مريم.

كذلك إن عامة الهندوس والآريين أيضا منحرفون عن هذه الحقائق لأن الآريين منهم لا يؤمنون بالله تعالى خالقا أصلا، ولا يعُدّونه ربَّ أرواحهم. أما الوثنيون منهم فلا يعدّون صفة الربوبية خاصة برب العالمين، بل يعدّون ثلاثمئة وثلاثين مليون إلهٍ شريكا لله في الربوبية ويسألونها مراداتهم. فكل من هذينِ الفريقين ينكر رحمانية الله أيضا، ويعتقدون بحسب تعليم الفيدا أن صفة "الرحمن" لا توجد في الله مطلقا. وكل ما خلقه الله ﷻ لأهل الدنيا فقد اضطر لخلقه بسبب أعمالهم الصالحة، وإلا فالإله ليس قادرا على أن يحسن إلى أحد بمحض إرادته بل لم يفعل ذلك قط. كذلك لا يحسبون الله كامل الرحمة لاعتقادهم أنه مهما تاب المذنب توبة نصوحا بصدق القلب وظل عاكفا على التضرع والإلحاح وكسب الأعمال الصالحة إلى سنين طويلة لن يغفر الله له ذنوبه التي صدرت منه ما لم يتحمَّل عقوبته بولادته مئات آلاف المرات عن طريق التناسخ. فكلما ارتكب أحد ذنبا، ما نفعته التوبة ولا العبادة ولا خشية

الله ولا حبه ولا عمل صالح آخر وكأنه مات وهو حيٌّ ويئس من رحيمية الله تعالى كليا. فإن هؤلاء القوم لا يؤمنون إيمانا كاملا بيوم الجزاء الذي بناء عليه يُعدّ الله تعالى مالك يوم الدين. وينكرون أيضا ظهور الأساليب المذكورة آنفا التي بسببها يصل الإنسان سعادته العظمى على وجه كامل أو يواجه شقاوته العظمى على وجه كامل، ويرون النجاة الأخروية أمرا خياليا ومزعوما فقط بل لا يعتقدون بالنجاة الأبدية أصلا. ويقولون بأن الإنسان لن ينال الراحة الدائمة، لا في هذا العالم ولا في ذلك، والدنيا أيضا دار الجزاء الكامل مثل الآخرة بحسب زعمهم الباطل. ويرون أن مَن أُعطِي ثروة هائلة في الدنيا فقد أُعطِيها نتيجة أعماله الصالحة التي كسبها في حياته السابقة، فهو يستحق أن يُنفق تلك الثروة في هذه الدنيا لإشباع أهواء نفسه الأمارة. ولكن من الواضح تماما أن عدَّ إعطاء الله تعالى أحدا ثروة في هذه الدنيا جزاءً لأعماله في الحقيقة ليجعلها وسيلة للأكل والشرب وإشباع الأهواء من كل نوع غير جائز بكل المعايير وعزْوه إلى الله تعالى إساءة من الدرجة القصوى، لأن ذلك يؤدي إلى استنتاج أن إلـــه الهندوس يتعمّد توريط الناس في الأعمال السيئة والقذرة. وينوي أن يفتح عليهم أبواب الأهواء النفسانية على مصراعيها قبل أن تتطهّر نفوسهم. ويوفر لهم جزاءً على أعمالهم الصالحة في حياتهم السابقة كافة أسباب التنعُّم والرفاهية في الحياة التالية ليتبعوا النفس الأمارة كليًا فيقعوا فيما تحت الثرى.

والمعلوم أن الذي ترسخت في ذهنه فكرة أن كل ما يملكه من مال وثروة وجاه وحكم إنما هو جزاء أعماله السابقة؛ أفلا يتّبع نفسه الأمارة إلى أقصى الحدود يا تُرى؟ ولكن إذا كان يُدرك أن الدنيا ليست دار الجزاء بل هي دار الابتلاء، وكل ما أُعطِيه إنما هو على سبيل الابتلاء لِيُنظَر كيف يعمل، وما من شيء هو مِلك أو حقٌّ له، فسيرى في هذه الحالة نجاته في أن يُنفق جُل ماله في الحسنات وسيشكر أيضا شكرا كثيرا لأنه لا يشكر بالإخلاص والحب من

الأعماق إلا الذي يُدرك أن كل ما ناله كان مجانا وقد أُعطِي كل شيء بغير استحقاق منه.

فباختصار، إن الله ليس ربّ العالمين عند الآريين وليس "الرحمن" ولا "الرحيم"، ولا قادرا على الجزاء الأبدي والدائم والكامل.

والآن أبيّن ما هو موقف أتباع برهمو سماج تجاه المعارف المذكورة، أي عن الحقائق الأربعة التي ذكرتها آنفا، وهل هم متمسكون بها أم لا؟

فليكن واضحا أنهم ليسوا ثابتين عليها أو متمسكين بها كما يجب، بل ليسوا مطلعين أصلا على مفهوم كامل لتلك المعارف السَنيّة. أولا وقبل كل شيء إن كون الله تعالى ربّ العالمين -وهو المراد من الربوبية التامة- لا يزال خافيا عن فهمهم وإدراكهم إلى الآن. ولا يرون أن لربوبية الله تأثيرا على الدنيا أكثر من أنه خلق في وقت من الأوقات هذا العالم كله مع كافة قواه وقدراته، أما الآن فإن تلك القدرات والقوى مسخّرَة وتعمل عملها باستمرار، ولا يستطيع الله أن يتصرّف فيها أو يغيِّر فيها شيئا أو يبدِّل. وأن أساس قوانين الطبيعة المحكمَ والقويَّ قد جعل ذلك القادر القدير عاطلا بحسب زعمهم الباطل، ولم يعد لديه سبحانه وتعالى مجال للتصرف فيها. فمثلا لم يعد سبحانه وتعالى يعرف خطةً ليمنع مادة حارة من أن تؤثّر حرارتها، أو أن يعيق مادة باردة من أن تؤثِّر برودتها، أو يمنع تأثير النار للإحراق. وإذا كان يعرف خطة ما فإلى حدودٍ يحيط بها علم الإنسان وليس أكثر من ذلك، بمعنى أن حدود قدرات الله تنتهي على ما كشفه الإنسان من كيفية العالم وخواصه المحدودة وما أحاطته به تجارب البشر إلى الآن، ولا تعمل قدرته التامة وربوبيته العامة أكثر من ذلك قط. وكأن كلّ قدراته وجُل حِكمه تقتصر على ما كشفه الإنسان؟ والمعلوم أن هذا الاعتقاد ينافي الربوبية التامة والقدرة الكاملة أيما منافاة؛ لأن الربوبية التامة والقدرة الكاملة غير محدودة مثل ذات الله غير المحدود، ولا يمكن لقاعدة أو قانون إنساني أن يحيط به.

" إن طريق إظهار القدرة ليس محدودا، وإن الادعاء بحصر قدرات الله إنما هو ادّعاء الألوهية."[٧٣]

فليكن معلوما أن ما كان غير محدود وغير محصور لا يمكن أن يخضع لقانون لأن ما كان ضمن حدود القواعد المعلومة والمفهومة من أوله إلى آخره ولا يخرج جزء منه من هذه السلسلة ولا يكون غير معلوم أو غير مفهوم فيكون ذلك الشيء محدودا. الآن، لو عُدَّت قدرات الله الكاملة وربوبيته التامة منحصرة في قوانين محدودة وثابتة لاستلزم ذلك أن يُعدّ محدودا الشيءُ الذي سبق أن عدَّ غير محدود. فمن خطأ أتباع برهمو سماج الفادحِ أهم يريدون أن يُقحموا قدرات الله اللامتناهية وربوبيته في دائرة تجارهم الضيقة ولا يدرون أن الأمور التي تخضع لقانون ثابت ومحدد تقتضي أن يكون مفهومها محدودا. ولكن الحِكم والقدرات الموجودة في ذاتٍ غير محدودة يجب أن تكون غير محدودة كذلك. هل لعاقل أن يقول إن الله القادر القدير يعرف عملية الخلق بطريقة كذا وكذا فقط وليس أكثر من ذلك؟ هل يمكن أن تُقاس قدراته غير المتناهية بمقياس بشري أو هل يمكن أن تعجز عن التصرف في العالم حِكمُه المبنية على القدرة المطلقة وغير المتناهية؟ لا شك أن يده القوية مهيمنة على كل ذرة، وليس قيام مخلوق من المخلوقات وبقاؤه نتيجة خلقه الذاتي المحكم، بل هو بفضله وبركته ﷻ. وهناك مجالات كثيرة لإظهار قدراته الربانية، فلا نهاية لها داخليا ولا حد لها خارجيا أيضا. فكما يمكن أن يخلق الله تعالى أسبابا خارجية لإزالة الحرارة من النار المشتعلة فتزول حدها، كذلك يمكن أن يخلق الله ﷻ في النار نفسها أسبابا لإزالة صفة الإحراق منها تؤدي إلى اختفاء خاصة الإحراق منها لأنه لا شيء مستحيل أمام حِكمه وقدراته غير المتناهية. وحين اعترفنا بأن حِكمه وقدراته غير متناهية وجب أن نؤمن أيضا أنه من المستحيل أن نحيط بجميع حِكمه وقدراته علما. فلا يمكن أن نسنَّ لِحكمه التي لا حد لها وقدراته

---

[٧٣] *بيت أردي مترجم. (المترجم)*

قانونا. والشيء الذي لا نعلم حدوده نكون عاجزين عن الإحاطة به علمًا. والمعلوم أننا كدائرة ضيقة وصغيرة جدا من عالَم بني آدم، ولا نحيط بهذه الدائرة الضيقة أيضا علما، فمن غباوتنا الشديدة أن نقيس حِكم الله تعالى وقدراته غير المحدودة بهذا المقياس الصغير بل الأصغر.

فباختصار، إن أتباع برهمو سماج ينكرون ربوبية الله التامة وقدرته الكاملة التي تسقي كل ذرة في كل حين وآن حفاظا على وجودها وبقائها، والتي تخرج أعمالها العميقة عن حدّ العدّ والإحصاء.

وبالإضافة إلى ذلك إن أتباع برهمو سماج لا يعدّون ربوبية الله تامةً وكاملة من حيث الروحانية أيضا ويعُدّون الله عاجزا وقاصرا عن أن ينــزل كلامه المنير الذي لا ريب فيه لهداية الناس بمقتضى ربوبيته التامة. كذلك لا يؤمنون إيمانا كاملا برحمانيته أيضا، لأن المراد من الرحمانية الكاملة هو أنه كما خلق الله تعالى بيد قدرته الخاصة جميع الأسباب لتكميل الأجساد وتربيتها وخلق بيده مئات الأشياء بما فيها الشمس والقمر والهواء والسحاب وغيرها للراحة المادية المؤقتة، كذلك قد أنــزل النور الروحاني أي كلامه المقدس والمنير من أجل عاقبة الدنيا، للتكميل الروحاني وللتربية الروحانية ولراحة العالم الذي شقاوته وسعادته أبدية. ويكون قد وهب بنفسه كل العلوم التي تحتاج إليها الأرواح المستعدة، ونجاها من الشكوك والشبهات التي تهددها بالهلاك. ولكن أتباع برهمو سماج لا يعترفون بهذه الرحمانية الكاملة. ويزعمون أن الله تعالى لم يدّخر جهدا في سبيل ملءِ بطون الناس ولكنه ما استطاع أن يسد حاجاتهم من حيث تربيتهم الروحانية، وهذا يعني أن الله تعالى قد قصّر متعمِّدا في التربية الروحانية التي هي التربية الحقيقية والمهمة ولم يخلق لها أسبابا كافية وقوية كما خلق لتربية الأجساد، بل ترك الإنسان وعقلَه الناقص دون أن يخلق من عنده نورا كاملا لنصرة عقله لتصير بها عين عقله الضبابيةُ بصيرةً وتختار طريقا مستقيما وتنجو من مهالك السهو والخطأ.

كذلك لا يؤمن أتباع برهمو سماج إيمانا كاملا برحيمية الله تعالى أيضا لأن المراد من الرحيمية الكاملة هو أن يملأ اللهُ تعالى الأرواح المستعدة بالمعارف الصافية وغير المحجوبة بحسب حماسها الفطري وبقدر إخلاصها المليء بالحماس وبقدر مساعيها المخلصة، ويفتح عليهم أبواب السماء بقدر ما يفتحون قلوبهم، وليُعطَوا ماء بقدر ما يشتد ظمأهم حتى يرتووا من شراب حق اليقين الطهور وينجوا تماما من موت الشكوك والشبهات. ولكن أتباع برهمو سماج ينكرون هذه الحقيقة ويزعمون أن الإنسان تعيس الحظ لدرجة لا يستطيع أن يحظى بوصال الحبيب الحقيقي مهما اضطرب لذلك ومهما جرت عيونه أنهارا، بل لو صار ترابا من أجل وصال حبيبه لن يصل إلى حبيبه الغالي على قلبه. ويزعمون أنه قاسي القلب قسوة متناهية فلا يرحم طالبيه ولا يُطمئن الباحثين عنه بآياته الخاصة، ولا يعالج المتألمين بتجلياته المدلِّلة بل يتركهم تائهين في أفكارهم ولا يرزقهم معرفة أكثر من أن يتخبّطوا في التخمينات من عند أنفسهم فقط فيضيعوا أعمارهم كلها في التخمينات ويموتوا في حالة من الظلمة المستولية عليهم.

ولكن هل صحيح فعلا أن الله قاسي القلب إلى هذا الحد أو فاقد الرحمة وبخيل إلى هذه الدرجة أو ضعيف وعديم الحيلة بحيث يترك الباحثين عنه حيارى ومشدوهين ويغلق بابه على الذين يطرقون ولا يرحم الذين يفرون إليه بصدق، ولا يرحم حالة ضعفهم ولا يأخذ بيدهم بل يدَع الطالبين الصادقين ليسقطوا في الهوة ولا يتقدم إليهم خطوات لطفا منه ولا يجعل مدة معاناتهم قصيرة بتجليه الخاص؟ سبحانه وتعالى عما يصفون!

كذلك يجهل أتباع برهمو سماج أن الله "مالك يوم الدين"، لأن حقيقة مالكية يوم الدين هي أن تظهر ملكية الله التامة -التي تتوقف على التجليات العظمى- ويُعطَى العبادُ جزاء موفورا بحسب عظمة الملكية التامة. أيْ يجب أن تظهر ملكية المالك الحقيقي التامة أولا ظهورا كاملا حتى تزول الأسباب المعروفة كليا

ولا يبقى لزيدٍ أو عمر أيّ دخلٍ في ذلك أبدا بل يتراءى لهم وجود الله المالك الواحد القهار بكل وضوح. وبعد تجلّي هذه المعرفة الكاملة يجب أن يتجلّى الجزاء أيضا بتجلٍّ كامل أي يكون كاملا من حيث الورود ومن حيث الوجود أيضا. والمراد من حيث الورود هو أن يكون معلوما ومتحققا لكل نائلِ جزاءٍ أنه جزاءُ أعماله في الحقيقة. وأن يكون متحققا أيضا أن مُعطي الجزاء هو في الحقيقة ذلك الكريم أي رب العالمين وليس غيره. وأن يتحقق كلٌّ من هذين الأمرين بجلاء تام دون أن يبقى للشك أيّ مجال.

كذلك يجب أن يكون التجلّي كاملا من حيث الوجود أيضا ليحيط بقلب الإنسان وروحه وظاهره وباطنه وجسده ونفسه وبكل قوته الروحانية والمادية إحاطة الدائرة. ويجب أن يكون التجلي مستديما وأبديا لا ينقطع ليصل مَن سبق في الحسنات إلى سعادته العظمى التي هي ذروة السعادات كلها، ويصل مَن سبق في السيئات إلى شقاوته العظمى التي هي النقطة الأدنى للشقاوات كلها. لكي ينال كل فريق أعلى درجة مكافأة ممكنة له، أي ينال المكافأة الكاملة والأبدية التي لا يمكن تحققها في هذا العالم الفاني والزائل الذي تنتهي كافة آلامه وأسباب راحته بالموت. بل قد حدد المالكُ الحقيقي لظهوره الكامل -ولإظهار لطفه ﷻ الكامل وقهره العظيم أي للتجلي الكامل لصفات جماله ﷻ وجلاله- عالما آخر وهو عالم أبدي لا يزول، لكي تتجلّى صفةُ الله مالك يوم الدين -التي لا يمكن أن تتجلى على وجه كامل في هذا العالم الضيق والفاني- في ذلك العالم الواسعِ بالتمام والكمال. ولكي يصل الإنسان بناء على تلك التجليات التامة والكاملة إلى أعلى مرتبة المشاهدة بقدر قدراته البشرية. ولأن المكافأة من الدرجة العليا تنحصر -عند العقل- في أن الأمر الذي يمثّل الجزاء يجب أن يحيط بظاهر الإنسان وباطنه وجسده وروحه بالتمام والكمال وبصورة دائمة وحتمية، وأن أعلى مرتبة اليقين بوجود المالك الحقيقي تعتمد على أن يقضي ذلك المالك الحقيقي على الأسباب العادية قضاء نهائيا ويتجلّى بوضوح تام، لذا

فإن الحقيقة القصوى التي أريدَت بها المعرفة القصوى والمكافأة القصوى لن تتحقق إلا إذا تحققت جميع الأمور المذكورة آنفا التي يحتوي عليها تعريف المعرفة القصوى، لأنه لا يمكن تحقق المعرفة المتناهية، بحسب العقل إلا إذا كان جمال المالك الحقيقي مشهودا كحق اليقين، أي ينبغي أن يكون ظهوره وبروزه على وجه أتم تماما لا يُتصوَّر أكثر منه. وعلى هذا المنوال، إن تحقق أعلى درجة المكافأة أيضا مستحيل عند العقل إلا إذا كان الجسد والروح مورد إنعام أو محل عقاب معا عند المكافأة كما كانا مطيعَينِ أو عاصيَينِ ومتمردَينِ معا في الحياة الدنيا، وأن يحيط بحر المكافأة الكاملة الزخارُ إحاطة تامة بالظاهر والباطن على حد سواء.

لكن أتباع برهمو سماج ينكرون هذه الحقيقة أيضا بل إن هذه الحقيقة القصوى غير متحققة الوجود أصلا بحسب رأيهم. ولم يُكتب في نصيب الإنسان بحسب زعمهم نوال المعرفة التامة ولا المكافأة الكاملة، بل ليست المكافأة عندهم إلا فكرة خيالية فقط مبنية على أفكار المرء الشخصية والباطلة فحسب، ولن يُصيب العباد جزاء حقيقي من الله ولن يرد عليهم منه عقاب، بل إن أفكار الإنسان التي اخترعها بنفسه هي التي تتسبب في حسن الحال أو سوء الحال، ولن ينـــزل من الله تعالى أمرٌ ظاهري أو باطني -بمشيئته الخاصة- على العباد الصالحين كنعمة كما لن يحل بالطالحين كعذاب.

إذن، إنهم لا يؤمنون بأن الله تعالى مالك الجزاء والعقاب وهو الذي سينـــزِّل بمشيئته الخاصةِ الراحةَ والبحبوحة على عباده الصالحين ويُنعم عليهم بفيض المتعة الدائمة التي لن يشعر السعداء بلذتها الكاملة باطنيا فقط بل سيشعرون بها بصورة مشهودة ومحسوسة أيضا، ولن تُحرم من متعتها قوة من قوى الإنسانية الظاهرية أو الباطنية بقدر ما يناسب حالها، وسيشارك الجسد والروح معا في الأمن أو العذاب الأخروي بحسب مقتضى الحال.

باختصار، إن معتقد أتباع برهمو سماج يخالف تماما هذه الحقيقة وينافي مفهومها الكامل أيما منافاة حتى إنهم لعماهم الباطني يجعلون الأسباب المادية للنجاة الأخروية -المذكورة في القرآن الكريم لتكميل السعادة العظمى بحسب القوى الظاهرية- محلَّ اعتراض، كذلك يعترضون على الأسباب المادية للعذاب الأخروي بحسب القوى الظاهرية لتكميل الشقاوة العظمى كما هو مذكور في القرآن الكريم. تبًّا للعقل الذي يرى الحقيقة البديهية والكاملة معيبة.

الأسف كل الأسف، لماذا لا يفقه هؤلاء القوم أن الطريق الوحيد لنوال السعادة العظمى أو الشقاوة العظمى هو أن ينــزِّل الله تعالى بعنايته الخاصة أمر المكافأة كاملا. والمراد من النــزول الكامل هو أن تستولي المكافأة على الظاهر والباطن، وألا تبقى قوة ظاهرية أو باطنية لا تحظى بنصيب منها. وهذه هي النقطة النهائية للمكافأة العظيمة التي ذكرها القرآنُ الكريم باسم الجنة والجحيم بكلمات أخرى. وقد أخبر في كتابه الكامل والمنير أن الجنة والجحيم تشملان كلا النوعين من المكافأة بصورة كاملة، أي المكافأة المادية والروحانية. وقد ورد ذِكر كِلا هذين النوعين في القرآن الكريم بالتفصيل، إذ قد زاد السعادة العظمى والشقاوة العظمى شرحا وتفصيلا. ولكن أتباع برهو سماج -كما قلت آنفا- يجهلون تماما هذه الحقيقة القصوى وغيرها من الحقائق المذكورة آنفا.

الحقيقة السادسة المذكورة في سورة الفاتحة هي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومعناها: نعبدك وحدك يا صاحب الصفات الكاملة ومبدأ الفيوض الأربعة، وبك نستعين من أجل التوفيق للعبادة ولقضاء حاجات أخرى. أي أنت معبودنا الحقيقي ولا نتخذ إلــهًا آخر وسيلة للوصول إليك، ولا نعير لإنسان ولا لوثن ولا لعقلنا ولا لعلمنا أدنى أهمية أو اهتماما بل نستعين بذاتك القادر القدير في كل شيء.

وهذه الحقيقة أيضا خافية عن أعين معارضينا. فالمعلوم أن الوثنيين يعبدون أشياء من دون الله تعالى الأحد، والآريون يعدّون قواهم الروحية غير مخلوقة

ويريدون أن ينالوا النجاة بالاعتماد عليها. أما أتباع برهمو سماج فقد أعرضوا عن نور الإلهام واتخذوا من عقلهم إلها لأنه يملك بحسب زعمهم الباطل قدرة كاملة للإيصال إلى الله ويحيط بجميع الأسرار الإلهية ويتصرف فيها. فإن هؤلاء القوم يخاطبون عقلهم قائلين: إياك نستعين، بدلا من عبادة الله والاستعانة به ﷻ، وهم متورطون في شرك خفي. وإذا مُنعوا من ذلك قالوا إن العقل عطيّة من عطايا الله تعالى وقد أُعطِيه الإنسان لكي يستخدمه في معاشه ومهماته، لذا فإن استخدام عطية الله لا يمكن أن يكون شركا.

فليكن معلوما أن هذا خطأ آخر من أخطائهم، وقد ذَكرتُ مرارا أنه لا يمكن أن يكون العقل وسيلة للحصول على المقاصد العظيمة التي عليها تتوقف نجاتنا مثل اليقين الكامل والمعارف الحقة. غير أنه صحيح تماما أنه يستطيع أن يُدرك صدق تلك المعارف وحقيقتها بعد الحصول عليها. ولكن الانكشاف الصادق والكامل إنما يتسنى نتيجة النور المقدس والنقي الموجود في ذات الله تعالى ويعجز في هذا المقام ضوء العقل الضبابي والناقص الذي في الإنسان. فمما يستلزم الشرك أن يُعرض أتباعُ برهمو سماج عن كلام الله المنير الذي هو مدار الانكشاف الصحيح والكامل، ويتبرّأوا منه كليا ويعُدّوا عقلهم الناقص مرشدا قديرا وأساس الأمور كلها. إذن، فإن قلبهم المريض مخدوع بأن عقلهم وحده سيوصلهم إلى الغاية العليا التي يمكن أن توصل إليها القوى الإلهية والتجليات الربانية.

فأيّ شرك أكبر من أنهم يعدّون قوة عقلهم مساوية لقوة الربّ بل أفضل منها. فانظروا الآن، لقد تحقق ما قلتُ من قبل بأنهم يخاطبون عقلهم -بدلا من الله تعالى- قائلين: "إياك نستعين"!

ولا أرى حاجة لبيان حالة النصارى، فالكل يعرف أنهم عاكفون على عبادة المسيح بدلا من أن يعبدوا الله تعالى خالصا. وبدلا من أن يستعينوا بالله ﷻ في أمورهم يستنصرون المسيح، يردِّدون بألسنهم: "ربنا المسيح، ربنا المسيح" في

كل حين وآن. فإن هؤلاء القوم محرومون من العمل بمضمون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومطرودون من عتبات الله ﷻ.

والحقيقة السابعة المذكورة في سورة الفاتحة هي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ومعناها أن أرِنا الصراطَ وثبِّتنا على الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه قط. وتفصيل هذه الحقيقة أن الدعاء الحقيقي للإنسان هو أن يتحرّى صراطا مستقيما للوصول إلى الله تعالى، لأن القاعدة الطبيعية لنيل كل مرام هي أن يختار المرء وسائل يُنال المرام بواسطتها. ولقد وضع الله تعالى قانونا طبيعيا لتحصيل كل أمر أن يختار المرء الوسائل التي تؤدي إلى تحصيله، وأن يسلك المسالك التي بالسلوك عليها يمكن بلوغ المرام. ولو سار المرء على صراط مستقيم تماما واختار السلوك على الطرق التي تؤدي إلى نيل المرام لناله. ولكن لا يمكن قط أن ينال أحد المرام بتركه سبلا هي وسيلة للحصول على تلك البُغية. بل القانون المتَّبع منذ القِدم هو أن هناك طريقا محددا لنيل كل هدف. وما لم يَسِر المرء على ذلك الطريق المحدد لا ينال الهدف. فالشيء الذي يجب الحصول عليه بالجهد والسعي والدعاء والتضرع هو الصراط المستقيم. أما الذي لا يجدُّ في طلب الصراط المستقيم ولا يعير له اهتماما فهو ذو طبع زائغ في نظر الله تعالى. ولو طلب من الله الجنة والراحة في العالم الثاني لردّت عليه الحكمة الإلهية ونادت: يا أيها الجاهل، اُطلب الصراط المستقيم أولا وستنال مبتغاك بسهولة. فالدعاء الذي له الأولوية على الأدعية كلها ويحتاج إليه طالب الحق بشدة متناهية هو طلب الصراط المستقيم.

والمعلوم أن معارضينا محرومون من اتباع هذه الحقيقة أيضا. أما المسيحيون فيسألون الخبز فقط في كافة أدعيتهم. ولو ذهبوا إلى الكنيسة ببطون مليئة بالطعام والشراب لتظاهروا بالجوع كذبا وزورا ولظلوا يسألون الخبز، وكأن مطلوبهم الأعظم هو الخبز ليس إلا.

أما أتباع آريا سماج وإخوانهم الوثنيون فيقرأون في أدعيتهم أبياتا مختلفة بُغية اجتناب سلسلة الموت والولادة على طريق التناسخ الذي يرونه صحيحا بحسب زعمهم الباطل، ولا يطلبون الصراط المستقيم من الله تعالى.

وزدْ إلى ذلك أن الله تعالى قد أشار في هذا المقام مستخدما صيغة الجمع إلى أنه لا يُمنع أحدٌ من طلب الهداية ونيل الإنعام الإلهي. أما بحسب مبدأ الآريين فلا يجوز للمذنب أن يطلب الهداية، وأن الله تعالى سيعاقبه حتما، وأن نيله الهداية أو عدمه سيان. وأما أتباع برهمو سماج فلا يعتقدون بالدعاء أصلا، فهم يعتزون بعقلهم في كل حين وآن. وإضافة إلى ذلك يقولون: ليس ضروريا تخصيص دعاء معين بالعبادة والعبودية، والإنسان مخيَّر ليدعو ما يشاء، ولكن هذا يدل على غبائهم البالغ. والمعلوم أنه مع أن الإنسان معرَّض لمئات الحاجات الجزئية ولكن الحاجة العظمى الوحيدة التي يجب أن يفكّر بها الإنسان ليل نهار دون غيرها هي أن ينجو من الحُجُب المظلمة المتنوعة ويصل إلى درجة المعرفة الكاملة، وألا يبقى فيه شيء من العماية والعمه والفتور والغدر بل يعرف الله تعالى حق المعرفة ويُملأ بحبه الخالص وينال مرتبة وصال الله التي فيها تكمن سعادته التامة. هذا هو الدعاء الوحيد الذي يحتاج إليه الإنسان بشدة متناهية، وعليه تتوقف جُلّ سعادته. والصراط السويّ لنيلها هو أن يدعو الإنسان دائما: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لأن أمثل طريق لنيل الإنسان مراده هو أن يسلك بكل قوة المسالك التي بالسلوك عليها يُنال ذلك المراد، وأن يختار الطريق الذي يوصله إلى غايته المنشودة مباشرة، وأن يترك الطرق المعوجة. ومن البديهي تماما أن الله تعالى قد جعل في قانونه الطبيعي طريقا واحدا للحصول على المبتغى يمكن أن نَعُدّه وحده الصراط المستقيم. وما لم يختر المرء ذلك الطريق على النحو الصحيح لا يمكنه نوال المبتغى. وكما أن جميع قوانين الله تعالى منضبطة وثابتة منذ القِدم كذلك فإن طريق النجاة والسعادة الأخروية أيضا محدد وهو

الصراط المستقيم والسديد. فالأسلوب السويّ في الدعاء هو أن يسأل المرءُ اللهَ تعالى الصراطَ المستقيم.

والحقيقة الثامنة والتاسعة والعاشرة المذكورة في سورة الفاتحة هي: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ ومعناها أن أرِنا يا ربنا صراط هؤلاء السالكين الذين اختاروا طرقا كانت مدعاة لنزول إنعامك عليهم، وجنّبنا طرق الذين لم يحاولوا السير على الطريق المستقيم غفلة وإهمالا منهم، فحرموا من تأييدك وضلوا الطريق. هذه هي الحقائق الثلاث التي تفصيلها أن بني آدم ثلاثة أقسام من حيث أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم ونياتهم. بعضهم يبحثون عن الله بصدق القلب ويرجعون إليه بصدق وتواضع. فالله تعالى أيضا يبحث عنهم ويتوب عليهم برحمة وإنعام. هذه الحالة تسمَّى إنعاما من الله، وقد أشار الله تعالى إليها في الآية المذكورة فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أيْ أنهم يسلكون طريقا سويًّا وسديدا وبالتالي يستحقون فيض رحمة الله. ولأنه لا يبقى بينهم وبين الله حجاب ويكونون بمحاذاة رحمة الله فتنـــزل عليهم أنوار فيض الله ﷻ.

والقسم الثاني منهم أولئك الذين يختارون طريق المعارضة قصدا ويُعرضون عن الله كالأعداء، فيُعرض الله عنهم، ولا يتوب عليهم برحمة. والسبب في ذلك أن العداوة والبراءة والغضب والغيظ وعدم الرضا الكامن في قلوبهم تجاه الله تعالى يصير حجابا بينهم وبين الله ﷻ. هذه الحالة تسمَّى غضب الله الذي أشار إليه في: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

والقسم الثالث هم أولئك الذين يهملون الله ولا يتحرونه بالسعي والجهد، فيُهملهم الله ﷻ ولا يُريهم طريقه لأنهم يتكاسلون في طلب الصراط ولا يجعلون أنفسهم مستحقين لفيض قُدّر في قانون الله منذ القِدم للساعين والمجتهدين. هذه الحالة تسمَّى إضلال الله بمعنى أنهم ما داموا لم يتحروا طرق نيل الهداية بجهدهم

فإن الله تعالى لم يهدهم التزاما بقانونه القديم وحرمهم من تأييده. فيقول تعالى مشيرا إلى هذا الأمر: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾.

تتلخص هذه الحقائق الثلاثة أنه كما يعامل الإنسان الله تعالى بثلاثة أساليب مختلفة كذلك يعاملهم ﷻ أيضا معاملة مختلفة كُلًّا بحسب حالته. والذين يرضون به ويطلبونه بالحب وإخلاص القلب يرضى الله بهم، وينـــزّل عليهم أنوار رضاه. أما الذين يُعرضون عن الله ويتعمدون المعارضة فيعاملهم الله تعالى كالمعارض. والذين يتكاسلون ويتهاونون في طلبه ﷻ فإن الله أيضا يهملهم، ويتركهم في ضلالهم يعمهون. فكما أن الإنسان يرى في المرآة صورته الحقيقية تماما كذلك إن الله الذي هو نقيّ من كل تكدُّر وقدوس يحب الذين يحبونه ويغضب على الذين يستحقون الغضب ويهمل المهملين، ويقطع صلته بالذين يتوقفون، ويتوب على الذين يتوبون، ويحب الذين يحبون، وينفر من الذين ينفرون. فكما أن الهيئة التي تتخذونها أمام المرآة ترونها بالضبط فيها كذلك يلاحظ المرء من قِبل الله ﷻ الأسلوب الذي يختاره للسير تجاهه ﷻ. كذلك الذي يختاره العبد لنفسه يحصد بحسبما يزرع. عندما يخلِّص الإنسان قلبه من كل نوع من الحُجُب والكُدورات والشوائب، ويتطهّر صدرُه من المواد الرديئة كلها ومن كل ما سوى الله ﷻ يكون مثَله كمثل الذي يفتح باب بيته أمام الشمس فتدخله أشعتها ولكن كلما اختار لنفسه الكذب والزور وأنواع الشوائب ونبذ الله تعالى مستحقرا إياه كان مثَله كمثل الذي ينفر من الضوء ويغلق جميع أبواب بيته لعدم إعجابه بالضوء لكي لا تدخله أشعة الشمس. وإن لم يسْعَ الإنسان للتخلص من هذه الأخطاء والشوائب المتنوعة نتيجة التهاون والتكاسل وعدم المبالاة بعد تورطه في الأهواء النفسانية بسبب شرفه ومكانته أو نتيجة تقليده قومَه كان مَثله كمثل الذي يجد أبواب بيته مغلقة ويرى البيت كله مظلما ومع ذلك لا يفتح أبوابه ويجلس عاطلا دون أن يحرك ساكنا ويقول في نفسه أنّى لي أن أنهض في هذا الوقت وأتحمل هذا العناء كله.

إن هذه الأمثلة الثلاثة تنطبق على الحالات التي تنشأ نتيجة فعل الإنسان أو كسله. والحالة الأولى منها تسمَّى إنعام الله بحسب التصريح السابق، والحالة الثانية تسمَّى غضب الله والحالة الثالثة تسمَّى إضلال الله. ويجهل معارضونا هذه الحقائق الثلاث أيضا لأن أتباع برهمو سماج ليسوا مطلعين قط على الحقيقة التي بسببها يعامل الله المتمردين وأهل الغضب من العباد معاملة الغضب. فقد ألّف أحد من أتباع برهمو سماج مؤخرا كتيِّبا بهذا الموضوع اعترض فيه على كتب الله وقال: كيف نُسبت فيها صفة الغضب إلى الله ﷻ؟ هل يستاء الله تعالى من ضعفنا؟ فالمعلوم أنه لو كان هذا المؤلف ملمًّا بهذه الحقيقة لما هدر وقته في نشر كتيِّب افتضح بسببه جهله على الناس جميعا. إذ لم يفهم مع ادّعائه العقل أن غضب الله ﷻ يعكس حالة الإنسان. فإذا حجب الإنسان نتيجة شرٍّ وعداوة وأعرض عن الله فهل يستحق أن ينـــزل عليه فيضُ الرحمة نفسه الذي ينـــزل على الصادقين والمحبين المخلصين؟ كلا، بل إن قانون الله القديم الجاري منذ الأزل الذي جرّبه المتقون والصادقون دائما ولا يزالون يجربون حقائقه نفسها بتجارب صحيحة هو أن الذي يخرج من حجب مظلمة ويتوجه بروحه إلى الله تعالى ويخرّ على عتباته، ينـــزل عليه فيض رحمة الله الخاصة. أما الذي يختار طريقا مخالفا لهذا الطريق يحل به حتما ما كان ضد رحمة الله أيْ غضب الله ﷻ. وحقيقة الغضب هي أنه كلما ترك أحد الصراط المستقيم الذي هو طريق إفاضة رحمة الله بحسب قانونه ﷻ حُرم من فيض الرحمة. وإن هذا الحرمان يسمَّى غضب الله. ولأن حياة الإنسان وأمنه وراحته إنما هي نتيجة فيض من الله، لذا فإن الذين يتركون طريق فيض رحمة الله تعالى يواجهون أنواع العذاب، إما في هذا العالم أو العالم الثاني لأن الذي لا تحالفه رحمة الله لا بد أن تتوجه إليه أصناف العذاب الروحي والجسدي. ولما كان المبدأ المتّبع في قانون الله أن الرحمة الخاصة إنما تحالف الذين يختارون طريق الرحمة أي الدعاءَ والتوحيد؛ فالذين يتركون هذا الطريق يواجهون ألوان الآفات. هذا ما أشار الله إليه في قوله: ﴿قُلْ

مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ *(الفرقان: ٧٨)* وقال أيضا: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ *(آل عمران: ٩٨)* أيْ إن لم تدعوا الله ﷻ و لم تطلبوا من الله فيضه فإن الله تعالى ليس بحاجة إلى حياة أحد أو وجوده فإنه غني عن العالمين.

إذن، إن أتباع آريا سماج، والمسيحيين أيضا يجهلون الحقيقة الأولى والثالثة من هذه الحقائق الثلاث. فمنهم من يعترض: لماذا لا يهدي الله الناس جميعا؟ ومنهم من يقول: كيف توجد صفة الإضلال في الله؟ إن الذين يعترضون على هداية من الله تعالى لا يفكرون أن هدايته إنما تحالف الذين يسعون لنيلها، ويسلكون مسالك لا بد من السلوك عليها لنـــزول فيض الرحمة. والذين يعترضون على إضلال الله لم يخطر ببالهم أن الله تعالى يعامل كل شخص بحسب قوانينه الثابتة وبمقتضى الحال. فالذي يترك السعي في سبيله كسلا أو تهاونا من عند نفسه فإن قانون الله الثابت منذ القِدم لمثل هؤلاء الناس هو أنه ﷻ يحرمهم من تأييده، ولا يهدي إلى سبله إلا الذين يسعون فيها قلبا وروحا. كيف يمكن لشخص يتهاون إهمالا شديدا منه أن يستفيض من فيض الله كالذي يبحث عنه ﷻ بكل عقله وقوته وبكل إخلاص؟ وإلى هذا الأمر أشار الله تعالى في آية أخرى فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ *(العنْكبوت: ٧٠)*

لاحِظوا الآن معنا، كم هي الحقائق العشرة المذكورة في سورة الفاتحة عظيمة وعديمة النظير وقد قصر باع معارضينا جميعا عن اكتشافها. ثم يجب الانتباه أيضا كيف ملأ الله تعالى أقصر عبارة بهذه الحقائق العظيمة بكمال الدقة والروعة. كذلك يجب الانتباه إلى الروائع العجيبة التي مُلئت بها هذه السورة المباركة بالإضافة إلى الحقائق المذكورة وكمال الإيجاز. لو بيّنّا هنا تلك الروائع كلها لصار المقال دفترا ضخما، لذا سأكتفي ببيان بعض هذه الروائع والدقائق نموذجا.

فنقطة المعرفة الأولى هي أن الله تعالى قد علّم في هذه السورة طريقا حسنا للدعاءِ لا يُتصوَّر أحسن منه. فقد اجتمعت فيه كافة الأمور الضرورية جدا

لخلق الحماس القلبي في الدعاء. وبيان ذلك أنه من الضروري لاستجابة الدعاء أن يتحلى الدعاء بحماس لأن الدعاء الذي يعوزه الحماس وليس إلا تمتمة اللسان فقط فليس دعاء حقيقيا. والمعلوم أيضا أن خلق الحماس في الدعاء ليس بوسع الإنسان دائما. بل هناك ضرورة ملحة أن تحضر في مخيلة الداعي عند الدعاء كل الأمور التي تمثل الدوافع الحقيقية للحماس. والواضح لكل عاقل أن هناك أمرين اثنين فقط لخلق الحماس؛ أولاً: أن يعتقد المرء أن اللهَ تعالى كامل وقادر وجامع للصفات الكاملة كلها، وأن يرى رحمته وألطافه وأفضاله من البداية إلى النهاية ضرورية من أجل وجوده وبقائه وأن يعدَّ الله ﷻ مبدأ جميع الفيوض.

ثانيا: أن يرى المرء نفسه وبني جلدته كلَّهم عاجزين ومعوزين ومحتاجين لنصرة الله ﷻ. فهذان هما الأمران اللذان يؤدّيان إلى نشوء الحماس في الدعاء، وهما الوسيلة الكاملة لخلق الحماس. والسبب في ذلك أنه لا ينشأ الحماس في دعاء الإنسان إلا حين يرى نفسه ضعيفا إلى أقصى الدرجات وعديم الحيلة تماما ومحتاجا إلى عون الله، ويعتقد بالله تعالى اعتقادا قويا أنه كامل القدرة إلى أقصى الغايات ورب العالمين والرحمن والرحيم ومالك يوم الدين، وأن سدّ حاجات الإنسان كلها بيده ﷻ. فقد قيل في بداية سورة الفاتحة إن الله وحده متصف بالمحامد الكاملة كلها، وجامع للصفات الحسنة كلها، وهو وحده رب العالمين ومنبع الرحمة كلها ويجازي الجميع على أعمالهم. فببيان هذه الصفات كلها قد بيّن الله تعالى بجلاء أن القدرة كلها بيده، وكل فيض يأتي من عنده. وقد بيّن ﷻ عظمته إذ جعل نفسه قاضي الحاجات في أمور الدنيا والآخرة، وعلة العلل لكل شيء ومبدأ كل فيض. وبذلك أشار أيضا إلى أنه لا يمكن أن يحظى أيُ ذي نفس منفوسة بالحياة والراحة والأمن بغيره ﷻ ودون رحمته. ثم علّم العبد التذلل قائلا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ومعناها: يا مبدأ الفيض كله، إننا نعبدك وحدك وبك وحدك نستعين. أيْ نحن عاجزون لا نستطيع أن نفعل شيئا من تلقاء أنفسنا ما لم يحالفنا التوفيق منك وتأييدُك. فقد بيّن الله تعالى دافعَينِ

لخلق الحماس في الدعاء، أولهما عظمته ورحمته الشاملة، وثانيهما كون العباد عاجزين وأذلاء.

وليكن معلوما هنا أن الالتزام بهذين الأمرين ضروري جدا للداعين عند دعائهم. فالذين يتمتعون بمتعة الدعاء نوعا ما يعرفون جيدا أنه لا يمكن القيام بالدعاء أصلا ولا يمكن أن تُذكي نار حب الله لظاها أثناء الدعاء بغير تحقق هذين الدافعَين.

فمن الواضح تماما أن الذي لا يتنبّه إلى عظمة الله ورحمته وقدرته الكاملة لا يسعه الرجوع إلى الله تعالى بحال من الأحوال. والذي لا يعترف بعجزه وضعفه ومسكنته لا تخضع روحه أمام الله قط.

فباختصار، إنها حقيقة لا حاجة لفلسفة عميقة بُغية فهمها بل حين يترسخ في قلب الإنسان عجزه وذلته وعظمة الله بصورة حقيقية فإن تلك الحالة الخاصة تُفهِّم الإنسان تلقائيا أن تلك هي الوسيلة الحقيقية للدعاء الخالص. يعرف العابدون الصادقون جيدا أن تصوُّر هذين الأمرين هو الأهم للدعاء في الحقيقة. أي يجب أن يتصور المرء في قلبه أولا أن الله تعالى قادر على كل نوع من الربوبية والتربية والرحمة والجزاء، وأن صفاته هذه تعمل عملها دائما وباستمرار.

ثانيا: يجب أن يتصور المرء أيضا أنه لا يستطيع أن ينال شيئا دون توفيق من الله وتأييده. ولا شك أنه لو ترسّخت هاتان الفكرتان في القلب عند الدعاء لغيّرتا حالة الإنسان دفعة واحدة بحيث يخرّ المستكبر أيضا على الأرض متأثرا بهما، وتسيل الدموع من عينَي سفاك قاسي القلب. هذه هي الأداة التي تنفث الروح في غافل ميّت. وبتصور هذين الأمرين ينجذب كل قلب إلى الدعاء. فهذه هي الوسيلة الروحانية التي بسببها تتوجه روح الإنسان إلى الله تعالى، ويتنبه المرء إلى ضعفه وضرورة عون الله سبحانه وتعالى. وبسببها يصل الإنسان إلى عالَم النشوة ولا يبقى أدنى أثر لوجوده المادي فلا يرى إلا جلال الذات الأعظم

متلألئا. ولا يُرى له إلا ذلك الإله الذي هو الرحمة الكاملة وعماد كل وجود وعلاج كل ألم ومبدأ كل فيض. وفي نهاية المطاف تظهر للعيان منها حالة الفناء في الله فلا يميل الإنسان إلى المخلوق ولا إلى نفسه، ولا إلى مشيئته الشخصية، بل يفنى في حب الله تماما. وبظهور ذلك الوجود الحقيقي لله ﷻ يبدو له وجوده ووجود الأشياء الأخرى كالمعدوم. وهذه الحالة قد سماها الله تعالى "الصراط المستقيم"، الذي لطلبه علّم العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي اهدنا يا ربنا إلى طريق الفناء والتوحيد وحب الله ﷻ الذي يُفهم من الآيات المذكورة أعلاه، وأبعِدنا عن غيرك تماما.

فلباب الكلام، لقد أعطى اللهُ تعالى الإنسانَ، لخلق الحماس في الدعاء، أسبابا حقيقية تخلق في قلبه حماسا كبيرا وتُخرج الداعي من عالم الوجود وتوصله إلى عالم العدم والفناء. هنا يجب الانتباه أيضا إلى أنه ليس صحيحا مطلقا أن سورة الفاتحة إحدى طرق الدعاء لطلب الهداية بل كما تبين من الأدلة المذكورة آنفا أنها في الحقيقة الطريقة الوحيدة التي عليها يتوقف صدور الدعاء بحماس القلب، والتي تريد أن تسلكها طبيعة الإنسان بمقتضى فطرتها.

الحق أنه كما وضع الله تعالى قواعد ثابتة في أمور أخرى كذلك هناك قاعدة ثابتة للدعاء أيضا. وتلك القاعدة هي الدوافع المذكورة في سورة الفاتحة. ولا يمكن أن ينشأ في دعاء المرء حماس ما لم يوجد هذان الدافعان في مخيلته. فالطريق الطبيعي للدعاء هو ذلك الذي ذُكر في سورة الفاتحة. فمن روائع سورة الفاتحة الكريمة أنها تناولت بيان الدعاء مع الدوافع إليه، **فتدبر**.

نقطة المعرفة الثانية في هذه السورة أن فيها أسبابا كاملة للترغيب في قبول الهداية لأن الترغيب الكامل والمعقول يشكّل دافعا قويا. والمراد من الترغيب الكامل عند العقل وحده أن يشمل حصرا ثلاثة أجزاء. الأول، بيان الميزات الذاتية لشيء أريدَ الترغيب فيه. فقد بيّن ﷻ ذلك في الآية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أيْ اهدنا إلى الصراط الذي يتسم بصفة الاستقامة والسداد بحد ذاته

ولا عوج فيه قط. ففي هذه الآية بيّن ميزة الطريق الذاتيةَ ورغّب في الاهتداء إليه.

والجزء الثاني للترغيب هو بيان منافع الشيء الذي أُريدَ الترغيب فيه، فقد بيّن هذا الأمر في الآية: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي اهدنا الصراط الذي بالسلوك عليه نال السالكون السابقون الإنعامات والأفضال. ففي هذه الآية شوّق إلى الطريق بذكر نجاح السالكين عليه. والجزء الثالث للترغيب هو بيان الشقاوة وسوء حالة الذين يُعرضون عن الشيء الذي يُراد الترغيب فيه. فقد بيّن هذا الجزء في: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ أيْ جنِّبنا صراط الذين تركوا الصراط المستقيم واختاروا طرقا أخرى فحلّ بهم غضب الله وضلّوا. ففي هذه الآية حذّر من الضرر الذي ينتج عن ترك الصراط المستقيم.

فباختصار، قد بيّن الله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة الأجزاء الثلاثة المتعلقة بالترغيب على أروع وجه، إذ قد بيّن المنافع الذاتية ثم ذكر خيبة تاركيه وسوء حالتهم أيضا لكي تميل إليه الطبائع السليمة بالاستماع إلى ميزاته الذاتية، ولكي يتولّد الشوق -بالاطلاع على الفوائد الكامنة فيه- في قلوب الذين يودّون الاستفادة منه. ولكي يطلع الناس أيضا على الفساد الناتج عن تركه ويخافوا الوبال الذي سيلازمهم نتيجة انحرافهم عنه. فهذه دقيقة لطيفة وكاملة تم الالتزام بها في هذه السورة.

نقطة المعرفة الثالثةُ في هذه السورة أنها أبدت كمالا آخر إلى جانب الالتزام بالفصاحة والبلاغة وهي أن العبارات المتعلقة بالدعاء التي وردت فيها بعد ذكر محامد الله سبحانه وتعالى قد جاءت على أحسن وجه وبِلَفٍّ ونشرٍ مرتّب بحيث يتعذر عادةً بيانها بهذا النقاء مع مراعاة كافة مدارج الفصاحة والبلاغة. يعرف ذوو الذوق السليم في مجال الأدب جيدا مدى صعوبة ودقة الالتزام بهذا النوع من اللَفِّ والنَّشر. وبيان ذلك أن الله ذكر من محامده الفيوضَ الأربعة أولا وهي: رب العالمين، والرحمن، والرحيم، ومالك يوم الدين. ثم ذكر في سياقها فقرات التعبُّد

والاستعانة والدعاء وطلب الجزاء بكل دقة وروعة؛ فالفقرة التي كانت منسجمة مع فيض معين ذكَرها في سياقه تماما. فقد ذكر ﴿إياك نعبد﴾ مقابل ﴿رب العالمين﴾ لأن استحقاق العبادة يبدأ من الربوبية فكان من الأنسب والأَولى إيراد: ﴿إياك نعبد﴾ تحت ذلك البند وبمحاذاته. ثم أورد ﴿إياك نستعين﴾ مقابل "الرحمن" لأن عون الله -في توفيق المرء للعبادة ونيلِ كل غاية له في الحقيقة والذي يعتمد عليه خيرُه في الدنيا والعقبى- ليس أجرا على عمل من أعماله بل هو نتيجة صفة الله "الرحمن" فقط. فالاستعانة مرتبطة بالرحمانية ارتباطا وثيقا. ثم أورد ﷻ: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ مقابل "الرحيم" لأن الدعاء جهد وسعي، والثمرة التي تحملها المساعي والجهود إنما هي بتأثير صفة الرحيمية. ثم ذُكر ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ مقابل: ﴿مالك يوم الدين﴾ لأن أمر الجزاء والعقاب يتعلق بمالك يوم الدين. فكان من الأنسب أن توضع بحذائها الفقرة التي تحتوي على طلب الإنعام والنجاة من العذاب.

نقطة المعرفة الرابعةُ هي أن سورة الفاتحة تشمل بالإجمال مقاصد القرآن الكريم كلها وكأنها إيجاز دقيق لمقاصد القرآن الكريم. وهذا ما أشار إليه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ *(الحجر: ٨٨)* أي قد أعطيناك سبع آيات لسورة الفاتحة التي تشمل بالإجمال مقاصد القرآن الكريم، وأعطيناك مقابلها القرآنَ العظيم أيضا الذي يفصّل المقاصد الدينية. فمن هذا المنطلق سمِّيت هذه السورة "أم الكتاب" وسورة "الجامع". لقد سمِّيت بأم الكتاب لأن جميع مقاصد القرآن الكريم تُستنبَط منها، وسمِّيت سورة "الجامع" لأنها تشمل علوم القرآن الكريم بجميع أنواعها بصورة مجملة. فمن هذا المنطلق

قال النبي ﷺ: من قرأ الفاتحة فقد قرأ القرآن كله[٧٤]. كذلك يثبت من الأحاديث الشريفة أن سورة الفاتحة مرآة تُري القرآن الكريم. وبيان ذلك أن من مقاصد القرآن الكريم أنه يبيّن محامد الله تعالى الكاملة، ويذكر بوضوح الكمال التام الحاصل لذات الله ﷻ. فقد ذُكر هذا المقصد مجملا في ﴿الحمد لله﴾ لأن من معانيها أن المحامد الكاملة كلها ثابتة لله تعالى الذي هو جامع لجميع الكمالات ويستحق العبادات كلها.

والمقصد الثاني للقرآن الكريم هو أنه يثبت أن الله تعالى خالق كامل وخالق العالمين، ويبين حالة بداية العالم، ويؤكد على أن كل من دخل دائرة العالم فهو مخلوق، ويوضّح كذب الذين يعارضون هذه الأمور. فقد ذُكر هذا المقصد مجملا في: ﴿رب العالمين﴾.

والمقصد الثالث للقرآن هو إثبات فيض الله دون استحقاق أحد وبيان رحمته العامة. فقد ذُكر هذا المقصد مجملا في: "الرحمن".

والمقصد الرابع للقرآن هو إثبات فيض الله الذي يترتب على السعي والجهد، فقد ذُكر هذا المقصد في: "الرحيم".

المقصد الخامس هو بيان حقيقة عالم المعاد، وقد ذُكر هذا المقصد في "مالك يوم الدين".

المقصد السادس هو بيان الإخلاص والعبودية وتجريد النفس عن غير الله، وعلاج الأسقام الروحانية وإصلاح الأخلاق الرذيلة وبيان التوحيد في العبادات. فقد ذُكر ذلك إجمالا في: "إياك نعبد".

المقصد السابع هو عدُّ الله تعالى فاعلا حقيقيا لكل فعل، وعدُّ كل أنواع التوفيق والألطاف والنصرة، والثبات على الطاعة والعصمة من العصيان

---

[٧٤] *يبدو أنه عليه السلام يشير إلى الحديث: لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ .... الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ (البخاري). والله أعلم. (الناشر)*

والحصول على جميع أسباب الخير والصلاح في الدنيا والدين من الله ﷻ وحده، والتأكيد على الاستعانة به في كافة هذه الأمور. فقد ذُكر هذا المقصد إجمالا في: "إياك نستعين".

المقصد الثامن للقرآن الكريم هو بيان دقائق الصراط المستقيم، ثم التأكيد على طلبه بالدعاء والتضرع. فقد ذُكر هذا المطلب إجمالا في: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

المقصد التاسع للقرآن الكريم هو سيرة الذين أنعم الله عليهم وخُلقهم، تثبيتا لقلوب طلاب الحق. فقد ذُكر هذا المطلب إجمالا في: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾.

والمقصد العاشر للقرآن الكريم هو بيان خُلق الذين غضب الله عليهم وطريقهم أو الذين ضلوا الطريق ووقعوا في أصناف البدعات، لكي يحذر طلاب الحق طرقهم. فقد ذُكر هذا المطلب إجمالا في: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. فهذه المقاصد العشرة المذكورة في القرآن الكريم هي أصل الأصول لكافة الحقائق وجميع أنواع الصدق، وقد ذُكرت كلها في سورة الفاتحة إجمالا.

نقطة المعرفة الخامسةُ في سورة الفاتحة هي أنها تحتوي على تعليم أتم وأكمل هو ضروري لطالب الحق، وهي دستور العمل الكاملُ للترقي في القرب والمعرفة لأن الترقي في القرب يبدأ من نقطة انطلاق يقبل فيها السالك موتا ويجيز لنفسه كل مشقة ومجاهدة ويتخلى خالصا لوجه الله عن أهواء النفس كلها التي تُباعد بينه وبين مولاه الكريم، وتصرف وجهه عن الله وتوجهه إلى ملذات النفس وأهوائها وجذباتها وعاداتها وأفكارها وإراداتها وإلى المخلوقات، وتورِّطه في مخاوفها وأطماعها. والدرجة الوسطى للترقيات هي أن يبدو للسالك ما يتحمله من أصناف المشقة في المرحلة الابتدائية في سبيل قتل النفس الأمارة وما يتجشم من ألوان المعاناة والآلام تاركا الحالة المعتادة بصورة الإنعام. وأن تتحول المشقة إلى المتعة، والحزنُ إلى الراحة، والضيقُ إلى الانشراح والبشاشة.

والدرجة العليا من الترقيات هي أن يُنشئ السالك انسجاما وتوافقا وحبا ووحدة بينه وبين مشيئة الله تعالى وإراداته حتى تتلاشى عينُ نفسه وتأثيرها كله، وأن يعكس في وجوده الشبيهِ بالمرآة ذات الله وصفاته دون أدنى شائبة من الظلمة ودون وهْم الحلول، وأن ينعكس بكل جلاء ذاتُ الله وصفاته في مرآة الفناء الأتم الذي باعَد بين السالك وأهوائه النفسانية بُعد المشرقين.

ليست في هذا البيان كلمة تؤيد أفكارا باطلة لأصحاب مذهب وحدة الوجود وأتباع الفيدات لأنهم لم يعرفوا الفرق الأبدي بين الخالق والمخلوق، فوقعوا في مغالطات شديدة -نتيجة مخادعات الكشوف المشكوك فيها التي تطل برأسها في حالة السلوك الناقص أغلب الأحيان، أو تكون نتيجة المجاهدات الباعثة على الجنون- أو أهمل أحدٌ في حالة السكر والنشوة التي هي نوع من الجنون الفرقَ بين روح الله وروح الإنسان من حيث القوى والقدرات والكمالات وأنواع القدسية. وإلا فمن الواضح أن القادر القدير الذي لا يخفى عن علمه الأزلي ذرة ولا يمكن أن يُنسب إليه نقصان أو خسارة، وهو منــزَّه عن الجهل والشوائب والضعف والهمِّ والحزن والألم والمعاناة والاعتقال؛ أنّى له أن يكون عين كيانٍ معرّض لكل هذه الآفات؟ هل للإنسان الذي يتوقع لتقدمه الروحاني ظروفا وحالات لا نهاية لها أن يماثل أو يكون عينَ ذات كامل لا ينتظر أية حالات ولا ظروف؟ أو هل لكيان فانٍ تشمل روحه نقائص صريحة لكونها مخلوقة أن يساوي -مع كافة شوائبه ونقاط ضعفه وعدم طهارته وعيوبه ونقائصه- ذاتًا جليل الصفات الذي هو الأتم والأكمل من الأزل والأبد من حيث ميزاته وصفاته المقدسة؟ سبحانه وتعالى عما يصفون.

ما أقصده من الترقي من النوع الثالث هو أن السالك يفنى ويهلك نفسه في حب الله تعالى حتى يقترب منه ذلك الذاتُ الذي لا مثيل له ولا نظير بجميع صفاته فتغلب تجليات الألوهية أهواءه النفسانية وتجذبه إلى نفسها حتى تتولد بينه وبين أهوائه النفسانية بل بينه وبين كل من كان تابعا لأهوائه عداوةٌ ومغايرةٌ

تامة. والفرقُ بين هذا القسم والقسم الثاني للارتقاء هو أنه رغم حصول التوفيق التام في القسم الثاني بين رضا الربّ تعالى ورضا السالك بحيث يبدو له إيلامه كإنعام، إلا أن العلاقة بالله لم تبلغ درجة تؤدي إلى نشوء عداوة ذاتية بينه وبين غير الله، ولا يبقى حب الله مقصد مهجته فقط بل يصبح فطرة القلب أيضا.

فباختصار، في القسم الثاني من الارتقاء يكون هدف السالك هو الموافقة التامة مع الله والعداوةُ مع غيره، ففي نيله هذا الهدف تكمن متعته. أما في القسم الثالث من الارتقاء فتصبح الموافقة التامة مع الله تعالى والعداوة مع غيره فطرة السالك التي لا يمكنه الانفصال عنها بحال من الأحوال، لأن انفكاك الشيء عن نفسه محال، وذلك بخلاف القسم الثاني إذ يمكن فيه هذا الانفكاك. وما لم تبلغ ولاية وليّ إلى القسم الثالث تبقى مؤقتة وليست في مأمن من الأخطار. والسبب في ذلك أنه ما لم يكن حب الله ﷻ وعداوة غيره جزءا من فطرة الإنسان لا يتجزأ يبقى فيه عرق من الظلم لأنه لم يؤد حق الربوبية كما هو واجبٌ عليه وما زال عاجزا عن الوصول إلى مرتبة اللقاء التام. ولكن حين يصبح حب الله تعالى والموافقة معه جزءا من طبيعته لا يتجزأ حتى يصير الله أذنه التي يسمع بها وعينه التي يرى بها ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها لا تبقى فيه شائبة من الظلم ويصبح في مأمن من كل خطر. ولقد أشار الله تعالى إلى هذه الدرجة فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ *(الأنعام: ٨٣)*

وليكن معلوما أن هذه الترقيات الثلاثة التي هي الأصل لكافة العلوم والمعارف ولبّ الدين ومغزاه قد ذُكرت في سورة الفاتحة بكل دقة وبرعاية الإيجاز وعلى أحسن وجه. فالقسم الأول من التقدم الذي هو الخطوة الأولى للسير في ميادين القرب قد عُلِّمناه في الآية: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأن الامتناع عن كل نوع من الاعوجاج والغواية، والتوجه إلى الله تعالى بالاستقامة هي العقبة الصعبة التي سُمِّيت بتعبير آخر بالفناء لأن ترك السالك الأمورَ

المألوفة والمعتاد عليها، ونبذَ الأهواءِ النفسانية التي تعوّد عليها طول العمر دفعة واحدة، والتخلي عن كل عزة وشرف وعُجب، والإعراضَ عن الرياء وعدَّ كل شيء سوى الله كالعدم والتوجهَ إلى الله تعالى بالاستقامة أمرٌ يساوي الموت في الحقيقة. وكما أن الحبة ما لم تدخل في التراب وما لم تتخل عن صورتها المألوفة لا يمكن أن تأتي إلى حيز الوجود حبةٌ جديدة، كذلك إن الجسد في الولادة الروحانية يتكوّن من الفناء. كلما تفنى نفس الإنسان ومشيئته وينعدم توجّهه إلى المخلوقات تتكون أعضاء ولادته الروحانية حتى عندما ينال الفناء الأتم يُعطَى خلعة الوجود الثاني ويحين وقت ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاه خَلْقًا آخَرَ﴾. ولأن هذا الفناء الأتم مستحيل بغير نصرة الله القادر وتوفيقه وعناية الخاصة لذا علّمنا دعاء: ﴿اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيم﴾ أي ثبِّتنا يا ربنا على الصراط المستقيم وأنقذنا من كل اعوجاج وسلوك سيء. وإن نيل الاستقامة الكاملة والسداد الكامل الذي أُمرنا بطلبه لأمرٌ صعب جدا. وإن هجمته في المرحلة الأولى على السالك تكون كهجمة الأسد على فريسته إذ يتراءى الموت ماثلا أمام العينين. ولكن إن صمد السالك وتقبَّل هذا الموت فلا موت له أكثر قسوة منه بعد ذلك. ولكن الله تعالى أرحم من أن يلقيه في جهنم الملتهبة.

فزبدة الكلام أن الاستقامة الكاملة فناء يقضي على وجود العبد قضاء نهائيا إذ يضطر للتخلي عن أهوائه وشهواته ومشيئته وكل أنانيته دفعة واحدة. وفي هذه المرتبة من مراتب السير والسلوك تلعب مساعي الإنسان ومجاهداته دورا كبيرا لبلوغها. وإلى هذا الحد تنتهي مساعي أولياء الله تعالى وجهود السالكين. ثم يأتي دور المواهب السماوية الخاصة التي لا دخل فيها لمساعي البشر بل يُعطى السالك من الله تعالى مطية من الغيب وبراقا سماويا لمشاهدة العجائب السماوية.

والارتقاء الثاني الذي هو الخطوة الثانية للسلوك في ميادين القرب قد عُلّم في الآية: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾. فليكن معلوما هنا أن المنعَم عليهم الذين ينالون من الله نِعما ظاهرية وباطنية لا يخلون من مواجهة الشدائد بل يصابون

في دار الابتلاء هذه من الصعاب والشدائد ما لو أصاب قوما آخرين لضاع إيمانهم. ولكنهم سُمُّوا المنعَم عليهم لأنهم يرون الإيلام إنعاما بسبب غلبة الحب. ويستمتعون بسبب نشوة العشق بكل ما يصيبهم من حبيبهم الحقيقي سواء أكان ألما أم راحة. فهذا هو النوع الثاني للارتقاء في مراتب القرب الذي يستمتع فيه الإنسان بجميع تصرفات الحبيب، وكل ما يأتي منه يبدو له إنعاما فقط. والسبب الحقيقي وراء هذه الحالة هو الحب الكامل والعلاقة الصادقة مع الحبيب. وهذه موهبة خاصة لا دخل فيها لسعي السالك أو جهده بل هي من الله تعالى فقط. فيتخذ السالك صبغة أخرى بعدها وتزول كل الأعباء من فوق رأسه ويرى كل إيلام إنعاما دون أن يشكو من شيء قط. توحي هذه الحالة وكأن الإنسان أُحيي فيها بعد الموت لأنه يخرج من كل أنواع المرارة التي واجهها في الدرجة الأولى وكانت تنذر بالموت في كل حين وآن. أما في هذه الحالة فينال الإنعامات من كل حدب وصوب. فمن هذا المنطلق كان من الأنسب لهذه الحالة أن يُسمّى السالك منعَما عليه. إن هذه الحالة تُسمى البقاء بتعبير آخر لأن السالك في هذه الحالة يجد نفسه وكأنه كان ميتا من قبل وأُحيي الآن. ويشعر في نفسه البحبوحة وانشراح الصدر إلى حد كبير وتزول عنه كل أنواع الانقباض البشري، وتتراءى أنوار الألوهية -التي تربِّيه- نازلة عليه كنعمة. وفي هذه المرتبة تُفتح على السالك أبواب كل نعمة، وتتوجه إليه أفضال الله تعالى الكاملة. هذه المرتبة تسمَّى السير في الله، لأن باب عجائب الربوبية تُفتح على السالك في هذه المرتبة. ويُعطى فرصة ليرى بأم عينيه نِعما ربانية تكون خافية على الآخرين، ويحظى بالكشوف الصادقة ويُشرَّف بمخاطبات الله تعالى، ويُطلَع على أسرار دقيقة من العالم الثاني، ويُعطى نصيبا وفيرا من العلوم والمعارف. باختصار، يُعطى قدرا كبيرا من النعم الظاهرية والباطنية، حتى يصل إلى درجة اليقين الكامل وكأنه يرى الله تعالى، المدبِّرَ الحقيقيَ، بأم عينه. فهذا النوع من الإطلاع، الذي يُطلَع فيه السالك على الأسرار السماوية، يُسمَّى

السير في الله. وهذه مرتبة يوهب فيها الإنسان حبّ الله ولكن لا يُرسَّخ فيه بطريقة طبيعية، بمعنى أنه لا يُجعل جزءا لا يتجزأ من فطرته غير أنه يكون محفوظا فيها.

والنوع الثالث للارتقاء الذي يمثل الخطوة الأخيرة للسير في ميادين القرب قد علِّم في الآية: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. ففي هذه المرتبة يصبح حب الله تعالى وعداوة غيره جزءا لا يتجزأ من فطرة المرء، وتترسخ فيه كطبيعة. وإن صاحب هذه المرتبة يحب الأخلاق الإلهية بطبيعته كما هي محبَّبة عند الله تعالى. ويترسخ حب الله تعالى في قلبه بحيث يستحيل انفكاكه من قبله. ولو ابتُلي واعتُصر قلبه وروحه بصدمات الامتحانات والابتلاءات العظيمة لما خرج منهما شيء إلا حب الله ﷻ. فهو في ألمه يتلذذ في سبيله ويعدّه وحده مدعاة لراحته الحقيقية. ففي هذا المقام تنتهي جميع أنواع الترقيات في مجال القرب، ويبلغ الإنسان منتهى كماله المقدر لفطرة البشر.

فهذه هي نقاط المعرفة الخمس التي كتبتُها غيضا من فيض، غير أن في هذه السورة من العجائب المعنوية وغيرها من الحقائق والمعارف ما لو كُتب عشر معشارها لاحتجنا لكتاب ضخم. أما الخواص الروحانية التي توجد في هذه السورة فهي محيرة للعقول حتى يضطر طالب الحق للاعتراف بالنظر إليها أنها كلام الله القادر القدير فعلا.

فمن جملة تلك الخواص السَنّية خاصةٌ روحانية في سورة الفاتحة؛ وهي أن قراءتها في الصلوات بخشوع القلب وترسيخ تعليمها في القلب إيقانا بصدقها فعلا، له دور كبير في تنوير القلوب.. أي أن ذلك يؤدي إلى انشراح الصدر وإزالة ظلمة النفس ونزول فيوض مبدأ الفيوض على الإنسان، ويؤدي إلى أن تحيط به أنوار القبول في حضرة الله، فيظل يتقدم في هذ المجال حتى يتشرّف بمخاطبات الله تعالى على الوجه التام ويحظى بالكشوف الصادقة والإلهامات الواضحة، ويدخل في المقربين إلى الله تعالى، وتظهر على يده عجائب الإلقاء

الغيبي، والكلام الذي لا ريب فيه، وعجائب استجابة الأدعية وكشف الغيوب وتأييد قاضي الحاجات بما لا نظير له في غيره. وإن أنكر المعارضون ذلك -والاحتمال الغالب هو أنهم سينكرون- فقد رُدَّ على ذلك في هذا الكتاب، وإنني مستعد لإقناع كل طالب حق. وليس للمعارضين فقط بل للموافقين أيضا الذين يوافقون بالاسم والتقليد فحسب، والذين هم مسلمون ظاهريا ولكنهم محجوبون وكقالب لا حياة فيه، والذين لم يعودوا يوقنون بالآيات السماوية في هذا العصر المظلم، ويعتقدون باستحالة الإلهامات من الله ﷻ ويحسبونها من قبيل الأوهام والوساوس، والذين جعلوا دائرة تقدم الإنسان ضيقة جدا تنتهي عند تصورات العقل وتخمينات الخيالات فقط، ومن ناحية ثانية يعُدّون الله تعالى ضعيفا جدا.. أقول لكل هؤلاء ببالغ الاحترام: إذا كنتم ما زلتم في شك من تأثيرات القرآن الكريم وما زلتم تصرون على جهلكم القديم، فالفرصة سانحة ومناسبة جدا؛ فأستطيع أنا الخادم المتواضع أن أقنع المنكرين كلهم إقناعا تاما من خلال تجاربي الشخصية. فالأنسب لهم أن يرجعوا إليّ طالبين الحق، ليروا بأم عينهم كل ما ذكرتُه آنفا من خواص كلام الله ﷻ وأن يخرجوا من الظلام ويدخلوا النور الحقيقي. إنني ما زلت على قيد الحياة إلى الآن، ولكن لا يوجد للجسد الفاني أساس قوي، ولا مجال للاعتماد على الجسد الفاني. فمن الأنسب أن يتوجهوا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل فور اطلاعهم على هذا الإعلان العام، ليجد المنكرون المعرضون مبررا معقولا للإعراض إن لم يتحقق ما ادّعيتُه. ولكن إذا ثبت صدق كلامي كما يجب فعليهم أن يتقوا الله ويتراجعوا عن أفكارهم الباطلة ويُرسِّخوا أقدامهم على جادة الإسلام الحقة لكي ينجوا من الخزي والذلة في هذا العالم، ومن العذاب والعقوبة في العالم الثاني.

فيا أيها الإخوة، ويا أيها الأعزاء، ويا أيها الفلاسفة، ويا أيها البانديتات والقساوسة، والآريون وأتباع مذهب الطبيعة، ومذهب برهمو؛ أقول صدقا وأعلن جهارا نهارا بأنه إذا كان أحد في شك أو تردد في قبول الخواص

المذكورة من قبل فليرجع إليّ دون تأخير، وليمكث في صحبتي لبعض الوقت بالصبر وصدق القلب ليرى بأم عينيه صدق بياناتي المذكورة آنفا، حتى لا يقول ظالم بعد ارتحالي من الدنيا: متى طُلب مني بصراحة الخوض والتحري في هذا البحث؟ متى ادّعى أحد حاملا المسؤولية على عاتقه حتى أطلب منه إثبات ادّعائه؟

فيا أيها الإخوة، ويا طلاب الحق، تعالَوا إليّ؛ أقول بمنتهى الصراحة وأتحمل المسؤولية متوكلا على ربي الذي أرى أنواره ليل نهار بأنكم لو مكثتم في صحبتي لبعض الوقت بالصبر وحسن الاعتقاد باحثين عن الصدق بإخلاص القلب وصفاء الطوية، لتبيّن لكم بالبداهة أن الخواص الروحانية التي ذكرتها هنا موجودة فعلا في سورة الفاتحة والقرآن الكريم. فما أسعد الذي يطهِّر قلبه من التعصُّب والعناد ويتوجه إلى نيل هذا الهدف بصدق وحسن اعتقاد مستعدا لقبول الإسلام! وما أشقى الذي لا يلتفت إلى هذا الكلام البيّن إلى هذا الحد ولا يرفع نظره إليه مع اطلاعه عليه، ويجعل نفسه محط لعنة الله وغضبه قصدا منه! الموت قريب جدا منادي الأجل يحلّق فوق الرؤوس. فلو لم تتوجهوا إلى كلام هذا العبد المتواضع بخشية الله ولم تتقدموا سريعا بصدقٍ وحسن اعتقاد بُغية الاقتناع والتصديق لخفتُ أن تكون عاقبتكم أيضا كعاقبة البانديت "ديانند" زعيم الآريين، لأني دعوته إلى الصراط المستقيم قبل موته بمدة وحذّرته من خزي الآخرة، وأثبتُّ بالبراهين القاطعة بطلان مذهبه واعتقاده، وأثبتُّ له بأدلة دامغة وكاملة -مراعيا مقتضى الأدب والاحترام- أنه لا دين أسوأ في الدنيا كلها -بعد الملحدين- من دين الآريين لأنهم يسيئون إلى الله تعالى بشدة ولا يؤمنون به خالقا وربَّ العالمين، بل يُشركون به العالم كله، حتى يرون كل ذرة من ذرات الدنيا متساوية معه سبحانه وتعالى في صفة الأزلية وحقيقة الوجود. ولو قيل لهم: هل يمكن لإلهكم أن يخلق روحا أو ذرة من الجسد، أو هل يستطيع أن يخلق أرضا وسماء مثل هذه الأرض والسماء؟ أو هل يستطيع أن يرزق مُحبّه الصادق

نجاة أبدية أو ينقذه من أن يتحول مرارا إلى كلب أو قطة، أو يستطيع أن يقبل توبة محبه الخالص؟ لقالوا جوابا على تلك الأسئلة كلها: كلا، هو لا يملك قوة على أن يخلق ولا ذرة واحدة، ولا يملك رحيمية ليهب نجاة أبدية لمرشد أو صالح أو زعيمهم الديني أو أحد نزل عليه الفيدا، ولا يوصله إلى منجاه مراعيا مرتبته، أو ينقذ محبًّا ترسخ في قلبه حب الإله من أن يتحول إلى كلب أو قطة مرارا وتكرارا.

ولكن من المؤسف حقا أن البانديت لم يتنحَّ عن ذلك الاعتقاد المشين بشدة. لقد قبِل ذلة وإهانة جميع كبرائه وعلمائه وغيرهم، ولكن لم يتخلّ عن ذلك المعتقد القذر. وظل يزعم إلى حين موته أنه مهما كان أحد كبيرا من كبار رجال دينهم وسواء أكان "رام تشندر" أم "كرشنا"، أو الذي نزل عليه الفيدا نفسه، فإن الإله لا يقبل قط أن ينـــزِّل عليه فضلا أبديا، بل سيظل يحوِّلهم إلى ديدان وحشرات مع أنه جعلهم كبارا من كبراء رجال الدين. إنه قاسي القلب لدرجة لا يعير للعشق والحب أدنى اهتمام، ومن ناحية أخرى هو ضعيف حتى إنه لا يسعه أن يخلق شيئا على الإطلاق!

كان هذا هو المعتقد الخاطئ للبانديت المذكور، وقد دحضته بأدلة قوية وأثبتُّ له أنه ليس في الله ﷻ أي عيب أو نقص على الإطلاق، بل هو مبدأ الفيوض كلها وجامع الكمالات كلها والصفات الكاملة جميعها، وهو واحد لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في كونه معبودا. ثم أطلعتُه على صدق الإسلام بأدلة واضحة مرتين برسالتين مسجلتين. وقلت أيضا في الرسالة الثانية بأن الإسلام دينٌ يملك على صدقه أدلة مضاعفة دائما. أولا: إن الأدلة العقلية التي تُثبت مبادئ الإسلام، قوية ومُحكمة مثل جدار من نحاس. وثانيا: تلك الآيات السماوية والتأييدات الربانية والكشوف الغيبية والإلهامات والمخاطبات الرحمانية وغيرها من الخوارق التي تظهر على يد أتباع الإسلام الكمَّل، التي بسببها ينال المؤمن الصادق نجاة حقيقية في هذا العالم. ولا يوجد هذان الإثباتان

في دين غير الإسلام قط، ولا يسع دينا أن ينبس مقابله ببنت شفة، ولكنهما متحققان في الإسلام. فقلتُ له: إذا كنت تشك في وجود أيٍّ من هذين الإثباتين وتحقُّقه، فلك أن تأتي إلى قاديان وتطمئن من وجودهما. وكتبت أيضا للبانديت المحترم بأني سأتحمل نفقات سفره المعتادة ونفقات الطعام أيضا بالمعروف. وكشفتُ هذه الرسالة لبعض أصحابه من الآريين، واستلمت وصلا مع توقيعه يُثبت استلامه الرسالتين بالبريد المسجل. ولكنه لم يلتفت إلى هذا الأمر أدنى التفات لحبه الدنيا وعزتها -التي أحبها كثيرا وأوثق معها عُراه- حتى غادرها بمئات الحسرات، وفارق الأموال كلها مضطرا، وارتحل من هذه الدار الفانية، حاملا معه جبالا ثقيلة من الغفلة والظلام والضلال والكفر. وقد أنبأني الله تعالى عن رحيله إلى الآخرة، الذي حدث في ١٨٨٣/١٠/٣٠م، قبل الآوان بثلاثة أشهر تقريبا، فأخبرت به بعض الآريين في الحال. لا شك أن كل شخص سيواجه هذا السفر، والكل سيغادر هذه الدار الفانية عاجلا أم آجلا، ولكنني أتأسف بشدة على أن الله تعالى قد هيأ للبانديت فرصة لنوال الهداية إذ خلقني في زمنه، ولكنه مع ذلك حرم من الهداية مع إعلامي إياه بكل الطرق. لقد دُعي إلى النور ولكنه لم يقبله لحب الدنيا الدنية، وظل غارقا في الظلام من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. لقد دعاه لخيره عبدٌ من عباد الله مرارا، ولكنه ما خطا خطوة واحدة، بل هدر حياته في تعصبات واهية وزهْو بغير حق حتى اختفى كالفقاعة، مع أن إعلان جائزة العشرة آلاف روبية كان موجَّها إليه قبل غيره. ولهذا السبب قد نُشر إعلان أيضا من أجله في مجلة: "برادر هند"، ولكن لم يصدر من طرفه أيّ صوت قط حتى وُوري الثرى أو صار رمادا.

فيا أيها الإخوان، اعتبروا بالبانديت المحترم ولا تظلموا أنفسكم، وابحثوا عن نجاة حقيقية لتنالوا بركاتها في هذه الدنيا. والنجاة الحقيقية هي تلك التي تظهر بركاتها في هذا العالم. وإن كلام الله القادر والقوي هو الذي يفتح على الطالبين سبيلا إلى السماء في هذه الدنيا. فلا تخدعوا أنفسكم، ولا تصموا قلوبكم ببقعة

سوداء بإعراضكم عن الدين المقدس الذي ظهر للعيان صدقُه في هذه الدنيا. أما إذا كنتم قادرين على المعارضة والمواجهة فقدِّموا مقابل سورة الفاتحة وحدها كلاما آخر يساويها كمالاتٍ. وما كتبتُه عن خواص سورة الفاتحة الروحانية ليس أمرا سماعيا فقط، بل أقول بناء على تجربتي الشخصية: إن سورة الفاتحة مظهر الأنوار الإلهية في الحقيقة. وقد لاحظتُ عند قراءتها عجائبها الكثيرة التي تُعلم من خلالها مرتبة كلام الله المقدس ومنـــزلته. وببركة هذه السورة المباركة والالتزام بتلاوتها، بلغ كشف الغيب مبلغا كُشفتْ به مئات الأخبار الغيبية قبل وقوعها. وبقراءة سورة الفاتحة عند كل مصيبة أزيل الحجاب دائما بشكل عجيب. وأذكر قرابة ثلاثة آلاف كشف صحيح ورؤيا صادقة رأيتها إلى الآن، وتحققت أيضا كانبلاج الفجر. ففي أكثر من مئتي مرة رأيت علامات استجابة الدعاء بوضوح تام عند مواقف حرجة، وذلك حين لم يكن هناك أيّ احتمال لحل المشكلة. وظلت أنواع العجائب من قبيل كشف القبور وغيرها تظهر بالالتزام بورِد هذه السورة، ولو وقع أدنى ظل لها على قلب قسيس أو بانديت لاستعد فورا للتضحية بروحه من أجل قبول الإسلام قاطعا علاقته بحب الدنيا.

وكذلك إن النبوءات الصادقة التي كُشفت لي بواسطة الإلهامات الصادقة – وقد تحققت ولا يزال يتحقق بعضها أمام أعين المعارضين– لا تقل عن حجم إنجيلَين لكثرتها بحسب رأيي. لقد حظيتُ –ببركة اتباعي لسيدنا الرسول الأكرم ﷺ– بمخاطبات الله التي أوردتُ نزرا يسيرا منها كنموذج في إلهامات بالعربية وغيرها، وذلك في حاشية الحاشية رقم ٣. ولقد خصّني الله تعالى بمخاطباته وشرّفني بعلومه اللدنية ببركة اتباع ذلك الرسول المقبول ﷺ وحبه، وببركة اتباع كلامه ﷻ المقدس، وأطلعني على أسرار خفية كثيرة، وملأ صدري بكثير من الحقائق والمعارف، وأخبرني مرارا وتكرارا أن هذه العطايا والأفضال والتفضلات والمنن والألطاف والتوجّهات والإنعامات والتأييدات وكل هذه المكالمات والمخاطبات إنما هي ببركة اتباع سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ وحبّه.

"لقد أثّر بي جمال جليسي، وإلا فلستُ إلا حفنة من التراب"[٧٥]

أين الآن وعّاظ الإنجيل والقسسُ الضالون والمتعصبون أشد التصعب الذين يُغوون العوام البسطاء بمحض البُغض والضغينة والسيرة الشيطانية قائلين بأنه لم تظهر من النبي ﷺ أية نبوءة؟

الآن يمكن أن يفكر المنصفون بأنفسهم أنه ما دامت آلاف النبوءات تتحقق على يد أدنى خدام سيدنا خاتم الأنبياء وأحقر غلمانه ﷺ وتظهر منهم الخوارق العجيبة، فأي وقاحة وعدم حياء أن ينكر عَمِهٌ نبوءات النبي ﷺ. أما القسس فهم قلقون من نبوءاته ﷺ لأنه قد ورد في التوراة (سِفر التثنية ١٨: ٢٢) علامة للنبي الصادق أن نبوءته تتحقق. فلما رأى القسيسون أن النبي ﷺ قد أدلى بآلاف الأخبار كنبوءة قبل الأوان، وأن القرآن الكريم أيضا زاخر بالأنباء وقد تحققت كلها أيضا في مواعيدها، اضطربت قلوبهم؛ لأن التأمل في هذه النبوءات يُثبت نبوته ﷺ بالبداهة، أو يضطر المرء للاعتراف بأن علامة النبي الصادق المذكورة في التثنية ١٨: ٢١- ٢٢ ليست صحيحة. فاضطروا -نتيجة مواجهتهم هذه المعضلة- للقول بكمال التعنت بأن تلك النبوءات إنما هي أنواع فراسة، وقد تحققت على سبيل الصدفة. ولأن الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها قائمة تؤتي أكلها كل حين، فمن هذا المنطلق إن نبوءات النبي ﷺ وخوارقه الأخرى لم تكن مقصورة على ذلك الزمن فقط، بل إن سلسلتها لا تزال مستمرة إلى الآن أيضا. ولو كان قسيس أو غيره يشك في ذلك أو يرتاب، لوجب عليه أن يتوجّه إليّ بالصدق وحسن الاعتقاد، ثم لينظر كيف تمطر إلى الآن نبوءات النبي ﷺ كالمطر الغزير. ولكن لو أراد القساوسة المعاصرون المتعنتون الانتحار فهذا شأنهم، ولكن الأمل ضئيل في أنهم سيبحثون عن هذه الآية بالصدق وحسن الاعتقاد كطالبين صادقين.

---

[٧٥] *بيت فارسي مترجم. (المترجم)*

على أية حال، فليكن واضحا على عامة الناس أنه ما دامت بركات النبي ﷺ ساطعة الآن أيضا سطوع الشمس، ولا يوجد لبركات نبي آخر أيّ أثر، فيتحتّم في هذه الحالة إذا وُجد قساوسة متعنتون وعبدة الدنيا وهم يُغوون الناس بخلاف الحق في سوق أو مدينة أو قرية، أن يُفتح لهم هذا الكتاب في هذا المقام؛ لأنه قد أُلِّف مقرونا بإعلان جائزة عشرة آلاف روبية. ومن يستطيع أن يتصدى له، فسوف ينال عشرة آلاف روبية. ولكن بَعُدَ عن الحياء كل البُعد أن يختار الباندیتات أو القساوسة أو الآريون أو البرهمو من منكري نبوة النبي ﷺ طريق هراء الكلام باللسان فقط دون التوجّه إلى الردّ على الأدلة القاطعة التي تشهد على نبوته ورسالته ﷺ. أنا لا أُكرِههم على قبول الإسلام دونما سبب، ولكن لو عجزوا عن المواجهة والتصدي ولم يقدروا على الإتيان -من دينهم- بنظير الآيات السماوية والأدلة العقلية الدالة على صدق الإسلام، لوجب عليهم أن يتركوا الكذب ويقبلوا الدين الحق.

والآن أعود إلى صلب الموضوع وأقول: إن دقائق سورة الفاتحة ومعارفها وخواصها التي كتبتُها إلى الآن إنما هي عديمة المثال والنظير بالبداهة. فمثلا لو تدبّر أحد بالإنصاف المرتبة العالية التي تحتلها الحقائق الموجودة في سورة الفاتحة، ثم نظر إلى الدقائق والنقاط التي تشملها هذه السورة الكريمة، ثم لاحظ حسن البيان وإيجاز الكلام أنه كيف مُلئ بمعان واسعة وكثيرة في كلمات قليلة، ثم نظر إلى رونق العبارة وبهائها وكم فيها من السلاسة والنقاء والنعومة وكأنها ماء في غاية النقاء والصفاء يجري بهدوء، ثم فكّر في نفسه عن تأثيراتها الروحانية التي تطهِّر القلوب من الظلمات البشرية بوجه خارق للعادة، وتجعلها محط أنوار الله تعالى التي أثبتُّها في هذا الكتاب في كل مكان[٧٦] لتبين له علوّ شأن القرآن الكريم -الذي لا يسع القوى البشريةَ مبارزتُه- بجلاء لا يُتصوَّر أكثر منه. ولكن إذا

[٧٦] *هنا تبدأ الحاشية الرابعة على الحاشية ١١، وأخرناها إلى الصفحة ٦٠٣. (المترجم)*

ظل كون هذا الكلام المقدس عديم المثال مشتبها على عَمِهٍ مع مشاهدة كل هذه الكمالات، فإن القرآن الكريم بنفسه تولى علاجه حيث أتم حجته على المنكرين على وجه أكمل كما قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ *(البقرة: ٢٤-٢٥)* أي إن كنتم تشكون في كون هذا الكلام من الله فاصنعوا أنتم أيضا كلاما مثل سورة من سوره... وقودها الكفار -الذين يؤججونها بذنوبهم وتجاسرهم- وأوثانُهم. وهذا هو القول الفصل الذي أصدره الله بنفسه لإدانة منكري إعجاز القرآن الكريم. والآن إذا ظل أحد ينكر بلاغة القرآن الكريم، مع كونه مدانا لا يطيق جوابا ولا يتورع عن الهذيان وهراء الكلام؛ فلا علاج في الدنيا لوقح ذي فطرة ممسوخة مثله، ولا علاج له إلا ما وعد به الله ﷻ في قوله الفصل.

إن بعض الأشرار والحاقدين الثابتين بقوة متناهية على التعنت والأنانية الذين أعمتْهم تماما عاصفة العناد، يُغوون الناس قائلين بأن الدقائق والنكات التي يذكر المسلمون وجودها في القرآن، والخواصَ العجيبة المذكورة في كتب المسلمين، إنما هي نتاج فهمهم الذكي؛ أي أن قريحتهم ولّدتها، بينما الحقيقة أن القرآن يخلو من تلك الدقائق والنكات والخواص العجيبة. ولكن هؤلاء القوم لا يستطيعون أن يحجبوا أنوار القرآن، ولا يُظهرون بكلامهم هذا إلا حُمقهم وخُبثهم. ويكفي في جوابهم القولُ بأنه إذا كان المسلمون قد أوجدوا بذكائهم وفطنتهم أنواع النكات والدقائق والخواص في القرآن الكريم وهي ليست من القرآن أصلا، فعليكم أن توجدوا أنتم أيضا دقائق ونكات وخواص في كتاب موحًى به عندكم أو في كتاب آخر. وإن لم تقدروا على ذلك مقابل القرآن الكريم كله، فأخرجوها لنا من أيّ كتاب آخر مقابل سورة الفاتحة التي كتبنا بعضا من كمالاتها في هذه الحاشية.

يا للأسف! من أين وُلد هؤلاء العميان الذين لم تُرفع ظلمتهم مع رؤية هذا القدر من النور أيضا. كم تقيحت وتعفّنت أمراضهم الباطنية التي قد أدّت إلى تعطيل حواسهم الظاهرية والباطنية. لا يفكرون قط أن القرآن الكريم كتاب ادّعى بنفسه عظمته وحِكمه وحقائقه وبلاغته ودقائقه ونكاته وأنواره الروحانية، وأثبت أنه عديم النظير. وليس صحيحا مطلقا أن المسلمين يقولون بوجود هذه الميزات فيه من عند أنفسهم، بل الحق أن القرآن الكريم يبين ميزاته وكمالاته بنفسه، ويدّعي أنه عديم النظير والمثال مقابل المخلوقات كلها ويعلن بأعلى صوته: **هل من معارض؟** إن دقائقه وحقائقه ليست واحدة أو اثنتين حتى يشك فيها جاهل، بل هي متدفقة كبحر زخار، وحيثما تُلقون نظرة ترونها متلألئة كنجوم السماء. ليس هناك حقيقة بقيت خارجه، وليست هناك حكمة لم يحط بها بيانُه، وليس هناك نور لا يُنال باتباعه. وإن هذه الأمور ليست بلا إثبات، وليس كلاما يتفوه به المرء باللسان فحسب، بل هي حقيقة متحققة وبديهية الثبوت وظلت منيرة منذ ١٣٠٠ عام على التوالي. ولقد كتبتُ هذه الحقيقة في كتابي بإسهاب، وقد بيّنتُ دقائق القرآن الكريم ومعارفه بما فيه الكفاية لإقناع كل طالب صادق وطَمْأَنَتِه بدقائق تتدفق كبحر عظيم. وأنّى لأحد الآن أن يحطّ من شأن هذا النور العظيم بهرائه وهذيانه؟

أما إذا أخذت قلب أحد شبهة أن جميع هذه الدقائق والمعارف والحقائق والخواص التي أُثبت وجودها في القرآن الكريم يمكن استخراجها من كتاب آخر أيضا، فإن الطريق السديد للمناظرة هو أن يقدِّم برعاية الشروط المذكورة من قبلُ دقائقَ ذلك الكتاب ومعارفه وخواصه. وكما يحتوي هذا الكلامُ المقدس على ردّ المعتقدات الباطلة ويُثبت كل اعتقاد صحيح بأدلة عقلية، وكما ذُكرت المعارف والحقائق الإلهية في هذه الصحف المقدسة، وكما توجد فيها الخواص العجيبة والتأثيرات الغريبة لتنوير القلوب كما أثبتناها في هذا الكتاب؛ فيجب على المعارض أن يُخرجها كلّها على غرار ذلك من كتابه. وما لم يفعل ذلك

فلا يمكن للنباح أن يقلّل من عظمة نور هذا القمر. بل الأسف كل الأسف على حالة الشخص الذي لا يزال يختار سبل الضلال ليحرم نفسه من الصدق البديهي.

من معارضينا أناس معروفون وبارزون، وأنا على يقين نظرا إلى علمهم وفهمهم أنهم لو أنصفوا لاستطاعوا أن يُدركوا هذه الحقائق بالبداهة. ليست في نيتي شائبة من الأنانية ولا هدف لي إلا أن يُنشر في الدنيا الصدقُ والبرُّ، لذا أرجو من المنصفين المثقفين أن يصدُقوا النية ساعةً. ولما كانت رحابة صدرهم وصدق طويتهم مسلَّما بها بين قومهم، فأنّى لنا أن نيأس أو نظن أن اتساع صدق طوِّيتهم أكثر من ذلك مستحيل. لذا إنني على يقين محكم، ولديّ أمل قوي بأنه عندما يتوجه المنصفون من معارضينا إلى هذا الأمر بنظر دقيق وعميق، سيكون في نظرهم أنفسهم كفاية لدفع وساوسهم، وإن لم أجد إلى الآن أحدا منهم قد اتخذ خطوات عادلة في هذا السبيل.

كنت آمل أن الأذكياء من أتباع برهمو سماج وآريا سماج سيتنبّهون لخطئهم بعد نشر الجزء الثالث من هذا الكتاب ويفرون إلى الحق الصراح كالعطشان، ولكن من المؤسف حقا أنني أرى الآن أن حدسي قد أخطأ فيهم، وانكسر قلبي بشدة حين علمت أن أتباع برهمو سماج والآريين لم يقرأوا كتابي بتأنٍّ. ولا سيما حين قرأتُ تعليق الBanديت "شيو نرائن" وجدت عالَـــما من العناد في طبائع أتباع برهمو سماج (رحمهم الله).

الأسف كل الأسف أن الBanديت المحترم لم يستفد شيئا من الحقائق الواقعية التي تسطع مثل الشمس، فلم يتضاءل ظلام تعنُّتِ الBanديت حتى بالأدلة الدامغة والقوية. إن ما يبعث على الحيرة التي ما بعدها حيرة، هو تأخّر أناس أذكياء ومثقفين عن قبول مثل هذا الإثبات الكامل بعد الاطلاع عليه. لم يتجاوز الBanديت بهذا الإنكار حدود العدل فقط، بل تخلّى أيضا عن مواساة قومه وقطع صلته بالله تعالى نهائيا بكتمانه الحق. ولا حاجة للقول كم هو بعيد عن العدل

إنكاره، لأن ذلك سينكشف تلقائيا على كل مَن يقرأ كتابي أولا، فسيرى كيف أثبتُّ ضرورة وحي الله تعالى ووجوده، ثم يتأمل في عبارة البانديت المحترم ليرى ما كتبه مقابلي، وما الذي ردّ به على أدلتي. إن الذين سيقرأون هذا الكتاب بتأمل من قوم البانديت لا يمكن أن يحجب البانديت فطرهم إن لم يكن عليها حجاب فطري سلفا.



الحاشية الأولى على الحاشية رقم١١:

لقد وقع نظري مؤخرا صدفة على كتيب للشيخ أبي عبد الله القصوري بيَّن في نهايته موقفه من الإلهام والوحي. مع أنه لا يتبين بوضوح ما يهدف إليه الشيخ من ذلك الموقف، ولكن يبدو مما ذكر لي الناس وما استنتجته بعد قراءة الكتيب أنه يوهم القارئ ويجعله يشك، وكأن الشيخ ينكر إلهام أولياء الله، والله أعلم بما في قلبهم.

على أية حال، ما فهمته من كتيبه يتلخص في أن الشيخ قال في بحث حرفي عن الإلهام بأن معنى الإلهام في اللغة هو الإلقاء في القلب، أو ما يلقيه الله في القلب. ثم أظهر رأيه فورا قائلا بأنه ما دام المراد من الإلهام فكرة تخطر بالبال – سواء كانت حسنة أو سيئة– فلا خصوصية في ذلك لوليّ أو صالح أو مؤمن، لأن الأفكار من أنواع مختلفة تخطر على بال الجميع، وليس في الدنيا أحد لا يفكر. ثم أنهى الشيخ كلامه بعد إيراد بعض الأمور الإجمالية والعبارات المبهمة، ولم يكتب عبارة صريحة يتضح منها أنه يعتقد أن أولياء الله والمؤمنين الكمَّل يحظون بعلاقة خاصة مع الله تعالى، وأن الله يُطلعهم بكلامه المقدس على بعض الأمور الغيبية، ويشرّفهم بكلماته الطيبات متى يشاء، ولا ينال غيرهم هذه المرتبة بحكم: هل يستوي الأعمى والبصير.

على أية حال، إن أسلوب بيان الشيخ في هذا الكتيب يوهم حتما أن في قلبه ما يُريبه عن إلهام أولياء الله. فإذا كان الشيخ فعلا يقصد ما فهمته –لا سمح الله– فقد ارتكب خطأ جسيما دون أدنى شك؛ إذ إن إنكار كون أولياء الله ملهَمين من الله، هو أمر مستبعد من مسلم عموما ومن المشايخ أكثر استبعادا. ألا يعلم الشيخ أن كلام الله مع أم موسى كان بالإلهام، وبالمثل كلامه مع مريم

إلهاما ومع الحواريين أيضا إلهاما، مذكور في القرآن الكريم نفسه؟ مع أنه لم يكن أحد منهم نبيا ولا رسولا. ولو قال الشيخ في الجواب: إنه يعتقد بكون أولياء الله ملهمين من الله، ولكنه لا يسمي ذلك إلهاما بل يسميه وحيا، والإلهام عنده خاطرة فقط تخطر بالبال، والكافر والمؤمن والفاسق والصالح فيه سواسية ولا خصوصية لأحد، لكان ذلك نزاعا لفظيا فقط. والشيخ مخطئ في ذلك أيضا، لأن كلمة "الإلهام" التي تُطلق في كثير من المواضع على معنى الوحي بوجه عام، لا تُطلق بمعناها اللغوي، بل تُطلق بحسب معناها المعروف عند علماء الإسلام، لأنه قد جرت عادة العلماء منذ القِدم أنهم يطلقون دائما على الوحي إلهامًا، سواء أكان وحي رسالة أو نزل على مؤمن عادي كوحي الإعلام. إن هذا العرف لا يجهله إلا الذي يعرقل سببٌ معين سبيله لقبول الحق، وإلا فلا يستطيع أن يقدّم تفسيرا واحدا من بين مئات كتب تفسير القرآن، ولا كتابا واحدا من آلاف الكتب الدينية رفض هذا الاستخدام. بل قد أطلق المفسرون على الوحي كلمة الإلهام بكثرة. كما ذُكر المعنى نفسه في عديد من الأحاديث أيضا التي لا يجهلها الشيخ طبعا. فلا ندري من أين وممن سمع الشيخ أنه لا بد من أن يُستنبَط من كلمة "الإلهام" في الكتب الدينية المعنى الذي ذُكر في القواميس فقط، مع أن السواد الأعظم من العلماء يتفق على عدِّ الإلهام مرادفا للوحي. ثم ما دام النبي ﷺ أيضا قد استخدمه بالمعنى نفسه، فإن الانحراف عن ذلك تعنُّت محض. ألا يعلم الشيخ أن هناك مئات الكلمات من هذا القبيل ومتعارَف عليها في علم الشريعة، وقصر مفهومها على المعنى اللغوي ضلال بحتٌ. فخذوا مثلا كلمة "الوحي" نفسها، أين ورد في القواميس لها معنىً يُعدّ كُتبُ الله بناءً عليه وحيَ نبوة؟ وفي أيّ قاموس ذُكرت كيفية نزول الوحي الذي به يكلِّم الله رسله وينـــزِّل عليهم أوامره. وانظروا كذلك كلمة الإسلام، فإن معناه اللغوي هو تسليمُ الأمر لأحد أو تركُ المواجهةِ والتغاضي والطاعةُ. فكيف وأين استُنبط منه معنى النطق بـــ"لا إله إلا الله محمد رسول الله"؟ فلو أريدَ الحكمُ في كل كلمة

من حيث اللغة فقط، لكان معنى الإسلام أيضا عند الشيخ -مثل استنتاجه معنى الإلهام تماما- هو الاستسلام أو تسليم الأمر فقط، وستكون المعاني الأخرى كلها باطلة وغير صحيحة. **نعوذ بالله من زلة الفكر وقلة النظر**.

فلا يخفى على أحد أنه تُستخدَم في كل علم -سواء كان علم أديان أو علم أبدان أو غيرهما- كلمات معروفة عرفا، يتبين بها المعنى الاصطلاحي المراد في ذلك العلم. ومن أجل إفادة هذا العلم والاستفادة منه لا بد للعلماء من تحديد معاني بعض الكلمات عُرفًا بحسب مبتغاهم، **كما لا يخفى على الناظر**. ولكن إذا كان الشيخ لا يريد أن يختار العُرف المصطلح عليه عند العلماء، فله الخيار أن يُطلق "وحي الاطلاع أو وحي الإعلام" على الأخبار الغيبية التي يلقيها اللهُ تعالى على أولياءه. ولكن من الأنسب أن يقول على الأقل بأن بينه وبين كافة الفِرق الإسلامية الأخرى نزاعا لفظيا في ذلك، فيقول بأن العلامات الإلهية التي يسميها هو وحيا فإن علماء الإسلام يسمونها "الإلهام" أيضا في عرفهم، غير أنه متفق معهم تماما في المراد الحقيقي. وذلك لكي لا يبقى الناس في شك من أمره ولا يسبب كلامه المشتبه فيه فتنةً. أما إذا كان الشيخ بنفسه مرتابا فيما إذا كان الله تعالى يكلّم أحدا من المسلمين إلهاما، فأنا جاهز بفضل الله ورحمته وبحكم: **"وأما بنعمة ربك فحدِّث"** أن أكتب بعضا من إلهاماتي التي تشرَّفت بها شخصيا نموذجا، وستكون مدعاة لاطمئنان الشيخ واقتناعه كليّا. وأيضا سيعرف الشيخ عند التدبر فيها أن هذه العلوم الربانية والأسرار السماوية التي تنكشف على المسلمين بواسطة الإلهام اليقيني والقاطع، لا يمكن أن تحصل لمعاندي الإسلام على الإطلاق، ولم تحصل من قبل قط، ولا يسع أحدا من خصوم الإسلام أن ينبس مقابلها ببنت شفة مطلقا. فبعض الإلهامات التي أرى تسجيلها مناسبا هي التالية:

الأسلوب الأول للإلهام من جملة الأساليب العديدة التي أطلعني الله عليها هو أنه عندما يريد الله تعالى أن يُظهر على عبده أمرا غيبيا، يُجري على لسانه بعض

الكلمات باللين أحيانا وبالشدة أحيانا أخرى، وذلك في حالة من النعاس الخفيف. والكلمات التي تجري بقوة وشدة تَرِد على اللسان بشدة وعنف كما يسقط البَرَد على أرض صلبة دفعة واحدة، أو كما يقع على الأرض حافر الفرس السريع العَدْو بكل قوة. وهذا النوع من الإلهام يتضمن سرعة وشدة وهيبة غريبة يتأثر بها الجسد كله. وينطلق اللسان تلقائيا بصوت سريع ومهيب وكأنه ليس لسان الملهَم. وأما ما يصحبه من النعاس الخفيف وحالة عدم الوعي، فيزول فور انقطاع الإلهام. وما لا تنتهي كلمات الإلهام يكون الإنسان كميت لا شعور فيه ولا حراك. وفي معظم الأحيان ينـــزل هذا النوع من الإلهام عندما يريد الله الرحيم الكريم بحكمته الخاصة أن لا يستجيب دعاء معينا، أو يريد أن يؤجّله إلى أجل مسمّى، أو يريد أن يخبر بخبر آخر يشق على الإنسان بمقتضى بشريته. ومثال ذلك أن يريد الإنسان تحقيق بُغيته بسرعة، ولكن تحقيقها لا يكون مقدّرا بحسب حكمة الله تعالى، أو يكون مقدرا بعد أجل مسمى. فقد تلقيت في بعض الأحيان إلهامات من هذا النوع؛ أي التي تُلقى من الله على اللسان بصورة كلمات شديدة. إن بيانها مدعاة للإطالة، ولكنني سأورد فقرة وجيزة على سبيل المثال فقط؛ فقد دعوت قبل ثلاثة أعوام تقريبا لهذا الكتاب بأن يتوجه الناس إلى دعمه، فتلقيت إلهاما -كما بيّنت قبل قليل- بكلمات شديدة: "ليس بالفعل". عندما تلقيت هذا الإلهام أخبرت به في الحال نحو ١٠ أو ١٥ شخصا من الهندوس والمسلمين الذين ما زالوا موجودين في قاديان إلى الآن. ثم ظل الناس غافلين عنه كما ورد في الإلهام، ويعلم هؤلاء الناس هذا الأمر أيضا جيدا.

وفي النوع الثاني من الإلهام تجري على اللسان بعض الكلمات باللين. ففي هذا النوع يكفي أن أكتب من تجربتي الشخصية أنه حين مرت فترة وجيزة على الإلهام الأول الذي ذكرتُه آنفا وواجهت بعض المشاكل نتيجة عدم اكتراث الناس، وتجاوزَت المشكلة حدودها، ألهمني الله تعالى قرب المغرب ما نصه: "**هزّ**

إليكَ بجذع النخلة تساقط عليكَ رطبا جنيا". ففهمت من ذلك أنها إشارة إلى ترغيب الناس وحضِّهم. وفي ذلك وعدٌ أن الأموال ستُجمع لهذا الجزء من الكتاب نتيجة الترغيب. وقد أخبرتُ بذلك أيضا كثيرا من الهندوس والمسلمين كالمعتاد. ثم صادف في اليوم نفسه أو في اليوم التالي أن جاء إلى قاديان الحافظ هدايت علي خان المحترم الذي كان في تلك الأيام يعمل نائب المفوّض في المحافظة، فأخبرتُه أيضا بالإلهام. وأذكر جيدا أني كنت قد أخبرت صديقك المولوي أبا سعيد محمد حسين أيضا بهذا الإلهام في الأسبوع نفسه.

فملخص الكلام أني قمتُ بعد هذا الإلهام ببعض الترغيب بحسب أمر الله ﷻ، فوصل الدعم من لاهور وبيشاور وراولبندي وكوتله مالير وغيرها من الأماكن التي شاء الله تعالى، وبقدر ما شاء للقسم من الكتاب الذي كان قيد الطبع، والحمد لله على ذلك. وفي هذا النوع من الإلهام وفي الأيام نفسها، حدث أمر غريب آخر؛ وهو أنه قد جرى على لساني بغتة صبيحة ذات يوم بعد غفوة خفيفة: "**عبد الله خان، ديره إسماعيل خان**". فأخبرتُ به بعض الهندوس الذين كانوا موجودين عندي في ذلك الوقت وما زالوا مقيمين هنا. وفي مساء اليوم نفسه ذهب أحد من هؤلاء الهندوس إلى مكتب البريد مصادفة، وجاء برسالة من شخص اسمه "عبد الله خان"، وكان معها بعض النقود أيضا.

وقبل هذا الحادث ببضعة أيام ظهرت من الله تعالى آية عظيمة؛ تتلخص في أن طالبا هندوسيا من فئة الآريا يبلغ من العمر عشرين عاما أو اثنين وعشرين، وهو من السكان المحليين، وكان يدرس في مدرسة في قاديان، وكان مصابا بالسل منذ مدة طويلة، وقد تفاقم مرضه رويدا رويدا وبلغ منتهاه وظهرت آثار اليأس. فجاءني يوما وبكى بكاء مُرًّا يائسا من حياته. فذاب قلبي نظرا إلى حالته المتسمة بالمسكنة. فدعوت له في حضرة الله تعالى. ولما كان شفاؤه مقدرا عند الله تعالى، تلقيت عند الدعاء إلهاما نصه: "**قلنا يا نار كوني بردا وسلاما**". أي

قلنا لنار الحمى: كوني بردا وسلاما. وفي الحال أخبرت بهذا الإلهام ذلك الهندوسي وعديدا من الهندوس الآخرين من سكان هذه القرية الذين ما زالوا موجودين، وأعلنتُ متوكلا على الله توكلا كاملا أن هذا الهندوسي سيُشفى حتما، ولن يموت بهذا المرض قط. فلم يمض على ذلك أسبوع واحد إلا وقد شُفي الهندوسي من ذلك المرض المستعصي شفاء كاملا، والحمد لله على ذلك.

انظر الآن أيها الشيخ، هذا هو الإثبات الحقيقي، فقد أُثبِت إلهام المسلمين الصادقُ والمباركُ بشهادة أعداء الدين وأتباع الباندیت "ديانند". هل من إثبات في الدنيا أقوى من أن يُجعل أعداء الدين بأنفسهم شهداء؟ فيا صاحبي، أين وفي أيّ بلد رأيتَ في ملة أخرى "مثل المسيحيين أو الآريا أو براهمو" وبشهادة الأعداء الألداء، ثبوت إلهامات صادقة ومباركة بُشِّر فيها بحياة شخص يائس من حياته وكأنها بُشرى بإحياء الميت. إذا كنتَ رأيت شيئا من هذا القبيل بأم عينيك فسمِّ لي حادثا واحدا أو حادثينِ. وقل الآن بالله عليك، هل هذا الإلهام المبارك ميزة خاصة بالأمة المحمدية أم لا؟ وبالإضافة إلى ذلك عندي إثباتات لمئات الإلهامات العظيمة من هذا النوع التي لا تقدر على إحصائها. لقد حسبت النهار ليلا، ولكن أين ستُخفي الشمس؟ هل تعرف عن أحوال أعداء الإسلام شيئا؟ إذ ليس عندهم إيمان أصلا، دع عنك نور الإيمان. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

وإذا قلتَ بأنك تعترف بإلهام أولياء الله وتعدّه أيضا ميزة خاصة بالأمة المحمدية، ولكنك لا تعُدّ إلهام الأولياء مدعاة للعلم القاطع، بل تراه سببا للعلم الظني فقط، فإن قولك هذا وسوسة بحتة لا يقوم عليها دليل من العقل ولا من النقل. بل تقدم التجاربُ الصحيحة والمتواترة والآياتُ القرآنية المحكمة أدلةً على بطلانها. والحق أن وساوس كمثلها إنما تنشأ في قلوب الذين ليس لديهم أدنى إلمام بنور الإلهام الكامل، بل هم محرومون من معرفة العلم اللدنّي، وغافلون عن العطايا الإلهية ومراتب اليقين والمعرفة اللامتناهية التي يمكن أن يوصل اللهُ إليها

الباحثين عنه. إنهم لا يفقهون أن الله تعالى الذي أودع في قلوب عباده حماسا شديدا للحصول على العلم اللدنّي على وجه اليقين، وجعلهم مضطربين بجذبه من الغيب للوصول إلى المعرفة الكاملة والبصيرة التامة والنور التام، ليس بالإلـــه الذي يمكن أن يضيع حماسهم وآلامهم ومساعيهم وجهودهم الناتجة عن الحب. ولا يمكن بحال من الأحوال ألا يرزقهم خبزا بقدر ما ابتلاهم بالجوع، ولا يسقيهم ماء بقدر ما فتنهم بالعطش. فهناك من يكاد يموت من أجله ﷻ ويحب معرفته أكثر من نفسه وروحه، فيفرّ إليه سبحانه وتعالى بكل ما أُعطيت روحُه من القوى وبكل ما أعُطي جسمُه من القدرات؛ أفلا يرحمه الله؟ أوَلا يرفع إليه نظره أيضا؟ أفلا تستحق أدعيته الاستجابة؟ ألا تصل استغاثته إلى الله تعالى قط؟ وهل يهلكه الله في حالة الفشل والخيبة؟ هل ينـــزل إلى القبر مع آلاف الآلام دون أن يعالجها الله ﷻ؟ أو هل يردُّه الله ويخذله؟ ألا يهدي الله تعالى مطيعه وطالبه الصادقَ إلى صراط أنبيائه، ولا يمتِّعه بنعمته الخاصة؟

مما لا شك فيه أنه ﷻ يتوجّه دائما إلى الذين يجاهدون فيه، والذين يسعون إليه يسعى ﷻ إليهم بسرعة أكبر، والذين يريدون قربَه يقترب منهم كثيرا، فيصير لهم عيونا يبصرون بها، ويصبح لهم آذانا يسمعون بها. فالآن، فكِّروا بأنفسكم: هل مَن صار اللهُ عالم الغيب عينيه وأذنيه، لا يصل إلى نور اليقين من حيث علمه اللدنِّي، بل يظل غارقا في الظنون؟ اعلموا يقينا أن أبوابه سبحانه وتعالى تُفتح للصادقين بقدر صدقهم. لا نقص في كنوزه، ولا بخل في ذاته، ولا نهاية لأفضاله، ولا حدود للتقدم في معرفته. غير أنه ﷻ قد أعطى أولا رسله المصطفين قبل غيرهم نعمة الإظهار على الغيب ونعمة العلم اللدني اليقيني والقطعي. ثم أعطى تعليمَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وبذلك بشّر الطلاب الصادقين جميعا أنهم يقدرون باتّباع رسولهم الأكرم ﷺ على الوصول إلى العلم الظاهري والباطني الذي أُعطيه أنبياؤه سبحانه وتعالى دون وسيط. وبهذا المعنى يُعَدّ العلماء ورثة الأنبياء. أمّا إذا استحال أن يرثوا

العلوم الباطنية، فكيف صاروا ورثة؟ ألم يقل النبي ﷺ بأنه سيكون في الأمة محدَّثون؟ وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ *(العنكبوت: ٧٠)*، وقال أيضا: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ *(طه: ١١٥)*.

فكّروا الآن، إذا كان مدار العلم اللدنّي كله على الظنيات، فكيف يسمَّى عِلما أصلا؟ هل الظنيات شيء يُعتدّ به حتى تسمَّى علما؟ فما معنى إذن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ *(الكهف: ٦٦)*؟ فليكن معلوما أن ما يثبت من التأمل الصائب في كلام الله ﷻ وبمئات التجارب المشهودة، هو أن أفراد الأمة المحمدية الخواص حين يفنون في اتّباع رسولهم الأكرم ويطيعونه ظاهرا وباطنا، فيعطيهم الله تعالى نصيبا من بركات النبي ﷺ نتيجة اتّباعهم له، ولا يريد أن يُبقيهم على الزهد الظاهري فقط. فكلما وقع على قلبٍ ظِلُّ بركات النبي، وجب أن يحصل له علم يقيني وقطعي مثل متبوعه، لأن النبع الذي جُعل هو وارثا له، منــزّه تماما من تكدُّرات الشكوك والشبهات. والحق أن منصب وراثة النبي يقتضي أن يكون علم الوارث الباطني يقينيا وقطعيا، فإن لم يملك إلا مجموعة من الظنيات، فأنّى له أن يفيد خلق الله بتلك المجموعة الناقصة. ففي هذه الحالة يكون وارثًا ناقصا وليس كاملا، وأعور وليس ذا عينين. وإن الشدة المتناهية لأنواع الضلال التي أقام الله ﷻ هذا الوارث لمقاومتها، والفساد الكبير للزمان، والمكر الكبير للمنكرين، ورقود الغافلين العميق، والشدة للمعاندين في الكفر؛ يقتضي بشدة أن يكون علم هذا الشخص اللدنّي أشبه بعلم الرسل. وهؤلاء هم الذين سُمُّوا في الأحاديث "أمثل" وفي القرآن الكريم "صديق". وإن زمن ظهورهم أشبه ما يكون بزمن بعثة الأنبياء، بمعنى أنه كما يأتي الأنبياء دائما في زمن انتشار الضلال والغفلة القصوى في كل حدب وصوب، كذلك يأتي هؤلاء الناس أيضا حين يسود الضلال في كل جانب بشدة متناهية، ويُستهزَأ بالحق، ويُمدَح الباطل، ويُعدّ الكاذبون صادقين والدجالون مهديين، وتصبح الدنيا محبَّبة جدا في نظر خلق الله فيتسابقون في الحصول عليها، ويكون الدين في

نظرهم ذليلا مهانا. ففي هذه الأوقات يكون هؤلاء الذين يكون إلهامهم يقينيا وقطعيا هم حُجّة الإسلام، وينوبون مناب الكُمَّل الذين سبقوهم.

فلبّ الكلام أن الإلهام اليقيني والقطعي حقيقة واقعة وثابتة في أفراد الأمة المحمدية الكمَّل وهي خاصة بهم فقط. لا شك أن إلهام الرسل منير ووضاء وأجلى وأقوى وأصفى ويحتل أعلى مراتب اليقين بكل معنى الكلمة، ويسطع كالشمس ويزيل كل ظلمة. ولكن لو كان معنى عبارةٍ موحى بها مشتبها في إلهامات الأولياء، أو كان الإلهام في حد ذاته مشتبها ومخفيا؛ لعُدَّ أمرا ظنيا إلى ذلك الحين. وسيبلغ إلهام الولي مبلغ القطع واليقين إن لم يكن من نوع الإلهامات الضعيفة، بل ينـــزل بالتواتر بنوره الكامل مثل المطر الغزير، ويُري أنواره بكل قوة، ويملأ قلب الملهَم باليقين الكامل، ويفصِّل معناه ومراده جيدا بنـــزوله بكلمات وعبارات مختلفة، ويُخرج عبارته من دائرة المشتبهات بكل الوجوه، ويبين الله تعالى بنفسه بوضوح تام أن تلك المعاني قطعية ويقينية من خلال الاستجابة والأجوبة المتواترة عند الأدعية والاستفسارات المتتالية. فإذا بلغ الإلهام هذا المبلغ كان كامل النور وقطعيا ويقينيا. والذين يقولون بأن إلهام الأولياء لا يمكن أن يكون قطعيا ويقينيا أصلا، فهم محرومون كليا من المعرفة الكاملة. **وما قدروا الله حق قدره. اللهم أصلح أمة محمد.**

أما الشبهة أنه إذا عارض إلهام الأولياء الشريعةَ المحمدية الحقة فماذا يمكن أن نفعل حياله؟ إن مَثل هذا القول كأنْ يقول أحد: ماذا نفعل إذا كان إلهام نبي يتعارض مع إلهام نبي آخر؟ فالجواب على مثل هذه الشبهات هو أن الإلهام كامل النور الذي ذكرناه قبل قليل، لا يمكن أن يخالف الشريعة المحمدية الحقة. أما لو فهمه شخص قليل الفهم أنه يخالف فذلك بسبب قصور فهمه.

الأسلوب الثاني للإلهام الذي أسميه الإلهام الكامل نظرا إلى كثرة العجائب فيه؛ هو أنه حين يريد الله أن يُطلع عبدا على أمر غيبي نتيجة دعاء العبد أو من عنده ﷻ، يُلقي عليه ما يشبه الغيبوبة واللاوعي، فيفنى وجود العبد تماما

ويستغرق في حالة من الغيبوبة واللاوعي كما يغوص المرء في الماء إلى أسفله. وحين يعود من حالة الغيبوبة هذه المماثلة للغوص بشدة يشعر كأن بداخله دويّ صوتٍ، ثم حين يخف الدويّ قليلا يشعر من داخله بكلام معتدل ولطيف وممتع فجأة. إن هذا الغوص في اللاوعي أمر عجيب في الحقيقة لا تكفي الكلمات لبيان عجائبه. ففي هذه الحالة يُكشَف على الإنسان بحر زخار من المعرفة، لأنه عندما يُلقي الله تعالى على عبده عند الدعاء بالتكرار هذه الحالة من اللاوعي ويستجيب كل دعاء من أدعيته بكلام لطيف وممتع، ويكشف عليه عند كل استفسار حقائقَ يفوق اكتشافُها قدرة الإنسان؛ تصبح هذه الحالة مدعاة لمزيد من المعرفة والعرفان الكامل. إن دعاء العبد واستجابة الله ﷻ كل أدعيته بتجلي ألوهيته أمرٌ كأنْ يرى الإنسانُ ربَّه في هذا العالم، ويصبح عنده كِلا العالمين سيان دون تفاوت بينهما. فعندما يسأل الإنسانُ ربَّه الكريم بالتكرار عند حاجته حلَّ معضلة تواجهه ويعرض عليه ﷻ حالته، يتلقى منه جوابا كما يجيب أحدكم على كلام غيره. ويكون ذلك الجواب محتويا على كلمات فصيحة ورقيقة جدا، بل ويكون في بعض الأحيان بلغة لا يعلمها ذلك العبد مطلقا، وتشمل أمورا غيبية تفوق قدرة المخلوق. وفي بعض الأحيان يتلقى بواسطته بشارة بمواهب عظيمة ومراتب عالية، وينال تهنئة بقرب الله تعالى. ويشمل الإلهام أحيانا أخرى نبوءة بالبركات الدنيوية. إنّ المتعة والمعرفة التي تُنال بسماع تلك الكلمات الرقيقة والبليغة التي هي أعلى وأسمى كثيرا من قدرات البشر، لا يعلمها إلا ذلك العبد الذي يُعطى هذه النعمة. والحق أنه يعرف ربّه نتيجتها كمعرفة أحدكم صديقه الحميم والقديم.

يكون ذلك الإلهام متعلقا بأمور عظيمة في معظم الأحيان، وتتخلله أحيانا كلمات يضطر المرء للبحث عنها في المعاجم بُغية استنباط معانيها. وقد تلقيت في بعض الأحيان الإلهام بلغة أجنبية أيضا؛ مثل الإنجليزية أو غيرها التي ليس لي أدنى إلمام بها. وعندي أمثلة كثيرة لهذا النوع من الإلهام. أما الإلهام الذي تلقيته

الآن في أثناء كتابة هذه الحاشية أي في مارس/آذار ١٨٨٢م، فقد كُشف فيه أمر غيبي (نبوءةً) أن المعاندين سيُهزَمون هزيمة نكراء بعد نشر هذا الكتاب الذي يتضمن الإعلان والاطلاع على مضامينه، وسيهتدي به طلاب الحق، وستزول معتقداتهم السيئة، وسينصرني الناس بإلقاء من الله وترغيب منه، وسيتوجهون ويأتون إليّ، وغيرها من الأمور. ونص كلمات الإلهام هو التالي:

"يَا أَحْمَدُ بَارَكَ اللهُ فِيْكَ، مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى، الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، لِتُنْذِرَ قَومًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤهُمْ، وَلِتَسْتَبِيْنَ سَبِيْلُ الْمُجْرِمِيْنَ. قُلْ إِنِّيْ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِيْنَ أي أول تائب إلى الله بأمر الله في هذا الزمان أو أول من يؤمن بهذا الأمر، والله أعلم، قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا. كُلُّ بَرَكَةٍ مِّنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَتَبَارَكَ مَنْ عَلَّمَ وَتَعَلَّمَ، قُلْ إن افْتَرَيْتُه فَعَلَيَّ إجْرَامِي. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَه عَلى الدِّينِ كُلِّه، لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله. ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. أي لِيُظهر دينَ الإسلام بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة على كل دين ما سواه؛ أي ينصر الله المؤمنين المظلومين بإشراق دينهم وإتمام حجتهم. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِيْنَ، يَقُولُونَ أَنَّى لَكَ هذَا، أَنَّى لَك هذَا؟ إنْ هذَا إِلاَّ قَولُ الْبَشَرِ، وَأَعَانَه عَلَيْهِ قَومٌ آخَرُونَ. أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ. مَنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ، وَّلاَ يُكَادُ يُبِينُ، جَاهِلٌ أو مَجْنُونٌ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِيْنَ. هذَا مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّكَ، يُتِمُّ نِعْمَتَه عَلَيْكَ لِيَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ. أَنْتَ عَلى بَيِنَةٍ مِّنْ رَّبِّكَ، فَبَشِّرْ وَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ، هَلْ أُنَبِئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. قُلْ عِنْدِي شَهَادَةٌ مِّنَ الله فَهَلْ أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ؟ قُلْ عِنْدِي شَهَادَةٌ مِّنَ الله فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ، رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوتَى. رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ مِّنَ السَّمَاءِ. رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَّأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. رَبِّ أَصْلِحْ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَومِنَا

بالْحَقّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ. وَقُلِ اعْمَلُوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوفَ تَعْلَمُونَ. وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. وَيُخَوِّفُونَكَ مِنْ دُونه. إِنَّكَ بأَعْيُننَا. سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ. يَحْمَدُكَ اللهُ مِنْ عَرْشِه. نَحْمَدُكَ وَنُصَلِّي. يُرِيْدُونَ أنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله بأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِه وَلَو كَرِهَ الْكَافِرُونَ. سَنُلْقِي فِي قُلُوبهِمُ الرُّعْبَ. إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ وَانْتَهى أَمْرُ الزَّمَانِ إِلَيْنَا. أَلَيْسَ هذَا بالْحَقّ؟ هذَا تَأوِيلُ رُؤيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا. وَقَالُوا إِنْ هذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ، قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوضِهِمْ يَلْعَبُونَ. قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُه فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلى الله كَذِبًا. وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى وَخَرَقُوا لَهُ بَنِيْنَ وَبَنَاتٍ بغَيْرِ عِلْمٍ. قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِيْنَ. الْفِتْنَةُ هَهُنَا فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ. وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ. وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أو نَتَوَفَّيَنَّكَ. وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِبَّهُمْ وَأَنْتَ فِيْهِمْ أي ما كان الله ليعذهم بعذاب كامل وأنت ساكن فيهم، إِنِّي مَعَكَ وَكُنْ مَّعِي أَيْنَمَا كُنْتَ، كُنْ مَعَ الله حَيْثُ مَا كُنْتَ. أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله. كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَافْتِخَارًا لِّلْمُؤمِنِينَ. وَلاَ تَيْئَسْ مِن رَوحِ الله أَلا إِنَّ رَوحَ الله قَرِيْبٌ. أَلاَ إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيْبٌ. يَأتِيْكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ، يَأْتُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ. يَنْصُرُكَ اللهُ مِنْ عِنْدِه، يَنْصُرُكَ رِجَالٌ نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ. لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله. إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيْنًا. فَتْحُ الْوَلِيّ فَتْحٌ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا. أَشْجَعُ النَّاسِ. وَلَو كَانَ الإِيْمَانُ مُعَلَّقًا بالثُّرَيَّا لَنَالَه. أَنَارَ اللهُ بُرْهَانَه. يَا أَحْمَدُ فَاضَتِ الرَّحْمَة عَلى شَفَتَيْكَ. إِنَّكَ بأَعْيُننَا يَرْفَعُ اللهُ ذِكْرَكَ. وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى. وَنَظَرْنَا إِلَيْكَ وقُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلى إِبْرَاهِيْمَ. خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ. يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَربَّك فَكَبِّرْ. يَا أَحْمَدُ يِتِمُّ اسْمُكَ وَلاَ يَتِمُّ اسْمِي أي أنت فانٍ فينقطع تحميدك ولا ينتهي محامد الله فإنها لا تعد ولا تحصى، كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أو عَابِرُ سَبِيْلٍ، وَكُنْ مِن الصَّالِحِيْنَ

الصِّدِّيْقِينَ، وَأمُرْ بالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ. الصَّلاةُ هُوَ الْمُرَبِّي. إنِّي رَافِعُكَ إليّ وَألْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي. لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ فَاكْتُبْ وَلْيُطْبَعْ وَلْيُرْسَلَ فِي الأرْضِ. خُذُوا التَّوحِيدَ التَّوحِيدَ يَا أبْنَاءَ الْفَارِسِ. وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ. وَاتْلُ عَلَيْهِمْ مَّا أُوحِيَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَلاَ تُصَعِّرْ لِخَلْقِ اللهِ وَلاَ تَسْأمْ مِنَ النَّاسِ. أصْحَابُ الصُّفَّةِ وَمَا أدْرَاكَ مَا أَصْحَابُ الصُّفَّةِ، تَرى أعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ. يُصَلُّونَ عَلَيْكَ. رَبَّنَا إنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإيْمَانِ وَدَاعِيًا إلى اللهِ وَسِرَاجًا مُنِيْرًا، أمْلُوا."

لا تخطرنّ هنا ببال أحد وسوسة فيقول: أنّى لأدنى فرد من أفراد الأمة أن يشارك النبي الأكرم ﷺ في أسمائه أو صفاته أو محامده؟ الحق دون أدنى شك هو أنه لا أحد من الأنبياء أيضا يمكن أن يتساوى بصورة حقيقية مع النبي ﷺ في كمالاته القدسية، بل لا مجال للملائكة أيضا للتساوي معه ﷺ دع عنك الآخرين أن تكون لهم أدنى نسبة مع كمالاته ﷺ.

ولكن يا طالب الحق أرشدك الله، اسمعْ بانتباه وإصغاء: إن الله دبّر هذا الأمر بكمال حكمته ورحمته -لتظهر للعيان بركات هذا النبي الأكرم ﷺ دائما، ولكي يُدين نورُه وأشعةُ قبولهِ الكاملةُ المعادين ويُفحمهم- أن بعضا من أفراد الأمة المحمدية الذين يتّبعون النبي ﷺ بكمال التواضع والتذلل رامين أنفسهم على عتباته ﷺ متخلّين عن نفسانيتهم تماما، حين يجدهم الله فانين ومثل مرآة نقية، يُظهر بركات نبيه الحبيب من خلال وجودهم الخامل وكل ما ينالون من المحامد من الله تعالى وما يظهر منهم من تأثيرات وبركات وآيات، فإن مرجعها التام ومصدرها الكامل هو رسول الله ﷺ. وله وحده المحامد كلها بصورة حقيقيةٍ وكاملةٍ، وهو ﷺ المصداق الأتم لها. ولكن لما كان متبع سنن سيد الكونين ﷺ -نتيجة اتّباعه البالغ غايته- يصبح ظل ذلك الوجود النوراني، أي شخص النبي ﷺ المبارك، فكل ما يوجد في ذلك الوجود المقدس أو ما يظهر منه من الأنوار الإلهية، يكون ظاهرا وباديًا في ظله أيضا. وإن ظهور هيئة الأصل وأسلوبه

بصورة كاملة من خلال الظل أمرٌ لا يخفى على أحد. ولكن صحيح تماما أنه لا وجود للظل بحد ذاته ولا وجه أفضلية حقيقية فيه، بل كل ما يوجد فيه إنما هو صورة ذلك الأصل التي تبرز فيه. لذا يجب ألا تحسب أنت ولا غيرك وصول أنوار النبي ﷺ الباطنية إلى أتباعه الكمَّل من أمته أمرا معيبا.

وليكن معلوما أن انعكاس النور الذي يقع بطريق الإفاضة الدائمة على النفوس المنـــزّهة من الأمة المحمدية يؤدي إلى أمرين عظيمين. أولا: يظهر بذلك الكمال العظيم للنبي ﷺ، لأن السراج الذي يمكن أن يُضاء به سراج آخر، خير من الذي لا يُضاءُ به أيّ سراج. ثانيا: إن هذه الإفاضة الدائمة تُثبت كمال هذه الأمة وأفضليتها على الأمم الأخرى، ويتجدد بها صدق الإسلام دائما، ولا يقتصر الأمر على الإشارة إلى الأزمنة الغابرة. وبذلك تظهر أنوار صدق الإسلام كالشمس في كبد السماء، وتتم حُجّة الإسلام على معارضيه، وتتبين ذلة معانديه وإهانتهم وسواد وجوههم بكل وضوح، لأنهم يرون في الإسلام بركات وأنوارا لا يسعهم إثبات نظيرها في القساوسة والبانديتات وغيرهم في أقوام أخرى. **فتدبّر أيها الصادق في الطلب، أيدك الله في طلبك.**

قد تتطرق إلى قلوب بعض الناقصين شبهة أنه لماذا وردت في العبارة الإلهامية المذكورة آنفا مدائح لمسلم؟ فليكن معلوما أن هناك فائدتين عظيمتين مرجوّتين من هذه المدائح. وقد ذكر الحكيم القدير تلك المدائح لمصلحة خلق الله نظرا إلى تلكما الفائدتين. أولاهما: لكي تتبين تأثيرات اتّباع النبي المتبوع، ويتضح للخلق عامةً ما أعظمَ شأنَ سيدنا خاتم الأنبياء ﷺ! وما أسطعَ وأقوى تأثيراتِ نور شمس الصدق والحق هذا، الذي اتّباعه يجعل البعض مؤمنا كاملا، ويوصل البعض إلى درجة العارف، ويهب غيره مرتبة "آية الله" أو "حجة الله" ويجعله مستحقا للمحامد الإلهية.

والفائدة الثانية هي أن مدح المستفيض الجديد يهدف إلى إصلاح كثير من البدعات والمفاسد الداخلية، لأن معظم الجاهلين قد ألصقوا بالأولياء والصلحاء

السابقين مئات التهم وكأنهم هم الذين طلبوا من هؤلاء الجهلة أن يُشركوهم بالله ويسألوهم مراداتهم، ويعدّوهم قادرين ومتصرفين في الكون مثل الله تعالى. فلو لم يُشرَّف مصلح جديد، والحالة هذه، بالمحامد التي يتصورونها لمرشِديهم، لما كان وعظ ذلك المصلح الجديد ونصحه مؤثرا إلا قليلا؛ لأن هؤلاء القوم سيقولون في أنفسهم حتما: أنّى لهذا الشخص المحتقَر أن يبلغ شأنا عظيما يحظى به مرشدونا، وسيزعمون أيضا أنه ما دام كبارنا قد وعدوا بتحقيق مرامينا، فمَن يكون هذا وما شأنه وما أهميته ومرتبته ومنـــزلته حتى نهجرهم ونسمع له؟

فهاتان هما الفائدتان العظيمتان اللتان بسببهما مدح الله تعالى ذو العزة والمحامد كلها عبدَه المتواضع والحفنة من التراب. وإلا فما معنى محامد حفنة من التراب؟

بل المحامدُ والحسنات كلها ترجع لله رب العالمين والحيّ القيوم. فلو مدح الله عزّ اسمه من منطلق الحكمة المذكورة آنفا عبدا قدّر سبحانه وتعالى إصلاح خلق الله على يده، لوجب على ذلك العبد أن يُشيع ذلك المدح بِنية إفادة خلق الله دون أن يخاف ما سيقوله عامة الناس، لأنهم لا بد وأن يقولوا ما يحلو لهم من الهراء والهذيان بحسب طبيعتهم وأفكارهم، لأن ظن السوء من عادتهم القديمة، فأنّى لها أن تتغير في زمن من الأزمان؟ والحق أن هذه المحامد إنما هي لصالح عامة الناس. وإن بدت لهم مكروهة ونوعا من الافتراء في بداية الأمر، ولكن الله تعالى يكشف لهم الأمر الحق في نهاية المطاف. وحين يتبين للعامة كون ذلك العبد الضعيف محِقًّا ومؤيَّدا من الله سبحانه وتعالى، تصبح جميع تلك المحامد لشخص بارز في ميدان الحرب مدعاةً لفتحٍ عظيم، وتجذب عباد الله الذين ضلوا الطريق إلى توحيده وتفريده بتأثيراتها العجيبة. وحتى إذا تسببت في الاستهزاء واللوم لأيام قليلة، كان احتمال ذلك الاستهزاء واللوم سعادة وافتخارا بعينه لخادم الدين. **والذين يبلِّغون رسالات ربهم لا يخافون لومة لائم.**

الأسلوب الثالث للإلهام هو الإلقاء على قلب الإنسان ببطء ولطف، أي تمر بقلبه كلمة لا توجد فيها العجائب بالتمام والكمال التي ذُكرت تحت الأسلوب الثاني، بل لا يُشترَط النعاس وحالة اللاوعي أيضا، بل يتم الإلقاء في كثير من الأحيان في حالة اليقظة التامة أيضا، ويشعر المتلقي كأن أحدا نفخ أو ألقى في قلبه كلمة من الغيب، إذ يكون الإنسان في حالة الاستغراق والفناء حتى في اليقظة نوعا ما. وفي بعض الأحيان يكون يقظا تماما ويشعر فجأة أن كلاما جديدا قد اقتحم صدره. ويحدث في بعض الأحيان الأخرى أن ذلك الكلام يُظهر ضوءه القوي فورا بعد دخوله القلب، فيتنبه الإنسانُ إلى أنه إلقاء من الله تعالى. ويشعر صاحب الذوق السليم أن ذلك الإلهام يريح القلبَ ويهب له السكينة والطمأنينة كما يدخل هواء النَفَس ويريح القلب وغيره من الأعضاء، فتسود الطبيعةَ المضطربة سعادةٌ وبرودة ناتجة منه. هذا سرّ دقيق وخافٍ عن عامة الناس. ولكن العارفين وأهل المعرفة الذين جعلهم الله الوهاب الحقيقيُّ أصحاب تجربة وخبرة في الأسرار الربانية يعرفون ذلك جيدا. ولقد تلقيت هذا النوع من الإلهام أيضا مرارا ولكن لا أرى تحريره ضروريا.

الأسلوب الرابع للإلهام هو أن الله تعالى يكشف أمرًا ما بالرؤيا الصادقة، أو يتمثل ملاكٌ بصورة إنسان ويخبر بأمر غيبي، أو تتراءى عبارة مكتوبة على ورقة أو حجر أو غيرهما، وبواسطتها تظهر بعض الأسرار الغيبية، **وغيرها من الصور**.

وفيما يلي أسجل على سبيل المثال بعضا من رؤايَ التي أطلعتُ عليها في حينها كثيرا من معاندي الإسلام، وقد ظهر صدقها أيضا أمام أعينهم.

فمن جملتها رؤيا رأيت فيها سيدنا خاتم الأنبياء محمدًا المصطفى ﷺ. وبيانها الموجز أنني أنا هذا العبد الحقير رأيت في الرؤيا سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ في عام ١٨٦٤م أو ١٨٦٥م حين كنت في مقتبل العمر وكنت ما زلت عاكفا على تحصيل العلم. كان في يدي -في الرؤيا- كتابٌ دينيّ، وبدا لي كأنه من مؤلّفاتي

أنا. عندما رأى النبي ﷺ الكتاب سألني بالعربية: ماذا سمَّيتَه؟ قلتُ: سمَّيتُه "قُطبي". وقد كُشف الآن تفسير هذا الاسم بعد تأليف هذا الكتاب المصحوب بالإعلان بأنه كتاب محكَم لا يتزلزل مثل الكوكب "القُطب" وقد نشرتُه مع إعلان جائزة عشرة آلاف روبية معلنا إحكام الكتاب. فأخذ ﷺ الكتاب مني، فلما أخذه ومسّته يده المباركة، فإذا هو ثمرة جميلة اللون والمظهر تشبه الجوافة، ولكنها بحجم البطيخ. وعندما قطعها النبي ﷺ شرائح للتوزيع، خرج منها عسل كثير، ابتلّت به يده المباركة إلى المرفق. عندها أُحيي -وبمعجزة من النبي ﷺ- ميتٌ كان ملقًى على أُسْكُفّة البيت وقام وراء ظهري، وكنت واقفًا أمام النبي ﷺ وقفة المستغيث أمام الحاكم. والنبي ﷺ جالس على الكرسي كبطل عظيم بالجاه والجلال وبعظمة الملوك.

وملخص الكلام أن النبي ﷺ أعطاني قطعةً لأُعطيها شخصًا أُحيي من جديد من الموت، وألقى ﷺ بقية القِطع في حضني، فأعطيته تلك القطعة فأكلها في الحال. عندما انتهى الذي أُحيي من أكلها، رأيتُ أن كُرسي النبي ﷺ قد رُفع كثيرا من مكانه، فإذا جبينه المبارك يشعّ باستمرار كأشعة الشمس. وكانت في ذلك إشارة إلى نضارة الإسلام وتقدمه. ثم استيقظتُ في أثناء مشاهدة هذا النور. **والحمد لله على ذلك.**

لقد سردتُ هذه الرؤيا في تلك الأيام نفسها لمئتي شخص تقريبا بمن فيهم ما يقارب خمسين هندوسيا، ومعظمهم ما زالوا أحياء يرزقون. ويعرف جميع هؤلاء الناس جيدا أنه لم يكن في تلك الأيام لكتاب "البراهين الأحمدية" أدنى أثر، ولم يخطر ببالي قط أني سأؤلف كتابا دينيا وسأنشر معه إعلان جائزة بعشرة آلاف روبية معلنا أنه مُحكم، ومتحديا بصدقه. ولكن من الواضح تماما أن الأمور التي دلّت عليها الرؤيا قد تحققت إلى حد ما. وأما "القطبية" التي سمَّيتُ بها الكتاب في تلك الرؤيا، فقد قدمتُ القطبية نفسها للأعداء مقرونة بوعد جائزة كبيرة، وأتممتُ عليهم حُجّة الإسلام. أما أجزاء الرؤيا التي لم

تتحقق بعد، فليترقب الجميع تحققها؛ لأن الكلام السماوي لا يمكن أن يُردَّ أبدا.

وفي رؤيا ثانية: قبل ١٢ عاما تقريبا كان هناك شخص هندوسي -وهو الآن عضو في "آريا سماج" في قاديان وما زال سليما معافى- ينكر بشدة متناهية معجزات سيدنا خاتم الرسل ﷺ ونبوءاته. وكان يزعم لشدة العناد مثل القساوسة، بأن هذه الأنباء قد افتراها المسلمون بأنفسهم، ولم يُظهر الله على النبي ﷺ أي أمر غيبي قط، ولم تكن علامة النبوة هذه موجودة فيه أصلا. ولكن، يا سبحان الله! ما أعظم فضل الله على نبيه! وما أعلى شأن هذا النبي المعصوم والمقدس الذي تلمع أشعة صدقه الآن أيضا كما ظلت تلمع منذ القِدم.

فصادف بعد بضعة أيام حينها أن تورَّط أحد أقارب الهندوسي المذكور في قضية معقدة وسُجن، وسُجن معه هندوسي آخر أيضا، ورُفعت قضيتهما إلى المحكمة العليا. فقال لي ذلك الهندوسي وهو في حيرة من أمره، لو استطاع أحد أن يخبرنا اليوم ماذا يمكن أن يكون مآل هذه القضية، لعددناه خبرا غيبيا حقا. قلت له: إن الغيب عند الله، ولا يعرف أسراره الكامنة منجّم ولا رمّال ولا فاتح فأل ولا غيرهم من المخلوقات، غير أن الله العالم بكل ما هو واقع في السماء والأرض يُطلع بمشيئته وقدرته رسلَه الكاملين والمقدسين على بعض أسرار غيبه. كذلك يكشف في بعض الأحيان بعض الأسرار الخفية على الأتباع الكمَّل لرسوله الصادق -أي المسلمين؛ نتيجة اتباعهم ولأنهم ورثة علوم رسولهم - لكي يكون ذلك آية على صدق دينهم. أما الأمم الأخرى الباطلة مثل الهندوس وبانديداتهم، والمسيحيين وقساوستهم فهم محرومون بتاتا من جميع تلك البركات الكاملة. فما إن قلتُ ذلك حتى بدأ ذلك الشخص يصر على أنه إذا كانت لأتباع الإسلام أفضلية على الأمم الأخرى، فيجب إظهارها بهذه المناسبة. قلتُ له مرارا: إن ذلك في يد الله تعالى وليس للإنسان خيار فيه. ولكن هذا الآري ظل مصرا على كلامه.

فباختصار، حين رأيت أنه ينكر نبوءات النبي ﷺ وعظمة الإسلام أشد الإنكار ألقى الله تعالى في قلبي حماسا شديدا ليُخجله الله تعالى ويفحمه في هذه القضية بالذات. فدعوت الله تعالى وقلتُ: يا ربي الكريم؛ إن هذا الشخص ينكر شرف نبيك الكريم وعظمته وآياتك ونبوءاتك التي أظهرتها على نبيك إنكارا شديدا، ولكن يمكن إسكاته نتيجة كشف مآل هذه القضية، وإنك على كل شيء قدير، تفعل ما تشاء ولا يغيب شيء عن علمك المحيط. فكشف الله تعالى -الحافظُ لدينه الحق، الإسلام، والمحب لشرف رسوله ﷺ وعظمته- الحقيقةَ عليّ في المنام ليلا، وأظهر أنه من المقدر عند الله تعالى أن يعود ملف هذه القضية من المحكمة العليا إلى المحكمة التابعة وتُخفَّف فيها عقوبة السجن إلى النصف، ولكن لن يُطلق سراحه، أما رفيقه فلن يطلق سراحه هو الآخر بل سيقضي مدة السجن كلها.

فبعد أن استيقظت من النوم شكرت الله ربي الذي لم يجعلني مغلوبا على أمري أمام العدو. فقصصتُ الرؤيا كلها على الفور على جماعة كبيرة من الناس، وأخبرت بها ذلك الهندوسي أيضا في اليوم نفسه.

فيا أيها الشيخ، يمكنك الآن أن تأتي إلى هنا بنفسك وتستفسر كيفما تشاء من ذلك الهندوسي الذي لا يزال موجودا في قاديان، وكذلك من أناس آخرين عمّا إذا كان هذا الخبر الذي سقتُه صحيحًا تماما، أم فيه نقص أو زيادة؟ لا شك أنك تقدّر مدى أهمية شهادة المعاندين الدينيين وجدواها، ولا سيما شهادة أتباع البانديت "ديانند". والآن أسرد لك الرؤيا الثالثة.

لا بد أنك سمعتَ اسم السيد سَرْدار محمد حيات خانْ الذي كان مفصولا من الوظيفة منذ مدة لا بأس بها وبأمر من الحكومة. قبل عام ونصف أو أكثر من ذلك بقليل -حين واجه مصائب ومعاناة وصعوبات عديدة في أثناء مدة فصله وبدا أن الحكومة أيضا تمتعض منه نوعا ما- تلقيتُ في تلك الأيام خبر نجاته في الرؤيا، وقلت له أثناء الرؤيا: لا تخف إن الله على كل شيء قدير

وسينجيك. قصصتُ هذا الخبر في الأيام نفسها على عشرات من الهندوس والآريا والمسلمين. وكلّ من سمعه استبعد حدوث ذلك، وبعضهم رأوه مستحيلا. وسمعت أن أحدا أوصل الخبر في الأيام نفسها إلى السيد محمد حيات خان أيضا في لاهور. فالحمد لله والمنة أن هذه البشارة أيضا تحققت كما رأيتها في الرؤيا بالضبط. والشهداء على هذه الرؤيا لا يقلّون عن ستين أو سبعين شخصا. ولو لم تكن شهادة المسلمين جديرة بالثقة عندك في هذا الموضوع، ولا شهادة محمد حيات خان؛ فلتعلم أن مِن بين الشهود هناك عشرة أو اثنا عشر شخصا من الهندوس وأعضاء "آريا سماج" يتّبعون منهج الفيدات تماما ويعادون المسلمين. أما السيد محمد حيات خان؛ فلا مراسلة بيني وبينه ولا لقاء ولا علاقة ملحوظة أو تعارف. الحق أني كنت في حيرة من أمري وأتساءل: لماذا أظهر الله تعالى عليّ عاقبته في أيام اضطرابه الشديد؟ فاليوم علمتُ السبب وراء ذلك؛ فقد تلقيت هذا الكشف أيضا ليُستخدَم في المهمة الدينية التي كلّفني الله بها. والحمد لله ثم الحمد لله.

والآن أسرد رؤيا رابعة لمزيد من طمأنينتك. قبل عشرة أعوام تقريبا رأيت المسيح عليه السلام في الرؤيا وأكلنا معا من صحن واحد في مكان واحد. وعند الأكل كنا غير متكلّفين، بل كالشقيقينِ والرفيقينِ والصديقين الحميمين منذ قديم الزمان. ثم وقفت أنا والمسيح وشخص كامل آخر من السادات من آل النبي ﷺ وقفة طويلة في غاية السعادة في شرفة الدار نفسها التي أكتب فيها هذه الحاشية. وكانت في يد السيد المذكور ورقة مكتوب فيها أسماء بعض أفراد الأمة المحمدية الخواص بالإضافة إلى بعض محامدهم من الله تعالى. فبدأ بقراءة الورقة، وكان يبدو كأنه يريد أن يُطلع المسيحَ عليه السلام على مراتب الأمة المحمدية المقدرة لهم عند الله بوجه خاص. لقد كانت عبارة المدح على الورقة كلها من الله تعالى خالصة. وحين وصل إلى نهاية الورقة ولم يبق منها إلا شيء قليل، جاء اسمي أنا. وقد ورد فيها من الله تعالى عبارة المدح في اللغة العربية ونصّها: **"هو مني**

بمنـــزلة توحيدي وتفريدي، فكاد أن يُعرف بين الناس." وقد أُلقيتْ عليّ الجملة الأخيرة من العبارة ذاتها أيضا في الوقت نفسه إلهاما ؛ أي: "**فكاد أن يُعرف بين الناس.**" فلما كنتُ مشتاقا منذ البداية إلى نشر هذا العلم الروحاني، سردتُ الرؤيا والإلقاء أيضا في الحال لعديد من المسلمين والهندوس الذين لا يزالون موجودين في قاديان. فانظروا الآن، ما أعظم هذه الرؤيا وهذا الإلهام، وما أسماهما عن قدرة الإنسان! ومع أن هذه النبوءة لم تتحقق إلى الآن كاملةً، ولكن يجب انتظار تحققها في حينها، لأن إخلاف وعود الله تعالى محال.

وهنا يجب أن يكون معلوما أيضا أن غير المسلمين أيضا يشاهدون في بعض الأحيان مناما صادقا. ولكن هناك فرق واضح وصريح من عدة وجوه بين مناماتهم وبين رؤى المسلمين الذين يتّبعون رسول الله ﷺ اتّباعا كاملا. فمن جملة تلك الفروق أن المسلمين يرون رؤى صادقة بكثرة كما وعدهم الله ﷻ نفسه قائلا: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ *(يونس: ٦٥)*، ولكن الكفار ومنكري الإسلام لا يحظون قط بكثرة الرؤى الصادقة، بل لا ينالون جزءا واحدا من الألف منها. ويمكن إثبات ذلك من خلال آلاف من رؤايَ الصادقة؛ التي أخبرت بها مئات المسلمين والهندوس قبل تحققها، وادّعيتُ منذ البداية عجز الأمم الأخرى عن مبارزتها.

والفرق الآخر هو أن رؤى المسلمين تكون عظيمة الشأن جدًّا في معظم الأحيان وتشمل بشارات وأنباء بمهمات عظيمة، أما منامات الكفار فتشمل في أكثر الحالات أمورا خسيسة وسافلة لا أهمية لها، وآثار الذلة والخيبة المنفِّرة تكون بادية فيها. ولإثبات ذلك أيضا يكفي التأمل بالعدل والإنصاف في رؤيايَ. أما إذا أنكر أحد فليتقدم ويثبت لنا رؤى أصحاب دين آخر تحمل في طياتها العظمة نفسها.

والفرق الآخر هو أن رؤى المسلم تكون سديدة ومكشوفة تماما، وقلما يحدث لمسلم كامل أن تكون رؤياه بلا حقيقة أو من أضغاث الأحلام؛ لأنه

يملك قلبا طاهرا ودينا مقدسا وعلى علاقة صادقة مع الله تعالى. وعلى عكس ذلك قلما يحدث لمنكر الإسلام الواقع في النجاسة -نتيجة نجاسته القلبية ودينه الباطل- أن يكون حُلمه صادقا. وكذلك قد أثبتت التجارب أيضا أنه لو كان حلمٌ من أحلام منكر الإسلام صادقا أيضا على سبيل الندرة، لكان الشرط ألا يكون صاحب الحلم قسيسا أو بانديتًا معاندا، بل يكون هندوسيا بسيطا أو مسيحيا مسكينا لا يعتقد بدينه بشدة ولا يكنّ للإسلام بُغضًا وضغينة. وقد ثبتت أيضا من خلال تجارب كثيرة أنه حتى لو كان حُلم هندوسي أو مسيحي مسكين صادقا في بعض الأحيان، لما كان نـــزيها وبريئا تماما من شوائب الأخطاء والهفوات، بل يكون فيه شيء من النقص أو الزيادة أو التشويه أو الإفراط أو التفريط حتما.

أَذكُر أني رأيت في الأول أو الثاني من شهر محرم عام ١٢٩٩ من الهجرة في الرؤيا أن شخصا ما قد أرسل لي خمسين روبية مساعدةً لطباعة الكتاب. وفي الليلة نفسها رأى أحد الآريين أيضا أن أحدا قد أرسل لي ألف روبية للغرض نفسه. وعندما سرد لي منامه حكيتُ له منامي وقلتُ: لقد اختلط في منامك ١٩ جزءا من الكذب وذلك عقابا لكونك هندوسيا وخارج الإسلام. ربّما شق عليه ذلك ولكن كلامي كان صحيحا تماما وقد ظهر صدقه في اليوم الخامس أو السادس من شهر محرم نفسه؛ إذ وصلت بتاريخ ٥ أو ٦ من محرم الحرام وبحضور أناس كثيرين بمن فيهم أحد الآريين خمسون روبية كان قد أرسلها من جُونا غرهـــ -مساعدةً لطبع الكتاب- السيدُ شيخ محمد بهاء الدين المحترم المسؤول الأعلى في الولاية، والحمد لله على ذلك.

كذلك أخبرني الله تعالى ذات مرة في الرؤيا بموت "راجا"، فأطلعتُ عليها هندوسيا يعمل محاميا في الوقت الحالي. وحين تحقق الخبر في اليوم نفسه استغرب ذلك الهندوسي أيما استغراب متسائلا: كيف عُلم الغيب المبين والواضح إلى هذا الحد؟

وبمناسبة أخرى تقدم المحامي المذكور لامتحان المحاماة، وفي العام نفسه تقدم معه للامتحان أيضا أناس كثيرون آخرون من المحافظة نفسها. عندها أيضا رأيت رؤيا وأخبرتُه بها هو وأربعين أو خمسين هندوسا آخرين بمن فيهم الموظفين الكبار؛ مثل مدير المديرية والمحرر وغيرهما، وقلتُ: إن المتقدم المذكور آنفا وحده سينجح في الامتحان، أما غيره فسيفشلون كلهم، وهكذا كان بالضبط. ثم تلقيت هذا الخبر هنا في قاديان بواسطة رسالة هذا المحامي في عام ١٨٦٨م، والحمد لله على ذلك.

فليكن معلوما في هذا المقام أنه كما أن أحلام معارضينا المتعلقة بأمور الدنيا تكون بلا أصل وكاذبة في معظم الأحيان، كذلك يثبت كونها مغشوشة وبلا أصل وبلا حقيقة دائما في أمور الدين أيضا. لقد سمعت قبل ثمانية أعوام أو تسعة أن قسيسا تنبأ أن المسيح سينـــزل من السماء في غضون ثلاث سنين ليساعد القساوسة. ثم قرأت مرة في جريدة "منشور محمدي" أو غيرها بأن قسيسا آخر من مدينة "بنغلور" قد وعد وعدا مماثلا.

على أية حال، لقد مضت تلك السنوات الثلاث منذ مدة ولم ير أحد المسيح نازلا من السماء إلى يومنا هذا. فبطلت تماما نبوءة القساوسة -على غرار نبوءة بعض المنجمين- الذين زعموا أن القيامة ستقوم في شهر ١١ من عام ١٨٨١م. وليكن واضحا أيضا بأني لا أنكر أن يكون أحد القسس قد رأى مناما عن نزول المسيح، بل ما أقصده هو أن معظم مناماتهم تكون باطلة وكاذبة بسبب كفرهم وعداوتهم لسيدنا خاتم الأنبياء ﷺ، وإذا ثبت صدق منام ما على سبيل الندرة، فإنه لا يخلو من الالتباس والإبهام. فلو عددنا المنام الذي رآه القسيسان عن المسيح من قبيل النوع الثاني المذكور آنفا، لكان معناه أن المراد من المسيح عليه السلام في عالَـــم الرؤيا هو فرد كامل من أفراد الأمة المحمدية؛ لأن التجارب الجارية منذ القِدم تشهد أنه كلما رأى مسيحيٌّ في المنام أن المسيح الذي سيُحيي الدين موشك على النـــزول، أو رأى هندوسي أن مبعوثا من الله تعالى

على وشك المجيء وبمجيئه سيزدهر الدين، فإن تفسير مناماتهم هذه -إذا كانت صادقة بعض الأحيان- أن المراد من هذا المسيح أو المبعوث من الله؛ هو رجل من المسلمين يُبعث في وقت مناسب تماما لازدهار الدين وإصلاحه. ولأنه يكون وارثا لجميع المقدسين من حيث نورانيته، فيُرى بهذه الصورة في مخيلة أناس ذوي أفكار مشتتة. بمعنى أنه يُرى لهم متجسدا في صورة شخص يعتقدون أنه مقدس جدا وكامل وقدوة لهم في الصدق ويعدّونه هاديا لهم.

باختصار إن منامات المسيحيين والهندوس تكون في معظم الأحيان بلا أصل وبلا حقيقة وكذبا صريحا أو مشتبها فيها. فالنظرة المتعمقة على كل هذه الأوجه تؤكد بالبداهة أن كثرة الرؤى الصادقة والكاملة وفي الأمور العظام وبالوضوح التام، إنما هي خاصة بالأمة المحمدية، ولا تشاركها فيها ملة أخرى. والسبب في عدم مشاركتها هو أن هؤلاء الناس كلهم بعيدون كل البعد عن الصراط المستقيم، وأن جُلّ أفكارهم منصبَّة على عبادة الدنيا وعبادة المخلوق وعبادة النفس، وهم محرومون وبعيدون تماما عن نور الصادقين الذي ينالونه من الله تعالى. وهذا ليس بادّعاء فحسب وليس كلاما فارغا، بل هو حقيقة ثابتة؛ بحيث لو أنكرها عاقل، لوجبت عليه المبارزة في ذلك، لأن ما ثبت بالأدلة الكاملة وما ظهر بالشهادات الكاملة، لا يمكن إبطاله بكلام عبثي وواهٍ. **فتدبّر وتفكّر**.

الأسلوب الخامس للإلهام هو الذي لا علاقة له بقلب الإنسان، بل يصدر صوت من الخارج ويبدو كأن شخصا يتكلم من وراء حجاب. ولكن هذا الصوت يكون حلوا ولطيفا ومصحوبا بشيء من السرعة ويستمتع به القلب جدا. عندما يكون الإنسان في حالة من الاستغراق، يتناهى إلى أذنه هذا الصوت فجأة، فيستغرب لسماعه ويتساءل: من أين صدر هذا الصوت، ومَن الذي كلّمني؟ وينظر إلى الخلف وإلى الأمام كمشدوه مذهول حتى يُدرك أن ملاكا أصدره. وإن ذلك الصوت الخارجي يأتي في معظم الأحيان كبشارة،

وذلك حين يكون الإنسان مشغول البال في أمر ما وحزينا جدا، أو حين يصيبه همٌّ شديد نتيجة سماعه خبرا سيئا يكون كاذبا لا حقيقة له أصلا. ولكن لا يلاحَظ صدور هذا الصوت -كما في الأسلوب الثاني المذكور من قبل- نتيجة أدعية متكررة، بل ينادي الملاك من الغيب دفعة واحدة حين يأمره الله تعالى، وذلك على عكس الأسلوب الثاني الذي يلاحَظ فيه الجواب من الله تعالى على الأدعية الكاملة في معظم الأحيان، وحتى لو دعا وسأل مئة مرة فإن الجواب يمكن أن يأتيه من الله الكريم والقدير مئة مرة كذلك، وتشهد على ذلك تجاربي الشخصية المتواترة.

أَذكُر نبوءة عظيمة بتلقيها من الله تعالى من هذا النوع من الإلهامات أيضا، وبعد تحققها قمت بإدانة وإفحام عضو من أعضاء "آريا سماج" في قاديان ما زال موجودا فيها سليما معافى. كانت النبوءة تبدو في الظاهر بعيدة عن التصور ومستحيلة التحقق وممتنعة الوقوع تماما. فبسماعها استنكرها هذا الآري استنكارا شديدا وأصر على الإنكار وقال بأنه من المستحيل تماما أن يتحقق هذا الأمر البعيد عن إدراك العقل كل البعد. ولكنه تحقق بالضبط كما كنتُ قد قلته من قبل. و لم أكتف بإطلاع ذلك الآري فقط على هذه النبوءة، بل أخبرت بها أناسا آخرين كثيرين أيضا ما زالوا أحياء ولا يسع أحدا منهم إنكارها. ولأن هذه النبوءة تحتوي على قصة طويلة لذا لا أرى تفصيلها ضروريا.

على أية حال، يجب أن يكون معلوما أن الإلهام حقيقة واقعية ويقينية، ونبعُه الطاهر والمقدس هو الإسلام. والله الذي يحب الصادقين منذ الأزل لا يفتح هذا الباب النوراني على غيرهم قط، ولا يرزق نعمته الخاصة للأغيار مطلقا. وأنّى له أن يعطيها؟ هل يمكن لمن يغلق كافة أبواب بيته ويجلس داخله مغمضا عينيه ومغطيا إياهما أن ينال النورَ الذي يناله مَن أبوابُه مفتوحة كلها ولا حجاب على عينيه؟ هل يستوى الأعمى والبصير؟ أو هل للظلام أن يبارز النور؟ وهل للمجذوم الذي أصاب الجذامُ جسدَه كله وتآكلت أعضاؤه كلها وتساقطت

بعد أن تعفّنت أن يساوي في حالته الجسدية فئةً رزقهم الله صحة كاملة وجمالا تاما؟

إنني على استعداد دائم وتام للإثبات لكل طالب صادق أن البركات الروحانية والحقيقية والصادقة التي توجد في أتباع خير الرسل ﷺ لا توجد في فئة أخرى قط. عندما ننظر إلى حالة المسيحيين والآريين والملل الأخرى المظلمةَ والمحجوبةَ ونجد جميع بانديتاهم وزُهادهم ورهباهم وقسسهم ودعاهم محرومين من الأنوار السماوية كليا، وفي ناحية أخرى نجد الأنوار السماوية والبركات الروحانية تجري أنهارا في أمة سيدنا محمد ﷺ، ونشاهد الأنوار الإلهية تنـزل كالمطر؛ أنّى لنا أن ننكر أمرا نشاهده بأم أعيننا، تنطق كل ذرة من كياننا بالشهادات عليه، وتشهد عليه كل قطرة من دمنا شهادة عيان؟ فهل نعدّ الأمر المعلوم مجهولا؟ أو نعدّ أمرا مرئيا ومشهودا غيرَ مرئي وغير مشهود؟

أقول صدقا وحقا ولا يمكن أن أمتنع عن قول الحق بحال من الأحوال: إنه لو لم يأتِ النبي ﷺ، ولو لم ينـزل القرآن الكريم الذي ظل أئمتنا وأكابرنا يشاهدون تأثيراته منذ القِدم ونشاهدها نحن اليوم، لتعذر علينا تماما أن نعرف باليقين من خلال الكتاب المقدس فقط أن موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء السابقين كانوا في الحقيقة من جماعة المقدسين الذين اصطفاهم الله تعالى برسالته بلطفه الخاص. يجب أن نعترف بمنة القرآن الكريم الذي أظهر نوره بنفسه في كل زمان، ثم أظهر علينا صدق الأنبياء السابقين أيضا نتيجة نوره الكامل. وإن هذه المنة ليست علينا فقط، بل أيضا على جميع الأنبياء الذين خلوا قبل القرآن الكريم بدءا من آدم عليه السلام إلى المسيح. وإن كل نبي ممتنّ لهذا النبي العظيم ﷺ الذي أعطاه الله تعالى الكتاب الكامل والمقدس الذي ثبتت حياة الحقائق كلها إلى الأبد ببركة تأثيراته الكاملة، التي بسببها ينفتح باب اليقين بنبوّة هؤلاء الأنبياء، وتُصان نبوءاتهم من الشكوك والشبهات.

وليكن واضحا أن القرآن الكريم قد أُودع للأبد معجزة من نوعين. أولا: إعجاز لغوي، وثانيا: إعجاز تأثيري. وإن هذين الإعجازينِ من البداهة والوضوح بحيث لو لم يكن المرء محجوبا بسبب الإعراض المادي أو المعنوي، لشاهد نور صدقه بأم عينيه على الفور. وفيما يتعلق ببيان الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم فإن هذا الكتاب مليء به كله، وقد ذكرتُ بعض أنواع الإعجاز في الحاشية رقم ١١. أما ما عندنا من إثبات للإعجاز التأثيري للقرآن الكريم فهو أنه لم يمض إلى الآن ولا قرنٌ واحد لم يوصل الله تعالى فيه أناسا أَكْفَاء وطالبي الحق إلى النور الكامل نتيجة اتّباعهم القرآن الكريم اتّباعا كاملا. وما زال بابُ هذا النورِ الواسعُ مفتوحا للطالبين على مصراعيه، ولا نشير هنا إلى قرن من القرون الخالية فقط.

كما يجب أن تُلاحَظ البركات الروحانية في الأتباع الصادقين للدين الحق والكتابِ الإلهي، ويجب أن يكونوا ملهَمين بالأسرار الإلهية الخاصة، كذلك يمكن أن تكون البركات نفسها ملحوظة الآن أيضا في الباحثين. فليرجع من شاء بقدم صدق ولينظر إليها ويُحسن عاقبته. فسينال كل طالبٍ صادق مرامه بإذن الله تعالى، وكل صاحب بصيرة سيرى عظمة هذا الدين. ولكن مَن له أن يبرز أمامنا ويؤكد أن ذلك النور السماوي موجود في أحد من خصومنا أيضا؟ ويثبت أن بركةً روحانية وتأييدا سماويا يحالف منكرَ نبوّة سيدنا محمد ﷺ وأفضليته وكون القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى؟ هل مِن ذي نفس منفوسة على وجه الأرض من أقصاها إلى أقصاها يمكنه أن يبارز أنوار القرآن الكريم الساطعة؟ كلا، لا يوجد ولا شخص واحد قط. بل الذين يُسمون أنفسهم أهل الكتاب، ليس في أيديهم شيء إلا الكلام الفارغ فقط. يقول أتباع موسى عليه السلام إن عصاه التي كانت تتحول إلى ثعبان قد اختفت من الدنيا منذ أن غادرها موسى. والذين يدّعون أنهم أتباع عيسى عليه السلام يقولون بأنه عندما رُفع عيسى إلى السماء رُفعت أيضا معه البركة التي كان يُحيي بها الأموات. والمسيحيون

يقولون أيضا بأن اثني عشر حواريا لعيسى أيضا كانوا يُظهرون بعض البركات الروحانية. وبالإضافة إلى ذلك يقولون أيضا بأن هؤلاء الأئمة الاثني عشر في المسيحية قد ذهبوا بالأنوار السماوية والإلهامات أيضا معهم، وبعدهم قد قُفلت السماء بإحكام؛ فلم تنـــزل على أحد من المسيحيين الحمامة التي نزلت على المسيح بدايةً ثم نزلت على الحواريين متنكّرة في لهيب النار. وكأن حبة الإيمان النورانية -التي كانت الحمامة السماوية تنـــزل في شوق لها- كانت في أيدي هؤلاء فقط، ثم لم يبق في أيدي المسيحيين إلا شَراك كسب الدنيا بدلا من تلك الحبة، فطارت الحمامة إلى السماء بعد أن رأت الشَّراك.

فباختصار، لا يوجد وسيلة للحصول على الأنوار السماوية سوى القرآن الكريم. ولكي يبقى التمييز بين الحق والباطل قائما دائما ولكي لا يتمكن الكذب من مواجهة الصدق في زمن من الأزمان، فقد وهب الله تعالى هاتين المعجزتين للأمة المحمدية، أي إعجاز القرآن البلاغي وإعجازه التأثيري، إلى نهاية الدهر، ولا تزال الأديان الباطلة عاجزة عن مواجهتهما منذ البداية. وإذا كان إعجاز الكلام هو المعجزة الوحيدة للقرآن الكريم دون أن تكون هناك معجزة في تأثيره، فأيّ تقدم كانت ستحرزه الأمة المحمدية المرحومة من حيث علامات الإيمان وأنواره؟ فمجرد الزهد والعفة لا يبلغان مبلغ الإعجاز. ألا يمكن أن يكون أحد من القسس والبانديتات أو من أتباع البرهمو سليم الفطرة ليختار طريق العفة والزهد والأمانة ظاهريا؟ فما دام وجود الزهد الظاهري ممكنا في كل فئة، فأي تميُّز بقي بين المؤمن وغيره من حيث التأثير؟ هذا ولا بد أن يكون هناك تميُّز بين أهل الحق والباطل من هذه الناحية، لأنه إذا بقي المؤمن أيضا محروما من الأنوار السماوية مثل الملحد، فأيّ نور لإيمانه ظهر في الدنيا، وما هو وجه أفضلية الإيمان على الإلحاد؟ وما دام إعجاز تأثير القرآن الكريم باديا -وأنا أتحمل مسؤولية الإقناع بهذا الشأن- فلا حاجة لإطالة الكلام مع وجود هذا الدليل البديهي. ومن شكّ فليختبر، ومن ارتاب فليجرّب.

وليكن واضحا أيضا في هذا المقام أن ما ينــزل على أحد بواسطة الإلهام الإلهي يحمل في طياته للملهَم ولغيره أيضا وجها للإيقان به حتما، أو يُظهر الله ﷻ له آية لليقين به، فيكون العمل به واجبًا. ومن أُكِّد له بصحة الإلهام ثم أعرض عن العمل به، كان مورد غضب الله تعالى، بل هناك خطر شديد لسوء عاقبته. لقد قال الله تعالى لبلعام باعور إلهاما: "لا تدْع عليهم" أي لا تدْع على موسى وجيشه، ولكنه همَّ أن يدعو على جيش موسى خلافا للأمر الإلهي، فكانت النتيجة أن طرده الله من عتبته، وشبّهه بالكلب.

وإنما كان الإلهام الذي تنفيذا له قذفت أم موسى إياه في التابوت وألقتْه في اليمِّ وهو طفل رضيع. كما كان الإلهام نفسه الذي لمشاهدة حقيقته أرسل الله تعالى نبيا من أولي العزم، أي موسى عليه السلام، إلى عبده "الخضر" الذي كان اسمه "بليا بن ملكان". وقال ﷻ عن علمه القطعي واليقيني: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ *(الكهف: ٦٦)*.. فبناء على ذلك العلم القطعي واليقيني قام الخضر أمام موسى بأعمال كانت تبدو خلاف الشريعة في الظاهر. فقد خرق السفينة، وقتل غلاما بريئا، وتحمل عناء عمل غير ضروري دون أجر. والمعلوم أن "الخضر" لم يكن رسولا، وإلا لكان بين ظهرانَيْ أمته وليس في الفلوات أو شواطئ البحار، ولم يذكره الله تعالى أيضا كنبي أو رسول. ولكنه ﷻ عدّ ما كان يُطلَع عليه من أخبارٍ قاطعا ويقينا، لأن العلم في مصطلح القرآن الكريم ما هو قطعي ويقيني. والمعلومُ أنه لو كانت عند الخضر كمٌّ من الظنيات فقط، لما جاز له أن يقوم بالأعمال المنكَرة والمعارضة للشرع صراحةً اعتمادًا على مجرد الظن، بل لكانت من الكبائر باتفاق جميع الأنبياء. ولو كان الأمر كذلك لكان مجيء موسى عليه السلام إليه أيضا أمرا عبثيا بحتا. فما دام ثابتا ومتحققا تماما أن الله تعالى قد أعطى الخضر علما يقينيا من لدنه، فأنّى لأحد أن يعدّ نفسه مسلما ومؤمنا بالقرآن الكريم ثم ينكر وجود أحد من أفراد الأمة المحمدية مثل الخضر في الكمالات الباطنية؟ لا شك أن هذا ممكن،

بل الله الحي القيوم قادر على أن يهب الخواص من الأمة المحمدية المرحومة نعما باطنية أفضل وأعلى منه أيضا. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. ألم يعلّم الله تعالى هذه الأمة دعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ؟ ألم يقل ﷺ نفسُه: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾؟

اعلموا يقينا أن الله الكريم رحيم جدا بهذه الأمة المرحومة وأراد منذ القِدم أن تكون لها أفضلية بديهية على الأمم الأخرى من حيث بركاتها النورانية وأنوارها السماوية لكيلا يقول العدو: ما الفرق بيننا وبينكم؟ ولكيلا يَسَع المعاند -سوّد الله وجهه- القولُ لخبثِ باطنه واعتياده الكذبَ بأن النبي ﷺ سيد الطيبين وآله الأطهار والطيبون وجماعته النورانية لم يُظهروا بركات سماوية. تفكّروا وتدبّروا، هل من الأفضل لكم أن تظلوا محرومين من الأنوار السماوية وتعيشوا على قصص سابقة كما يعيش معاندوكم؟ أو الأفضل ومقام شكر لكم أن يهب الله بعض أفرادٍ منكم ومن قومكم حظا وافرا من أنواره، ويوصل إيمانكم جميعا إلى مرتبة الكمال ويدين معارضيكم ويهينهم؟ انظروا إلى الأمم الأخرى كيف غرقت وأبيدت. لقد كان السبب الوحيد وراء ذلك أن الإنجيل وغيره من الكتب السابقة لم تقدر في حد ذاتها وصفاتها على أن تُظهر معجزة أو تأثيرا روحانيا بسبب فسادها والتحريف فيها، بل كان مدارها على معجزات قديمة على سبيل القصص والحكايات. ولكن كيف كان ممكنا أن يبلغ مبلغ اليقين الكامل -بسماع قصص فقط لا أصل لها- أناسٌ لم يروا بأم أعينهم عصا موسى تتحول إلى ثعبان، ولم يشاهدوا ميتا يقوم من القبر على يد عيسى عليه السلام؟ فاضطر اليهود والنصارى للتوجه إلى الدنيا ولم يعُد عندهم أدنى يقين بعالَم الآخرة، لأنهم لم يروا شيئا بأعينهم ولم يشاهدوا أية بركة.

فباختصار، مَن كان إيمانه مبنيا على القصص والحكايات فقط مثل اليهود والنصارى والهندوس، فليس لإيمانه استقرار، ولسوف يواجه في نهاية المطاف الضلال نفسه الذي وقعت فيه الأمة المسيحية الشقية وغيرها، إذ لم تكن في

أيديها إلا الحكايات القديمة والقصص البالية التي تعود إلى آلاف السنين. فلا يستقر لإيمان مثل هؤلاء القوم قرارٌ، وليس لهم أن يعرفوا أين الآن ذلك الإله الأزلي الذي كان مع أجدادهم؟ أو هل هو موجود أصلا أم لا؟

فيا أيها الإخوة: إن كنتم تريدون الله، وتطلبون اليقين، وإن لم يكن في قلوبكم حب الدنيا؛ فهبُّوا واسجدوا لله شكرا، لأن الله ﷻ لم ينسَكم، ولا يريد أن يضيعكم، لتُعَدّوا عند الله من الشاكرين. لا تنظروا إلى آيات الله باحتقار، لأن ذلك يشكِّل خطرا عليكم. لا تردّوا نِعم الله، لأن ذلك مدعاة لسخطه. لا تعلّقوا قلوبكم بالدنيا، لأن ذلك هو السبب الوحيد وراء كل نخوة وحسد وعُجب وزهو. لا تُعرضوا عن آيات الله، لأن عاقبة ذلك ليست حسنة، وقال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ...﴾ *(الأعراف: ١٧٦)*

"لقد قلت لك حالة قلبي بإيجاز خشية أن تتضايق، وإلا فالحديث طويل".[٧٧]

والآن أنهي هذا الكلام بالدعاء: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَومِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ *(الأعراف: ٩٠)*. منه



[٧٧] *بيت فارسي مترجم، (المترجم)*

الحاشية الثانية على الحاشية رقم ١١:

إن الإلهام الحقيقي والكامل الذي يدحض تماما كل وسوسة من وساوس "برهمو سماج" وغيرهم من أصحاب الأديان الباطلة ويوصل طالب الحق إلى مرتبة اليقين الكامل هو القرآن الكريم دون غيره. ولا يوجد في الدنيا كتاب سواه يستطيع أن يدحض مزاعم جميع الفِرق الباطلة ويوصل الإنسان إلى مرتبة حق اليقين. ولكن من المؤسف حقا أن قلة قليلة فقط من هذه الدنيا العمياء وعديمة الأدب يعدّون الله تعالى مقصودهم الحقيقي ويتنحون عن التعصب الديني والقومي والأطماع الأخرى ويقبلون النور والصدق الذي أودعه الله تعالى القرآن الكريم ولا يوجد في غيره. بل الحق أنه لم يبق في معارضينا مسحة من الحياء -دع عنك قبولهم الحق- فيتوقفوا عن بذاءة اللسان والإساءة بعد مشاهدة عظمة القرآن وحقائقه البديهية وبعد الاطلاع على مثالب دينهم وضلاله، وألا يتحذلقوا صارخين مع أنهم هم اللصوص بأنفسهم. فانظروا مثلا إلى معتقدات المسيحيين الواضح بطلانها؛ إذ اتّخذوا مخلوقا ضعيفا ربًّا للعالمين تعنتا وتجاسرا منهم ودون أدنى مبرر. فما لهؤلاء القوم يُعرضون عن الله تعالى إلى هذا الحد ولا يعيرون له أدنى اهتمام ولا يخافون يوم الحساب أدنى خوف، وهم نائمون؛ إذ أعيا إيقاظُهم مئات العلماء والفضلاء ولكنهم لا يكادون يستفيقون. وبسبب عكوفهم الدائم على الدنيا ونتيجة الإهمال المذكور يتورطون في فكرةٍ باطلة بأن تعليم الإنجيل أكمل وأفضل من تعليم القرآن الكريم. ففي المدة الأخيرة أثار أحد القساوسة سؤالا في جريدة "نور أفشان" العدد ١٨٨٢/٣/٣م وقال: ما الذي لا يوجد في الكتاب المقدس عن الحياة الأبدية وجاء به القرآن أو صاحب القرآن؟ وفي أيّة أمور وتعاليم يفوق القرآنُ الإنجيلَ حتى يثبت أنه كانت هناك حاجة لنـــزول القرآن بعد الإنجيل؟ كذلك

أُصدرت مجلة عربية بعنوان "رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي" بُغية جعل تعليم الإنجيل الناقصِ المحرّف جديرا بالمدح في أعين البسطاء ولتوجيه التهم الباطلة إلى تعليم القرآن الكريم. ولكن المسيحيين القليلي الفهم لا يدرون أن مدح كتابٍ والاستمرار في ذمّ كتابٍ آخر بدون دليل لا يجعل الأول محمودا ولا الثاني مذموما. من ذا الذي لا يعرف التفوّه بالهراء، ولكني قد أثبت بمئات الأدلة في هذا الكتاب نفسه أن تعليم الإنجيل محروم من الصدق وأن تعليم القرآن الكريم مجمع الأنوار، ولم أعلن على ذلك بجائزة عشرة آلاف روبية فحسب، بل يشهد ربنا الذي يعلم ما في الصدور جيدا بأنه لو استطاع أحد أن يشير إلى عيب أو نقيصة في تعليم القرآن الكريم حتى بقدر جزء من الألف من الذرة، أو استطاع أن يثبت مقابل ذلك ميزة في كتابه بمثقال ذرة تخالف تعليم القرآن أو تكون أفضل منها، لكنتُ جاهزا لتحمل عقوبة الموت أيضا. والآن، انظروا أيها المنصفون وتأملوا بقلوب نـــزيهة؛ ما هذه الأمانة التي يتحلّى بها معاندونا، وأي نوع من خشية الله تعالى هذه إذ لا يتورعون عن الهذيان والهراء مع عدم تمكّنهم من الجواب!

"تعالوا إلينا أيها المسيحيون لتروا نور الحق ولتجدوا صراط الحق.

وأرونا في الإنجيل شيئا من الميزات التي توجد في القرآن الكريم.

فاذكرو الخالق فوقكم ولا تُضلوا الخلقَ عبثا.

حتّامَ تحبون الكذب، فاصدُقوا القول حينا من الأحيان.

شيئا من تقوى الله أيها الناس، وشيئا من الحياء لله!

أيها الأحبة إن عيش الدنيا ليس بدائم، وليس لهذا العالم بقاء.

إنها ليست مقام البقاء أيها الأحبة، إذ لم يخلد فيها أحد أيها الأعزة.

لماذا تعلّقون قلوبكم بهذه الخربة؟ ولماذا تلقون قلوبكم إلى التهلكة بأيديكم؟

لماذا لا تهتمون بدين الحق، إن قلبي يحترق كمدا على ذلك.

لماذا لا ترون طريق الصواب؟ ما هذا الحجاب الغليظ الذي وقع على قلوبكم؟

لماذا هذه الضغينة والاستكبار؟ لماذا غاب اللهُ عن ذاكرتكم نهائيا.

لقد نسيتم الحق، واأسفاه، وتحجّرت قلوبكم، واأسفاه.

اسمعوا أيها الأعزة، لا يصل الإنسان إلى الله دون القرآن الكريم.

ولا ينظر ذلك الحبيبُ قط إلى غيرِ المطَّلعين على هذا النور.

إن في القرآن تأثيرا غريبا، إذ يجعل المرء عاشقا لذلك الحبيب.

إنه يخبر بخبر صادق عن ذاك الذي اسمه القادر الأكبر.

إنه يجذب المرء إلى زقاق الحبيب ثم يريه آيات عجيبة.

ويملأ القلب نورا في كل حين وآن، ويطِّهر الصدر جيدا.

أنّى لي أن أبين ميزاته، فإنه يهب الإنسان القدرة على معرفة حبيبه.

إنه يتلألأ كنيّر أكبر، فكيف يمكن إنكاره.

قد هدانا إلى الحبيب، وقد وجدنا الحبيب بعد أن وجدناه.

إن هذا الكلام بحر الحكمة كله، ويسقي جام عشق الحق.

كلما خطرت بالبال ذكراه، أنْسَت الخلقَ كلَه.

إنه يثبّت في القلب حب الله تعالى وصفاته، ويزيل غير الله من القلب.

إنه هو الدواء الوحيد للمتألمين، وهو الوحيد الذي جاء من الله لِيُري وجه الله تعالى.

لقد توصّلنا إلى أنه هو شمس الهداية، ووجدنا أنه هو الحبيب الوحيد.

ما يقوله منكروه إنما هو هراء فقط.

لو كانت لديهم حجة فليبارزوني وليقولوا ذلك أمامي.

وسمعوا مني حال ذلك الحبيب، وسمعوا عن صورته وجماله.

إذا كانت عيونهم قد فُقئت فالآذان موجودة، فليسمعوا وليختبروا على الأقل".[٧٨]

ما دام صاحب المقال في جريدة "نور أفشان" قد خاطبني أيضا بالإضافة إلى بعض الناس الآخرين، لذا أرى من الحكمة بناء على السبب المذكور آنفا أن أرد عليه هنا أيضا بإيجاز، مع أنني استأصلت جميع الوساوس من هذا القبيل في محلها في هذا الكتاب، فأقول:

ليكن معلوما أن عدّ تعليم الإنجيل كاملا دليلٌ على نقص العقل وقلة الفهم تماما. ما عدَّ المسيح عليه السلام نفسُه الإنجيلَ مبرَّأ من النقصان كما قال نفسه: "إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ. ".(يُوحَنَّا ١٦: ١٢-١٣-١٤) قولوا الآن، أهذا هو الإنجيل الذي ترونه حاويا الحقائق الدينية كلها ولا ضرورة للقرآن الكريم في حال وجوده؟

أيها السادة، ما دمتم غير مخوَّلين أصلا لتعدّوا الإنجيل كاملا وجامعا للحقائق كلها بحسب وصية المسيح عليه السلام، فعجيبٌ إيمانكم إذ تسيرون على عكس أستاذكم ورسولكم، وتعُدُّون الكتابَ الذي عدّه المسيح عليه السلام ناقصًا كاملا!! أأنتم أكثر فهمًا من المسيح عليه السلام أم لا تعتدّون بكلامه؟ وإذا قلتم: مع إن الإنجيل كان ناقصا في زمن المسيح ولكن المسيح قال على سبيل النبوءة بأن الأمور التي لم أقلها سيقولها المعزّي في المستقبل، قلتُ: حسنا، إذا كان ذلك المعزّي الذي بشّر المسيحُ عليه السلام بمجيئه في الإنجيل وورد عنه أنه سيبلِّغ الحقائق الدينية مرتبة الكمال وسيبين أخبار المستقبل، أيْ أخبار القيامة، بتفصيل أكثر من الإنجيل، هو شخص آخر غير سيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم -الذي نزل عليه القرآن الكريم الذي يدّعي أنه أكمل من كافة الكتب السابقة ويُثبت ذلك أيضا- وقد ظهر بعد المسيح عليه السلام وأكمل الحقائق الدينية وجاء بأخبار المستقبل

[٧٨] *قصيدة أردية مترجمة. (المترجم)*

أكثر من المسيح؛ فعليكم أن تخبرونا باسمه، وقدِّموا أيضا كتابا اقتناه المسيحيون من الله تعالى بعد المسيح وقدم حقائق خاصة به لم تكن موجودة فيما قاله المسيح ، وبيّن أيضا الأحوال الأخيرة وأخبار المستقبل التي عجز المسيح عن بيانها حتى نقارن ذلك الكتاب بالقرآن الكريم. ولكن لا يليق بكم أن تعدّوا أنفسكم أتباع المسيح ثم تعُدُّوا كاملا ما عدّه المسيح ناقصا قبلكم بـــ ١٨٨٢ عاما. وإن كنتم لا تؤمنون بقول المسيح وتريدون من تلقاء أنفسكم مقارنة الإنجيل بالقرآن الكريم فأهلا بكم، أخرِجوا لنا من الإنجيل كمالات أَثْبَتُّها للقرآن الكريم في كتابي هذا لكي يعرف المنصفون بأنفسهم مَن يضمن معرفة الله: القرآنُ الكريم أم الإنجيلُ. وما دمتُ قد ألحقتُ بكتابي جائزة عشرة آلاف روبية أيضا لتوضيح الفرق بين القرآن والإنجيل من هذا المنطلق، فلن يصدّق كلامكم في قرارة قلبه مسيحي عاقل -وإن أقرّه بلسانه- ما لم تُثبتوا فضائل إنجيلكم كالصادقين كما أثبتناها في كتابنا.

اعلموا يقينا أنه ليس بوسع الإنجيل أو التوراة أن يبارزا كمالات القرآن الكريم. فلكم أن تقارنوهما مع القرآن الكريم في أمرين اثنين فقط -دع عنك أمورا أخرى- بينتُهما من قبل في هذا الكتاب كفضائل للقرآن. أولهما كما كتبته في المتن أن القرآن الكريم جامعٌ للحقائق الإلهية كلها، ولا يسع أحدا من الباحثين المحققين أن يأتي بدقيقةٍ إلهية لا توجد في القرآن الكريم. فإذا كان إنجيلكم أيضا ذا شأنٍ يُذكر، فمن واجبكم أن تدحضوا من حيث العقل أدلة الخصوم ومعتقداتهم -مثل شبهات "البرهمو سماج" أو"الآريا سماج" أو الملاحدة- بواسطة إنجيلكم، وتردُّوا بالبيان العقلي من إنجيلكم ما نشروه من أفكارهم في البلاد. ثم قارِنوا الإنجيل بالقرآن الكريم وانظروا واسألوا حَكَما: هل الإنجيل يضمن اقتناع المحقق أم القرآن الكريم؟ والأمر الثاني ما كتبته في الحاشية رقم ١ على الحاشية هو أن القرآن يوثق رباط الباحث الصادق وثاقا باطنيا مع المطلوب الحقيقي *(الله)* ثم يتشرف الباحث بقرب الله تعالى ويتلقى منه الإلهام الذي

تتوجه فيه ألطاف الله إليه فيُعدّ من المقبولين. ويتحقق صدق هذا الإلهام بتحقق النبوءات التي يشملها. والحق أن هذا الوثاق المذكور آنفا هو حقيقة الحياة الأبدية، لأن الوثاق مع الحيّ مدعاة للحياة. والكتاب الذي تتبين باتباعه علامات ذلك الوثاق يكون صدقه ظاهرا بل أظهر من الشمس، لأنه لم يكتفِ بالكلام فقط بل يوصل إلى المرام.

الآن نسأل المسيحيين: إذا كان تعليمكم الإنجيلي صحيحا وصادقا ومن الله تعالى، فعليكم أن تُثبتوا تأثير الإنجيل الروحاني على غرار تأثيرات القرآن الكريم الروحانية التي أثبتناها، وأْتُوا أيضا بنظير ما أظهره الله تعالى ولا يزال يُظهر على المسلمين من الأمور الغيبية والبركات السماوية، ببركة اتباعهم للقرآن الكريم وببركة طاعة سيدنا محمد المصطفى أفضل الرسل وخاتَمهم ﷺ ليسودّ وجه كل كاذب، *كما يقول المثل الفارسي*.

واعلموا يقينا أنكم لا تستطيعون المبارزة في أيّ من الأمرين المذكورين. إن الإنجيل لم يعد صحيحا -اتْرك كمالَ تعليمه جانبا- إذ قد عدّ ابن مريم ابنَ الله في تعليمه الأول، وأرى نموذج "أوّلُ الدَّنِّ دُرْدِيّ". أما تعليم التوراة فهو الآخر صار ألين من الشمع لكونه محرَّفا وناقصا إذ صاغه النصارى واليهودُ كما راق لهم. لو وردت في التوراة التفاصيلُ عن الإلهيات وعالم المعاد كما في القرآن الكريم لما نشبت بين اليهود والنصارى خصومات إلى هذا الحد. الحق أن مضمون التوحيد الذي تشمله آية واحدة من سورة الإخلاص لا يوجد في التوراة بل في الكتاب المقدس كله، وإذا كان موجودا فليُخرجه لنا أحد المسيحيين. فما دام لا يوجد في التوراة بل في الكتاب المقدس كله ذكر توحيد الله تعالى بالصحة والصفاء والكمال، فلهذا السبب وقع الفساد في التوراة والإنجيل ولم يُفهَم شيء منهما بالقطع واليقين، واندلعت بين اليهود والنصارى أصناف النـــزاعات حتى في الأصول، ففهِم اليهود من التوراة شيئا وفهِم النصارى منها نفسها شيئا آخر تماما؛ فأيّ طالب حق لا تُدرك روحُه أنه كان

من مقتضى رحمة الله العامة دون أدنى شك أن يحكم بنفسه في النـــزاعات الدائرة بين هذه الفئات الضالة وينبِّه المخطئين إلى خطئهم.

فليكن معلوما أن حاجة نزول القرآن الكريم كانت تنحصر في أن يرفع الخلافات ويُظهر للعيان الحقائق التي حان وقت إظهارها نتيجة انتشار الأفكار الفاسدة وأن يبلِّغ علم الدين مرتبة الكمال. فنـــزل هذا الكلام المقدس وأكملَ تلك المراتب كلها وعدّل المفاسد كلها وأوصل التعليم إلى كماله الحقيقي. فلم يأمر باقتلاع السن بالسن في كل حال، ولم يأمر بترك المجرم والعفو عنه دائما، بل أكّد على كسب الحسنة الحقيقية، سواء أكانت في لباس القسوة أحيانا أو حُلّة اللطف واللين أحيانا أخرى، أو بصورة الانتقام أو العفو.

"لقد انبلج الصبح المنير بنور القرآن المقدس، وهبّ نسيم الصبا على أَنْوارِ القلب.

لا يوجد مثل هذا الضياء واللمعان في شمس الضحى، ولم يلاحظ أحدٌ هذا الجذب والجمال في القمر.

بقي يوسف محبوسا في قعر البئر، أما يوسف هذا فقد انتشل منها الكثيرين.

فقد جاء بإشراقته بمعاني مئات الدقائق، وقد تقوَّس الهلال أيضا تعظيما له.

ما أعظم حقيقة علومه، فإنها كمثل عسل يقطر من وحي الحق.

حين طلعت في الدنيا شمس الصدق هذه، انزوى البوم، عابدُ الليل، في عشه.

ما نال أحد اليقين قط في الدنيا إلا مَن أحبه حبا جـــمًّا.

من حظي بعلومه صار كنـــز المعارف، ومن لم ير ذلك العالَـــم فهو يجهل العالم كله.

لقد نزل غيث فضل الله الرحمن بمجيئه، وشقيٌّ من تركه وتوجّه إلى جانب آخر.

إن الرغبة في السيئة عِرق من الشيطان، ولا أعدُّ إنسانا إلا من نجا من كل أنواع الشر.

يا منجم الحب أُدرِك جيدا من أين أنتَ، إنك نور من الله الذي خلق الخلق كله.

لم يعد أحد موضع رغبتي، فأنت الوحيد حبيبي؛ لأن نورك وصلَنا من ذلك المغيث"[٧٩]

قصيدة أخرى

"إن نور القرآن أجلى من الأنوار كلها، سبحان الذي تدفّق منه نهر هذه الأنوار.

كادت غرسة توحيد الحق تذبل، فتدفقت من الغيب فجأة هذه العين الأكثر صفاء.

يا إلهي إن فرقانك عالَــم كامل، فقد وجدنا فيه كلَّ ما كان ضروريا.

لقد تحرّينا العالَــم كله وبحثنا في كل مكان، و لم نجد إلا هذه الزجاجة مليئةً بخمر العرفان.

بماذا يمكن تشبيه هذا النور في العالم؟ فهو عديم النظير في كل صفة وكل ميزة.

لقد ظننّا من قبل أن القرآن الكريم هو بمنــزلة عصا موسى، ولكن عندما تأملنا أكثر وجدنا كل لفظ منه بمنــزلة المسيح.

إنه لخطأ هؤلاء العميان بأنفسهم، وإلا فهذا النور يماثل مئة نيّر وضّاء في اللمعان والضياء.

ما حقيقة الحياة في الدنيا لهؤلاء الناس الذين ظلّ قلبهم أعمى مع وجود هذا النور.

والذين كل كلمة من كلامهم مجموعة كذب، يحترقون قبل أن يُحرقوا"[٨٠]

---

[٧٩] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

[٨٠] *قصيدة أردية مترجمة. (المترجم)*

وهناك متكلم مسيحي (أي مراسل جريدة "نور أفشان" المذكور من قبل) قال تحت السؤال نفسه متنكِّرا بعباءة أخرى: إن المتكلم مستغرق حاليا في أمور دنيوية، وإلا لأثبت من أين جُمع القرآن.

ويل لك، يا مسكين! لقد حذوت في ذلك حذو اليهود. فقد تبنَّيْت عن القرآن الكريم الفكرةَ نفسها التي يتمسك بها اليهود عن الإنجيل منذ أمد بعيد. لعلك لم تكذب في عمرك مثل هذه الكذبة الكبيرة التي افتريتها الآن لإرضاء النصارى. على أية حال، إن قولك هذا يماثل قول اليهود الذين لا يزالون يصرون كلُّهم على أن المسيح عليه السلام قد دوّن الإنجيل بسرقةٍ من كتب أنبيائهم المقدسة. بل يفتح علماؤهم وأحبارهم الكتب ويقولون مشيرين إلى أماكن معينة فيها بأن تلك الفقرات قد سُرقت من هناك. كذلك يصرخ الباندِيت "ديانند" أيضا ويقول بأن التوراة قد دوِّنت بالقص واللصق من كتبنا. وما زال التقليد "هَوَنْ" *(القرابين المحرقة)* مذكورا فيها مثل الفيدا. وإضافة إلى ذلك أنت أيضا تقرُّ بنفسك أن هناك تشابها كبيرا بين أصول الهندوس وتعليم الإنجيل. فبإقرارك هذا تصدق ادّعاء الهندوس بلسانك. ولكن لا يمكن أن توجَّه هذه التهم إلى القرآن الكريم قط، أو تنجح في هذا الأمر خطة عدوٍّ. لقد أسأت التصرف إذ سعيت للبصاق على الشمس، فاعلم أنه سيعود إليك ويسقط على وجهك. فيا أيها المتكلم، لعلك تهدف من تباهيك الفارغ إرضاء بعض المسيحيين السذج، وإلا فكل فطين منهم سيضحك على كلامك هذا الذي لا أصل له، لأنك ما دمت تعلم جيدا من أين جُمع القرآن الكريم، ومن أية كتب اليهود والنصارى والمجوس سُرقت حقائقه ودقائقه، فلماذا تتردد إذن في القيام بما من شأنه أن يعيد للمسيحيين شرفهم ويزيل عنهم -نتيجة مساعيك- وصمة عجزهم القديمة وبأنهم لا يطيقون جوابا؟ كذلك لماذا ترفض كسب عشرة آلاف روبية؟ فإذا كنت تملك كفاءة لم يملكها المسيح أيضا فإلى أي يوم تدَّخر هذه الميزة؟ وما دمت ذكيا وبارعا فتستطيع أن تبارز القرآن الكريم بل تستطيع

أن تخبر عن مصدره أيضا فمن السهل جدا عليك أن تأخذ كل المبلغ المذكور في الإعلان بمواجهتك جميع الحقائق والدقائق والبراهين والبركات القرآنية المذكورة في كتابي "البراهين الأحمدية" للغرض نفسه. وخاصة حين يتبين من كلامك أنك تواجه مشاكل مالية وبحاجة ماسة إلى النقود، فأية خطة يمكن أن تكون أفضل، والحالة هذه، لكسب الدنيا من أن تقوم بهذه المهمة تاركا جميع المهام الأخرى وتقارن علوم القرآن الإلهية ودقائقه العقلية وتأثيراته الباطنية بكتابك وتقبض مبلغ الجائزة كله؟ وإضافة إلى ذلك فإن هذا الأمر سوف يؤدي إلى ذيوع صيتك على نطاق واسع. والميدان الذي عجز المسيح عن فتحه ورحل من هذه الدنيا معترفا بنقص تعليمه سوف يُفتح على يدك. وفي هذه الحالة سوف تُعدُّ أفضل من المسيح أيضا في نظر المسيحيين لأن الكتاب الذي ظل يعُدُّه ناقصا مدة العمر سوف تُثبتُ أنت كماله. لماذا تدَع هذا المبلغ الكبير يفلت من يدك بغير وجه حق مع كونك معدما ماديًّا. وإذا تعذّر عليك إنجاز هذه المهمة وحدك فلك أن تستعين ببعض القسس الآخرين أو عشرة أو عشرين منهم الذين يهيمون في الأسواق والقرى عبثا، ثم حاربِ اللهَ إن استطعتَ. وإلا فإن الذين سيقرأون إعلاني الرجولي ثم يسمعون كلامكم المخنّث ستنكشف لهم حقيقة أمانة المسيحيين وتقواهم.

وهناك مسيحي آخر طرح سؤالا في جريدة "نور أفشان" العدد ٢٥-٥-١٨٨٢م: ما هي الشروط والعلامات التي يمكن بها التمييز بين المنجّي الصادق والكاذب؟ فجوابه أن المنجّي الصادق من الله تعالى؛ هو الذي ينال المرء النجاة الحقيقية نتيجة اتباعه الصادق له. بمعنى أنه مَن أودع الله كلامه بركة حتى ينجو متَّبعه الكامل من ظلمات النفس والأدناس البشرية، وتتولد فيه أنوار يتحتّم نشوؤها في القلوب الطاهرة. غير أنه إذا كان المتّبع مقصّرا في الاتباع فلن تزول ظلمات نفسه ولن تظهر الأنوار الباطنية، ولكن لا خطأ في ذلك للنبي المتبوع، بل الحق أن مدعي الاتباع مصاب بآفة الإعراض الظاهري أو المعنوي، ومحروم

ومحجوب بسبب إعراضه هذا. هذه هي العلامة الحقيقية التي بسببها لا يبقى الإنسان محتاجا للقصص والحكايات السابقة، بل يعرف الهادي الصادق والـمُفيض الحقيقي بنفسه بكونه طالب حقٍ. ولا يكتفي فقط بمشاهدة هذا التقدس والنور الذي ظُنّ وجوده في الشخص الكامل والـمُفيض الحقيقي بأم عينيه بل يتذوق طعمهما أيضا بحسب كفاءته. ولا يعدّ النجاة أمرا خياليا يتحقق يوم القيامة فقط، بل يجد حقيقة النجاة في هذا العالم، بعد أن يستنير بالأنوار السماوية وينجو من عذاب الجهل والظلمة والشك والشبهات وأهواء النفس. فلما تقرّر أن هذه هي علامة المنجِّي الحقيقي والمطلب الأعظم لطالب الحق والهدفُ الحقيقي لحياته وتمسُّكِه بالدين فيجب أن يكون معلوما أن هذه العلامة لا توجد إلا في سيدنا محمد المصطفى ﷺ. ولا يُنال النورُ الباطني والحب الإلهي إلا باتّباعه الذي يقتصر على اتباع القرآن الكريم. والقرآن الكريم الذي عليه مدارُ اتباعِ النبي ﷺ كتابٌ تظهر أمارات النجاة في هذا العالم نتيجة اتباعه، لأنه هو الكتاب الوحيد الذي يوصل النفوس الناقصة إلى مرتبة الكمال من كِلا الوجهين: الظاهري والباطني، ويخلِّص من الشكوك والشبهات.

المراد من الوجه الظاهري هو أن بيانه جامع للدقائق والحقائق، إذ يوجد فيه ردٌّ معقول على كل ما في الدنيا من شبهات تحول دون الوصول إلى الله تعالى التي تسببت في انتشار مئات الفِرق الكاذبة وترسُّخ مئات أنواع الأفكار الباطلة في قلوب الضالين. ويلمع فيه كالشمس الساطعة نور التعليم الحق والكامل الضروري لإزالة الظلمة في العصر الراهن. وقد ذُكر فيه علاج ناجع لكافة أمراض النفس، ويزخر ببيان كافة المعارف الحقة، ولم تبقَ خارجه أيةُ دقيقة من دقائق العلم الإلهي لتظهر مستقبلا.

والمراد من الوجه الباطني هو أن اتباعه الكامل يطهِّر القلب تماما، فيتطهّر الإنسان من الشوائب الباطنية تماما ويتصل بالله تعالى وتشرع أنوار القبول بالنـزول عليه وتحيط به الألطاف الإلهية لدرجة أنه حينما يدعو الله الكريم عند

المصائب يجيبه ﷻ بكمال الرحمة والعطوفة. ويحدث في كثير من الأحيان أنه حين يسأل الله ألف مرة عندما تحل به المصائب وتغزوه الأحزان، يجد الجواب أيضًا من ربه الكريم ألف مرة بكلام فصيح وحلوٍ ومبارك مليء بالحب، وينـــزل عليه الإلهام الإلهي كالمطر، فيجد قلبه مليئا بحب الله تعالى كما تُملأ بعطرٍ لطيفٍ زجاجةٌ شديدة النقاء. وتوهَب له لذة طيبة من الأُنس والشوق تقطع علاقات قوية للنفس الأمارة وتُخرج المرء من هذا الجو الدخاني وتهبه في كل آن حياةً جديدة بواسطة نسيم عليل من حبيبه الحقيقي. فيرى بأم عينه قبل وفاته ألطاف ربه التي يأمل الآخرون مشاهدتها بعد مماتهم. وكل هذه النِعم لا تتوقف على مجاهداتٍ أو مشقةٍ رهبانية، بل تُعطَى بمجرد الاتّباع الكامل للقرآن الكريم، وكل طالبٍ صادق يستطيع نوالها، غير أن نيلها مشروط بالحب الكامل لخاتَم الرسل وفخرهم ﷺ. وينال المرء بعد نيل حب نبي الله نصيبَه من هذه الأنوار -بقدر كفاءته- التي أُعطيها نبي الله على أكمل وجه.

فما من سبيل أفضل لطالب حقٍ من أن يعتنق هذا الدين الجليل بواسطة أحد من أهل البصيرة والمعرفة، ويختار لنفسه اتّباع كلام الله وحب النبي ﷺ ليرى بأم عينه صدق كلامنا هذا. أما إذا توجّه إليّ بصدق الطوية للحصول على هذا المرام، فأقول متوكلا على الله بفضله ورحمته بأني جاهز لأرشده إلى طريق الاتّباع، ولكن ذلك مشروط بفضل الله تعالى وكفاءة السائل الشخصية.

ليكن معلوما أن مَثل النجاة الحقيقة كمثل الصحة التامة. فكما أن المراد من الصحة الكاملة هو أن تكون كافة علامات الصحة بادية دون الإصابة بشيء من أعراض تتنافى مع مقتضى الصحة، كذلك النجاة الحقيقية هي تلك التي توجد فيها علاماتها، لأن الشيء الذي يكون وجوده متحققا على وجه الحقيقة، لا بد أن تكون علاماته وآثاره ملحوظة، ولا يتحقق وجوده دون وجود تلك العلامات والآثار. وقد قلت مرارا إن من العلامات الخاصة لتحقق النجاة أن يصل انقطاع المرء إلى الله تعالى ويغلب عليه حبُه الكامل لدرجة تتحقق هذه

الأمور في أناس أكْفاء آخرين أيضا نتيجة صحبتهم له وتركيزه ودعائه. وأن يكون ذلك الشخص منوَّر الباطن من حيث حالته الذاتية لدرجة كون بركاته بديهية الظهور في نظر طالب الحق، وأن توجد فيه كافة صفات الله تعالى التشبيهية ويحظى بمخاطباته كما هو حال المقرّبين.

لا ينخدعنّ هنا أحد بتكهّنات المنجِّمين وضاربي الرمل وغيرهم الذين يزعمون معرفة الغيب، وليتذكر جيدا أنه لا علاقة لهؤلاء الناس مع أنوار أهل الله وبركاتهم مطلقا. لقد قلتُ من قبل أيضا إن الأنباء الدالة على قدرة الله ﷻ ومواعيده الكريمة التي هي الحق المحض وتحتوي على بشارات الفتح والنصرة وتزخر بأخبار الازدهار والمكرمة، لا علاقة لها مع الحواس الإنسانية. ولقد وهب اللهُ ﷻ أهلَ الله فطرةً فيعمل نظرُهم وصحبتهم وتركيزهم ودعاؤهم عمل البَلْسم بشرط أن تكون لدى المستفِيض كفاءة مطلوبة. وإن هؤلاء الناس لا يُعرفون بنبوءاتهم فقط وإنما يُعرفون بكنوز معرفتهم، وتوكّلهم الخارق للعادة، وحبهم الكامل وانقطاعهم التام، وصدقهم وثباتهم، وأُنسهم بالله تعالى، وشوقهم وحبهم، وغلبة خشوعهم وخضوعهم، وتزكية نفوسهم، وتركهم حبّ الدنيا، وببركاتهم الكثيرة التي تنـــزل مثل الغيث، وبكونهم مؤيَّدين من الله ﷻ، واستقامتهم الخارقة، ووفائهم البالغ درجة قصوى، وبتقواهم وطهارتهم عديمة النظير وعزمهم العظيم وانشراح صدرهم. وأما النبوءات فلا تدل على منصبهم الحقيقي، بل إن الهدف من ورائها هو بيان البركات الموشكة على النـــــزول قبل نـــزولها عليهم ومن معهم لتهب اليقين بوجود الله ﷻ، ولكي تقدّم حجة قطعية ويقينية على صحة المخاطبات والمكالمات -التي يتلقونها من الله- بأنها من الله تعالى في الحقيقة. وقد جرت سنة الله بحسب قدرته وحكمته القديمة عن الذين يُعطَون كل هذه البركات بكثرة بأنهم يعتنقون معتقدات صادقة مقدسة ويتمسكون بدين صادق، وهم على اتصال بالغِ الغايةَ مع الله تعالى، ومنقطعون تماما عن الدنيا وما فيها. وإن مَثلهم كمثل كبريت أحمر، وإن

الأنوار الربانية والدين الحق يلازم طبيعتهم. وإن مقارنة ذاهم -ذات الصفات السامية وجامعة البركات- مع المنجمين وضاربي الرمل غباوة كبيرة وشقاوة عظيمة، إذ ليست لهم أدنى نسبة بأَكَلَة جيفة الدنيا الأذلاء المهانين، بل إنهم أنوار سماوية مثل الشمس والقمر. وقد خلقهم قانون الحكمة الإلهية القديمُ ليأتوا إلى الدنيا وينوِّروها.

ويجب الانتباه جيدا إلى أنه كما خلق الله تعالى بعض الأدوية للأمراض الجسدية، وخلق في الدنيا أشياء مفيدة؛ كالترياق وغيره لأنواع الآلام والأسقام، وأودع تلك الأدوية منذ الأزل خاصية أنه إذا استخدمها مريض مراعيا الحمية وغيرها من الشروط الضرورية، فقد جرت سنة ذلك الحكيم القدير أن يرزقه نصيبا من الصحة بحسب حالته وبقدر قابليته للشفاء أو يشفيه شفاء كاملا، إلا أن يكون مرضه قد تجاوز درجة الشفاء. كذلك قد أودع ﷻ النفوس الطيِّبة لهؤلاء المقربين منذ الأزل ميزة أن دعاءهم وتركيزهم وصحبتهم وعزيمتهم دواء للأمراض الروحانية -بشرط قابلية المريض- وتنال نفوسهم من الله تعالى فيوضا من عدة أنواع بواسطة المكالمات والمخاطبات والمكاشفات، ثم تُري تلك الفيوض كلها تأثيرات عظيمة لهداية خلق الله.

وباختصار، إن وجود أهل الله يكون رحمة لخلق الله. وكما جرت سنّة الله في هذه الدنيا أن الذي يشرب الماء يتخلص من ألم الظمأ، والذي يأكل الطعام ينجو من معاناة المخمصة، كذلك جرت عادته ﷻ أنه جعل الأنبياء وتابعيهم الكاملين وسيلة لإزالة الأسقام الروحانية. فبصحبتهم تطمئن القلوب وتضمحلّ شوائب البشرية رويدا رويدا، وتزول الظلمات النفسانية، ويتدفق حماس حب الله تعالى، وتتجلى البركات السماوية، ولا تتسنى هذه الأمور بدونهم قط. فهذه الأمور هي العلامات الخاصة لمعرفتهم، **فتدبر ولا تغفل**.



الحاشية الثالثة على الحاشية رقم ١١:

على المسيحيين أيضا أن يتأملوا جيدا وبتركيز شديد ما هي العلامات التي يجب وجودها في كلام الله الكامل الذي لا مثيل له ولا نظير، لأن إنجيلهم محروم تماما من تلك العلامات لكونه محرَّفا ومبدَّلا، بل إنه ليس محظوظا باحتوائه على المناهج وكذلك الحقائق البسيطة التي يجب وجودها في كلام منصف ومتكلم فطين.. دع عنك الآيات الإلهية. لقد خلط عَبَدة المخلوق الأشقياء كلام الله وهديه ونوره بأفكارهم المظلمة بحيث صار ذلك الكتاب وسيلة قوية للإضلال بدلا من الهداية. مَن الذي أَبعَد عالَـــمًا عن التوحيد؟ إنه الإنجيل المزيَّف نفسه. ومَن الذي أهلك عالَما؟ إنها تلك التأليفات الأربعة التي حادت كلماتها إلى معتقدات مالت إليها النفس الأمارة لعبدة المخلوق عند التراجم، لأن كلمات الإنسان تتبع دائما أفكاره.

فباختصار، إن الإنجيل صار الآن شيئا مختلفا تماما بسبب التحريف الذي تطرق إليه بين حين وآخر لدرجة أن الإله -بحسب تعليمه- لم يعد الإله الحقيقي الذي كان منـــزَّهًا دائما من الحدوث والتولد والتجسد والموت. بل إن إله المسيحيين صار إلها جديدا تماما بحسب تعليم الإنجيل الحالي، أو هو ذلك الإله الذي أصابته لسوء الحظ مصائب شتى؛ فكانت حالته الأخيرة مختلفة تماما عن حالته الأولى؛ أي حالة أزليته وقِدمه، وتلاشت قيوميته تماما في نهاية المطاف بعد أن كان قيوما وغير متبدِّل منذ الأزل. وإضافة إلى ذلك يعترف الباحثون المسيحيون أنفسهم أن جميع الأناجيل لم تُكتب نتيجة الإلهام، بل سجّل "متّى" وغيره أشياء كثيرة مما ورد فيه بعد أن سمعوها من الناس. أما لوقا فيقرّ بنفسه في

إنجيله أنه ألّفه بعدما استفسر عن الأمور من الذين رأوا المسيح ؛ ففي هذا البيان يقرّ لوقا بأن إنجيله ليس موحى به، وإلا لم تكن به حاجة للاستفسار من الناس بعد الإلهام. كذلك لا يثبت أن "مرقس" من تلاميذ المسيح ، فكيف صار رسولا؟ على أية حال، فإن الأناجيل الأربعة ليست صحيحة وليست موحى بها بحسب بياناتها. لذا فقد تطرّقت الأخطاء الكثيرة إلى الأحداث المذكورة فيها وورد فيها ما يخالف الحقائق تماما. إذن، إن الباحثين المسيحيين المتمكنين متفقون على أن الإنجيل ليس كلام الله الخالص، بل بعضه من الله وبعضه من الإنسان. غير أن بعض المسيحيين غير الملمين يدّعون أحيانا -بسبب بساطتهم المفرطة- أنه لا مثيل للإنجيل ولا نظير من حيث تعليمه، وأن الإنسان لا يقدر على الإتيان بنظيره، فثبت عندهم من ذلك أن تعاليمه هي كلام الله. ويقولون إن تعليم الإنجيل عديم النظير لأنه قد ورد فيه تأكيد شديد على العفو والصفح والبرّ والإحسان، وقد مُنع فيه من مواجهة كل شر، بل ورد الأمر فيه بمقابلة السيئة بالحسنة، وأُمر بإدارة الخد الآخر بعد تلقّي اللطمة على الخد الأول، فثبت بهذا الدليل أنه لا مثيل له ولا نظير وأنه يفوق قوة البشر. لا حول ولا قوة.

فيا أيها المساكين، أنّى لكم هذا المنطق الجديد الذي فهمتم بسببه أن النصائح التي جاء فيها التأكيد الشديد على الحلم والعفو تكون عديمة النظير وتعجز القوى البشرية عن بيانها؟ هذه هي مأساة فهمكم؛ إذ لا تدرون إلى الآن أن كلمة عديم النظير والمثال لا تُطلَق على شيء إلا إذا كان ذلك الشيء في الحقيقة قد بلغ في حد ذاته مبلغا تعجز القوى البشرية عن الإتيان بنظيره. إنكم تؤكدون مرارا وتكرارا في ادّعائكم على أنه قد ورد في الإنجيل تأكيد شديد على العفو والصفح دائما في كل مكان، ولا يوجد مثل هذا التأكيد في كتاب آخر. فنقول: حسنا، فليكن الأمر كذلك، ولكن هل يثبت من ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بمثل هذا التعليم المؤكد، أو أن القوة البشرية عاجزة

عن هذه التأكيدات؟ هل كُتُبُ عبدة الأوثان أقل تأكيدا على الرحم والعفو؟ بل الحق أن عبدة الأوثان من قوم "آريا" قد أوصلوا التأكيد على الرحم درجة الكمال وأبلغوه منتهاه. وبالمناسبة؛ لقد تذكرت فقرة من كتابهم الديني الذي يعمل به الهندوس جميعا تقريبا، وهو أنه لا دين أفضل من أن لا تؤذَى نفس منفوسة. فبحسب هذه الفقرة لا يحب الهندوس إيذاء أيّة نفس منفوسة، بل لا يتصدون لإيذاء الأفاعي بل يُشربونها الحليب مقابل إيذائها ويعبدونها أيضا. وهذه العبادة تُسمّى في ديانتهم بـــ "عبادة الأفاعي". وبعض الهندوس رحماء لدرجة لا يُخرجون القمل أيضا من شعرهم ولا يحلقون شعر جسمهم حتى لا يخلّ ذلك في راحتها، ويتحملون أنفسُهم المعاناة حتى لا تتفرّق شذر مذر من مكمنها. وبعضهم يشربون الماء واضعين الشبك على الفم لكيلا يدخل كائن حيّ في فمهم فيرتكبوا جريمة القتل.

فانظروا الآن، أين يوجد في الإنجيل هذا القدر من الرحم والعفو؟ ومع ذلك لا يقول مسيحي أنه لا نظير لتعليم كتاب الهندوس وهو يفوق قدرات البشر. وما دام تعليم الإنجيل عن الحلم والعفو والرحم ليس أكثر من ذلك، فكيف يمكن إذن أن يكون عديم المثال؟ من المؤسف حقا أن المسيحيين لا يفكرون قط أن بيان تعليم الأخلاق ببعض الشدة والتأكيد لا يستلزم أن لا يقدر الإنسان على الإتيان بمثله، وإلا فيجب تقديم برهان منطقي على ذلك لكي يُعدَّ بناء عليه تعليم الإنجيل وكتب الهندوس عديمة النظير. ولكن ما لم يقدَّم الدليلُ كيف نسلّم بتفرُّد تلك التعاليم التي نجد الناس قادرين بوضوح على استخراجها؟ هل نقبل ادّعاء محضا بدون دليل؟ أو نقبل أمرا بديهي البطلان حقا محضا؟ من الواضح أنه لشجارٌ سخيف وغباوة قصوى أنهم يصرون على أمر لا دليل عليه ولا إثبات، ولا يريدون أن يخطوا على الصراط المستقيم. واللافت في الموضوع أن تعليم الإنجيل ليس كاملا أيضا، فضلا عن أن يكون عديم النظير. لقد اتفق الباحثون جميعا أن المرتبة السامية للأخلاق الفاضلة لا تقتصر على اختيار العفو

والصفح دائما وفي كل مناسبة. ولو أُمر الإنسان بالعفو فقط لبطُلت مئات الأمور التي تعتمد على الغضب والانتقام. إن أساس فطرة الإنسان -الذي بالثبوت عليه يُعدُّ الإنسان إنسانا- هو أن الله تعالى كما أودع طبيعته قدرة على العفو والصفح كذلك أودعها الغضب والرغبة في الانتقام. وقد جعل العقل مشرفا على تلك القوى كلها. فلا يبلغ الإنسان إنسانيته الحقيقية إلا إذا عملتْ هاتان القدرتان كلتاهما طوعا للعقل بحسب الوضع الفطري. أيْ أن تكون هاتان القوتان كالرعية ويظل العقل عاكفا على تربيتهما وإفاضة الفيض لهما ورفع النــزاع من بينهما وحل مشاكلهما كالملك العادل. فمثلا إذا ظهر الغضب في حالة معينة تقتضي الحكمة فيها الحِلم، ففي مثل هذه المناسبات يعمل العقل على إخماد الغضب وتنشيط الحِلم. وفي حالة أخرى تقتضي الحكمة إظهار الغضب ولكن يظهر الحِلم بدلا منه، ففي هذه الحالة يُضرم العقلُ الغضبَ ويرفع الحِلمَ.

فملخص الكلام أنه يتبين من خلال البحث العميق أن الإنسان قد خُلق في هذه الدنيا بقوى مختلفة. وإن كمال فطرته يكمن في أن يستخدم كل قوة من قواه في محلها المناسب تماما.. أي الغضبَ في محل الغضب والرحم في محل الرحم. وليس أن يستعمل الحِلم فقط ويُبطل أو يعطِّل القوى الأخرى كلها. غير أنه صحيح تماما أن إظهار المرء قوة الحِلم -من جملة القوى الباطنية- في محلها أيضا، له مزيّته المتميزة. ولكن شجرة فطرة الإنسان التي قسمها الله تعالى إلى عدة أغصان -وهي قواه المختلفة- لا يمكن أن تُعدَّ كاملة إن كان غصن واحد مخضرًّا، بل سوف تُعدّ كاملة إذا كانت كافة غصونها خضراء نضرة ولا يزيد ولا ينقص غصن من أغصانها عن حد الاعتدال. ومن الثابت بالبداهة عقليا أن خُلق العفو ليس محمودا دائما.. أيْ أن يعفو المرء عن شر الشرير دائما وفي كل الأحوال، بل إن قانون الطبيعة نفسه يُثبت عيب هذه الفكرة، لأننا نرى أن المدبِّر الحقيقي قد جعل نجاح نظام العالم في أن يقوم المرء بالرفق أحيانا

والشدة أحيانا أخرى، وأن يعفو مرة ويعاقب مرة أخرى. وإذا أعمل الرِفق دائما أو الشدة كل حين، لفسد نظام العالم كله. فثبت أن العفو دائما وفي كل الأحوال ليس بِرًّا حقيقيا، بل إن عدَّ مثل هذا التعليم تعليما كاملا خطأٌ يرتكبه أولئك الذين لا تصل أنظارهم إلى أعماق الفطرة وكنهها، بل تبقى عيونهم مغلقة عن مشاهدة كافة القوى التي أُعطيها الإنسان ليستخدمها في محلها. إن الذي يستعمل قوة واحدة باستمرار وفي كل مناسبة ويترك القوى الأخلاقية الأخرى عاطلة، فكأنه يريد أن يقلِب رأسا على عقب الفطرة التي وهبها الله تعالى للإنسان، ويجعل فعل الله الحكيم القدير عرضة للاعتراض نتيجة قصور فهمه. فأيّة مزيّة في أن نعفو عن المذنبين في حقنا دائما بغير حكمة ودون سبب معقول ولا نقدم للشرير قط مواساة تضمن علاج شره ليصلح نفسه في المستقبل.

من المعلوم أن المعاقبة والانتقام على كل صغيرة وكبيرة مذموم وينافي مقتضى الأخلاق، كذلك إنه مما يخالف المواساة الحقيقية أن يتبنّى المرء دائما مبدأ أن يعفو عن المخطئ فورا كلما صدر منه خطأ. إن الذي يترك المجرم دون عقاب دائما فإنه عدوٌّ لنظام العالم، وهو كمن كان مستعدا للانتقام والبُغض دائما وفي كل الأحوال. إن قليلي الفهم يحبون العفو دائما ولا يفكرون أن الصفح باستمرار يؤدي إلى الفساد في نظام العالم. والحق أن ذلك يضر المجرم نفسه؛ لأنه يؤدي إلى ترسيخ عادةٍ سيئة وتقوية عاطفة الشر لديه. فاتركوا على سبيل المثال سارقا دون عقاب ثم انظروا ما الذي سيأتي به في المرة القادمة. فمن هذا المنطلق قال الله تعالى في كتابه المليء حكمةً: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ *(البقرة: ١٨٠)* أي إن حياتكم في قتل القاتل وإيذاء المؤذي بقدر ما آذاكم، وقال أيضا: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ *(المائدة: ٣٣)* ومن قتل شخصا بغير حق ودون مبرر فكأنه قتل الناس جميعا، وقال أيضا: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾

(النحل: ٩١) أي يأمر الله تعالى أن تقوموا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى في محله دائما.

فليكن معلوما أن تعليم الإنجيل أدنى من مرتبة الكمال التي فيها تتوثق عُرى نظام العالم بقوة. وإن عدّه تعليما كاملا خطأ كبير، إذ لا يمكن أن يكون تعليم مثله كاملا قط، بل الحق أنها خُطة جاءت إلى حيّز الوجود في الأيام التي تضاءل فيها الرحم المتبادل بين بني إسرائيل إلى حد كبير، وتفاقم عدم الرحم وعدم التسامح والتحجّر وقساوة القلب والتباغض إلى أقصى الحدود. وقد قدّر الله تعالى أن يُميلهم إلى الرحم والعفو بشدة كما بالغوا في التباغض. ولكن تعليم الرحم والعفو لم يكن من النوع الذي يمكن بقاؤه إلى الأبد، لأنه لم يكن مؤسَّسا على أساس حقيقي، بل كان كقانون معين يخص إصلاح اليهود المتمردين في منطقة معينة لمدة معينة. وكان المسيح عليه السلام يعرف جيدا أن الله تعالى سوف يقضي عن قريب على هذا التعليم المؤقت وسيُنـزِّل في الدنيا كتابا كاملا يدعو العالم كله إلى البرِّ الحقيقي ويفتح على عباد الله باب الحق والحكمة. لذا اضطر للقول ما مفاده: هناك أمور كثيرة جديرة بتعليمكم ولكنكم لا تستطيعون احتمالها حاليا ولكن هناك مَن سيأتي من بعدي وسيكشف عليكم الأمور كلها ويوصل علم الدين إلى مرتبة الكمال. فوصل المسيح عليه السلام إلى السماء تاركا الإنجيل الناقص ناقصا، وبقي الكتاب الناقص نفسه في أيدي الناس إلى مدة طويلة حتى أنزل الله القرآن الكريم بحسب نبوءة النبي المعصوم عليه السلام وجعله شريعة جامعة وشاملة لم يرد فيها مثل التوراة أمر السنِّ بالسنِّ دائما، و لم يأمر مثل الإنجيل أن يتلقى المرء لطمات المعتدين في كل الأحوال. بل إن ذلك الكلام الكامل يصرف عن الأفكار الآنية ويرغِّب في البرِّ الحقيقي ويأمر بالقيام بما فيه الخير الحقيقي، سواء أكان ذلك بالرفق أو الشدة، فيقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ *(الشورى: ٤١)*. أيْ أن الأصل في معاقبة السيئة هو أن يعاقَب المسيء بقدر ما كسبها،

ومن عفا وأصلح أي إذا قام أحد بعفو لا يؤدي إلى فساد، فسيثاب عند الله. كذلك أشار إلى جامعية الشريعة وكمالها في آية أخرى فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ *(المائدة: ٤)*، أي بلّغتُ اليوم علم الدين مرتبة الكمال وأتممت نعمتي على الأمة المحمدية. فتبين من هذا البحث كله أن تعليم الإنجيل ليس كاملا، بَلْهَ أن يُنعَت بأنه عديم النظير والمثال. لكن لو كان الإنجيل هو كلام الله لفظا ومعنًى ووُجدت فيه الميزات التي يستحيل وجودها في كلام الإنسان لعدَّ عديم النظير دون شك. ولكن تلك الميزات تلاشت من الإنجيل في الزمن الذي بدأ المسيحيون بالتدخل فيه بحسب أهوائهم، فلم تبق الألفاظ هي هي ولا المعاني، ولم تبق الحكمة نفسها ولا المعرفة.

فعليكم أن تستعيدوا القوى الذهنية السليمة وتجيبوا: إن كان تكميل الإيمان مقتصرا على كتاب عديم النظير، ثم لا تريدون أن تؤمنوا بالقرآن الكريم ولا تقدِّمون كتابا آخر عديم النظير، فأنّى لكم أن تصلوا إلى مرتبة اليقين والإيمان الكاملَين؟ لماذا أنتم جالسون مطمئنين؟ هل تنتظرون نزول كتاب آخر؟ أو تنوون الانضمام إلى أتباع برهمو سماج نابذين الإيمان والإلهَ وراء ظهوركم؟ لاحِظوا الآن أين أوصلكم إنكاركم أن القرآن الكريم عديم النظير؟ تمهَّلوا قليلا، فإن الأمر لم ينته هنا، بل يبدو أن وجود الله تعالى أيضا لن يسلم من عقيدتكم هذه، لأنه كما قلت من قبل، فإن الآية العظيمة على وجود الله تعالى هي أن كل ما هو مِن عنده عديمُ النظير بحيث يدل على خالق عديم النظير. فما دام لم يثبت أن الإنجيل عديم النظير من ناحية، ومن ناحية أخرى لم تؤمنوا بالقرآن الكريم أيضا؛ فاضطررتم للاعتراف بأن ما يأتي من عند الله تعالى فليس من الضروري أن يكون عديم النظير. وفي هذه الحالة اضطررتم للاعتراف بسبب اعتقادكم هذا أن غير الله أيضا قادر على أن يصنع مثل صنع الله ﷻ. فبناء على هذا القول لم تعد هناك آية لمعرفة خالق العالم. فكان ملخص دينكم أنه لا يقوم دليل عقلي على وجود الله تعالى. قولوا الآن عدلا وإنصافا، هل بقي في

إلحادكم شكٌّ؟ أليس فيكم شخص يدرك حقيقةً أن إنكار القرآن الكريم هجوم على الله الرحمن في الحقيقة؟ أليس من شقاوتكم أنكم تُعرضون عن كتاب يدل على أن صفاته ﷻ عديمة المثال، وبسببه يُعرف وجودُه ويُعتقَد أنه منــزَّه ومقدس، ويقوم توحيده المفقود وينتشر؟

أيها السادة، لقد تبين بكل جلاءٍ صدق القرآن الكريم وأنه عديم النظير، ولن يخفى ذلك بإخفائكم. ألا ترون أنه حينما يأتي الموسم لا يسع أحدا أن يحول دون حمل الأشجار ثمارا ونضجها؟ كذلك قد حان الأوان لتبيان صدق القرآن الكريم، ولا يسع أحدا أن يحول دون ذلك. فلا تهيلوا التراب على القمر حتى لا يرتد إليكم ويسقط على أعينكم.

إن بعض المسيحيين حين ييأسون من تقديم الإنجيل بديلا يقدمون كتاب "موارد القلم"[٨١] للفيضي، ويقولون إن كتابه هذا كله قد جاء بدون نقاط على الأحرف، فهو أيضا مثل القرآن فصاحةً وبلاغةً بل أفضل منه. ولكن من المؤسف حقا أن هؤلاء الجهال لا يملكون فهمًا ليدركوا أن هذا العمل السخيف يخرج عن دائرة الفصاحة والبلاغة الحقيقية، وليس من شأن الالتزام به وحده أن يجعل الكتاب عديم المثال، بل الحق أن كتابة عبارات دون تنقيط سهل للغاية وليس صناعة تتعذر على المرء أو تصعب. فهناك كثير من الأدباء الذين كتبوا في العربية والفارسية عبارات غير منقّطة ولا يزالون يكتبون. بل هناك عبارات لبعض الأدباء كل حروفها منقَّطة. ولكن الخصائص واللوازم التي تنفرد بها فصاحة القرآن الكريم وبلاغته تجعل العاقل يوقن فور التأمل فيها بيقين القلب أن ذلك الكلام المقدس يخرج عن إحاطة قدرات البشر، لأنه كما كتبتُ من قبل أن القرآن الكريم لم يقدّم فصاحته وبلاغته بأسلوب سخيف مثل الحريري والفيضي وغيرهما من الأدباء. ولا دخل للهزل والكذب في هذا الكلام المقدس.

---

[٨١] *هكذا ورد في الأصل بسهو الناسخ والصحيح: "موارد الكلم" للفيضي وهو الشيخ: أبو الفيض بن المبارك الهندي. (المترجم)*

بل أظهر القرآن الكريم فصاحته وبلاغته بالتزام الصدق والحكمة والضرورة الحقة وأحاط بجميع الحقائق الدينية بكمال الإيجاز. فهو يزخر بالبراهين الساطعة لإسكات كل مخالف ومنكر، ويتراءى بحر زخار عميق وشفاف من آلاف الدقائقِ والحقائقِ لتكميل يقين المؤمنين، ويسعى لإصلاح كل ما رأى فيه الفساد. وكلما وجد إفراطا أو تفريطا غالبا بشدة دحضهما أيضا بالشدة نفسها. وقد ورد فيه علاج لكل ما رآه من أنواع الأسقام والأمراض المنتشرة. وقضى على كل شبهة أثارتها الأديان الباطلة، وردّ على كل اعتراض. ليس هناك من صدق لم يبيِّنه، وما من فرقة ضالة إلا ردّ عليها. والأهم من كل ذلك أنه لم ترد فيه كلمة بغير ضرورة قط، وما جاء شيء في غير محله، وما من كلمة وردت لغوا. ومع الالتزام بكل هذه الأمور أظهر من الفصاحة والبلاغة مرتبة كاملة لا يُتصوَّر أعلى منها. وأوصل البلاغة كمالا إذ جمع في كتاب صغير علم الأولين والآخرين بكمال الترتيب الحسن والمحكم والبيانِ الموجز والمبرهن ليخلص الإنسان -الذي عمره قصير وأعماله متراكمة- من كثير من المشاكل العصيبة، ولكي ينال الإسلام دعما من هذه البلاغة لنشر المسائل ولكي يسهل حفظه.

والآن يجب النظر في كتب البشر مقابل هذه الفصاحة والبلاغة ليُعلم كم هي مليئة بالكذب والهزل والهراء، وكم ورد فيها من عبارات غير ضرورية وسخيفة! ولم يتسنَّ لها قط أن تجعل الألفاظ تابعة للمعاني المنشودة، بل تهيم معانيها وراء الألفاظ، وهي خِلوٌ تماما من مراعاة الحق والحكمة والضرورة والمصلحة. فلمّا ترك مؤلفوها الالتزام بالصدق والضرورة الحقة واختاروا الكذب في كل كلمة أو سخف الكلام أو التشدق بكلمات لاغية وغير ضرورية، فما علاقتها ببلاغة القرآن الكريم!

هنا لا بد من الانتباه أيضا أنه ما دامت فصاحة القرآن الكريم وبلاغته منـــزَّهة تماما عن الأساليب العبثية، فكان مستبعدا تماما عن عظمة شأن الله

الحكيم والقدير المقدسِ أن ينـــزل كلامه مثل الشعراء ذوي الكلام السخيف في كلمات مُنقّطة أو غير منقطة، لأنها كلها أمور عبثيّة لا جدوى منها. وإن الله الحكيم القدير أسمى شأنا من أن يقوم بعملٍ عبثيّ. وما دام الله تعالى قد قال بنفسه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ *(المؤمنون: ٤)*.. أي المؤمنون هم الذين يُعرضون عن اللغو ولا يضيعون أوقاتهم في العبث، فأنّى له سبحانه نفسه أن يعبث؟ ولما قال بحق كتابه: ﴿والقرآن الحكيم﴾ *(يس: ٣)* وقال أيضا: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ *(فصلت: ٤٣)*.. أي أن القرآن الكريم مليء بالحكمة، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكيف يمكن أن يملأه نفسُه بالباطل؟ بل هذا الأمر يقتضي شخصا يأتي بكلام سخيف مثل "الفيضي". ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ... وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ *(النور: ٢٧)* يجب أن يُعدَّ كلام الله غير مُنقّط من حيث أنه منـــزَّه ومجرَّد عن نقاط اللغو والكذب وسخف الكلام، وأن فصاحته وبلاغته شيء متميز وعظيم ينفع الدنيا ويشفي الأمراض الروحانية، وبه تسهل على طلاب الحق معرفة الحقائق والدقائق، لأن كلام الله الفصيح يسرد المعارف الحقة بكمال الإيجاز وكمال الترتيب وكمال الوضوح وحسن البيان، ويختار أسلوبا يترك على القلوب تأثيرا عظيما، وأن تضم عبارةٌ وجيزة منه علوما إلهية لم يُحِطْ بها كتاب في الدنيا منذ بدء الخليقة. هذه هي الفصاحة والبلاغة الحقيقية التي تساعد الإنسان على تكميل النفس الإنسانية، وبواسطتها يصل طلاب الحق إلى كمالهم المطلوب. وهذه هي الصناعة الربانية التي لا يمكن إتمامها إلا بقدرة الله ﷻ وعلمه الواسع. إن الله تعالى قد كفل صدق كل جملة من كلامه. وكل ما ورد فيه سواء أكان من الأخبار والآثار الماضية أم كانت الأخبار والأنباء عن المستقبل، أم كانت حقائق علمية أو دينية؛ فإنه منـــزّه تماما عن وصمة الكذب والهزل وسخف الكلام. ولو وُجدت فيه مسحة من الهذيان والتناقض أو الكلام العبثي والتباهي، لما كان كلام الله أصلا. لذا فإنه يبلِّغ بياناته كلها مبلغ الإثبات. ولكن لم يضمن شاعر

من الشعراء قط ولا يضمن أن كلامه بريئ من كل نوع من الكذب والهزل وسخف الكلام، وأنه يحيط بالأمور الطيبة والضرورية التي لا بد منها وأن يكون منــــزَّها عن كل ما هو غير ضروري. فما دام كلام الشعراء السخيف لا يحوز على تلك المراتب التي يحوزها كلام الله المقدسُ، ولا يدّعي الشعراء ذلك قط، ولا يتحملون هذه المسؤولية بل يقرّون بعجزهم بأنفسهم، فأيّ سفاهة وغباوة إذن تقديم كلامهم الحقير مقابل كلام الله تعالى!

والشعراء لا يستطيعون أن يلتزموا في كلامهم الصدق والحق وبيان الضرورات الحقة حتى لو ماتوا في سبيل ذلك. إنهم لا يتكلمون بشيء إلا ويخالطه السخف، بل إن كلامهم كله مبني على السخف والكذب، ولولا الكذب والهراء لما كان للشعر وجود أصلا. ولو بحثتم في كل فقرة من كلامهم عن أي حقائق ودقائق، وفي مدى التزامه بالصدق والحق، وما يقوم عليه من الحق والحكمة، ولأية ضرورة حقة صدر ذلك الكلام من أفواههم، وما يشمله من أسرار عديمة النظير والمثال؛ لعلمتم أنه لا توجد في عباراتهم الميّتة ميزة واحدة من هذه الميزات. بل الحق أنهم يميلون إلى القافية والسجع حيثما وُجد، ويهذون بكل ما يحلو لهم، فلا يلتزمون بالحق والحكمة ولا يجتنبون سخف الكلام. ولا يهتمون إذا كانت هناك ضرورة ماسة لهذا الكلام، وما هي الخسارة الكبيرة التي يمكن أن يواجهوها نتيجة تركهم له. بل الحق أنهم يردفون جملة بعد جملة بغير وجه حق ويقلبون الموازين رأسا على عقب. وفي كلامهم لمعانٌ كثير مثل السراب، ولكن لو أمعنتم النظر لما وجدتم فيه شيئا من الحقيقة. وإن هي إلا لعبتهم مثل المشعوذين لا حقيقة فيها. فهم فقراء وضعفاء ومساكين، لا حول لهم ولا قوة، وعيونهم عمياء، ثم فوق كل ذلك عشوائية وفوضى. ولو تساهلنا معهم كثيرا لقلنا إنهم مثل العنكبوت لضعفهم وذلهم، وإن أبياتهم كبيت العنكبوت. نعمَ ما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ *...

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ *(الشعراء: ٢٢٥-٢٢٨)*. أي لا يتبع الشعراء إلا الذين تركوا طريق الحق والحكمة. ألم تر أن الشعراء يجوبون كل فلاة بحثا عن القوافي والسجع والمضمون ولا تثبت قدمهم على الأمور الحقة. والظالمون الذين يشبّهون كلام الله الحقَّ بكلام الشعراء سيعلمون قريبا أي منقلب ينقلبون.

فعلى كل عاقل أن يفكر الآن؛ هل من إجحاف أكبر من تشبيه الحق الصراح باللغو البحت، وعدّ الظلام مثل النور؟ هل تماثل هذه الكتب -التي علت وجوهها بصمة سخف الكلام والكذب والهذيان حتى تبعث رؤيتها كل ذي قلب طاهر على القرف والاشمئزاز- هذا الكتاب المقدّس بحال؟ وهل تُعدّ الكتب المذكورة التي موادها فاسدة مثل دم المجذوم مساويةً لهذه الصحف المطهرة؟ كلا، ثم كلا. إن التعصب والتعنت بلاء شديد لا يترك العقل والفطنة سليمة، ولا تسلم منه حاسة السمع والبصر، ويجب على المرء أن يفكر على الأقل أنه لو شبّه أحد دون مبرر شيئين لا توجد بينهما أدنى مشابهة أو مماثلة لكانت النتيجة النهائية دائما أن يسميه العقلاء مجنونا أو مختل الذهن.

فيا أيها المسيحيون، عليكم ألا تحذوا حذو الهندوس. لقد كان فيكم في زمن نزول القرآن الكريم كثير من القساوسة طيبو الطوية الذين لم تكن تتوقف دموعهم عند سماعهم القرآن الكريم. تذكّروا هؤلاء القسيسين الأبرار الذين ذُكرت شهادتهم في القرآن الكريم أنهم كانوا يخرّون للأذقان بسماعهم القرآن، فجعلتهم عظمة القرآن الكريم ينطقون بشهادة الإسلام ويقرّون بأفضليته على جميع الكتب الموحى بها. أما الآن فلا يساوي القرآن نفسُه في أعينكم كلامًا سخيفا للحريري والفيضي! اعلموا أن هذا الكفر الكبير لا يروق لله ﷻ بحال. لو استطعتم أن تأتوا بنظير القرآن الكريم في كمالاته الظاهرية والباطنية لانتهت القضية تماما، ولكنكم عاجزون وساكتون عن الإتيان بنظيره. فلا أدري لماذا لا ترون مع أن لكم عيونا، ولماذا لا تسمعون ولكم آذان، وكيف لا تفقهون

ولكم قلوب؟ لو كان الحريري والفيضي من العقلاء مثلكم لادّعوا بأنفسهم الإتيان بنظير القرآن الكريم. ولكن ندعو الله تعالى ألا ينحطّ عقل مثقّف إلى هذه الدرجة. قولوا بالله عليكم أيّ كلام تملكونه يعلن كما يعلن القرآن الكريم قائلا: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ *(الإسراء: ٨٩)* ويقول أيضا: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ *(البقرة: ٢٤)*، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ *(البقرة: ٢٥)*

فأكرر وأقول: قبل أن تتجشموا عناء البحث عن كلام مثل القرآن الكريم، من واجبكم أن تتأكدوا هل هناك كلام آخر ادّعى ما ادّعاه القرآن الكريم كما رأيتم في الآيات المذكورة آنفا؟ لأنه لو لم يدّع متكلِّم أن كلامه عديم النظير والمثال ويعجز عن مواجهته والإتيان بنظيره الجن والإنس كلهم أجمعون، لكان مَثل عدِّ كلامه عديم النظير دون مبرر كمثل ما يُقال في المثل الأردي ما مفاده: المدّعي لا يحرك ساكنا ولكن الشهود متحمسون.

وإضافة إلى ذلك يجب الإثبات -عند عدِّ كلامٍ نظيرَ القرآن الكريم وشبيهه- أن هذا الكلام يشمل كمالات ظاهرية وباطنية كما يشملها القرآن الكريم، لأنه لو لم يكن للكلام الذي قُدِّم نظيرا ومنافسا أي نصيب من كمالات القرآن، فإن تقديمه نظيرا ليس إلا غباوة وحمقا. تذكّروا جيدا أنه كما أن الإتيان بالنظير والشبيه للأشياء الصادرة من الله تعالى مستحيل، كذلك الإتيان بنظير القرآن الكريم أيضا مستحيل. لهذا السبب اضطر فحول الشعراء العرب -الذين كانت العربية لغتهم الأم وكانوا مطلعين جيدا على مذاق الكلام بطبيعتهم وبناء على اكتسابهم أيضا- للاعتراف بأن القرآن الكريم يفوق قدرات البشر. وذلك لا يقتصر على العرب فقط، بل الحق أنه كان من بينكم أيضا كثير من العميان الذين بدأوا يبصرون بسبب هذا النور الكامل، وكان هناك كثير من الصم

الذين أصبحوا يسمعون ببركته. والآن أيضا لا يزال النور نفسه يزيل الظلمةَ من كل الجوانب والنواحي، ولا تزال أنوار القرآن الكريم الحقة تنوِّر القلوب.

بل الحق أنه بقدر ما تفتح عيون الناس يعترفون بعظمة القرآن الكريم؛ فإن كبار المتعصبين من الإنجليز الذين يُدعَون حكماء وفلاسفة قد أعلنوا بأعلى صوهم أن القرآن الكريم عديم النظير فصاحةً وبلاغةً. وقد اضطر المسيحي المتحمس كاد فري هيكنس[٨٢] ليقول في البند ٢٢١ من كتابه بأن العبارات العظيمة التي توجد في القرآن الكريم، قد لا يمكن العثور في العالم كله على ما يزيد عليها في الدنيا كلها. كذلك اضطر يوت[٨٣] ليشهد في كتابه الشهادة نفسها.

إن أتباع آريا سماج الذين ختموا الإلهام من الله وكلامه على الفيدا، ينكرون مثل المسيحيين أن القرآن عديم النظير، ويدّعون بفصاحة فيداهم وبلاغته. ولكنني أرى من واجبي أن أؤكد للغافلين مرارا وتكرارا بأنه لا يجوز لأحد أن يُنكر كون القرآن عديم النظير إلا مَن استطاع أن يُخرج لنا من كتاب آخر أوجه التفرّد التي بينّت مثالا منها في هذا الكتاب للقرآن الكريم. فإذا كان أتباع آريا سماج يتوقعون عن "فيداهم" أنه سيقدر على مواجهة القرآن الكريم في هذا المجال، فلهم أن يُظهروا قدرته هذه. ولكن الادّعاء الفارغ والتفوه بكلام الأوباش والرعاع ليس من شيمة الأبرار. إن نُبل الإنسان وعقله يكمن في أن يقدّم على ادّعائه دليلا إذا كان يملكه، وإلا فليصمت ويمسك لسانه عن ادّعاءٍ ليس مآله إلا الهراء وسخف الكلام.

اعلموا أن بلاغة القرآن بلاغة طاهرة ومقدسة، وهدفها الأعلى هو سردُ نور الحكمة والصدق في كلام فصيح، وأن تُملأ حقائق علوم الدين ودقائقه كافة في عبارات موجزة ومدعومة بالأدلة. وحيثما مست الحاجة إلى الشرح والتفصيل

---

[٨٢] *هذا سهو من الناسخ، والصحيح: Godfrey Higgins. (الناشر)*

[٨٣] *هذا سهو من الناسخ، والصحيح: John Davenport. (الناشر)*

تقوم بالشرح، وحيثما كانت في الإجمال كفاية تكتفي به، وذلك دون تركِ ذكرِ أيّة حقيقة دينية؛ مفصَّلة أو مجملة. وإلى جانب ذلك يجب أن يكون الذكر بناء على مقتضى الضرورة الحقة وليس دون الحاجة. ثم يجب أن يكون الكلام فصيحا وسلسًا ومتماسكا فلا يمكن لأحد أن يأتي بأحسن منه، وأنْ تُحالفه البركات الروحانية أيضا. هذا ما ادّعاه القرآن الكريم وأثبته بنفسه. وأعلن أيضا في أماكن عديدة أنه لا يسع أحدا من المخلوقات أن يأتي بنظيره.

والآن، لا يخفى على كل من أراد النقاش بالعدل أنه يجب -بغية المقارنة مع القرآن الكريم- أن يقدَّم كتابٌ توجد فيه الميزات نفسها التي يتحلى بها القرآن الكريم. صحيح أنه توجد في الفيدا أساليب شعرية وتوجد فيه أنواع عديدة من الاستعارات أيضا مثل كلام الشعراء. ففي "ريغ فيدا" مثلا عدَّت النار في مكان ثريةً تملك جواهر عديدة، وشُبِّه ضوؤها بجوهرة متلألئة، وفي بعض الأماكن الأخرى عُدّت قائدا له راية سوداء. وقد عدَّ الدخان الصاعد من النار رايةً سوداء. وفي مكان آخر عدّت الحرارة التي تُصعد بخار الماء لصًّا، وسمِّيت "ورترا" *(أي الممزق)* بهذا الاسم بناء على قوتها الممسكة. وعُدّ البخار بقرة، وقد شُبّه "اندر" -الذي قُصِد به في "الفيدا" جو السماء ولا سيما طبقة الزمهرير- بالجزار في مثلٍ ذكَرَه، وقيل إنه كما يقطع الجزار لحم البقرة قطعا صغيرة، كذلك ضرب "اندر" على رأس "ورترا" بسلاحه بقوة هائلة فقطّعه إربا حتى سال الماء قطراتٍ. ولكن من الواضح تماما أنه ليس لمثل هذا النوع من استخدام الكلمات أدنى علاقة مع القرآن الكريم، بل هي تخيلات الشعراء فقط، ومع ذلك ليست جديرة بالمدح والثناء وليست ذات أهمية ملحوظة، بل هي محل الطعن والنقد الشديد في معظم الأماكن؛ فعلى سبيل المثال قد شُبِّه "اندر" في الاستعارة المذكورة آنفا بالجزار الذي شُغله هو بيع لحم البقر، وهذا موضوع لا يمكن أن يجد طريقه إلى كلام الشعراء ذوي الطبيعة الحساسة قط؛ لأن الشاعر يتوخّى لا محالة ألا يشمئز عامة الناس من كلامه. ولكن الفيدا تجاهل

هذا الأمر في هذا النص، إذ من الواضح تماما أن الهندوس الذين يخاطبهم الفيدا يشمئزون من أن يسمعوا شيئا عن لحم البقر، وهذا الذكر يشق على طبائعهم كثيرا. ثم تشبيه "اندر" -وهو إله كبير بحسب الفيدا- بالجزار وهجوه بعد عدِّه إلها كبيرا، بعيدٌ عن مقتضى حسن الكلام، بل هو نوع من سوء الأدب. وبالإضافة إلى ذلك هناك عيب آخر في هذا التشبيه؛ وهو أن التشبيه يجب أن يكون في أمر معروف ومشهور. إذًا، القول بأن "اندر" قطع "ورترا" كما يقطع الجزار لحم بقرةٍ قِطعا صغيرة، لن يُعدَّ تشبيها صحيحا من حيث فن البلاغة إلا إذا ثبت أن لحم البقر في زمن الفيدا كان يباع في الأسواق بوجه عام، وكان الجزارون يقطعونه ويعطونه للآريين. ولكن الآريين المعاصرين لا يقرّون بذلك قطعا. فمن الواضح أن بيان التشبيه في أثناء الكلام بما لا وجود له على صعيد الواقع -بل هو ما يشمئز منه الناس- بعيد عن أسلوب الفصاحة والبلاغة كل البُعد. لو بيّن الولد أيضا تشبيها مثله في كلامه لعُدّ ساذجا وملاما عند العقلاء، لأن جمال التشبيه لا يظهر للعيان إلا إذا كان المستمعون مطلعين على المشبَّه به اطلاعا واسعا، وكان بديهي الظهور ومسلَّم الوجود في نظرهم، ولا تشمئز طبائعهم من ذكره. ولكن مَن له أن يُثبت أن بيع لحوم البقر وشراءها واستهلاكها كان عادة شائعة بين الناس في عصر الفيدا ولم ينفر منها قوم الآريا؟ ولو ظُنّ أن بيان الفيدا بذلك نفسه يكفي دليلا على شيوع تلك العادة، لما انتهى الاعتراض كليا بهذه الظن أيضا، لأنه لا توجد مشابهة قوية بين لحم البقرة ودمها والماء، غير أن هناك مشابهة بين حليب البقرة وبين الماء النقي. فمثلا قد ورد في "ريغ فيدا" سنتها اشتك ١، سكت ٦١ *(الفصل الأول، البند ٦١)* الفقرة التالية: يا "اندر" اضربْ "ورترا" بسلاحك واقطعْه إربا كما يقطع الجزار البقرة إربا. ولكن لو ورد بدلا من ذلك أنه حين ضغط "اندر" بسلاحه على "ورترا"، تدفّق منه الماء كما يتدفق الحليب عند الضغط على ضرع بقرة حلوب، لسلمت الكلمات التي أُريدَ بيانها ولصحّ التشبيه أيضا جيدا. وإضافة

إلى ذلك لا يشمئز المرء من ذلك التشبيه، لأن الهندوس يشربون حليب البقرة دون أدنى تردد.

وبغض النظر عن كل ذلك نحن لا نبحث في أساليب الشعراء، بل إن ذكر هذه اللَّغويّات مقابل القرآن الكريم عمل تافه ومثير اشمئزاز لا مبرر له. إن البلاغة الحقيقية التي يقدمها القرآن الكريم تأخذنا إلى عالَـــم آخر تماما لا يدانيه اللغو والكذب والأقوال السخيفة أبدا. بل قد بيّن بحر الحكمة والمعرفة الذي لا نهاية له في عبارة أقلَّ وأدَلَّ بالتزام الفصاحة والبلاغة، وأحاط بكافة دقائق الإلهيات بأكمل وجه تعجز عن منافستها القوى البشريةُ كلها. ولكن ماذا نكتب وماذا نقول عن الفيدا الذي وردت فيه مواضيع مضلة من شتى الأنواع بدلا من الحقائق والمعارف؟ مَن ذا الذي أمال عشرات الملايين من الناس إلى عبادة المخلوقات؟ إنه الفيدا! مَن ذا الذي جعل الآريين يعبدون مئات الآلهة؟ إنه الفيدا! هل يوجد فيه نصّ يمنع عبادة المخلوق بصراحة تامة وبكلمات واضحة، ويمنع عبادة الشمس والقمر وغيرهما، ويعدُّ النصوص المبنية على تعليم عبادة المخلوقات محل اعتراض؟ لا يوجد قطعًا. فكيف يتسنى للفيدا الحصول على بلاغة تقتصر على إراءة نور الحق والحكمة؟ هل لنا أن نعُدّ بليغا هذا الكلام الذي يقال عنه بأن هدفه الحقيقي هو القضاء على الشرك وإقامة التوحيد ولكنه عجز مثل البُكم، عن إثبات صدق هذا الادعاء؟ كل عاقل يُدرك جيدا أن من أهم أوجه البلاغة أن الأمر الذي يجدر توضيحه وكشفه يجب أن يفصَّل ويُشرَح جيدا بما فيه الكفاية لإقناع كل طالب حق. كما يعلم الجميع أن الشخص الفصيح هو الذي يستطيع أن يبين مرادَه وما في ضميره بكل وضوح.

الآن، إذا كان الآريون يدّعون أن الهدف الحقيقي للفيدا هو عبادة المخلوق، كان من الممكن أن يُظَنّ أنه ليس ساقطا تماما عن مرتبة البلاغة، لأنه مع أن الفيدا لم يبيّن دليلا على عبادة المخلوق ببلاغة حقيقية و لم يثبتها، ولكنه بيّن من خلال كلامه الواضح -وهو جزء من البلاغة- مقصوده بعبادة الآلـــهة، ونسج

في مدح الآلـــهة مثل "أغني" و"وايو" و"اندر" مئات الشعوذات، وطلب منها بقرات وخيولا وأموالا كثيرة أيضا. ولكن إذا كان ادّعاؤهم أن الفيدا بذل قصارى جهده من أجل بيان التوحيد بقوة بيانه وكمال بلاغته، ودحض شبهات المشركين ووساوسهم بالأدلة الواضحة، وبيّن جميع الأدلة والبراهين التي كانت ضرورية لإقامة التوحيد وإزالة الشرك، وأثبت وحدانية الله تعالى، ومنع عبادة النار وغيرها؛ فإن هذا الادّعاء لا يثبت بحال من الأحوال. من لا يعرف أن مضامين الفيدا ميّالة إلى الترغيب في عبادة النار، والتغني بمدائح "اندر" وعبادة الشمس.

فلما كان الفيدا يهدف على حد قولكم إلى بيان التوحيد والمنع من عبادة الشمس والقمر ويوصل المشركين إلى درجة التوحيد ويصلح الفاسدين ويحوّل عبدَة المخلوق إلى عباد الله ويدحض جميع وساوس المشركين ولكنه ببيانه هذا -بدلا من أن يحقق هدفه- أدى إلى ترسيخ تعليم عبادة المخلوق رويدا رويدا؛ ذلك التعليم الذي جلب الدمار على عشرات الملايين من الناس، وأغرق مئات الآلاف في ورطة الشرك والكفر، ولكن الفيدا لم يقل بوضوح ولو مرة واحدة ليمنعهم من عبادة المخلوق، ويقول لهم لا تعبدوا النار وغيرها ولا تسألوا مراداتكم أحدا إلا الله ﷻ، وعدّوا الله بلا مثيل ولا نظير، ففي هذه الحالة فليُنصف كل عادل؛ هل من علامات الكلام الفصيح أن يُضمِر في قلبه شيئا ويَخرج من فمه شيءٌ آخر؟ لا يوجد هذا القدر من اللغو حتى في كلام المجانين ومسلوبي الحواس إذ يجدون في أنفسهم قدرة على البيان بحيث يستطيعون أن يُظهروا ما في قلوبهم، ولا يطلبون النار حين يكونون بحاجة إلى الماء، وإذا احتاجوا خبزا لن يطلبوا حجرا. ولكني أستغرب ما بعده استغراب؛ أيّة بلاغة توجد في الفيدا الذي كان هدفه إقامة التوحيد ولكنه بدأ على عكس ذلك بترويج مئات الآلـــهة؟ وأنّى للكلام الذي يعجز عن بيان مراده أن يكون

فصيحا وبليغا!!. وكيف يمكن أن يتطرق الفساد إلى كلام بليغ حتى يعجز عن بيان غايته المنشودة ببيان واضح وعلى خير ما يرام؟

الشرط الأول للبلاغة هو أن يكون المتكلم قادرا جيدا على بيان ما يضمره قلبه، ويبين بوضوح تام ما يريد بيانه دون أن يبقى فيه غموض، ولا يقول كلاما مبهما وبلا معنى مثل البكم. غير أنه لو كان من مقتضى الحكمة إخفاء أمر ما أو بيانه كسِرٍّ مكنون، لعُدّ بيانه في ثوب الخفاء بلاغةً. ولكن التوحيد الذي عليه مدار النجاة كلها ليس بالأمر الذي يجوز إخفاؤه. فلا يصح القول بأن الفيدا قد بيّن موضوع التوحيد عن عمد بصورة ألغاز وأحاجي، وأنه أورد عبارات خادعة قصدا. ففي هذه الحالة لا بد من الاعتراف أن الفيدا تعمّد إيقاع ملايين الناس في دوامة الهلاك، وأورد قصدا عبارات تؤدي قراءها إلى انتشار عبادة المخلوق. فإذا كان الحال على هذا المنوال، سيُعدُّ رأي عامة الهندوس سديدا إذ يقولون بأنه كان من مشيئة الفيدا المضمرة أن يجعل أمة الآريا عبدة آلهةٍ زائفة. ولو حسِبنا مشيئة الفيدا المضمرة منافية لعبادة المخلوق، لاضطررنا للاعتراف بأنه يجهل تماما أسلوب الكلام وآدابه، ولا يملك قدرة على أن يُظهر مشيئته بوضوح على المخاطَبين. ففي هذه الحالة يتبين سقوط الفيدا من مرتبة البلاغة بوضوح تام لا حاجة لبيانه. إن الكلام الذي لا تدل ألفاظه على معانيه بل تـــجُرّ إلى المفاسد على عكس المراد، لا يُعدّ فصيحا وبليغا عند عاقل. فألقُوا نظرة على أيّ نصّ من الفيدات؛ تجدوه مضلا بدلا من أن يكون هاديا. ما أعجب هذه الفصاحة! وما أكثرها غرابة هذه البلاغة! لقد بلغت الفيدات القمة في بيان ما في الضمير!! قد لا يوقن بذلك أحد بسهولة؛ لذا أنقل هنا من "ريغ فيدا" -الذي يعدّ أعلى الفيدات وأفضلها- بعض الفقرات التي يظن الآريون أنها تشمل تعليم التوحيد. وبعدها سأنقل بعض الآيات من القرآن الكريم أيضا مثالا على بيانه التوحيدَ ليعلم الجميع أيٌّ من القرآن والفيدات بيَّن مسألة التوحيد بجلاء وبطريق مؤدب وببيان قوي وبليغ، ومَن كان بيانه سخيفا

وبلا معنى ويوقع المرءَ في أنواع الشكوك والشبهات؟ لأنه كما كتبت من قبل: إن الطريق الأسهل لاختبار البلاغة هو مقارنة مرتبة القوة البيانية لكلا البيانين المزمع المقارنة بينهما ليُعلَم ما مدى بيان كل واحد منهما من الدقائق والحقائق، وإلى أيّ مدى أدّى واجبه الموكول إليه؟ وإلى أيّ مدى أبدى نور العلم لإزاحة ظلمة الجهل ببيانه الموجز والمدعوم بالأدلة، وكيف أظهر ميزات وحدانية الله ﷻ وكشف عن مثالب الشرك.

وإذا ارتاب أحد بأنه قد تكون هناك فقرات أخرى في "ريغ فيدا" يمكنها أن تبارز القرآن الكريم في بيان تعليم التوحيد، فله أن يسردها من الفيدا المذكور ليُبَتَّ في "ريغ فيدا" قبل غيره، إذ إن الآريين يرددون اسمه كثيرا ودائما. فليكن معلوما هنا أيضا بأني سأتناول لاحقًا بيان البلاغة عديمة النظير للقرآن الكريم ودقائقه وحقائقه التي تُعَدّ بالآلاف وتعجز قوى البشرية كلها عن مواجهتها، غير أنني سأورد هنا بعض الآيات القرآنية فقط -نظرا إلى إصرار بعض الآريين الذين يدّعون بلاغة الفيدا مقابل القرآن الكريم- بُغية وضع حدٍ لسلاطة لسانهم بطريق سهل يكشف على المنصفين سخف الفيدا وكونه بلا قيمة تماما، ولكي يتبين أيضا أن الفيدا لا يملك قوة البيان ليُبين مقصوده أيضا بوضوح وجلاء، دع عنك أن يقدر على مواجهة بلاغة القرآن الكريم العظيمة، لأن كل منصف يستطيع أن يدرك أن الكتاب الذي لا يستطيع أن يبين مراده بوضوح، كان الأمل في بلوغه مراتب أخرى للفصاحة والبلاغة كمال الحُمق. فإذا استطاع الفيدا أن يبارز القرآن الكريم في هذا المجال السهل، فلعله يستطيع أن يبارزه في مجال الدقائق التي يدّعي القرآن أن الكتب الأخرى كلها تعجز فيها مقابل القرآن الكريم أيضا. ولكن لو ثبت أن فيدا الآريين كميِّت بلا حراك في هذا المجال ولم ينبس مقابل القرآن الكريم ببنت شفة ولو في أمر بسيط، لكان الاعتزاز به والظن أنه سيقدر على مواجهة القرآن الكريم في مجال الحقائق والدقائق العظيمة غباء من الدرجة القصوى.

هنا أريد أن أبين أيضا للقراء الكرام أنه لما لم يعدّ الباحثون الهندوس الجزء النظري والاستدلالي للفيدات ضمن الفيدات نفسها، ولم يعُدُّوه كلام إلـــههم بل أظهروا رأيهم بوضوح تام أنها أفكار بعض الناس الشخصية، كما أن البانديت ديانند أيضا أبدى الرأي نفسه، ويتفق الباندييتات الكبار والمعروفون على الرأي نفسه؛ فلا حاجة لتحقيق مضامين تلك الأجزاء النظرية، لأنه لـــمّا لم تكن عباراتها من الفيدات بل لا تنسجم مع تعاليمها بحسب إقرار البانديت ديانند وغيره من المحققين، بل هي حواشٍ واهية وغير مرتبطة بها أضافها بعض البراهمة قليلو الفهم فيما بعد؛ فإن البيان هنا عن الأخطاء الواردة في تلك الأجزاء النظرية، كيفما كانت، سيكون إسهابا لا طائل منه. غير أنني أرى من الحكمة أن أنقل هنا بعض البنود نموذجا من الفيدات الخالصة التي يعدّها الآريون كلام إلـــههم ويحسبونها كُتبا تشمل علوما صادقة. فأنقل فيما يلي من "ريغ فيدا" عدة بنود يزعم الآريون أنها تعلّم التوحيد وهي:

"أثني على الإله "أغني" الذي هو العضو الأعظم لأداء شعيرة "هوم"[٨٤] ويوصل النذور إلى الآلهة، وهو من الأثرياء الكبار. فليوجِّه الإله "أغني" -الذي ظلّ العابدون يثنون عليه في الزمن الماضي ولا يزالون يمدحونه في الزمن الحالي- الآلهةَ الأخرى إلى هذا الأمر. فيا أغني *(النار)* التي نشأتِ باحتكاك الخشبتين، اجمعي الآلهة على كلأ محصود[٨٥]. فأنت داعيتهم نيابة عنا، وأنت تُعبدين. يا "أغني" قدِّمي اليوم تضحيتنا اللذيذة للآلهة ليأكلوها، يا "أغني" قدمي نذرنا للآلهة "وايو" وشمس وغيرهما. فيا أغني البريئة من العيوب، أنت إلهة ذكية من جملة الآلهة الأخرى. تسكنين عند والديك وتهبين لنا الأولاد. أنت التي تهبين الثروات كلها. فادعوا باسم الأغني المباركة التي هي الإلهة الأولى. يا "أغني"، يا

---

[٨٤] *شعيرة من شعائر الهندوس الدينية يقرأون فيها أبيات الفيدا ويصبون على النار الزيتَ وغيره من أشياء ذات رائحة طيبة. (المترجم)*

[٨٥] *نوع معين من كلأ يستعمله الهندوس عند أدائهم بشعيرة "هوم". (المترجم)*

من تملكين الأحصنة الحمراء افرحي بمدحنا لك، وأتِي بثلاثة وثلاثين إلـــهًا إلى هنا. يا "أغني" إن الناس يحفظونك ويشعلونك في بيوتهم دائما كيفما أنت، وأنت السبب وراء حياة الجميع، كوني ذات ثروة لصالحنا. يا "أغني" الفطينة أنت تحرقين نفسك بنفسك، قدِّمي اليوم قرابيننا اللذيذة للآلهة ليأكلوها. إن الإلهة "أغني" التي تبقى شابة دائما فطينة جدا، وتحمي دارَ العابد وتأخذ النذور، ووجهها وسيلة لإيصال النذور إلى الآلـــهة الأخرى، ومستنير من نار البيت. إن "أغني" الخالدة قد مزجت طعامها مع شعلتها بسرعة وعلت الخشبة الجافة إثر تناوله. إن شعلة العنصر المحرق تنمو مثل الحصان الذكي، وتصعد وترعد مثل السحاب. يا "أغني" إن العبادة التي لا يقدر أحد على عرقلتها والتي تحمينها من كل جانب، تصل إلى الآلـــهة. يا "أغني" انفعي مقدِّم النذور قدر ما تستطيعين لأنه سيعود إليك حتما في نهاية المطاف. إن العابد ينال بواسطة "أغني"، سعادة تزداد يوما إثر يوم وهي مصدر ذيوع الصيت وتزيد في نسل الإنسان. فأيها الإله "إندر" وأيها الإله "وايو"، إن هذا الماء قد رُشّ من أجلكما، نذرا لكما فأتيا إلى هنا مع الطعام لنا. فيا أيها الإله "إندر" الذي يمدحه الجميع ويثنون عليه، فليسر فيك عصير الكَرَمة "سُوم"، وليناسبك لتنال الفطنة السامية. إن "إندر" أيضا يستحق جميع المحامد الحسنة التي يمكن كيلها للآلهة الأخرى. إن الذين يتوجهون إلى الإله "إندر" سواء أكان بشأن الحرب أو من أجل الحصول على الأولاد أو العاقلون الذين يطلبون الفهم تتحقق أمانيهم جميعا. إن بطن "إندر" ينتفخ مثل البحر بسبب شرب عصير الكَرَمة "سوم" بكثرة ويكون مبللا دائما مثل البلل في الحلق. إن الإله "إندر" أقوى من جميع الآلهة ويفوقهم جميعا. سلام للآلهة الكبيرة وسلام للآلهة الصغيرة وسلام للآلهة الشابة والآلهة العجائز. نحن نعبد جميع الآلهة قدر استطاعتنا. يا "إندر" ابن العابد "كوسيكا" تعال سريعا واجعلني أنا العابد غنيا ثريا. (لقد ورد في شجرة كتب الهندوس القديمة أن "وِشوا متر" كان ابن "كوسيكا". يسرد "سائن" المفسر

المعروف للفيدات في بيان السبب كيف صار "إندر" ابنا لكوسيكا قصة وهي مذكورة في فهارس تتمة الفيدا أن ابن "كوسيكا اشراتها" تمنّى في قلبه أن يكون له ولدٌ نتيجة توجُّه "إندر" وقام بالمجاهدة والتنسك. ونتيجة المجاهدة وُلد "إندر"بنفسه في بيته، وصار ابنا له.)

إن "إندر" الذي يمدحه أناس كثيرون، هاجم الأشرار وخبثاء النفس برفقة الرياح الجارية وقتلهم بسلاحه. ثم وزّع الأرض على رفقائه البيض وحرّر الشمس والماء. (المراد من الرفقاء البيض هنا هو قطرات الماء كما هو أسلوب الفيدا. ومعنى هذه الأبيات هو أن قطرات الماء التي تبدو بيضاء الملامح بتأثير طبقة الزمهرير سقطت من السحاب على الأرض، بعضها على أرض كذا وبعضها على أرض كذا، وبذلك سال الماء كله وطلعت الشمس. لقد استنبط المفسرون الأوروبيون معنى أن "إندر" وزّع الأراضي، كما يزعم الآريون، على أناس من قوم آريا الذين كانوا بِيضا مقارنة مع السكان القدامى، ولكن هذا المعنى ليس صحيحا، لأن سياق كلام الفيدا يعارض هذا المعنى صراحة).

فيا "إندر" بسببك يكثر الغذاء في كل مكان ويتيسر بسهولة. فيا مَن يُعمل السلاح اجعَلْ المراعي خضراء وأعطنا ثروة هائلة. نرجع إلى "إندر" لنوال شفقته وثروته وقوته الكاملة، لأن "إندر" القوي قادر على حمايتنا بإعطائنا الثروة. فيا أيتها الشمس والقمر اجعلا عبادتنا ناجحة وزِيدا من قوتنا لأنكما خُلقتما لفائدة كثير من الناس، والكثيرون يعتمدون عليكما. عند طلوع الشمس تغيب النجوم مع الليل مثل اللصوص. نتوجه إلى الإلهة "الشمس" التي هي إلهة جيدة ضمن الآلهة كلها فأنقذنا يا قمر من التهمة والذنب. واسعَد لتوكلنا وكن صديقا لنا. فلتزدد قوتك. يا أيها القمر أنت واهب الثروة والمنجّي من المشاكل فأت دارنا مع البواسل الشجعان. يا أيها القمر ويا "أغني" أنتما سواسية من حيث المرتبة فوزِّعا محامدنا فيما بينكما لأنكما رئيسا الآلهة دائما. أدعو الإله "الماء" الذي يشرب منه مواشينا. فلتُقدَّم النذور للأنهار الجارية.

فلتعطف على تقليدنا هذا المياهُ القريبة من الشمس والتي تشارك الشمس. أيتها الإلهة "الأرض" لا تتوسعي كثيرا ويجب ألا تبقى عليك أشواكٌ، ولتكوني مكانا لعيشنا، وأسعِدينا. وليكن الإله "درونا" مواسيا لنا بوجه خاص. وليحمِنا الإله "مترا"، وليجعلنا هذان الإلهان معا أثرياء جدا. يا أيها الإله "مشتري" فلتشفع لنا أنت وزوجك عند آلهة العبادة. يا أيتها الإلهة "أغني" اجمعي الآلهة هنا، وأجلسيهم في ثلاثة أماكن وزيّنيهم، وكوني جليسة للإله "رتو". يا "أغني" مالكة الأحصنة الحمراء وذات اللهيب الأحمر، اجمعي ٣٣ إلها هنا لكونك سعيدة معنا. نحن نعبد "أغني" التي تُشعَل عند مناسبات دينية. فيا "أغني"، إن العقلاء يعبدونك بعد أن وجدوك داعية الآلهة والقائدة في أداء الشعائر الدينية، وواهبة الثروة الكبيرة، والمجيبة سريعا والمعروفة جدا. إن "أغني" تشتعل بالهواء وتقتحم الأخشاب السميكة بسهولة تامة. يا "أغني"، عندما تقتحمين الفلاة مثل الثور يسودّ طريقك حيثما تتوجهين؛ بمعنى أنك تحرقين الأخشاب في طريقك وتحوّلينها إلى رماد، أي تحرقين كل شيء يعترض سبيلك سواء أكان ساكنا أو متحركا. أنا أعبد الإلهة "أغني" واهبة كل ثروة، تلك النار التي فيها ضوء لا يمكن أن يناله أيّ شيء آخر. فهي زينة مكان العبادة كما أن المرأة زينة البيت. "أغني" التي تولدت في الفلاة وهي صديقة الإنسان تحفظ عابدها كما يتلطف الراجا على إنسان ذكي، فلتتلطف علينا أيضا. أيها الإلهة "أغني" عندما تنشئين من احتكاك الأخشاب الجافة يؤدي كل من يعبدك شعيرة مقدسة. فلتسمع بتأنٍّ "أغني" التي تملك الضوء من عدة ألوان لأماني من يعبدها. إن الأصابع تحب "أغني" الحبيبة كما تحب النساء أزواجهن. يا "أغني" عندما يُشعلك العابد في بيته، ويقدم لك النذور التي يتمناها كل يوم، تتضاعفين وتهيئين له مستلزمات الحياة. فليُعطَ "أغني" أي إلهة قوة الهضم التي لها علاقة مع الغذاء للرهبان وخدام العابدين المعروفين مصدرا للرجولة. ثم ليتولّد من "أغني" ابنها القوي والبريء من العيوب والشاب والذكي. فلينَل عابدوك الأثرياء يا

"أغني" قُوتًا كثيرا. ولتكن أعمار أصحاب العلم الذين يمدحونك ويشعلونك طويلة. يجب أن ننال الغنائم من الأعداء في الحروب. في الماء نباتات صغيرة، لذا عليك أيها الراهب أن تستعد لمدح الماء. فيا أيها الماء فلتُعِدّ لفائدة جسمي النباتات التي تقدر على إزالة الأمراض كلها. لقد وقع سلاح "إندر" على أعدائه. وقد أباد مدهم بسهمه الحاد والجيد. ثم توجّه "إندر" بسلاحه إلى "ورترا" وأفرح نفسه بقتله. فيا أصحاب الفلاة، ويا ذوي الملامح المرضية أعِدّوا "لإندر" عصير الكَرمة "سوم" الحلو مع النذور. وأتوا ببقية عصير "سوم" في الأواني وألصِقوه على أوراق الكلأ "كانس". أما ما تبقى منه فضعوه على جِلد البقرة؛ أي على قطعة من جِلد البقرة موضوعة على راحة اليد. يا "إندر" شارب عصير الكرمة "سوم" أعطِنا آلاف البقرات والأحصنة الجيدة واجعلْنا أثرياء جدا وإن كنا لا نستحقها. يا "إندر" الجميل والقوي ومالك الغذاء إن لطفك يدوم، أعطِنا آلاف الأحصنة والبقرات الأصيلة. وأهلِك كلّ من يسبّنا، واقتُل كلَّ من يضرنا، وأعطنا آلاف الأحصنة والبقرات. يا "إندر" الذي يحب خيرنا؛ دبِّر لنا أن ننال طعاما وفيرا وبقرات قوية وحلوبة بكثرة فننال بها رغد العيش ورفاهيته. فيا "إندر" ويا "أغني" أنا الذي أرغب في الثروة أعدُّكما في قرارة قلبي من الأقارب. والإدراك الذي رزقتمانيه ما رزقنيه قط أحدٌ غيرُكما. وبذلك قد نظمتُ في مدحكما أبياتا ذكرتُ فيها رغبتي في الحصول على الرزق. فيا "إندر" ويا "أغني" واهِبا النعم، حيثما كنتما سواء تحت الثرى أو في عالم الفناء أو العالم العلوي.. أي الجنة، فأتيا من هناك إلى هنا واشربا العصير المقدَّم لكما كنذر. ويا "إندر" ويا "أغني" واهبا النعم، حيثما كنتما سواء في ما تحت الثرى أو عالم الفناء أو العالم العلوي.. أي الجنة، فأتيا من هناك إلى هنا واشربا العصير المحضَّر. يا "إندر" ويا "أغني" اللذان يُعمِلان السلاح ويدمّران المدن أعطيانا الثروة وانصرانا في الحروب. فلينتبه إلى دعائنا الإله: "مترا" والإله "ورن" والإلهة "أدتي"، والإله "بحر"، والإلهة "أرض"، والإلهة "شمس" جميعا معا.

ويا أيها الإله "إندر" الذي يرحم الناس؛ أنت أيضا مخلوق ولكن لم يكن لك نظير منذ بدء الخلق إلى اليوم. إنك سند للطبقات الثلاث وكرات النار الثلاث وهذا العالم المليء بالخلق. يا "إندر" الذي يحتل الدرجة الأولى من بين جميع الآلهة، نحن ندعوك. قد حزتَ الانتصارات في الحروب. فليقدّم -"إندر" الذي هو الوليّ ويستأصل جميع الأشياء الممنوعة- عربتنا على الجميع في الحروب. أنت يا "إندر" تنتصر ولكن لا تمنع النهب. نسرِّعك لحمايتنا يا "ميغه واهن" السفاك في الحروب الصغيرة والحروب الكبيرة القاسية. فليكن "إندر" قريننا. ولنحصل على الطعام بكثرة بالطريق السليم. وليحافظ الإله "مترا" والإله "ورن" والإلهة "أدتي" والإله "بحر" والإلهة "أرض" والإله "سماء" على الغذاء من أجلنا. نحن نقدم نذرًا عصير الكرمة "سوم" لإندر الذي يُنجز المهام الكثيرة وهو أفضل من الآلهة كلها، ومعطي النعم وبطل شجاع صاحب القدرات الحقة ومراعي الثروة وينــــزعها من الذي لا يعبد -كما ينــــزع الناهب من المسافر- ويعطيها للعابد. فيا إندر يمدحك الجميع فارحمنا حتى لا يلحق بنا ضرر من الآخرين. أنت قوي فاحفظنا من الظلم والاعتداء. ويا أيها الناس إن السبب وراء حياتكم اليومية هو "إندر" الذي يهب -عند طلوع أشعة الفجر- العقل لمن لا عقل له ويهب الشكل لمن لا شكل له. ويا "إندر" لقد عثرتَ -برفقة الإله "مروت" أي الهواء الذي يذرّ كل شيء ويصل إلى أماكن صعبة- على البقرات التي أخفاها اللصوص في المغارات. فيا أيها الإله "مروت" والإله "إندر" الشجاع اظهرا مسرورينِ مع العظمة والشوكة المتساويتين. فيا أيها الإله الذي لا يُغلَب انصُرنا في الحروب التي نحصل فيها على غنائم كثيرة. نحن ندعو -من أجل راحة البال والحصول على ثروة كبيرة- الإلهَ "إندر" الذي ينصرنا ويُعمل السلاح مقابل أعدائنا. فيا منــــزِّل الأمطار ومحقِّق الأماني نزِّل المطر علينا من هذا السحاب فإنك تحقق طلباتنا دائما. ندعوك يا "إندر" منــــزِّل المطر والمالك القوي الذي يحقق الطلبات دائما ويهب الناس قوة منه كما يحافظ الثور على

قطيع البقرات. فيا "إندر" الموجود في الناس في كل مكان ندعوك، فلتكن لنا وحدنا. يا "إندر" عندنا سلاح شخصي لحمايتك وبواسطته ننتصر على أعدائنا. إن الإله "إندر" قوي جدا ويحتلّ مرتبة عليا، فلتكن العظمة والشوكة كلها في يد حامل البرق دائما. وليكن جيشه الجرار عظيما دائما مثل السماء. يجب أن يُردد الغناء والمدح الجديد بالإله "إندر" لكي يشرب عصير الكرمة "سوم". تعال هنا أيها الإله "إندر" واحصُل على القوة بشرب أنواع من العصير المنذور وبأكل أنواع الأطعمة، وانتصِر على أعدائك. يا "إندر" واهب النعم وحامي الذين يعبدونك قد مدحتك مدحا وصلك وقد قبلتَه. يا "إندر" الغنيُّ شجِّعنا على ممارسة هذا الطقس للحصول على الثروة لأننا مجتهدون ومعروفون. يا "إندر" هب لنا ثروة لا تُعدّ ولا تزول وهي مصدر الدواب والغذاء والحياة. يا "إندر" اجعلْنا معروفين وأعطِنا ثروة تُنال بآلاف الطرق. وأعطنا مواد غذائية تأتي من الأراضي في العربات. ندعو "إندر" -بالمدح لحماية أموالنا- الذي يملك الثروة ويمدحه الناس ويتردد على مكان العبادة. يا "إندر" إن قراء "شام الفيدا" يمدحونك كما يمدحك قراء "ريغ الفيدا" لأنك تستحق المدح. وإن البراهمة يُعلونك مثل الخيزران. إن "إندر" واهب النعم مطّلع على ما يبتغيه عابده الذي عبد بكثرة على قمم الجبل بالإتيان بكرمة "سوم". لذا يأتي الإله "إندر" مع فوج الإله "مروت". يا "إندر" شارب عصير "سوم" فأتِ إلى هنا مستخدمة أحصنة وجميلة ذات شعر طويل على رقبتها في النِير لتسمع مدحنا لك. فيا أيها الإله "واسو"، تعالَ واحضرْ عبادتنا هذه. وتقبّل ضراعتنا ومحامدنا، واستجب أدعيتنا، وارحم عبادتنا، وأعطنا رزقا وفيرا. الآيات التي هي مدعاة للتقدم يجب قراءتها مرارا وتكرارا في مدح "إندر" الذي يشتت الأعداء الكثيرين كي يتحدث هذا الإله القوي معنا ومع أولادنا ومع أصدقائنا بلطف. نرجع إلى "إندر" طمعا في لطفه ولنيل الثروة والقوة الكاملة لأن "إندر" القوي قادر على حمايتنا بإعطائنا الثروة. يا "إندر" حين تهلك أعداءك لا تقدر

السماوات والأرض أن تكون سندا لك. إن إنزال المطر في قدرتك، فأعطنا البقرات بسخاء. يا "إندر" الذي يستحق المديح فلنمدحك دائما. فلتزدد قوتك نتيجة هذا المديح يا طويل العمر. وليعجبك مدحنا لك لكي نسعد. نحن نختار "أغني" رسولَ الآلهة كلها وداعيتها وذات ثروة كبيرة ومكمِّلة العبادة. يا "أغني" المضيئة قد دعوناك منذ مدة طويلة بأداء تقليد "هوم". فأحرِقي أعداءنا الذين تحميهم أرواح خبيثة. امدحوا في العبادة "أغني" التي هي عاقلة كبيرة وصادقة ومضيئة ومزيلة المرض. يا أغني المضيئة ورسول الآلهة، احمِي مقدِّم النذور الذي يعبدك. فيا أيها المزكّي تلطّف على الذي يحضر عند أغني لإسعاد الآلهة. يا أغني المضيئة والمزكّية ائتِي بالآلهة في عبادتنا ونذورنا. لقد مدحناك بقراءة آيات وأبيات أُلِّفت في الأخير. ارزُقينا الطعام والثروة التي هي مصدر الأولاد. يا أيتها الإلهة أغني قدّمي نذورنا إلى الآلهة. فليحصل موصلة النذور أي "أغني" على علم مقابل ذلك. يا أغني احضُري عبادتنا مع جميع الآلهة لشرب عصير "سوم" وقدِّمي النذر. يا "أغني" العاقلة إن الصلحاء يعبدونك ويمدحونك. فتعالي يا أغني مع الآلهة. يا "أغني" أشركي في هذا النذر مروِّجي الحسنات أي الآلهة التي نعبدها وزوجاتها. يا صاحب اللسان المنير قدِّم لهم عصير "سوم" للشرب. واسقِي تلك الآلهة التي نعبدها ونمدحها عصير "سوم" عند أداء التقليد "هوم". يا إلهة "أغني" سخِّري أنثى خيلك القوية التي نسميها "أنثى الخيل الحمراء" في مركبتك وأْتِي بالآلهة هنا بواسطتها. يا أغني، يا واهبة الإنعام والمشاركة في العبادة مع الإله "رتو" كوني نار البيت واعبدي الآلهة من أجل العابدين. لقد دعوناك يا أغني بكل شوق لشرب عصير "سوم"، فتعالي مع الإله "مروت". لا خيار لإله ولا لإنسان في هذه العبادة التي حصلت لك يا أيتها القوية. فتعالي يا "أغني" مع "مروت". يا أغني ائتِي إلى هنا بزوجات الآلهة الجميلات والعروس الحديثة العهد لشرب عصير "سوم". يا أغني أخبري الآلهة عن نذورنا وأبياتنا الجديدة. يا أغني كنت العابدة "انغرا" قبل غيرك، وكنت إلهة ونصيرة الآلهة. في

أثناء عبادتك وُلدتْ "مروت" العاقلة والفهيمة وصاحبة السلاح اللامع. يا أغني التي هي الأولى وزعيمة العابدين كلهم، إن عبادة الآلهة تنال البركة بسببك أنت. أنت عاقلة وذات ألوان مختلفة. وفهيمة لفائدة الدنيا كلها، ومن أولاد أصحاب العلم، وقد تشكَّلت بأشكال طيبة لفائدة الناس. يا أغني الحاصلة على الأفضلية على الهواء أرِي وجهك لعابدك ليعلم أن عبادته مقبولة. إن السماء والأرض تهتز لقوتك. لقد حملت الحِمل الذي كُلِّف به الموجِّه إلى العبادة. أنت عبدت الآلهة الكبيرة. يا أغني أنت تحققين الأماني، وتزيدين في ثروة العابدين. نحن نعبدك من أجل الثروة، فانشري صيت من يؤدي تقليد "هوم". فلنوفَّق لأداء هذا التقليد مع الأولاد الذين نوهَب بفضلك. أنقذينا مع الأرض والسماء وجميع الآلهة. يا أغني أزِيلي عنا خطأنا هذا واعفِي عنا على ما ضللنا الطريق، يجب أن نمدحك لأنك تحمين الذين يقدمون لك النذور التي أنت أهل لها. يا أغني المقدسة التي تذهبين إلى كل مكان للحصول على النذر، اذهبي إلى غرفة العبادة بحذائك كما كان الراجات من منو وتياتي وأنغرا يذهبون في الزمن القديم، وأتِي بالآلهة إلى هنا وأجلسيهم في مكان مقدس، وقدِّمي لهم تضحية يكونون بسببها شاكرين. ويا أغني فلتنالي التقدم بناء على آيات الفيدا التي نتلوها بحسب علمنا، واجعلينا أثرياء وهبي لنا العقل الطيب والطعام الكثير. بتلاوة الآيات نُرضي الأغني -التي يمدحها العابدون الآخرون أيضا- لفائدة كثير من الناس الذين يعبدون الآلهة. الناس يتوجهون إلى أغني التي تزيد من القوة. يا أغني نعبدك بتقديم النذور. يا واهبة الطعام الكثير كوني لطيفة بنا اليوم. يا أغني أنت تهبين السرور وتدعين الآلهة وتحمين الرسل والناس، وقد اجتمعت فيك جميع الأعمال الصالحة التي يقوم بها الآلهة. يا أغني المتفائلة، فلترضَي بكلّ ما نقدمه ثم قدِّميه الآن أو في وقت آخر إلى الآلهة القوية. يا أغني إن عابدك يعبدك بهذه الطريقة ولكنك مضيئة بحد ذاتك. إن الناس يُشعلون -بمساعدة العابدين السبعة وأداء تقليد "هوم"- الأغني التي تغلب أعداءهم. يا

أغني التي تفني قد قتلت "ورترا" بمساعدة الآلهة الأخرى. إن الآلهة جعلت الأرض والجنة والسماء مكانا واسعا للخلق. فلتتلطف الأغني الثريّة بـــ "كانوا" عند الضرورة كما يحمحم الحصان للدابة عند القتال. نحن نحمد أغني التي أضاءها "كانوا" أكثر من الشمس وتلمع أشعتها بكرامة. نحن نُعليها. يا "أغني"، واهبة الغذاء املئي كنوزنا لأن صداقة الآلهة تُنال بواسطتك. أنت تملكين الأغذية من عدة أنواع. فأسعِدينا لأنك عظيمة. كوني يا "أغني" مثل الإلهة الشمس لحمايتنا. قومي مستقيمة. أنت واهبة الرزق وبسبب ذلك ندعوك بتقديم نذر "المرهم" ويقدم العابدون نذورا لك. يا "أغني" الشابة واللامعة أنقذينا من الأرواح الخبيثة والإنسان ذي الضغينة الذي لا يعفو، ومن الحيوانات المؤذية ومن الناس الذين يفكرون في تدميرنا. يا "أغني" قد حبسك "منو" للإضاءة على أجيال الناس الكثيرة. وأنت التي خُلقت لتُعبدي وتشبعين بالنذور، والتي يسلِّم عليها الناس جميعا، قد صرت مضيئة. إن شُعَل "أغني" مضيئة وقوية ومهيبة فلا ينبغي الثقة بها. فإنها تحرق دائما وحتما الأرواح الخبيثة القوية ومعاندينا الآخرين. فيا "أغني" الثرية ومغيثة المخلوقات كلها، ائتِي بثروة كبيرة مع البيت المزخرف إلى من يقدّم النذور منذ الصباح. وأتِي هنا بالآلهة مبكرا. نختار اليوم أغني التي هي الرسول وواهبة البيوت والمحببة عند الناس وذات راية الدخان وواهبة الضوء وحامية العابد الذي يعبد في الصباح الباكر. أمدح وأثني صباحا على أغني التي هي أفضل الآلهة كافة وأصغرها سنًّا، وضيفة لدى الناس، ويدعوها الناس جميعا، وتصادق مقدِّمَ النذور، وتعرف الخلق كله لتأتي بالآلهة الأخرى. يا أيتها العابدة والعالمة بكل شيء إن جميع الناس يُشعلونك ويدعوك الناس الكثيرون، فأتِي بالآلهة العاقلة هنا بسرعة. إنك يا "أغني" تحافظين على عبادة الناس ورسول الآلهة، فأتي هنا بالآلهة التي تستيقظ صباحا وتتنبه إلى الشمس. يا أيها الإلـــهان "أسونُوانِ" استيقظا في الصباح للعبادة، فلتأتيا إلى هنا لتشربا عصير "سوم". نحن ندعو "أسونوان" وهما إلـــهَانِ اثنان ويسوقان عربة

بمهارة فائقة ويركبان عربة جميلة ويصلان إلى الجنة. أيها الإلهان "أسونوان" حرِّكا عصير "سوم" بسوطكما الطري بزَبَد أحصنتكما والذي يصدر بوقوعه صوتٌ عالٍ. ويا أيها الإلهان "أسونوان" إن مكان إقامة المكلَّف بأداء تقليد "هوم" ليس ببعيد منكما حيث تذهبان راكبين عربتكما. أدعو لحمايتي شمسا ذات اليد الذهبية. إنها تحدد مراتب العابدين. احمَدوا من أجل حمايتنا الشمس التي ليست نصيرة للماء. وإننا نتمنى عبادتها. اجلسوا أيها الأصدقاء، سنمدح الشمس في الحقيقة لأنها واهبة الثروة حقيقةً. إن العقلاء يتنبهون إلى درجة الشمس السامية هذه، كلما تحوّل النظر في السماء فإن العقلاء المتحمسين والنشطاء في كيل المديح مدحوا مرتبة الشمس السامية. إن أحصنة الإلهة "شمس" العالم بكل شيء تأخذها إلى العلا لكي تتراءى للدنيا كلها. إنك يا شمس تسيرين أكثر من غيرك وملحوظة لدى الجميع، أنت مصدر الضوء وتسطعين في السماء كلها. أنت أيتها الشمس تطلعين أمام الإله "مارت" وأمام الناس بحيث يراك العالم العلوي. تطلعين بضوء تطهِّرين به وتنقذين من السوء. إنك تعبرين السماء الواسعة مقدّرة الليل والنهار وشاهدة الخلق كله. فيا أيتها الشمس تجلِّي بضوء مريح ساطعةً على السماء العليا فأزِيلي مرض قلبي وصُفرة جسدي. نذهب إلى الشمس التي هي إلهة مختارة من بين الآلهة ناظرين الضوء وراء الظلام. وأيها الإله القمر أنت محسن إلى كل عامل. وأنت قوي ومحيط بالكل بسبب قواك. إنك معطي النعم نتيجة سخائك، وصالح لصلاحك. يا مرشد الإنسان قد تربَّيت كثيرا بسبب النذور والعبادات. إن أعمالك مثل أعمال الراجا "ورن". إن كلامك أيها القمر كبير. إنك مطهِّر الجميع مثل الإله "مترا" العزيز. ومُنَمِّي الجميع مثل الإله "اريَمَن". ولما كنت تملك الأدوات كلها التي تظهر بسببك على السماء والأرض والجبال والماء؛ عامِلنا أيها الراجا القمر بالحسنى، واقبل نذورنا دون عتاب. فأيها القمر الذي يشتاق إلى المدح وهو أستاذ الأشجار أنت روحنا، فلن نموت إذا أردتَ ذلك. إن الذي يعبدك أيها

القمر سواء أكان شابا أو شيخا تهبه الثروة لكي يستفيد منها ويعيش. فاحفظنا أيها الراجا القمر ممن يفكر في إلحاق الضرر بنا، فإن صديق إلهٍ مثلك لا يمكن أن يموت أبدا. فيا أيها الإله "قمر" ساعدنا واحفظنا بأسلوب يسرّ به مقدّم النذور. تقبَّل تضحيتنا ومديحنا هذا، وتعال إلينا أيها الإله القمر وارزق تقليدنا تقدّما. لأننا نعرف آيات الفيدا لذا نرفع من منـــزلتك بالمدح والثناء. تعال إلى هنا يا أيها القمر الكريم. ويا واهب الثروة، والعارف بثروتنا الضائعة والمضيفُ في رزقنا كن ناصِرَنا القوي. يا إله "القمر" كن سعيدا في قلوبنا كما تسعد الدواب في المراعي أو يكون الإنسان سعيدا في بيته. فلتأتك القوة من كل جانب يا إله القمر، فلتكن نشيطا في تهيئة الطعام لنا. أيها الإله القمر السعيد تقدَّم مع الثيران كلها. كن صديقا لنا. هب لنا الطعام الوفير لنـــزدهر وننمو. إن الذي يقدم النذور يعطيه الإله القمر بقرة حلوبا وحصانا نشيطا وابنا نشيطا في التجارة والأمور العائلية والعبادة وذكيا في المجالس والمحافل وسببا لتكريم والده. فيا أيها الإله "قمر" نسعد باعتبارك منتصرا في القتال في حزب آلاف الناس البواسل والذي لا تزول قوته، والمولود في وسط العبادات ومقيما في منـــزل مضيء، ومعروفا وباسلا. يا إله القمر، قد خلقتَ أشجار الماء هذه والبقرات، ومددتَ السماء الواسعة وبدّدت الظلام بالنور. فيا أيها الإله "القمر" القوي أعطنا جزءا من ثروتك بفراستك المتّقدة، فلا يزعجنك أحد من معارضيك. أنت تفوق شجاعة المخالفَينِ المتساويين قوة. أنقذنا من أعدائنا في القتال. تأتي الشمس وراء صبح منير كما يمشي الشاب وراء امرأة جميلة. عندها يؤدي الملتزمون بالدين تقاليد محددةً بأوقاتها، ويعبدون الشمس المباركة بُغية إنعام جيد. إن أحصنة الشمس القوية الأرجل والأيدي والسريعة التي تعبر الطرق والتي عبدناها وهي جديرة بالمديح قد وصلت إلى قمة السماء، وقد جالت حول الأرض والسماء سريعا. إن الشمس تملك الجلال والألوهية بحيث عندما تغرب تضم في طياتها الضوء المنتشر الذي كان منتشرا بصورة ناقصة.

وعندما يطلق أحصنته تعمّ حلكة الليل جميعا. تُظهر الشمس صورتها المضيئة أمام الإله "مترا" والإله "ورن" في وسط السماء. وإن أشعتها تنشر قوتها المنيرة جدا. ولكنها عندما تتولّى يأتي الليل بالحلكة. فيا أيتها الآلهة أنقذونا اليوم من الأمور السخيفة مع شروق الشمس. فلتسمع الآلهة "مترا" و"ورن" و"أدِتي"، و"بحر" و"أرض" و"سماء" أدعيتنا بانتباه جيد."

والآن يجب أن يفكر قراء هذا الكتاب *(الفيدا)* بأنفسهم هل يمكن الاطلاع على وجود الله ﷻ من خلال كل هذا الكلام الذي كتبنا كمًّا هائلا منه هنا وسوّدنا به صفحات عديدة؟ وليخبرنا أتباع آريا سماج بالعدل والإنصاف أية بلاغة أبداها "ريغ فيدا" لإظهار مقصوده من خلال هذه العبارات؟ فليقولوا بأنفسهم هل بيانه هذا قويٌّ ومدعوم بالأدلة مثل البيانات الفصيحة أم هو واهٍ وبذيء؟ لا يخفى على المنصفين أن الكلام المذكور في هذه النصوص لغو وبلا معنى في حد ذاته ويترك القارئ في حيرة من أمره بدلا من أن يبين حقيقة الأمر بأسلوب حسن وينشر الحق والصدق. إذ يعدُّ شيئا خالقا تارة ويطلب منه مراداته، ويعدُّ الشيء نفسه مخلوقا ومحتاجا لغيره تارة أخرى. وفي بعض الأحيان يعتقد بوجود صفات الله تعالى في شيء ثم يعزو إلى الشيء نفسه صفات الأشياء الفانية. من الواضح أن الذي أسهب في الكلام إلى هذا الحد دون أن تكون له نتيجة معقولة، فلم يدّع التوحيد ولم يشرحه على ما يرام، ولم يدع عبادة المخلوق ولم يثبته كذلك، بل أدلى كشخص مذعور ومختلّ الحواس ببيان متناقض لا أصل له، مما أدى إلى تطرّق فوضى عجيبة إلى الديانة الهندوسية، حتى كان منهم من يعبد إلها ومنهم من يتغنى بأغاني مدح إله آخر، هل يمكن أن يكون هذا البيان السخيف والتافه جديرا بأن يعُدّه عاقل فصيحا وبليغا؟ قد تختلج وسوسة في قلوب بعض الهندوس الذين سمعوا اسم الفيدا فقط ولم يقرأوا هذا الكتاب "الطاهر" قط أن الكلام الذي نقلتُه من "ريغ فيدا" لم يُنقل بصورة صحيحة، أو قد يكون في الفيدا المذكور كلامٌ أبلغ وأفضل من هذا في بيان

وحدانية الله تعالى، أو يكون هناك بيان مبني على الفصاحة والبلاغة ومدعوم بالأدلة عن عبادة المخلوق، فأقول جوابا لهؤلاء المرتابين بأني اقتبستُ هذه الفقرات كلها نموذجا من "ريغ فيدا" سنتها استك ١، سكت ١ إلى ١١٥(*الفصل الأول، البند ١ إلى ١١٥*)، وإذا كان أحد يدّعي بأن هذه الفقرات ليست صحيحة فيجب على هذا المرتاب أن يقدم ترجمتها الصحيحة بحسب رأيه ليرى المنصفون هل الكلام الذي قدّمته أنا هو الصحيح أم الذي يقدمه هو. أما إذا كان أحد يدّعي أنه يوجد في "ريغ فيدا" نفسه كلام يحتوي على بيان وحدانية الله تعالى بكل جلاء ووضوح وبحسب مقتضى الأدب -مع أن الكلام المقتبس قبل قليل لغو وبلا معنى- فعليه أن يقدمه إلى جانب الكلام المقتبس هنا حتى تثبت بلاغة الفيدا وحسن بيانه بأي طريقة ممكنة وببذل أقصى جهود ممكنة. إنني لا أخالف أحدا لعناد دون مبرر، بل أقول بصدق القلب بأني قرأت الفيدا بتدبر وتأنٍّ ووجدته بعيدا كل البُعد عن أسلوب البيان المعقول. وأقول بأسف شديد: كيف يروق مثل هذا الكلام المبعثر لقلوبِ الآريين؟ وكيف يعشقون مثل هذه الأفكار غير الناضجة والسخيفة؟ إذا كان كلام الفيدا فصيحا وبليغا مع هذا الإسهاب العبثي ولغو البيان وتخبّط المضمون، فأيّ كلام في الدنيا يمكن أن يسمَّى غير فصيح؟ إذا كان الآريون لا يعرفون ما معنى الكلام الفصيح، فعليهم أن ينظروا بعيون مبصرة -مقابل كلام الفيدا المطوَّل عبثا المذكور آنفا- إلى بضع آيات من القرآن الكريم ليروا كيف يبين مسائل كثيرة عن وحدانية الله ﷻ بكمال الدقة والإيجاز وفي عبارة وجيزة قلّت ودلّت، وكيف يرسخ في القلب مسألة التوحيد بكل سعي وجهد، وكيف ينقش في القلوب الصافية توحيد الله تعالى ببيان فصيح ومدعوم بالأدلة. إذا كان كلام مثله موجودا في الفيدا فليُقدموه، وإلا فالاستمرار في بذيء الكلام وعدمُ الامتناع عن الخبث والشر مع عدم القدرة على الجواب إنما هو فعل الذين لا يعيرون أدنى اهتمام لله ولا للأمانة، وليس لهم أدنى علاقة مع الحياء.

والآن أكتب على سبيل المثال، مقابل كلام الفيدا، بعض الآيات القرآنية التي تبين وحدانية الله تعالى لكي يعلم الجميع أيّ من العبارتين -عبارة الفيدا أو القرآن الكريم- تتسم بالجمال والإيجاز وقوة البيان، وأيتهما تدفع المرء إلى أنواع الشكوك والشبهات وسخيفةٌ ومطوَّلة عبثا. ففيما يلي تلك الآيات الكريمة:

﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ٢-٥)، ﴿لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٣)، ﴿مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (المؤمنون: ٩٢)، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٥٧)، ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٦-١٩٨)، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٥)، ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٦٩)، ﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٧٢)، ﴿وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل: ٥٨)، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (النجم:٢٢-٢٣)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢-٢٣)، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ (الزخرف: ٨٥)، ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٤)، ﴿لا

تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، ﴿لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٢)، ﴿خلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٣)، ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٧١)، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٩)، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١١)، ﴿لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٤)، ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٩)، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَينِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٤)، ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ (لقمان: ١٦)، ﴿إِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٨-١٩)، ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد: ١٥)، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَينَ أَيدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٩)، ﴿وَللهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨١) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ (العنكبوت: ١٨) ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ﴾ (الحج: ٣١)، ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٩٦)، ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٨)، ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤١)، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ

عَبْدًا﴾ (مريم: ٩٤)، ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (النساء: ١٧٢)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٧٤-٧٥)، ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ١٦٦)، ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٠١)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَولَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠-٣١)... ﴿مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (مريم: ٣٦)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَينَهُمْ يومَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج: ١٨-١٩).

وفيما يلي ترجمة معانيها: إن الله الجامع للصفات الكاملة والذي وحده يستحق العبادة؛ وجوده بديهي الثبوت لأنه حيٌّ بذاته وقائم بذاته، ولا شيء سواه حيٌّ بذاته وقائم بذاته، بمعنى أنه لا توجد في أيّ شيء سواه ﷻ صفة أن يكون موجودا بذاته دون علة موجدة ولا يمكن أن يبقى قائما، أو أن يصبح أيّ شي علة موجبة لهذا العالم المخلوق بكمال الحكمة والترتيب المحكم والموزون. وإن هذا الأمر يُثبت وجود خالق هذا العالم جامع الصفات الكاملة.

وتفصيل هذا الاستدلال الدقيق أنه من الثابت بداهةً أن كل ما يلاحَظ من الموجودات في العالم إن وجوده وبقاءه ليس ضروريا بحد ذاته. فمثلا: الأرض كرويّة الشكل، وقطرها بحسب رأي البعض يقدَّر بـــ ٧٩٢٦ ميلا تقريبا، ولكن لا يقوم دليل لماذا كان هذا الشكل وهذا القدر ضروريا لها، ولماذا لا يجوز أن تكون أكبر من ذلك أو أقل، أو لماذا لا يجوز أن تكون على شكل غير شكلها الحالي وتتشكل بشكل آخر؟ فلمّا لم يقم على ذلك دليل فإن هذا الشكل والمقدار الذي بمجموعه يسمَّى "الوجود" لم يعُد ضروريا للأرض. وقياسا على ذلك قد صار وجود جميع الأشياء الموجودة في العالم وبقاؤها غير ضروري بذاته. ولا يقتصر الأمر على أن وجود كل شيءٍ ممكنِ الوجود ليس ضروريا نظرا على ذاته، بل نرى في بعض الحالات أسبابا لانعدام معظم الأشياء ولكنها مع ذلك لا تنعدم. فمثلا تحدث أحيانا مجاعة شديدة أو يتفشى وباء خطير، ومع ذلك لا تزال بذرة كل شيء محفوظة منذ بدء الخليقة، بينما كان جائزا عند العقل بل واجبا أن تنعدم نهائيا مرةً على الأقل -من بين آلاف المرات التي حلت فيها الشدائد والحوادث بالدنيا منذ الأزل- من على وجه الأرض (عند حلول المجاعة) الغلالُ التي عليها مدار طعام الإنسان، أو أن يتلاشى قسم منها أو لا يبقى على وجه البسيطة أيّ بشر نتيجة شدة الوباء أو ينقرض نوع من الأنعام، أو يختل نظام الشمس أو القمر صدفة أو يحدث خلل في شيء آخر من بين أشياء كثيرة مهمة لبقاء نظام العالم على ما يرام؛ لأن سلامة بلايين الأشياء من الاختلال والفساد وعدم حلول الآفة بها هو أمر متعذر على الفهم. بل إن تطرق الفساد بين حين وآخر إلى الأشياء التي ليس وجودها ضروريا ولا بقاؤها هو الأقرب إلى القياس من وجودها وبقائها. فإن في وجودها وبقائها على ترتيب محكم وتركيب أبلغ وعدم انعدام أيّ شيء من بين ملايين الأشياء الضرورية في العالم وعدم تعرّضها للزوال دلالة صريحة على أن لها محيِيًا ومحافظا وقيوما جامعا للصفات الكاملة، وهو المدبر والحكيم والرحمن والرحيم والأزلي

والأبدي في ذاته، ومنـــزَّه عن كل نقيصة، لا يصيبه موت ولا فناء، بل هو منـــزَّه عن النعاس والنوم الذي يشبه الموت. فهذا هو الإله الجامع للصفات الكاملة الذي خلق هذا العالم مراعيا الحكمة الكاملة وعلى أحسن تقويم، وفضّل الوجود على العدم. وهو الذي يستحق العبادة لكماله وخالقيته وربوبيته وقيوميته. إلى هنا كانت ترجمة معاني الآية: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَومٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

والآن يجب أن يرى المرء بنظر الإنصاف كيف أقام القرآن الكريم في هذه الآية دليلا على وجود خالق العالم بكمال البلاغة والدقة والمتانة والحكمة، وكيف جمع في كلمات وجيزةٍ معاني كثيرةً ودقائق حكيمة، وأثبت وجود الخالق كامل الصفات لـــ "ما في السماوات وما في الأرض" بدليل محكم بحيث ما وسع إلى يومنا هذا حكيما من الحكماء أن يُدلي ببيان كامل وشامل مثل بيانه. بل الحق أن الحكماء ناقصي الفهم لم يعدّوا الأرواح والأجسام أيضا حادثة، وظلوا يجهلون السر الدقيق أن الحياة الحقيقية والوجود الحقيقي والقيام الحقيقي مسلَّم به لله تعالى وحده. وإن هذه المعرفة الدقيقة إنما تتسنى للمرء من هذه الآية التي قال الله تعالى فيها إن الحياة والبقاء على وجه الحقيقة لله وحده الذي هو جامع الصفات الكاملة ﷻ، ولا وجود ولا قيام حقيقي لأيّ شيء سواه. فقد قدّم هذا الأمر دليلا على ضرورة وجود خالق العالم وقال تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بمعنى أنه ما دام العالم لا يحظى بحياة حقيقية ولا ببقاء حقيقي، فكان بحاجة حتما إلى علة موجبة ينال بسببها الحياةَ والبقاء. ولا بد أن تكون تلك العلة الموجبة إلها جامعا للصفات الكاملة ومدبّرا بمشيئته وحكيما وعالما بالغيب. فذلك الذات هو الله تعالى، لأن "الله" بحسب مصطلح القرآن الكريم اسم لذات جامع للكمالات التامة، لذلك فقد عُدَّ الاسم "الله" في القرآن الكريم موصوفا لجميع الصفات الكاملة، وقال في عدة آيات إن

الله رب العالمين، والرحمن والرحيم والمدبر بمشيئته والحكيم وعالم الغيب والقدير والأزلي والأبدي وما إلى ذلك.

فقد صار مصطلحا في القرآن الكريم أن "الله" هو اسم لذات جامع للصفات الكاملة كلها. فمن هذا المنطلق أورد الله تعالى اسمَ "الله" على رأس هذه الآية فقال تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. أي أن قيومَ هذا العالم الفاني هو ذاتٌ جامع الكمالات. وبذلك أشار إلى أن هذا العالم موجود ومرتَّب بترتيب محكم وتركيب أبلغ؛ فمن الباطل الزعمُ أن بعضا من هذه الأشياء قد تكون بمنــزلة العلة الموجبة لبعضها الآخر، بل إن هذا العمل الحكيم المبني على حكمة كاملة يحتاج إلى خالق قادر بمشيئته، وحكيم وعليم ورحيم وغير فانٍ ومتصف بجميع الصفات الكاملة. فذلك الخالق هو "الله" ﷻ الحائز على كمال تام في ذاته.

فبعد إثبات وجود صانع العالم كان من الضروري التوضيحُ لطالب الحق أن ذلك الخالق منــزَّه عن كل أنواع الشراكة، وهذا ما أشار ﷻ إليه في: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ ... انظروا الآن كيف تبيِّن هذه العبارة الوجيزة التي لا تبلغ حتى سطرا واحدا تنــزيه الله تعالى من كل أنواع الشراكة بكل دقة وحسن بيان! وتفصيل ذلك أن الشراكة عند العقل أربعة أنواع حصرا: الشراكة في العدد، أو في المرتبة، أو في النسب أو في الفعل والتأثير. ففي هذه السورة ذُكر تنــزيه الله تعالى عن الشراكة بأنواعها الأربعة، وقيل بصراحة تامة إنه تعالى واحد من حيث العدد وليس اثنان أو ثلاثة. وهو "الصمد" أي وحيد فريد من حيث مرتبة وجوب وجوده وكونه يُحتاج إليه، وكلّ ما سواه إنما هو ممكن الوجود وهالك الذات ومحتاج إليه ﷻ في كل حين وآن. وهو: ﴿لم يلِدْ﴾ أي ليس له ابن حتى يكون شريكا له لأنه ابنه. وهو: ﴿لَمْ يولَد﴾ أي ليس له أبٌ حتى يكون شريكا له لأنه أبوه. وهو: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا﴾ أي ليس هناك كفوٌ في أفعاله حتى يُعدَّ شريكا له من حيث الفعل. فبذلك صرّح أنه تعالى

منـــزَّه عن الشراكة من الأنواع الأربعة كلها، وهو واحد لا شريك له. ثم أقام دليلا عقليا على أنه واحد لا شريك له فقال تعالى: ﴿لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ وقال تعالى أيضا: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ.. إلخ﴾ أي لو كان في الأرض والسماء إله سوى الله الجامع للصفات الكاملة لفسدتا، لأنه كان من المحتّم أن تعمل تلك المجموعة من الآلهة في حين من الأحيان عملا تخالف فيه بعضها بعضا، فيتطرق الفساد إلى العالم بسبب هذه الفُرقة والخلاف والفساد. وكذلك لو كان هناك أكثر من خالق لأراد كل واحد منهم خيرا لخلقه هو، ولأجاز هلاك المخلوقات الأخرى لصالح خلقه هو. ولكان من شأن هذا العمل أيضا أن يؤدي إلى فساد العالم. إلى هنا أثبت من خلال الدليل اللِمِّي أن الله ﷻ واحد لا شريك له. ثم بيّن بعد ذلك الدليل الإنِّي على كونه واحدا لا شريك له فقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا...﴾، أي قل للمشركين ومنكري وجود الله إنه إذا كان هناك شركاء آخرون في ما خلق الله ﷻ، أو كانت الأسباب الموجودة وحدها كافية فادعوا الآن -بحيث تُغلبون مقابل دلائل صدق الإسلام وعظمته وقوته- شركاءكم لينصروكم، واعلموا جيدا أنهم لن يقدروا على أن يكشفوا ضُرَّكم ولن يقدروا على أن يكشفوا الغمة التي أنتم فيها. وقل أيها الرسول للمشركين أن ادعوا مقابلي شركاءكم الذين تعبدونهم، ثم كِيدوا لإفشالي كل كيد ولا تُمهلوني قط. واسمعوني جيدا وعُوا أن وكيلي ونصيري ووليّي هو الله الذي أنزل القرآن وهو يتولّى رسله الصادقين والصالحين. أما الأشياء التي تدعونها لنصرتكم فلن تقدر على ذلك كما لا تستطيع أن تنصر أنفسها. ثم بيّن كون الله ﷻ منـــزَّها عن كل عيب ونقيصة انطلاقا من قانون الطبيعة، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾ أي أنّ السماوات السبع والأرض وكل ما فيهما يقدّس الله، وليس هناك شيء لا يقدِّسه ولكنكم لا تفقهون تقديسه. بمعنى أن التفكير في السماء والأرض يُثبت كمال الله تعالى

وتقديسه وتنـــزيهه عن الأبناء والشركاء، ولكن للذين يفقهون. ثم أدان عبدَة المخلوق وأكد أنهم مخطئون وقال: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ...﴾ أي يقول البعض إن لله ابنا مع أن الاحتياج إلى الابن نقيصة، والله تعالى بريء من كل نقيصة. فهو "الغنيّ" و"الصمَد" وليس بحاجة إلى أحد، إذ له ما في السماوات والأرض. هل تفترون على الله بما ليس لكم به أدنى علم؟ أنّى له ﷻ أن يكون محتاجا إلى الأبناء؟ هو كامل وقادر وحده على أداء مهام الألوهية ولا حاجة له لأيّ تخطيط آخر.

يقول البعض إن لله بناتٍ، مع أنه منـــزّه عن النقائص كلها... إذ قد خلق كل شيء، وليس كمثله شيء. وإنَّ أوضح دليل على أنه الخالق هو أنه خلق كل شيء محصورا ومحدودا في قدر معلوم، الأمر الذي يُثبت وجود حاصر ومحدِّد. لقد تحققت جميع المحامد له، وهو المنعِم الحقيقي في الدنيا والآخرة، في يده الحكم كله وهو المرجع والمآب لكل شيء... والذين يدعون غير الله مَثلُهم كمثل الذي يبسط يديه إلى الماء ويدعوه ليبلغ فاه، والمعلوم أن الماء لا يقدر أن يسمع كلام أحد أو يبلغ فاه بنفسه، كذلك المشركون يدعون آلتهم عبثا ولا فائدة في ذلك قط... ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها؛ أي لا يجوز إشراك الغير في أسمائه، فادعوه ﷻ بالأسماء التي لا يشاركه فيها أحد، أي لا تُطلقوا عليه ﷻ أسماء مخلوق أرضي أو سماوي ولا تُطلقوا أسماءه ﷻ على مخلوق فابتعدوا عن الذين يشركون في أسماء الله وصفاته فإنهم سينالون جزاء أعمالهم قريبا... والذين يطلبون تحقّق مراداتهم من المخلوقات ضعفاء عقلا، والمخلوقات التي اتُّخذت معبودا هي ضعيفة القدرة... لم يعرف المشركون اللهَ تعالى حق معرفته ويزعمون أن نظام الله لا يمكن أن يسير بغير شركاء، مع أن له القدرة الكاملة وله الغلبة الكاملة، وهو يملك القوى كلها... ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ، سبحانه؛ أي أنه كامل في ذاته وليس له حاجة لأن يتخذ ولدا. ليس فيه من نقص ليُسَدّ باتخاذ الولد. وإن لم يكن هناك أيّ نقص فكان اتخاذه ولدا عملا

عبثيا لم يكن الله ﷻ بحاجة إليه أصلا، وهو منــزَّه عن كل نقص وعن أيّ عمل عبثي وإذا قال لشيء كن فيكون. المسلمون الذين آمنوا اعتصموا بالتوحيد الخالص، أما اليهود الذين أشركوا واتخذوا الأولياء والأنبياء قضاة لحاجاتهم، وأشركوا المخلوقات مع الله ﷻ، والصابئون الذين يعبدون النجوم، والنصارى الذين اتخذوا المسيح ابن الله، والمجوس الذين يعبدون النار والشمس، وغيرهم من المشركين المتورطين في أنواع الشرك سيحكم الله تعالى بينهم يوم القيامة. والله شهيد عليهم جميعا ولا يخفى عليه أن عبدة المخلوق على الباطل. من البديهي تماما ويمكن لكل شخص أن يُدرك بأدنى انتباه أن ما في السماء والأرض من الأجرام الفلكية والأجسام الأرضية والنباتات والجمادات والحيوانات والعناصر الأخرى مثل القمر والشمس والنجوم والجبال والأشجار والحيوانات المتنوعة والناس الذين يسجد لهم المشركون كل هذه الأشياء تسجد لله؛ أي كل هذه الأشياء محتاجة إلى الله ﷻ لوجودها وبقائها وخاضعةٌ له بتذلل. ولا يمكن أن تستغني عنه ولو للمح البصر.

فإن طلب الحاجات من الأشياء التي هي محتاجة بحد ذاتها ضلال مبين. وبعض الناس الذين يختارون طريق التمرد لا يخلون أيضا من التذلل، لأن عذاب أصناف الآلام والأسقام والأفكار والهموم يحل بهم في الدنيا باستمرار، وقد أُعِدّ لهم عذاب الآخرة أيضا. ففي أيّ شيء غير الله توجد صفة "الغني" و"الصمد" حتى يتخذه أحد معبودا له؟ ولأنه لا يتصف أحد سوى الله تعالى بصفة "الغني" و"الصمد" فهذا يثبت أن عبدة المخلوق كلهم على الباطل.

هذه بضع آيات اقتبستها هنا من القرآن الكريم مقابل كلام "ريغ فيدا" الطويل. والآن يجب الانتباه إلى ما يوجد في الفيدا من الطول الممل، والبيان العبثي والمضمون الخادع والأمور غير المعقولة التي لا طائل من ورائها، ثم لِيُنظَر مقابل ذلك كيف جمع الله تعالى في آيات القرآن الكريم بكمال الإيجاز والدقة المتناهية بحرا واسعا من التوحيد مع الأدلة الحكيمة والبراهين الفلسفية بأقصر

الكلمات، وكيف قدّم في عبارة موجزة مدعومة بالأدلة إثباتا لجميع الأمور الضرورية المتعلقة بالتوحيد، وفتح على طالبي الحق باب معرفة الله تعالى، وكيف تُلقي كل آية تأثيرها الكامل ببيانها القوي على قلوب مستعدة وتُظهر النور من الدرجة العليا لإزالة الظلمات الباطنية. فمن هنا يمكن للعاقل أن يُدرك أيّ الكتابينِ يضم في طياته حسن البيان وقوتَه وأيهما محروم تماما من الكلام الفصيح والبليغ. فعندما يلقي المنصف الصالح نظرة على كلٍّ من عبارة الفيدا والقرآن الكريم بُغية المقارنة بينهما، يدرك على الفور أن عبارة الفيدا غير ناضجة، وناقصة بحيث تتسبب في نشوء أنواع الشكوك في قلب قارئها وتوقعه في أصناف عدة من سوء الظن، ولا يقدر على أن يوضّح ادّعاءه بقوة بيانه في أي مكان، ولا يبلِّغه مبلغ الإثبات. بل الحق أنه لا تُعلَم ماهية ادّعائه أصلا. وإذا عُلم شيء فلا يتبين منه إلا أنه يريد أن تُعبَد الآلهة "أغني" و"شمس" و"إندر" وغيرها، ولا يقدّم أيّ دليل أو برهان متى وكيف حصلت لهذه الأشياء مرتبة الألوهية؟ ومع كل هذا البيان الذي لا معنى له فقد كُتبت الفيدات الأربعة بعبارات طويلة جدا لا يكاد يطالعها إلا شخص مجتهد جدا بشرط أن يطول به العمر. ومقابل ذلك لو قرأ أي منصف القرآن الكريم لعلم فورا أنه قد بلغ القمة في إيجاز الكلام وفي بيانٍ قلّ ودلّ، وهو شرط واجب للبلاغة، إذ إن حجمه مع الإحاطة بجميع ضرورات الدين واستيفاء كافة الأدلة والبراهين صغير جدا بحيث يستطيع الإنسان أن يقرأه من البداية إلى النهاية في غضون ثلاث أرباع اليوم بسهولة.

والآن، يجدر بالانتباه كيف تشكل بلاغة القرآن معجزةً عظيمة إذ جمع بحر العلم الزخّارَ في ثلاثة أجزاء أو أربعة، وجمع أيضا عالَـــما من الحكمة في بضع صفحات فقط. هل سمع أحد من قبل أو رأى أن يشمل كتاب قليل الحجم مثله حقائق الدهر كله؟ أو هل يجيز العقل أن يتبوأ الإنسان مرتبة عظيمة حتى يكون قادرا على أن يجمع بحر الحكمة في كلمات وجيزة بحيث لا تبقى حقيقة من

حقائق علم الدين خارج نطاقها؟ كلّ ما كتبته في هذا المجال صدقٌ وحق. ومن أنكر ذلك فليمحص الأمر أمام عيني.

وليكن معلوما أيضا هنا أن كلام الفيدا يخلو من علامة ضرورية أخرى لا بد من وجودها في كلام الله، وهي أنه لا يوجد فيه أيّ أثر للنبوءات مطلقا، ولا يشمل أمورا غيبية قط، مع أن الكتاب الذي يُعدّ كلام الله لا بد أن تظهر فيه أنوار الله تعالى. بمعنى أنه كما أن الله تعالى عالم الغيب وقادر وقدير، وعديم المثال والنظير، كذلك يجب أن يُظهِر كلامُه -الذي هو مرآةُ صفاته الكاملة- صفاتِه المذكورة بلسان حاله؛ لأنه من الواضح أن الغاية المنشودة من كلام الله هي أن ينال المرء معرفة ذات الله وصفات الله الكاملة بواسطته لكي يترفّع الإنسان عن أوجه القياس فقط ويبلغ مرتبة عين اليقين، بل حق اليقين. والمعلوم أن هذه المرتبة العلمية لا تُنال إلا إذا لم يُسلِّم كلامُ الله طالبَ الحق للعقل فقط، بل شرح كل عقيدة بتجلياته الذاتية. فمثلا يجب أن يبين كثيرا من النبوءات والأخبار الغيبية، ثم يُري تحققها ويُثبت لطالب الحق صفة علم الغيب التي هي صفة خاصة بالله ﷻ. وكذلك يجب أن يعِد أتباعه بالنصرة الكاملة ثم يحقق جميع الوعود ويُثبت أنه قادر وصادق وناصر. ولكن لا يوجد في الفيدا شيء من هذا.

فلو أنصف أحد ونظر بنظر التأمل والتدبر لتبين له أنه لا يوجد في الفيدا شيء من هذه العلامات، ولا يوجد فيه شيء لإكمال العلم الذي من أجله ينـــزل كلام الله أصلا. بل الحق أن الفيدا ليس حائزا على ما يحوزه العاقل من أسباب معرفة الله تعالى بعقله ويسعى لإنقاذ نفسه من الوقوع في الخطأ والسهو قدر استطاعته وقدرته. وإن مبادئ الفيدا فاسدة وبديهية البطلان بحيث يستطيع أن يشهد على خطئه وانحرافه عن جادة الصواب طفل يبلغ عشر سنوات من العمر بشرط ألا يكون متعصبا ومتعنتا.

ثم ليكن معلوما أيضا أنك تجد الفيدا محروما وصفر اليدين من التأثيرات الروحانية التي يشملها القرآن الكريم. وبيان ذلك أن القرآن الكريم مع امتلاكه كافة كمالات البلاغة والفصاحة والإحاطة بالحكمة والمعرفة، يجمع في ذاته المبارك تأثيرا روحانيا يجعل اتّباعُه الصادقُ الإنسانَ مستقيم الحال، ومنوَّر الباطن، ومنشرح الصدر ومقبولا عند الله تعالى، وجديرا بأن يخاطبه الله، ويخلق فيه أنوارا، ويجعل الفيوض من الغيب والتأييدات الخالية من الريب حليفة له، ولا توجد كل هذه التأييدات في غيره قط. وينـــزل عليه من الله تعالى كلامٌ عذب وممتع يتبين له بواسطته كل حين وآن أنه قد أُوصل إلى هذه المقامات الخاصة بأحباء الله تعالى ببركة الاتّباع الصادق للقرآن الكريم والنبي الأكرم ﷺ، وقد حظي برضا الله تعالى وألطافه التي حظي بها المؤمنون الكاملون الذين خلوا قبله. وفي هذه المرحلة لا يدّعي بهذا المقام باللسان فقط بل يرى فعلا ينبوعا نقيا لكل نوع من المحبة جاريا في قلبه الصادق ويلاحظ في صدره المنشرح حالة من العلاقة بالله تعالى لا يمكنه بيانها بكلمات أو بمثال. ويرى أنوار الله تعالى نازلةً على نفسه كالمطر الغزير؛ فتُلقي تلك الأنوار بظلها عليه تارة بصورة أخبار غيبية وتارة بصورة علوم ومعارف وأحيانا أخرى بصورة أخلاق فاضلة. وإن تأثيرات القرآن الكريم هذه جارية بالتسلسل. ومنذ أن ظهر النبيُ ﷺ المبارك شمسُ الحق في الدنيا بلغ ولا يزال يبلغ آلاف من ذوي السعادة والقدرة المدارج العالية المذكورة آنفا ببركة اتّباعهم كلام الله والرسول المقبول ﷺ. وإن الله تعالى يُكرمهم بألطافه وأفضاله على التوالي وبصورة متواصلة ويُريهم تجليات نصرته وألطافه حتى يَثبت عند ذوي النظرة النقيّة أن هؤلاء القوم مقبولون عند الله تعالى وأحباؤه الذين عليهم ظلّ عظيم لألطاف الله وعليهم فضل الله جليلُ الشأن. فيشاهد المشاهدون بكل صراحة أنهم قد أُكرِموا بإنعامات خارقة وأُفردوا بكرامات عجيبة ومعطَّرون بعطر المحبوبية وفخورون بمفاخر القبول. وترى صحبتهم وتوجّهاتهم وعزيمتهم ودعائهم ونظرهم وأخلاقهم وأسلوب

عيشهم، ورضاهم وغضبهم، ورغبتهم ونفورهم، وحركاتهم وسكناتهم، ونطقهم وسكوتهم، وظاهرهم وباطنهم مليئا بنور الله القادر كما تُملأ زجاجةٌ نقية بعطر عالي الجودة. وتُنال ببركة صحبتهم والارتباط بهم وحبهم أمورٌ لا تُنال بالمجاهدات الشاقة. وبسبب حبهم وحسن الاعتقاد بهم يأخذ الإيمان صبغة أخرى وتنشأ قوة لإظهار الأخلاق الحسنة. وتبدأ ثورة الحياة الطائشة والنفس الأمارة بالزوال شيئا فشيئا وتحصل الطمأنينة والحلاوة. ويزداد الذوق الإيماني بقدر الكفاءة والصلة (بالله)، ويظهر الأنس والشوق ويزداد التلذذ بذكر الله سبحانه وتعالى. ويضطر المرء للإقرار نتيجة صحبتهم الطويلة بأنهم يحتلون مرتبة عالية من حيث قوتهم الإيمانية وحالتهم الأخلاقية وانقطاعهم عن الدنيا والتوجه إلى الله تعالى وحبه، والشفقة على العباد، والوفاء والرضا والاستقامة التي لم يُرَ لها نظير في الدنيا. ويُدرك العقل السليم فورا أنه قد فُكّت من أقدامهم الأصفاد والسلاسل التي يرزح الآخرون تحتها، وقد أُزيل من صدورهم الضيق والقبض الذي بسببه تعاني صدور غيرهم من الانقباض والكآبة. كذلك يتشرف هؤلاء الناس بالحديث مع الله تعالى ومكالمته بكثرة ويصبحون جديرين بالمخاطبات المتتالية، ويُعَدّون وسطاء بين الله جلّ وعلا وعباده النشيطين للإرشاد والهداية. إن نورهم ينوّر قلوب الآخرين. وكما تنمو النباتات بسرعة عند حلول الربيع كذلك بظهورهم يهيج نور الفطرة في الطبائع السليمة، ويودّ قلبُ كل سليم الطبع أن يُظهر مؤهلاته السليمة والسعيدة إلى منصة الظهور بكل جهده ويتخلص من حُجُب رقود الغفلة، وينجو من وصمات المعصية والفسق والفجور وظلمات الجهل والغفلة. فإن عصرهم المبارك يتسم بخاصية وينتشر فيه نور بحيث يجد كل مؤمن وطالب حق في نفسه الانشراح والشوق إلى الدين بقدر قوته الإيمانية دونما سبب ظاهري، ويرى همته في قوة وازدياد.

فباختصار، إن كل مخلص ينال حظا على قدر إخلاصه من عطرهم اللطيف الذي نالوه ببركة الاتّباع الكامل. أما الأشقياء فلا ينالون منه نصيبا بل

يسقطون في هاوية جهنم بسبب ازديادهم في العناد والحسد والشقاوة. يقول الله تعالى مشيرا إلى هذا الأمر: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ *(البقرة: ٨)*.

ومن أجل ترسيخ هذا البيان في الأذهان جيدا أعيده بكلمات أخرى وأتناوله بشيء من التفصيل. فأقول: مع أن الإنعامات التي ينالها أتباع القرآن الكريم، وما يُعطَونه من مواهب خاصة لا يمكن بيانها، ولكن أرى من الحكمة بيان بعض الإنعامات العظيمة منها هنا بالتفصيل على سبيل المثال هدايةً للطالبين:

فمن جملتها العلوم والمعارف التي ينالها الأتباع الكمّلُ من مائدة نِعم القرآن الكريم. فحين يتّبع الإنسان القرآن الكريم اتّباعًا صادقًا ويسلِّم نفسه لأوامره ونواهيه كليا ويتدبر هديه بكامل الحب والإخلاص ولا يبقى فيه إعراض ظاهري أو معنوي، عندها يُعطى نظرُه وفكره من الوهاب القدير نورًا، ويوهَب منه ﷻ عقل لطيف؛ فتنكشف عليه دقائق عجيبة ونكات العلوم الإلهية الكامنة في كلامه ﷻ، وتهطل على قلبه معارف دقيقة كما يمطر السحاب في موسم الأمطار بكثرة وغزارة. وقد سمِّيت تلك المعارف الدقيقة في القرآن الكريم بالحكمة كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيرًا كَثِيرًا﴾ *(البقرة: ٢٧٠)*.. أي أن الحكمة تشمل خيرا كثيرا، ومن نال الحكمة فقد نال خيرا كثيرا. فهذه العلوم والمعارف التي تُسمَّى بتعبير آخر بالحكمة، تُعطى لأتباع كلام الله كالبحر المحيط لكونها تشمل خيرا كثيرا. ويُودَع فكرُهم ونظرهم بركةً، فتنعكس في نفوسهم -التي هي كالمرآة- الحقائقُ الحقة من الدرجة العليا، وتنكشف عليهم الحقائق الكاملة باستمرار. وتهيئ لهم تأييداتُ الله تعالى عند كل تحقيق وتدقيق أسبابا، فلا يبقى بيانهم ناقصا ببركتها ولا يتطرق إليه خطأ. فالعلوم والمعارف والدقائق والحقائق واللطائف والنكات والأدلة والبراهين التي تخطر ببالهم تحتل مكانة عالية وخارقة للعادة كيفًا وكمًّا، ولا يمكن مقارنتها مع أناس آخرين لأنها ليست من عند أنفسهم، بل إن التفهيم من الغيب والتأييد من الله الصمد يكون هاديهم ودليلهم. وبقوة هذا التفهيم

تُكشف عليهم الأسرار والأنوار القرآنية بما لا يمكن أن تُكشَف بضوء العقل الضبابي وحده. وإن هذه العلوم والمعارف التي يُعطَونها، وبسببها تنكشف عليهم الأمور اللطيفة والدقيقة والحقائق العميقة المتعلقة بذات الله وصفاته وعالم المعاد؛ هي خوارق روحانية، وهي أعلى وأدقّ من الخوارق المادية عند ذوي النظرة المتعمقة. بل سيُعلَم عند التأمل فيها أن قدر العارفين وأهل الله ومقامهم يتبيّن عند العقلاء من خلال هذه الخوارق نفسها. وتلك الخوارق هي زينة مرتبتهم العالية وجمالها وحسن صلاح وجههم وجماله، لأن من فطرة الإنسان أن هيبة العلوم والمعارف الحقة تؤثر فيه أكثر من أي شيء آخر، والصدق والمعرفة أحب إليه من كل شيء. أما لو افترضنا أن هناك شخصا عابدا وزاهدا يرى الكشوف ويطّلع على أخبار الغيب ويقوم بمجاهدات شاقة وتظهر على يده خوارق عديدة أخرى أيضا، ولكنه يجهل العلوم الإلهية جهلا تاما لدرجة لا يستطيع أن يفرّق بين الحق والباطل -بل هو أسير في الأفكار الفاسدة ومتورط في المعتقدات الخاطئة، وناقص في كل شيء، ويخطئ في كل رأي خطأ فاحشا- لعدَّ مثل هذا الشخص حقيرا وذليلا بشدة عند ذوي الطبائع السليمة. والسبب في ذلك أن الشخص الذي يشمُّ منه العاقل رائحة الجهل أو يسمع منه كلمة حُمق ينفر قلبه منه فورا. فلا يحظى ذلك الشخص بأيّ احترام عند العاقل، بل يبدو في نظره حقيرا ذليلا مهما كان عابدا وزاهدا.

فالواضح من عادة الإنسان الطبيعية هذه أنّ تحلّي أهل الله بالخوارق الروحانية -أي العلوم والمعارف- يُعدُّ شرطا محتوما عنده، وعلامة خاصة وضرورية لمعرفة أكابر المتدينين. إذن، فيُوهَب أتباع القرآن الكريم الكُمَّل هذه العلامات بوجه أتم وأكمل. ومع أن الأمية تكون السمة الغالبة على طبائع معظمهم ولا ينالون العلوم العادية بتمامها، يسبقون معاصريهم كثيرا في بيان النكات ودقائق العلوم الإلهية، حتى إن كبار المعارضين يغرقون في بحر الحيرة بسماع كلامهم وقراءة كتاباتهم في معظم الأحيان، فيقولون عفويا: إن علومهم

ومعارفهم هي من عالَم آخر ومتصبغة بوجه خاص بصبغة تأييد الله تعالى. ومن الأدلة على ذلك أنه لو أراد أحد المنكرين أن يقارن بين كلامهم المبني على التحقيق والمعرفة في بحث من مباحث الإلهيات وبين كلام آخر لاضطر -بشرط أن يكون منصفا وأمينا- للاعتراف في نهاية المطاف أن الصدق والحق حليف بيانهم. وكلما تعمّق البحث ظهرت للعيان الحقائق والبراهين الدقيقة الكثيرة التي تكشف صدقهم باستمرار كالنهار الساطع. وإنني شخصيا أتحمل مسؤولية إثبات ذلك لكل طالب حق.

ومن جملتها العصمة التي يُعبَّر عنها بحفظ الله تعالى. إن أتباع القرآن الكريم يُعطَون هذه العصمة أيضا بوجه خارق للعادة. ما أقصده من العصمة هنا هو أنهم يُحفَظون من تصرفات وأفكار وأخلاق وأفعال سيئة ومذمومة بينما ترى غيرهم ملوّثين بها ومتورطين فيها ليلَ نهار. ولو صدرت منهم زَلة لتداركتها رحمة الله سريعا. والمعلوم أن مقام العصمة حساس جدا وبعيد كل البُعد عن أهواء النفس الأمارة، ومن المستحيل تماما نيله دون فضل خاص من الله ﷻ. فمثلا إذا قيل لأحد أن يجتنب عادة الكذب والزور فقط في جميع معاملاته وأقواله وحِرَفه ومِهَنه اجتنابا تاما تعذر عليه ذلك أو استحال، بل لو بذل جهده أيضا في هذا السبيل وسعى له لتعرّضت له الموانع والعوائق حتى يتبنّى مبدأ استحالة اجتناب الكذب والزور كليًّا في أمور الدنيا. أما السعداء الذين يريدون أن يعملوا بهدي القرآن الكريم بالحب الصادق والحماس المبني على حسن الاعتقاد فلا يُسهَّل عليهم اجتناب عادة الكذب القبيحة فقط، بل يُوَفَّقون أيضا من القادر القدير على ترك جميع منهيات القول والفعل، ويحفظهم الله تعالى برحمته من الأحوال الشنيعة التي يمكن أن يقعوا بسببها في ورطة الهلاك. فلما كانوا نورا للدنيا، وفي سلامتهم تكمن سلامة الدنيا، وفي هلاكهم يكمن هلاك الدنيا، لذا يُحفَظون من ارتكاب السيئات والأفكار الفاسدة والعلوم غير الصائبة والأعمال غير الجائزة والأفهام غير السديدة ومن إفراط النفس وتفريطها في كل

فكر وعلم وفهمٍ وعند كل غضب وشهوة وخوف وطمع وضيق وسعةٍ وفرح وترحٍ وعسر ويسر. ولا يثبتون على أمرٍ مذموم لأن الله تعالى يتكفَّل بتربيتهم. والغصن الذي يراه الله تعالى يابسا في شجرتهم الطيبة يقطعه ذلك المربي بيده فورا. وإن حماية الله تعالى ترقبهم في كل لحظة وآن. إن نعمة الحِفْظ هذه التي يُعطَونها ليست دون إثبات أو دليل، بل كل عاقل يستطيع أن يُدركها بقناعة تامة ببقائه في صحبتهم لبعض الوقت.

ومن جملتها مقام التوكل الذي يُثبَّتون عليه بقوة وشدة، ولا يتسنى لغيرهم هذا الينبوع النقي قط، بل يُجعَل هنيئا ومستساغا لهم وحدهم فقط. ويتداركهم نور المعرفة بحيث يعيشون ببشاشة وانشراح صدر مع عدم حيلتهم وبُعدهم عن الأسباب العادية كل البُعد في معظم الأحيان، ويقضون أيامهم براحة بالٍ وبحبوحة وكأنهم يملكون آلاف الكنوز. ترى في وجوههم نضرة الغِنى، واستقرار أهل الثراء، وفي أيام الضراء يتوكلون على مولاهم الكريم بأقصى رحابة صدر ويقين كامل. الإيثار سيرتهم وخدمة الخلق شيمتهم، ولا يتطرق إليهم الانقباض قط حتى لو صار العالم كله عيالا لهم. والحق أن سَتر الله تعالى الذي يسترهم في كل موطن ويأخذهم في حضن عطوفته قبل أن تحل بهم آفة تفوق طاقتهم يوجب الشكر له ﷻ، لأن الله تعالى يتولّى أمورهم جميعا كما قال بنفسه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ *(الأعراف: ١٩٧)*. أما غيرهم فيُتركون متخبطين في أسباب الدنيا المؤذية. والمعاملة الخاصة التي يُعامَل بها هؤلاء الخواص لا يُعامَل بها غيرهم. ومن شأن ميزتهم هذه أيضا أن تثبت بكل سهولة عند البقاء في صحبتهم.

ومن جملتها أيضا مقام الحب الإلهي الذي يُثَبَّت عليه أتباع القرآن الكريم الكمَّل، فيؤثِّر حب الله في كل ذرة من كيانهم حتى يصبح حقيقةَ وجودهم بل يصير روح حياتهم. ويهيج في قلوبهم حبٌّ من نوع غريب للمحبوب الحقيقي، ويستولي على قلوبهم النقية أُنس وشوق خارق للعادة يقطع علاقتهم عن غير

الله نهائيا. تضطرم نار حب الله ﷻ لدرجة يشعر بها ويشاهدها جلساؤهم بوضوح في أوقات خاصة، حتى لو أراد المحبون الصادقون إخفاء ثورة الحب بطريقة ما، لتعذر عليهم ذلك، كما يستحيل على العشاق الدنيويين أن يخفوا عن قرنائهم وجلسائهم حبهم لحبيبهم الذي يموتون لرؤيته ليل نهار. بل الحق أن ذلك العشق الذي امتزج بكلامهم وهيئتهم وعيونهم ووضعهم وطبيعتهم يترشح من كل ذرة من كيانهم ولا يمكن أن يخفى بإخفائهم قط. ولو بذلوا كل ما في وسعهم لإخفائه لظهرت علامة من علاماته حتما. وإن أعظم علامة على صدقهم هي أنهم يفضِّلون حبيبهم الحقيقي على كل شيء، وإذا أصابتهم الآلام منه فهم يرونها إنعاماتٍ لغلبة حبهم، ويعدّون العذاب شرابا عذبا. لا يمكن لحدّ سيف أن يباعد بينهم وبين حبيبهم، وليس لبليِّة عظمى أن تحول دون ذكرهم حبيبهم. فهم يحسبونه روحهم وراحتهم، وفي حبه يجدون متعتهم، ويرون وجوده هو الوجود الحقيقي، ويعدّون ذكره محصّلة حياتهم. إذا كانوا يبتغون أحدا فإياه ﷻ يبتغون، وفي ذاته وحده يجدون الطمأنينة. ليس لهم في العالم إلا هو، ويكونون له كليّا. من أجله يعيشون وفي سبيله يموتون. يعيشون في الدنيا ولكن لا علاقة لهم بها قط، يملكون قوى عقلية سليمة ولكنهم نشوانين في حبه ﷻ، لا يعيرون سؤددهم أدنى اهتمام، ولا لسمعتهم ولا لحياتهم ولا لراحتهم، بل يفقدون كل شيء من أجل ذات واحد، ويتخلون عن كل شيء لنيل حب ذات واحد. يحترقون بنار لا تُدرك، ولا يستطيعون أن يخبروا لماذا يحترقون. يصيرون صمًّا وبكمًا عن التفهّم والتفهيم، ويكونون جاهزين لتحمّل كل مصيبة وهوان وبه يتلذذون.

"العشق يجعل المرء يتمرغ في تراب المذلة، والعشق هو الذي يجعل المرء يحترق في النار المضطرمة.

لا يضحي أحد برأسه ولا بروحه من أجل أحد، وإنما هو العشق الذي يدفع المرء لفعل كل ذلك بمنتهى الشوق."[٨٦]

ومن جملتها الأخلاق الفاضلة مثل الجُود والشجاعة والإيثار وعلوّ الهمة، والشفقة والحِلم والحياء والمودة، فهذه الأخلاق كلها تصدر على أحسن وجه وأنسبه منهم حصرا. وهم الذين يتمسكون بهذه الأخلاق كلها ببركة اتّباعهم القرآن الكريم باستمرار على خير ما يرام إلى آخر لحظة من حياتهم، ولا يصيب قلبهم أي انقباض يمكن أن يحول دون صدور الأخلاق الحسنة منهم كما ينبغي. الحق أن كل ما يصدر من الإنسان من ميزات علمية أو عملية أو أخلاقية، لا يمكن أن يصدر بقواه البشرية قط، بل السبب الحقيقي وراء صدورها هو فضل الله تعالى. فلأن هؤلاء الناس هم محطّ فضل الله أكثر من غيرهم فيمتِّعهم الله تعالى بجميع الميزات الحسنة بأفضاله اللامتناهية. أو بتعبير آخر قولوا إن شئتم: إنه ما من بارٍّ حقيقي سوى الله تعالى، فله الأخلاق الفاضلة كلها والحسنات كلها. لذا بقدر ما يورد الإنسان الفناء على ذاته ومشيئته وينال قرب ذلك الذات الذي هو الخير المحض تنعكس في شخصه الأخلاق الإلهية. فالميزات والتهذيب الصادق الذي يحرزه الإنسان، إنما يحرزه نتيجة قربه من الله ﷻ، وهكذا يجب أن يكون؛ لأن المخلوق ليس شيئا يُذكر في حد ذاته. فالأخلاق الفاضلة الإلهية إنما تنعكس في قلوب الذين يتبعون القرآن كليا. تبين التجربة الصحيحة أنه لا يوجد في الدنيا نظير للصفاء والحماس المليء بالحب والذوق الروحاني الذي تصدر به الأخلاق الفاضلة منهم. مع أن كل شخص يستطيع أن يدّعي ويطلق للسانه العنان بالتباهي والتفاخر، ولكنهم وحدهم يستطيعون أن يعبروا بسلام باب التجربة الصحيحة الضيقِ. أما الآخرون فإذا كانوا يظهرون بعض الأخلاق الفاضلة فإنما تصنُّعا وتكلُّفا، ويُخفون شوائبهم ويسترون أسقامهم ويبدون التحضر الزائف، فيُفضح أمرهم في أبسط

[٨٦] *ترجمة بيتين فارسيين. (المترجم)*

الامتحانات، ويتصنَّعون ويتكلفون في إظهار الأخلاق الفاضلة في معظم الأحيان، لأهم في ذلك يرون جمال دنياهم وحسن نظام حياهم. ولو اتّبعوا شوائبهم الباطنية في كل مكان لوقع الخلل في مهمات الحياة. ومع أنه توجد فيهم أيضا بذرة الأخلاق بقدر مؤهلاهم الفطرية، ولكنها تبقى محجوبة تحت أشواك الأهواء النفسانية، ولا تظهر للعيان خالصة لوجه الله تعالى دون شوائب الأهواء النفسانية دع عنك وصولها الكمالَ. الحق أهما تبلغ مبلغ الكمال خالصة لله ﷻ في الذين يصبحون لله تعالى وحده، والذين يجد الله نفوسهم خالية من شوائب المغايرة كليًّا فيملأها بأخلاقه الطيبة، ويحبِّبها إلى قلوهم كما هي محبَّبة إليه ﷻ. فينالون مرتبة التخلُّق بأخلاق الله لكوهم فانين فيه، وكأهم يصبحون وسيلة يُظهر الله تعالى أخلاقه بواسطتها. يجدهم ﷻ جياعا وعطاشى فيسقيهم ماء زلالا من عينه الخاصة التي لا يشاركهم فيها أحد من المخلوقات أصالة.

ومن جملة تلك العطايا الكمالُ العظيم الذي يُعطاه متّبعو القرآن الكريم الكاملون؛ أي العبودية.. بمعنى أهم مع حيازهم عدة كمالات يتنبّهون دائما إلى النقص فيهم ويختارون التذلل والفناء والتواضع دائما بمشاهدة كبرياء البارئ تعالى. ويُدركون أن حقيقتهم هي الذلة والمسكنة والفقر والتقصير وإمكانية صدور الخطأ، وأن جميع الكمالات التي أُعطُوها إنما هي مثل ضوء الشمس المؤقت الذي يقع على جدار مثلا دون أن يكون له علاقة حقيقية به، بل يكون قابلا للزوال مثل اللباس المستعار. فيرون الخير والمحامد كلها خاصة بالله تعالى وحده، ويعدّونه وحده مصدرا للخيرات كلها. وبمشاهدهم صفات الله تعالى على وجه كامل، يمتلئ قلبهم بحق اليقين بأهم ليسوا بشيء يُذكر، حتى أهم يتخلون كليا عن وجودهم ومشيئتهم وأمانيهم، ويحيط بحرُ عظمة الله الزخارُ بقلوهم بحيث يستولي عليهم ألف نوع من الفناء، ويتطهَّرون كليًّا من كل شائبة من الشرك الخفي.

ومن جملة تلك العطايا معرفتُهم بالله تعالى التي تُبَلِّغ درجةً أكمل وأتم من خلال الكشوف الصادقة والعلوم اللدنية والإلهامات الصريحة ونتيجة مكالمات الله ومخاطباته والخوارق الأخرى حتى لا يبقى بينهم وبين العالم الثاني إلا حجاب رقيق وشفاف جدا يخرقه نظرُهم، فيرى أحداثا أخروية في هذا العالم بخلاف الآخرين الذين لا يصلون إلى هذه الدرجة الكاملة أبدا لكون كتبهم مليئة بالظلام. بل إن كتبهم ذات تعاليم معوجة تضيف مئات الحُجُب إلى حُجُبهم السابقة وتزيدهم مرضا حتى توصلهم إلى حافة الموت.

أما الفلاسفة الذين يحذو أتباعُ برهمو سماج حذوهم في هذه الأيام، والذين جلُّ مدار مذهبهم على العقل وحده، فهم أنفسهم ناقصون في منهجهم. ويكفي دليلا على نقصهم أن معرفتهم لا تتجاوز حدود النظريات بسبب مئات أنواع الأخطاء ولا تعدو الأوجهَ النظرية. والمعلوم أن الذي تقتصر معرفته على النظريات، وهي واقعةٌ في شوائب الأخطاء من عدة أنواع أخرى أيضا، فحالته العلمية مترديةومنحطة كثيرا مقارنة مع شخص بلغت معرفته درجة البداهة. والمعلوم أن هناك درجة البداهة والمشاهدة بعد مرتبة النظر والفكر؛ أي الأمور التي تُعلم فكريا ونظريا يمكن أن تُعلم بالبداهة والمشاهدة بطريقة أخرى. فمرتبة البداهة هذه ممكنة الوجود عند العقل. وحتى لو أنكر أتباع برهمو سماج وجودها في الخارج، إلا أنه لا يمكن الإنكار أنه لو وُجدت درجة الوضوح في الخارج لكانت أعلى وأكمل دون شك. أما الخفايا التي تبقى في الفكر والنظر فإن ظهورها وبروزها يتوقف على هذه الدرجة بالذات. ومن لا يدرك أن انكشاف الأمر بوضوح أعلى وأكمل درجةً من كونه نظريا؟ فمثلا مع أنه يمكن أن يفكر عاقل وسليم الطبع بالنظر إلى المخلوقات أنه لا بد أن يكون لها خالق، ولكن الطريق الأوضح والأكثر بداهة لمعرفة الله ﷻ الذي يشكِّل أقوى دليل على وجوده هو أن عباده يتلقون الإلهام. وتُكشف عليهم عاقبة حقائق الأشياء قبل الأوان بكل وضوح، ويتلقون من الله تعالى جوابا على طلباتهم.

ويُشرَّفون بمكالماته ﷻ ومخاطباته، ويُرون أحداث العالم الثاني بنظرة الكشف ويُطلَعون على حقيقة الجزاء والعقاب، وتُكشف عليهم أسرار أخروية من عدة أنواع أخرى. ولا شك أن هذه الأمور كلها توصل علم اليقين إلى مرتبة أتم وأكمل، وتُخرجه من حضيض النظرية وتوصله إلى منارة البداهة العليا. وإن مكالمات الله تعالى ومخاطباته أعلى وأفضل من جميع هذه الأنواع بصفة خاصة، لأنه لا تُعلم بسببها الأخبار الغيبية فقط، بل يُطلَع العبد الضعيف على أفضال الله تعالى عليه أيضا، ويُطَمْأن بكلام عذب ومبارك ويُطلَع على رضا البارئ تعالى. فينال العبد قوة عظيمة لمواجهة مكروهات الدنيا، فكأنه يُعطَى جبالا من الصبر والاستقامة. وكذلك يُعلَّم العبد علوما ومعارف عليا بواسطة الكلام، ويُطلَع على أسرار خفية ودقائق عميقة لا تُعلَم بغير تعليم خاص من الله تعالى قط.

وإن أثار أحد شبهة بأنه كيف يمكن لجميع هذه الأمور التي قيل بأنها تُنال بالاتباع الكامل للقرآن الكريم أن يتحقق وجودها في الإسلام بصورة ملموسة؟ فجوابها أنها تتحقق بالصحبة. ولقد كتبتُ أكثر من مرة وأقول لكل معارض مرة أخرى دون خوف الإطالة بأن هذه الثروة العظمى تُوجد حقيقة في الإسلام فقط، ولا توجد في أيّ دين آخر قط. وإنني مستعدّ لتحمل مسؤولية إثبات ذلك لطالب الحق. فيمكن أن تُكشف هذه الأمور كلها على كل طالب حق بحسب كفاءته وقدرته الشخصية بشرط الصحبة وحسن الاعتقاد وتحقُّق الجدارة والتحلي بالصبر والثبات. وينبغي ألا تُثار الشبهة في شئون هذه الأخبار الغيبية فيقال إن الرمّالين والمنجّمين أيضا يشتركون فيها، لأن هؤلاء القوم لا يخبرون بالأخبار الغيبية بناء على فنّ أو قاعدة معينة، ولا يدّعون علم الغيب، بل الله اللطيف بهم والمهتمّ بحالهم والمتوجّه إليهم بأفضاله الخاصة؛ يخبرهم بناء على بعض حِكمه بعضَ الأمور قبل ظهورها ليتِمّ ما أراده ﷻ بأحسن وجه. فمثلا يريد الله ﷻ أن يُظهر على الخلق أن فلانا من العباد مؤيَّد منه ﷻ، وأن

الإنعامات والإكرامات التي ينالها ليست عادية أو وليدة صدفة، بل تأتي إلى حيِّز الوجود بمشيئة الله الخاصة وإرادته. وكذلك إن ما يتلقاه من الفتح والنصرة والازدهار والعزة ليست ناتجة عن كيد أو حيلة، بل قد أراد الله تعالى أن يرزقه الغلبة ويجعل تأييداته تحالفه. لذا فإن ذلك الكريم والرحيم يبشِّره بتلك النِعم والفتوحات نبوءةً قبل نزولها من أجل تحقيق هذا الهدف. فليست الأخبار الغيبية هي المقصود بالذات من تلك النبوءات، بل المقصود بالذات هو أن يثبت بالقطع واليقين أن ذلك الشخص مؤيَّد من الله ومن الخواص الذين تتجلى أفضال الله تعالى الخاصة لتأييدهم.

لقد تبين من هذا البيان كله أنه لا مجال للمقارنة بين المؤيَّد من الله تعالى والمنجِّمين وغيرهم. وأن أنباءه ليست هي المقصود الحقيقي، بل هي علامات لمعرفة المقصود الحقيقي. وبالإضافة إلى ذلك فإن الذين يصطفيهم الله تعالى لنفسه ويطهِّرهم بيده ويُدخلهم في حزبه، ليس لهم مجرد علامة واحدة أنهم يخبِرون بأنباء الغيب فقط حتى تشتبه حالهم بحال المنجِّمين والسحرة والرمّالين والكهّان دون أيّ تمييز بينهم، بل يحالفهم نور عظيم، إذ يعرفهم الباحث الصادق بالبداهة بمشاهدته. والحق أن ذلك هو النور الوحيد الذي يحيط بكل قولهم وفعلهم وحالهم وقالهم وعقلهم وفهمهم وظاهرهم وباطنهم، وتتفرع منه مئات الأغصان ويتجلّى بأشكال مختلفة. فيظهر النور نفسه كصبر في الشدائد والمصائب، ويتجلّى بصورة الاستقامة والرضا. فيُرى هؤلاء الناسُ الذين هم مورد هذا النور كجبال راسيات في وجه الآفات العظيمة. والصدمات الشديدة التي يبكي منها غير العارفين ويصرخون نتيجة أدنى مسٍّ منها، بل يُشرفون على الموت.. فإن هؤلاء القوم لا يعيرون هجوم تلك الصدمات القاسية أدنى اهتمام أبدا، ويجذبهم الله إلى حضن عطوفته فورا رحمةً منه، ولا يظهر منهم نقص أو تضجر؛ فيرون الإيلام من الحبيب إنعاما، ويتقبلونه بصدر رحيب وقلب منشرح، بل يتلذذون به لأنهم يُثبَّتون على جبال القوة والقدرة والصبر، وتحجُب

عنهم موجاتُ حب الله ﷻ القوية ذكرَ غيره. فيظهر منهم تحمّلٌ خارق للعادة لا يمكن للبشر إظهاره دون تأييد من الله تعالى. وكذلك يتجلّى عليهم ذلك النور في وقت الحاجات بصورة القناعة، فتنشأ في قلوبهم برودة من نوع غريب تجاه الأطماع الدنيوية، فيرون الدنيا شيئا نتنًا. وإن ملذات الدنيا التي يعشق الماديون حظوظَها ويبحثون عنها بكل شوق ويخافون بشدةٍ زوالَها، تصبح في نظرهم شيئا سخيفا للغاية، ويجدون جُلّ سرورهم في أن يبقى قلبهم مليئا بالوفاء لمولاهم الحقيقي وحبه ورضاه، وتبقى أوقاهم عامرة بحبه وشوقه وأُنسه ﷻ. يكرهون ثروةً تخالف رضاه ﷻ ويستخفّون بشدة بعزة لا تخالفها مشيئته.

كذلك إن ذلك النور يتجلى أحيانا في لباس الفِراسة، وأحيانا بصورة تحليق القوة النظرية في عَلياء السماء، وأحيانا في حالة نشاط القوة العملية الخارقة العادة، وأحيانا في حُلّة الحِلم والرفق، وأحيانا أخرى في زيّ الشدة والغيرة. ويتجلى مرة في لباس الجُود والإيثار ومرة أخرى بصورة الشجاعة والاستقامة والأخلاق المختلفة المتنوعة. ويتجلى أحيانا في صورة مخاطبات الله تعالى أو في كشوف صادقة وعلامات واضحة. باختصار؛ فإن ذلك النور يتدفق من الله واهب الخير بحسب مقتضى الحال دائما. إن النور هُوَ هُوَ.. أما ما ذكرناه فهي فروعه كلها. والذي يركّز نظره على فرع واحد يبقى نظره محدودا، فينخدع في كثير من الأحيان. أما الذي يرى جميع أغصان هذه الشجرة الطيبة بنظرة شاملة ويطّلع على كيفية ثمارها وأنوارها، يرى تلك الأنوار كوضح النهار، وإن السيوف المسلولة لذلك الجلال النوراني تقطع كل نوع من اعتزازه واستكباره. لعل بعض الطبائع تواجه هنا إشكالية فيقولوا: كيف ينال هذه الأنوارَ أناس ليسوا بأنبياء ولا رسل؟ ولكن، كما قلت من قبل، إن هذه الإشكالية شُبهة سخيفة تأخذ بقلوب الذين يجهلون حقيقة الإسلام.

لو لم يُشرَك أتباع الأنبياء في كمالاتهم وعلومهم ومعارفهم نتيجة اتّباعهم الأنبياءَ لسُدّ باب التوريث الروحاني نهائيا، أو صار ضيقا جدا، لأنه مما يتنافى

مع معنى الوراثة تماما أن يحرَم التابعون من الفيوض التي ينالها من الله تعالى، مبدأ الفيض، رسلُه وأنبياؤه، وأن يبقى حلوقُ الأتباع محرومة تماما من شراب النورانية واليقين والمعرفة الذي يوصِل الله ﷻ إليه هؤلاء المقدسين، وأن تُكفكَف دموعُ التابعين بكلام معسول فقط. وهذا الأمر يستلزم أيضا أن يكون في ذات الله الوهاب شيء من البُخل، ويستلزم أيضا الحطّ من شأن كلام الله وعظمة الرسول المقبول، لأن تأثيرات كلام الله العظيمة وكمالات قوة النبي المعصوم القدسية تكمن حصرا في أن تُنير أنوارُ الكلامِ الإلهي الدائمةُ القلوبَ النقية والمهيأة دائما، وليس أن يبطل تأثيرها نهائيا أو يمتد إلى بعض الناس فقط ثم يبطل إلى الأبد، ولا يجدر أيضا ألا يكون فيه تأثير إلا بالاسم فقط كمثل دواء زال تأثيره.

وبالإضافة إلى ذلك ما دامت حقيقةٌ متحققة الوجود خارجيا في كل عصر وعهد، وما زالت متحققة الوجود ويمكن إثباتها بالبداهة بشهادات متكاثرة، فأنّى لمنصف أن ينكر حقيقة بيّنة مثلها؟ وكيف وأين يمكن أن تُخفى حقيقة مكشوفة مثلها؟ مع أن القياس أيضا يقتضي أن تؤتي الشجرة أكلها ما دامت ثابتة، غير أن الشجرة التي يبست أو اقتُلعت من الجذور فإن الأمل في ثمارها محض غباوة. فما دام القرآن الكريم شجرة خضراء ونضرة وعظيمة الشأن أصلها ثابت في أغوار الأرض وأغصانها في السماء، فكيف يمكن إنكار ثمار هذه الشجرة الطيبة؟ إن ثمارها بديهية الظهور، أكلها الناس على مر العصور ولا يزالون يأكلونها وسيأكلونها في المستقبل أيضا. فمن سخف الكلام والخطأ قول بعض الجهلة إنه لا سبيل لأحد للوصول إلى هذه الثمار في العصر الراهن، وأن أكُلَها لم يكن إلا في نصيب السابقين فقط؛ فكانوا هم السعداء الذين أكلوها واستمتعوا بها، ثم جاء بعدهم أشقياء منعهم صاحب البستان من الدخول إليه. بينما الحق أن الله تعالى لا يضيع كفاءة ذي كفاءة، ولا يوصد باب فيضه على الباحث الصادق. أما من تبنّى فكرة أن باب فيوض الله تعالى يُوصَد في عصر

من العصور وتضيع مساعي ذوي الكفاءات وتذهب جهودهم أدراج الرياح فما قَدَرَ الله حق قدره إلى الآن. وإن شخصا كهذا يندرج في قائمة الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ *(الأنعام: ٩٢)*

ولو أُثيرت شبهة: أين الآن تلك العلوم والمعارف والكشوف الصادقة ومخاطبات الله التي ذُكرت وكيف يمكن إثباتها؟ فجوابها أن كل تلك الأمور قد أُثبتت في هذا الكتاب نفسه. والصراط السويّ والسهل لاختبارها مفتوح أمام كل طالب حق لأنه يستطيع أن يقرأها بأم عينه في هذا الكتاب. أما الكشوف الصادقة والأخبار الغيبية والخوارق الأخرى، فيمكن أن تثبت له بشهادة أصحاب الأديان الأخرى، أو يمكن أن يبلغ مرتبة اليقين الكامل ببقائه في صحبتي لبعض الوقت. كذلك يمكن أن تُكشف عليه ميزات الإسلام وخصائصه الأخرى أيضا ببقائه في الصحبة.

لكن يجدر بالانتباه هنا أن العجائب والغرائب التي تُكشَف على أهل الحق، وما توجد فيهم من البركات، فإنها تُكشَف على الباحث حين يأتيهم بكمال الصدق والإخلاص وبنِيَّة الاهتداء. وعندما يأتيهم من هذا المنطلق يُكشف عليه الأمر بقدر ما كان مقدَّرا بحسب مشيئة الله الخاصة. ولكن حيثما كان خلل في صدق السائل ونيته وكان قلبه خاليا من الإخلاص، فلا تُظهَر له آية. هذه سنة الله الجارية مع أنبيائه الكرام، كما يتبين من مطالعة الإنجيل بوضوح تام أن اليهود أرادوا مرارا أن يروا من المسيح معجزة، فرفض المسيح رفضا باتا وما أشار إلى أية معجزة سابقة أيضا. فقد أشير إلى ذلك في إنجيل مرقس ٨: ١٢ حيث جاء فيه: فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَابْتَدَأُوا يُحَاوِرُونَهُ طَالِبِينَ مِنْهُ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يُجَرِّبُوهُ * فَتَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ: لِمَاذَا يَطْلُبُ هذَا الْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هذَا الْجِيلُ آيَةً! فمع أن ظاهر العبارة يدل على أنه لم تظهر على يد المسيح أية معجزة قط، ولكن معناها الحقيقي هو أنه لم تظهر من المسيح عليه السلام أية معجزة إلى ذلك الحين، لذلك ما أشار إلى أية معجزة سابقة. والسبب

في ذلك أن الصادقين والمخلصين في اليهود كانوا قلّة حتى تظهر معجزة منسجمة مع حسن اعتقادهم. ولكن حين جاء الصادقون والمخلصون فيما بعد وجاءوا إلى المسيح عليه السلام كطلاب الحق، لم يحرَموا من رؤية المعجزات. فإن اطّلاع المسيح عليه السلام على فساد نية يهوذا الإسخريوطي كان معجزة بحد ذاتها أراها لتلاميذه وأناس صادقي الاعتقاد. ومع أن جميع أعماله الغريبة الأخرى عُدّت جديرة بالإنكار ومدعاة للاعتراض عند المعارضين بسبب قصة البِركة، وبسبب العبارة المذكورة آنفا ولا يمكن الاحتجاج بها الآن، ولكن المعجزة التي ذكرتها قبل قليل يمكن أن تكون قد حدثت بحسب رأي المعارضين المنصفين أيضا.

فباختصار، إن صدق طوية الطالب وإخلاص نيته شرطٌ لظهور المعجزات. ومن علامات الصدق والإخلاص ألا يكنَّ الطالبُ ضغينة ولا مكابرة، وأن يطلب الآية بصبر ومثابرة ومسكنة وتذلل وبنية الاهتداء. ثم يجب عليه الانتظار إلى حين ظهورها ممسكا بذيل الصبر والأدب حتى يُحدث اللهُ الكريم سبحانه وتعالى بعد ذلك أمرا يوصل الطالب الصادق إلى مرتبة اليقين الكامل. إذن فإن الأدب والصدق والصبر هو الشرط الأعظم لظهور البركات الإلهية. فالذي يريد أن يستفيد من فيض الله تعالى من الأنسب له أن يطلب هذه النعمة من باب أهلها بعد أن يكون أدبا متجسدا وبكمال المسكنة والصبر. وحيثما رأى عين معرفة الله تعالى، عليه أن يفرّ إليها بكل جهده وبكل ما في وسعه، ثم يتوقف لبضعة أيام متمسكا بأهداب الصبر. والذين جعلهم الله تعالى أصحاب خوارق لا يليق بهم أن يُرُوا خوارقهم في الأسواق والمحافل مثل المشعوذين. وليست هذه الأمور بيدهم أصلا، بل الحق أن النار موجودةٌ في زندهم دون أدنى شك، ولكن ظهورها وبروزها يتوقف على ضربة الصادقين والصابرين والمخلصين بحسن الاعتقاد.

وجدير بالذكر أيضا أنه من الخطأ تماما عدُّ كشوف أهل الله وإلهاماتهم أخبارا غيبية فقط. بل الحق أن تلك الكشوف والإلهامات إنما هي روائح طيبة من بستان تأييدات الله تعالى التي تخبر بوجود البستان من بعيد. وإن عظمة تلك الإلهامات والكشوف لا تتجلى كما هو حقها إلا على الذي يبحث عن التأييدات الإلهية.. أي الذي يعدّ التأييدات الإلهية هي الآية الحقيقية، ويرى النبوءات من مستلزمات تلك التأييدات التي استُخدمت إثباتا لها فقط. فإن مدار كون أحد مقربا إلى الله هو تأييدات الله ﷻ، وأما النبوءات فتريها للخواص والعوام كلهم على وجه الحقيقة بإثباتات بيّنة. فالتأييدات هي الأصل، والنبوءات فرعها. التأييدات كقرص الشمس والنبوءات أشعتها. النبوءات تنفع التأييداتِ ليعلم كل شخص أنها في الحقيقة تأييدات خاصة وليست من قبيل المصادفات العادية، ولا يمكن حملها على الحظ والصدفة. أما التأييدات فتفيد النبوءاتِ من حيث أنها تزداد قوة وعظمة نتيجة هذا الوثاق المتين، وتنشأ فيها خصوصية عديمة النظير لا توجد في غير المؤيَّدين من الله تعالى. فهذه الخصوصية تصبح العلامة الفارقة بين النبوءات العادية والنبوءات الجليلة الشأن المذكورة آنفا.

فلباب الكلام أنه يجب الانتباه جيدا إلى الصلة الوثيقة بين النبوءات والتأييدات من أجل إدراك عظمة هؤلاء القوم وجلالة شأنهم، لأن وجود هذه الصلة مستحيل وغير ممكن في نبوءات غيرهم. كما تتبين في نبوءاتهم أخطاء صريحة تُفتضَح بها ذلتهم وهواهم. أما أهل الله فتكون نبوءاتهم الواضحة مستنيرة بنور الصدق دائما. وبالإضافة إلى ذلك فإن نبوءاتهم المباركة تكون مصحوبة حتما بتأييد من نوع غريب. إن الله تعالى بنفسه يتولّى أمور عباده ويؤيدهم بأسلوب يحير العقول، ويكون في عونهم في كل حين وآن ظاهريا وباطنيا على حد سواء. ولقد جرت عادته معهم أنه يُنبئهم بتأييداته قبل الأوان، ويطمئنهم ويسكّن روعهم بكلامه المنير عند قلقهم واضطرابهم وينصرهم بأسلوب غريب

لا يكون في الحسبان. والذي يقيم في صحبتهم ويتدبر شؤوهم بعمق ويتأمل في عظمتهم وجلال شأنهم بنظرة نقية وطاهرة، فيضطر للاعتراف عفويا وبيقين جازم أنهم مؤيَّدون من الله، والله تعالى يهتم بهم بوجه خاص لأنه من الواضح تماما أنه إذا تعامل المرء مع أحدٍ عشرات المرات لا مرة أو مرتين، وسمع منه وعدا بتأييد من الله ﷻ قبل الأوان، ثم رأى تحققه بأم عينه فليس هذا الناظر بمجنون أو سفيه حتى لا يستيقن بعد ذلك بتلك النبوءات الصادقة والتأييدات القوية يقينا كاملا. أما إذا أنكر بفرط التعنت والخيانة حادثا رآه بأم عينه فهذا شيء آخر. ومع ذلك لن ينكره قلبه، بل سيُدينه في كل حين وآن قائلا: إنك شرير ومتمرد!

والآن أسجل بعض الكشوف والإلهامات الحديثة لإفادة طلاب الحق، وكذلك سوف أكتب في الكتاب بإذن الله ما سيُظهره الله تعالى على أحقر العباد هذا من المواهب اللدنية بين حين وآخر، إلا ما شاء الله. والهدف من وراء ذلك هو أن يستفيد منها طلاب اليقين والمعرفة الصادقون ويجدوا بسطة في حالتهم، ولتزول الحُجُب من على قلوبهم التي بسببها تضعف هممهم جدا وتُظلِم أفكارُهم بشدة.

وهنا أريد أن أكرر بأنها ليست بالأمور التي أعجزُ عن إثباتها أو أقدّم أهل ديني فقط تصديقا لها، بل هي أمور بديهية الصدق بنفسها، ويشهد بصدقها أيضا أتباع الأديان الأخرى، بل يمكن أن يشهد بها أيضا الذين يعادوننا في الدين. ولقد فعلت ذلك كله لكي ينكشف بكمال الوضوح على الذين يطلبون الصراط المستقيم في الحقيقة أن البركات والأنوار كلها مقتصرة على الإسلام ومحصورة فيه وحده. ولكي تتم حجة الله القاطعة على الجيل الملحد في هذا العصر، وتنكشف على كل منصف شيطنة طبعهم بأنهم ينكرون علوّ مراتب سيدنا خاتم النبيين ﷺ حبًّا للظلام وعداوة للنور، ويستخدمون بحقّ شخصه ﷺ العظيم كلمات مسيئة، ويوجِّهون إلى أفضل البشر تهما باطلة، ويجهلون نتيجة

عماهم الباطني البالغ غايتَه وإلحادِهم الشديد أنه قد جاء في الدنيا إنسان كامل واحد ظلَّ نورُه يُلقي بأشعته على الدنيا مثل الشمس دائما وسيظل يلقيها إلى الأبد، ولكي تتبين بواسطة هذه الكتابات الصادقة عظمةُ الإسلام بإقرار المعارضين بأنفسهم حتى يتوفر الإثباتُ لمن كان لديه طلب صادق، ولتُشَجَّ هامة كلِّ مستكبر.

ومن دواعي كتابة هذه الكشوف والإلهامات أيضا أن يزداد المؤمنون إيمانا، ولتثبت وتطمئن قلوبهم ويفهموا الحقيقة الحقة باليقين الكامل أن الصراط المستقيم هو الإسلام وحده. وأن هناك نبيا واحدا وكتابا واحدا تحت أديم السماء.. أي سيدنا محمد المصطفى ﷺ الذي هو أعلى الأنبياء جميعا وأفضلهم، وأتم الرسل كلهم وأكملهم، وهو خاتم الأنبياء وخير الناس، وباتباعه يمكن الوصول إلى الله تعالى وتزول الحُجُب المظلمة، وتظهر علامات النجاة الصادقة في هذه الدنيا. وإن القرآن الكريم الذي يشمل الهديَ والتأثيرات الكاملة والصادقة، وبسببه تُنال العلوم والمعارف الحقة ويتطهَّر القلب من الشوائب البشرية ويتخلص المرء من حُجُب الجهل والغفلة والشبهات ويصل إلى مرتبة حق اليقين. ومن دواعي كتابة هذه الكشوف والإلهامات وإثباتها بشهادات أتباع الأديان الأخرى أن تكون حجة قوية في أيدي المسلمين على الدوام، ولكي يَثبت باستمرار هزيمة هؤلاء الأسافل ذوي القلوب السوداء الذين لا يخافون الله ﷻ ويتصدون للمسلمين دون مبرر ويتكبرون مقابلهم وعدمُ قدرتهم على الجواب. ولكي يُحفَظ طلابُ الحق المعاصرون والأجيالُ القادمة من رياح الضلال المسمومة التي تهب في هذه الأيام، لأن هذه الإلهامات تحتوي على كثير من الأمور التي ستتحقق في مستقبل الأيام. فعندما ينصرم العصر الحاضر ويميط عالم جديد اللثام عن وجهه ويرى تحقق الأمور المذكورة في هذا الكتاب بأم عينه، ستفيد هذه النبوءات كثيرا لتقوية إيمانهم بإذن الله.

فالآن أسجل فيما يلي بعضا من النبوءات التي أظهرها الله تعالى.. فمن جملتها أنني قبل مدة من الزمن احتجت للنقود بشدة، وكان الآريون الساكنون هنا أيضا مطّلعين جيدا على حاجتي هذه. وكانوا يعرفون جيدا أنه ليس هناك أيّ أمل في الظاهر في الحصول على النقود، وكانت لديهم معرفة شخصية بهذه القضية بالذات ويستطيعون أن يشهدوا بذلك. فلما كانوا مطلعين جيدا على تلك الظروف الصعبة وفقدان أسباب حل المشكلة، هاجت في قلبي رغبة عارمة أن أدعو الله ﷻ لكي تحل مشكلتي باستجابة الدعاء، ومن ناحية أخرى تكون للمعارضين آية على تأييد الله تعالى ويشهدوا على صدقها. فدعوت في اليوم نفسه وسألتُ الله تعالى أن يُطلعني على النصرة المالية آيةً منه ﷻ، فتلقيتُ إلهاما مفاده: سأري القدرة بعد عشرة أيام، **ألا إن نصر الله قريب**، في شائلٍ مقياس، Then will you go to Amritsar. أي ستأتي النقود بعد عشرة أيام. وكما أن الناقة عندما تريد أن تلد، ترفع ذنبها لتشير إلى أنها على وشك الوضع، كذلك إن نصر الله قريب. ثم قال تعالى بالإنجليزية ما معناه: "إنك ستسافر إلى أمْرِتْسَر". وذلك بعد أن تأتيك النقود بعد عشرة أيام. فحدث ذلك بالضبط على مرأى من الهندوس (أي الآريين المذكورين).أي لم يأت إلى عشرة أيام ولا مليم واحد، وبعد عشرة أيام -أي في اليوم الحادي عشر- أرسل السيد "محمد أفضل خان" المفوض في محافظة راولبندي مئة وعشر روبيات، وجاءت عشرون روبية من جهة أخرى. ثم بدأت سلسلة مجيء النقود من حيث لم يكن في الحسبان. وفي اليوم الذي جاءت فيه النقود من السيد "محمد أفضل خان" وغيره، أي بعد مرور عشرة أيام، اضطررت للسفر إلى "أمرتسر" لأنه قد جاء في اليوم نفسه استدعاء من المحكمة الابتدائية في أمرتسر للإدلاء بشهادة.

فهذه نبوءة عظيمة يعرف تفصيلها جيدا بعض الآريين الساكنين هنا، وكذلك يعرفون أيضا أني كنت قد دعوت قبل النبوءة بناء على حاجة ملحة. ثم إن استجابة الدعاء والبشارة بمجيء النقود بعد عشرة أيام، والاطلاع على

السفر إلى أمرتسر بعد مجيء النقود فورا كلها أحداث صادقة وصحيحة تماما. وإنهم مطلعون أيضا على تحقق النبوءة أمام أعينهم. ومع أنهم ليسوا خِلوا من الخبث والعناد بسبب ظلمة الكفر، وعاكفون على البُغض والضغينة تجاه الإسلام مثل إخوتهم الآخرين، وساقطون على جيفة الدنيا وغير مهتمِّين تماما بالحق والصدق، ولكن لو طُلبت منهم شهادة مقرونة بالحلف لما وسعهم الإعراض عن الإدلاء بشهادة حق. ولسوف يُدلون بشهادة حق حتما مخافة الخزي ووبال الحلف، وإن لم يفعلوا ذلك خوفا من الله ﷻ.

ومن جملتها أن المولوي أبا عبد الله غلام علي القصوري المحترم، الذي سبق ذكره في الحاشية على الحاشية رقم٢، كان يشك في عظمة إلهام أولياء الله، وكان شكّه هذا باديا من بعض عبارات مجلته وليس من قوله وجها لوجه. فحدث قبل مدة أن جاء إلى هنا أحد تلامذته المدعو نور أحمد –وهو حافظ للقرآن الكريم وحاجٌ أيضا، وربما لديه بعض الإلمام بالعربية، كما هو واعظ بالقرآن ويسكن في أمرتسر– في أثناء تجواله على شاكلة الدراويش. وبدا لي أنه ينكر الإلهام بشدة أكثر من الشيخ المذكور أيضا، وكان يعدّ أفكار الإنسان البحتة إلهاما مثل أتباع برهمو سماج. فلما كان نازلا عندي أبدى عليّ من تلقاء نفسه على سبيل الادّعاء ما كان يكنُّه في قلبه من رأي خاطئ عن الإلهام. فحزنت لذلك كثيرا وحاولت قصارى جهدي إقناعه بالأدلة العقلية ولكن بدون جدوى حتى وصل الأمر إلى التوجه إلى الله تعالى. فأخبرته قبل صدور النبوءة بأنني سأدعو في حضرة الله ﷻ، وليس مستبعدا أن يستجيب الله دعائي ويُظهر ﷻ نبوءة تشهد تحقُّقَها بأم عينك! فدعوت الله تعالى ليلا لهذا الغرض وأُريتُ في الصباح في الكشف رسالة أرسلها شخص بالبريد مكتوب فيها باللغة الإنجليزية:"I am quarreler" ومكتوب أيضا بالعربية ما نصه: "هذا شاهدٌ نزّاغٌ"، وأُلقِي عليّ الإلهام نفسه حكايةً عن كاتب الرسالة. ثم زالت تلك الحالة، ولأنه ليس لديّ أيّ إلمام بالإنجليزية فأطلعتُ "ميان نور أحمد" قبل غيره

في الصباح الباكر على الكشف والإلهام، وأخبرته أيضا بالرسالة المزمعة الورود، ثم استفسرت شخصا مثقفا بالإنجليزية معنى تلك الجملة الإنجليزية وعلمتُ أن معناها: إني مخاصم. فتبين من هذه الجملة الوجيزة على وجه اليقين أن رسالة ستأتي عن خصام ما. أما الجملة الثانية: "هذا شاهد نزَّاغٌ" التي رأيتها مكتوبة حكايةً عن كاتب الرسالة فتبين معناها أن الكاتب قد كتب تلك الرسالة من أجل شهادة في قضية. وفي ذلك اليوم مُنع الحافظ نور أحمد من السفر إلى أمرتسر بسبب المطر. والحق أن منعه من السفر نتيجة أمر من السماء كان إخبارا عن استجابة الدعاء لكي يرى تحقق النبوءة بأم عينه كما رجوت من الله في الدعاء.

فباختصار، لقد سردتُ له مضمون النبوءة كلها، وفي المساء جاءت على مرأى منه رسالة بالبريد المسجل من مدينة أمْرِتْسَر من القسيس رجب علي مدير مطبعة "سفير هند". وتبين منها أن القسيس قد رفع في المحكمة الابتدائية قضية ضد ناسخ يعمل عنده وينسخ هذا الكتاب، وقد جُعلت شاهدا على حادث. وجاءت الرسالة مصحوبة باستدعاء رسمي. وبعد وصول الرسالة استنتجتُ من الجملة الإلهامية **"هذا شاهد نزّاغ"** -أي أن هذا الشاهد سيسبب دمارا- أن مدير مطبعة "سفير هند" كان متيقّنا يقينا كاملا بأن شهادة هذا العبد المتواضع التي ستكون صادقة وبحسب واقع الأمر تماما، ستسبب دمارا لخصمه لكونها صادقة وموثوقا بها، ولكونها جديرة بالاعتبار والتقدير. فمن هذا المنطلق كلّفني المدير المذكور بالإدلاء بالشهادة مستصدرًا الاستدعاء. وقد اتفق أن اليوم الذي تحققت فيه النبوءة واضطررتُ للسفر إلى أمرتسر كان هو اليوم نفسه الذي تحققت فيه النبوءة الأولى أيضا. فقد تحققت النبوءة الأولى أيضا أمام عينَي ميان نور أحمد، أي جاءت النقود في اليوم الكائن بعد مرور عشرة أيام، واضطررتُ للسفر إلى أمرتسر أيضا، فالحمد لله على ذلك.

ومن جملتها أني تلقيت ذات مرة إلهاما عند الفجر أن نقودًا ستأتي اليوم من أحد أقارب الحاج "أرباب محمد لَشْكَرْ خَانْ". فسردتُ هذه النبوءة أيضا في الحال لبعض الآريين كالمعتاد، وتقرر أن يذهب أحدهم إلى مكتب البريد عند موعد وصول البريد. فذهب آريٌّ يُدعى "ملاوا مل" إلى مكتب البريد عند الموعد المحدد وجاء بالخبر أنه قد جاءت عشر روبيات من "هوتي" في منطقة "مَردان"، وأحضر رسالة جاء فيها أن السيد "أرباب سرْوَر خان" قد أرسل هذه الروبيات العشر. ولما كانت كلمة "أرباب" توحي إلى الوحدة بين الاسمين عرقيا، لذا قلت للآريين بأن اشتراك الشخصين في كلمة "أرباب" يكفي لتحقق صدق النبوءة. ولكن بعضهم لم يقبلوا هذه الحجة وقالوا إن الوحدة من حيث الفئة العرقية شيء والقرابة شيء آخر، وأصروا على الإنكار بشدة متناهية، فاضطررنا نتيجة إصرارهم لإرسال رسالة بهذا الخصوص. فكتب شخصٌ اسمه منشي إلهي بخش الذي كان يعمل محاسبا في "هوتي" في "مردان" في جوابها أن السيد "أرباب سرور خان" هو ابن السيد "أرباب لشكر خان"، فبوصول هذا الجواب عجز المعارضون جميعا و لم يطيقوا جوابا، فالحمد لله على ذلك.

ومن جملتها أني أُخبِرتُ مرة في أبريل/نيسان عام ١٨٨٣م في حالة اليقظة عند الصباح أن بعض النقود قد أُرسلت من مدينة "جِهْلُم". وكان الآريون الساكنون هنا الذين كان بعضهم يذهب إلى مكتب البريد ليتبيّن الأمر بنفسه، يعرفون جيدا أنه ما جاءت رسالة من قبل من "جهلم" لتخبر شيئا عن إرسال النقود، لأني كنت قد دبّرت سابقا أنه كلما جاءت رسالة بالبريد أن يحضرها من مكتب البريد الآريون بأنفسهم، وبالتالي كانوا على اطلاع كامل على كل ما يحدث كل يوم. وكان مدير مكتب البريد أيضا هندوسيا إلى ذلك الحين.

فباختصار، كنت في الأيام التي تلقيت هذا الإلهام قد وظّفتُ الشاب "شام لال" -وهو ابن أحد الانديتات ويستطيع أن يكتب بالهندية والفارسية- لكتابة المذكرات اليومية، فكنت أُملي عليه دائما كلما كُشف عليَّ شيء من الأمور

الغيبية لتُكتب قبل ظهورها بالهندية والفارسية، ثم أطلب من "شام لال" المذكور أن يوقِّع عليها. فأمليت عليه هذه النبوءة أيضا كالمعتاد، وأخبرتُ بها حينها عديدا من الآريين أيضا. ولم تمض خمسة أيام إلا وقد جاءت حوالة بريدية من مدينة "جهلم" قدرها ٤٥ روبية. وحين استوضِح الأمر أكثر تبين أن الحوالة كانت قد أُرسلت في اليوم نفسه الذي أخبرني الله عالم الغيب بإرسالها. وقد تحققت هذه النبوءة أيضا بأسلوب تبيَّن صدقُها على المعارضين بوضوح تام ولم تعد عندهم مندوحة من قبولها، لأنهم كانوا يعرفون معرفة شخصية أنه لم يُعرَف لإرسال هذه النقود من مدينة "جهلم" أيّ أثر أبدا، ولم تأت رسالة لتخبر شيئا عن ذلك. فالحمد لله على ذلك.

ومن جملتها أني رأيت في الرؤيا قبل مدة أن رسالة جاءت من النواب "إقبال الدولة" من ولاية حيدر آباد، وعد فيها بإرسال بعض النقود. فأمليت هذه الرؤيا أيضا ضمن المذكرات على الهندوسي المذكور، وأخبرتُ بها عديدا من الآريين أيضا. ثم جاءت الرسالة بعد بضعة أيام من حيدر آباد، أرسل معها النواب المحترم مئة روبية، فالحمد لله على ذلك.

ومن جملتها أيضا أن أحد الإخوة كتب إليَّ وهو في مشكلة شديدة الوطأة، فقال إن أحد أقاربه مأخوذ في قضية شائكة ولا يبدو أن هناك مجالا للنجاة ولا سبيلا للخلاص. فكتب هذا الأخ قصته الأليمة طالبا الدعاء. فلما كان الخير مقدرا في نصيبه وكان القدر معلَّقا، فتيسر لي وقت صفاء ليلا ما كان قد تيسر منذ مدة. فدعوت له وكان وقت الصفاء يوحي بأمل الاستجابة. فأخبرتُ أحد الآريين بأمارات الاستجابة. ثم تناهى إليّ خبر بعد بضعة أيام أن رافع القضية قد مات فجأة، فتخلّص المتَّهَم، فالحمد لله على ذلك.

وبالإضافة إلى ذلك إنني أتلقى في بعض الأحيان إلهاما بلغة أجنبية ليس لديّ أدنى إلمام بها، ثم إن كون الإلهام مبنيا على نبوءة، لَهُو من العجائب اللافتة التي تدل على قدرات القادر القدير الواسعة. مع أن جميع كلمات اللغة الأجنبية لا

تُحفَظ بالضبط، فقد يكون هناك تفاوت بسيط في لفظها بعض الأحيان بسبب سرعة نزول الإلهام وعدم إلمامي بتلك اللغة واللهجة، ولكن نادرا ما يحدث التفاوت في معظم الجمل الواضحة وغير الثقيلة. ويحدث أيضا في بعض الأحيان أني لا أذكر بعض كلماتها لسرعة الإلقاء، ولكن حينما يتكرر إلقاء جملة أكثر من مرة أحفظ كلماتها جيدا. وفي أثناء الإلهام يعمل الله القادر القدير بتصرفه البحت الذي لا تشوبه شائبة الأسباب الداخلية أو الخارجية. عندها يكون اللسان كأداة في يد الله تعالى يقلّبه كيفما يشاء وحيثما يشاء. ويحدث في معظم الأحيان أن الكلمات تتوالى بالخروج بقوة وسرعة هائلة، غير أنه يحدث أحيانا أخرى أنْ تنـــزل بتريث كمن يخطو بلطف ودلال؛ فيقف على قدمٍ هنيهة ثم يخطو بالأخرى ويبدي جمالا باهرا في المشي. والحكمة في اختيار كِلا الأسلوبين هي ليتميز الإلهام الرباني تماما من الأفكار النفسانية والشيطانية، وليُعرف إلهام الله القادر القدير فورا ببركة جماله وجلاله.

لقد تذكرت أنني تلقيت ذات مرة إلهاما بالإنجليزية أولا: I love you؛ أي إني أحبك. ثم تلقيت إلهاما آخر: .I am with you؛ أي أني معك. ثم أُلهمتُ: I shall help you؛ أي سأنصرك. ثم أُلهمتُ: I can what I will do؛ أي أستطيع أن أفعل ما أريد. ثم تلقيت إلهاما آخر بشدة ارتعد لها جسمي: We can what we will do؛ أي نستطيع أن نفعل ما نريد. وشعرت حينها من اللهجة وأسلوب اللفظ كأن هناك شخصا إنجليزيا واقفًا بجانبي ويتكلم. وكان الكلام، مع كونه مهيبا، يتسم بلذة تطمئن لها الروح قبل الاطلاع على معانيه. وهذا الإلهام بالإنجليزية أتلقاه بكثرة. لقد جاء لزيارتي ذات مرة طالب مثقف بالإنجليزية فتلقيت في أثناء حضوره إلهاما: This is my enemy؛ أي هو عدوٌّ لي. مع أنني علمت أن الإلهام يتعلق به هو، ومع ذلك سألته معناه. ثم تبين في نهاية المطاف أنه كان شخصا من هذا النوع ووُجدت في باطنه أنواع الخبث.

وقد أُريت صبيحة يوم بالكشف أوراقا مطبوعة جاءت من مكتب البريد ومكتوب في نهايتها:

I am by Isa؛ أي أنا مع عيسى. فاستفسرت عن معناه من شخص مثقف بالإنجليزية وأَخبرتُ به آريَين من الهندوس، وفهمت منه أن شخصا من المسيحيين أو من كان على شاكلتهم سيطبع اعتراضات ضد الإسلام ويرسلها لي. ففي اليوم نفسه أُرسل أحد الآريين إلى مكتب البريد في موعد البريد فجاء ببعض الأوراق المطبوعة المحتوية على بعض الاعتراضات التي كتبها على غرار المسيحيين شخص ذو أفكار واهية.

وذات مرة كان هناك أمر جدير بالاستعلام؛ فأُعطيت في يدي في المنام درهما من فضة كان بشكل اللوز، خُطَّ عليه سطران. كُتب في السطر الأول جملة بالإنجليزية: Yes, I am happy، وتحته على السطر الثاني بعد الخط الفاصل كُتبت ترجمتها أي: نعم، أنا سعيدٌ. وفي إحدى المرات حين كنت سأواجه أيام الحزن والألم أُريتُ في الكشف جملة إنجليزية مكتوبة على ورقة: Life of pain؛ أي حياة الألم. وذات مرة أُلهمتُ الجملتين التاليتين بالإنجليزية:

God is coming by His army. He is with you to kill enemy. وذلك عن بعض المعارضين الذين أساءوا إلى القرآن الكريم بمحض العناد في قلوبهم وعداوتهم الشخصية التي لا يمكن فعل شيء حيالها، ووجّهوا إلى الإسلام الدين المتين اعتراضات بذيئة وسخيفة.. ومعناهما أن الله تعالى قادم مع جيش الأدلة والبراهين، وهو معك لقتل العدو وجعْله مغلوبا. وكانت هناك جمل أخرى كثيرة أيضا، أذكر بعضها ونسيتُ بعضها. ولكن أكثر ما يُلهَم إليّ هو بالعربية وخاصة بالآيات القرآنية، ويكون بكثرة وتواتر. فأسجل بعض الإلهامات العربية التي تشمل أنباء عظيمة ومنن الله تعالى لكي يستفيد منها الطلاب الصادقون إذا شاء الله، وليعلم المعاندون أيضا كيف يعامل الله تعالى بلطف في مكالماته ومخاطباته قوما ينظر ﷻ إليهم بتحنن والذين هم على صراط مستقيم، وكيف

يُطلعهم قبل الأوان على إنعاماته التي أعدّها بمحض لطفه لحينها. وفيما يلي تلك الإلهامات:

"بُورِكْتَ يَا أَحْمَدُ وَكَانَ مَا بَارَكَ اللهُ فِيكَ حَقًّا فِيكَ. شَأْنُكَ عَجِيبٌ وَأَجْرُكَ قَرِيبٌ. إِنِّي رَاضٍ مِنْكَ، إِنِّي رَافِعُكَ إِلَيّ. الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ مَعَكَ كَمَا هُوَ مَعِي."

لقد جاء ضمير "هو" بصيغة الواحد بتأويل ما في السماوات والأرض. ومحصّلة هذه العبارة ألطاف الله تعالى وبركاته التي تحالف كل مؤمن كامل ببركة اتّباع سيدنا خير الرسل ﷺ. أما المصداق الحقيقي لهذه الأفضال كلها فهو النبي ﷺ، وأما غيره كلهم فينالونها ببركته هو ﷺ.

لا بد من التذكر في كل موضع أن كل مدح وثناء يرد في إلهامات مؤمن فهو للنبي ﷺ على وجه الحقيقة، أما المؤمن فينال نصيبا منه بقدر اتباعه للنبي ﷺ، وذلك أيضا بمحض فضل الله تعالى ومنته وليس لبراعة أو ميزة في نفس المؤمن. ثم قال تعالى بعد ذلك: "أَنْتَ وَجِيهٌ فِي حَضْرَتِي اخْتَرْتُكَ لِنَفْسِي. أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ تَوحِيدِي وَتَفْرِيدِي فَحَانَ أَنْ تُعَانَ وَتُعْرَفَ بَينَ النَّاسِ." ...فحان أن يذاع صيتك في الناس. "هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا."

أي ألم يأت على الإنسان أي عليك زمان لم يكن يذكرك أحد في العالم، أي لم يكن فيه أحد يعرف من أنت وما هويتك، ولم تكن شيئا يُعتَدُّ به. وهذه إشارة إلى ألطاف الله تعالى ومننه السابقة لتكون مثالا على ما سينـزل من المحسن الحقيقي من أفضال.

"سُبْحَانَ اللهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالى. زَادَ مَجْدَكَ، يَنْقَطِعُ آبَاؤُكَ وَيُبْدَأُ مِنْكَ."

أي سينقطع ذكر آبائك للأبد، وسيبدأ الله تعالى المجدَ والشرف منك.

"نُصِرْتَ بِالرُّعْبِ وَأُحْيِيتَ بِالصِّدْقِ. أَيُّهَا الصِّدِّيقُ نُصِرْتَ. وَقَالُوا لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ" أي سيحالفك من الله نصرٌ يكسر قلوب المعاندين، فيستولي على قلوبهم اليأسُ ويستبين الحقُ.

"وَمَا كَانَ اللهُ لِيَتْرُكَكَ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ. وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ هذَا الَّذِي كُنْتُم بِه تَسْتَعْجِلُونَ." أي... فيقال عندها للكفار: هذا الذي كنتم به تستعجلون.

"أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَخْلِفَ فَخَلَقْتُ آدَمَ، إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ". أي أردت أن أجعل من عندي خليفة، قوله "إني جاعل في الأرض" كلمة مختصرة معناها أني سأقيمه. والمراد من الخليفة هنا شخص يكون واسطة بين الله وبين الخلق لإرشادهم وهدايتهم. ولا تراد هنا الخلافة الظاهرية التي تُطلق على السلطنة والحكومة، وليست مسلَّما بها من الله تعالى في شريعة الإسلام لأحد غير قريش. بل الحق أنه قد ذُكرت هنا المراتب الروحانية أو النيابة الروحانية. كما ليس المراد من كلمة "آدم" هو ذلك الآدم الذي هو أبو البشر، بل المراد منه شخص يقام بواسطته نظام الرشد والهداية ويوضَع به أساس الخَلق الروحاني، وكأنه أبٌ لطلاب الحق من حيث الحياة الروحانية. هذه نبوءة عظيمة، أُشير فيها إلى قيام جماعة روحانية في وقت لا يوجد لها أيّ أثر أبدا. ثم ذكر المرتبة الروحانية لهذا الآدم الروحاني فقال: "دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَو أَدْنَى".

حين تلقَّيت هذه الآية الكريمة إلهاما كنت مترددا في معرفة معناها وتحديده. وفي أثناء هذا التردد غلبتني الغفوة وانكشف عليَّ معناها في الرؤيا. وبيان ذلك أن الدنُوّ يعني قرب الله تعالى. وليس المراد من القرب الحركة من مكان إلى مكان أقرب، بل يُعدُّ الإنسان مقرَّبا إلى الله حين يتخلّى عن إرادته وعن نفسه وعن المخلوق وعن كل ما سوى الله من أنداد وأغيار، ويفنى في طاعة الله تعالى وحبه كليًّا، ويبتعد عن كل ما سوى الله بُعدا تاما، ويغرق في بحر حب الله

تعالى بحيث لا يبقى لوجوده وأنانيته أدنى أثر أبدا. وما لم يتخلّ عن شوائب نفسه، وما لم يتحلّ بحلّة البقاء بالله لا يكون أهلا لنيل ذلك القرب. وإن مرتبة البقاء بالله لا تُنال ما لم يصبح حب الله تعالى للإنسان غذاء وما لم تستولِ عليه حالة لا يستطيع فيها العيش دون ذكر الله تعالى، ويرى استقرار غير الله في قلبه موتا له، حتى يلاحَظ بصراحة تامة أنه يعيش مع الله ﷻ. وأن يُجذَب إليه ﷻ بحيث يبقى قلبه مستغرقا في ذكر الله دائما، ومتألما من أجله. وأن ينفر من غيره ﷻ وكأنه يكنُّ عداوة شخصية لغيره فيتألم بطبيعته من الميل إليه. فعندما تتحقق هذه الحالة يتطهّر تلقائيا قلبه الذي هو مورد الأنوار الإلهية وتنعكس فيه أسماء الله وصفاته، فينال العارف بالله كمالا آخر وهو كمال التدلِّي. والمراد من التدلِّي هو الهبوط والنـــزول الذي يحدث حين يرجع الإنسان إلى عالَم الخَلق شفقةً على العباد مثل الله الرحمن والرحيم تماما متخلّقا بأخلاقه ﷻ. ولأن كمالات الدنُوِّ تستلزم كمالات التدلِّي، لذا فسيكون التدلِّي بقدر الدنُوِّ نفسه. وإن كمال الدنُوِّ يكمن في انعكاس أسماء الله وصفاته في قلب السالك، وأن يتجلى فيه المحبوب الحقيقي بجميع صفاته الكاملة دون شائبة من الظلمة ودون وهْم الحلول فيه. وهذه هي حقيقة الاستخلاف وماهية نفخ روح الله، وهذا هو الأساس الحقيقي للتخلق بأخلاق الله ﷻ. ولما كانت حقيقة التدلّي تستلزم التخلّقَ بأخلاق الله، وكمالُ التخلُّق بأخلاق الله يقتضي أن يبلغ السالكُ في الشفقةِ على العباد، والوقوفِ موقف الناصح لهم، والعكوف على إيصال الخير لهم بالقلب والروح، مبلغًا لا يُتصوَّر المزيد عليه؛ فيضطر الواصل الكامل أن يكون مجمع الأضداد، بمعنى أن يتوجّه إلى الله تعالى على أكمل وجه، وأن يتوجّه كذلك إلى الخلق على أكمل وجه، فيكون بين القوسين، قوس الألوهية وقوس البشرية، كالوتر الذي يكون على صلة قوية معهما.

فخلاصة الكلام أن الوصول الكامل يستلزم الدنوّ والتدلّي كليهما. الدنوّ اسم لذلك القرب التام حين يحقق الإنسان الكاملُ -بواسطة التزكية الكاملة-

السيرَ في الله بعد السير إلى الله ويفنى تماما من وجوده الحقير ويغرق في بحر الألوهية ويخلق وجودا جديدا لا مغايرة فيه ولا جهل ولا سفاهة، ويتسنى له الانصباغ الكامل بصبغة الله الطاهرة. أما التدليّ فهو اسم لحالة الإنسان حين ينصبغ بصبغة ألطاف الله ورحماته وبعد التخلق بأخلاق الله يرجع إلى عباد الله للإصلاح والإفادة. فليكن معلوما أنه يوجد هنا في قلب واحد وفي حالة واحدة وبنيّة واحدة نوعانِ من الرجوع، الرجوع الأول هو إلى الله تعالى الذي هو الوجود الأزلي، والرجوع الثاني هو إلى عباده الذين هم وجود محدَثٌ. ومَثَلُ النوعين من الوجود، أي القديم والحادث، كمثل الدائرة التي طرفها الأعلى هو "الوجوب" وطرفها الأسفل هو "الإمكان". ويأخذ الإنسان الكامل في وسط هذه الدائرة صورة تمثيليّة نتيجة الاتصال المحكم بكِلا الجانبين أي الدنُوّ والتدلِّي كالوتر في دائرة قوسين. بمعنى أنه يصبح واسطة بين الله تعالى وبين الخلق. فأولا توهَب له خِلعة خاصة من الدنُوِّ وقرب الله فيصعد إلى أعلى مقام القرب، ثم يُنــــزَل إلى الخلق. فيظهر صعوده هذا ونزوله بصورة قوسينِ وتكون نفس الإنسان الكامل -جامعة العلاقتين- بمنــــزلة "قابِ قوسين". و"القاب" يُطلَق في العربية على الوَتر. المعنى الحرفي لهذه الآية هو أنه دنا، أي قرُب إلى الله تعالى، ثم تدلّى أي رجع إلى الخلق، فصار مثل وتر واحد للقوسينِ بسبب صعوده ونزوله. ولأن توجّهه إلى الخلق كان نابعا عن عينٍ نقية للتخلق بأخلاق الله فإن توجُّهه إلى الخلق عينُ التوجه إلى الخالق. أو يمكنٌ أن تفهموا بتعبير آخر أن الله تعالى المالك الحقيقي يتوجّه إلى العباد نتيجة شفقته على العباد البالغة غايتها وكأنه مقيم عندهم. فلما بلغ السالك كماله في سيره إلى الله اضطر للعودة إلى المكان الذي كان اللهُ فيه. فلهذا السبب صار كمال الدنُوّ.. أي القرب التام مدعاة لتدلِّيه أي هبوطه.

"يُحيِي الدِّينَ وَيُقِيمُ الشَّرِيعَةَ. يَا آدَمُ اسْكُنْ أنْتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ، يَا مَرْيَمُ اسْكُنْ أنْتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ، يَا أحْمَدُ اسْكُنْ أنْتَ وَزَوجُكَ الْجَنَّةَ. نَفَخْتُ فِيكَ مِنْ لَّدُنِّي رُوحَ الصِّدْقِ."

أي: ..يا آدم، يا مريم، يا أحمد أُدخلْ أنت ومتّبعك ورفيقك الجنةَ، أي أدخُلْ في وسائل النجاة الحقيقية... هنا أيضا ذُكر السبب وراء تسمية آدم الروحاني بهذا الاسم، وهو أنه كما كانت ولادة آدم عليه السلام بدون أسباب مادية، كذلك ستُنفخ الروح في آدم الروحاني أيضا بدون أسباب مادية.

وهذا النفخ خاص بالأنبياء عليهم السلام حقيقةً، ثم توهَب هذه النعمةُ لبعض خواص الأمة المحمدية على سبيل التبعية والوراثة، والأنباء الكامنة في هذه الجمل أيضا واضحة. ثم قال بعد ذلك: "نُصِرْتَ، وَقَالُوا لاَتَ حِينَ مَنَاصٍ. إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ رَدَّ عَلَيهِمْ رَجُلٌ مِنْ فَارِسَ، شَكَرَ اللهُ سَعْيَهُ. كِتَابُ الْوَلِي ذُو الفقَار عَلِيٍّ."

أي: أن كتاب الوليّ هو مثل سيف عليّ، أي أن هذا الكتاب يُفني المعارض ويبيده، وكما أن ذوالفقار عليٍّ رضي الله عنه أنجز أعمالا عظيمة في معارك خطيرة، كذلك سينجز هذا الكتاب مهمات عظيمة أيضا. وهذه أيضا نبوءة عن تأثيرات هذا الكتاب العظيمة وبركاته العميمة. ثم قال بعد ذلك: "وَلَو كَانَ الإيْمَانُ مُعَلَّقًا بِالثُّرَيَّا لَنَالَه" أي لو ارتفع الإيمان من الأرض وتعلّق بالثريا لناله الرجل المذكور آنفا.

"يَكَادُ زَيتُه يُضِيءُ وَلَو لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ. أمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. وَإنْ يَرُوا آيَةً يُّعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ. وَاسْتَيقَنَتْهَا أنْفُسُهُمْ، وَقَالُوا لاَتَ حِينَ مَنَاصٍ. فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ عَلَيهِمْ، وَلَو كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَولِكَ. وَلَو أنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ."

أي: أيقولون إننا جماعة قوية وقادرة على الردّ، ولكن هذا الجمع سوف يتشتت كلهم ويولّون الدبر. وكلما يرون آية يقولون إنه شيء بسيط وسحر

قديم، مع أن قلوبهم تكون موقنة بهذه الآيات وتشهد أنفسهم أن لا مناص لهم منها. وإنه لمن رحمة الله أنك ليّنٌ معهم، ولوكنتَ حادّ الطبع قاسي القلب لما اقتربوا منك بل فروا من حولك حتى لو رأوا من معجزات القرآن ما يسيّر الجبال.

لقد أُلهمتْ هذه الآيات بحق قوم كانت أفكارهم وحالتهم على هذا النحو، وقد يخرج آخرون أيضا يتصرفون مثلهم، ويظلّون منكرين مع وصولهم درجة اليقين الكامل. ثم قال بعد ذلك: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قَرِيبًا مِنَ الْقَادِيَانِ. وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ. صَدَقَ اللهُ وَرَسُولَهُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً."

أي: قد أنزلْنا هذه الآياتِ والعجائبَ وهذا الإلهام المليء بالمعارف والحقائق بالقرب من قاديان، وأنزلناها وفقًا للضرورة الحقة، وقد نزل بناء على الضرورة الحقة. أنبأ الله ورسوله بأمور تحققت في موعدها، وكان أمر الله مفعولاً لا محالة.

والكلمات الأخيرة من الوحي إشارة إلى أن النبي ﷺ قد أشار في حديثه المذكور آنفا إلى بعثة هذا الرجل، كما أن الله تعالى قد أشار إليه في كلامه المجيد. أما الإشارة النبوية فقد سبق أن سُجّلتْ في الإلهامات المذكورة في الجزء الثالث من هذا الكتاب، أما الإشارة القرآنية فهي مذكورة في الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف: ١٠)

هذه الآية تتضمن نبوءة بحق المسيح عليه السلام ماديًّا وسياسيًّا. وإن الغلبة الكاملة التي وُعد بها الإسلام ستتحقق بواسطة المسيح؛ فعندما يأتي المسيح عليه السلام إلى الدنيا ثانية سينتشر الإسلام على يده في جميع الأقطار والأمصار.

وقد كُشف على هذا العبد المتواضع أن حياتي تماثل حياة المسيح عليه السلام في فترتها الأولى من حيث الفقر والتواضع والتوكل والإيثار والآيات والأنوار، وأن هناك تشابها كبيرا بين طبيعتي وطبيعة المسيح، وكأنهما قطعتان من جوهر واحد، أو ثمرتان لشجرة واحدة، ويوجد بينهما اتحاد شديد بحيث لا يوجد

بينهما إلا فارق بسيط جدا من حيث النظرة الكشفية. ثم هناك مماثلة ظاهرية أيضا وهي أن المسيح كان تابعًا لنبي كامل وعظيم، أعني موسى عليهما السلام، وكان خادمًا لدينه، وإنجيله فرع للتوراة، وأنا أيضا من أحقر خدام ذلك النبي الجليل الشأن ﷺ الذي هو سيد الرسل وتاج المرسلين أجمعين. فإذا كان هؤلاء حامدين فهو أحمدُ، وإذا كان هؤلاء محمودين فهو محمّد ﷺ. فما دامت هناك مشابهةٌ تامة بيني وبين المسيح عليه السلام لذا قد أشركني الله تعالى منذ البداية في النبوءة المتعلقة بالمسيح، بمعنى أن المسيح عليه السلام هو المصداق الظاهري والمادي للنبوءة المذكورة آنفا، وأنا مصداقها ومحلها من حيث الروحانية والعقل، بمعنى أن غلبة الإسلام الروحانية التي تعتمد على الحجج القاطعة والبراهين الساطعة مقدرة بواسطتي أنا العبد المتواضع، سواء كانت في حياتي أو بعد مماتي. ومع أن الإسلام كان غالبا منذ البداية من حيث أدلته الصادقة وظل معاندوه يواجهون الخزي والذلة، لكن ظهور غلبته على الفِرق والأقوام المختلفة فهي مقدرا في زمن من شأنه أن يجعل الدنيا كلها -بسبب اكتشاف الوسائل- كبلاد متحدة، ويُدخلها في حُكم قوم واحد، ويهيئ كافة أسباب إشاعة التعليم ووسائل إشاعة الدين بكل سهولة ويُسر، ويكون الأنسب والأصلح للتعليم الصادق داخليا وخارجيا؛ وهو هذا الزمن الراهن لأنه بسبب اكتشاف الوسائل والتعارف المتبادل بين الأقوام والبلاد قد تيسرت أسباب تبليغ الدعوة بأحسن وجه. وقد سهلت الأمور إلى حد كبير لنشر التأليفات الدينية بفضل نظام البريد والبرقية والقطار والسفن وغيرها من وسائل متنوعة أخرى.

فباختصار، لا شك أنه قد حان الأوان الذي بدأت فيه الدنيا كلها تدخل في حكم بلد واحد. وبسبب ذيوع مختلف اللغات ورواجها اكتُشفت وسائل كثيرة للتفهيم والتفهّم، وقد زالت مشاكل المغايرة والغربة إلى حد كبير، وبسبب الزيارات المتبادلة والاختلاط تضاءلت الوحشة والنفور الذي كان موجودا بين الأقوام بطبيعة الحال. لقد بدأ الهندوس أيضا يقومون بجولات إلى

بريطانيا وأميركا بعد ما كانت دنياهم منحصرة في جبال الهملايا فقط، وكان السفر بحرا يُخرجهم من دينهم.

فملخص الكلام أن كل وسيلة لنشر الدين قد بلغت منتهاها. ومع أن الظلام سائد في الدنيا كلها، ولكن مع ذلك يبدو أن مرحلة الضلال موشكة على الانتهاء، وكمال الضلال يبدو آيلا إلى الزوال. فالطبائع السليمة شرعت في البحث عن الصراط المستقيم بقَدر من الله تعالى، وبدأت الطبائع الطيبة والطاهرة تنسجم مع الطريق الحق تلقائيا. وقد أمال حماس التوحيد الطبيعيُّ القلوبَ النشطة إلى عين التوحيد النقية. ويتبين هوان فكرة عبادة المخلوق للعقلاء يوما إثر يوم، وبدأ ذوو الفطنة يرون الآلهة الزائفة وقد بدأت تلبس لباس البشرية من جديد. وإلى جانب كل ذلك إن النصرة السماوية في هياج لتأييد الدين الحق، حتى أن الآيات والخوارق التي أُلِّه العباد العاجزون والناقصون بناء عليها أصبحت اليوم مشهودة وملحوظة على أيدي أدنى خدام سيد الرسل ﷺ. والآيات التي كان بعض الأنبياء في الأزمنة السابقة يُرُونها متخفّين لحوارييهم فقط، تظهر اليوم أمام الأعداء على أيدي أحقر أتباع سيد الرسل ﷺ. وبشهادة الأعداء أنفسهم ترى شمس صدق الإسلام آخذة في الطلوع على العالم كله.

وبالإضافة إلى ذلك إن هذا الزمن ملائم لنشر الدين؛ فما كان مستحيلا نشرُه في الأزمنة الماضية خلا مئة سنة يمكن نشرُه الآن في كافة البلاد في غضون عام واحد فقط. فتوجد في العصر الراهن قوة وقدرة لدق طبول الهدي الإسلامي والآيات الربانية ما وُجد نظيرها في الأزمنة الخالية. فترى اليوم مئات الوسائل؛ مثل القطارات ونظام البرقيات والجرائد وغيرها.. على أتم الاستعداد لأداء هذه الخدمة وتوصيل أحداث بلد إلى بلد آخر. فلا شك أن انتشار أدلة صدق الإسلام في العالم كله من حيث العقل والروحانية كان مقدرا لهذا الزمن. وهذا الزمن المزوَّد بالأسباب يهيئ الأسباب من جميع الوجوه لخدمة هذا الضيف العزيز. فلقد خلق الله تعالى أحقر العباد هذا في هذا العصر وأعطاني

مئات الآيات السماوية والخوارق الغيبية والمعارف والحقائق وأطلعني على مئات الأدلة العقلية القاطعة، وبذلك أراد أن ينشر تعاليم القرآن الكريم الصادقة في كل قوم ويروّجها في كل بلد ويتم حجته عليهم. فبناء على مشيئته هذه وفّقني الله تعالى لأُلحق بهذا الكتاب إعلانا بجائزة عشرة آلاف روبية إتماما للحجة، وقدّمت آية من السماء بشهادة الأعداء والمعاندين، ودعوت جميع المعارضين لمنافستها ومواجهتها؛ لكيلا أدّخر جهدا في إتمام الحجة، ولكي يشهد كل معارض على كونه مغلوبا وعدم قدرته على الجواب.

فباختصار، إن الأسباب والوسائل التي أعطانيها الله تعالى لنشر الدين وما رزقني من الأدلة والبراهين لإتمام الحجة بمحض فضله ورحمته، لم يُعطها أحدا من الأمم الخالية إلى يومنا هذا. وما رُزقتُه أنا العبد الضعيف من أصناف التوفيق الغيبـي في ذلك ما رُزق أحد منهم إياها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فلقد خصّني الله تعالى بأسباب خاصة، وخلقني في زمن هو الأنسب والأكثر فائدة لإتمام خدمة التبليغ. لذا فقد بشرني ﷻ أيضا بمحض فضله ولطفه أنه مقدَّر منذ الأزل أني أنا المصداق الروحاني للآية المذكورة آنفا والآية: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ *(الصف: ٩)*. وأن الأدلة والبراهين وجميع الأمور الأخرى التي كتبتُها موجَّهة إلى الأعداء سيتولّى الله تعالى بنفسه أمر إيصالها إليهم، وسيُظهر على العالم أنهم مغلوبون وعاجزون لا يطيقون جوابا، وبذلك يحقق مضمون الآية المذكورة آنفا، فالحمد لله على ذلك.

والإلهام الذي تلقيته بعده هو: "صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ سَيدِ ولدِ آدَمَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ". وفيه إشارة إلى أن كل هذه المراتب والأفضال والعنايات إنما هي بسببه وجزاءٌ على حبي له ﷺ. سبحان الله! ما أسمى المكانةَ التي يحتلها سيد الكون ﷺ عند الحضرة الأحدية، وما أكثرَه قربًا لديه ﷻ، حيث إن مُحِبّه ﷺ يصبح محبوبًا عند الله تعالى، وإن خادمه ﷺ يُجعَل مخدوم العالم.

"ما من حبيب يماثل حبيـبي، فلا وزن للشمس ولا للقمر في مدينة حبيـبي

أين الوجه الجميل مثل جمال وجه حبيـــبي المنير؟ وأين ذلك البستان ذو الربيع مثل ربيع حبيـــبي"[٨٧]

قد تذكرتُ هنا أنني صليت على النبي ﷺ في إحدى الليالي بكثرة حتى تعطرَ به القلب والروح، فرأيت في الليلة نفسها قد أتوا *(أي الملائكة)* بيتي بقِرَبٍ من نور على هيئة ماء زلال، وقال أحدهم: هذا بما صليت على محمد ﷺ. وتذكرتُ الآن حادثًا غريبًا آخر بأني تلقيت مرة إلهامًا فحواه أن أهل الملأ الأعلى في خصام؛ أي أن مشيئة الله تعالى تهيج لإحياء الدين، ولكن لم ينكشف على الملأ الأعلى بعدُ تحديد الشخص المحيي، فلذلك هم يختلفون. وفي أثناء ذلك رأيت في الرؤيا أن الناس يبحثون عن هذا المحيي، وأتى أحدهم أمام هذا العبد المتواضع وقال مشيرا إليّ: "هذا رجل يحب رسولَ الله ﷺ". وكان المراد من قوله هذا أن أعظم شرطٍ لهذا المنصب هو حب النبي ﷺ، وهذا الشرط متوفر في هذا الشخص. كما أن ما أمرنا الله تعالى به في الإلهام المذكور أعلاه بالصلاة على آل النبي ﷺ، فالسرُّ فيه أن حبّ أهل البيت وثيقُ الصلة بنـــزول فيوض الأنوار الإلهية، وأن الذي يدخل في زمرة المقربين عند الحضرة الأحدية إنما يرث هؤلاء الطيبين الأطهار، ويُجعَل وارثًا لهم في جميع العلوم والمعارف.

وبالمناسبة تذكرت كشفا جليا وهو أنه قد ظهر لي -ذات مرة بعد صلاة المغرب في حالة اليقظة التامة والمصحوبة بقليل من غيبة الحس التي تشبه النشوةَ الخفيفة- عالَـــمٌ غريب؛ إذ سمعتُ فجأةً صوت قدوم بضعة أشخاص مسرعين كطرق الحذاء عند المشي السريع، ثم مثُل أمامي دفعة واحدة خمسة أشخاص ذوي هيبة ووقار ووسامة؛ فإذا هم رسول الله ﷺ وعليٌّ والحسنين والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهم أجمعين. وإن أحدهم؛ وهي السيدة فاطمة الزهراء -على ما أذكر- قد وضعتْ رأسي على فخذها بلطف وحب شديدين

---

[٨٧] *ترجمة بيتين فارسيين. (المترجم)*

كالأم الحنون. ثم أُعطِيت كتابا وأُخبِرت أنه تفسير القرآن الكريم الذي أَلَّفه سيدنا علي رضي الله عنه، وها هو يعطيك هذا التفسير. فالحمد لله على ذلك.

ثم تلقيتُ بعد ذلك إلهاما: "إِنَّكَ عَلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَقَالُوا لَولاَ نُزِّلَ عَلى رَجُلٍ مِنْ قَرْيَتَينِ عَظِيمٍ. وَقَالُوا أَنَّى لَكَ هذَا إِنَّ هذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ. يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ." أي:.... لِـــمَ لم ينـــزل على عالم كبير من المدن الأخرى؟ وقالوا كيف يمكن أن تنال هذه الدرجة؟..... إنهم ينظرون إليك ولكن لا يبصرونك.

"تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلى أُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ." أي: نحلف بذاتنا أننا قد أرسلنا في أمة محمد ﷺ كثيرا من الأولياء الكُمَّل قبْلَك، ولكن الشيطان أفسد طريق أتباعهم، أي سرت إليهم أنواع البدعات و لم يعُدْ الصراط القرآني المستقيمُ محفوظا فيهم.

"قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللهَ فَاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ" أي: فاتِّبعوا الرسول المقبول ﷺ لكي يحبّكم الله.

"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَمَنْ كَانَ للهِ كَانَ اللهُ لَه، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُه فَعَلَيَّ إِجْرَامٌ شَدِيدٌ. إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ رَحْمَتِي فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَإِنَّكَ مِنَ الْمَنْصُورِينَ. يَحْمَدُكَ اللهُ وَيَمْشِي إِلَيْكَ. أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيْبٌ. سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً." أي... منـــزّهٌ عن كل عيب ونقص مَنْ أوصلَ عبده من لدنه إلى مقامات المعرفة واليقين في زمن الضلال والغواية الذي يشبه الليل.

"خَلَقَ آدَمَ فَأَكْرَمَه. جَرِيُّ اللهِ فِي حُلَلِ الأَنْبِيَاءِ". المراد من هذه الجملة الإلهامية أن منصب الإرشاد والهداية وتلقِّي الوحي الإلهي إنما هو حُلّة الأنبياء في الواقع، ويُعطاها غيرُهم استعارةً، وتُعطَى حُلّة الأنبياء هذه لبعض أفراد الأمة المحمدية من أجل إكمال الناقصين، وإلى هذا قد أشار النبي ﷺ حين قال:

"عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيل". فمع أن هؤلاء ليسوا أنبياء إلا أنهم يكلَّفون بمهام الأنبياء.

"وَكُنْتُمْ عَلى شَفَا حُفْرَةٍ فَأنْقَذَكُمْ مِنْهَا أي هيأ لكم وسائل التخلص منها. عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يَرْحَمْ عَلَيْكُمْ وَإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا، وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا."

أي أن الله يريد أن يرحمكم، أما إذا عدتم إلى الإثم والتمرد فسوف نعود إلى العقاب والعذاب، وقد جعلنا جهنم سجنًا للكافرين. هذه الآية تشير في هذا المقام إلى ظهور المسيح عليه السلام بالجلال، أي إذا لم يقبلوا طريق الرفق واللِين واللطف والإحسان واستمروا في التمرد ضد الحق الذي استبان بالأدلة الواضحة والآيات البينة، فالزمن قريب حين يستعمل الله عز وجل في حق المجرمين الشدة والعنف والقهر والقسوة. وسينــــزل المسيح عليه السلام في الدنيا في منتهى الجلال، ويطهّر الطرق والشوارع كلها من الكلأ والأعشاب، ولن يبقى للمعوجّ أثر أبدا، وإن جلال الله تعالى سيبيد بذرة الضلال نهائيا بتجلِّيه القاهر. إن العصر الراهن إنما هو إرهاص لذلك العصر، وعندها سيُتم الله الحجة بالجلال. أما الآن فيُتِمُّها بالجمال.. أي بالرفق والإحسان.

"تُوبُوا وَأَصْلِحُوا وَإلى اللهِ تَوَجَّهُوا وَعَلى اللهِ تَوَكَّلُوا وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ."

أي: توبوا وكُفّوا عن الفسق والفجور والكفر والمعصية، وأَصْلِحوا حالتكم، وإلى الله أنيبوا، وعليه توكّلوا، واستعينوا به بالصبر والصلاة، لأن الحسناتِ يُذْهِبن السيّئاتِ.

"بُشْرَى لَكَ يَا أحْمَدِي، أنْتَ مُرَادِي وَمَعِي، غَرَسْتُ كَرَامَتَكَ بِيَدِي. قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أزْكَى لَهُمْ." أي: قُلْ للمؤمنين أن يكُفّوا عيونهم عن رؤية المحارم، وأن يصونوا فروجهم وآذانهم مما لا يليق، فإن هذا ضروري ولازم لطهارتهم. وفي ذلك إشارة إلى أنه يجب على كل

مؤمن أن يجتنب المنهيات ويصون جوارحه من الأعمال غير المشروعة، فهذا هو سبيل طهارته.

"يا متّبع الحق، أغلق أذنيك وأغمض عينيك وتذكَّر أمر الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

اِصرِفْ قلبك تماما عن جميع النواحي لكي يظهر عليك الحق.

رُدَّ المحبوبين الدنيويين ليُريك المحبوب الحقيقي وجهه.

الكُمّلُ أحياءٌ تحت الأرض أيضا، أما أنت فمقبور مع أنك حيٌّ.

من الضروري جدا أن تجاهد وتكدح إلى عدة سنوات حتى تجد طريقا إلى الحبيب.

أنّى يمكن الوصول إلى الطريق بسهولة، فهناك حاجة إلى مئات أنواع الجنون حتى تستعيد وعيك."[88]

"وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَكَانَ كَيدُهُمْ عَظِيمًا." أي.... "الَّذِينَ كَفَرُوا" هنا قوم أصرّوا على كفرهم إصرارًا كبيرًا وما كانوا ليرتدعوا عن كفرهم ما لم يُرَوا آية واضحة، وكان كيدهم عظيمًا.

هذه إشارة إلى أن الآيات السماوية والأدلة العقلية التي أظهرها الله على يد هذا العبد الضعيف كانت ضرورية جدًّا لإتمام الحجة، إذ لم يكن أصحاب البواطن السوداء الذين أكلتْ دودة الجهل والخبث بواطنهم لينفكّوا من كفرهم دون رؤية الآيات الصريحة والبراهين القطعية، بل كانوا يمكرون لإجاحة حديقة الإسلام من وجه الأرض بأية طريقة. ولو لم يفعل الله تعالى ذلك لأظلمت الدنيا كلها. هذه إشارة إلى أن الدنيا كانت بأمسّ الحاجة إلى تلك الآيات البيّنات، إذ ما كان لأهل الدنيا -الذين نخَرهم مرض الكفر والخبث وجعلهم

---

[88] *أبيات فارسية مترجمة. (المترجم)*

ضعفاء كالمجذوم- أن يستعيدوا صحتهم إلا بهذا الدواء السماوي الذي هو في الواقع ماء الحياة لطلّاب الحق.

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ".

أي: إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ولا تنشروا الكفر والشرك وسوء العقيدة، قالوا إنما نحن على الطريق القويم، ولسنا مفسدين بل نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون الذين يعيثون الفساد في الأرض. قل إني أستعيذ بالرب من شرور المخلوقات الشريرة والليلة المظلمة.

أي أن هذا العصر يماثل الليلة الليلاء بما فيه من فساد عظيم، فتنويره يتطلب القوى الربانية والقدرات الإلهية، أما بالقوى الإنسانية فهذا محال.

"إِنِّي نَاصِرُكَ، إِنِّي حَافِظُكَ. إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا. قُلْ هُوَ اللهُ عَجِيبٌ، يَجْتَبِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاسِ."

أي.. هل يستغرب الناس أن الله ذو العجائب ويقوم بأعمال عجيبة دائما... يأتي دور أحد مرة ويأتي دور غيره مرة أخرى، وإن أفضال الله تعالى تنـزل على مختلف أفراد الأمة المحمدية بالتناوب.

"وَقَالُوا أَنَّى لَكَ هذَا؟ وَقَالُوا إِنْ هذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ. إِذَا نَصَرَ اللهُ الْمُؤمِنَ جَعَلَ لَهُ الْحَاسِدِينَ فِي الأَرْضِ. فَالنَّارُ مَوعِدُهُمْ، قُلْ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوضِهِمْ يَلْعَبُونَ."

أي.. أن جهنم موعد الذين يصرّون على الحسد ولا يرتدعون... قُلْ هذا كله من الله...

"تَلَطَّفْ بِالنَّاسِ وَتَرَحَّمْ عَلَيهِمْ، أَنْتَ فِيهِمْ بِمَنْزِلَةِ مُوسَى وَاصْبِرْ عَلى مَا يَقُولُونَ."

لقد سبق موسى جميع أنبياء بني إسرائيل في الرفق والحِلم. ولم يبلغ نبي من أنبياء بني إسرائيل -سواء أكان عيسى أم غيره- المرتبة العليا التي احتلها موسى عليه السلام. وثابت من التوراة أن موسى عليه السلام قد فاق أنبياء بني إسرائيل جميعا في الرفق والحِلم والأخلاق الفاضلة كما جاء في سفر العَدَد ١٢: ٣: "وَأَمَّا الرَّجُلُ مُوسَى فَكَانَ حَلِيمًا جِدًّا أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ"؛ فقد أشاد الله تعالى في التوراة بحِلم موسى بكلمات لم يستخدمها بحق أحد من أنبياء بني إسرائيل. أما أخلاق سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ الفاضلة المذكورة في القرآن الكريم فهي تفوق أخلاق موسى عليه السلام بآلاف المرات، لأن الله تعالى يقول بأن سيدنا خاتَم الأنبياء ﷺ جامع لجميع الأخلاق الفاضلة التي وُجدت في الأنبياء بصورة متفرقة. ولقد قال سبحانه وتعالى في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ *(القلم: ٥)*. حينما تُستخدَم كلمة "عظيم" في كلام العرب لمدح شيء، تكون في ذلك إشارة إلى كماله البالغ منتهاه. فلو قيل مثلا: هذه الشجرة عظيمة، لكان المعنى أن هذه الشجرة حائزة على أكبر قدر ممكن للأشجار من حيث الطول والحجم. كذلك إن مفهوم الآية القرآنية المذكورة آنفا هو أنه بقدر ما يمكن أن تحوز النفس البشرية من الأخلاق الفاضلة والشمائل الحسنة، فكل تلك الأخلاق الكاملة والتامة موجودة في نفس محمد ﷺ. فهذا أعلى وأرفع أنواع المدح على الإطلاق الذي لا يمكن أعلى منه. وهذا ما أشير إليه في آية أخرى أيضا حيث قال عز وجل بحق النبي ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكَ عَظِيمًا﴾ *(النساء: ١١٤)* أي لا يمكن أن يبلغ أيّ نبيٍّ مرتبتك، إذ إن فضل الله عليك أكبر مما كان على الأنبياء جميعا. ولقد ورد في المزامير المدحُ نفسه نبوءةً بحق النبي ﷺ حيث جاء: "مَسَحَكَ اللهُ إِلٰهُكَ بِدُهْنِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ" (الْمَزَامِيرُ: الإصحاح: ٤٥). ولأن علماء الأمة المحمدية كأنبياء بني إسرائيل لذا شُبِّهتُ في الإلهام المذكور بموسى عليه السلام. مع العلم أن هذه البركات كلها إنما هي بركات

سيد الرسل؛ إذ يذكر الله تعالى أفراد أمته ﷺ المتواضعين بهذه الخطابات العظيمة بكمال لطفه وإحسانه، اللهم صلّ على محمد وآل محمد.

وفيما يلي بقية فقرات الإلهام: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ألا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَيُحِبُّونَ أَنْ تُدْهِنُون. قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. قِيلَ ارْجِعُوا إِلى الله فَلاَ تَرْجِعُونَ. وَقِيلَ اسْتَحْوِذُوا فَلاَ تَسْتَحْوِذُونَ. أَمْ تَسْأَلُهُمْ مِنْ خَرْجٍ فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ، بَلْ أَتَينَاهُمْ بالْحَقِ فَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يَصِفُونَ. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ؟ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا. وَلاَ يَخْفَى عَلى اللهِ خَافِيَةٌ. وَلاَ يصْلحُ شَيْءٌ قَبْلَ إِصْلاَحِه، وَمَنْ رُدَّ مِنْ مَطْبَعِه فَلاَ مَرَدَّ لَه."

....."وَقِيلَ اسْتَحْوِذُوا فَلا تَسْتَحْوِذُونَ"، أي: إذا قيل لكم سَيْطِروا على أنفسكم فلا تسيطرون عليها... "فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ"... أي يجدون قبول الحق ثقلا عليهم كالجبل بسبب هذا الخرْج، "بَلْ آتَينَاهُمْ بِالْحَقِ، فَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ" أي: أنهم يُؤتَون الحق مجانًا، ولكنهم يكرهونه... هل يظنون أنهم يُتركون بمحض إعلانهم الإيمان بأفواههم ولا يُمتحنون؟ "وَلاَ يصلُحُ شَيْءٌ قَبْلَ إِصْلاَحِه" أي: لا يصلح شيء ما لم يُصلحه الله تعالى.

"لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. لاَ تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ عَبْدٌ غَيرُ صَالِحٍ. إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ وَمَا أَنْتَ عَلَيهِمْ بِمُسَيطِرٍ." هذه الآيات التي أُلقِيت عليّ إلهامًا إنما هي بحق أناس معيَّنين.

ثم أُوحي إليّ بعد ذلك: "وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّى."

والمراد من "مقام إبرهيم" هنا هو ترك الهوى والمعاملةُ بالله، أي أن يحب الإنسانُ ربَّه ويفوض إليه أمره ويؤثر رضاه ويكون وفيًّا له ﷻ. هذا هو مقام

إبراهيم الحقيقيُ الذي تُعطاه الأمةُ المحمدية على سبيل التبعية والوراثة. والإنسان الذي هو مخلوق بقلب إبراهيمي فاتّباعه أيضا ضروري بحسب هذا الأمر الإلهي.

"يُظِلُّ رَبُّكَ عَلَيكَ وَيُغِيثُكَ وَيَرْحَمُكَ، وَإنْ لَمْ يَعْصِمْكَ النَّاسُ فَيَعْصِمُكَ اللهُ مِن عِنْدِهِ، يَعْصِمُكَ اللهُ مِن عِنْدِهِ وَإنْ لَـــم يَعْصِمكَ النَّاسُ." أي يسدل عليك ظل رحمته ... سينصرك الله من عنده ويعصم سعيك من الضياع، وستحالفك تأييداته.

"وَإذْ يَمْكُرُ بكَ الَّذِي كَفَرَ، أوقِدْ لِي يَا هَامَانُ لَعَلِّي أطَّلِعُ إلى إلَهِ مُوسَى وَإنِّي لأظُنُّه مِنَ الْكَاذِبِينَ." أي: اذكُرْ حين قال المنكر لصاحبه بُغية مكْر: أَوْقِدْ لي نار فتنة أو امتحان لكي أطّلع إلى إله موسى أيْ إلى إلهِ هذا الشخص، لأرى كيف ينصره، وهل هو معه أم لا، لأني أظنه كاذبًا. وهذه إشارة إلى حادث سيحدث في المستقبل، وقد ذُكر بصيغة الماضي.

"تَبَّتْ يَدَا أبِي لَهِبٍ وَتَبَّ، مَا كَانَ لَهُ أنْ يَدْخُلَ فِيهَا إلاَّ خَائِفًا، وَمَا أصَابَكَ فَمِنَ اللهِ." ... هذه إشارة إلى شرّ شخص يظهر منه للعيان من خلال كتاباته أو بطريقة أخرى. والله أعلم بالصواب.

"الْفِتْنَةُ هَهُنَا، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ، ألا إنَّهَا فِتْنَةٌ مِنَ اللهِ لِيُحِبَّ حُبًّا جَمًّا، حُبًّا مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الأكْرَمِ عَطَاءً غَيرَ مَجْذُوذٍ. شَاتَانِ تُذْبَحَانِ وَكُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَانٍ." أي كل نفس عرضة للقضاء والقدر، ولا مناص لأحد من الموت. سيغادر أحد هذه الدنيا بضعة أيام قبل غيره وسيلحق به الآخر بعد ذلك.

"إن الموت يستر وجوه الأحباء عن أحبائهم، ويحوِّل الربيع إلى الخريف في لمح البصر"[٨٩]

"وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ألَيسَ اللهُ بكَافٍ عَبْدَه، ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وَجِئْنَا بكَ عَلى هَؤُلاَءِ شَهيدًا. أَوْفَى اللهُ أجْرَكَ، وَيَرْضَى عَنْكَ رَبُّكَ وَيُتِمُّ اسْمَكَ. وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَعَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيئًا وَهُوَ

[٨٩] *ترجمة بيت فارسي. (المترجم)*

خَيرٌ لَكُمْ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ. إنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا، وَإِنْ يَتَخِذُونَكَ إلاَّ هُزُوًا، أهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ؟ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ يُوْحَى إِلَيّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ. وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي القُرْآنِ، لا يَمّسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُوْن، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيْكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِه أَفَلا تَعْقِلُون". أي يعلم عواقب الأمور يسخرون منك وسيقولون مستهزئين: هل هذا الذي كلّفه الله بإصلاح الخلق؟ فلا تتوقع صلاحا من خبثاء الطوية. ثم قال: قُلْ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد، ولا ينبغي أن يُشرَك به أحدٌ. والخير كله في القرآن، ولا يمكن العثور على أي خير في ما سواه، لا تنكشف معارف القرآن إلا على الذين قد طهّرهم الله بيده تطهيرا، ولقد لبثت فِيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون.

"إن القرآن الكريم شجرة طيبة من الله تعالى، هي غرسة ذات رائحة زكية وارفة الظلال ومحمّلة بالثمار.

فإذا كنتَ تريد الثمر فأت الشجرة المثمرة، وإذا كنت عاقلا فلا تهزَّ شجرة الخيزران من أجل الثمر.

إن كنت لا توقن بميزات القرآن الكريم، فاسأل الذين رأوا جمال هذا الحبيب، أو حقّق بنفسك.

والذي لا يأتي للتحقيق بل يعكف على العداوة، فهو ليس إنسانا بل أسوأ من الحمار."[٩٠]

"قُلْ إنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى وَإنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ، رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ مِنَ السَّمَاءِ رَبِّ إنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ، إيلِي إيلِي لِمَا سبَقْتَنِي، ايلِي أوس." ... الجملة الأخيرة من الإلهام أعني "ايلِي أوس" بقيت غير واضحة لسرعة نزولها، ولم يُكشف معناها. والله أعلم بالصواب.

---

[٩٠] *ترجمة أبيات فارسية. (المترجم)*

"يا خالق الأرض والسماء افتح عليّ باب رحمتك، فأنت تعلم أَلَـــمي الذي أُخفيه عن الآخرين.

يا حبيبي أنت جدّ لطيف، فادخل في كل ذرة من كياني، لأجعل قلبي أكثر رونقا وبهاء من البستان أيضا حين أجدك في قلبي.

يا ذا الصفات الطيبة لو رفضتَ الوصال، لضحيتُ بنفسي بسبب فراقك وبكيتُ وأبكيتُ العالم كله

لن أهجرك سواء أأبعدتني ساخطا عليّ أو أريتني وجهك لطفا منك، وسواء أقتلتني أم حرّرتني فلن أتركك أبدا."[٩١]

هذه كلها إشارات خاصة بمقامات معينة ولا حاجة لشرحها هنا.

"يَا عَبْدَ الْقَادِرِ إِنِّي مَعَكَ أَسْمَعُ وَأَرَى. غَرَسْتُ لَكَ بِيَدِي رَحْمَتِي وَقُدْرَتِي. وَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا". فتنَّاك: أي أخلصناك. "لَيَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى." أي تأتيك نصرتي. "أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ. وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ. وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. أَنَا بُدُّكَ اللاَّزِمُ. أَنَا مُحْيِيكَ. نَفَخْتُ فِيكَ مِن لَّدُنِّي رُوحَ الصِّدْقِ وَأَلْقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلى عَينِي. كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَه فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلى سُوقِهِ."

أي.... وَلِيُحْسَنَ إليك أمام أعيني. أنت كزرعٍ أخرج نباته ثم صار غليظا إلى أن قام على سوقه. في هذه الآيات إشارةٌ ونبأٌ عن التأييدات الربانية والمنن الإلهية والرقي والازدهار والعزة والعظمة التي ستبلغ الكمال رويدا رويدا.

"إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ."

أي: سنرزقك فتحًا مبينا، أما المكاره والشدائد المتخللة فإنما هي لكي يغفر لك الله بها ما تقدم من ذنبك وما تأخر. بمعنى أن الله قادر على أن يحقق الغاية المنشودة إذا شاء دون تعرُّضك لأية صعوبة، وأن يكتب لك الفتح العظيم بكل سهولة، ولكن الشدائد تنــزل من أجل رفع المراتب وغفران الذنوب. واليوم

[٩١] *ترجمة أبيات فارسية. (المترجم)*

حين كنت أقرأ الدفتر بُغية التصحيح أُعطيتْ في يدي في عالم الكشف أوراق مكتوب عليها ما معناه: دُقَّت طبولُ الفتح. ثم أراني أحدٌ مبتسما صورة في الجانب الثاني من الأوراق وقال: "انظُر ماذا تقول صورتك". وحين رأيتها كانت الصورة صورتي أنا في لباس أخضر. وكان الرعب باديا منها وكأنها صورة قائد فاتح مدجج بالسلاح. ومكتوب بيمين الصورة ويسارها: "حجة الله القادر وسلطان أحمد مختار." وكان ذلك في يوم الاثنين بتاريخ ١٩من ذي الحجة عام ١٣٠٠هـ الموافق ١٨٨٣/١٠/٢٢م والسادس من شهر "كاتَك" عام ١٩٤٠ بكرم (*التقويم الهندي*).

"أَلَيسَ اللهُ بكَافٍ عَبْدَه. فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجيهًا. أَلَيسَ اللهُ بكَافٍ عَبْدَه. فَلَمَّا تَجلّى رَبُّه لِلْجَبَلِ جعَلَهُ دَكًّا. وَاللهُ مُوهِنُ كَيدِ الْكَافِرِينَ. بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرٌ. وَللهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. أَلَيسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَه. وَلِنَجْعَلَه آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا. قَولُ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ تَمْتَرُونَ."

أي... سينسف الله تعالى بتجلّيه جبال المصائب نسفًا، وسيُضْعِف مكائد الكافرين ويجعلهم مغلوبين مهانين...

"مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُمْ. رجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ. مَتَّعَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ بِبَرَكَاتِهِم. فَانْظُرُوا إلى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ. وَأَنْبِئُونِي مِن مِثْلِ هؤُلاَءِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلاَمِ دِينًا لَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ."

أي: أن محمدا رسول الله ﷺ وأصحابه أشداء على الكفار، أي الكفار عاجزون أمامهم ولا يملكون الرد عليهم، وأن هيبة صدقهم مستولية على قلوب الكفار، أما فيما بينهم فهم رحماء... إنهم رجال قد بلغوا في حب الله الذروة حتى لا تشغلهم عنه شواغل الدنيا مهما كثرت. سيمتّع اللهُ المسلمين ببركاتهم، فإن ظهورهم يمثّل آثار رحمة الله، فانظروا إلى هذه الآثار. وإذا كان عندكم

نظير لهؤلاء، أي إذا كان عند أهل دينكم ومذهبكم مَن يحظى بتأييد الله مثلهم، فأْتوا به إن كنتم صادقين.

"يَا أَحْمَدُ فَاضَتِ الرَّحْمَةُ عَلى شَفَتَيكَ. إِنَّا أَعْطَينَاكَ الْكَوثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي. أَنْتَ مَعِي وَأَنَا مَعَكَ. سِرُّكَ سِرِّي وَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ. إِنَّكَ عَلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ."

أي... إنا أعطيناك معارف كثيرة، فصلّ لربك وقدِّمْ التضحية شكرًا على ذلك، وأَقِمْ الصلاة من أجل ذكري...

"حَمَاكَ اللهُ، نَصَرَكَ اللهُ. رَفَعَ اللهُ حُجَّةَ الإسْلاَمِ. جَمَالٌ، هُوَ الَّذي أَمْشَاكُمْ فِي كُلِّ حَالٍ. لاَ تُحَاطُ أَسْرَارُ الأَولِيَاءِ."

أي إنما هو جمال الله الذي نقّاك في كل حال. والإحاطة بأسرار الله في أوليائه مستحيلة فمنهم من يُجذَب إليه بطريقة، ومنهم من يجذب إليه بطريقة أخرى.

لقد نال يعقوب[٩٢] بمعاناة السجن مرتبة ينالها الآخرون بترك ما سوى الله. وفي هذا إشارة إلى أن لله تعالى صفتين تعملان عملهما في تربية العباد؛ أُولاهما الرفق واللطف والإحسان، واسمها "الجمال"، وثانيتهما القهر والشدة، واسمها "الجلال". فقد جرت سنة الله أن الذين يُدعَون إلى العتبة الإلهية فإنهم يُرَبَّون بصفة الجمال تارةً، وبصفة الجلال تارة أخرى. فحيثما تتوجّه ألطاف الله العظيمة تكون التجليات الإلهية الجمالية هي الغالبة دوما، غير أن الخواصّ من عباد الله يُربَّون ويؤدَّبون أحيانًا بالصفات الجلالية أيضًا، كما جرت سنة الله تعالى مع أنبيائه أيضا، حيث ظلّوا يُرَبَّون بصفات الله الجمالية دائما، ولكن في بعض الأحيان قد تجلّت صفاته الجلالية أيضا كشفًا لاستقامتهم وثباتهم

[٩٢] *(يبدو أن "يعقوب" ورد بسهو من الناسخ والصحيح "يوسف"، والله أعلم بالصواب – من الناشر)*

وأخلاقهم الفاضلة، فظلوا عرضةً لأنواع الأذى على أيدي الأشرار لكي تظهر على الناس جميع أخلاقهم الفاضلة التي لا تظهر بدون مواجهة المحن الشاقة، ولتعلَمَ الدنيا أنهم ليسوا ضعفاء في علاقتهم بربهم بل هم أوفياء صادقون.

"وَقَالُوا أَنَّى لَكَ هذَا إنْ هذَا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ. لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً. لاَ يُصَدِّقُ السَّفِيهُ إلاَّ سَيفَةَ الْهَلاكِ. عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لَّكَ. قُلْ أَتَى أَمْرُ اللّٰهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ. إذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ. أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلى." أي... لا يصدّق السفيهُ إلا ضربةً قاضيةً.

"إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيّ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلَى يَومِ الْقِيَامَةِ. وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا، وَكَانَ اللّٰهُ بكُمْ رَؤُوفًا رَحِيمًا. ألاَ إنَّ أولِيَاءَ اللّٰهِ لاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. تَمُوتُ وَأَنَا رَاضٍ مِّنْكَ. فَادْخُلُوا الْجَنَّةَ إنْ شَاءَ اللّٰهُ آمِنِينَ. سَلاَمٌ عَلَيكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا آمِنِينَ. سَلاَمٌ عَلَيكَ جُعِلْتَ مُبَارَكًا. سَمِعَ اللّٰهُ إنَّه سَمِيعُ الدُّعَاءِ. أَنْتَ مُبَارَكٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. أَمْرَاضُ النَّاسِ وَبَرَكَاتُه. إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ. اُذْكُرْ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيكَ، وَإنِّي فَضَّلْتُكَ عَلى الْعَالَمِينَ. يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة ارْجعِي إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي، مَنَّ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ وَأَحْسَنَ إلَى أَحْبَابِكُمْ وَعَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا."

... إني متوفيك.. أي سأعطيك نعمتي كاملةً[٩٣]، وأرفعك إليّ. وأجعل الذين يتبعونك، أي يدخلون في أتباع الله والرسول حقًّا، غالبين على معارضيهم -أي المنكرين- إلى يوم القيامة، أي أنهم سيكونون غالبين على معارضيهم بالحجة والبرهان، وستحالفهم أنوارُ الصدق والحق الساطعةُ.. لقد تطهّرْتم من الشرك فادخلوا الجنة آمنين.

[٩٣] *لأن الوفاة في هذا السياق التبشيري تتضمن عدم القتل صلبا، وتتضمن الحياة الطويلة المفعمة بالنعم. (المترجم)*

"أَنْتَ مُبَارَكٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ"، في ذلك إشارة إلى أن الله تعالى أجرى على لساني بضع مرات من قبلُ الدعاء الإلهامي: "رَبِّ اجْعَلْنِي مُبَارَكًا حَيْثُمَا كُنْتُ"... ثم استجاب الله تعالى بمحض لطفه وإحسانه هذا الدعاء الذي علّمنيه بنفسه. فمن عجائب لطفه ﷻ بالعبد أنه بنفسه يُجري على لسانه أولاً دعاء، ثم يقول إن دعاءك مجابٌ. وعن هذه البركة تلقيت إلهاما عجيبا بالأردية في عام ١٨٦٨م أو ١٨٦٩م أرى ذكره هنا مناسبا. كان سبب نزول ذلك الإلهام عائدا إلى أن المولوي أبا سعيد محمد حسين البطالوي -الذي كان في زمن من الأزمان زميلي أيضا في المدرسة- حين جاء إلى بطاله بعد التخرُّج، استثقل أهلُها أفكارَه فألحّ عليّ أحد الناس بشدة متناهية للنقاش معه في قضية خلافية معينة. فنـــزولا عند رغبته رافقتُه إلى بيت الشيخ المذكور في إحدى الأمسيات، ووجدته مع أبيه في المسجد.

فملخص الكلام أنني علمت بعد سماع خطاب الشيخ المذكور أنه لا يوجد فيه ما يُعترض عليه، فانسحبت من النقاش ابتغاء مرضاة الله. فخاطبني الله تعالى في الإلهام ليلا مشيرا إلى انسحابي من النقاش فقال ما معناه: "لقد رضي اللهُ بفعلك هذا، وسيباركك بركات كثيرة حتى إن الملوك سيتبركون بثيابك". ثم أُريتُ في الكشف هؤلاء الملوك أيضا الذين كانوا ممتطين صهوات الجياد. فلأنني كنت قد اخترتُ التواضع والتذلل لوجه الله ورسوله لذا لم يُرد ذلك المحسن القدير أن يتركني دون أجر. فتدبّروا وتفكّروا.

"أمْرَاضُ النَّاسِ وَبَرَكَاتُه" أي بركات الله، أي أن الفائدة من جعْلك مباركا هي أن ذلك سيكون سببا لإزالة أسقام الناس الروحانية، وسيهتدي بكلامك ذوو النفوس السليمة ويرشُدون، وكذلك تزول الأمراض والأعراض الجسدية أيضا إن لم يكن القدر مبرما. "وَإِنِّي فَضَّلْتُكَ عَلى الْعَالَمِينَ" أي العالمين في عصرك. وليكنْ معلومًا أن الأفضلية المذكورة في قوله تعالى إنما هي جزئية فقط وبواسطة أحد. أعني أن الذي يتّبع سيدَنا خاتم الأنبياء ﷺ اتّباعًا كاملا فهو

الأعلى مرتبة والأسمى مكانة من معاصريه كلهم عند الله تعالى. الحق أن الأفضلية الحقيقية والكاملة متحققة من الله ﷻ لسيدنا خاتم الأنبياء ﷺ، أما الآخرون كلهم فإنما ينالون المراتب ببركة اتّباعهم وحبّهم له ﷺ على قدر اتّباعهم وحبّهم. فما أعظمَ شأنَ كماله! اللهم صلّ عليه وآله.

"مَنَّ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ وَأَحْسَنَ إِلَى أَحْبَابِكُمْ وَعَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" أي منَّ عليكَ وأحسنَ إلى أحبائك، وعلّمك ما لم تكن لِتعْلم بنفسك. وإذا أردتَ أن تحصي نِعَم ربك فلن تقدر عليه.

ثم تلقيت بعض الإلهامات بالفارسية والأردية والإنجليزية أسجلها هنا من أجل فائدة الناس وتعريبها: تَبَخْتَرْ فإن وقتك قد أتى، وإنّ قدم المحمديّين وَقَعَتْ على المنارة العليا. إن محمدًا المصطفى سيّد الأنبياء. إنّ الله يصلح كلّ أمرك، ويعطيك كلّ مراداتك. ربُّ الأفواج يتوجّه إلى هنا. الهدف من هذه الآية أنّ القرآن كتاب الله وكلمات خرجت من فوهي. إن باب منن الله مفتوح، وإن رحمة الله المقدسة متوجهة إلى هنا.

The days shall come when God shall help you. Glory be to This Lord. God maker of earth and heaven.

الأيام آتية حين ينصرك الله. الله ذو الجلال خالق الأرض والسماء.

بعد ذكر هذه الإلهامات هناك نبوءة تحققت أمام أعين بعض الآريين الذين هم أتباع الбانديت ديانند ولا يخلو من الفائدة أن يطّلع القراء على كيفيتها. فأكتبها فيما يلي نصحا للذين يجهلون عظمة الإسلام وإن كانت كتابتها مدعاة لبعض الإطالة. قبل تحقق هذه النبوءة اعترضتني مشاكل ومكروهات من نوع غريب. ولكن الله الكريم رفع كل هذه المشاكل وحقق النبوءة يوم الاثنين ١٠-٩-١٨٨٣م. وبيان ذلك أن الله تعالى بشّرني بكلامه المبارك ليطمئنني في وقت الضرورة الملحة تماما يوم الخميس بتاريخ ٦-٩-١٨٨٣م أن إحدى وعشرين روبية ستأتي قريبا. وكان اللافت في هذه البشارة بأني أُخبرت بعدد الروبيات الآتية. إن الإطلاع على عدد معين، خاص بعالم الغيب وحده دون غيره.

والأمر الآخر والأغرب من ذلك أن هذا العدد كان على وجه غير معهود، إذ لم يكن له علاقة بثمن الكتاب. فبسبب هذه الأمور اللافتة أطلعتُ بعض الآريين على هذا الإلهام قبل الأوان. ثم تلقيت الإلهام في ١٨٨٣/٩/١٠م للمرة الثالثة من أجل التأكيد أنه قد جاءت إحدى وعشرون روبية. وفهمت من ذلك أن النبوءة ستتحقق اليوم. فلم تكد قد مضت على الإلهام أكثر من ثلاث دقائق حتى جاء شخص اسمه "وزير سنغ" بمريض وأهدى لي روبية واحدة فور حضوره. مع أن المعالجة والمداواة ليست مهنتي، بل كلما أتاني مريض صدفة أعطيته الدواء -إذا كنت أعرفه- لوجه الله بغية كسب الثواب. ولكني أخذت تلك الروبية منه لأنه خطر ببالي فورا أنه جزء من النبوءة. ثم أرسلتُ شخصا موثوقا به إلى مكتب البريد ظنا مني لعل الجزء الثاني من النبوءة سيتحقق بواسطة البريد، فقال مدير المكتب الهندوسي إنه قد وصلته حوالة بريدية واحدة قدرها خمس روبيات مصحوبة ببطاقة من مدينة "ديره غازي خان"، وليست عندي النقود الآن، ولسوف أعطيها بعد وصولها. فاحترتُ كثيرا لسماع هذا الخبر وقلقت لدرجة لا يمكن بيانها. كنت محتارا من أمري وكان في مخيلتي أنه قد صارت ست روبيات إذا جمعنا روبية مع خمس روبيات وكيف سيصل المبلغ إلى ٢١ روبية؟ ما الذي حدث يا ربي؟ وبينما كنت في هذا الاستغراق إذ تلقيتُ فجأة إلهاما: "لقد جاءت إحدى وعشرون، لا شك في ذلك". ثم لم تمض على هذا الإلهام إلا سويعات حتى ذهب في اليوم نفسه أحد الهندوس الآريين -الذي كان قد سمع ما قاله مدير المكتب من قبل- إلى مكتب البريد، فأخبره المدير: لقد وصلت عشرون روبية في الحقيقة، وقد قلتُ من قبل عفويا أنه قد جاءت خمس روبيات فقط. فجاء الهندوسي الآري نفسه بعشرين روبية مع بطاقة مرسلة من المحاسب منشي إلهي بخش. ثم عُلم أن البطاقة لم تكن مرتبطة بالحوالة البريدية. وعُلم أيضا أن النقود كانت قد وصلت سلفا. وأن

العبارة التي كتبها منشي إلهي بخش على البطاقة، كانت وصْلا من مكتب البريد.

وتبيّن أيضا أن الحوالة البريدية كانت قد وصلت قاديان بتاريخ ٦-٩-١٨٨٣م أي في اليوم نفسه الذي تلقيت فيه الإلهام. فكان كلام مدير مكتب البريد خاطئا كله، وثبت صدقُ كلام عالم الغيب. فاشترينا الحلويات بروبية واحدة تذكارا لذلك اليوم ووزعناها على بعض الهندوس الآريين. فالحمد لله على آلائه ونَعمائه ظاهرها وباطنها.

"يا إلهي يا دواء آلامنا، يا علاج بكائنا وضراعتنا.

يا مسلِّينا نحن المضطربين القلقين، يا حبيب قلوبنا ومزيل أحزاننا.

لقد حملتَ عنّا أعباءنا كلها لطفا منك، إن الثمار كلها التي على أشجارنا إنما هي بفضلك أنت.

إنك حافظنا وساترنا بفضلك ولطفك، وأنت المواسي لعديمي الحيلة بكمال لطفك.

حين يكون المرء حزينا ومرهقا، تخلق له العلاجَ بغتة.

حين يحيط الظلام بشخص عديم الحيلة، تخلق له في طريقه فجأة مئات الشموس والأقمار.

لقد خُتم عليك الحسن والخُلقُ والحب كله، إن إقامة الصلة مع أحد بعد لقائك حرام بتاتا.

إن الذي يعشقك هو العاقل، والفراشة التي تحوم حولك تصبح مصباح المحفل.

كل من يدخل العشقُ قلبه وروحه، تدبّ الحياة في إيمانه فورا.

وعشقك يكون باديا في وجهه، وتفوح رائحتك الزكية حتى من جدران بيته.

فترزقه مئات آلاف النِعم لطفا منك، وتجعل الشمس والقمر تعنو له.

وتكون مستعدا لنصرته ورؤيتُه تذكِّر بوجهك الكريم.

تقوم بأعمال جليلة وعظيمة في الدنيا إظهارا لعزته؛

فتنجز جميع الأعمال بنفسك وتوفِّقه أيضا لإنجازها، وبنفسك تضفي الرونق والبهاء على تلك الأعمال.

تحوِّل التراب في لمح البصر إلى ما ينال الخلقُ النور منه.

حين تتكرّم على أحد تحوِّله من كائن أرضي إلى إنسان سماوي.

وتهب له مئات أضعاف أنوار الشمس حتى لا يبقى طالب دين في ظلام.

لكي يخرج العالَم من الظلام، ولكي يعلم الناس طريقا إلى زقاقك.

ولكن الأشرار عميٌ وبكمٌ عن هذه الآيات، إذ يرون مئات الآيات ويمرون بها غافلين.

إن قلوب هؤلاء الخفافيش العاشقة للظلام والمعادية للنور محجوبة في الظلام.

إن سيد العالم الذي اسمه المصطفى، هو سيد عشاق الحق وهو شمس الضحى.

إن كل نور هو بفضله وبركته، وإن حبيبه إنما هو حبيب الله.

إن وجوده هو ماء الحياة الجاري، وهو بحر الحقائق والمعارف الذي لا شاطئ له.

توجد على صدقه وكماله مئات الأدلة والبراهين الساطعة في الدنيا.

الذي تنـــزل على وجهه الأنوار الإلهية، والذي زقاقه مقام نزول آيات الله.

هو الذي له الأنبياء والصادقون كلهم كالخدام مثل تراب عتباته.

الذي حبه يوصل المرء إلى السماء، ويجعله مثل القمر المنير في النقاء.

الذي يُري الفراعنة في كل عصر مئات الآيات؛ مثل آية اليد البيضاء لموسى.

ذلك النبي شخص شهواني وذو ضغينة في أعين هؤلاء العميان والأشقياء.

استحِ أيها الكلب الحقير الذليل؛ إذْ تسمي الأبطال شهوانيين.

فيا أيها الشقي، هل من علامات شخص شهواني أن يلمع النور الأزلي في وجهه.

الذي يظهر في الليلة الليلاء ويحوِّلها إلى النهار، ويظهر في الخريف ويحوله إلى الربيع.

الذي هو مظهر أنوار الله الذي لا مثيل له، وهو أكثر الناس عقلا وذكاء.

والذي اتّباعه يهب القلبَ انشراحا لا يُنال بالجهاد إلى مئة سنة أيضا.

والذي اتّباعه ينوِّر القلب ويُري تجلِّي قدرات الله.

والذي اتّباعه ينوّر الصدر ويُطلع على ذلك الحبيب المستور.

والذي كلامه مليء بالحقائق والمعارف، والذي كل بيانه كالدرر تماما.

والذي هو سيد الأولين والآخرين لكمال حكمته وتكميل الدين.

ولكونه كاملا في الحسن والجمال فقد أصبح مقام المعشوقين كلهم تحت قدميه.

والذي يصير متّبعه كالأنبياء في النور، ويصل نورُه إلى كلِّ بعيد وقريب.

والذي هو أسد مهيب للصدق من الله، ويكون الأعداء أمامه كالثعلب الحقير.

هل الأسد مثله يكون شهوانيا؟ فعُد إلى صوابك يا أيها الثعلب الحقير والذليل.

ما حقيقتك يا ذا الطبيعة السفلى ويا أيها البثرة المتقيحة حتى تطعن في الحسينِينَ مع سواد وجهك.

إن شوقهم هو لنيل رضا الله تعالى، فهم ليسوا أسرى الشهوة كالجهلاء مثلك.

تأمل بنفسك، فهناك شخص مسجون والثاني هو مدير السِّجن من قبل الملك.

مع أن كليهما يسكن في مكان واحد، ولكن الفرق بينهما واضح بيّنٌ.

إن قياس الأطهار على الخبثاء إنما هو عمل الخبثاء يا فاقد الصواب.

الكاملون الذين يسلكون إلى الحبيب شوقا يمشون خفافا مع حملهم مئتَي حِمل.

اللافت في الموضوع أنهم بعيدون عن الأهل والعيال مع أن لهم أزواجا وأولادا.

إن الزهد في الدنيا مع العيش فيها علامة الكمَّل.

الحصان الذي يكبو على وجهه عندما يُركَب عليه، وهو سريع العدو حين يكون خاليا من الحمل.

فما الفائدة من ذلك الحصان، فلا تعدُّوه من الأحصنة إذ لا جدوى منه.

الحصان الأصيل هو الذي يستطيع أن يحمل حِملا ثقيلا ومع ذلك يمشي مشية جميلة.

فإذا كان لدى إنسان كامل مئات ألوف النساء، ومئات الجواري، ومئات آلاف أنواع الأعمال.

ثم إذا وقع الخلل والفتور في خشوعه وابتهاله؛ فهو لا يُعدّ كاملا، بل بعيد عن قرب الله.

فهو ليس كاملا ولا رجلا روحانيا، فلا تحسبه من الرجال إن كنت عاقلا.

بل الكامل هو الذي مع وجود الزوج والأولاد والمشاغل الدنيوية.

والتجارة وكل نوع من البيع والشراء، لا يغفل عن الله في حين من الأحيان.

هذه هي علامة الرجال وقوتهم، وهذا هو المعيار للكمّل.

مَن أحرق قلبه في عشق الحبيب، فأنّى له أن ينساه من أجل غيره.

إنه ينظر إلى الغير ظاهريا ولكن قلبه معلّق مع الحبيب، تكون يده في عمل ولكن أفكاره مركَّزة إلى الحبيب.

إن قلبه يضطرب في فراق الحبيب، ويكون صدره جريحا في هجر الحبيب.

قد يكون بعيدا عن وجه الحبيب ولكن قلبه يركض في زقاق الحبيب دائما.

وقد احدودب كالجفن في حزن الفراق، أو هو في اضطراب دائم مثل الشَعر.

لقد دخل الحبيب روحَه وقلبه وقالبه، وإن راحة قلبه في ذكر وجه حبيبه.

وقد صار الحبيب روحه، وأنى لأحد أن ينسى الروح؟ يأتيه الحبيب كل لحظة ويعانقه.

حين يقع النظر على ذلك الحبيب الغني، ينسى المرء كل شيء سواه.

إن الأغيار بعيدون دائما وإن كانوا قريبين ظاهرا، أما الحبيب فهو قريب دائما وإن كان بعيدا في الظاهر.

إن أمر العشاق مختلف تماما، فهو يفوق فكركم وقياسكم.

هؤلاء قوم مجانين؛ فإن قلوبهم مشغولة في الحب، أما عيونهم الظاهرية فمركَّزة إلى بيته وجدرانه.

إن روحهم تضطرب من أجل الجميل الحق وإن كان على لسانهم ذكر غيره.

ما من شيء يمنع الفانين عن حبيبهم، حتى الأهل والأولاد ليسوا عبئا على رؤوسهم.

يبقون على عتبات الحبيب دائما مع وجود مئات العلاقات، الأشواكُ تبدو لهم أزهارا في صحبته، والأزهارُ بعيدا عنه أشواكا.

إنك تطلق مئة صرخة نتيجة وخز شوك واحد، أما العشاق فيبتسمون بعد فداء نفوسهم.

إن العشاق يفنون في عظمة الله تعالى ويغرقون في بحر التوحيد بوفاء.

إن عداوتهم وحبهم كله لله، وكلما ثار غضبهم كان لوجه الله فقط.

من كان فانيا في عشق الله، فكلّ ما يظهر منه هو من الله ذي الكبرياء.

إنه فانٍ في الله، وسهمُه إنما هو سهم الله، وإن صيده إنما هو صيد الله في الحقيقة.

إن الله، ذلك القدوس، ينفخ جميع صفاته الحسنة في هؤلاء الفانين.

فتتجلّى فيهم صفاته سواء كانت صفات الجمال أو صفات الجلال.

إن لطفهم هو لطف الله وغضبهم غضب الله، ولا يكون أمرهم كالآخرين.

إن هؤلاء الفانين بعيدون عن أنانيتهم كل البُعد، وهم خدام الله العادل مثل الملائكة.

إذا قبض الملاك روح أحد أو رحم ضعيفا.

كانت هذه الشدة واللين من الله تعالى، فالملاك بعيد عن أهواء نفسه كل البعد.

إن مكانة الأنبياء ومرتبتهم هي أنهم على صلة بالله ويميّزون بين الحق والباطل.

إنهم فانون في الله، وهم سلاح الله تعالى، وهم نور الله في لباس البشر.

إنهم مخفيون في قباب عتبات الله، يتنحَّون عن الأنانية ويُظهرون جلال الله وجماله.

هم نجوم سماء الحسن والرعب، لذا فهم بعيدون عن أعين الناس كثيرا.

لا يُدرك أحد قدر نورهم، لأن الأدنى لا يدرك شأو الأعلى.

إن الأعمى يُدلي برأيه الناقص لعماه، لأن عينه غير الباصرة لا تدرك ذلك النور.

كذلك تُظهر علينا عماك يا عدوّ المصطفى.

إنك تنبح على القمر كالكلب، ولكن نباحك لن يقلل من ضوء القمر شيئا.

إن المصطفى مرآة لوجه الله تعالى، تنعكس فيه جلّ صفاته سبحانه وتعالى.

إن لم تر الله تعالى فانظر إليه، واعلم أن حديث "من رآني فقد رأى الحق" صحيح.

من خاصم عشاق الله تعالى كان الله عز وجل عدوا له.

إن يد الله تنصر العاشقين كلما خادعه أحد أو قام بمكر معهم.

إن مقامهم أعلى وأرفع من مئات السماوات، وهم أخفى الأخفياء.

إنهم راسخو الأقدام في سبيل وفاء الحبيب، ويبقون ساجدين على عتباته.

يُوقعون أنفسهم في المعاناة من أجل الحبيب، ويحيون بعد مئات آلاف الميتات.

إن أصحاب العيون الباصرة أيضا يفقدون التمييز في هذا المقام، فما بالك بالعميان.

إن وجوههم منيرة جدا بحيث تنبهر بهم عيونُ أهل العرفان أيضا مثل الخفافيش.

إنك كالأنثى ورأيك ناقص مثل رأي النساء، فإنك ناقص وأبوك وجدك أيضا ناقصان.

إذا كان الحَسِين دميما وسيء الحال في نظرك، فماذا أسمِّيك يا أسود الوجه.

لقد ألقى عليك عماك مئات الحُجُب، وقد استأصلتْك تعصباتك من الجذور.

إن كثيرا من أحباء الله ذي الجلال أذلاء مهانين في نظرك بسبب عماك.

إن الكثيرين الذين شربوا كؤوس الفناء بالمئات يبدون لك حريصين وطماعين.

لو فنِيتْ آثار وجودك تماما لكان أفضل من حياتك هذه كالكلاب.

لو أنجبتْ أمُّك غرابا بدلا منك لكان أفضل من فطرتك الممسوخة.

لأن الكذب والفسق والكفر مترسخ في رأسك، وإن عادة أكلك النجاسة أسوأ من ذلك.

يا أيها الشقي الأزلي والأبدي إنك هالك لأنك تمرّدت على قيوم العالمين.

يا من تشك في الملك في ملكوت الأديان وترفضه، انظر إلى خدامه على الأقل.

لم ير أحد آية من آبائك، فليس في يدك شيء إلا القصص والحكايات.

ولكن إذا أردتَ فتعالَ إليّ وانظر مني مئات الآيات على صدق المصطفى ﷺ.

يا مغمض العينين حسدا أَسرِعْ إليه ليمزق نورُه حُجُبك.

إن نور الحق يلمع من أجل الصادقين دائما، وقد هلك الكاذبون وتلاشى كِبرهم.

إن المصطفى هو السراج المنير من الله، وعلى عدوه لعنة السماوات والأرض.

من أمارات اللعنة أن هؤلاء الأذلاء جالسون في الظلام مثل الخفافيش.

إن قلبهم ليس طاهرا، ولا يرى عقلهم طريقا سديدا، وهم مطرودون من عتبات الله.

مهما بذلت جهدك في عداوة المصطفى ﷺ لن تجد سبيلا دون دينه ﷺ.

ما لم يَتدارك نورُ أحمد ﷺ، لا يسع أحدا أن يخرج من الظلام.

لقد نال كل نبي نورا ببركة نوره ﷺ، ولقد سطع اسم كل نبي ببركة اسمه ﷺ.

لقد أعطاه الله تعالى كتابا مثل الشمس، وبوجهه المنير استنار العالم المظلم كله.

إن القرآن شجرة مقدسة وطيبة تؤتي أُكُل آياته في كل عصر ودهر.

لقد بانت فيه مئات آيات الصدق، وهو ليس مبنيا على السماع فقط مثل دينك.

إن ذلك الكتاب العظيم مليء بالمعجزات، وإن نور الله ساطع فيه بالكمال والتمام.

لقد أنجز المهمات بالقوة الإلهية ومزّق حُجُب الكفر.

وهو شمس في حد ذاته ويجعل الآخرين أيضا مثل الشمس، فأسرِع إلينا وانظر إن لم تكن أعمى.

يا أيها المزوِّر والمرائي تعالَ إلينا وخيِّمْ في زقاقنا بالصدق والوفاء.

وامكث عندنا لبعض الوقت بالإخلاص والصدق والثبات والقلب الحزين.

سترى من آيات الله عالَـــمًا يجذب الدنيا كلها إلى الله الرحمن.

إن قلتُ ما يخالف الحقيقة فأنا راض لتَفصل رأسي عن الجسد.

وراضٍ أيضا أن يصلبني الناس، أو يقتلوني بالبغض والمعاناة.

وراضٍ أيضا أن أُعاقَب ويُرمى رأسي الدامي على التراب.

وراضٍ بفناء نفسي ومالي وجسدي، وأن تنـــزل عليّ أنواع المصائب.

لو كذبتُ لكنت راضيا بعقوبة الكاذبين.

ولكن لو ظللَتَ أنت منكرا بعد ذلك أيضا حلّت بك لعنة من الله تعالى.

فمن أعرض عن هذه الأمور فهو ليس إنسانا، بل هو قاطع طريق.

يا ربّ استأصِل الخبثاء من جذورهم؛ الذين يتركون الحق ظلما منهم.

والذين لا قلوب لهم ولا عيون ولا آذان، ومع ذلك يتمردون على هذا البدر الأتم.

إن مدار دينهم على القصص، يقولون بلسانهم ولكن قلوبهم غير مطمئنة.

هناك بُعد شاسع بين الرؤية والسماع، فليمرِّغ رأسه بالتراب من لم يفهم هذا الأمر.

أيها الناقص؛ ابحث عن المعرفة، وإلا ستبقى فاشلا وناقصا في مرامك.

لو كان الأساس كله على السماع فقط، لما زاد ذلك في الصدق والصفاء شيئا.

إن سماع مئات آلاف القصص لا يساوي قط رؤية العين شيئا.

إن الدين هو الذي نوره باقٍ إلى الأبد ويسقي كأس المعرفة في كل حين وآن.

لا تعلِّق قلبك بأحد سوى حَسِين يُريك بجماله آياتٍ بالغةً درجة الكمال.

أَزِل عماك وانظُرِ القمرَ، فقم يا أيها المتسول وانظر إلى هذا الملِك.

انظر إلى وجهه وملامحه وقدِّه وتوسَّمْ فيه مئات الميزات كميزات أهل الجمال.

اترُك الأنانية نهائيا لوجه الله لكي تشرب كؤوس لقاء الله.

إن دين الحق مدينة الله ذي المجد والعلاء، ومَن دخلها كان آمنا.

إنه يجعل المرء صالحا وطيبا في لمح البصر، ويجعله جميلا ومحبوبا كمثله.

تقدَّم يا عزيزي إلى أهل السعادة لكي تكون أنت أيضا من السعداء يوما ما.

يا من تنكر الحق بالغباوة والبُغض الشديد عليك أن تطرق باب الحق، ولا تُلقِ بنفسك إلى التهلكة.

وابتهل إلى الله قائلا: فُكَّ يا ربيّ سلاسل ثقيلة في قدمَيَّ.

ولعلَّ يدا غيبية تحملك بعد سقوطك نتيجة تضرعاتك الأليمة.

إن الأعمال ناقصة بدون فضل من الله ولطفه، ولا يدرك هذا السر إلا أولو الألباب والسلام". منه [٩٤]



[٩٤] *قصيدة فارسية مترجمة. (المترجم)*

الحاشية الرابعة على الحاشية رقم١١:

كنت قد وصلت إلى هنا إذ جاءني شخص موحِّد يُدعى "شهاب الدين" من قرية "غلام نبي" وقال بأن المولوي غلام علي والمولوي أحمد الله الأمرتسري، والمولوي عبد العزيز وغيرهم من المشايخ يُنكرون بإصرار شديد إلهاما يُماثل وحي الرسل، بل يحسبه بعض هؤلاء المشايخ كأفكار المجانين. وحجتهم في هذا أنه إذا كان هذا الإلهام صحيحا وحقا لكان أصحاب النبي ﷺ أحقّ وأَولَى بتلقّيه، ولكن لا يثبت أنهم تلقوا أي إلهام.

أقول أنا أحقر العباد: إذا كان هذا الاعتراض الذي قدّمه المولوي شهاب الدين الموحِّد، نيابة عن المشايخ، من بنات أفكارهم، فليعلم كل طالب صادق وهؤلاء المشايخ في جوابه أن عدم العلم بشيء لا يستلزم عدم وجوده. أليس ممكنا أن الصحابة ﷺ قد تلقّوا هذا النوع من الإلهامات ولكنهم ما أشاعوها بوجه عام لحكمة ومقتضى الحال؟ والمعلوم أن لله تعالى حِكمًا مختلفة في أزمنة مختلفة، فكان مقتضى حكمة الله في زمن النبي ﷺ ألا تُسجَّل إلهامات غير النبي على غرار وحي النبي حتى لا يختلط وحيه مع كلام غيره. أما أولياء الله وأصحاب الكمالات الباطنية الذين خلَوا بعد هذا الزمن فإن إلهاماتهم مشهورة ومعروفة، وظلّت تسجَّل في كل عصر. ويمكن الرجوع إلى كتب الشيخ عبد القادر الجيلاني ومجدد القرن الثاني عشر *(الإمام الرباني الشيخ أحمد السرهندي)* وكُتب غيرهما من أولياء الله للاطلاع على ما فيها من إلهاماتهم الكثيرة، بل يقول الإمام الرباني في المكتوب رقم ٥١، المجلد الثاني من كتابه "مكتوبات"، بكل صراحة إن غير النبي أيضا يُشرَّف بمكالمات الله ومخاطباته، ويُسمَّى بالمحدَّث، وتكون مكانته قريبة من مكانة الأنبياء. كذلك صرّح الشيخ عبد

القادر الجيلاني بالأمر نفسه في عدة أماكن من كتابه "فتوح الغيب". لو بحثنا عن ملفوظات أولياء الله ومكاتيبهم لوجدنا مثل هذه الكلمات في بياناتهم بكثرة. وإن منصب المحدَّثية ثابت في الأمة المحمدية بكثرة ولا ينكره إلا جاهل أو غافل شديد الغفلة. لقد خلا في هذه الأمة إلى يومنا هذا آلاف من أولياء الله الكمَّل الذين ثبتت وتحققت خوارقهم وكراماتهم مثل أنبياء بني إسرائيل. وسيعرف الباحث في الموضوع أن الله ﷻ كما سمَّى هذه الأمة خير الأمم، كذلك وهب أكابرها كمالات أكثر من غيرهم لا يمكن أن تُخفى بحال من الأحوال. وإن إنكارها كتمان للحق من الدرجة القصوى.

وأقول أيضا بأن التهمة القائلة بأنه لا تثبت إلهامات الصحابة من هذا النوع، هي تهمة باطلة وفي غير محلها تماما، لأن إلهامات الصحابة الكرام ﷺ وخوارقهم ثابتة من الأحاديث الصحيحة بكثرة. بماذا يمكن تفسير اطلاع عمر ﷺ بإعلام من الله تعالى على الحالة الخطيرة لجيش "سارية" -كما رواه البيهقي عن ابن عمر- إن لم يكن ذلك إلهاما؟ ثم صدور صوت: "يَا سَارِيَة الْجَبَلَ الْجَبَلَ" من فم عمر ﷺ وهو في المدينة، وسماع سارية وجنوده هذا الصوت على مسافة بعيدة بقوة غيبية، لم يكن إلا أمرا خارقا للعادة. وزدْ إلى ذلك بعض الإلهامات والكشوف المشهورة والمعروفة لعلي المرتضى كرّم الله وجهه.

وبالإضافة إلى ذلك أتساءل: ألا تكفي للإطمئنان شهادةُ الله تعالى في القرآن الكريم في ذلك؟ ألم يقل الله تعالى بحق الصحابة ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [٩٥] فما دام الله تعالى يعُدّ صحابة نبيِّه الأكرم أفضل وأعلى من جميع الأمم السابقة في جميع الكمالات، ومن ناحية أخرى يبين حالة الكمَّل من الأمم الأخرى كغيض من فيض ويقول إن مريم الصديقة، أم عيسى، وكذلك أمّ موسى وحواريي المسيح عليه السلام والخَضِر كانوا ملهَمين من الله وكانوا يُطلَعون

[٩٥] آل عمران: ١١١

على أسرار غيبية بوحي الإعلام مع أنه لم يكن أحد منهم نبيًّا. فلا بد من التدبر ماذا يُستنبَط من ذلك، ألا يثبت منه أنه يجب أن يكون الأتباع الكمَّل من الأمة المحمدية ملهَمين ومحدَّثين بوجه أَولى من هؤلاء القوم إذ أنهم خير الأمم بحسب تصريح القرآن الكريم؟ لماذا لا تتدبرون القرآن ولماذا تخطئون في التفكير؟ ألا تعرفون أنه ثابت من الصحيحين أن النبي ﷺ قد بشَّر هذه الأمة أنه سيكون فيها محدَّثون كالأمم السابقة؟ والمحدَّثون هم الذين يحظون بمكالمات الله ومخاطباته. وتعلمون أيضا أنه قد جاء في قراءة ابن عباس: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدَّث إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته". فبحسب هذه القراءة التي نقلها الإمام البخاري أيضا، يثبت على وجه القطع واليقين إلهام المحدَّث الذي لا يبقى فيه دخل للشيطان. والمعلوم أنه إذا كان إلهام الخَضِر وأم موسى مجموعة من الشكوك والشبهات فقط وما كان يقينيا وقطعيا، فكيف جاز أن يوقِع شخصا بريئا في خطر أو يوصله إلى الهلاك، أو يقوم بأيّ عمل آخر لا يجوز شرعا وعقلا. لا شك أن علمه كان يتّسم باليقين، لذلك وجب عليه ذلك العمل وجازت له الأمور التي لا تجوز للآخرين قط.

وبالإضافة إلى ذلك يجب التفكّر بإنصاف أنه لا يمكن أن يتزلزل بالأفكار الظنية أمرٌ مشهود ثبت صدْقه بالتجارب الصحيحة. والظن لا يُغني عن الحق شيئا. فلا يوجد في إلهاماتي شيء سرِّيٌّ أو مستور في الحُجُب. بل إنه أمر جاء سالما آمنا مع مروره من بوتقة مئات الاختبارات. وقد رزقني الله تعالى فتحا واضحا في نزاعات كبيرة.

لقد تذكرت هنا أن الرؤيا الصادقة التي كتبتها في الجزء الثالث من الكتاب عن قضية رُفعت ضد هندوسي تلقيت فيها -عند نزاع وإنكار عجيب- إلهاما أدّى إلى درء قلق وكرب شديد. وبيان ذلك أني أُخبرت في هذه الرؤيا الصادقة -التي كانت نوعا من الكشف الصريح- أنه لن يُطلق في القضية الجنائية سراح

الهندوسي المدعو "بشِمبر داس" الذي ما زال حيا يُرزق في قاديان، بل ستُخفَّف عقوبته إلى النصف. أما صاحبه في السجن المدعو "خوشحال" الذي أيضا ما زال موجودا حيا في قاديان، فسوف يقضي مدة عقوبته كاملة. فكان الابتلاء في هذه الجزئية من النبوءة أنه حين عاد ملف القضية -بحسب نبوءتي- من المحكمة العليا، حمل فريق القضية هذا الأمر على البراءة، وأشاعوا في القرية أنه قد بُرِّئت ساحة المتهمَين كِليهما في القضية.

أذكر تماما أن هذا الخبر شاع ليلا حين كنت في المسجد لأداء صلاة العشاء، فقال أحد المصلين بأن هناك خبرا شائعا في الأسواق أن المتَّهمَين قد وصلا القرية. ولما كنت قد قلت للناس علنا إنه لن يُفرج عن المتهمَين قط، فقد مضى هذا الوقت في حزن وقلق وكرب لا يوصف. عندها بشّرني الله تعالى -الذي هو نصيري في كل موطن- قبيل الصلاة أو أثناءها بإلهام نصه: "لا تخف إنك أنت الأعلى". ثم تبين عند الفجر أن خبر الإفراج عنهما كان كاذبا تماما، وتحقق في نهاية المطاف ما كنتُ قد أُخبرت به وما كنت قد سردتُه قبل الأوان للآري "شرمبت" وأيضا بعض الناس الآخرين الذين لا يزالون موجودين في قاديان.

ثم حدث حادث مروع آخر وهو أكثر غرابة من سابقه، وبيانه أني أُرِيتُ في المنام عن قضية -كانت مرفوعة من قبل والدي المرحوم ضد أحد المزارعين حول حق التملك في المزرعة- أن الحكم فيها سيصدر لصالح والدي. فسردت الرؤيا فورا لآريٍّ لا يزال موجودا في قاديان. ثم حدث أن حضر المدّعَى عليه فقط في المحكمة مع بعض شهوده في المرة الأخيرة من اليوم المحدد للمثول أمام المحكمة، ولم يحضر من جانبنا أحد من المخوَّلين. ثم عاد المدّعَى عليه والشهود جميعا إلى القرية مساء وأدلوا ببيان أن القضية قد رُفضت. فبسماع هذا الخبر قام الآري المذكور بالتكذيب والاستهزاء. إن القلق والكرب الذي أصابني حينها لا يمكن بيانه، لأنه ما كان يبدو أن بيان فئة كبيرة لا علاقة لهم بالموضوع كان

خاطئا. ففي حالة الحزن والغم الشديد تلقيت إلهاما بقوة متناهية واقتحم قلبي كمسمار حديدي وتعريبه: "لقد ربحتَ القضية. مسلم؟" أيْ ألا تؤمن وتفسح للشك مجالا مع كونك مسلما؟! ثم تبين بعد البحث والتحقيق أن الحكم في القضية كان قد صدر لصالحنا فعلا، وقد أخطأ الفريق الثاني في سماع الحكم.

وكذلك تلقيتُ مئات الإلهامات حقًّا -دون شائبة من المبالغة- وقد تحققت كفلق الصبح. وهناك كثير من الإلهامات التي تحتوي على أسرار لا أستطيع بيانها. وقد حدث مرارا أن تلقيت إلهاما واضحا بحضور المعارضين تماما فما وسعهم إلا الإقرار عند تحققه.

قبْل بضعة أيام أصابني في بعض الأمور حزنٌ ذو ثلاث شعب لم أجد منه مخرجا، ولم يظهر لي بصيص أمل غير الحرج والخسارة. فخرجت في ذلك اليوم إلى البرية للتنـــزه كعادتي قرب المساء، وصحبني في ذلك آريٌّ اسمه "ملاوا مل" وحين عدتُ من التنـــزه تلقيت قرب باب القرية إلهامًا: "نُنَجِّيْكَ مِنَ الغَمِّ". ثم أُلهِمت مرة أخرى: "نُنَجِّيْكَ مِنَ الغَمِّ، أَلَـــمْ تَعْلَمْ أَنّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ؟"

وفي الحال أخبرتُ به ذلك الآريَّ. ثم كشف الله عني الهم ذا الثلاث شعب، فالحمد لله على ذلك.

ومن المفاجئات الغريبة أيضا أنه حين سرد الموحِّد "شهاب الدين" رأي المشايخ المذكورين، تلقيت في الليلة نفسها إلهاما باللغة بالإنجليزية سردتُه لشهاب الدين:

"Though all men should be angry but God is with you. He shall help you. Words of God can not exchange"

أي: وإنْ سخط منك الناس جميعا، إلا أن الله معك. سينصرك الله. لا تبديل لكلمات الله. كذلك تلقيتُ إلهامات أخرى أيضا أكتبها فيما يلي: "الخَيْرُ كُلُّهُ فِي القُرْآنِ، كِتَابُ اللهِ الرَّحْمَنِ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ. وَهُوَ الذِي يُنَـــزِلُ الغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ" أي يتوجه الله الكريم إلى تجديد الدين عند الضرورة بعينها. "يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه. وَكَذَلِكَ مَنَنَّا عَلَى

يُوْسُفَ لِنصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ. وَلِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُوْنَ." المراد من يوسف هنا هو أنا العبد المتواضع، وقد أُطلق عليّ هذا الاسم بسبب مشابهة روحانية. والله أعلم بالصواب. ثم قال تعالى بعد ذلك: "قَلْ عِنْدِي شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ فَهَلْ أَنْتُم مُؤمِنُونَ. إنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِيْنِ. رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ مِنَ السَّمَاءِ. رَبُّنَا عاج. رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْه. رَبِّ نَجِّنِي مِنْ غَمِّي. إيلي إيلي لما سبقتني؟" إن ألطافك جعلتْنا متجاسرين.

أي.... أفلا تؤمنون؟ أي أن تأييد الله لي، وإطْلاعَه إياي على أسرار الغيب، وإنباءَه بأخبار المستقبل قبل وقوعها، واستجابتَه لأدعيتي، وإلهامَه إليّ بلغات مختلفة، وتعليمَه إياي المعارفَ والحقائق الإلهية، كلّ هذه شهادة من الله بحقي يجب على المؤمن قبولها... لم ينكشف علي معنى: "ربنا عاج"... هذه كلها أسرار تنطبق على مواعيدها، وعلْمها عند الله عالم الغيب. ثم قال تعالى بعد ذلك: "هو شعنا نعسا". لعل هاتين الجملتين عبريّتان، و لم ينكشف علي معناهما حتى الآن. ثم أُلهمت جملتين بالإنجليزية ولا أعلم إلى الآن مدى صحة كلماتهما لسرعة الإلهام وهما:

"I love you. I shall give you a large party of Islam" ما دام لا يوجد هنا اليوم شخص مثقف بالإنجليزية و لم تُكتشَف معانيها جيدا، لذا اكتفيت بكتابتهما دون ترجمتهما. ثم تلقيتُ بعد ذلك إلهاما: "يَا عِيْسَى إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذِيْنَ كَفَرُوا، وَجَاعِلُ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِيْنَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرِيْنَ." أيْ: يا عيسى سأعطيك أجرًا كاملا، أو أُميتُك، وأرفعُك إليّ، أي: سأرفع درجاتك، أو سأرفعك إليّ من الدنيا، وسأجعل أتباعَك غالبين على المنكرين إلى يوم القيامة، أي سأجعل الذين يتّبعون عقيدتك وطريقتك غالبين على المنكرين بالحجة والبرهان والبركات إلى يوم القيامة. هناك فئة من الأولين وهناك فئة من الآخرين. المراد من عيسى هنا هو أنا العبد المتواضع.

ثم ألهم الله إليّ بالأردية *ما تعريبه*: إني سأري بريقي، وأرفعك من قدرتي. جاء نذير في الدنيا، فأنكروه أهلها وما قبلوه، ولكن الله يقبله، ويُظهر صدقه بصول قويٍّ شديدٍ صول بعد صول.

"الفِتْنَةُ هَهُنا. فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ". أي أن في هذا المقام فتنة، فاصبر كما صبر أولو العزم من الأنبياء. "فَلَمَّا تَجَلّى رَبُّه لِلجَبَلِ جَعَلَه دَكًّا". أي عندما سيتجلى الله على جبال المصائب سيدكّها دكًّا. "قُوَّةُ الرَّحْمَنِ لِعبيدِ الله الصَّمَدِ." أي هذه قوة الله التي سيُظهرها الله الغني لعبده. "مَقَامٌ لا تَتَرَقَّى الْعَبْدُ فِيْه بِسَعْيِ الأَعْمالِ". أيْ كون المرء عبدا لله الصمد مقام يُعطَى كموهبة خاصة، ولا يُنال بالسعي. "يَا دَاوُدُ عَامِلْ بالنَّاسِ رِفْقًا وَإِحْسَانًا. وَإِذَا حُيِّيْتُمْ بِتَحيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ".

"You must do what I told you" أي: عليك أن تفعل بما قلته لك.

"اُشْكُرْ نِعْمَتِي رَأَيْتَ خَدِيْجَتِي. إِنَّكَ اليَوْمَ لَذُوْ حَظٍ عَظِيْمٍ. أَنْتَ مُحَدَّثُ الله، فِيْكَ مَادَّةٌ فَارُوْقِيَّةٌ." أي... اشكرْ نعمتي على أنك قد وجدتَها قبل الأوان.

"سَلامٌ عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيْمُ. إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ أَمِيْنٌ، ذُوْ عَقْلٍ مَتِيْنٍ. حِبُّ الله، خَلِيْلُ الله، أَسَدُ الله. وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ". أي كلُّ ذلك إنما هو نتيجة اتّباعك ذلك النبيَّ الكريم ﷺ. "مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ سَهُوْلَةً فِي كُلِّ أَمْرٍ، بَيْتُ الْفِكْرِ وَبَيْتُ الذِّكْرِ. وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا"

أي ... ألم نسهل عليك الأمور كلها إذ أعطيناك بيت الفكر وبيت الذكر. ومن دخل بيت الذكر بإخلاص وبقصدِ التعبد وصحة النية وحسن الإيمان أَمِنَ سوء العاقبة. والمراد من بيت الفكر هو الطابق العلوي الذي اشتغلتُ ولا أزال أشتغل فيها في تأليف الكتاب. والمراد من بيت الذكر هو المسجد الذي شُيِّد بجانبه. وقد جاءت الجملة الأخيرة في نعت هذا المسجد، وتدل على تاريخ بناء المسجد أيضا بحسب حساب الجمّل، وهي: "مُبَارَكٌ وَمُبَارَكٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُبَارَكٍ

يُجْعَلُ فِيْه". [٩٦] ثم قال تعالى بحقي: "رُفِعْتَ وَجُعِلْتَ مُبَارَكًا، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبسُوْا إيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ." أي... الذين يؤمنون بتلك الأنوار والبركات التي منحك الله إياها، إيمانًا نابعًا عن إخلاص ووفاء، أولئك سيأمنون طرق الضلال وأولئك هم المهتدون عند الله تعالى.

"يُرِيدُونَ أنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله، قُل اللهُ حَافِظُه. عِنَايَةُ الله حَافِظُكَ. نَحْنُ نَزَّلْنَاهُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، اللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَّهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَيُخَوِّفُونَكَ مِنْ دُونه. أئِمَةُ الْكُفْرِ. لاَ تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأعْلَى. يَنْصُرُكَ اللهُ فِي مَوَاطِنَ. إنَّ يَوْمِي لَفَصْلٌ عَظِيمٌ. كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنَا وَرُسُلِي. لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه. بَصَائِرُ لِلنَّاسِ. نَصَرْتُكَ مِن لَّدُنِّي. إنِّي مُنَجِّيكَ مِنَ الْغَمِّ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا. أنْتَ مَعِي وَأنَا مَعَكَ. خَلَقْتُ لَكَ لَيْلاً وَّنَهَارًا. اِعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكَ، أنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةٍ لاَ يَعْلَمُهَا الْخَلْقُ."

أي سيريد المعارضون أن يطفئوا نور الله،... ويخوّفونك من أمور كثيرة. هؤلاء هم أئمة الكفر. لا تخفْ لأنك أنت الغالب بالحجة والبرهان والقبول والبركة. وسينصرك الله في مجالات كثيرة، أي يجعلك غالبًا في المناظرات والمجادلات. إن يومي سيميّز بين الحق والباطل تمييزًا واضحًا... إن أفعال الله هذه حجة لكشف صدق الدين. سوف أنصرك من عندي... ليس المراد من الجملة الأخيرة في الوحي أنه قد أُحِلَّ لك الآن ما نهى عنه الشرعُ، بل المراد أن ما نهى عنه الشرع قد جُعل مكروهًا في نظرك وأُلقيَ حُبُّ الصالحات في فطرتك، وكأن رضا الله تعالى قد جُعل رضا هذا العبد وحُبِّبتْ إليه الإيمانيات كلها كمقتضى فطرته. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

"وَقَالُوا إنْ هُوَ إلاَّ إفْكٌ افترَى، وَمَا سَمِعْنَا بهذَا فِي آبائِنَا الأوَّلِيْنَ. وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَفَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ. اجْتَبَيْنَاهُمْ وَاصْطَفَيْنَاهُمْ كَذَلِكَ

---

[٩٦] *هذه الجملة بحساب الجمّل تساوي ١٣٠٠، وقد بنى عليه السلام المسجد سنة ١٣٠٠هـ. (المترجم).*

لِيَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ. أمْ حَسِبْتُمْ أنَّ أصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، قُلْ هُوَ اللهُ عَجِيبٌ. كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ. وَجَحَدُوْا بهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أنْفسُهُمْ ظُلْمًا وَّعُلُوًّا. سَنُلْقِي فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ. قُلْ جَاءَكُمْ نُورٌ مِّنَ اللهِ فَلاَ تَكْفُرُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. سَلاَمٌ عَلى إبْرَاهِيمَ، صَافَيْنَاهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ. تَفَرَّدْنَا بِذَلِكَ فَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى". أي... سيقولون ليس هذا إلا افتراء اختلقه من عنده، ما سمعنا به من أوليائنا الأسلاف. والحق أن بني آدم لم يُخلقوا سواسية، بل قد فضّل الله بعضهم على بعض، واجتباهم على غيرهم، وهذا هو الحق، ليكون ذلك آية للمؤمنين. أتحسبون أن عجائبنا قد انتهت عند أصحاب الكهف فقط؟ كلا، بل إن الله تعالى يُري العجائب دائما ولا تنقطع عجائبه أبدًا، فكل يوم هو في شأن. ففهّمْنا تلك الآياتِ سليمانَ: أيْ أنا العبدَ المتواضع... "تَفَرَّدْنَا بِذَلِكَ" أي نحن الذين فعلنا ذلك. "فَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى" أي فلتتأسَّوا بأسوة إبراهيم، أي اسألوا هذا العبد المتواضع عن السبيل الحقيقي للرسول الأكرم ﷺ -الذي قد اشتبه على كثير من الناس في العصر الراهن، إذ صار بعضهم متمسكين بظاهر الكلمات كاليهود، وبعضهم الآخرون أخذوا يعبدون الخَلْق كالمشركين- ثم اسْلكوه.

"إن الذين يضحكون اليوم على الذين يشربون من الخمر ثمالتها، أخشى عليهم أنهم يضيعون إيمانهم في هذه الأمور السخيفة"[٩٧]

ربّ اغفر وارحم.

"إن بعض الأصدقاء يعترضون عليّ ويقولون: لماذا علّقتُ بك قلبي؟ ولكن عليهم أن يسألوك لماذا أنت بهذا الجمال الخلاب؟"[٩٨]

والفضل من الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. منه.

❁❁❁❁❁

[٩٧] *ترجمة بيت فارسي. (المترجم)*

[٩٨] *ترجمة بيت فارسي. (المترجم)*

بسم الله الرحمن الرحيم

فهارس البراهين الأحمدية

فهرس الآيات

الفاتحة

فهرس الأحاديث

فهرس الإلهامات

فهرس المواضيع

الإلهام إلى غير النبي

د، ذ، ر، ز

س، ش، ص، ض

ط، ظ، ع، غ

فهرس الأسماء

ع، غ

ن هـ و ي

فهرس الأماكن

فهرس الكتب